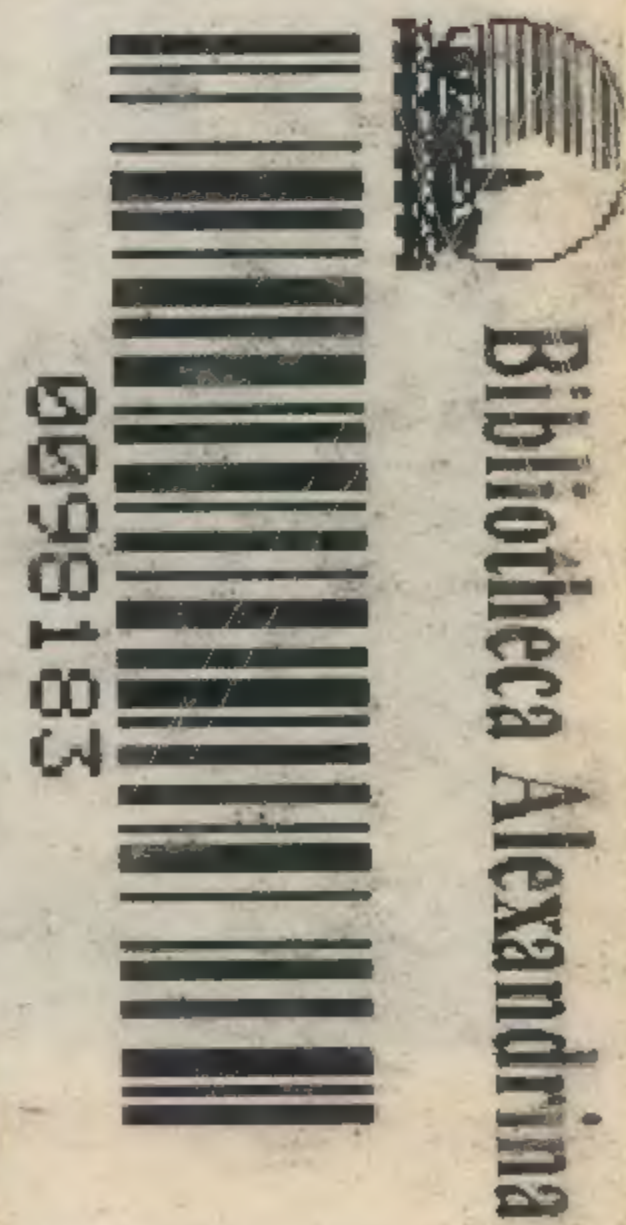


د. يوسف جميل نعيمة

مجتمع مدينة دمشق

١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ

١٧٧٢ - ١٨٤٠ م



الجزء الثاني



للدراسات والترجمة والنشر
دمشق — أوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ — ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص. ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

بيع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

مجتمع مدينة دمشق

١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ

١٧٧٢ - ١٨٤٠ م

جميع الحقوق محفوظة
دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الثانية ١٩٩٤

د. يوسف جميل نعيمة

مجتمع مدينة دمشق

في الفترة ما بين

١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ

١٧٧٢ - ١٨٤٠ م

في جزئين

الجزء الثاني

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

الفصل الثالث

أوضاع دمشق
الدينية والعلمية

أهمية دمشق السياسية والدينية

المدارس ودور العلم — مناهج التعليم ومراحلها — التعليم في مدارس استانبول — التعليم في ظل الحكم المصري — التدريس في الجامع الأموي — الاجازات والشهادات العلمية — المكتبات والمراكز الثقافية — رجال الدين والمدرسون — المتصوفون وأهم طرقهم في دمشق — القضاة — المفتون — الأشراف — أوقاف دمشق ودورها الاجتماعي — ضروب الحيل للسطو على أموال الأوقاف .

أهمية دمشق السياسية والدينية

كانت دمشق إحدى الحواضر العربية الاسلامية الكبرى بوصفها عاصمة للأمميين ، رغم ماأحاطها من ظروف سيئة بعد عهدهم ، وعلى جانب من الالهية السياسية والاستراتيجية كحاضرة أساسية لبلاد الشام . وأضاف العثمانيون الى أهميتها السياسية أهمية دينية^(١) بعد احتلالها ، فاعتبروها رابع المدن الاسلامية بعد مكة والمدينة والقدس^(٢) .

ولهذا الاعتبار مايرره ، فهي موطن أو مدفن لعديد من الأنبياء وأزواج النبي وأحفاده وأساطله والصحابة والتابعين والصالحين^(٣) ، وكانت مركزاً لتجمع قوافل الحجاج المسلمين الوافدين من المناطق الاسلامية الشمالية والشرقية^(٤) ، وكانت ذات أهمية دينية لغير المسلمين

(١) يرى ابن الحراني وغيره من علماء دمشق ، أن ذكر دمشق قد ورد في أكثر من موقع من القرآن الكريم والاحاديث الشريفة . انظر كتابه زيارات الشام المسمى : (الإشارات إلى أماكن الزيارات) ص ٢ وص ٤ وص ٣ ، دمشق المطبعة العملية سنة ١٣٢٧ هـ .

(٢) انظر : ابن عبد الرزاق الدمشقي المتوفى ١١٠٣ هـ / كناش في ظاهرية دمشق / تحت رقم عام ٣٧ ، وكان ترتيب القضاة في الدولة العثمانية على الشكل التالي : قاضي العسكر وقاضي استانبول في مرتبة واحدة وقاضيا مكة والمدينة في مرتبة واحدة ثم قاضيا بروسه وأدرنة ثم قاضيا مركزي الخلافة الاسلامية دمشق والقاهرة . أنظر : رافق . بلاد الشام ومصر ، ص ٨٤ .

(٣) انظر المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر ج ٢ ، ص ١١٢ .

(٤) انظر السيوفي ، حبيب ، سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر . ج ٢ . ص ٢٥٧ .

خاصة المسيحيين منهم . ففيها موطن قدم بولس الرسول . ابان انتشار المسيحية في مراحلها الأولى كما كانت مرقد لرفاه عدد من القديسين المسيحيين ، حيث أنشأ المسيحيون إلى جوارهم كنائس مقدسة^(١) .

وأخذ العثمانيون بعين الاعتبار أهمية دمشق الدينية من خلال مراعاتهم لوضع دمشق في تدرج المناصب القضائية في الامبراطورية ، وأطلقوا عليها (شام شريف) . وبقيت دمشق إلى أواخر فترة دراستنا تحافظ على ملامح عصر الركود كما بقيت مغلقة في وجه غير المسلمين إلا من جاءها متنكرا .

ومن جهة أخرى فقد شجعت الدولة العثمانية روح التعصب ، لتسد دمشق في وجه الأوروبيين الطامعين في ممتلكاتها ، خاصة وأن ميزان القوى قد رجع كلياً لصالحهم في هذه الفترة . فرأت في تأجيج روح العداء الموروثة من الحروب الصليبية ما يخدم مصالحها . وساعدت على استمرار أعمال القرصنة في المتوسط ضد الأوروبيين كظاهرة من ظواهر الجهاد^(٢) .

وبقيت دمشق على حالها الى أن دخلت تحت حكم ابراهيم باشا المصري ، الذي سعى لتغيير الأحوال السائدة ليس في دمشق فحسب بل في بلاد الشام بادخاله قوانين علمانية عديدة واصلاحات وتغييرات ذات سمة غربية ، مما شكل الخطوة الأولى في سبيل التغيير الكبير الذي سيطرأ على دمشق وبلاد الشام فيما بعد ، في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وغيرها ، والتي كانت في معظمها بفعل المؤثرات الغربية .

(١) انظر : سمارة ، يوسف ، سورية ملتقى الحضارات . ص ٣٢ وص ٣٣ .

(٢) انظر : المرادي . سلك الدرر ج ٢ ، ص ١٠٣ .

المدارس ودور العلم

كان مفترضاً أن يسهم نظام التعليم ومؤسساته ومناهجه في صهر أبناء دمشق في بوتقة واحدة، إلا أنه لم يحقق ذلك لسمته الدينية، فقد كان وفقاً على المسلمين دون أهل الذمة كونه امتداداً للعصور السابقة (تعليم ديني)، حيث انصب اهتمام المدارس على تدريس أنهم أولوا أهمية خاصة لمدارس الأحناف، على اعتبار أن المذهب الرسمي للدولة كان مذهب أبي أن أولوا أهمية خاصة لمدارس الأحناف، على اعتبار أن المذهب الرسمي للدولة كان مذهب أبي حنيفة النعمان^(١). ولم تبق هذه المدارس على حالتها السابقة سليمة البناء والعطاء، بل تهدم جلها ولم يعد ترميمه، وتحول بعض ما تبقى منها عن مهمة التدريس، فأصبح مسجداً أو دار سكن أو نادياً للصوفية، أو مستودعاً وهكذا، فمثلاً المدرسة البيانية أصبحت جامعاً فحسب، وكان إمامه سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ - ١٧٩١ فخر الاعيان الشيخ درويش بن الشيخ عيسى^(٢)، والمدرسة القليجية قام بترميمها أحمد القادري بعد خرابها في فتنة تيمورلنك، وأقام الذكر فيها وأسكن في حجراتها عدداً من الفقراء^(٣).

-
- (١) تطالعنا كتب الإخباريين والحوليات والتاريخ بشكل عام بأخبار تلك المدارس كما برر ذكرها في سجلات محاكم دمشق. خاصة فيما يتعلق بمسؤوليها ونظارها وموظفيها المتعددين وبأخبار تربها وأوقافها وبأخبار من تحنّف من أبناء المذاهب السنية الأخرى طمعا في الحصول على وظائفها أو الوظائف الدينية الأخرى.
- (٢) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص ١٤٣ وص ١٤٤.
- (٣) انظر المحبي، محمد. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. ج ١. ص ٢٠٧، وص ٢٠٨.

وكان لمدارس دمشق سجلات خاصة بها ، حفظت لدى قاضي القضاة أو لدى نظار أوقافها^(١) . وتحول بعضها الى منزل لنواب قاضي القضاة وغيرهم من الاروام ، كالمدرسة المجاهدية الجوانية^(٢) أو تحول بعضها الى مدافن^(٣) فحسب . وما أنشئ من هذه المدارس في العهد العثماني كان قليلا إذا ما قيس بما أنشئ في العهود السابقة ، وأكثرها ما أنشئ في الفترة السابقة لدراستنا ، أي في النصف الاول من القرن الثامن عشر .

وكانت أهداف المدارس التي أنشئت في العهد العثماني في دمشق هي نفس الاهداف التي أنشئت من أجلها في العهود السابقة . فهي أهداف دينية بحتة ، وكانت في معظمها للأحناف دون سواهم من المذاهب السنية الأخرى . أما منشؤ هذه المدارس فكانوا من الولاة والدفتردارين وكبار رجال الدين وغيرهم . وتم انشاؤها ما بين ١١٣٢ — ١١٩٢ هـ / ١٧٢٠ — ١٧٧٩ م ويمكن تفسير ذلك بوضع دمشق الاقتصادي والسياسي الجيد اذا ما قورن بوضع مثيلاتها من المدن الشامية الأخرى ، أو بوضع دمشق نفسها في الفترة اللاحقة (فترة دراستنا) .

ولقد انشأ معظم هذه المدارس ولاية دمشق من آل العظم ، الذين أقاموا بالإضافة الى ذلك ، منشآت ذات نفع عام ، ساعين من خلال ذلك لترسيخ نفوذهم السياسي في دمشق بعد حماه . وفيما يلي نورد أسماء المدارس العثمانية في دمشق وهي : المدرسة المرادية الجوانية التي بنيت جنوب المدرسة الظاهرية عام ١١٣٢ هـ / ١٧٢٠ م ، وكانت تسمى أزهر دمشق^(٤) ، ثم المدرسة النقشبندية البرانية التي بناها الشيخ مراد المرادي في سوق صاروجا ، ثم مدرسة الوالي اسماعيل باشا العظم في سوق الخياطين باطن دمشق ، بناها الوالي المذكور عام ١١٤١ هـ / ١٧٢٨ م ، ثم المدرسة السليمانية التي بناها سليمان باشا العظم باطن دمشق في باب البريد ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م ، ثم المدرسة الفتحية التي بناها فتحي القلانسي الذي كان دفتردار في عهد سليمان باشا العظم وأُسعد باشا العظم ، وكان بناؤها عام ١١٥٦ هـ / ١٧٤٤ م ، ثم المدرسة العبدلية التي بناها عبد الله باشا العظم

(١) انظر: الدهمان ، محمد . مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . ج ٥ ، المجلد ٢٢ / ص ٢٣٦ و ص ٢٤١

و ص ٢٤٢ و ص ٢٤٣ . ربيع الآخر . جمادى الاولى سنة ١٣٦٦ هـ / نيسان ١٩٤٧ م .

(٢) انظر : ابن بدران ، عبد القادر . مناداة الاطلال ومسامرة الخيال . ص ١٤٦ .

(٣) انظر : ابن بدران . المصدر السابق . ص ١٤٨ .

(٤) انظر : ابن بدران . مناداة الاطلال ... ص ٢٦٤ .

١١٩٢ هـ / ١٧٧٩ م^(١). هذا بالإضافة الى حلقات التدريس في التكايا العثمانية ،
السليمية والسليمانية وغيرهما ، وفي الجوامع التي أنشأوها في دمشق .

وأكثر ما يسترعي انتباهنا في فترة دراستنا بشكل عام ، ندرة مآنشيء من المدارس في
دمشق ، باستثناء فترة الحكم المصري التي كانت متميزة في هذا المجال كما سنرى . ويمكن
تفسير هذه الندرة بسوء الاحوال الداخلية والخارجية على حد سواء . فازدادت الاحن على
الدولة العثمانية وتناالت هزائمها العسكرية ، وترتب على ذلك تبعات اقتصادية ثقيلة ناهيك عن
قيام الثورة الصناعية في أوروبا التي انعكست بشكل سلبي على الأوضاع الاقتصادية في الدولة
العثمانية فسادت الفوضى السياسية في دمشق بسبب النزاعات المستمرة بين القوى السياسية
المتناحرة ، فانتفى الأمن أسُّ الازدهار الاقتصادي وجرثومته ، وضعفت سلطة الولاة وقصرت
مدتهم في مناصبهم لعجزهم عن دحر القوات الوهابية ، التي سيطرت على الاماكن المقدسة ،
ونتج عن ذلك توقف قافلة الحج وتوقف معها الرشد الاقتصادي الهام الذي ميزها عن بقية
المدن الشامية . كل ذلك انعكس سلباً على البناء والعمران في دمشق .

وأسهم في تقلص عدد المدارس في دمشق ، تطاول أيدي المختلسين على أموال أوقافها ،
فأهملوا الصرف على تلك المدارس ، ولم يقوموا بترميم أو إعادة بناء ماتهدم منها ، وتحول معظم
مابقي منها عن مهامها الاصلية ، ونسوق مثالا على ذلك ما حصل للمدرسة القجماسية التي
أصبحت سكنا لصالح الجنيني ومقرا لإحدى الطرق الصوفية . وكذلك دار الحديث الاشرفية
التي تحولت إلى حانة لبيع الخمر^(٢) ، ودار القرآن الخضيرية أقام فيها محمد المهدي المغربي
المثوفي سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ م وكان يسلك فيها المريدون ويقيم فيها الاذكار والاوراد .^(٣)
والمدرسة السمسياطية سكنها العديد من المشايخ وكانوا (يقصدون للإستخارة والفأل
الحسن)^(٤) . وأهم ماتبقى من مدارس دمشق إلى هذه الفترة هي : المدرسة القجماسية وهي
أحدى مدارس الحنفية داخل باب القصر والسعادة ،^(٥) ودار الحديث الاشرفية في

(١) انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ . ص ٩٨ الى ص ١٠٠ .

(٢) انظر : المرادي ، سلك الدرر ... ج ٣ . ص ٦٥ . ترجمة عبد الرحيم المنير ثم البيطار ، عبد الرزاق . حلية
البشر ج ٢ . ص ١٦٠٢ ص ١٦٠٣ .

(٣) البيطار ، عبد الرزاق . المصدر السابق . ج ٣ . ص ١٣٢٦ .

(٤) البيطار ، عبد الرزاق . المصدر السابق . ج ١ . ص ٦١٢ . ترجمة ذيب الحلبي .

(٥) انظر : النعيمي ، عبد القادر . الدارس في تاريخ المدارس . ج ١ . ص ٥٦٤ .

العصرونية^(١)، والمدرسة الشامية التي أصبحت داراً للافتاء^(٢)، والمدرسة الصميصاتية (السمسياطية)، والعادلية الكبرى والعادلية الصغرى ودار الحديث الناصرية^(٣)، والمدرسة الخضيرية^(٤)، والمدرسة العاذرائية^(٥)، والمدرسة الاحمدية والظاهرية والسليمانية والسليمية^(٦)، ومدرسة الشيخ عبد الرحمن الكردي باطن دمشق في محلة القباقيبة في زقاق ماين العبورين^(٧)، ثم المدرسة الحافظية بصالحية دمشق^(٨)، والمدرسة الفارسية التي كانت تعلم اللغة التركية والفارسية بالاضافة للعربية^(٩)، ثم المدرسة الصادرية^(١٠). كما ورد لبعض المدارس الاخرى في كتب التراجم، مثل الامجدية والجوزية والعذراوية والأمينية والاتابكية والبيرومية والجواهرية^(١١). ولكن معظم المصادر بما فيها سجلات محاكم دمشق الشرعية، لاتذكر إلا القليل عن طبيعة النشاط داخل تلك المدارس، وجل ماتذكره اسم من عين من المدرسين أو الائمة أو المتولين أو النظار على أوقافها، أو من سكن في إحدى حجراتها.. الخ مما يدل على اهمالها إلى حد كبير. وشاهدنا على ذلك ماورد في كتاب أحد الاخباريين الدماشقة الذين عاشوا في تلك الفترة وهو حسن آغا العبد الذي يذكر في أحداث سنة ١٢٢٢ هـ/:

«أن والي دمشق الكنج يوسف باشا قام بالتفتيش على المدارس وأمر المتولية بأن يجيبوا أرباب الشعائر وقيموا شعائرهم من تدريس وقراءة أجزاء ووعظ وغير ذلك» ويعلق حسن آغا العبد على ذلك بقوله: «وصار في ذلك الأمور لأرباب المتولية تبين»^(١٢). كما يورد محمد خليل

-
- (١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص ١٣٥. ثم البيطار المصدر السابق ج ٢. ص ٧٩٢.
 - البيطار. المصدر السابق. ج ٣، ص ١١٣٤.
 - (٢) المصدر السابق. ج ٣، ص ١١٨٦.
 - (٣) المصدر السابق. ج ٣، ص ١٣٢٦.
 - (٤) المصدر السابق. ج ٣، ص ١٥٩٤.
 - (٥) المصدر السابق. ج ١. ص ٩٦ وص ٢٤١ وص ٣٧٤. وج ٢. ص ٧٤٩.
 - (٦) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦ - ١٢١٧ هـ، ص ٥٠.
 - (٧) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥/١٢١٠ - ١٢١١ هـ ص ٥٥.
 - (٨) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ص ٢٦٧.
 - (٩) انظر: الحصني، محمد أديب منتخبات لتواريخ دمشق. ج ٢. ص ٦٥٨ وج ٤، ص ١٣٠.
 - (١٠) انظر: المرادي، محمد خليل. سلك الدرر في تاريخ القرن الثاني عشر. ج ١. ص ٢٢ وص ٤٥. وص ٦٢.
 - (١١) وص ٦٧ وص ٦٨ وص ١١٢ وص ١١٧ وص ١١٨ وص ٢١٤ وص ٢١٩ وص ٢٥٠.
 - (١٢) انظر: تاريخ حسن آغا العبد. ص ١٤٢ وص ١٤٣.

المرادي في أكثر من موضع من كتابه : سلك الدرر ... أن بعض الولاة أصدرُوا أوامرهـم للمدرسين «بأن يلازموا الدروس والإقراء.... واستمر ذلك قليلا ثم عاد كل لأصله»^(١).

ومن جهة أخرى فقد أمكن رصد أسماء بعض موظفي تلك المدارس . فكان منهم ، المحدث وشيخ الرواية والحافظ والمفسر والمدرس والمعيد والمفيد والمنتهي والفقيه وكاتب الغيبة وضابط الأسماء ومعلم الكتاب والقاص وقارئ الكراسي والواعظ^(٢) وخازن الكتب والمؤذن والبواب وغيرهم . وكان لكل واحد من هؤلاء ، واجباته المحددة ، أما راتبه فقد حدد بدوره ، سواء من النقود أو المواد العينية التي كانت تصرف له من أوقافها . ولقد ربطت هذه المدارس بقاضي قضاة دمشق ، وتم تعيين نظار ومتوليي أوقافها ومدرسيها وموظفيها من قبل شيخ الإسلام في استانبول . وعند ورود تعيينهم من استانبول كان يسجل من قبل قاضي القضاة في سجلات محاكم دمشق ، وما يلاحظ في هذه الفترة أن السعي للحصول على تلك الوظائف أصبح من أجل رواتبها فحسب ، وكانت تورث للأبناء والأحفاد دون القيام بما يترتب عليهم من أعباء تجاهها ، بل انصب جل اهتمامهم على إدارة أوقاف تلك المدارس لما تدره عليهم من المرباح ، ولهذا قامت الأسر الدمشقية الدينية الكبيرة باحتكار وظائف التولية والنظارة على أوقاف تلك المدارس ، مما وفر لها مورداً كبيراً من المال وجاهاً اجتماعياً عالياً في مدينة دمشق . وحسبنا هنا أن نسوق بعض الأمثلة على ذلك . فآل البكري : كانوا متولين على أوقاف المدرسة الأخنائية^(٣) كما تولى أوقاف المدرسة الجهاركسية آل المحاسني^(٤) وآل المرادي على أوقاف المدرسة الدلامية الكائنة بضاحية دمشق^(٥) . وآل المنيني على أوقاف المدرسة الناصرية الجوانية وآل السيوطي على المدرسة العمرية^(٦) وآل حمزة على المدرسة المجاهدية في محلة العمارة^(٧).

وما تجدر ملاحظته أن الوظيفة الواحدة كانت تقسم بين فريقين أو أكثر بغية الحصول

(١) انظر : سلك الدرر ... ج ٢ ، ص ٢٨١ وص ٢٨٤ .

(٢) انظر : العلي ، أكرم . المرجع السابق ص ١٤٠ وص ١٤١ .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ — ١٢١٧ هـ . ص ٢٨٣ .

(٤) انظر : سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ١٢٤٧/٣٢٣ هـ . ص ٣٠٣ .

(٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٤٧/٣٢٤ هـ . ص ١٠٥ .

(٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٥٠/٣٢٤ هـ . ص ١٦٩ وص ١٧٠ وص ٣٢٦ .

(٧) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٠/٣٣٦ — ١٢٥١ هـ . ص ٨٣ .

على مرتبتها، ونسوق مثلاً على ذلك ماورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق حيث «قرر مولانا صديقي زادة محمد سعدي، حاملتي هذا الكتاب نفيسة وعائشة بنتي طالب في الحصة وهي عن وظيفة بوابة المدرسة الوجيية بمعلوم قدره عثماني، وكذلك بوظيفة قراءة ماتيسر من القرآن العظيم... بمعلوم قدره في كل سنة ثلاثة أكيال ونصف كيل حنطة من حنطة قرية داريا الكبرى»^(١).

وهكذا اضمحل حال هذه المدارس مع الزمن وبرز الى جانبها أو بديلا عنها عدد من الكتاتيب لتعليم الأطفال من الجنسين ولكن بشكل منفصل. وأطلق على معلم الكتاب اسم الشيخ. أما مربو أبناء الاعيان والأمراء فاسم (لالا) وأما معلمة الأناث فاسم الخجا^(٢).

ووجدت بعض الكتاتيب لتدريس أبناء أهل الذمة أقاموها في بيوتهم أو كنائسهم وفي البيع والأديرة، وانصب التعليم فيها على الكتابة والقراءة والحساب. وكان المعلم في البيت يصعد ديوانا فيسمع ويتسمع ويقرأ ويقرء ويكتب ويكتب^(٣). ويذكر لامارتين الشاعر الفرنسي الذي زار دمشق في عهد ابراهيم باشا المصري أن الأب بوسو قاده الى أحد الأديرة الذي يعلم فيه أطفالا مسيحيين فقراء^(٤).

التعليم ومراحله

لقد كان التعليم مقسوماً على مراحل تبدأ أولاها بالكتاتيب وفيها فترتان دراسيتان، في الأولى منها يتلقن الأطفال حروف الهجاء، ومفرداتها ومركبها وأشكالها، ثم يعلمهم شيخ الكتاب قراءة القرآن والكتابة وحسن الخط، وطرفا من الحساب^(٥) ومن لم يرغب في متابعة المرحلة الثانية يترك الكتاب مكفيا بهذا القدر من التحصيل العلمي، فيبحث عن حرفة

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ - ١٢١٧ هـ: ص ١٢٩.

(٢) انظر: جبري، شفيق. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. ج ٤. مجلد ٣٦. ص ١٩٦١/٥٣٠ م ثم القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات. ج ٢. ص ٤٩٩. ثم المرادي، سلك الدرر.. ج ١. ص ٨.

(٣) انظر: اليسوعي، توتل - مجلة المشرق، ص ٤٠٧ من العدد ٣٦ سنة ١٩٧٧ م.

4 - Voyage en Orient.F.6.

(٥) القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج ٢، ص ٤٠٧ وص ٤٠٨.

ليكسب منها مايقوم بمعاشه^(١). وكان الطلاب يجلسون في الكتاب على الأرض ويرددون مايتلوه عليهم الشيخ الجالس في إحدى زوايا الغرفة^(٢).

ولم يكن معظم مشايخ الكتاب بأفضل من طلابهم ، فكانوا أقرب إلى الأميين منهم إلى المتعلمين . وكان شيخ المدرسة يأخذ من تلامذته خميسية ، يتقاضاها منهم يوم الخميس من كل اسبوع ، وكانت تتراوح ما بين ٢٥ بارة الى قرش واحد من كل تلميذ . ومن المشايخ ما يأخذ مشاهرة من ستة قروش فصاعدا ، كما يأخذ الشيخ مرتبا اذا ما أتم التلميذ حفظ السور «سبح» وعند فتحه جزء (عم) ، وكذلك اذا وصل الى سورة (ياسين) ، وعند النصف وفي الختام . وهذه المرتبات كانت تسمى حلوانا ، يكرم بها الشيخ ومن في معيته ، ومن عريف كبير أو معين . وعند الختام يعطى من الاكرام ، الشرط أولا ، أو ماتسمح به نفس ولي الصبي^(٣).

أما المرحلة الثانية من التعليم فقهيها يحضر الطالب دروس الافاضل ذوي المعارف والفضائل ويدرس عليهم مايساعده على فهم القرآن والحديث والمناقشة المنطقية ، ويمكن تلمس معظم مواد وكتب هذه المرحلة بشكل عام في كتب تراجم الرجال لهذه الفترة ، كسلك الدرر للمرادي وحلية البشر للبيطار وأعيان القرن الرابع عشر للشطبي ، فكان أهمها «في الفقه ، شرح التحرير وشرح النهج لذكريا والدر المختار ، وفي الحديث : موطأ مالك وصحيح البخاري ومسلم والشمائل للترمذي والمصابيح للبلغوي والمشارك للصنعاني والجامع الصغير للسيوطي ، وفي التفسير : تفسير الزمخشري والبيضاوي ، وفي القراءات : الشاطبية والبرائة والعشرة ، وفي النحو والصرف وعلوم اللغة : الالفية وشروحها وشرح مغني اللبيب وشرح الكافية وحاشية العصام وشرح قطر الندى وشرح التلخيص ومختصر المعاني والبيان ، وفي العلوم العقلية : ايساغوجي وجوهرة التوحيد ، وفي التصوف : الفتوحات المكية وغيرها .

التعليم في مدارس استانبول

كان التعليم في إحدى مدارسها يعتبر مرحلة متميزة في مجال التعليم ، ليس من حيث مناهج ومواد التعليم ولكن لأنها كانت تؤهل صاحبها لاستلام أحد المناصب في

(١) السيوفي ، حبيب . سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر . ج ٢ ، ص ١٠٧ .

2 - See: porter. five years in Damascus. VOL.1.P.142.

(٣) انظر: القاسمي ، محمد . المصدر السابق — ج ٢ ، ص ٤٠٧ وص ٤٠٨ .

الدولة، على أن بعض أبناء الاثرياء في دمشق كانوا يفضلون متابعة دراستهم في بيوتهم وتحت إشراف آبائهم أو أساتذتهم^(١)، في حين البعض الآخر كان يذهب إلى استانبول لمتابعة دراسته في إحدى مدارسها، طمعا في الحصول على أحد المناصب الادارية أو العسكرية. وأهم مدارس استانبول هي: مدرسة سراي الغلطة ثم مدرسة سليمان صوباشي ومدرسة يار حصار ومدرسة شيخ الاسلام ومدرسة البهرائية ومدرسة خديجة سلطان ومدرسة حافظ باشا ومدرسة قاسم باشا ومدرسة روم محمد باشا ومدرسة مولاي خسرو كتحدا ومدرسة بيري باشا ومدرسة شاه سلطان ومدرسة طوطي لطف ومدرسة انجه قره ومدرسة ذي الفقار ومدرسة باياس أوغلي^(٢) وغيرها كثير، حيث تجاوز عددها الأربعين مدرسة وكانت تأتي على رأس تلك المدارس، المدارس السليمانية، التي كانت على مراحل لتمثل بذلك التدريس المتخصص أو العالي في استانبول حيث كانت تمنح مراتب علمية مختلفة، منها: ابتدائي خارج وحركتي خارج ثم ابتدائي داخل ثم حركتي داخل ثم موصلي صحن غان ثم ابتدائي التمثلي ثم حركتي التمثلي ثم موصلي سليمانية^(٣). وكان المتخرج اذا ما حصل على إحدى هذه الدرجات وعين في القضاء، يمنح مرتبة معينة تتناسب مع القضاء الذي عين فيه. وكانت أعلى مراتب القضاء مرتبة قضاء العسكر ثم رتبة صدارة روم ايلي التي هي أعلى رتبة علمية في الدولة العثمانية^(٤).

ولقد أورد الإخباريون الدماشقة أسماء بعض الدمشقيين الذين التحقوا بمدارس استانبول ليحصلوا بعد تخرجهم على مناصب قضائية في الدولة^(٥). وفي عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧ م) جرت محاولة التحديث ولم تقتصر على إنشاء النظام الجديد فحسب بل تجاوزته إلى إيجاد مدارس للضباط ونظام تعليمي للفنون العسكرية والعلوم التي تخدم النواحي العسكرية كالهندسة والطب^(٦). ورغم فشل تلك المحاولات وسقوط السلطان

(١) انظر: عانوق، أسامة. المرجع السابق. ص ٣٠.

(٢) المرادي، المصدر السابق. ج ١، ص ٦٩ وص ٧٠ وص ١٠٧ وص ١٤٩ وص ١٥٠. ثم ج ٣، ص ١٣٨ وص ٢١٣ وص ٢١٧.

3 - Hi Cebb and H. bowen: Islamic society and the west VOL.1.part.2.P.140.

(٤) انظر: البيطار، عبد الرزاق. المصدر السابق. ج ١، ص ٦٤ وص ٧٨.

(٥) انظر: المرادي، المصدر السابق - ج ١. ص ٦٩ وص ٧٠. ج ٢، ص ٩٨ وص ١١٥ وص ١٥٧. ج ٣، ص ١٣٨ وص ٢١٧.

(٦) انظر: طرين، أحمد. تاريخ المشرق العربي المعاصر. ص ٣٣٦.

سليم الثالث نتيجة لذلك ، فان السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) سعى بدوره لبعث النشاط في تلك المدارس ، كمدرسة الفنون البحرية التي أسست عام / ١٧٧٣ / ومدرسة الهندسة العسكرية التي أسست عام / ١٧٩٣ ، وأرسلت البعثات الى باريس اسوة بمحمد علي باشا (والي مصر) ، وتعرفت الدولة العثمانية على العلوم العصرية^(١) عن طريق المدارس العسكرية المتصلة بالجيش ، وأعطت الطلاب المرتبات واعتبرتهم موظفين حكوميين . واستقدمت الخبراء الأوربيين الذين كان أكثرهم ممن اشتركوا في حروب نابليون بونابرت في أوروبا فوجدوا المجال مفتوحا أمامهم في الدولة العثمانية واعتنقوا الاسلام^(٢) . وتخرج على تلك المدارس الأطباء والجراحون والصيادلة ، فسدوا جانباً من حاجة الجيش اليهم . أما الاطباء المدنيون فكانوا يتلقون تعليمهم في مؤسسات تقليدية ، مثل القسم الطبي في المدرسة السلليمانية بالآستانة ، واعتمدت في دراستهم وتدريبهم تواليف جالينوس وابن سينا ، كما أنشئت ، ما بين عامي ١٨٣١ - ١٨٣٤ م ، مدرستان عاليتان للأغراض العسكرية ، مثل مكتب الموسيقى الهمايوني ومكتب العلوم الحربية . وهذا الأخير أنشئ على مثال مدرسة سان سير الفرنسية الشهيرة ، وكانت لغة التعليم فيه هي اللغة الفرنسية ، ويبدو أن رجال الإصلاح قد شعروا بتدني مستوى الطلبة في المدارس العسكرية العالية ، فأنشأوا المدارس الاعدادية العسكرية - لتحضير الطلبة لدخول المدارس العسكرية الاختصاصية ، وأنشأوا مدارس رشدية عسكرية لتهيئة الطلبة لدخول المدارس الاعدادية ، ولم يقتصر وجود هذه المدارس على العاصمة ، وإنما وجدت أيضا في الولايات التي كانت مراكز لتحشد الجيش النظامي^(٣) . ولم يحرم أبناء الولايات من دخولها ، وكانت مجانية وداخلية وتتكفل الدولة بنفقات طلابها وتتولى نقلهم من مراكز الولايات الى العاصمة . وينطبق ذلك أيضا على المدارس الاعدادية العسكرية . وفكر السلطان محمود الثاني بانشاء مدارس ابتدائية وثانوية للأغراض المدنية ، وخطط لانشاء مدارس رشدية ملكية ومدنية ، وافتتح عددا منها في سنة ١٨٣٨ م . ولكن على ما يبدو أن نجاحه كان محدودا في هذا الصدد .

(١) أيضا طرين . المرجع السابق . ص ٢٤٠

(٢) انظر : رافق ، عبد الكريم . العرب والعثمانيين . ص ٣٧٨ و ص ٣٧٩ .

(٣) انظر : طرين ، المرجع السابق . ص ٢٤٢ . ويذكر المرجع السابق أن دمشق كانت مركزا للجيش الخامس العثماني .

التعليم في ظل الحكم المصري

عندما سقطت بلاد الشام بيد ابراهيم باشا المصري سعى لاجراء اصلاحات جذرية في التعليم ، فأحدث عددا من المدارس في دمشق ، وأطلق عليها اسم المدارس الجهادية^(١) وذلك لامداد الجيش والادارة بالكوادر اللازمة . وأدخل الى تلك المدارس العلوم الحديثة والحساب والهندسة وغيرها من العلوم ، وقام بالتدريس فيها أساتذة أوروبيون . وسجل حكم محمد علي باشا في سورية مرحلة جديدة من مراحل التعرف على أوربا ، وغدت البلاد أكثر ترحيبا بالمسافرين والمستوطنين والتجار والمرسلين والمراقبين والمستطلعين الأوربيين .

ولم تعد المدارس وقفا على المسلمين دون أهل الذمة . وقام القناصل والمبشرون الأجانب بفتح المدارس من أجل خدمة أغراضهم . ودخل الى مدارسهم طلاب مسيحيون ومسلمون ويهود ، وتعلموا فيها لغات أجنبية وعربية . ولكن تلك المدارس لم تهدف الى صهر مجتمع دمشق في بوتقة واحدة وإنما أسهمت ، خاصة مدارس التبشير ، في فتح مجتمع دمشق على المؤثرات الغربية ، في حين بدأت المدارس الإسلامية التقليدية القديمة تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وفي الوقت الذي بدأ يرد الى دمشق أبناءها خريجو المدارس الاوربية الذين عملوا في صفوف الجيش المختلفة ، وأسهم هؤلاء في تنظيم مدارس الجيش^(٢) .

التدريس في الجامع الأموي

قامت جوامع دمشق بمهامها التدريسية الى جانب مدارسها ، كجامع العباس والدرويشية والسليمانية والسليمية والسنانية وغيرها . إلا أن أهم الجوامع على الاطلاق في هذا المجال كان الجامع الأموي ، نظرا لعراقته واتساعه وكثرة أوقافه الدارة ومدرسيه الكثر ، وتعدد حلقات التدريس في أرجائه . وكانت تلك الحلقات تعقد في صحنه وأروقته وداخل حرمه .

(١) وفضلاً عن المدارس الابتدائية التي أنشأها في جميع أنحاء بلاد الشام أسس كليات واسعة في دمشق وحلب وانطاكية — كان يتاح لطلابها جميعهم من المسلمين ، السكن والطعام والكساء والتعليم على نفقة الحكومة وكانوا فوق ذلك تجري عليهم المرتبات وكان في كلية دمشق نحو ٦٠٠ طالب وفي كلية حلب يزيدون على ٤٠٠ وكان هؤلاء الطلاب يرتدون ملابس موحدة ويتدربون على الفنون العسكرية . انظر : أنطونيوس ، جورج . يقظة العرب . ص ١٠٤ .

(٢) انظر : ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا . ص ١١٥ .

وأهم حلقاته التدريسية ما كان تحت قبة النسر التي كانت موقوفة لأعلم علماء دمشق^(١). واعتبرت الدراسة تحتها بمثابة المرحلة العليا من الدراسة في وقتنا الحاضر. ويقول ابراهيم الخياري الذي زار دمشق في القرن الثامن عشر «إن الدمشقيين يتزاحمون على التدريس بذلك الموطن ويفتخرون به ويسمون المدرس تحتها مدرس القبة»^(٢) ويشمل التدريس تحتها عددا من المواد، كالأصول والفقه والكلام والنحو والحساب والمنطق وغيرها^(٣) ولقد لعب مدرسو الجامع الأموي أدواراً سياسية هامة في دمشق، لارتباطهم بشيخ الإسلام في استانبول، ولصلتهم بحكام دمشق من جهة أخرى. فلا غرابة إذا ما تنافسوا على مناصبه فيما بينهم.

ويمكن رصد أهم مدرسي قبة النسر من كتب التراجم لفترة دراستنا هذه وهم: «أحمد الميني المتوفى سنة ١١٧٢ هـ، ثم استلم التدريس تحتها من بعده علي أفندي الداغستاني إلى أن أصيب بالفالج سنة ١١٩٦ هـ فأناوب عنه الشمس محمد الكزبري، وبعد وفاة الداغستاني سنة ١١٩٩ هـ وجه تدريسها لمحمد العطار الذي أناوب عنه الشمس محمد الكزبري أيضا، إلى أن توفي العطار سنة ١٢٠٩ هـ، فوجهت أخيرا للشمس محمد الكزبري إلى وفاته سنة ١٢٢٢ هـ، ثم توجهت إلى الشيخ عبد الرحمن الكزبري إلى وفاته سنة ١٢٦٢ هـ»^(٤).

ومن مدرسي هذا الجامع في هذه الفترة الشيخ ابراهيم الاسطواني^(٥) ثم الشيخ علي أفندي ابن عبد الرزاق أفندي الذي درس في صحنه^(٦)، ثم عين أخوه الشيخ مصطفى بن عبد الرزاق مكانه^(٧)، ثم الشيخ راغب الحصني^(٨).

(١) أنظر: البيطار، عبد الرزاق. المصدر السابق. ج ١، ص ١٥١ ويذكر البيطار نقلا عن النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ/ أن الجامع الأموي كان يشمل تسعة أئمة وثلاثة وسبعين مقعدا لاقراء القرآن وعشرين سبعا وأحدى عشرة حلقة للاشتغال بالعلم والصرف عليها من مال المصالح وثلاث حلقات للاشتغال بالحديث. انظر: نفس المصدر، ص ١٤٩.

(٢) أنظر: رحلة الخياري المسماة (تحفة الأدباء وسلوة الغرباء). ج ١. ص ١٦٥ وص ١٦٧.

(٣) أنظر: عانوق، أسامة. المرجع السابق. ص ٢٩ وص ٣٠.

(٤) أنظر: البيطار، بهجة. المدرسون تحت قبة النسر. مجلة المجمع العلمي العربي. ج ١. المجلد ٢٤. ص ٦٣ وص ٧٢ وص ٢٢٢. ٢ ربيع الأول ١٣٦٨ هـ/ كانون الأول ١٩٤٩ م.

(٥) أنظر: سجلات الوثائق التاريخية بدمشق المجلد ٢. الوثيقة رقم ٦١، ص ٦٥ تاريخ ١٥ ذو الحجة سنة ١٢٤٥ هـ.

(٦) المصدر السابق. الوثيقة رقم ١٦٨/ص ٦٧. ٢٤ ذو الحجة سنة ١٢٤٧ هـ.

(٧) المصدر السابق. الوثيقة رقم ١٧٠/ص ١٦٧. تاريخ ١٢٤٧ هـ.

(٨) المصدر السابق. الوثيقة رقم ١٧٣/ص ١٧٠.

وكانت عادة المدرس الواعظ، أن يجلس على كرسي مرتفع بعد أداء فريضة الجمعة إلى صلاة العصر، ويخصص درسه لرجال الحكم والعلم، ويراعي حال المستمعين من حيث اللغة المستخدمة. ويذكرهم بما يجب عليهم تجاه الشعب^(١)، لهذا كان عليه أن يتقن التركية لغة بعض القوم المخاطبين من أولي الأمر والسلطان في دمشق، ليسهل عليه نقل آرائه إليهم. واستمر الجامع الأموي في هذه الفترة يقوم بمهامه المختلفة. فاستمر التدريس فيه في مشهد الامام علي بن أبي طالب والحسين بن علي وعائشة أم المؤمنين، وفي مشهد الكلاسة وأبي بكر وعثمان وعمر بن عبد العزيز والكاملية وغيرها. وبقيت المدارس المنفصلة عنه بأوقافها والمتصلة به ببنائها، تقوم بمهامها التدريسية، مثل دار الحديث التقوية ودار الحديث الحمصية ودار الحديث العروية والزاوية المالكية والمدرسة الرواحية والمدرسة الغزالية والمدرسة التاجية والمدرسة السيفية والمدرسة العزية^(٢).

أما طريقة التدريس فيه، فكانت تتم على شكل حلقات يتحلق فيها الطلاب حول المحدثين الذين يقرأون الحديث الشريف وهم جلوس على كراسي مرتفعة. أما الوعاظ ومدرسو القرآن فيستندون إلى سواري المسجد عند أدائهم لمواعظهم.

وزاد في أهمية الجامع الأموي الاجتماعية كونه يقع في قلب دمشق وعلى مقربة من سرايا الحكم والقلعة ومحكمة الباب مقر قاضي القضاة وغيرها من المقرات الرسمية آنذا. ناهيك عن قدسيته. لهذا كان المكان المفضل لاجتماع عناصر الهيئة الحاكمة ومن لف لفهم من وجوه دمشق وأعيانها، بالعامّة أثناء صلاة الجماعة أو صلاة العيدين أو عند الملمات أو الكوارث الطبيعية. وكان ملاذا للمستضعفين والنساء والأطفال عند حصار دمشق أو مهاجمتها. وكانت العامة تستغل هذه الفرض للقاء الهيئة الحاكمة لعرض مشاكلها وحلها. وكان بعض الخطباء يذكرون الولاة بواجباتهم نحو الرعية والمحكومين. وكانت تحيط بالجامع الاسواق الدائمة والمؤقتة، فتروج البضائع خاصة في المناسبات المختلفة حيث الحشود الكبيرة من أبناء دمشق وفي بعض الاحيان كانت تجري فيه عقود النكاح تبركا^(٣). وكان يرى كان للجامع

(١) البيطار، عبد الرزاق. المصدر السابق. ج ١، ص ٢٢٨.

(٢) انظر: النعيمي، عبد القادر. المصدر السابق. ج ١. ص ٩٧ وص ٥٥٧. وج ٢، ص ٣ وص ١٠.

(٣) انظر: الحصني، محمد أديب. منتخبات لتواريخ دمشق. ص ١٠١٥ وص ١٠١٦ وص ١٠١٧.

الأموي مهام متعددة . بالإضافة إلى مهامه كجامعة مثل الأزهر في القاهرة ، وكان ملتقى علماء دمشق بالعلماء الغرباء ، وكانوا في رحابه يتناظرون بالعلوم المختلفة التي كانت سائدة آنئذ . وكانت العادة إذا ماجاء عالم غريب أن لا يقبل علماؤها عليه إلا بعد استماعهم لدرسه في هذا الجامع ، فيعرفون من خلال ذلك قدره حق المعرفة ويطرحون عليه الأسئلة المشككة لمعرفة مدى علمه ، ولم تكن سمعته ولا ألقابه ولا مناصبه ، لتعفيه من هذا الامتحان ، فان نجح فيه احترموه وأقبلوا عليه وأكرموا ، وإلا أعرضوا عنه ، فلا يسعه عندئذ إلا الرحيل .

ومما تقدم نرى أن الجامع الأموي قد حافظ على مهامه المتعددة في هذه الفترة ، فلم يكن دار عبادة فحسب بل اضطلع بمهام علمية واجتماعية وسياسية واقتصادية وغيرها ، مما جعله أهم جوامع دمشق على الإطلاق .

الإجازات والشهادات العلمية

كان المشتغلون بالعلم من رجال الدين في دمشق ، شأن معظم الأقطار الإسلامية الأخرى ، يحرصون على الحصول على مايمكن تسميته اليوم بالشهادات العلمية التي تثبت كفاءتهم ، وهذه الشهادات كانت على درجات وباختصاصات مختلفة ، فمنها (السماعات) ثم الإجازات الخاصة بعلم من العلوم ، وأخيراً الاجازات العامة التي تؤهل من يحصل عليها للإفتاء والتدريس .

أما السماعات (مفردها سماع) فهي أن يكتب الشيخ في آخر الكتاب أسماء الذين سمعوا عليه الكتاب والمواضيع التي فأت الطالب . وهي أبسط الشهادات ، ولاتعني شيئاً بالنسبة للطالب الحاصل عليها ، كما أنها لاترفع من منزلته العلمية ، وهي بمثابة شهادة له على أنه حضر الدرس لا أكثر .

أما الإجازات الخاصة كإجازة عرّافة الكتب أو الخط الحسن وغيرها فعلى رأس عرافته الكتب حفظ القرآن الكريم وتجويده أو في الفقه والحديث والفرائض وعلم الكلام والعربية وعلوم القراءات والعقائد ، وحتى اتقان إحدى الطرق الصوفية^(١) . وعندما يشعر الطالب أنه متمكن من نفسه في كتاب ما أو علم ما من العلوم المذكورة آنفاً ، يقدم نفسه

(١) انظر : المرادي . المصدر السابق . ج ٣ ، ص ٢١٥ .

طواعية لشيخه أو أي شيخ آخر ويطلب منه اجراء الامتحان المقرر له في هذا الكتاب ، فيفتح الشيخ صفحاته في مواضع شتى ويستقرئه اياها ، فان مضى بغير تلثم ولا توقف ، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب وعندئذ يقوم الشيخ بكتابة إجازة له على ورقة صغيرة .

وكانت إجازة الخط العربي بأشكاله المختلفة المعطاة من قبل أساتذة تؤهل صاحبها لاستلام منصب كاتب ولقب (خط جكان) عندما يعمل في دوائر الدولة^(١) . ويبدو أن عقيدا من الناس كانوا يحرصون على اتقان الخطوط العربية والحصول على إجازة فيها لأهمية الخط في دوائر الدولة أو في نسخ الكتب في وقت لم تكن المطبعة قد أخذت دورها في هذا المجال .

أما الاجازات العامة فتشمل جميع العلوم التي كانت سائدة آنئذ خاصة العلوم الدينية والعلوم المساعدة على فهم القرآن الكريم . وكانت الاجازة تؤخذ بشكل شفهي أو كتابي أو بالمراسلة مع الشيخ «المجيز» المطلوب أخذ الاجازة منه . وقد حرص علماء دمشق على الحصول عليها خاصة من العلماء البارزين آنئذ سواء في دمشق أو خارجها ، لأنها كانت ترفع من قدر الحاصل عليها .

وحسبنا هنا مثال على الإجازة العلمية المكتوبة ، مأورده صاحب (حلية البشر في تاريخ القرن الثامن عشر) وهي الإجازة التي منحها شيخ الأزهر حسن بن محمد العطار لحسن البيطار في سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨٠٢ م حيث جاء فيها مايلي : «بسم الله الرحمن الرحيم ... أحسن مايقدمه السائل في مقاصده ويلزمه في مصادره وموارده حمد الله بأعظم محامده ... أما بعد : فإن الشاب الفاضل الأديب العالم العامل الشيخ حسن بن الشيخ ابراهيم البيطار ... قد حضر عندي فيما حضرت الى الشام جميع دروسي التي قرأتها بالتمام حضور تدقيق ودراية غير أنه قد حضر تلاوة قليل من الأحاديث الشريفة عن طريق الرواية . ثم استجازني بما تجوز لي روايته فتمنعت قدر الامكان واعترفت بأنني لست من أهل هذا الشأن ، وعندما ألح علي استخرت الله وأجزته بمطلوبه ومرغوبه ، أسعفته بما تجوز لي روايته وتسند لي درايته من أشياخي الذين اقتبست أدوارهم واغتمنت أسرارهم ومنهم ولله الحمد عدد

(١) المصدر السابق . ج ٣ ، ص ١٠٤ و ص ١٣٥ و ص ١٨٥ و ص ٢٢٦ .

كبير كل له قدر خطير...»^(١) . وبعد أن يعدد أسماء أشياخه الذين أخذ عنهم الحديث ويذكر التآليف العديدة التي ألفها ، يدعو لطالبه المجاز بعد ذلك بالتوفيق . ويذكر في أسفل الاجازة المكتوبة اسمه كاملا ومهنته العلمية .

ويبدو أن هذا النوع من الاجازات كان من النوع المعنوي الذي يتباهى بها صاحبها بين أقرانه وخلانه في حين نرى اجازات من نوع آخر كانت تمنح للطلاب في مدارس استانبول . وكانت تلك المدارس على درجات فمنها الداخلة والخارج وأتمشلي وموصله الصحن والسليمانية ، وكان الطلاب يلتحقون فيها ليتلقوا العلم في رحابها وغالبا ما كان العلم فيها علما دينيا بالاضافة الى اللغة الفارسية والتركية وكانت تؤهل الحاصل على اجازتها لاستلام منصب معين . وكتب تراجم رجالات دمشق مليئة بأخبار هؤلاء . ونسوق مثالا على ذلك أحد علمائها آنثذ وهو محمد سعدي الدمشقي الذي «دخل طريق العلماء في اسلامبول ولازم قاعدتهم وطريقهم وبعد انفصاله عن المدارس وتنقله بها كعادتهم ... أعطي قضاء بغداد وبعده قضاء اسكدار ... ثم أعطي رتبة قضاء المدينة المنورة مع قضاء خيرة بولي وخواص آخر على طريق الأربلق .. ومات سنة ١١١١ هـ»^(٢) .

ولم تعرف دمشق الشهادات والاجازات العلمية ، كما هو الحال في وقتنا الحاضر ، إلا بعد دخول المؤثرات الغربية وطرائق تعليمها اليها عن طريقين أولهما : في فترة محمود الثاني الذي أدخلها الى استانبول ومنها جاءت الى دمشق ، ثم طريق مصر والتي دخلت الى بلاد الشام مع الاحتلال المصري لها ، ووصول البعوث العلمية الى مصر . وكان التأثير الفرنسي وطرائقه في التعليم والاجازات غالبا على جميع المؤثرات الأوربية الأخرى .

المكتبات والمراكز الثقافية

لم تشاهد دمشق في هذه الفترة قيام مكتبات منفصلة عن الجوامع والمدارس والمنشآت الدينية الأخرى كالتكايا والخانقاهات والزوايا وغيرها ، إلا القليل منها في بيوت بعض رجال الدين وغيرهم . وأهم تلك المكتبات كانت مكتبة المدرسة العمرية في صالحة دمشق . ثم

(١) البيطار، عبد الرزاق . ج ١ . ص ٤٨٩ وص ٤٩٠ وص ٤٩١ وص ٤٩٢ .

(٢) المرادي، سلك الدرر ج ٤ . ص ٢٨ . ثم انظر : ترجمة محمد رحمة الأيوبي ص ٤٨ . ثم ترجمة محمد

الحنفي ص ١٠٨ . ثم ترجمة السيد محمد المرادي ص ١٦٤ .

مكتبة مدرسة اسماعيل باشا العظم، التي أسهم في إمدادها بالكتب، ابنه أسعد باشا العظم. ثم مكتبة مدرسة عبد الله باشا العظم التي أضيفت إليها كتب والده محمد باشا العظم سنة ١١٩٠ هـ. ثم مكتبة مدرسة الملا عثمان الكردي. ومكتبة التكية السلیمانية ومكتبة المدرسة المرادية ثم مكتبة المدرسة السمسماطية ومكتبة بيت الخطابة في الجامع الأموي ثم المكتبة السياغوشية ومكتبة جامع يلبغا والأحمدية^(١) ثم مكتبة الشيخ خالد في محلة القنوات في بيت الشيخ عمر الحضرة^(٢) ومكتبة الإشماسية بمدرسة قرب الجامع الأموي ومكتبة الباذرائية^(٣) ثم مكتبة المدرسة الظاهرية. ومن المكتبات الخاصة التي ورد ذكرها آنثذ مكتبة عبد الله البصروي «الذي لم يمسك كتبها عن أحد ففرقت كتبه أيدي سباً»^(٤). إلا أن معلوماتنا عن محتويات هذه المكتبات ونوع هذه الكتب مازال محدوداً ويغلب الظن على أنها كانت في معظمها كتب دينية اسلامية. ولقد منع الاوربيون الوافدون الى دمشق في المرحلة الاخيرة من الاطلاع على هذه المكتبات كما يقول بورتير^(٥). ولم يحل ذلك دون سرقة هذه المكتبات كما حصل لمكتبة سليمان باشا العظم^(٦). ووجدت مكتبات خاصة بأديرة دمشق، حوت بعض المخطوطات باللغتين العربية واليونانية^(٧). وبقي انتشار الكتب يعتمد على النسخ باليد، الامر الذي جعل اعداداً لا بأس بها من الرجال يتعيشون من هذه الحرفة. ولم تنتشر الكتب المطبوعة على نطاق واسع حتى عهد ابراهيم باشا، رغم أنه قد أدخل عدداً لا بأس به من الكتب المطبوعة الى دمشق. واصطحب معه مطبعة حجرية كرسها لطباعة المنشورات والأوراق العسكرية ولقد نهت هذه المطبعة سكان دمشق إلى أهمية الطباعة، وما طبع من الكتب لم تكن كتباً دينية بل كانت في علوم مختلفة، كما أسهم في ادخال عدد من الكتب المطبوعة الى دمشق، الموظفون المصريون وأعضاء المجلس الاستشاري والأطباء والصيادلة وضباط الجيش والمعلمون والوجهاء من المسلمين والنصارى، وكانت بمحدود (٦٠ كتاباً) تبحث في العلوم والرياضيات والطب واللغة والفقه والتصوف والتاريخ والجغرافية والرحلات

(١) انظر: ابن بدران، عبد القادر. المصدر السابق. ص ١٤٠.

(٢) انظر: لوقا، اسكندر. الحركة الادبية في دمشق من ١٨٠٠ — ١٩١٨ م، دمشق ١٩٧٦ م.

(٣) كرد علي، محمد. خطط الشام. ج ٦، ص ١٩٥.

(٤) المرادي، محمد خليل. المصدر السابق. ج ٣. ترجمة عبد الله البصروي

5 - See: porter. op.cit. VOL. I. P. 142.

(٦) انظر: المرادي. المصدر السابق. ج ١، ص ٨ و ص ٩.

(٧) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص ١٢٠. و ص ١٢١.

والتشريح والجراحة وعلم الامراض وغيرها^(١). وكان على مجتمع دمشق أن ينتظر الى الفترة اللاحقة حتى تدخل المطابع الى دمشق، فتسهم في نشر أعداد كبيرة من الكتب وتبدأ عملية الترجمة الى اللغة العربية، لاطلاع هذا المجتمع على فكر الغرب، أو بالأصح لقيام الغزو الغربي لمجتمع دمشق بطرقه المختلفة، بعد أن فتح أمامه ما كان موصداً من أبوابها، مما أتاح لرياح التغيير بالدخول اليها.

(١) انظر: الطيباوي. المرجع السابق. ج ٤، المجلد ٤٢، ص ٧٧٦ وص ٧٧٧ ثم انظر: لوقا، اسكندر. المرجع السابق. ص ٥٣.

رجال الدين والمدرسون في دمشق

هذه التسمية عامة شملت الجوامع والمدرسين وزعماء الطرق الصوفية وغيرهم ، على اعتبار أن التعليم كان دينيا كما كانت القوانين شرعية . وكان لرجال الدين نفوذهم الانحلاقي والديني والفكري على السكان المسلمين في المدينة ، الأمر الذي مكّنهم من تسلم منزلة اجتماعية متميزة . وحاولت فئات منهم بذأقرانها في الحصول على الخطوة لدى السلطات العثمانية ، من خلال جمع أكبر عدد ممكن من التلامذة والاتباع الروحيين ، وغيرهم يحسب حسابهم في دمشق ، وزادت في تدعيم مراكزها باستلامها المناصب الرسمية أو الدينية .

ولم تكن مؤسسات دمشق العلمية أو الدينية مرتبة بشكل رسمي في تسلسل معين ، إلا أننا مع ذلك نلاحظ تدرجاً في أهميتها ، فعلى مستوى الوظائف والمناصب الدينية كنا نرى في المقدمة [قاضي القضاة ونوابه ثم قضاة المذاهب غير الحنفية (المولخلفة) ، ثم المفتون ونقباء الاشراف وخطباء الجامع الاموي ومدرسو السلیمانية والسلیمية وزعماء الطرق الصوفية وأئمة الجوامع ومدرسوھا ومدرسو المدارس] .

وكان رجال الدين في دمشق ينتمون الى أحد مذاهب السنة الأربعة . وعلى الرغم من أن أكثر سكان دمشق المسلمين ، كانوا يتبعون المذهب الشافعي ، إلا أن المذهب الحنفي قد

تقدم عليه في العهد العثماني ، لأن الأخير كان مذهب الدولة الرسمي ، وكان يأتي ثالث المذاهب في الترتيب ، المذهب الحنبلي ومن بعده المالكي . وكان حنابلة دمشق في معظمهم من أصول ريفية ، كنبلس وبعلبك^(١) . في حين أن معظم أتباع المذهب المالكي في دمشق كانوا من المغاربة أو ربما من بعض أبناء الأندلس الذين صدف وجأؤوا الى دمشق بعد سقوطها بيد الاسبان . وتطالعنا كتب تراجم الرجال بأخبار من غيروا مذهبهم [خاصة من الشافعي أو الحنبلي إلى الحنفي] ، بدافع الحصول على منصب قضائي في دوائر الدولة العثمانية ، فمثلاً أحمد الخاني الخالدي الذي كان شافعيًا . تحنف وتولى منصباً قضائياً^(٢) وعندما تعاظم خطر الحركة الوهابية في الجزيرة العربية على الدولة العثمانية ، الى تحول عدد من الحنابلة الدمشقيين ذوي النفوذ ، الى المذهب الحنفي اظهاراً منهم لولائهم للدولة العثمانية^(٣) . في حين نرى عدداً آخر من رجال الدين في دمشق ، قد تعاطف مع الحركة الوهابية ، ولم ينتقل تعاطفهم الى العلن خوفاً من نقمة الدولة العثمانية وكان من هؤلاء الشيخ عبد الرزاق البيطار^(٤) ومحمد سعيد القاسمي وبعض أبناء أسرة (الغبرة) وغيرهم .

ولم تكن علاقة رجال الدين بالسلطة العثمانية ، على درجة واحدة . فمنهم من كان يتهافت على اعتبارها ساعياً وراء منصب ما ، في حين كنا نرى عدداً منهم بعيدين عنها ويعيشون من كدهم وعرق جبينهم .

أما تحصيل رجال الدين العلمي فكان متفاوتاً ، فمنهم من كان أشبه بالأمي ، ومنهم من بذل جهداً في التحصيل العلمي والاطلاع وسعى للكتابة والتأليف في العلوم الدينية والعقلية والنقلية ، أما تأليفهم في العلوم الطبيعية والتطبيقية فلم تكن ذات بال . إذ أن جلّ اهتمامهم انصب على ما يؤهلهم لاستلام منصب ديني أو علمي . وإذا مارصدنا مؤلفات هؤلاء لانجد منها سوى تعليقات وحواشي ، وحواشي على حواشي لمؤلفات أعلام سابقين . والامثلة على ذلك كثيرة . فمثلاً الياس الكردي نزيل دمشق كان له نيف وتسع حواشي

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . المشرق العربي في العهد العثماني . ص ٢٥١ .

(٢) انظر : البيطار ، عبد الرزاق . حلية البشر ... ج ١ ، ص ١٨٤ .

(٣) انظر : شليشر ، ليندا . المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

(٤) انظر : البيطار ، عبد الرزاق . حلية البشر ... المقدمة ، ص ١٧ .

وتعليقات^(١)، والشيخ حسن العطار كان له اهتمامات فلكية، ويصفه خليل مردم بك بأنه: «عالم فلكي وله رسالة في كيفية العمل بالاصطرلاب»^(٢) مات سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م — ١٨٣٥ م. ثم ابراهيم المعروف بالبهنسي انتهى اليه علم الفلك والهيئة. وكذلك ابراهيم السفرجلاني برع في الرياضيات وأعمال الأوقاف^(٣) والشيخ أحمد المخلاقي الدمشقي الفرضي المتوفى سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ — ١٨٢٥ م انفرد في علمي الفرائض والحساب^(٤) ومحمد بن مصطفى الطنداني الأزهري سكن في الميدان من دمشق وكان عالماً بالعلوم الدينية والآلات والهيئة والحساب والميقات والحكمة وغيرها^(٥).

ومن جهة أخرى شكل رجال الدين والخاصة منهم صلة الوصل بين المحكومين والحاكمين لأن معظمهم ينحدر من أصول محلية، فلجأ إليهم المحكومون في دمشق في الملمات. وأكسبهم ذلك نفوذاً واسعاً لدى المحكومين، وزادهم في ذلك ما ملكوه من الأسباب المادية والاقتطاعات. إلا أن الظروف الاقتصادية والسياسية التي أحاطت بدمشق في هذه الفترة قد أثرت على أوضاعهم بشكل عام فمرت في مراحل أربعة: أولاً: منذ دخول محمد بك أبي الذهب إلى دمشق وحتى بداية حكم أحمد باشا الجزار وفيها تمتعوا بنفوذ واسع، كان امتداداً للعهود السابقة. وسعى رجال السلطة لاسترضائهم وخطب ودهم. واستطاعوا أن يقوموا بمهام الوساطة بين المحكومين والحاكمين. وتبدأ المرحلة الثانية: بحكم أحمد باشا الجزار، الذي اتصف بالظلم وقهر الشعب، فلاذ الشعب برجال الدين كالعادة. وتصدى هؤلاء للجزار، وتمكن أحدهم وهو محمد خليل المرادي المفتي الحنفي في دمشق ونقيب أشرافها من عزله عن ولاية دمشق في سنة ١١٩٩ هـ. مما يدل على مدى نفوذ بعض رجال الدين في دمشق واستانبول في وقت واحد. إلا أن الجزار ما لبث أن استعاد ولاية دمشق بعد ذلك، فقام بعزل المفتين ونصب آخرين مكانهم، وسجن وقتل من نخاسة رجال الدين في دمشق بعض رجالها^(٦). أما المرحلة الثالثة: من وضع رجال الدين، برزت بالإصلاحات

(١) انظر: المرادي سلك الدرر... ج ١، ص ٢٧٢.

(٢) انظر: أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع. ص ١٥٥ وص ١٥٦.

(٣) انظر: المرادي. سلك الدرر.. ج ١. ص ٩ وص ١٥.

(٤) انظر: البيطار، عبد الرزاق حلية البشر.. ج ١. ص ١٩٢ وص ١٩٣.

(٥) انظر: القاسمي، جمال الدين. تعظيم المشام بمآثر دمشق الشام. ج ١. ترجمة محمد بن مصطفى الطنداني الأزهري الشافعي — منسودة بدون ترقيم.

(٦) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخه. ص ٧.

التي قام بها السلطان سليم الثالث ومحمود الثاني والسلطان عبد المجيد ، وما نتج عنها من آثار على رجال الدين ، ففي هذه الفترة تحولت الخاصة منهم الى دعم الدولة بعد أن وقع الجفاء بينهم وبين الانكشاريين بحل أوجاقهم ، وسلك رجال الدين هذا السبيل للحفاظ على معاشهم ومورد رزقهم الذي ارتبط بالدولة بعد أن وضعت الأوقاف تحت إشرافها^(١) . إلا أن الفئة الثانية من رجال الدين قد وقفت ضد اصلاحات الدولة وكانت تضم في صفوفها طلبة العلم الشرعي (السفظة) وأصحاب الطرق الصوفية . ولم يبال هؤلاء بموقفهم هذا ، لانهم لم يعتمدوا في رزقهم على منح الدولة وعطاياها .

وتضمنت التنظيمات الخيرية التي قام بها السلطان محمود الثاني إلغاء نظام التيمار ، فتحولت أراضي الى أراض للدولة وجمعت ضرائبها لتمويل الجيش الجديد^(٢) ، وأدى ذلك إلى حرمان عدد من رجال الدين من ريع تلك الاقطاعات ، مما أثر على وضعهم الاقتصادي والاجتماعي . وأدى إدخال الدولة نظام التعليم الغربي ، إلى انتزاع ما كان لرجال الدين من نفوذ لدى تلامذة مدارسهم وأهلهم فأضعفه أيما إضعاف^(٣) . وزادت أحوالهم سوءاً في المرحلة الرابعة والتي كانت متداخلة مع المرحلة الثالثة التي ذكرناها ، ففي المرحلة الاولى التي شملت فترة الاحتلال المصري بكاملها ، لم يقووا على مقاومته كما لم يستطيعوا إعلان ولائهم للمصريين خوفاً من اغضاب السلطان العثماني . وأمام هذا الموقف اضطر كبارهم للفرار من دمشق مثل «القاضي والمفتي ونقيب الأشراف وغيرهم»^(٤) . ولم يكن هؤلاء مهتمين بتبديل سيد بآخر بقدر ما كانوا مهتمين بالحفاظ على مصالحهم الشخصية . بدلالة أنهم مالبنوا أن استرضوا

(١) يقول الدكتور عبد الكريم رافق :

« كثر تحول الملك الى وقف أهلي وذري ، لتحاكي مصادره من قبل الدولة . ولما كان الوقف مقتصر على المدن وجوارها المباشر ، حيث شاع الملك وعم تحويله الى وقف ، بينما كانت معظم الأراضي الزراعية في الريف أراضي دولة تعطى كإقطاع أو نجبي وارداتها عن طريق الالتزام فقد تحولت واردات الوقف لتغذية طبقة العلماء ، الذين كانوا نظارا ومتولين للأوقاف ، وجاء هذا الإجراء الجديد ليحرم العلماء من مصدر هام من مصادر قوتهم هذا ناهيك عن صدور المجلة فيما بعد بفضل جهود الفقيه المؤرخ أحمد جودت باشا والتي اشتملت قوانين مدنية مبنية على مزيج من القوانين الاوربية والشرعية فيما يتعلق بالأمور الجزائية والتجارية والعقارية وحق الجنسية واقامة المحاكم غير الدينية لتنفيذ قوانين تلك المجلة مما أفقد رجال الدين الكثير من نفوذهم وسلطتهم ومكاسبهم المادية » . انظر : العرب والعثمانيين . ص ٣٧٩ . وص ٣٨٠ .

(٢) انظر : رافق ، عبد الكريم . المشرق العربي في العهد العثماني ، ص ٢٧٧ .

(٣) انظر : رافق ، المشرق ص ٢٧٦ .

(٤) انظر : البيطار . حلية البشر ج ١ ، ص ١٩ .

ابراهيم باشا المصري وعادوا الى مناصبهم في دمشق . ولم يكتفوا بذلك بل أطنبوا ملقاً في كيل عبارات التمجيد لعزير مصر . وما جاء في خطبهم : « اللهم يا واجب الوجود فيك نسأل وبرسولك الأعظم إليك نتوسل بدوام عز دولة ولي النعم صفى الشيم الدستور الوقور المكرم والمشير المظفر والمعظم أعظم الوزراء في العالم مدير أمور جمهور أخص وأشرف بني آدم الخديوي الأعظم أدام الله تعالى ظل أبهة دولته ونصره وتأيدته في الامم أفندم سلطانهم »^(١) .

واستجابوا لطلب ابراهيم باشا في اصدارهم فتوى بخلع السلطان العثماني محمود الثاني ، واشترك في اصدار تلك الفتوى ، مفتي دمشق وعلمائها من جميع المذاهب^(٢) . وعندما قام ابراهيم باشا بعلمنة القضاء في دمشق شعروا بأن السيل قد بلغ الزنى ، وأن لامناص من دمار ماتبقى من مصالحهم نهائيا ، فادعوا أن هذا الإجراء يعتبر هجوما صريحا على الشريعة . والحقيقة أنه سيفقدتهم معظم امتيازاتهم الموروثة ، خاصة وأن هذه القرانين قد سارت بين المسلمين وأهل الذمة ، وزاد الامر ضعفا على إيالة إدخال المصريين لأهل الذمة في مجلس شورى دمشق ، والغاؤهم إلزام أموال الميري بعد أن أصبحوا يجمعونها بواسطة موظفين خاصين ، مما حرم بعض رجال الدين الملتزمين من موارد كبيرة كانوا يجنونها من خلال التزامهم لضريبة العشر من الفلاحين ،^(٣) ظلما .

ناهيك عن حقد السلفيين منهم على المصريين لضربهم الحركة الوهابية في الجزيرة العربية . كل ذلك أجج نار الحقد في صدورهم ورأوا في عودة السلطة العثمانية الى دمشق خير سبيل لاستعادة ما فقدوه من مكاسبهم . وبدأوا يحيكون المؤامرات مع المتضررين بالحكم

(١) انظر : ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا .. ص ١١٨ .

(٢) انظر : البيطار . حلية البشر ج ١ ، ص ٢٣ .

(٣) وما جاء في كتاب محمد علي باشا الى حكام دمشق المصريين بهذا الخصوص مايلي : «إنني لم أقصد من طرح هذه الضرائب على الأهالي جلب وفر لجانب الميري فقط ، بل إني رأيت في ذلك نفعا وسهولة يعودان على الجانبين معا ، فقد تيقنت بما يلقاه الاهالي من الجور والظلم والأذى والخسارة من الملتزمين حيث يأتون الى القرى التي التزموا عشرين وعشرين فيها فمأكل الملتزم ورجاله وعليق دوابهم ومأكول معارفهم الذين يبرون عليهم أثناء السفر جميع هذا على حساب الأهالي ، وليس بإمكان هؤلاء أن ينقلوا غلاتهم من البيادر ما لم يأمر الملتزم بذلك فقد تبقى هذه الغلال على بيادها حتى موسم الخريف وتعرض للتلف والفساد من جراء المطر ولوفر من حدوث مظاهر وأكل الحقوق بموجب النظام الجديد فانه سيكون نادرا كما اننا لانحجم عندئذ عن اجراء التحقيق اللازم » . انظر : عابدين : محفظة ٢٥٣ . رقم ٤٦ / المحفوظات . ج ٣ ، ص ١٢٠ و ص ١٢١ . نقلا عن ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا . ص ١١٧ .

المصري من الفئات الدمشقية ، ويطلقون الاشاعات التي تثير المشاعر الدينية لدى عامة المسلمين ، ويتحينون الفرصة المؤاتية للانتقضا ض على الحكم المصري .

ومن جهة أخرى يمكن تصنيف رجال الدين على ضوء موقعهم بالنسبة للمجتمع الدمشقي والسلطة العثمانية ومراكزهم الادارية الدينية ونشاطهم الاجتماعي ونسبهم الى أربع فئات أساسية هي : (المتصوفون ، والقضاة ونوابهم ، والموظفون الذين عملوا في سلك القضاء ، ثم المفتون والأشراف) .

المتصوفون وأهم طرقهم في دمشق^(١)

يمكن تصنيف المتصوفين في دمشق⁺ في فترة دراستنا هذه بثلاثة أصناف اجتماعية — متباينة ، وأولها فئة المتصوفين الذين عكفوا على العبادة وانقطعوا عن الناس في الزوايا والتكايا وغيرها ، ومارسوا شعائر ورياضات طرقهم الصوفية المختلفة وتراوحت ممارساتهم الصوفية بين الروحانية الصافية والخزعبلات المظهرية ، وكان للشعب فيهم اعتقاد وقصدوا للإستخارة والقال الحسن كما ادعى بعضهم «الكرامات» والقبطانية وفعل المعاجز والعلاج للأمراض^(٢) . وعمل بعضهم شيوخاً للاسواق في دمشق أو شيوخاً لطوائف الحرف . ولم يظهروا للناس ، وإنما سمحوا لبعض التجار بمقابلتهم في أماكن اقامتهم ، وجدوا بذلك سمعة دينية . ورفع البعض منهم الى مرتبة التقديس ، وادعى النسب الشريف ، ولبس التاج ، وادعى

(١) الطرق جمع (طريق) والطريق هو السبيل الذي يطرق بالأرجل أي يضرب . أما الطريقة فهي السيرة والحالة وطريقة الرجل مذهبه وقد ورد اللفظان (طريق وطريقة) في القرآن الكريم قال تعالى : (مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم) سورة الأحقاف الآية ٣٠ . وقال تعالى : (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً) سورة النساء الآية ١٦٨ . وقال تعالى : (إذ يقول أمثالهم طريقة ان لبثتم إلا يوماً) سورة طه . الآية ١٠٤ . كما قال تعالى : ويذهب بطريقكم المثل) سورة طه الآية ٦٣ . وورد في القرآن الكريم جمع طريقة كما في سورة الجن قال تعالى : (وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك . كنا طرائق مددا) سورة الجن الآية ١١ . وكان يطلق على شيخ الطريقة (شيخ السجادة) وتعني من يستقيم على الشريعة والطريقة والحقيقة وهي معربة من (سه جادة) والمراد بها الطرق الثلاث السابق ذكرها . انظر : اللهائوي — كشف اصطلاحات الفنون — مادة سجادة — نقلاً عن التفتازاني — المرجع السابق — ص ٦٦ .

(٢) انظر : المرادي سلك الدرر ... ج ٤ ، ص ١٩٠ ترجمة مصطفى البكري . ثم : ص ٢٢١ ترجمة مصطفى الشعباني .

النيابة المقدسة المحمدية وقصدتهم الهيئة الحاكمة للتبرك وللحصول على ود الشعب من خلال مرضاتهم.

أما الصنف الثاني من المتصوفين ، فكان ذا نشاط اجتماعي ديني ، تمثل في جمع الاتباع والمريدين ، ورأى الدمشقيون من خلال تنظيماتهم متنفسا لمعاناتهم اليومية الناتجة عن سوء الأوضاع الأمنية والاقتصادية والسياسية في المدينة . وبرز هذا الصنف في تنظيمات الطرق الصوفية المتعددة التي سنتناولها بالبحث بعد قليل .

أما الصنف الثالث فكان أقل الأصناف السابقة تماسكا ، وشمل عددا كبيرا من المسلمين الدمشقيين والغرباء بطبيعة الانتماء الى طريقة صوفية واحدة . ولم يعتكف هؤلاء في الزوايا للعبادة ، كما لم ينقطعوا عن الناس لهذه الغاية ، ولم يعزفوا عن المشاركة في الحياة العامة أو في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل أسهموا بدورهم فيها . وكان منهم من يعمل في صفوف طوائف الحرف والصناعات المختلفة . وكان هؤلاء من فئات اجتماعية مختلفة . فكان منهم رجل الدين أو رجل السلطة أو الفلاح أو العين أو الانكشاري الخ ... ، ومن خاصة رجال الدين من أخذ بأكثر من طريقة صوفية . فمثلا الشيخ عبد الغني النابلسي الصوفي الشهير كان نقشبنديا وقادري^(١) ، والشيخ حسين بن سليم الدجاني الشافعي أخذ الطريقة الأبراهيمية والقادرية ثم الأحمدية^(٢)

(١) انظر : المرادي سلك الدرر ... ج ٣ ، ص ٣٠ .

(٢) أسس هذه الطريقة السيد أحمد بن علي بن ابراهيم ويتصل نسبه الى علي بن أبي طالب ولد في فاس سنة ٥٩٦/هـ - ١١٩٩م ولقب بالبدوي لانه كان ملثما على عادة بدو أفريقيا رحل الى بعض الاقطار العربية والاسلامية وزار قري القطبين الصوفيين في العراق وهما عبد القادر الكيلاني وأحمد الرفاعي . وتقول الأسطورة التي تبحث في حياته أن القطبين المذكورين قد عرضا عليه المشاركة في معاتيج البلاد ومقاسمته اياهما في ذلك ولكنه اعرض عن ذلك قائلا : «إنه لايقبل تلك المفاتيح إلا من الله وحده ، مما يدل على أنه قطب صوفي وليس تابعا لاحد من الاقطاب الصوفية الآخرين . اكتسب ألقابا عديدة خلال رحلاته وكان منها في مكة لقب (القطاب) وعندما استقر في طنطا من مصر كان ينظر إلى الشمس من على السطح فقلده تلامذته وسموا بالسطوحية أو أصحاب السطح له مؤلفات هي : (حزب - صلوات - وصايا) وفي الوصايا يحض على التمسك بالقرآن والسنة وكان الاتباع يقومون بالاحتفالات في العهد المملوكي إلا أن الاحتفالات قد خفت في العهد العثماني نظراً لصرامة النظام . ومع ذلك بقي له التقديس من قبل المصريين واعتبر أكبر أوليائها وأطلق عليه (محبب الأسارى من النصارى) . أنظر : تفصيل ذلك في دائرة المعارف الاسلامية - المجلد الأول . ترجمة أحمد البدوي ص ٤٦٧

..... ← البدوية والرفاعية والشاذلية ومات

١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ - ١٨٥٨ م .

أما الطرق الصوفية فمفردها (طريقة أو طريق)، واطلقت على مجموعة الآداب والأخلاق التي تتمسك بها طائفة صوفية ما، وأصبحت لفظة (طريقة صوفية) تشمل مجموعة أفراد من المتصوفين الذين ينسبون إلى شيخ معين، ويخضعون لنظام من السلوك اليومي، أو يحيون حياة اجتماعية في إحدى الزوايا أو الربط أو الخانقاه، أو في بعض المدارس أو الجوامع، ويلتقون بشكل دوري أو في مناسبات دينية أو رسمية أو عندما تمس الحاجة، فيعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام ويتباحثون في المشاكل المختلفة. وبهذا يمكن اعتبارهم تنظيماً اجتماعياً له تأثيره الواضح على مدينة دمشق.

ولقد شكل الجهل الذي لف بنقابه الكثيف عقول الناس آنئذ والعجز في حل المعضلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وحتى الطبيعية، تربة خصبة لنمو الطرق الصوفية فتلقى الدمشقيون ممارسات الصوفية الشاذة وخزعبلات بعضهم وادعائهم بالكرامات وفعل المعاجز، بالقبول والتسليم. وربما وجدوا في ممارساتهم تلك وانضمامهم إلى تنظيماتهم، متنفساً لمعاناتهم اليومية، وتوهم معظم الناس في دمشق أن الصوفية معقد الرجاء وبلسم الجراح وملاذ لهم ضد غوائل الطبيعة والنكبات الاقتصادية، وأنهم يستطيعون فعل المعجزات. فبكراماتهم يمكن أن يبعدوا الزلازل ويدروا أخطار الفيضانات، ويستبدروا ماء السماء عندما تنحبس، ويدفعوا الغزاة ومهاجمي المدينة، ويوقفوا جائحات الكوليرا والطاعون ويشفوا المرضى ويخصبوا العاقر ويحضروا الغائب، فتسمنوا بذلك جاهاً اجتماعياً ونفوذاً سياسياً بارزاً. وقبلت العامة أعمال الجانحين وقول المتخربين منهم، فلم تستغرب سيرهم بأثمان بالية شبه عراة أو عراة في الشوارع أو مشاركتهم الكلاب في الأكل^(١) أو التمتمة ببعض العبارات المبهمة، وهم

وص ٤٦٩. ولقد تفرعت هذه الطريقة إلى فروع عديدة منها ما يسمى بالبيت الكبير وهي الانبائية، المرازقة - الكناسية - المنايفة - السلامية. ثم البيت الصغير وهي: الحلبية - الشعبية - التعانية - الحمودية - الزاهدية - ومن الطرق الأحمدية الأخرى: الفرغلية - الشناوية - السطوفية - اليومية. انظر: التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي - مدخل إلى التصوف في مصر، ص ٢٩٥.

(١) انظر: البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر... ج ١، ص ٥٢٧.

(٢) انظر: المرادي سلك الدرر.. ج ٢، ص ٦٧، ترجمة حسين الحموي. يقول المرادي في ترجمته «كان يطعم الكلاب مما يأتي إليه من الطعام، وربما أفرغ الاناء على الأرض وأكل معها. وقيل: أنه كان المتدرك بنواحي

يسيرون في الشوارع . واتصل بعض المتصوفين بالنساء في مناسبات عدة ، وعاشر بعضهم الغلمان ، وشربوا الخمر والحشيش ، وارتكبوا بعض الرذائل التي نهى عنها الدين على مرآى من العامة ، فلم (يجدوا من ينكر عليهم ذلك) . ويقول الدكتور توفيق الطويل « لو صدرت مثل هذه الاعمال من أي انسان عادي لتعرض صاحبها لاشد العقوبات وربما للموت ... فالمجذوب في رأيهم كائن عقله في السماء وجزئه الكثيف في الارض وانه حبيب الله ... ومهما ارتكب من الفظائع فان ذلك لا يؤثر في سمعته ... فعقله مستغرق بعبادة الله ، وما كان هذا السلوك إلا دجلا أو خيلا أو جنونا»^(١) .

ولقد تزايد تشعب الطرق الصوفية الرئيسة في دمشق . وازدادت سطحية في ممارساتها وطقوسها ويمكن تفسير ذلك بما آلت اليه الاحوال في الدولة العثمانية من التدهور والانحطاط ، وبعجز هذه الدولة عن مجابهة المعضلات الصعبة التي جابهتها ، فانتفى تحكيم العقل وغرق الناس في لجة الجهل ، ولم يستطيعوا كشف القوانين التي تتحكم بكل مظاهر الحياة ، فوجدوا في الغيبات والخرافات هروبا وسلوى ، وسادت روح التواكل ، وتوهموا أن علاج بعض هذه المعضلات يكمن في الانضواء تحت لواء التنظيمات الصوفية ، ويكمن الترياق في كرامات رجالها . ورأت السلطات العثمانية في تلك الطرق ملهاة للشعب وسندا لها ، فلاعجب اذا ماسعت الى مساندتها وتشجيعها . كما رأى البعض الآخر في دمشق ، في زعامة طريقة صوفية ، مايوفر الجاه الاجتماعي والريح المادي . فسعوا لتأسيس فروع خاصة بهم من الطرق الصوفية ، وسميت تلك الفروع بأسمائهم .

ونتج عن تغلغل الطرق الصوفية بين فئات مجتمع دمشق المختلفة ، أن على شأن شيوخها ، وسعى الحكام والاثرياء لمرضايتهم^(٢) ، وتوقف معظمهم عن طلب الرزق ، لطالما تأتيهم المساعدات والاعانات بغير حساب ، وعاشوا في بحبوحة من العيش .

الجامع الاموي وله كرامات ومكاشفات صريحة ، وللناس به اعتقاد عظيم ومن كراماته أنه رأى رجلا يحمل علبة لبن فناده وأخذها منه وصبها للكلاب فنظر الرجل فاذا فيها فرخ حية .. وكان يلبس الخشن من الثياب ويجلس على القمامات وكانت الكلاب لا تفارقه» .

(١) انظر : الطويل ، توفيق . التصوف في مصر ابان العهد العثماني ، ص ٦٥ .

(٢) يذكر المرادي في ترجمة الصوفي الياس الكردي المتوفى سنة ١١٣٨ هـ أن والي دمشق رجب باشا قد زاره وكان يقصده ويحبه فطلب منه الدعاء فقال له والله ان دعائي لا يصل الى السقف وما ينفعك دعائي والمظلومون في حبسك يدعون عليك ... وعرض عليه مائة دينار فأبى أن يقبلها وقال للبasha ... ردها على المظلومين الذين تأخذ منهم الجرائم . انظر : سلك الدرر ... ج ١ ، ص ٢٧٢ .

ومن جهة أخرى لم يكن بين المتصوفين ، إلا فئة قليلة سعت وراء العلم . وكانت تلك الفئة من خاصة رجال الدين الذين جاءهم الثراء والمال من مسارب شتى (كوظائف الدولة — والأقطاعات والدخول في تجارة داخلية أو خارجية) . ولم يكن هؤلاء منقطعين كلياً عن الناس ، أو معتكفين في الزوايا أو التكايا ودور العبادة المختلفة ، بل عاشوا شأن أبناء فئتهم الاجتماعية فتنبوا أو تزعموا طريقة صوفية ما في دمشق .

ونظراً لدور الطرق الاجتماعي والسياسي في دمشق ، سنحاول قدر الامكان كشف أصول هذه الطرق وفروعها وانتماءاتها وزواياها وتقاليدها ومظاهرها وطقوس عباداتها المختلفة ، وعلاقتها بالمجتمع الدمشقي والسلطات العثمانية ثم علاقتها مع بعضها البعض . فمن حيث الاصول والتفرعات نرصد الطرق الآتية :

النقشبندية — الخلوتية — السمرجلانية — المولوية — القلندية — الحيدرية — الرفاعية — القادرية — الجيلانية — السعدية أو الجبوية — الشاذلية — الصمادية — النحلوية — المحيوية — الرشيدية — البكرية — التغلبية — الهاشمية — التلمسانية — الأحمدية — العلوانية — الشيبانية — البرهامية — السهروردية — البكتاشية — الجيشتية — وغيرها من الطرق والفروع التي غاب عنا بعضها .

ولم تكن هذه الطرق على درجة واحدة من الأهمية في دمشق . وأبرزها ما تبتها الخاصة في استانبول وهي غالباً الطرق الصوفية الأصول ، والتي تفرعت بدورها على يد بعض الشيوخ فأسسوا طرقاً خاصة بهم أسموها بأسمائهم ، ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة إلا بطموح الشيوخ الشخصي لنيل الجاه الاجتماعي .

ولقد ترأس هذه الطرق في دمشق شيخ مشايخ ، الذي كانت مهمته التحدث على جميع الخوانق والفقراء ، وكان يتولى هذا المنصب شيخ خانقاه السمسياطية ، وكانت لديه سجلات وجرائد تحمل أسماء النازلين بالخانقاهات ، وسجلاً بمبالغ الأموال التي كانت تصرف على كل خانقاه وما إلى ذلك^(١) .

(١) انظر: الأربلي ، الحسن . مدارس السنية وعبادتها . تحقيق الدكتور . نقلاً عن مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . المجلد ٢٢ . ج ٥ . ص ٧٢ . ممدني الذي . ربيع الآخر سنة ١٣٦٦ هـ / آذار — نيسان سنة ١٩٤٧ م .

واختيرت الخانقاه السمسياطية مقرا لشيخ مشايخ الطرق الصوفية لقدسيتها ، نظرا لانها كانت دارا للخليفة الاموي الزاهد عمر بن عبد العزيز .

الطريقة النقشبندية^(١)

كانت من أهم الطرق الصوفية لصلتها برجال السلطنة العليا في استانبول ، وللدعم الذي قدموه لشيونخها في دمشق . ولقد جاءت هذه الطريقة الى دمشق عن طريق صلتها بالهند ، ولكن لم تظهر أهميتها في مجتمع دمشق إلا في أواخر القرن الثامن عشر على يد آل المرادي^(٢) وغيرهم ، ولقد لعبت الظروف التي طرأت على الهند في هذه الفترة دورا في دفع رجالات هذه الطريقة نحو المناطق الغربية من آسيا الاسلامية بما فيها بلاد الشام . وكان من أبرز شخصيات النقشبندية في هذه الفترة في دمشق المفتي محمد خليل المرادي (١١٧٣ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٦٠ - ١٧٩٢ م) ، الذي كان له مؤلفات عدة وعلى صلة برجال استانبول . وتصدى لمظالم والي دمشق أحمد باشا الجزار (فكاتب الدولة العلية وعزل أحمد باشا الجزار قهرا عنه)^(٣) وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على مدى نفوذ النقشبنديين الدمشقيين في استانبول ، وما لهذه الطريقة من اتباع لدى خاصتها . وكان لهذه الطريقة أتباع من خاصة دمشق والهيئة الحاكمة فيها ، فمثلا : الدالي باش الكردي الأصل الكنج يوسف كان نقشبندياً (وكان له معرفة من أعيان الدولة في استانبول ولكونه من مشروب الدولة عين

(١) أصل تسميتها فارسي مشتق من كلمة النقاش والمراد بذلك هو نقش صورة الكمال بقلب المرید . وأما مؤسسها فهو بهاء الدين النقشبندي البخاري (٧١٧ - ٧٩١ هـ) . انظر : التفتازاني أبو الوفا الغنيمي . مدخل الى التصوف الاسلامي ، ص ٢٩٧ .

(٢) أبرز أقطاب الطريقة النقشبندية هو جد آل المرادي (محمد مراد الأول) الذي ولد في بخارى عام ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ - ١٦٤١ م / والذي توفي سنة ١١٣٢ هـ / ١٧٢٩ م . والذي ترك مسقط رأسه واتجه الى دمشق والهند والقسطنطينية . واستقر في نهاية المطاف في دمشق . وكان قطبا من أقطاب الطريقة النقشبندية التي اكتسبها في إحدى رحلاته الى الهند . انظر : المرادي محمد خليل . عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام . ص ٨٦ . دمشق ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م . ثم سلك الدرر .. ج ٤ ، ص ١١٤ .
— وكان من أتباعها من الشخصيات البارزة في دمشق المتصوف الكبير الشيخ عبد الغني التابلسي ، استاذ الأساتذة العالم العلامة صاحب المصنفات العديدة . انظر : المرادي . سلك الدرر . ج ٣ ، ص ٣٠ وما بعدها . وكان من تلامذته السلطان مصطفى . انظر : غران بيتر . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٣) انظر : العبد ، حسن آغا ، تاريخه ، ص ١٠ .

والياً على دمشق) سنة ١٢٢٠٢ هـ / ١٨٠٨ م^(١). إلا أن هذا الوالي كان جاهلاً ومتزمتاً، فضيَّق كثيراً على حرية أهل الذمة، وقتل العديد من الدمشقيين ظلماً، وسعى لجمع الأموال بطرق مختلفة، وتقاعس عن تنفيذ أوامر الدولة بالتوجه إلى الحجاز لضرب الوهابيين واسترجاع الأماكن المقدسة منهم^(٢).

ونزوي مثلاً آخر على مدى نفوذ النقشبنديين في دمشق، في حادثة سجن القاضي لأحد شيوخها وهو الشيخ حسن بن إبراهيم البيطار الشافعي الأشعري النقشبندي «فقامت الناس على ساق وأظهروا حال الخلاف والشقاق ورعدت رعود الفتنة وسال سيلها. كل إنسان متقلد بأنواع السلاح فاضطر علماء دمشق وأعيانها للتدخل وإخراجه من سجنه فأحمدوا بذلك نار الفتنة قبل اندلاعها وكان مع نفوذ هذا الشيخ أن قابل السلطان عبد المجيد خان مرات عديدة وعرض عليه السلطان تخصيص راتب معاشي فرفض ذلك»^(٣).

ولبس خرقة المشيخة النقشبندية في دمشق أناس عديدون كالشيخ أحمد البقاعي المتوفي ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ - ١٧٩١ م^(٤)، وكان لهذه الطريقة زوايا عدة في دمشق وخارجها وأبرزها الزاوية النقشبندية بالقرب من منزل آل المرادي في سوق صاروجة، كما أقامت الذكر في التكية الكائنة في محلة القماحين في باب الجابية وكانت لها حلقات كبيرة^(٥).

وكان للزاوية دورها السياسي. فهي نقطة جمع يستأيع المجتمعون فيها مجابهة التحديات والمشاكل التي تواجه المدينة^(٦). ولقد تفرعت هذه الطريقة إلى فروع عديدة كان أهمها الطريقة النقشبندية المصلحة أو الخالدية، التي تنسب إلى الشيخ محمد أفندي ابن الشيخ نجم الدين ابن مولانا خالد^(٧).. ثم فرع الشيخ أسعد أفندي بن الشيخ محمود شقيق

(١) انظر: مجهول. تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص ٣٥ وص ٣٦.

(٢) المصدر السابق. ص ٣٨ وص ٣٩ وص ٤٠ وص ٤١ وص ٤٢.

(٣) انظر: البيطار، عبد الرزاق حلية البشر... ج ١. ص ٤٥ وص ٤٦ وص ٤٦٨.

(٤) انظر: الشطي، محمد جميل. أعيان دمشق... ص ٣٥.

(٥) غران، بيتر. المرجع السابق. ج ١، ص ٢٧٠. ثم المرادي. سلك الدرر... ج ٢، ص ٢٦٠ وص ٢٦٢.

(٦) غران، بيتر. المرجع السابق. ج ١، ص ٢٧٠.

(٧) هو خالد أبو البهاء ضياء الدين النقشبندي الدمشقي إقامة الشهرزوري الأشعري عقيدة — الشافعي

مذهباً النقشبندي المجددي طريقة ومشرى القادري السهروردي الكبروي الجشتي اجازة ابن أحمد بن حسين العثماني نسباً ينتهي نسبه إلى الوالي الكامل بير مكائيل صاحب الاصابع الست المشهور بين

مولانا خالد ، ثم فرع بني الخاني ^(١) ومن أبرزهم محمد الخاني النقشبندي الذي عينه السلطان عبد المجيد شيخا للتكية السليمانية بدمشق . وبرزت حركة التجديد في هذه الطريقة في أوائل القرن التاسع عشر . وكان معظم شيوخها من أصول غير عربية (فرس وأكراد) ، فمنهم أحمد الخطيب الأربلي الذي أقام في جامع المعلق ، وصار خليفة للشيخ خالد في السياغوشية ، ثم أفرد شيخه لإقامة ذكر الخواجهكان في جامع العداس مجمع الخلفاء والمريدين ومات ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م ^(٢) . ولم يبرز من بين شيوخ هذه الطريقة شخصية روحية بمستوى خالد النقشبندي الأنف الذكر سواء في تركيا أو في دمشق ، في حين كان معظمهم من التجار والأثرياء ورجال الدين البارزين ^(٣) .

الأكراد (بشيش انكشت) يعني ست أصابع لانه خلقة أصابعه هكذا . وهو الوالي المعروف بالانتساب الى الخليفة الراشدي عثمان بن عفان القرشي . ولد سنة ١١٩٠ هـ بقصبة «قره داغ» من أكبر صنّاجق بابان وهي من السليمانية نحو خمسة أميال . قرأ وتعلم على علمائها ثم رحل الى بغداد وعاد الى السليمانية ثم رحل الى «سندج» وقرأ فيها العلوم الحسابية والهندسية والاصطربال والفلكية على العالم المدقق (جغميتي) عصره وقوشجي مصره علاء الدين علي بن محمد . ثم عاد الى وطنه فوق الطاعون به سنة ١٢١٢ هـ ومات اثر ذلك معظم أساتذته . فتولى التدريس مكانهم ثم ذهب الى الحج سنة ١٢٢٠ هـ عن طريق الموصل وديار بكر والرها وحلب والشام واجتمع في دمشق بالشيخ محمد الكزبري حيث أجازته بالطريقة القادرية ثم زار المدينة المنورة وأدى مناسك الحج في مكة المكرمة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م ثم عاد الى دمشق ثم رحل الى ايران ١٢٢٤ هـ ثم الى بسطام وفرمان وسمنان ونيسابور وزار امام الطريقة البحر الطامي ابازيد البسطامي ثم تركها الى طوس وزار المقامات الشريفة فيها ثم زار بلاد هرات من الافغان ثم جهان آباد وأخذ الطريقة النقشبندية بعمومها وخصوصا علي شيخ مشايخ الديار الهندية الشيخ عبد الله الدهلوي واستقى في زاويته للذكر والمجاهدة وشهد له شيخه بالكمال والرسوخ والدراية — وأجازته بالارشاد وخلفه من الخلافة الثانية في الطرائق الخمسة وهي : النقشبندية والقادرية والسهروردية والكبروية الجشتية وأجاز له جميع مايجوز له روايته من حديث وتفسير وغير ذلك من العلوم الدينية واجتمع بالعديد من العلماء ثم رجع الى العراق سنة ١٢٢٦ هـ فكاد له حساده لدى حاكم كردستان فدخل الى بغداد سنة ١٢٣٨ هـ ثم عاد الى السليمانية واتصل بالعديد من أبناء كركوك والموصل واربيل والعمادية وعينتاب وحلب والشام . والمدينة المنورة ومكة المكرمة وبغداد وألف الكتب الكثيرة بالعربية والفارسية وألقى عصا ترحاله أخيرا في دمشق ليموت فيها سنة ١٢٤٢ هـ ودفن في مسجده بالصالحية . انظر : البيطار . حلية البشر ... ج ١ ص ٥٧٠ وما بعدها .

(١) انظر : الشطي . المصدر السابق ص ١٩٣ . ثم غران بيتر . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٢٧٨ .

(٢) الشطي : المصدر السابق ص ٣٠ .

(٣) انظر : الخالدي ، عبد المجيد الخاني . الانوار القدسية في مناقب السادات النقشبندية . ص ١٩ ، ويضم مقطعا من الفرق بين قرب الصنحابة الى محمد وقرب الاولياء الى محمد وهو ينظر الى الصنحابة بشيء من الازدراء ويؤكد الصدف التاريخية ورحمة محمد (ص) دون تأكيد تفهمهم أو حكمتهم الروحية أو

وقام مقام الشيخ خالد في دمشق الشيخ اسماعيل الأناراني الذي واطب على ارشاد المريدين لمدة /١٥/ سنة في جامع العداس^(١)، ثم الشيخ أحمد الأغريبوزي المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ /١٨٣٥ م ثم، أحمد السركلوي البرزنجي المتوفى أيضا سنة ١٢٥٠ هـ /١٨٣٥ م ثم اسماعيل البرزنجي المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ، وكان من أخصر جماعة الشيخ خالد، بالإضافة الى الشيخ اسماعيل البصري النقشبندي المتوفى ١٢٤٠ هـ /١٨٢٥ م، ثم محمد تنو المتوفى سنة ١٢٨٢ هـ /١٨٦٥ م الذي تلقى الدعوة لزيارة استانبول في سنة ١٣٥٢ هـ /١٨٣٧ م من السلطان محمود الثاني، ووجه دعوات مماثلة لغيره من النقشبنديين في دمشق لزيارة استانبول. وما اهتمام السلطان بذلك إلا لضمان دعمهم له في إجراءات الإصلاح^(٢).

وقامت الطريقة النقشبندية بمهامها التربوية شأن بقية الطرق الصوفية، ويبرز ذلك في آداب المريدين^(٣)، أما من الناحية التنظيمية فقد أصبح لها ولبقية الطرق الصوفية مشيخة عامة لصاحبها التكلم على جميع الطرق وذلك قبيل بداية القرن التاسع^(٤) وذلك قبيل بداية القرن التاسع. وكانت مشيخة المشايخ للطرق النقشبندية في آل خالد النقشبندي^(٥).

تقدیسهم على صراط الصوفي وهذه صفات اتصف بها الأولياء ووجود هذا المقطع هو نموذج للنقد السوري لحركة التحديث التي أسسها التجار والتي ركزت على الصحابة وهي حركة ظهرت في أماكن متعددة في القرن الثامن عشر.

- (١) انظر: الشطي، محمد جميل. المصدر السابق ص ٦٢.
- (٢) انظر: البيطار. المصدر السابق ص ٢٤٨ وص ٣٢٣.
- (٣) انظر: غران بيتر. مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني.. ج ١، ص ٢٧١.
- (٤) وهي: أولا: أن يكون مشغولا بالذكر القلبي سواء كان ماشيا أو قاعدا وأن يجري لفظ الجلالة على قلبه وأن يترك أصحاب السوء وأن يكون تاركا للفضول مختصرا على قدر الكفاية من المأكل والمشرب والملبس والمنكح، وأن يترك حب الدنيا ناظرا الى الاخوة، وأن لا ينام على جنباته وأن يكون مديم الطهارة وأن لا يطمع بما في أيدي الناس. وأن يحاسب نفسه على الدوام، وأن يتحرى أكل الحلال، وأن يصون لسانه عن نقل الحديث، فمن حفظ لسانه واستقام قلبه انكشفت له الاسرار، وأن يجالس اخوانه عند خيق الصدر الخ... أما آدابه مع شيخه فهي كثيرة منها أن يعظمه ظاهرا وباطنا وأن لا يعلق على تصرفاته ولو كان ظاهرها حراما، كما حددت آدابا للمريد مع اخوانه. ومع غير المسلمين أيضا. انظر: الاربي محمد أمين الكردي. الهداية الخيرية في الطريقة النقشبندية. مطبعة الحبانية سنة ١٣١٦ هـ.
- (٥) أصبح لكل طريقة شيخ ولكل شيخ خلفاء ونواب ولكل خليفة مريدون، والشيخ يدير أمر الخلفاء والخليفة أمر المريدين من حيث إرشادهم ومراتبهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.
- (٦) انظر: التفتازاني. المرجع السابق. ص ٦٦.

←

الطريقة الخلوتية^(١)

كانت أيضا من الطرق الصوفية ذات الشأن في دمشق ، لها أتباع كثيرون بين الفئات الحاكمة في تركيا ودمشق ، وهي ما أطلق عليها اسم (الفئة المدرسية) وكان منها فئة ثانية أطلق عليها اسم (الفئة التجريبية) ولم يكن تأثيرها السياسي كبيرا كالفئة الأولى . ويلاحظ ذلك من خلال تراجع شيوخ الخلوتية في دمشق الذين كانوا من أصول محلية (أو عربية) على عكس النقشبندية .

ومعلوماتنا تكاد تكون معدومة عن أول من أدخل هذه الطريقة الى دمشق . ولكن هناك بعض الاشارات في هذه الفترة على أن شيخها كان في آل اليافي . وكانت عادة هذه الطريقة أن لاتنصب خليفة لشيخها إلا أجنبياً^(٢) عنه . ودليلها أن النبي اختار الصديق للخلافة مع كونه أجنبيا عنه في وجود عمه العباس وابن عمه علي بن أبي طالب . وراعت هذه الطريقة تلك القاعدة . وتأكد لنا ذلك من اطلاعنا على أسماء شيوخها في دمشق ، وكان منهم الشيخ شاكر العقاد المولود سنة ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ - ١٧٤٥ م ، ثم حسن بن عبد اللطيف الدمشقي الشهير بالعمري المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٦ م ، وهو تلميذ لأحمد

(١) اشتقت هذه التسمية من الخلوة ، ولم يكن لاتباعها من علم أو زى يميزهم سوى لبسهم التاج وهذه الطريقة فارسية الأصل ترد في سندها الى أبي النجيب السهروردي (٤٩٠ هـ - ٥٦٣ هـ) مؤسس الطريقة السهروردية وقد لعب ابن أخيه أبو حفص عمر السهروردي البغدادي دورا كبيرا في تحديد آداب هذه الطريقة في كتابه (عوارف المعارف) وهو الذي يعتبر مؤسسها الحقيقي وكان السهروردي سنيا في اتجاهه وتأثر به سعدي الشيرازي شاعر الفرس ، وقد عني السهروردي في كتابه بالكلام عن الرياضة العملية لحياة الربط والخلوة أو السماع الى جانب عنايته بالبحث بالمتنمات والاحوال والمعرفة .

See: Trimingham «The Sufi orders In Islam» P.36.

ثم : التفتازاني . ص ٢٩٠ . والخلوتية طريقة مصلحة من السهروردية انتشرت بين الطبقات الحاكمة في تركية وسورية وكانت الخلوة من لوازم هذه الطريقة وهي الخلوة السرية للتفرد بالله في الذكر في مكان طاهر والأفضل أن يكون مسجد الجماعة وأن ينوي الفرد الاعتكاف والصوم . والأولى أن يتجرد عن كثرة الاكل والشرب . فان ذلك أولى . فان العطش في الطريق أمر عظيم بل هو مسرع الفتح إذا ساعد التوفيق والعناية ويشرب شيئا من الماء والدبس أو العسل ويكون ذكره في الخلوة . أنظر : المحبي . خلاصة الاثر . ج ١ . ص ٢٥٠ .

(٢) يقول المحبي : إن جده لوالدته أحمد القصيري كان شيخا لفرع من الخلوتية ، لا يختار خليفه إلا الابن أو الاخ أو أحد الاقارب وذلك لادخال الطمأنينة الى قلوب المريدين على اعتبار أن الخير لا ينقطع في ذرية الشيخ . انظر : خلاصة الاثر .. ج ١ ، ص ٣٨٩ .

البعلي الدمشقي الخلوتي^(١)، ثم عمر اليافي المتوفى ١٢٣٢ هـ / ١٨١٦ م — ١٨١٧ م، ورجل الفتوى هاشم التاجي الجنيني الذي اشتهر بفتاواه والمتوفى سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٧ م، ثم الشيخ محمد شمس الدين بن حسن الطباخ المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ / ١٨٢١ م، والذي أخذ الطريق عن أبيه وأصبح شيخاً للطريقة الخلوتية^(٢)، ثم الشيخ أمين أفندي الجندي^(٣) المولود سنة ١٢٢٩ هـ / ١٨١٣ — ١٨١٤ م والشيخ عبد الله الكتاني الصالح المولود ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م والمتوفى سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م.

ثم الخلوتية البكرية التي تنسب الى مصطفى البكري وهي خلوتية مصلحة. وكان شيخ هذا الفرع الشيخ محمد المبارك الذي أخذ الطريق عن المرشد العاقل الشيخ محمد المهدي الكلاوي، ثم عمر أفندي الغزي المتوفى سنة ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م وأخذ الطريق عن الاستاذ مصطفى النحلاوي البكري^(٤)، وكان لهذا الفرع من الخلوتية مكان لاقامة الذكر وافادة المريدن يقع في المشهد اليافي في (حجرة كبيرة) من الجامع الاموي^(٥). ثم الخلوتية المصلحة السفرجلانية التي ترأسها تاجر دمشقي ناجح هو خليل أفندي السفرجلاني (١٧٩٠ — ١٨٣٨ م).

أما الفرع الخلوتي الطباخي فكان شيخا له في سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٦ م، الشيخ يوسف الطباخ^(٦) ومن بعده الشيخ خالد النابلسي الدجاني ثم ابن شيخه حسن الدجاني الشهير بالطباخ، وكان لهذا الفرع حجرة في المدرسة السمسياطية يقيم الذكر فيها بعد صلاة الجمعة^(٧). ومن مشايخ هذا الفرع الشيخ محمد الزهدي بن عمر الدمياطي الاصل

(١) انظر: البيطار، عبد الرزاق.. حلية البشر.. ج ١، ص ٥٥٦.

(٢) انظر الشطي، محمد جميل. أعيان دمشق. ص ٢٤٨.

(٣) انظر الشطي. المصدر السابق. ص ١٤٠ وص ٢٤١ وص ٢١٣ وص ٢٩٠ وص ٤٤ وص ٦٧ وص ١٩٤.

(٤) الشطي. أعيان دمشق ص ٢١٥ وص ٢٦٢. ثم: غران، بيتر الاسس الاجتماعية في دمشق مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني، ص ٢٧٣.

(٥) الشطي. المصدر السابق ص ٢١١. ثم غران، بيتر. مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني. ج ١، ص ٢٦٨ وص ٢٧٩.

(٦) الحلاق، حوادث دمشق اليومية. ص ٦٣. ثم غران، بيتر. مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني، ج ١، ص ٢٨٠.

(٧) انظر: الشطي — المصدر السابق، ص ٧٥.

الدمشقي الحنفي، الذي أحيا هذه الطريقة، أخذ الطريق عن والده ومات متجة ١٢٧٠ هـ/١٨٥٤ م، ثم الشيخ محمد شمس الدين بن حسن المعروف بالطباخ الذي توفي سنة ١٢٣٧ هـ.

وكان للطريقة الخلوتية (مقدم) يساعد شيخها في إقامة الاذكار وتسليك المريدين. فمثلا محمد المهدي المغربي الزواوي المالكي كان مقدما لهذه الطريقة وكان يسلك المريدين وقيم الاذكار في المدرسة الخضيرية، توفي سنة ١٢٢٦ هـ/١٨١٢ م^(١). وكان للطريقة الخلوتية زاوية خاصة بها تقع بالقرب من باب جيرون. وكان أبو بكر الدسوقي الخلوتي الشافعي المولود في دمشق سنة ١١٢٤ هـ/١٧١٣ م يقيم الذكر والتوحيد على عاداتهم في تلك الزاوية^(٢). ويذكر ابراهيم الخياري الذي زار دمشق في القرن الثامن عشر ان هذه الزاوية كانت في باب البريد^(٣)، وعلى العموم فباب البريد وناب جيرون ليسا بعيدين عن بعضهما وربما التبس الأمر على الخياري كونه ليس من أبناء دمشق.

وكانت لهذه الطريقة زاوية وتكية بالقرب من باب الله خارج دمشق أنشأها الوالي أحمد باشا المعروف بكوجك أحمد الارنؤودي الذي حكم دمشق سنة ١٠٣٩ هـ/١٦٣٠ م^(٤). ومن مشايخ الخلوتية في دمشق أبو السعود بن أيوب الحنفي الدمشقي^(٥)، ثم يوسف المملوك الذي أخذ الطريق عن حسن الطباخ المتوفى سنة ١١٢٣ هـ/١٧١٢ م والذي أخذ الطريق بدوره عن الشيخ حسن الكتاني الصالحي^(٦) ثم محمد العباس الذي أخذ الطريق عن ابراهيم بن سعد الدين الخلوتي ولم يخلفه أحد من ذريته على زاويتهم^(٧)، ثم حسن النخال الذي أخذ الطريق عن مصطفى الصديقي الدمشقي ولقنه الذكر وأسماء وأحازه بالخلافة وألبسه كسوة الطريقة، وكان معاشه من عقارات ورثها عن آبائه يقتات بها كفافا^(٨).

(١) البيطار عبد الرزاق المصدر السابق ج ٢، ص ١٣٢٩ وص ١٣٣٧ وص ١٣٣٨.

(٢) المرادي، محمد خليل. سلك الدرر... ج ١، ص ٥٢.

(٣) انظر: المحبي، خلاصة الأثر، ج ١، ص ٣٨٥.

(٤) انظر: تحفة الادباء وسلوة الغرياء. ص ١٧١.

(٥) انظر المرادي. سلك الدرر. ج ١، ص ٦٣. ثم المحبي. خلاصة الاثر.. ج ١. ص ٣٨٥.

(٦) انظر: المحبي أيضا. ج ٢، ص ٣٥.

(٧) المصدر السابق. ج ١. ص ٤٢.

(٨) انظر: المصدر السابق ج ٢. ص ٣٤.

آداب الطريقة الخلوتية

كانت لهذه الطريقة آدابها وتقاليدها شأن بقية الطرق الصوفية . وكانت في معظمها شكلية تتعلق بمجاهدة النفس وقهر الجسد وتحديد نوع من الطعام وكمية ماء الشرب . ثم الانقطاع عن الأهل والولد والزوجة ... وسائر الناس . وكانت تقاليدها في هذا المجال تختلف من فرع الى آخر من فروعها^(١) وكانت لهم طريقة في الازكار يرددون في خلوتهم كلمة (لا اله إلا الله) آلاف المرات فلا تخرج تلك العبارة بعد ذلك إلا على شكل (هو هو هو) ، وينشدون كلام السادة الصوفية ويقوم بذلك أحد المنشدين أو يرددون ذلك سوية في مجالسهم ، كما كانوا يكثرون من الاستغفار والتسبيح والصلاة على النبي .

وكانت لهم تقاليدهم في خلوة الجماعة بحيث لا تتجاوز الثلاثة أيام ، أما الفرد الواحد فيخلو لنفسه حسبما شاء من ثلاثة أو سبعة أو خمسة عشر أو ثلاثين يوما أو سبعين يوما في العام ، أو العمر كله وهي الخلوة الكلية بالسر المطلق . ويرى بعضهم أن الانسان لا يتخلص من أحكام نفسه إلا اذا توالى مجاهداته لها وتتابعت خلوته حولا كاملا بحيث يسيطر على نفسه كلياً ولا تعود تستولي عليه .

ولقد اختار الخلوتيون اثني عشر اسما تذكر بالترتيب شيئاً بعد شيء على حسب الوارد^(٢) . وكانوا يتقيدون بنوع من الزي خاص بهم . كما تمسكوا بمظاهر أبعدهم كثيراً عن جوهر العبادة الصوفية الاصيلية . فكنت ترى المريدين أثناء الازكار محلقين يدورون وقد وضعوا أيديهم بعضها في بعض يذكرون الله في رقصة يسمونها الهوية قائلين (هو هو هو) وكان بعضهم يركبون أيديهم الى وراء أما رؤوسهم فيحركونها بالتصعيد والتسفيل والتلوي على هيئة لعبة يسميها النصارى ركض الديك^(٣) .

(١) انظر : الطويل ، توفيق ، المرجع السابق . ص ٦٨ .

(٢) يذكر الحبي في كتابه خلاصة الأثر ... أن أحد فروع الخلوتية في مدينة حلب . كان في كل ستة أيام من الشتاء له خلوة عامة يجتمع فيها المريدون فيصومون ثلاثة أيام ويأكلون عند المساء مقدار أوقيتين من الحرية ورغيفا من الخبز أكثر من أوقية ، ولا يشربون الماء القراح بل يشربون القهوة ويستمررون في الذكر والعبادة آناء الليل وأطراف النهار وأما باقي الايام فيقومون سحرا ويتجهدون على قدر طاقتهم ثم يأخذون في الذكر الى وقت الاسحار ثم يصلون الصبح لكون الشيخ حنفيا ويقرؤن الأوراد ويصلون الاشراف ، وهكذا يفعلون العبادات في أوقات الصلوات المفروضة .

انظر : ج ١ ص ٣٩٠ . ترجمة الشيخ إخلاصي الخلوتي .

(٣) انظر : الطويل ، توفيق . المرجع السابق . ص ٦٩ ، وص ٧٠ ، وص ٨٣ .

الطريقة المولوية

وكانت تتزيا بالزّي الأبيض وحددت لون الكلاة والنطاق في الوسط ، ومؤسس هذه الطريقة جلال الدين الرومي^(١) المعروف بملا خنكار (منلاخدا وندكار) دفين قونية أطلق عليه اسم «مولانا» ، ومن هنا اشتقاق اسم الطريقة ، وهو من أعظم شعراء الفرس على الإطلاق ويعرف أتباعه باسم «الدرأويش» أي الفقراء . وكانوا يحاولون في رقصاتهم الدائرية استرجاد على أنغام الموسيقى ، اشتهروا في أرجاء العالم الاسلامي ، وكانوا يدعون في أوربا بالدرأويش الراقصين^(٢) .

انتشرت هذه الطريقة في أنحاء الدولة العثمانية حتى بلغ عدد تلاميذها ٣٦٠ تكية وكان مركزها قونية . وكان لهذه الطريقة أتباعها في مدينة دمشق ، واسست لها تكية في عهد والي دمشق العثماني حسن باشا (٩٩٣ هـ) عرفت بتكية الدرأويش ، وكانت تقع بالقرب من جامع تنكز ولها محراب حسن ومنبر خشبي لطيف ، وإلى اليمين الداخل درجات ينزل بها الى

(١) هو محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد جلال الدين الرومي ، كان فيلسوفا وشاعرا عالما وفقها حنفيا . ولد بمدينة بلخ سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م وانتقل مع أبيه إلى بغداد وكان في الرابعة من عمره آنذا ثم درس بالمدرسة المستنصرية . ورحل بعد ذلك إلى قونية في سنة ٦٢٣ هـ ودرس على أبيه وانتسب الى خليفة أبيه برهان الدين المحقق الترمذي ، وأكمل دراسته بحضور حلقات علماء عصره في حلب ودمشق ، وعاد الى قونية فأكمل سلوكه في خدمة برهان الدين تسعة أعوام ، وكان بارعا في العلوم العقلية والنقلية ويؤم حلقة درسه جمع غفير من الطلاب من مريدي أبيه ، ومازالت أيامه تمضي بالتدريس ولياليه تحيا بالعبادة حتى تعرف بشمس الدين محمد التبريزي . فترك مجالس التدريس وشغف بالشعر والسماع . وأدى ذلك الى تعرضه للنقد وعاد الناس عليه باللائمة فاضطر صاحبه لترك قونية ثم عاد الى قونية وعادت بعودته مجالس السماع وعاد القوم الى قدحه ولومه ، وحاول مغادرتها مرة أخرى إلا أنه في هذه المرة منع من ذلك وقتل وألقيت جثته في بئر ، وعلم جلال الدين بما آل اليه أمره ، فذهب الى البئر وأخرج جثته منها ، فغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه في المقام المعروف بزاوية شمس الدين . اثر ذلك غادر جلال الدين قونية الى الشام وبعد وفاة صلاح الدين (جلبي) حسام الدين بدأ فترة حاسمة من حياته في التصوف والتأليف والتصنيف . وشغل الرياضة وسماع الموسيقى ونظم الاشعار وأنشدها ونظم كتابه «المثنوي» وتوفي في قونية سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م ، ولا يزال قبره فيها معروفا حتى اليوم . قائما في التكية التي أنشأها .

انظر : كيال ، منير ، رمضان وتقاليد دمشق ، ص ١٠٩ وص ١١٠ . ثم الحيارى ، ابراهيم . تحفة الادباء وسلوة الغرباء ، ص ٢١١ . ثم : دائرة المعارف الاسلامية . كلمة (جلال الدين الرومي) ، ص ٦١ وص ٦٢ . الترجمة .

(٢) انظر : التفتازاني ، أبو الوفا ، مدخل إلى التصوف الاسلامي ، ص ٢٩٨ .

صحن مستطيل يؤدي الى قبة الحضرة، حيث كان دراويش المولوية يقومون برقصهم المعروف، وفي قلب تلك الحضرة قبر لأحد شيوخها، وحوالي تلك الحضرة أيضا عدة غرف لسكن الدراويش^(١)، وكان يرأس الطريقة دائما واحد من سلالة جلال الدين يطلق عليه اسم جلبي^(٢).

ولهذا لانا لاحظ أحدا من رجال الدين الدماشقة استلم مشيخة هذه الطريقة في دمشق، وجميع من ورد ذكرهم في مشيختها في هذه الفترة هم من أصل رومي، لم تلعب هذه الطريقة دورا سياسيا بارزا كغيرها من الطرق الصوفية في دمشق، في حين كان لشيوخها السطوة التامة لدى أركان الدولة في استانبول وخاصة عند سلاطينها، ويظل مجلس السلطان العثماني غاصا بأشياخها. وحسبنا هنا أن نسوق مثالا على مدى الجاه الاجتماعي الذي تمتع به أحد شيوخها في انطاكية حيث «كان يمشي في موكبه مايقارب مائة رجل من حفدته ومريديه»^(٣).

على أن أبرز مشايخها في دمشق في هذه الفترة كان (الشيخ عبد الرحمن المولوي الرومي القونوي نزيل دمشق وشيخ تكية المولوية. قدم اليها واستوطنها وصار شيخا لها في تكيتهم وكان يحفظ كتاب (الثنوي) وكان خاتمة مشايخ هذا الطريق في دمشق وبعده لم يشابهه أولاده ولا الذين صاروا مشايخ لها من بعدهم ومات سنة ١١٥٧ هـ / ١٧٢٥ م ودفن في التكية المذكورة)^(٤).

ثم الشيخ عبده أفندي بن الشيخ صالح أفندي. ومعلوماتنا عن هذا الشيخ لا تتجاوز ماورد في سجل القسم العسكرية بدمشق حيث «نصب في ١٧ شوال سنة ١٢٥٣ هـ ناظرا شرعيا على الوصية الحرمه زينب بنت علوش آغا الارناؤوط على ولدها القاصر من بعلمها المرحوم محمد آغا بن يوسف آغا العنتلي، من قبل القاضي محمد طاهر أفندي نائب وقسام قاضي قضاة دمشق»^(٥). ومن مشايخها أيضا في الفترة الأخيرة، سعيد الاحمدي المولوي المتوفى سنة

(١) انظر: ابن عبد الهادي، يوسف: ثمار المقاصد في ذكر المساجد. ج ٣، ص ٢٠٠.

(٢) انظر: دائرة المعارف الاسلامية كلمة (جلال الدين الرومي)، ص ٦١. الترجمة.

(٣) انظر: المحيي. المصدر السابق. ج ١، ص ٥.

(٤) انظر: المرادي. سلك الدرر. ج ٢، ص ٣٢٩.

(٥). سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠، سنة ١٢٥٠ هـ - ١٢٥٤ هـ. ص ١٠١.

١٢٨٦ هـ / ١٨٧٠ م ويقول محمد جميل الشطي إنه : «خدم هذا المسلك باخلاص وصدق وحافظ على أملاك التكية المولوية وكان يطبخ الطعام كل يوم لمريديه الدراويش القاطنين فيها»^(١).

وكان من عادة هذه الطريقة ، اذا مات شيخها ، وضعت على قبره هيئة كسوته المولوية المتميزة التي كان يلبسها في حياته^(٢) . وحافظت هذه الطريقة على تقاليدها الخاصة بتسليك المريدين^(٣).

ولم تكتف الطريقة المولوية بعقد مجالسها^(٤) في يوم الاثنين والجمعة من كل اسبوع بل

(١) روض البشر ... ص ١٣٠ وص ١٣١ .

(٢) المرادي . سلك الدرر . ج ٣ ، ص ١٦١ .

(٣) أما طريقتهما في تسليك المريدين فكانت تتم على الشكل الآتي : يقوم الشخص الذي يريد سلوك الطريقة (أي التابع) بالطلب من شيخها أن يسمح له بمتابعة حلقات الذكر التي تعقدها ليلة الاثنين والجمعة من كل اسبوع . ريثما يقوم شاويش الطريقة بالبحث عن سلوك وأخلاق هذا التابع في حيه وبين أصحابه ومعارفه فاذا تأكد من سلامة سمعته وطويته وسلوكه يعلن الشيخ عن قبوله ويطلب منه إحضار الجبة الخاصة بهذه الطريقة ثم الكلاة أو السكة «طربوش خاكي اللون مخروطي الشكل» الخاصة بالرأس ويعين الشيخ موعدا للاحتفال بقبوله . ويبلغ شاويش الدراويش عن هذا الموعد . حيث يقلد شيخ الطريقة (التابع) الكلاة ويعلن قبوله درويشا في الطريقة وبعد أيام يولم الدراويش على سباط للدراويش ولحمة تسمى (لقمة الطعام أو ملح الطريقة) كي يتعرف بالدراويش فيصبح أخوا لهم في الطريقة والمخالحة وكان للطريقة في مجالسها ، أعباء توزعها على الدراويش وكل درويش يسمى بحسب العبد الملقى عليه . فهناك (الميدانجي) وهو مايعرف بالشاويش ومهمته التحري عمن يريد سلوك الطريق المولوي ، ثم (النيازان) وهو عازف الناي ثم (قدوم خان) وهو مناوب القدوم على النقارات ثم (القسي باشي) وهو يلاحظ الدراويش أثناء الدوران في حلقة الذكر ثم (النعث خانة) وهو قارئ الدعاء .

(٤) أما مجالسها فكانت تتم على الشكل التالي : يدخل الدراويش الى الحضرة (السمع خانة) قبل شيخ الطريقة بالألبسة التقليدية فيقبلون الأرض ويجلسون وبعد فترة وجيزة يدخل الشاويش (الميدانجي) فينهض الجميع فيحييهم باحناء الرأس ويحيي الحضور ويرد الحضور التحية ويقف الشاويش جانبا ومن ثم يدخل الشيخ فيحيي الجميع بنفس الطريقة وفي نفس الوقت يرد أحد المطربين (المنشدين) من الدراويش الجالسين في سدة عالية مخصصة لهم «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» ويمدها حتى يصل الشيخ الى البسط مركز جلوسه فيجلس ويجلس الجميع وبذلك يكتمل الحضور . ويبدأ الاحتفال بعشر من آي الذكر الحكيم يتلوه أحد المنشدين من السدة . ومن ثم ينهض (النعث خانة) فيقرأ التالي : إذا رمت المنى يانفس رومي — لمولانا جلال الدين الرومي . وعندما يصل الى كلمة «حضرة مولانا» تضرب ثلاث ضربات على القدوم فتبدأ النايات بالنفخ بأشراف (سماع مولوي خانة) وبمصاحبة القدوم ثم ينهض الدراويش ويبدأون

عقدت جلساتها في ليلة ٢٧ رجب والنصف من شعبان والمعراج ، والمولد النبوي الشريف وليلة القدر . كما كانت تتقدم جنائز الأعيان والأثرياء وبعض الصالحين وكان دراويشها ينالون جمالات ، بعضها من الناس الذين يرعونهم . وبعضها من الأوقاف التي حبست لزوايتهم . وكانت الطريقة المولوية برئاسة شيخها ، تشارك بقية الطرق الصوفية في توديع شهر رمضان

الدوران وينهض الشيخ عن البسط فيحيي الحضرة ثم يلتفت الى (العشي باشي) فيحييه ويدور الشيخ ويدور خلفه العشي باشي ومن خلفه الدراويش . وعندما يتأيل مع المشي عند البسط خلال الدوران يتبادلان التحية باحناء الرأس وهكذا يتأيل الدراويش الى آخر الدورة ثلاث مرات يعود بعدها الشيخ إلى مكانه وهو يدور ويعلق هذه الدورات الثلاث دورة (سلطان ولد) .

وخلال الدوران يضعون أيديهم على الصدر والقلب في هيئة الجمع وينطلق أحد المطربين من السدة بالمدايح النبوية بمصاحبة الناي . وبعدها تصاحب (القدوم) النايات وينزع الدراويش الجيب السوداء (الخرقايات) ويبدون بلباسهم الأبيض الفضفاض فيتقدم العشي باشي الى امام الشيخ فيحييه ويقبل يده ويرجع جانبا ويخزو حزوه الدراويش ومن ثم تبدأ حلقة الدوران مع الناي . وفي نفس الوقت يتوسط العشي الحلقة ويوزع أماكن الدراويش في الدوران ويشرف على دوراتهم حتى لا يصطدموا أثناء الدوران واذا بدا أي خلل ينبه المخطيء بضربة على الأرض بقدمه فيتبعه ويرجع الى الصواب ثم يدور العشي دورتين ويخرج من الوسط الى جانب الشيخ فيحييه ويرد الشيخ التحية وهنا يتوقف المطربون والدراويش ويعودون الى مجالسهم فيخرج الشيخ عن البسط الى نصف الحلقة فيحنى تحية للدراويش ويردون التحية ويعود الى مكانه . ثم يبدأ الانشاد بالمدايح النبوية بمصاحبة الناي والقدوم . وبعد المدايح تكرر طقوس الدوران مرتين أخريين ويدور الدراويش في كل مرة حتى لا يتعبوا وفي رابع مرة يكون الدوران في الأوج يخرج العشي من الحلقة الى امام الشيخ والدراويش يفتلون بالخرقاية السوداء مع الدراويش وعندئذ يتوقف الانشاد وتصاحب الذكر الناي والقدوم ويشرف مولوي خاتنة ثم بعد ذلك ينشد أحد المطربين من أعلى السدة بمصاحبة الناي مدايح نبوية وفي هذه الاثناء يرجع الشيخ وهو في حالة الدوران من وسط الحلقة الى مكانه على البسط وعند وضع قدمه على البسط يحني البسط ، وهنا يتوقف كل شيء ، ويرتدي الدراويش الجيب السوداء ويجلسون صامتين في أماكنهم لسماع عشر من القرآن الكريم ختام الحضرة ، وبعد الفاتحة ينهض الجميع يتقدمهم العشي الى الشيخ الذي يضع يده على صدره فيحنى العشي ويقبل يد الشيخ بينما يقبل الشيخ كلا العشي ، ومن ثم يقف العشي جانبا ويخذ حذوه جميع الدراويش ، وبعدها يقبلون أيادي بعضهم من أجل السماح عن بعضهم ان صدف أن أخطأ أحدهم أثناء الدوران عن غير قصد منه ثم يصرخ العشي بصوت عال «أي والله كايذان» لقراءة دعاء الختام ويكون بالفارسية ويقرأ الشيخ «تيايتي اذدان برما حاطر ناظر باق دملر صفالر رباد أولاد مقابلي شريف خير الله دام حضرة مولانا في القبور سر مكان هذا الرحاب هو وياكم هو» ، وبعدها يطلع الشيخ من على البسط ماشيا على قفاه فيحييها ويظل سائرا على قفاه حتى يخرج ، وبعد التحية يصرخ أحد المطربين من أعلى السدة بصوت عال وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ويمدها حتى خروج الشيخ من الباب ويخذ حذوه العشي والدراويش .

— وللطريقة المولوية احتفالاتها الخاصة في احياء ليلة ٢٧ من رمضان . وكان الشيخ يوم على سباط افطارا

عندما يتم الثلاثين يوماً ، وذلك في الجامع الأموي ، وفي مكانها المحدد ، بتلاوة الأوراد والأذكار والتهليل والتكبير والمدائح النبوية والتوديع .

الطريقة القادرية

كانت تتربى بالزري الانخضر ، أما ييارقها وعمائم أتباعها فيضاء . تنسب هذه الطريقة الى الشيخ عبد القادر الجيلاني^(١) الذي أنجب عدة أولاد منهم يحي وصالح وعبد الرزاق

لجميع ، وبعد صلاة التراويح يعقد الذكر في مقر التكية المولوية ، ويحضر ذلك من شاء من الناس ، ومنهم من توجه لهم دعوات خاصة . ويجري الذكر على نحو ما وصفناه . وبعد ذلك يخرجون من التكية يتقدمهم الشيخ والعشي باشي في شبه مظاهرة الى دار التغلبي في السبع طوال حيث يعقد ذكر آل التغلبي ، فيسهم الدراويش في ذلك الذكر بالدوران . وبعد ذلك يخرجون الى دار اليافي في القوافين قرب مسجد الأموي حيث يشاركونهم على نحو مشاركتهم عند آل التغلبي . ثم يخرجون الى دار الشيخ غزال في القيصرية ثم الى دار العيضة . ومن هناك الى دار القضماني عند جادة سني رابعة . فيشاركونهم في ذكرهم ويتسحرون عندهم ، وبعد السحور يذهبون الى المسجد الأموي فيدخلونه من الباب الشرقي للمسجد وينزلون بحالة الدوران من الطبقة الأولى دون موسيقى (ورد السحر) على شكل مشراط طويل يتقدمه العشي باشي حتى المترثم حيث يعودون الى مكان الانطلاق ويدورون ثاني طبقة وعند مقام النبي يحي ينزل الشيخ وهو يفتل وخلفه الدراويش وعندها يتوقف الذكر ويقرأ الشيخ دعاء الختام ولكنه بدلا من جملة (دام سر حضرة مولانا في القبور يقول سر نبي الله يحي) ثم يصلون صلاة الصبح ويخرجون . انظر كيال ، منير . رمضان وتقاليده الدمشقية . ص ١١٢ وص ١١٤ وص ١١٥ وص ١١٦ وص ١١٧ .

(١) هو السيد محي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن السيد عبد الله ابن السيد يحي الزاهد بن السيد محمد بن السيد داوود بن السيد موسى الثاني بن السيد عبد الله بن السيد موسى الجون (بضم الجيم) يعني الأبيض ابن السيد عبد الله المحض (وهو لقب معناه خالص) ابن السيد الامام الحسن المثنى ابن السيد الحسن السبط ابن الامام الهمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

— أما نسبه لأمه فهي : فاطمة بنت عبد الله الصومعي بن جمال الدين محمد بن محمود بن طاهر بن الامام أبي العطاء عبد الله بن الامام كمال الدين عيسى بن السيد الامام علاء الدين محمد الجواد بن الامام علي الرضا بن الامام موسى الكاظم بن محمد الباقر بن الامام علي زين العابدين ابن الامام عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب .

ولد في جيلان سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ثم ترك جيلان وجاء الى بغداد سنة ٤٨٨ هـ / والتحق بالمدرسة النظامية ثم أخذ قسطا من الفقه الحنبلي وكان على المدرسة النظامية آنذا أحمد الغزالي الصوفي المعروف وخلفه عليها أخوه أبو حامد ، ولقد استلم أول تقليد للخرقة في الفقه الحنبلي على يد سعيد علي المفارحي على طريقة الخضر ولكن لا توجد أي دلائل تشير الى أنه تلقى أية تمارين صوفية إبان عمله في مدرسة الخير حماد والدباس سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م .

وترك المدرسة هذه وساح في بادية العراق زاهدا في الدنيا لمدة دامت خمسا وعشرين سنة كاملة وذلك

(٥٢٨ — ٦٠٣ هـ) وعبد العزيز المتوفى سنة ٦٠٢ هـ، عمل عبد العزيز وعبد الرزاق علي نشر تعاليم والدهما بجد وإخلاص كما قام تلامذته بتدريس مذهبه في العالم الإسلامي، ونهج بعضهم منهمجا منسجما مع تعاليمه وأسسوا فروعاً لهذه الطريقة. وأبرز هؤلاء علي الحداد في اليمن ومحمد البطاحي في سورية ومحمد بن عبد الصمد في مصر^(١). واتسمت طريقة عبد القادر الجيلاني بشكل عام بالطابع الخلقي في تربية التلامذة (وايصالهم الى تجريد التوحيد والحضور في موقف العبودية)^(٢). وقد امتدح ابن تيمية طريقته لتقيدها بالكتاب والسنة. وطريقته هذه كانت نظاماً عاماً أكثر منها طريقة صوفية محددة. انتشرت هذه الطريقة مع فروعها في معظم الأقطار الإسلامية مثل اليمن وسورية ومصر وأفريقيا والسودان والهند وتركيا وأصبحت من الطرق الكبرى وظل عبد القادر بطريقته تلك ملهماً للملايين من المسلمين حتى يومنا هذا^(٣).

ويبدو أن هذه الطريقة قد ترسخت أقدامها في دمشق بفضل آل الكيلاني الحمويين الذين جاؤوا الى دمشق واستقروا فيها، ومن أبرزهم اسحق الكيلاني المولود سنة ١١١١ هـ/ ١٧٠٠ م الذي أخذ الطريق عن والده ولقنه الذكر واشتهر أمره بين الناس وكان الحكام والقضاة يجلبونه^(٤) ولاغربة في ذلك اذا ما علمنا أن آل الكيلاني يدعون انحدارهم من

حتى سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م/ حيث عاد الى بغداد وقد تجاوز عمره الخمسين عاماً وهنا برز كمبشر وواعظ واعتبر الحلاج على خطأ وبدأت شهرته تنتشر كزاهد حنبلي وليس كصوفي. وحافظ علي زي العلماء ولم يلبس زي المتصوفين وسكن وأسرته في رباط تابع لمدرسة أنشأها له تلامذته سنة ٥٢٨ هـ/ ١١٣٤ م. لا يوجد لدينا أي دليل على أنه قام بتسليك المريدين فيها كما لا نرى في هذه الفترة أي شخصية صوفية تدعي لنفسها الانتساب لمدرسته الصوفية في تلك الفترة من الزمن.

كتب عنه في هذه الفترة كل من أحمد الغزالي وأبو نجيب السهروردي وأبو يوسف الحمداي وتقي الدين الواسطي واتفق هؤلاء على أنه كانت لعبد القادر احتفالات دينية ودورات تعليمية دينية أيضاً ولكنه لم يهدف الى نشر طريقة صوفية خاصة به. وعلى ما يبدو أنه بعد وفاته ومع مرور الأيام اتخذ بعض أناس معينين خرقته معتمدين في نشرها على بركته وسرعان ما انتشر في الافاق الإسلامية.

(١) انظر: أبي النصر. حسنين. الشجرة الذكية في مناقب السادة البازية والقادرية والرفاعية طبع استانبول سنة ١٣٠١ هـ ثم القادري محمد. نزهة الخاطر في ترجمة سيدي عبد القادر. طبع استانبول سنة ١٣٠٧ هـ.

(٢) القادري. المصدر السابق.

3 - Trimingham, op.cit. PP.40,41.

(٤) انظر المرادي، محمد خليل، سلك الدرر ... ج ١. ص ٢١٩ وص ٢٢٠.

مؤسس الطريقة الاصل (عبد القادر الجيلاني). ومن مشايخهم أيضا ياسين الكيلاني^(١) ومريده الشيخ حسين البيهيمياني الذي أخذ الطريق عنه وقام بالتدريس في زاويتهم الكائنة تجاه الشيخ محمد الحميري في ميدان الحصا. وكان يقيم الذكر في مدرسة اسماعيل باشا العظم بالخياطين ومات سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٩٣ م^(٢). ومن أبرز مَنْ ورد ذكرهم من شيوخها في كتب التراجم في هذه الفترة، الشيخ أحمد البقاعي والشيخ طه الكردي المتوفى سنة ١٢١٠ هـ. ثم الشيخ حامد العطار تلميذ طه الكردي ثم الشيخ قاسم الحلاق المولود في دمشق سنة ١٢٢٣ هـ والشيخ محمد طه غزال^(٣). ولقد اشتهر شيوخها بالتواضع وعدم ابراز الابهة في مواكبهم على عكس بعض شيوخ الطرق الصوفية آنذ^(٤). إلا أنه من جهة أخرى، كانوا بدعون اتيان الخوارق والمعاجز والكرامات لانفسهم والزواج من بنات الجن وانجاب البنات منهن كما يذكر الشيخ محمد جميل الشطي^(٥).

ولقد تفرعت هذه الطريقة شأن الطرق الصوفية الأخرى الى فروع عدة، كان أهمها في دمشق الفرع الكيلاني، وأبرز شيوخ هذا الفرع، الشيخ محمد سعيد الكيلاني المولود في دمشق سنة ١٢٣٧ هـ / ١٨٢٢ م، ويصفه عبد الرزاق البيطار بقوله: «خدم طريقة جده حسب المراد وجلس على سجادة المشيخة وجعل داره مورد المريدين ومأوى القاصدين»^(٦). ومن فروعها أيضاً الفرع الصمادي، الذي ينسب الى الشيخ ابراهيم الصمادي الذي جلس على سجادة المشيخة في زاويتهم التي بناها داخل باب الصغير الجواني، وكذلك من شيوخها الشيخ عبد القادر بن موسى الذي خلف والده ولزم الزاوية لايرحها إلا في الجمعيات ومراسم العيدين وشهود بعض الجنائز وتهنئة حكام الشرع والسياسة أو لأمر يتعلق بأهل البلد. وقبل وفاته ١١٢٤ هـ، عين مقدما للطريقة الشيخ علي الطيان ثم جلس على سجادتها أخوه من بعده^(٧)، ثم السيد عبد القادر الصمادي الذي وجهت عليه رتبة السليمانية وتولية وقف

(١) المصدر السابق. ج ٤، ص ٢٣٨. ثم ج ١. ص ٢٩٢.

(٢) المصدر السابق. ج ٤، ص ٦٨.

(٣) انظر: الشطي، محمد جميل. المصدر السابق. ص ٣٥ و ١٥٦ و ٧٣ و ١٧٤ و ٢٢١ و ٢٤٦.

(٤) انظر: المحبي. المصدر السابق. ج ١. ص ٢٩٢ و ٣٩٣.

(٥) انظر: كتابه أعيان القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر. ص ٢٤٦.

(٦) انظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. ج ٣. ص ١٣٣٩.

(٧) انظر: المرادي. المصدر السابق. ج ٣. ص ٦٠ و ٢٥٨.

السلطان ابراهيم بن الأدهم ١١٩٥ هـ، ولقد خلف والده على مشيختها^(١). ثم الشيخ أحمد الكزيري الذي كان مدرسا تحت قبة النسر بالجامع الأموي، وجهت عليه مشيخة الصمادية القادرية ومات سنة ١٢٩٩ هـ^(٢). ومن فروع القادرية أيضا الفرع المواهبي، الذي كان يقيم الاذكار في مسجد محلة سوق الحجارين الذي تحول بعد ذلك إلى زاوية لهذا الفرع، وكان من مشايخه حسن الزيات^(٣).

ومما تقدم نرى أن الطريقة القادرية لم تبق وقفا على أبناء اسرة الجيلاني في دمشق بل تشعبت الى فروع عديدة، على يد شيوخ من أسر دمشقية مختلفة. ويمكن تفسير هذا التشعب على أنه ظاهرة اجتماعية كانت لها مبرراتها ضمن اطار هذه الفترة التاريخية.

الطريقة الرفاعية

تنسب الى الشيخ الشريف أحمد الرفاعي^(٤) ٥١٢ هـ — ٥٧٨ هـ / ١١١٦ — ١١٨٢ م. وكانت تنزيا بالزي الأسمر والأبيض. وكان الرفاعيون من أصحاب

- (١) انظر: الشطي، محمد جميل، المصدر السابق. ص ١٨٥.
 - (٢) انظر: البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر... ج ١، ص ١٦٧.
 - (٣) انظر المرادي، محمد خليل. سلك الدرر.. ج ٣، ص ٥٧. ترجمة عبد القادر شاهين.
 - (٤) هو أبو العباس أحمد الرفاعي محي الدين أبي الحسن بن السيد علي بن السيد يحيى بن السيد ثابت بن السيد حازم بن السيد أحمد بن السيد علي بن السيد رفاعة احدى القبائل العربية الحسن المكّي بن السيد المهدي بن السيد محمد أبي القاسم بن السيد الحسن بن السيد الحسين بن السيد أحمد الأكبر بن السيد موسى الثاني بن السيد ابراهيم المرتضى ابن السيد موسى الكاظم بن السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد علي زين العابدين بن الامام الحسين بن الامام علي بن أبي طالب.
- عاصر عبد القادر الجيلاني لذلك يدعي البعض أن طريقته هي فرع من القادرية وهو غير صحيح بدلالة توضيح طريقته ابان حياته في حين أن الطريقة القادرية لم تبرز كطريقة (لها خرقه) إلا بعد ممات الجيلاني بفترة طويلة من الزمن وحتى بعد الطريقة الرفاعية.

ولقد تميزت الطريقة الرفاعية بالعديد من الطقوس والمظاهر. قام بوضع ذلك وبالتفصيل شيخها (أحمد الرفاعي المذكور) بنفسه وانطلقت هذه الطريقة من أم عبيدة بالبطاح بالعراق ولهذا سميت بالبطاحية أو الرفاعية. ومعلومتنا عن أحمد الرفاعي قليلة أما طريقته هذه فهي قرية من السهروردية رغم أن الرفاعي ولد من أسرة عربية وأمضى كامل حياته في مسقط رأسه (أم عبيدة — البطاح) التي تقع ما بين البصرة وواسط وكانت هذه المنطقة محاطة بالمستنقعات لوقوعها في جنوب العراق حيث شط العرب وغزارة المياه. ولم يترك الرفاعي مسقط رأسه إلا مرة واحدة عندما ذهب الى الحج سنة ١١٦٠ م. أما تحصيله العلمي، في مجال الفقه والتصوف، فكان قليلا كما لم يكتب شيئا سوى بعض الأوراد القليلة التي تعزى إليه ورغم ذلك فلم

الاشاير والمراد بها سيرهم مع العديد من الطرق الصوفية ليلا حاملين الشموع رافعي الاصوات بالذكر والتهليل والصلاة والسلام على سيد المرسلين، إلى أن يصلوا الى مكان الاحتفال أو المكان المحدد لهم. وكانت عادة هذه الطريقة المصنافة، لزعمهم أن الشيخ أحمد الرفاعي قد صافح النبي ﷺ وذلك تأكيداً منهم على رابطتهم الحسية والمعنوية مع النبي محمد ﷺ. ولقد تفرعت هذه الطريقة بدورها الى بيوت وفروع عديدة^(١). وكان أبرز

تكن هذه الازواد على مستوى عال من الاتقان والعمق إلا أن المنطقة التي عاش فيها كانت مؤثلاً للحركة الصوفية العربية. خاصة مدينة البصرة التي كانت قاب قوسين أو أدنى من موطنه فمنها جاء معروف الكرخي (٨١٣م) والذي كان والداه من الصابئة وكان شيخه علي أبو فاضل القاري الواسطي الذي أدخله في طريقته وأنه ورث مجموعة دينية أطلق عليها اسم (الرفاعية) لأن منصور البطاحي (عمه لأمه) والمتوفى سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م) أعطاه الخرقه عندما كان في السابعة والعشرين من عمره وأقره عليها في بلدته (أم عبيدة) وبعد وفاة شيخه هذا أصبح شيخاً للطريقة وتقلد سجادة ارشادها أو تاجها الروحي كما كتب ابن خلكان في حدود سنة ٦٥٠هـ/١١٥٦م.

ان أبا العباس أحمد بن أبي الحسن علي عرف علي أنه بن الرفاعي وكان رجلاً ديناً وفقهاً على المذهب الشافعي... انضم اليه عدد كبير من الفقهاء الدراويش الرفاعية أو البطاحية واشتهر أتباعها بالتعامل بالأفاعي الحية. كما اشتهروا بإدخال الخناجر والسيوف والأشياء المتقدمة في أجسادهم أو القبض عليها ثم أكل الزجاج دون أن يصابوا بأذى. ويعتبرها البعض على أنها من معاجز الصوفية وكرامة من الله لهم.

انظر: أبو النصر، حسنين، الشجرة الذكية في مناقب السادة البازية والرفاعية والقادرية. ص ٢٧.

ثم انظر: التفتازاني، المرجع السابق، ص ٧٥.

ثم انظر: Trimingham . op.cit. pp:37.38

ولزيد من التفصيل يمكن العودة الى دائرة المعارف الاسلامية ج ١٠، ص ١٤٧ و ص ١٤٨. و ص ١٤٩ — الترجمة.

(١) يذكر الدكتور توفيق الطويل أن الطريقة الرفاعية لها ثلاثة بيوت هي: البازية — الملكية — الجبسية والفرق بين الفروع والبيوت أن لكل فرع شيخاً. أما البيوت فجميعها لها شيخ واحد. انظر كتابه: التصوف في مصر ابان العصر العثماني. ص ٧٧ و ص ٧٨.

ولانرى في دمشق من بيوتها أو فروعها إلا القليل. وقد تمحلت على يد بعض الأسر والشخصيات الدينية امثل فرع الحريري الذي ينسب الى أبي محمد علي الحريري المتوفى في بصرى من حزيران سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٨م. والمعروف أن الحريري كان ملامتياً. وكانت هذه الطريقة وفقاً على الأشراف ثم انتقلت الى دمشق بانشاء زاوية لها هي الزاوية الطالبيه التي أقامها طالب الرفاعي المتوفى سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م ومن فروع الرفاعية أيضاً الطريقة الحيدرية وهي طريقة باطنية تركزت في خراسان جنوب مشهد اشتق اسمها من قطب الدين حيدر وحلت محل القلندرية وانشأت لها خاناته تابعة لابي بكر طوسي القلندري على ضفة نهر جومنا. وأسس هذه الطريقة في دمشق محمد بن يوسف بن جمال الدين الصواجي حبث لجأ الى دمشق فاراً من وجه المغول الغزاة واستقر فيها سنة ١٢٢١م ومات سنة ٦٣٢هـ/١٢٦٢م

فروعها في دمشق الفرع الجباوي أو السعدي . وينسب هذا الفرع (الجباوي أو السعدي) إلى سعد الدين أبي محمد الشيباني الجباوي . أخذ الطريق عن والده مزيد الشيباني ، وانتشرت به الخرقة السعدية وعمّر رواقا في قرية جبا من أعمال دمشق ، وأرشد بها السالكين ، وكان للشيخ مزيد طريقان في الخرقة ، الأول منهما عن أبيه الشيخ يونس الكبير الشيباني ، الذي يصل إلى الإمام علي بن أبي طالب ، والثاني عن الإمام القطب الشيخ أحمد الكبير الرفاعي^(١) . ولقد اتخذت الطريقة الجباوية اللون الأخضر زيا لها وانتشرت في البلاد الشامية واستانبول وكان لهذه الطريقة أكثر من مكان في دمشق لاقامة الأذكار والأوراد وتسليك المريدين . كما كان لها زاوية في القبيات من الميدان ، تقيم التوحيد والأذكار فيها .^(٢) وكان لآل سعد الدين زاوية في الشاغور البراني ، لها أوقاف محبوسة عليها ويقام فيها الأوراد والأذكار^(٣) ، وكانت هذه الطريقة

ولقد لاحظ «فريزر» عندما زار بغداد ١٨٣٤ م ، أن دراويش هذه الطريقة يشتغلون بالكيمياء القديمة ومنهم المنجمون والعرافون — وانهم يلفون على أكتافهم جلود الأسود والفهود أو الوعول غير المدبوغة ويسمحون لحصل شعرهم بأن تنمو حسب الإرادة أو يضفرونها بأشكال مختلفة غريبة . وقلما يسرون وهم بدون سلاح وهم دوما مزودين تزويدا حسنا بالوسائل التي يستخدمونها في صنع بعض الظواهرات الكيميائية التي تلفت النظر وبمعاجين العشق وأثرية المحبة والرقى والتعاويد ومختلف وسائل فتح البخت وعلم الغيب لتساعدهم في انتحالهم للمهارة في شؤون الكهانة والعرافة . انظر : فريزر ، جيمس بيلي . رحلة فريزر إلى بغداد . ١٨٣٤ م . ص ١٦٠ .

كما يميز فقراؤها بوضع الأساور الحديدية في أيديهم والاطواق في أعناقهم وكذلك الأقراط في آذانهم حتى انهم يضعون الأطواق في أعضائهم الذكرية بحيث يمنهم ذلك من ممارسة الجماع . وهذا يعني في عرفهم كرفاعية (انتصار الروح على الجسد الفاني) ولقد انتشرت هذه الطريقة في إيران وسوريا ثم الاناضول والهند ثم ذاب اتباعها في الطريقة القلندرية .

وكان للطريقة القلندرية الحيدرية زاوية في دمشق تقع ظاهر دمشق قرب العونية وفيها دخلت الفقراء الحيدرية الشام وكان من شعار هذه الطريقة في دمشق لبس الفراجي والطرايطر وقص لحاهم وترك شواربهم وهو خلاف السنة وقاموا بذلك اتباعا لشيخهم حيدر حين أسره الملاحدة فقصوا لحيته وتركوا شواربه فاقتدى هؤلاء في ذلك وهو معذور مأمور وليس لهم قدوة .

انظر : النعيمي — عبد القادر «الدارس في تاريخ المدارس» ج ٢ . ص ٢١٢ .

والدرويش القلندري كان يعمل على غريب العادات فلا يعتد بهيئة ولايالي بما يعرف عن حاله وما لايعرف ولا يتعطف إلا على طيب القلوب وهو رأس ماله . انظر : الطويل ، توفيق . المرجع السابق . ص ٨٤ .

(١) انظر : البيطار . حلية البشر . ج ١ . ص ١٤ وص ١٥ .

(٢) انظر : المرادي محمد خليل سلك الدرر ... ج ١ ، ص ٤١ .

(٣) انظر : المصدر السابق . ج ١ ، ص ٤١ وص ٤٢ . يقول المرادي هو : «ابراهيم سعد الدين المكنى «أبي» «أبفا»

بن يوسف عبد الباقي بن أبي بكر بن بدر الدين بن حسين بن محمد بن سعيد بن أبي بكر بن الحسين

تقيم حفلة ذكر لها في الجامع الأموي يوم الجمعة بعد الصلاة.^(١) وفي فترة متأخرة من القرن التاسع عشر كانت تقيم حلقات ذكرها في المقام التوحيدي الكائن في محلة القيمرية وذلك ليلة الجمعة من كل اسبوع وليلة الاثنين أيضا^(٢) واستقر فقراء هذه الطريقة في مسجد تركي حسن في الميدان الفوقاني^(٣).

وبقيت مشيخة هذه الطريقة في أبناء وأحفاد وأسياط استاذها وشيخها المؤسس سعد الدين الجباوي، سواء في دمشق أو في بعض المدن الشامية، ولقد نشبت خلافات بين أفراد هذه الاسرة على مشيختها وأماكن اقامة الاذكار والاوراد الخاصة بها^(٤). كما حصل لها في مدينة حلب حيث يورد لنا المحبي أخبار هذا الخلاف الذي وقع بين أبي الوفا ابن محمد السعدي الذي ورث مشيخة الطريقة عن والده، وبين الشيخ عبد الرحيم السعدي الذي كان أكبر سناً أكثر اتزاناً من الأول، مما دفع بالقاضي لعزل أبي الوفا. فدر قرن الفتنة بين أتباع الطرفين ورعدت رعودها، مما دفع بالشيخ محمد بن سعد الدين للذهاب من دمشق الى حلب وتدخل بالأمر فأطفأ نار الفتنة^(٥).

ولقد جلبت هذه الطريقة لآل الجباوي وسعد الدين المال والجاه الاجتماعي في دمشق وغيرها. وكان سلوك شيوخها لا يختلف عما كان لدى الخاصة من رجال الدين آنذ. فكانوا يسعون لتأمين مصالحهم الشخصية أولاً ولو كانت على حساب الشعب. ونسوق مثالا على ذلك ما حصل ابان تمرد علي باشا جانبولا والأمير فخر الدين المعني، ومحاولتهما دخول دمشق

ابن علي الأكحل بن الاستاذ الشيخ سعد الدين بن موسى الشيباني الجباوي المعروف بأسلافه بابن سعد الدين الشاغوري... وبنو سعد الدين أشهر من كل مشهور وهم قوم مجاذيب صلحاء يغلب عليهم التغفل الحركات وهم معروفون بالصلاح وقد خرج منهم جماعة أجلاء. زاويتهم وسجادة خلافتهم مقرها الميدان في دمشق (بمحلة القبيات) بها يقيمون التوحيد والاذكار غير أن المترجم وأسلافهم كانوا قاطنين في محلة الشاغور البراني ولهم زاوية وأوقاف تولى تولية وقف الجامع الأموي الشريف وبعد وفاته لم يخلفه أحد من ذريتهم على زاويتهم. أقول: ولقد قمت بتفقد هذه الزاوية في حي الشاغور بتاريخ ١٩٨١/١/٦ م فوجدتها أصبحت مسجدا للصلاة فقط.

- (١) انظر المحبي. خلاصة الاثر. ج ١، ص ٣٣.
- (٢) انظر: كيال، منير. رمضان وتقاليد دمشق. ص ١٠٧ و ١٠٨.
- (٣) انظر: ابن عبد الهادي، يوسف. ثمار المقاصد في ذكر المساجد. ج ٣، ص ٢٥٣.
- (٤) انظر: البوريني، حسن. تراجم الأعيان من أبناء الزمان. ج ١، ص ٣٠٥، دمشق سنة ١٩٥٩ م.
- (٥) انظر: تفاصيل ذلك في خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر. ج ١، ص ١٥٣ و ١٥٤.

مركز الوالي العثماني . ورغم أنه كان بالإمكان التصدي لقواتهما بـ ٥٠٠ مقاتل يدرؤن عن دمشق أذية قواتهما من الدروز والسكبان ، إلا أن شيخها أصدر أوامره للقوات المحلية التي همت بالدفاع عن أحيائها بقوله : «من رفع يده بالسلاح قطعها»^(١) . ودخلت قواتهما إلى حي الميدان وعاشت فساداً ، في حين لم يصب وأهله بأذى .

ويورد المرادي مثالا آخر على تغفل بعض شيوخها . ففي ترجمته لشيخها ابراهيم سعد الدين يقول المرادي : «كان متغفلا يجلس على حوانيت القهوة ودابته فوقها رقعة الاعتبار وهب . المدرسين فيصير العوام وغيرهم يهزأون به لاجل ذلك . وكان يأكل البرش المعجون المشهور ويلبس الأثواب المفتخرة المزينة ويجلس بها على حوانيت الأسواق»^(٢) . ومع ذلك فإن شيوخها من آل سعد الدين قد اعتبروا من أعيان دمشق وخاصة رجال دينها ، وكان يحسب حسابهم في كل محفل وحين البأس ويشاركون في استقبال الولاة العثمانيين ورجالاتها^(٣) .

ولقد عمل شيوخها بمعالجة المجانين ، وشاركوا بالاحتفالات الدينية والعامة المختلفة سواء في زاويتهم الخاصة أو في الجامع الأموي^(٤) أو في السيارات التي كانت تطوف دمشق في مثل تلك المناسبات .

الاذكار والأوراد

لأنرى جديدا بالنسبة للأذكار والأوراد لدى هذه الطريقة عما ألفناه في الطريقة الرفاعية الأم وفروعها الأخرى . استخدم أتباع هذه الطريقة في أذكارهم موشحات ألفها الشيخ عبد الغني النابلسي^(٥) . وكان للذكر كثير من الآداب^(٦) تسننه وتصحبه وتعقبه .

(١) انظر : تراجم الأعيان من أبناء الزمان . ج ١ ، ص ٢٧٨ .

(٢) انظر : سلك الدرر . ج ١ ، ص ٤٢ .

(٣) انظر : البوريني ، حسن . تراجم الأعيان من أبناء الزمان . ج ١ ، ص ٢١٤ .

(٤) انظر : المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر ... ج ١ ، ص ٤٠ .

(٥) أولها التوبة والتطهير والصلاة ونحوها . وثانيها = يحدد طريقة الجلوس والجو الذي يختار لذلك وحالة القلب والخواطر واختيار صيغة الذكر ونحو ذلك . وثالثها = التهيؤ لاستقبال الوارد مع العزوف عن شرب الماء الخ . انظر : الطويل . ص ٦٦ . وكان ميل السواد الأعظم إلى الجهر ماوسع الذاكر ذلك حتى لقد حدد البعض طريقة الاهتزاز أثناء الذكر والجهة التي فيها عند نطق كل كلمة وبعض هذه الالفاظ تحول إلى غير منطوقها . فمثلا كلمة (الله) كانت تلفظ (هام — هام) انظر : المحيي . ج ١ ، ص ١٥٣ . كما

ومن فروع الطريقة الرفاعية في دمشق — الفرع الشيباني — أو الطريقة الشيبانية تقيم حلقة الأذكار كل ليلة جمعة من الأشهر الثلاثة (رجب — شعبان — رمضان) في الساحة البرانية من المدرسة التقوية الشافعية^(١) في دمشق، إضافة إلى ذلك كان شيخها يونس التغلبي يقيم الأذكار في داره بمحلة العمارة في ليال من تلك الأشهر الثلاثة^(٢) المذكورة. ويبدو أن الطريقة التغلبية قد تفرعت من الشيبانية على يد آل التغلبي فنسبت إليهم. وكان من شيوخها عمر بن عبد القادر التغلبي المتوفى سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م. ويقول البيطار في

اعتبرت بعض الفروع الرفاعية الجهر بالذكر غير محجب. انظر: الطويل، ص ٦٤. فكانت تردد كلمة (لا اله الا الله) ثلاث مرات والعينان مغمضتان. أيضاً: الطويل. ص ٨٦.

أما الأوراد فتكون على الشكل التالي: ذكر (استغفر الله ١٠١ مرة) ومن ثم كلمة التوحيد (١٠١ مرة) وبعدها كلمة الجلالة (١٠١ مرة) واللطفية (١٠١ مرة) ثم بعد ذلك يقدم المنشدون وصلة من المدائح النبوية من أقوال الشيخ عبد الغني النابلسي وفي الختام يهب شيخ الطريقة ذلك كله لشرف الرسول (ص) ولصاحب الرحاب مؤسس الطريقة. فإذا تم ذلك نهض مريدو الطريقة في صف متواصل — يتوسطهم الشيخ بلباسهم (الموحد) مستفتحين بـ (الله يادائم) ٣٣ مرة (وياحي ياقوم) ٣٣ مرة واسم الجلالة ٣٣ مرة ثم ماتيسر من الفتوحات الربانية من الأذكار حسب الإلهام والتجلي. ويشارك الحضور بالترديد. ويصل المريدون إلى مرحلة تجلي تام حتى أنهم يكاد يفقدون ارتباطهم بمن حولهم. وشارك الطريقة السعدية في الاحتفالات الدينية برمضان كل من الطرق الشاذلية والرفاعية والاحمدية والمولوية. انظر: كيال، منير. ص ١٠٧ ص ١٠٨. أما طريقتهم في (البيعة) فإن الطالب إذا وفد إلى شيخهم أمره بأن يتوضأ ويصلي ركعتين بنية التوبة والإنابة ثم يجلس المرشد (الشيخ) مستقبلاً القبلة جاثياً على ركبتيه بالأدب والخشوع ويجلس الطالب امامه لاصقاً بركبتيه ثم يقرأ الفاتحة ثلاث مرات ويأخذ المريد بعده ويقرأ قوله تعالى: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث على نفسه) ثم يأمر المريد بأن يقول (استغفر الله — استغفر الله العظيم الذي لا اله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه تبت إلى الله ورجعت إلى الله ونهيت نفسي عما نهى الله ورضيتك شيخاً لي ومرشداً لطريقة الرفاعي فيقول المرشد: وأنا أقمتك مريداً بهذه الطريقة العلية وعلى هذا العهد المبارك ثم يقول له: قم مريداً في هذه الطريقة.. انظر: الطويل. ص ٨٦. ثم هناك الطريقة العلوانية: وتنسب هذه الطريقة إلى الشيخ علوان الحموي الذي كان يقيم في حماه وكان لهذا الشيخ مصنفات عظيمة منها (نسمات الأسحار) و(مصباح الهداية) و(شرح التائية الفارضية والتائية الصفدية وغير ذلك). وكان من أتباعها أبو بكر العمري العطار الأديب الدمشقي الشافعي والد أبي بكر المذكور مريد الشيخ عمر المذكور. انظر: البوريني، حسن. ج ١. ص ٢٨٨. وكانت الطريقة تقرأ أورادها نهار يوم الجمعة. ومن شيوخها أبو الوفا ابن الشيخ علوان. وهذه الطريقة محض سنية محمدية. أتباعها معظمهم في حماه وحلب. المحبي. ج ١، ص ٢٥٧ وص ٢٥٨ وص ٢٨٢.

(١) انظر: ابن بدران، عبد القادر. مناداة الأطلال ومسامرة الخيال. ص ٩١.

(٢) انظر: الشطبي، محمد جميل. روض البشر... ص ٢١٨.

ترجمته : كان يغلب عليه الجذب حسن الإرشاد وظاهر الامداد^(١). وكان من شيوخ هذه الطريقة الشيخ عمر أفندي الغزي المتوفى سنة ١٢٦١ هـ، ثم الشيخ عمر بن الشيخ عمر بن عبد القادر التغلبي الذي استلم مشيختها بعد والده. ثم الشيخ ظاهر باطن الصالح المتوفى سنة ١٢٩٣ هـ/١٨٧٧ م^(٢) والشيخ عبد القادر الحنبلي التغلبي^(٣) وغيرهم. وكان للطريقة الرفاعية في دمشق فروع أخرى، كالفرع الدسوقي الذي كان من أتباعه مصطفى بن محمد الحلبلي الاصل الدمشقي الصوفي الدسوقي، وكانت له كرامات ومات سنة ١٢٠٥ هـ/١٧٩١ م^(٤). ثم هناك الطريقة الرشيدية. ولانعلم إن كانت هذه الطريقة قائمة بذاتها أو أنها فرع من طريقة صوفية رئيسة، والمرجح أنها تفرعت عن غيرها، إلا أنها لم يكن لها اتباع كثيرون في فترة دراستنا. ولقد ذكرها يوسف بن عبد الهادي، وقال إنها كانت تستخدم مسجد الشيخ حماد في الميدان الفوقاني مقراً لها^(٥)، ويبدو أن أصولها كانت من مكة المكرمة ثم انتقلت الى دمشق. وكان من مشايخها في دمشق أمين بن عبد الغني الغطار الذي أخذها في مكة المكرمة عن المرحوم الشيخ ابراهيم الرشيد الذي منحه الإجازة العامة ومات سنة ١٣٢٦ هـ^(٦). وبقيت هذه الطريقة في دمشق حتى أواخر القرن التاسع عشر، وكان شيخها في هذه الفترة أحمد مجيد الذي كان يقيم في دوما^(٧). ويبدو أنها لم تلعب دوراً اجتماعياً أو سياسياً بارزاً في دمشق كما لعبته مثيلاتها من الطرق الصوفية.

ومن فروع الرفاعية الهامة الشاذلية^(٨): وكانت بدورها متفرعة الى فروع عدة، ولكل فرع شيخه الذي يعين بدوره مقدماً على الزاوية، وكان يشترط به أن يكون عالماً فاضلاً طلق اللسان، كما كان لها نقيبها وامامها والواعظ فيها والمدرس والمنشدون في حلقة الذكر والمقرء. أما فقراؤها فكانوا لا يعيشون حياة خمول أو كسل أو بلا عمل، بل كان كل واحد منهم يؤدي

- (١) انظر : حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. ج ٢، ص ١١٣٥ وص ١١٣٦.
- (٢) انظر : المصدر السابق. ص ٧٦٠.
- (٣) انظر : المرادي. المصدر السابق. ج ٢. ص ٣٣٤. ثم : الشطي. المصدر السابق، ص ٢١٥.
- (٤) انظر : البيطار، عبد الرزاق. المصدر السابق. ج ٢. ص ١٥٥٦. ثم الشطي. المصدر السابق. ص ٢١٨.
- (٥) انظر : ثمار المقاصد في ذكر المساجد. ج ٣، ص ٢٠٠.
- (٦) انظر : البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر ... ج ١، ص ٣٤٢.
- (٧) انظر البارودي، فخري. مذكرات فخري البارودي. ج ١، ص ١٨.

عملا على قدر حاله وحسب استعداده وثقافته . وكان من أسيادها عبد الفتاح السباعي الذي أخذ الطريق من الشيخ عبد الغني الغزي ومات سنة ١١١١هـ / ١٧٠٠م . وسميت فروع الشاذلية بأسماء مؤسسيها في دمشق وفلسطين ، كآل الوفا ، والسفرجلاني ، واليشرطي

تأسست هذه الطريقة في النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد . وأول من أسسها هو عبد السلام بن مشيش وسميت بالشاذلية نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي (من شاذله بتونس) أه تابع لعبد السلام بن مشيش . وكان مركزها في الأصل في الجنوب المغربي ، موطن الجزولي ، وقد استوطن الشاذلي الاسكندرية في أواخر حياته سنة ٦٤٢ هـ مع تلاميذه ومريديه ، وكونوا مدرسة صوفية مشهورة بها ، وكان من أبرز من وفد مع الشاذلي الى مصر من تلاميذه ، الشيخ ابو العباس المرسي ، الذي خلفه في قيادة أتباع الطريقة ، وظل قائما عليها حتى توفي في الاسكندرية سنة ٦٨٦ هـ ، وخلفه عليها بعد وفاته أبرز من تلقى دعوته من تلاميذه المصريين ونعني به عطا الله الاسكندري .

وكان تصوف الشاذلي والمرسي وابن عطا الله ، وهم أركان المدرسة الشاذلية ، مخالفاً لمدرسة ابن عربي ومذهبه في وحدة الوجود ، وترى قريهم من الغزالي المتقيد بالكتاب والسنة وكان الشاذلي يقول لمريديه إذا عرضت لكم الى الله حاجة فتوصلوا اليه بالامام أبي الحامد الغزالي .

ولقد تفرعت الطريقة الشاذلية الى العديد من الفروع (الطرق) وبلغت أربع عشرة طريقة هي : الجوهريّة — القاسمية — المدنية — الملكية — الهاشمية — الفروسية — التهامية — الخندوشية — الادريسية — القاوقجية — السمانية — العفيفية — العيسوية الخلوتية — المنسوبة الى السيد مصطفى البكري وقد تفرعت هذه بدورها الى عدة فروع هي : الحصنية — السباعية — الصاوية — الضيفية . ويقول الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني : إن الشاذلية قسمت الى بيتين البيت الكبير والبيت الصغير وكل بيت الى فروع . والملاحظ أن بعض الفروع لم يرد ذكرها لدى الدكتور توفيق الطويل . كالسلامية والوفائية والمحمدية . ولم يكن لهذه الفروع كلها زوايا وأتباع في دمشق بل كل مانرصده منها هي الحصنية واليشرطية والقاوقجية والسفرجلانية والهاشمية والوفائية والايوسية والتلمسانية والخلوتية والصاوية والدرديرية ، وكان من أبرزها في دمشق الهاشمية التي كانت تشارك في الاحتفالات الدينية العامة بقية الطرق الصوفية بدمشق . وحسبنا هنا أن نلمح بعض تعاليم الطريقة الشاذلية وأورادها وأذكارها ، فتعاليمها تلخص في أصول خمسة هي : تقوى الله سرا وعلنا — وأتباع السنة قولاً وعملاً — والاعراض عن الخلق أقبالا وادبارا والرضى عن الله . انظر : التفتازاني . ص ٢٩١ ص ٢٩٢ . ثم الطويل : ص ٧٧ ص ٧٨ . ثم الشطي : ص ٣١٥ . ثم البيطار : ج ١ . ص ٩٧ وج ٢ . ص ٧١٨ .

وأما ابن بشيش فاسمه مشتق من البشاشة . أخذ الطريق عن عبد الرحمن المدني المشهور بالزيات عن الشيخ تقي الدين الفقير عن القطب محي الدين عن نور الدين أبي الحسن — عن تاج الدين عن القطب شمس الدين السيواسي عن زين القزويني — عن اسحق ابراهيم البصري — عن أبي القاسم أحمد الشرواني أبي محمد سعيد — عن سعد عن محمد فتح — عن سعيد القزويني عن أبي محمد صابر أمير المؤمنين الحسن بن فاطمة الزهراء عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عن سيد الاولين والآخرين نبينا محمد (ص) . انظر : الحسينية اليشرطية ، فاطمة . رحلة الى الحق . ص ٧١ وص ٧٢ .

وغيرهم . وبرز من مشايخها أيضا آل العش وأبو الشامات والعجلوني والقاسمي^(١) وغيرهم ومن أبرز شيوخ الطريقة الشاذلية في دمشق حسن السفرجلاني المتوفى سنة ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٥ م وصالح العرش الذي أخذ الطريق عن القطب الشهير محمد القاسمي المكي^(٢)، ثم الشيخ أحمد العجلوني المولود بدمشق سنة ١١٧٠ ، والذي أخذ الطريق عن والده وتوفي سنة ١٢٥٢ هـ^(٣) .

أما أهم فروعها في دمشق فهي :

الوفائية — السفرجلانية — الأويسية — الهاشمية — التلمسانية — الصاوية — الدرديرية^(٤) — الشرطية . إلا أن تلك الفروع لم تكن على مستوى واحد من الأهمية . وكانت الوفائية أهم تلك الفروع ، وكان من أسيادها في دمشق في هذه الفترة ، أبو الأنوار شمس الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين سبط بني الوفا الذي توفي في ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٢٨ هـ/ ١٨١٣ م^(٥) وكان لها فرع في حلب^(٦) .

ثم الفرع السفرجلاني ، الذي أسسه الشيخ صالح بن محمد بن عبد الرحمن السفرجلاني المولود سنة ١١٤٨ هـ/ ١٧٣٦ م ، وعاش مائة وسبع سنين ، ومات ١٢٢٥ هـ/ ١٨٤٠ م^(٧) ثم الفرع الأويسية الذي ينسب إلى الشيخ أويس الرومي ، ورد إلى بعلبك من بلاد الروم ، وكان له اثنا عشر ألفا من المريدين ، وهذا الفرع . يعتقد أن الولي اذا مات انقطع مدده واختفت كرامته^(٨) . ثم الفرع الشرطي^(٩) الذي دخل الى عكا من

-
- (١) انظر : الحسينية الشرطية ، فاطمة . رحلة الى الحق ، ص ١٤٢ .
 - (٢) انظر : المرادي . سلك الدرر ... ج ٣ ، ص ٤٦ .
 - (٣) انظر : البيطار ، عبد الرزاق . حلية البشر ج ١ ، ص ٤٢٣ . وح ٢ ، ص ٧١٠ .
 - (٤) انظر : الشطي ، محمد جميل . أعيان دمشق ... ص ١٤٦ .
 - (٥) انظر : كيال ، منير . المرجع السابق . ص ١١٨ .
 - (٦) انظر : البيطار . حلية البشر ... ج ١ ، ص ٩٧ .
 - (٧) انظر : المرادي . سلك الدرر ... ج ٢ ، ص ٥٨ .
 - (٨) انظر : البيطار . حلية البشر ... ج ٢ ، ص ٧١٨ .
 - (٩) البوريني ، حسن . المصدر السابق ج ٢ ، ص ٦٩ . وكان من شيوخها سعيد الغيرة الذي كان يقيم الذكر في المدوسة الجقمقية ثم الشيخ عبد الحليم العجلوني المتوفى سنة ١٢٨٠ هـ انظر : الشطي . ص ٢٣١ .
 - (١٠) انظر : الحسينية الشرطية ، فاطمة . رحلة الى الحق ، تبحث فيه الطريقة الشرطية . طبع بيروت بدون تاريخ .

ترشيحا، ثم انتقل منها الى داريا في دمشق . وكان من مشايخه أبناء أبي ريشة وأبي الشامات . وكانت زاوية ابي الشامات الشاذلية في القنوات بلطجية ثم في دار القرآن الخضيرية^(١) .

وكان أيضاً من شيوخ الشاذلية اليشرطية في دمشق، سعيد الخالدي الدمشقي الشاذلي الترشيحي اليشرطي المولود سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ - ١٨٠٧ م، ثم أبو بكر الكردي وحسن البيطار وعبد الغني العطار وعبد الرحمن الكزبري وحامد العطار ومحمود أبو الشامات وغيرهم، وقام بنقل هذا الفرع من ترشيحا الى داريا، خالد البقاعي، واتصل بسعيد الخالدي المذكور وأعطاه الطريق . ولقد أثار نقمة علماء دمشق بتصرفاته الشاذة عن طريق الاسلام، مدعياً أن ذلك من جوهر الدين بحسب فهمه فيقول : محمد جميل الشطي : (استخف بالعلماء وأنكر العلم والعمل وكان يتكلم بكلام لايرتضيه من في قلبه ذرة من الاسلام)^(٢) .

وترى فاطمة اليشرطية في هذا الفرع رأياً مغايراً للشيخ محمد جميل الشطي فتقول : إن الحياة في رحاب الزاوية اليشرطية لم تكن حياة دروشة بل حياة رقي روحي اسلامي، وكانت تلك الحياة تجمع بين الذكر والعلم والعبادة والمعرفة وتأدية واجبات انسانية، وكان الطعام يقدم فيها للمريدين والزائرين الذين لايقبل عددهم عن أربعمئة أو خمسمئة في كل يوم . هذا عدا عن المتجردين (وعائلاتهم وأولادهم)، ويبيت هؤلاء الزائرون فيها، وتمد الموائد فيجلس الفقراء جماعات يأكلون ويقف بعضهم يحملون بأيديهم أباريق الماء، ويزداد عدد الزائرين في أيام المواسم الى مافوق الألف أو الالفين في اليوم . وكان ينفق على الزاوية من ريع ماحبس لها من الأوقاف ومما يقدمه المريدون من المال والهدايا ومن مال الشيخ اذا كان له مال . وكان المتجردون في الزاوية يقومون بكل ماتطلبه أطيان وأملاك وأراضي الزاوية المحبوسة عليها، كحرثة أراضيها وزراعتها وجني محاصيلها دون مقابل، ويقدمون الناتج والمحصول للزاوية، بالاضافة إلى تنظيف الزاوية من الداخل وحياسة الثياب وتنجيد الفرش وشراء الحاجيات من السوق والكنس والرش والتنوير وغير ذلك من الأعمال . وكان فقراء الطريقة الشاذلية والمتجردون في زواياها، من عهد مؤسسها الأول، هم من أبناء الاسر والعائلات الكريمة والقديمة^(٣) . إلا أن ذلك لم يكن عاما وشاملا بالنسبة للطرق الصوفية الاخرى والزوايا التابعة لها في دمشق، كما لم يسر ذلك على

(١) انظر : ابن عبد الهادي، يوسف . ثمار المقاصد ج ٣، ص ٢١٩ .

(٢) انظر : كتابه، أعيان دمشق ص ١٣٢ .

(٣) انظر : رحلة الى الحق . ص ٢٥٢ وص ٢٥٣ وص ٢٥٤ وص ٢٥٥ .

وتيرة واحدة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فالعديد من أوقاف هذه الزوايا وغيرها من المرافق ذات النفع العام قد أكلت من قبل المتلاعبين بأموالها والمقيمين عليها ، فأثر ذلك أيما تأثير على الحياة في رحاب الزوايا لحاجتها الى المال الذي يصرف عليها . فلاعجب اذا ماتحول العديد من الزوايا الى مساجد فحسب أو تحول من النفع العام الى النفع الخاص .

القضاة

شكل القضاة فئة بارزة من رجال الدين في دمشق . وكان جهاز القضاء مؤلفاً من القضاة والموظفين ، يرأسهم القاضي الحنفي الذي كان يعين من استانبول لمدة عام . وكان يطلق عليه اسم قاضي القضاة أو القاضي العام^(١) ، وكان يساعده في مهامه ، قضاة من المذاهب السنية الأربعة^(٢) ، الذين سموا بنواب القاضي ، وهم تابعون له . ولما كان المذهب الرسمي للدولة العثمانية هو مذهب أبي حنيفة النعمان ، فقد تحنف بعض رجال الدين الدمشقيين طمعاً في الحصول على منصب القضاء^(٣) .

وبحسب تنظيمات القضاء التي أجريت في القرن الثامن عشر ، اعتبر قاضي العسكر وقاضي استانبول في مرتبة واحدة ، يليهما قاضيا مكة والمدينة في مرتبة واحدة ، ثم قاضيا عاصمتي السلطنة السابقتين (بروسة وأدرنة) ثم قاضيا مركزي الخلافة الاسلامية دمشق والقاهرة^(٤) .

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٦٦ / ١٢٥٠ - ١٢٥١ هـ . ص ٩ وص ١١ وص ٢٢ . ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠ / ص ٧٠ .

(٢) كان القاضي المالكي يعين في بعض المحاكم من دمشق وفي بعض الأحيان ، نظراً لقلته من كان من المالكيين في دمشق ومعظمهم من المغاربة الذين استوطنوها . ويذكر شرف الدين موسى الانصاري أنه وجد في أواخر القرن السادس عشر في محكمة الميدان قاضي للمالكية وآخر للشافعية انظر : كتابه المخطوط : نزعة الخاطر وبهجة الناظر . الورقة ١ / ٣٨٨ المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم / ٧٨١٤ .

(٣) يذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار : أن الشيخ أحمد بن محمد الخاني الخالدي النقشبندي كان شافعي المذهب إلا أنه لما تولى القضاء في بعض الامكنة للضرورة الداعية لذلك ألزمته ظروف الاحوال للانتقال الى مذهب سيدنا أبي حنيفة النعمان وبقي في النيابة تارة في بعض المحاكم الشرعية الدمشقية وتارة في بعض البلاد وخارج الشام . انظر : حلية البشر . ج ١ ، ص ١٨٤ وص ١٨٥ .

(٤) انظر : رافق . عبد الكريم . بلاد الشام ومصر ... ص ٨٤ . الطبعة الثانية . ثم كتابه : العرب والعثمانيون . ص ٥٢ وص ٥٣ . ثم انظر :

Gibb and Bowen, op.cit, P, 89,

ومما تجدر ملاحظته في هذه الفترة ، أن معظم القضاة العامين في دمشق ، كانوا من أصل رومي . وأن نفوذهم الاجتماعي لم يكن بارزاً إلا من خلال سلطتهم ، اذ سرعان ما كانوا يفقدون نفوذهم بمجرد عزلهم من مناصبهم ، على عكس نوابهم الذين كانوا من أصول دمشقية ، لان نفوذ الأخيرين لم يكن مستمداً من مناصبهم فحسب ، بل ومن خلال نفوذهم المحلي . خاصة وأنهم ينحدرون من أسر دينية بارزة في الغالب . وبقوا في مناصبهم مدة أطول من بقاء قاضي القضاة . إذ نادراً ما جدد للقضاة العامين في مناصبهم لسنة أخرى في هذه الفترة . إلا عدداً قليلاً منهم . ولقد انعكس ذلك بشكل سلبي على القضاء والعدالة في دمشق .

وكان ينظر قاضي القضاة (القاضي العام) بالمسائل التي تعرض عليه في مقر عمله في (المحكمة الكبرى) ، في حين توزع نوابه على محاكم دمشق المختلفة . وكان قاضي القضاة يعين له نائباً أو أكثر ليمثله عند الحاجة ، ويعين مكانه نائب في حال عزله ، ويبقى النائب على رأس عمله الى مجيء القاضي العام الجديد الى دمشق ، وأطلق على هذا النائب في مثل هذه الحالة (نائب ما بين) . وكان هؤلاء النواب من أصل رومي أو دمشقي . وكانت توكل هذه المهمة للمفتي الحنفي في دمشق أحياناً ، وتوكل الى شخص واحد ولعدة مرات^(١) . أما في حال وفاة القاضي العام وهو في منصبه ، يقوم نائبه بتسيير أعمال القضاء حتى نهاية مدة ولايته^(٢) ، وقد يبقى في حال عزله ، يسير أمور القضاء حتى يعين قاض جديد^(٣) . وكان مقر قاضي القضاة في المحكمة الكائنة في البزورية التي اطلق عليها اسم المحكمة الكبرى أو محكمة البزورية نسبة الى مكان وجودها من دمشق . أما المحاكم الفرعية في دمشق فكانت داخل أسوارها وخارجها ، وتوزعت على أماكن التكتلات السكانية الرئيسية في دمشق ، مثل : محكمة الميدان (في حي الميدان) ثم محكمة السنانية نسبة لمكان وجودها في محلة السنانية (قرب جامع سنان باشا)^(٤) ،

1 - See: Rafeq, the Province of Damascus 1723-1783. P.44.

2 - Ibid. p.45.

(٣) انظر : رافق ، عبد الكريم . العرب والعثمانيون . ص ٥٣ . ويذكر عبد الكريم رافق أنه قد وجدت في دمشق في القرن الثامن عشر عدة محاكم صغيرة كمحكمة باب مصلى .

انظر : The law court Register . pp. 13, 144 .

(٤) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ١٢٦٤/٢١١ - ١٢٦٥ هـ ، ص ٢ وهناك المحكمة البيانية في دمشق ومقرها في المدرسة البيانية ولكنها ألغيت قبل فترة دراستنا . انظر : المرادي - محمد - سلك الدرر ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

ثم محكمة قناة العونية أو المحكمة العونية وأحيانا ترد باسم محكمة العمارة نسبة للمحلة التي تقع فيها^(١)، بالقرب من جامع الجوزة في محلة العمارة البرانية القزازين^(٢)، ثم محكمة الصالحية التي تقع في صالحية دمشق^(٣).

وكان قاضي القضاة إذا لم يقوم بنفسه بمهام القسمات المختلفة، يكلف نوابه في ذلك، كالقسمات العسكرية والقسمات البلدية وقضاء قافلة الحج الشامي، وكانت لنوابه سجلات خاصة بذلك، ما يزال بعضها إلى الآن في دار الوثائق التاريخية في دمشق.

وأبرز الأسر التي استلم أبنائها القسمات في دمشق هي: المحاسني — وحمة — والصدوقي — والاسطواني — والرشيدي — والحسيني — والنوري وغيرها^(٤).

أما منصب قاضي القضاة فشغله أروام أحناف عينوا من قبل السلطة المركزية في استانبول. وأبرز هؤلاء في هذه الفترة: محمد مكي الذي كان قاضي القضاة في دمشق سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢ — ١٧٧٣م^(٥). وفي سنة ١١٩٦هـ/١٧٨١ — ١٧٨٢م كان عبد الرحمن أفندي حسين آغا زاده، وفي ١١٩٨هـ/١٧٧٤ — ١٧٧٥م كان ابراهيم آغا أفندي، وحل محله في سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤ — ١٧٨٥م امام زاده محمد أمين^(٦) ثم عزل، وحل محله في سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥ — ١٧٨٦م واداري شيخ زاده محمد

(١) انظر: سجل القسمات العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/١٢٦٤هـ/ص ١٢٥.

(٢) انظر: بن عبد الهادي، يوسف. ثمار المقاصد في ذكر المساجد. ج ٣، ص ٢٠٧.

(٣) المرادي سلك الدرر. ج ١، ص ١٠ وص ١٧٠.

(٤) ففي سنة ١١٨٦هـ/ كان قساما في دمشق سليمان أفندي المحاسني. وفي سنة ١١٨٧هـ كان قساما محمد شاكر أفندي ثم مصطفى حافظ أفندي وفي سنة ١١٩٣هـ عين أحمد حمزة قساما وفي ١٢٠٢هـ عين أسعد أفندي المحاسني قساما ونائبا في محكمة الباب، انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/١٢٠٢هـ/ص ١٧ وص ٤٥١.

ثم: السجل رقم ١٨٢/ محاكم دمشق/ ١١٨٣ — ١١٩٠هـ. ص ٤٣ وص ١٢٠ وص ١٤٣.

ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ ص ٤٨ وص ٢١٦.

وأيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ ص ١٢١. وأيضاً سجلها رقم ٢٦٠/ ١٢٢٢ — ١٢٢٣هـ. ص ٢٢ وص ٤٢ وص ٥٢.

وسجل محكمة القسام بدمشق رقم ٣٣٠/ ١٢٥٨ — ١٢٦٠هـ. ص ١٤ وص ٢٢.

(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/ ص ٧٠.

(٦) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ ص ٢٣٥ وص ٢٤١.

أفندي، ومن بعده مفتي زادة ابراهيم سليم أفندي، وفي ١٢٠٧ هـ/ ١٧٩٢ — ١٧٩٣ م عين شريف زاده محمد أفندي، وفي ١٢٠٩ هـ/ ١٧٩٤ — ١٧٩٥ م حل محله السيد محمد نور الدين أفندي وعزل ليحل محله السيد عبداً الله محمد أفندي بن حسن أفندي المرادي^(١)، وفي سنة ١٢٩٠ هـ/ ١٧٩٥ — ١٧٩٦ م كان قاضي قضاة دمشق محمد أفندي شيخ رادة ثم عزل ليحل محله مفتي زادة ابراهيم سليم أفندي^(٢) وفي سنة ١٢١٤ هـ/ ١٧٩٩ — ١٨٠٠ م كان قاضي القضاة اسماعيل بيك زادة عبد الله ثم سيده محمد نور الله^(٣) وفي سنة ١٢٢١ هـ/ ١٨٠٦ — ١٨٠٧ م ابراهيم أفندي دفتر دار حفيدي وحل محله في ١٢٢٢ هـ/ ١٨٠٧ — ١٨٠٨ م كسكين خليل أفندي وبقي حتي ١٢٢٣ هـ/ ١٨٠٨ — ١٨٠٩ م حيث عزل وحل محله عماد زاده السيد حمود أفندي^(٤) وفي سنة ١٢٣٧ هـ/ ١٨٢١ — ١٨٢٢ م استلم هذا المنصب كتخداسي زادة محمد صادق بيك^(٥) وفي سنة ١٢٣٩ هـ/ ١٨٢٣ — ١٨٢٤ م كان مفتي زاده السيد عبد الله وفي سنة ١٢٤٢ هـ/ ١٨٢٦ — ١٨٢٧ م حسن باشا زاده امامي حسين أفندي وفي سنة ١٢٤٥ هـ/ ١٨٢٩ — ١٨٣٠ م سلحدار خليل باشا السيد علي رضا أفندي^(٦) وفي سنة ١٢٤٧ هـ/ ١٨٣١ — ١٨٣٢ م بكلي زاده محمد أسعد أفندي^(٧) وفي سنة ١٢٤٧ هـ/ ١٨٣١ — ١٨٣٢ م السيد محمد عاطف أفندي قبوأوغلي زاده وفي سنة ١٢٤٩ هـ/ ١٨٣٣ — ١٨٣٤ م حفيدي كتخه جي زاده عبد الحلیم أفندي وفي ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣٤ — ١٨٣٥ م صديقي زاده محمد رفعت بيك أفندي^(٨).

وكان معظم نواب قاضي القضاة من المذاهب السنية من أصول محلية، فمثلاً في سنة

- (١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/ ١٢١٠ — ١٢١١ هـ. ص ٣ وص ٤٨. ثم انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/ ص ٨٤. ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥/ ص ٥٠. ثم سجلها رقم ٢٥٠/ ص ١٢٣.
- (٢) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/ ص ٧٣ وص ٧٦.
- (٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ ص ٨١ وص ١٠٩.
- (٤) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/ ص ١ وص ١١ وص ١٧٣ وص ١٥٩.
- (٥) انظر: سجل القسم العسكرية رقم ٣٣٠/ ١٢٤٨ — ١٢٤٥ هـ. ص ٤.
- (٦) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/ ص ٦٨ وص ١٩٤ وص ٥١.
- (٧) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٣٠/ ص ٣.
- (٨) انظر: السجل رقم ٣٣٤/ ص ٨ وص ٢٠٤ وص ١ وص ١٤.

١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ - ١٨٣٢ م كان السيد حسين أفندي المرادي نائباً وقساماً في دمشق لقاضي كتخه جي زادة عبد الحلیم^(١) ، وفي ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٥ - ١٨٤٦ م عين نائبان لقاضي القضاة في دمشق وهما شاكر أفندي العمري وحامد أفندي تلو . وكانت العادة في مثل هذه الحالة ، قيام قاضي القضاة بتحديد صلاحيات النائب وتسجيلها في سجل المحكمة^(٢) .

وأبرز الاسر الدمشقية التي استلم أبنائها منصب نائب قاضي القضاة في محاكم دمشق المختلفة هي : اسرة الخلوصي^(٣) والوفائي^(٤) و المالخي^(٥) والكيلاني والعمري^(٦) والبرقاوي^(٧) والقاري والسمان^(٨) والعجلاني^(٩) والغزي^(١٠) والصدیقی^(١١) والبكري وحمزة^(١٢) والسرميني^(١٣)

- (١) انظر : سجل القسم البلدي بدمشق رقم ٣٢٧ / ١٢٤٧ هـ - ١٢٤٨ هـ - ص ٢ .
- (٢) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٤١١ / ١٢٦٥ هـ . ص ٢ .
- (٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٠ / ١٢٠٨ - ١٢٠٩ هـ ، ص ١١٢ . ثم السجل رقم ٢٣٥ / ١٢١٠ - ١٢١١ هـ . ص ٦٤ .
- (٤) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ١٨٧ و ص ١٩١ .
- (٥) كان الشيخ أبو السعود بن أيوب الانصاري المالكي مولى خلافة بالمحكمة العونية بدمشق ثم عمر أفندي الحنفي المولى خلافة في نفس المحكمة وكذلك يحيى أفندي الحنفي كان مولى خلافة بالمحكمة الكبرى بدمشق انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق .. رقم ٢٦ / ص ٢٣٨ و ص ٢٣٩ .
- (٦) كان من هاتين الاسرتين قاضيان هما : محمد صالح أفندي كيلاني ومحمد شاكر أفندي انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٤١١ / ص ١٥ .
- (٧) كان الشيخ محمد أفندي البرقاوي قاضيا للحنابلة في دمشق انظر : المصدر السابق ص ٣٣ و ص ٣٤ كما كان مصطفى البرقاوي قاضيا للحنابلة في دمشق سنة ١٢٣٠ هـ ومات ١٢٥٠ هـ ، انظر : الشطي المصدر السابق ، ص ٢٨١ .
- (٨) كان نائبا لقاضي القضاة في دمشق السيد مصطفى أفندي القاري . وكان الشيخ محمد بن الخير السمان قاضيا للشافعية في دمشق . انظر : سجل القسم العسكرية رقم ٣٠٨ / ١٢٤١ - ١٢٤٣ هـ . ص ٢ .
- (٩) كان نائبا لقاضي القضاة في المحكمة الكبرى السيد حمزة أفندي العجلاني انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ص ٥٥٨ .
- (١٠) كان محمود الغزي الدمشقي قاضيا للشافعية في محكمة الباب انظر : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٤ ، ص ١٢٦ .
- (١١) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٢٧ / ١٢٤٧ - ١٢٤٨ هـ . ص ١١٧ و ص ١١٨ و ص ١٢٣ .
- (١٢) شليشر ، ليندا . المرجع السابق . ص ٣٣٥ .
- (١٣) انظر : المرادي ، المصدر السابق ج ٢ ، ص ٥٦ . استلم علي أفندي حسيب العطار النيابة في محاكم دمشق ومات سنة ١٢٤٢ هـ انظر : الشطي ، محمد جميل . المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

وحسب العطار وغيرها . ولم تكتف الأسر الدمشقية بذلك بل سيطرت على وظائف المحاكم المختلفة ، فكان منهم رؤساء الكتاب والكتاب والتراجمة والمقيدون والمسودون والمحضرون والبوابون ووكلاء المتخصصين في المحاكم . فمثلا كان ابراهيم الحكيم الشريف لأمه رئيسا لكتاب محكمة الصالحية ^(١) . وعبد الوهاب العكري الحنفي الصالحى عمل كاتباً في محكمة الصالحية ومحكمة الميدان ثم في محكمة الباب الكبرى ^(٢) ، ومحمد الأيوبي الدمشقي الحنفي ولي رئاسة الكتاب مرتين في المحكمة الكبرى ^(٣) ، وحسن آغا جبري ولي رئاسة الكتاب في محكمة الميدان ومن بعده في سنة ١٢٣٩ هـ محمد نجيب العطار ^(٤) . وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت أهم الأسر التي استلم أبنائها رؤساء كتاب أو كتاباً في محاكم دمشق هي : النابلسي — المحاسني — الدردري — العمري — تالو — القدسي — البرقاوي — الادلبي ^(٥) والجاكوش وشامي باشا والشاهين وجبري ^(٦) والمرعشلي ^(٧) والحسيني والقلعي والاسطواني والعاتكي والبربر ^(٨) . ومن التراجمة في المحاكم كان الحاج حسين بن علي الحلبي ترجمانا في محكمة الميدان بديلا عن بكري آغا الخريطل ^(٩) ، وكان أبرز التراجمة في محاكم دمشق ، أبناء أسرة الترجمان التي توارث ابنائها تلك المهنة عن الآباء . ويقول محمد سعيد القاسمي : إن مهنة الترجمة يعيش منها أربابها ^(١٠) . وكان من المحضرين السيد ابراهيم جلبي الشامية الهواري ومصطفى الحلبي ^(١١) وغيرهم . وكان المحضرون توفنكجية (شرطة) ويرأسهم

-
- (١) انظر : المرادي — المصدر السابق ج ١ ، ص ١٠ .
(٢) انظر : المرادي — المصدر السابق ج ٣ ، ص ١٤٣ .
(٣) المصدر السابق ج ٤ ، ص ٢٤ .
(٤) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٣٠٤ / سنة ١٢٣٨ — ١٢٤٠ هـ . ص ٢ .
(٥) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٤١١ / سنة ١٢٦٤ — ١٢٦٥ هـ . ص ٧٤ . ثم الشطي ، محمد جميل . المصدر السابق . ص ١٥٠ .
(٦) انظر : السجل رقم ٣٢٣ / محكمة الميدان / ١٢٤٧ هـ / ص ٣ و ١١ و ٣٦ و ٤٣ و ٥٠ .
(٧) انظر : سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ١٢٥٥ / ٣٥٧ — ١٢٥٦ هـ . ص ١٩٤ .
(٨) انظر : سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ١٢٣٢ / ٢٩٠ — ١٢٣٧ هـ . ص ٥٣ . ثم سجلها رقم ٣٣٠ / سنة ١٢٤٨ — ١٢٦٦ هـ . ص ٨ و ٢٢ .
(٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦ / ٢٥٠ — ١٢١٧ هـ . ص ٢٠٩ .
(١٠) انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ١ ، ص ٧٠ .
(١١) انظر : السجل رقم ٣٢٦ / محاكم دمشق ، ١٢٤٨ هـ ، ص ٣٢ . ثم المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٤ / ١٢٥٠ ، ص ١٥٠ .

التفكجي باشي ومهمتهم إحضار المدعى عليه الى المحكمة . ووجد وكلاء عن الناس لدى المحاكم عملوا لدى محكمة القسمة العسكرية أو البلدية والكبرى والسنانية . ولم يكن هؤلاء موظفين رسميين بل كانوا ينوبون عن الناس في الدعاوي في المحاكم ويناقشون القضية في المسائل الفقهية^(١) . ويبدو أنهم سببوا مضايقات للحكام بأعمالهم هذه ، مما دفع بقاضي القضية لإصدار أوامره الى نوابه في المحاكم والى كتابهم فيها ، لمنع الوكلاء من «مقارشة المواد» في محاكمهم وتعاطي الوكالات لانهم يعلمون الناس الحيل^(٢) . ولقد تضايق الوكلاء من منعهم من ممارسة عملهم ، فاضطروا لتقديم معروض للسماح لهم بالعودة الى سابق عملهم ، إلا أن السلطات المصرية في دمشق أصرت على منعهم ، ولم تسمح إلا لمحمد شنيخ الصباغين «كونه صاحب أعيال وليس له كار ولا معاش» . وكان من الوكلاء في دمشق في العهد المصري «عبد الكريم آغا جبري والشيخ قاسم الكفيف وسيد عبد الكريم كباره ، وحسني أفندي المحاسني وطاهر أفندي البازة الذي كان كاتباً في محكمة الباب ، ثم سيد يحيى البحرة والشيخ طابع البغدادي ومحمد موسى باشا ومصطفى الذهبي ومصطفى زند الحديد»^(٣) . ويبدو أن بعض هؤلاء الوكلاء كانوا يعملون في مجال القضاء في العهد المصري ، ونتيجة لادخال بعض التعديلات في هذا المجال ، فقد البعض عمله فلجأ للعمل في الوكالة عن المتخاصمين لدى المحاكم وهذا العمل بمثابة المحاماة في وقتنا الحاضر .

أما فيما يتعلق بطريقة المحاكمة ، فكان القاضي يجلس في قاعة مخصصة لذلك على بساط أو سجادة ، ويجلس الى جانبه الكتاب وبعض الحجاب ، ويكون باب القاعة مفتوحاً للجميع ، ويحضر الباش رسل (BASH RUSUL أي رئيس المحضرين) المتداعين أمام القاضي . وقد لايقوم بجلب المدعى عليه الى القاضي إلا بعد أن يدفع المدعي له قرشاً أو قرشين مقابل ذلك . وبعد حضور المتخاصمين الى المحكمة ، يمثل الطرفان أمام أحد شهود المحكمة ، فيستمع الى أقوالهم ويسجل ذلك ، ويأخذ رسماً عن ذلك قرشاً أو أكثر ، ويصدر الشاهد المذكور الحكم ، واذا كانت الدعوى بسيطة وأقر المدعى عليه بحق المدعي ، تنتهي المسألة عند هذا الحد ، وإلا فتعرض القضية من جديد مرة أخرى على نائب القاضي العام الجالس في قاعته في المحكمة . واذا ماأشكلت القضية فقهيًا ، على القاضي أن يطلب الفتوى بذلك من

(١) انظر : الشطلي ، محمد جميل . أعيان دمشق ، ص ١٧٤ .

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠ / ١٢٥٠ - ١٢٥٤ هـ . ص ١ .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٥٧ / ١٢٥٥ - ١٢٥٦ هـ . ص ١ .

المفتي ، وفي هذه الحالة يدفع المدعي رسماً للمفتي مقابل الفتوى ويحضرها إلى القاضي لبصدر حكمه بالقضية . أما القضايا الهامة جداً والمعقدة ، فكان ينظر فيها القاضي العام بحضور نائبه وأحياناً بحضور بعض علماء دمشق وعلى رأسهم المفتي .

وكانت تشمل الموضوعات التي ينظر فيها القاضي الوقوعات الخمس التي تشمل : المناكحات والطلاق والولادات والوفيات ومكان الإقامة ، وأمور الأحوال الشخصية ، كالهبة والوصية والنفقة ، وغيرها من الأمور ، كالملكية والأوقاف والتجارة وغيرها .

وكان القاضي ينظر في القضية وهو جالس على السجادة وأمامه الطرفان المتخاصمان في حالة الجلوس أو القرفصاء ويستمع إلى كلامهم بحضور الشهود . وإذا ما حمي النقاش بين المتخاصمين وعلت أصواتهم ، يدخل موظفو القاضي لإعادة الهدوء ، وقد يستخدم القاضي عصاه . وبعد إصداره الحكم يخرج المتخاصمان من المحكمة باحترام^(١) . وكان البت في أية قضية ، مهما كانت عويصة ، لايدوم أكثر من شهرين ، ويكون الحكم قطعياً .

أما فيما يتعلق بأجور القضاة فكان مستموحاً للقاضي أن يأخذ ٢٪ من قيمة الأشياء التي يجري التقاضي بشأنها ، وسمي هذا المبلغ بـ (بتكاليف المحكمة) ، أو يقوم بدفعها من كسب الدعوى من المتخاصمين ، ولكن القضاة لم يكتفوا بهذه النسبة ، بل سعوا لزيادتها^(٢) ، كما سعوا للحصول على دخول أخرى من خلال بيعهم للمناصب التابعة لهم ، مقابل مبالغ من الأموال . وحددت لبعض القضاة رواتب تقاعدية بطريقة التأييد (الاربايق) ، فمثلاً أبو-الصفاء المفتي بن أيوب العدوي الصالحى الدمشقي الحلوتي ، خصص له راتب تقاعد قضاء «قارا إلى أن مات على طريق التأييد»^(٣) ، وحصل البعض منهم على منح حكومية وماشابه ذلك ، بالإضافة إلى أخذه نسبة معينة من تركات الموتى ، وحصلوا على إقطاعات في دمشق من الدولة العثمانية ، ومع ذلك فقد مال بعض القضاة إلى الرشوة من المتداعين ، فأنحازوا إلى أحد الطرفين دون الآخر . ويمكن تفسير ظاهرة الرشوة التي تفشت بين القضاة آنئذ بجشعهم أو بسبب ظروفهم المادية السيئة التي قصرت عن سد مصروفاتهم من جهة ، أو

1 - See: Gibb and H.Bowen . op . cit . vol . 1 . part . 2 . p.130.

2 - See: Volney .op.cit. P 369

3 - H.Gibb and H.Bowen . op. cit. PP.125-127.

(٤) انظر المرادي . سلك الدرر ... ج ١ ، ص ٦٣ .

لأنهم لم يتصرفوا...
من رشوة... بعد عرضه في سوق المساومة. وكان يرسو
هذا المنتج... كان هذا السوق يعقد سنوياً^(٢)، ولقد اعترف
السلطان... ١٨٢٨ م / ١٢٤٣ - ١٢٤٤ هـ وما جاء فيه :
«أن منصب القاضي... الرشوة... ويسند لأشخاص غير أكفاء^(٣)»
وكان من المتابعين... المال المطلوب قبل العزل، ومن ثم لمجابهة سود
الأيام المرتتبة من... أو الرشوة... في استنبول مقابل منصب جديد.

ولقد لاحظ أبو القاسم الزياتي المغربي إبان زيارته لدمشق في أواخر القرن الثامن عشر
تفشي الرشوة بين القضاة فيقول : «هذه عادة قضاة المشرق كلهم، نسأل الله السلامة العامة
في هذه الورطة، فقد عمت البلوى في هذه الدولة العثمانية في القسطنطينية وبلاد الترك كلها
ومصر وبلاد الشام والعراق...، وباعوا آخرتهم بدنياهم متفقين على ذلك من غير توقف ولا
تأمل. ولا خوف ولا استحياء ولا تستر...، فانها عندهم جباية في أصول يسمونها بالمحصل،
فتجد القاضي يناضل على قبضه من غير ارتياء ولا استحياء ولا حشمة ولا اعتبار لشفقة أو
رحمة كأنه حق واجب ويزاد للجليل والحاجب... فيا حسرة على الاحكام الشرعية المرضية
المرعية، فقد ضاعت حقوقها وشباع عقوقها^(٤)».

وارتبك وضع القضاة بعد دخول القوات المصرية الى دمشق وتوقيع اتفاق كوتاهية بين
السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا، حيث أبقى هذا الاتفاق تعيين قضاة الشرع في
الشام بيد السلطان، فخشي الحكم المصري من عدول هؤلاء عنه وانحيازهم الى جانب
السلطان، وأن يؤثر ذلك في أحكامهم، فأوصى محمد علي باشا بمراقبتهم مراقبة خفية
وشديدة، وأمر بوجوب عرض أحكامهم على كبار رجال الادارة قبل تنفيذها، كما لمس

(١) انظر: الذكرى المئوية لوفاة السيد الذكر البطريك مكسيموس الثالث المظلوم ١٨٥٥ - ١٩٥٥ م،
ص ٣٠، لبنان، حريصا، ١٩٥٧ م.

2 - Volney, op.cit. P.369.

3 - See: Koury .G. province of Damascus. PP.186,187.

(٤) انظر: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا. ص ٢٧٨ و ص ٢٧٩.

عجزهم عن النظر في بعض الدعاوى الحقيقية والتجارية ، فسمح لمجالس الشورى أن تبت فيها حرة طليقة . ولم يحجم المصريون عن التدخل ، عند الحاجة في فهم الشرع الشريف وتطبيق أحكامه ، وراقب فتاوى المفتين وبعض رجال الدين وزجروهم فيما أصدروه من فتاوى تثير الفرقة المذهبية ، والنعرات الطائفية ، وهددوهم بانزال العقاب بهم^(١) . ومع ذلك بقيت الرشوة تؤخذ من قبل القضاة وأعوانهم بشكل سري ، وتقلص نطاقها بعد اتساع .

المفتون

عينت السلطات العثمانية في استانبول مفتياً لكل مذهب من مذاهب السنة الرئيسة في دمشق ، (الشافعي — الحنبلي — الحنفي) وتقدم المفتي الحنفي على غيره من المفتين ، رغم تفوق عدد الشافعيين في دمشق على بقية أبناء المذاهب الأخرى .

واعتبر المفتي المرجع الرئيس في المسائل الفقهية ، والمفسر لأي إشكال قانوني ، وبقي الانتماء المحلي يعبر عن الانتماء الى المذهبين الأولين ، على حين كان الأخير (الحنفي) يمثل السلطة ويلقى حماية استانبول . أما المذهب الرابع وهو المالكي فكان أتباعه قلة في دمشق ، ومعظمهم من أبناء المغرب العربي ، الذين وفدوا الى دمشق ، ولم يعين في دمشق مفتي للمالكية حتى سنة ١٢٦٤ هـ .

وكانت مهمة المفتي من الناحية النظرية مراقبة القرارات التي تتخذها المحاكم العثمانية في دمشق^(٢) . وكان يعين من قبل شيخ الاسلام في استانبول ، ولقب بدوره بشيخ الاسلام . وكان يأتيه المقرر سنوياً ، وقد يبقى في منصبه حتى وفاته ، إلا اذا استعفى أو عزل . ويأتي المفتي في المرتبة الادارية والاجتماعية في دمشق بعد نائب قاضي القضاة^(٣) . وكان بعض المفتين يجمعون في أيديهم عدة مناصب إدارية أو دينية بالإضافة الى منصب الافتاء . فمثلاً السيد حمزة أفندي العجلاني كان مفتياً للاحناف ونقيياً للاشراف في دمشق^(٤) ، وكذلك محمد خليل

(١) انظر: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا، ص ١١١ .

(٢) انظر: شليشر ، ليندا . المرجع السابق . ص ٣٣٢ .

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١/٢٤٠ — ١٢١٦ هـ ، ص ٤٤٥ . ثم انظر سجلها رقم ٢٣٩/ ص ١٨٨ .

(٤) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/ ص ٧٩ .

المرادي . وكان معظم المفتين الأحناف والشوافعة من أصول دمشقية ، على حين كان المفتون الحنابلة من أصول ريفية ، كرحبية أو الضمير أو بعلبك أو نابلس ، لأن معظم الحنابلة في دمشق يرجعون في أصولهم الى تلك القرى والمدن .

وتوزع منصب افتاء الأحناف في دمشق بين الاسر التالية : المرادي — المنيني — المحاسني — العجلاني — الصديقي (البكري) — الحصني — والجندى — والكردى ، ولم نلاحظ سوى أحد المفتين في هذه الفترة كان من أصل غير دمشقي ، وهو محمد أمين الانطاكي الذي توفي سنة ١٢٠٧ هـ والذي كان مفتياً في مغيسيا^(١) .

وكان مجموع المفتين الأحناف ما بين عامي ١١٨٨ — ١٢٦٨ هـ ستة عشر مفتياً ، منهم تسعة مفتين من آل الحصني وثلاثة من آل العجلاني^(٢) .

ولقد أوردت الباحثة ليندا شليشر ، من جامعة (مين) في ألمانيا الغربية لائحة بأسماء المفتين الأحناف بدمشق وتواريخ استلامهم لمناصبهم وذلك ما بين ١٧٧٤ و ١٨٤٨ م وهم على الشكل التالي :

الاسم	السنة
محمد أسعد بن خليل الكردي	١٧٧٤
اسماعيل بن أسعد المنيني	١٧٧٥
محمد خليل بن علي المرادي	١٧٩١/١٧٧٨/١٧٧٧
عبد الله بن ظاهر المرادي	١٧٩٨/١٧٩٧/١٧٩٦
عبد الرحمن المرادي	حوالي ١٨٠٣
أسعد بن سعيد المحاسني	١٨٠٤ — ١٨٠٢
حمزة بن علي العجلاني	١٨٠٥ — ١٨٠٤
سعيد بن حمزة العجلاني	حوالي ١٨٠٦/١٨٠٥
سعيد بن محمد البكري	١٨١١/١٨١٠
علي بن حسين المرادي	١٨١٥/١٨١٤
حسين بن علي المرادي	١٨٢٠/١٨١٥/١٨١٤

(١) انظر : المرادي ، محمد خليل . عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام . ص ٢٢١ .

(٢) انظر : المرادي . عرف البشام ص ٢٢٠ وص ٢٢٣ .

كذلك حسن تقي الدين الحصني المتوفى سنة ١٨٤٨ م^(١)، إلا أن السيدة شليشر أغفلت ذكر محمد أمين الجندي الحنفي، الذي كان مفتياً في عهد ابراهيم باشا المصري^(٢) والسيد محمد الداراني الذي حلف اليمين القانوني أمام شيخ الاسلام في استانبول. يقوم بوظيفة الافتاء في دمشق^(٣)، ولكننا لانعلم فيما اذا كان مفتياً للاحناف أم لغيرهم من المذاهب الأخرى.

وكان غالب المفتين الشافعيين في دمشق، في هذه الفترة، من آل الغزي وهم: السيد عبد أفندي الغزي والسيد عبد الغني الغزي ثم محمد شريف الغزي الذي توفي سنة ١٢٠٣ هـ فحل محله ابنه كمال الدين الغزي^(٤) ثم محمد أفندي الغزي^(٥). ولم يزاحم آل الغزي على هذا المنصب سوى شخصين هما: عبد الرحمن الكفرسوسي المتوفى سنة ١١٧٩ هـ^(٦) ثم حسن تقي الدين الحصني الشافعي في سنة ١٢٤٦ هـ.^(٧)

أما افتاء الحنابلة فكان في آل البعلي والسيوطي والسيوفي^(٨) والجراعي^(٩) والشطبي^(١٠)، وكان المفتي الحنبلي يتولى نظارة الجامع الأموي والجامع المظفري في صالحة دمشق المعروف (بجامع الحنابلة). ولم يعين مفتياً للمالكين في دمشق إلا بدءاً من سنة ١٢٦٤ هـ، لقلة عددهم. وأول من استلم هذا المنصب صالح المغربي السمعوني المالكي الخلوتي نزيل دمشق^(١١).

ومن جهة أخرى ساعد المفتين في مهامهم أمناء الفتوى وكتاب ومسودون. وكان أمين

-
- (١) انظر: المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج ١. ص ٣٣٣. سنة ١٩٧٨ م.
 - (٢) انظر: الشطبي، محمد جميل. أعيان دمشق. ص ٥٨ و ص ٦٧.
 - (٣) انظر: سجلات الوثائق التاريخية في دمشق - المجلد ٢ / ص ١٤١ و ص ١٤٣ / ١٢٤٧ هـ.
 - (٤) انظر: الشطبي. المصدر السابق. ص ٢٢٦ و ص ٢٥٦.
 - (٥) انظر: الشطبي. المصدر السابق. ص ٢٥٧.
 - (٦) انظر: الشطبي. المصدر السابق. ص ٢٦٠.
 - (٧) انظر: أيضاً الشطبي. ص ٨٥.
 - (٨) انظر: الحصني، محمد أديب. منتخبات التواريخ لدمشق. ج ٢، ص ٦١٥ و ص ٦٦٢ و ص ٦٧٨. ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١/٢٤٠ - ١٢١٢ هـ، ص ٢٤٤.
 - (٩) انظر: الشطبي، محمد جميل. أعيان دمشق.... ص ٦٣ و ص ٦٤ و ص ٧٩.
 - (١٠) انظر: الشطبي، المصدر السابق. ص ١٥٠.
 - (١١) انظر: الشطبي - المصدر السابق. ص ١٥٠.

الفتوى يعد الاستفتاء ويعرضه على المفتي ليجيب عليه . وكثيرا ما قام أمين الفتوى بالخدمة نفسها، لأن بعض أمناء الفتوى كان ضليعا بالفقه وعلوم الدين . فمثلا إبراهيم الراجحي الذي كان أمينا للفتوى لدى المفتي الحنفي « كان فقيها وفرضيا وفلكيا ومؤقتا » مات . . . ١١٩٧ هـ^(١)، ومن أمناء الفتوى من أصبح مفتيا، فمثلا طاهر أفندي الدمشقي الحنفي، كان أمينا للفتوى مدة طويلة، ثم عين مفتيا في دمشق، وبقي في منصبه حتى أحداث عام ١٨٦٠ حيث نفي الى الماغوصة^(٢) . وعمل لدى المفتي، أكثر من عام للفتوى، فمثلا المفتي حسين المرادي اعتمد على أربعة أمناء للفتوى وهم : السيد عابدين والشيخ حسين الكبيسي والشيخ هاشم التاجي والشيخ سعدي العمري وغيرهم . وأيضا المفتي الحنفي أمين بن محمد الجبري العباسي كان لديه عدد من أمناء الفتوى وهم : سعدي العمري وعبد الله السكري وعماد الدين عابدين ومحمد البيطار، وعين كاتباً له صالح قطنا ومسوداً أبا الخير عابدين^(٣) . ومن أمناء الفتوى في دمشق في هذه الفترة، أمين الطرابيسي الذي عمل لدى مفتيها محمود أفندي الحمزاوي^(٤)، ثم حسين الكبيسي البغدادي الدمشقي المتوفى سنة ١٢٥٢ هـ^(٥)، ثم الشيخ صالح أياس الدمشقي الحنفي الذي تولى أمانة الفتوى بدمشق أيام مفتيها أسعد أفندي البكري الصديقي ومات سنة ١٢٥١ هـ^(٦)، ثم الشيخ محمد البرهاني^(٧)، وكذلك اسماعيل أفندي حمزة الذي كان أمينا للفتوى لدى المفتي حسين أفندي المرادي^(٨)، ثم سليم الطيبي^(٩) وغيرهم من آل المنيني وقزيبها^(١٠) .

ولقد اعتمد المفتون على هؤلاء الامناء في الاجابة على الاستفتاءات التي كانت توجه

- (١) انظر : المرادي، سلك الدرر ... ج ١، ص ٦.
- (٢) انظر : الشطي، محمد جميل . المصدر السابق، ص ٣٠٧.
- (٣) الشطي ص ٨٩ . ثم انظر : الحصني، محمد أديب . المنتخبات ... ج ٢، ص ٦٤٤.
- (٤) أيضا المصدر السابق . ص ٧٢.
- (٥) أيضا المصدر السابق . ص ٨٩.
- (٦) المصدر السابق . ص ١٤٣.
- (٧) المصدر السابق . ص ٢٧٤.
- (٨) المصدر السابق . ص ٦٥.
- (٩) المصدر السابق . ص ١٣٥.
- (١٠) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٢٠ / ١٢٤٨ - ١٢٦٦ هـ، ص ٢١ ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٤٠ / ١٢٥٠ - ١٢٥٥ هـ . ١٤٧.

اليهم كل بحسب فقه مذهبه . أما طريقة الاستفتاء فكانت توجه الى المفتي بشكل مكتوب ، وحسبنا هنا أن نورد مثالا على ذلك ماوجه الى المفتي الحنفي محمد أبي الصفا ، الذي ورد في إحدى سجلات محاكم دمشق ، ومما جاء فيها «نسألك العصمة في السؤال والجواب . ماقول شيخ الاسلام في كذا وكذا .. فأجاب بعد الحمد لله بكلمة نعم ... والحالة هذه .. والله أعلم» وقام المفتي بالتوقيع ومهرها بختمه ^(١) . ويصف أحد علماء دمشق الذي عاش في هذه الفترة حال الفتوى بقوله : «إن مايكون في زماننا من فتوى الموجودين ليس بفتوى بل هو نقل كلام المفتي ليأخذ به المستفتي ... ويعتمد في ذلك إما على سند أو يأخذ من كتاب معروف تداولته الأيدي» ^(٢) .

— الأشراف

كان الأشراف في دمشق فئة اجتماعية متميزة لعبت دورها الاجتماعي والاقتصادي . ولكن دورها السياسي في أوائل القرن الثامن عشر فاق ماكان عليه في فترة دراستنا . ولقب الشريف بالسيد وميز بالعمامة الخضراء . وتمتع الأشراف بمكانة اجتماعية دينية مرموقة وبامتيازات قانونية واقتصادية خصتهم بها الدولة العثمانية . فاستثنتهم من الخدمة العسكرية ، وتمتعوا بريع ممتلكات خاصة أوقفت لهم ، كما خصتهم ببعض الإقطاعات وتسلموا منحا من السلطان العثماني في وقت الحج ، وأعفوا من الخضوع لسلطة المحاكم العثمانية في دمشق فيما يتعلق بأمورهم الشخصية ، واستعيز عن ذلك بمثلهم في المحاكمة أمام نقيبهم ^(٣) .

وترأسهم نقيبهم الذي ارتبط بنقيب الأشراف في استانبول . وكان يعين سنويا في منصبه الذي كان من أكثر المناصب الدينية اعتباراً ، إلا أن الأشراف لم يكونوا أكثر القوى السياسية نفوذاً ، نظرا لحلول قوى سياسية أخرى محلهم في هذه الفترة ، وكان على رأس هذه القوى الانكشارية البرلابة .

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ . ص ٥٧١ . ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ٢٣٠ .

(٢) انظر: ابن عابدين ، محمد . رد المختار على الدر المختار ، وهو شرح لتتوير الابصار في فقه مذهب الامام الاعظم أبي حنيفة النعمان ج ١ . ص ٦٣ و ص ٦٤ . طبع مصر في ٥ أجزاء .

(٣) انظر: شليشر ، ليندا . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٣٢٧ .

وبلغ عدد الاسر الشريفة نيفا وستا وعشرين أسيرة دمشقية^(١). اضافة إلى أسر شريفة وفدت الى دمشق واستقرت فيها بعد أن أثبتت انتماءها الى... وتنازلت من المغرب العربي وبعض الاقطار الاسلامية الأخرى^(٢) وكان أكثر أمثال هؤلاء النوايا الى دمشق من النسل الحسيني، ويدهم شجرات النسب التي نشأت من هذه النوايا على فترات متلاحقة، كان آخرها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وكانت بعض الاسر الشريفة الدمشقية، تعتبر بدوياً أكثر «عراقية في نسبها» من الاسر الأخرى. وكانت هذه الأسر تدعي نسبها الى الحسين بن علي بن أبي طالب أو الى الحسن، أو أحد أبنائهما أو أحفادهم من ناحية الأب. ومن تلك الاسر «الألفي - العجلاني - النابلي - الحجار - الحصني - حمزة - زين العابدين - دقاق الدودة - كيلاي - برادير - مرتضى - منير - وموقع والبهنسي - بيازيد - حسيبي - أيب - السرميني». وقد تأكد التمييز في درجة الشرف بحسب نسب الأب في دمشق^(٣). ومع ذلك ادعت أسر استقرت في دمشق لنفسها الشرف المكتسب عن صفة الشريفة. وتطالعت سجلات محاكم دمشق بأسماء هذه الاسر التي نالت الشرف عن هذا الترتيب مثل: «أسرة الطيبري وقزبها والدقر»^(٤) والحمصي والزلة والعلبي والقطار والايوبي والناصري والجرباصي^(٥) وزند الحديد^(٦) والجلاد والمغربي والعش والقدسي والقرمشي^(٧) والصواف بالمعري والخشة^(٨) وغيرهم. ويرى أحد فقهاء الأحناف الدمشقيين الذي عاش في هذه الفترة ومير محمد أمين الشهير بابن عابدين «أن الشرف

- (١) انظر: أيضاً المرجع السابق. ص ٣٢٨.
- (٢) انظر: الحصني، محمد أديب، منشور التواريخ لدمشق، ج ٢، ص ٨٠٠.
- (٣) انظر: شليشر، ليندا. المرجع السابق. ص ٣٢٨.
- (٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ١٢١٧ - ١٢٤٥ هـ. ص ٤٠.
- (٥) انظر: السجل رقم ١٨٢ / محاكم دمشق / ١١٨٢ - ١١٩٠ هـ. ص ١٤٩ و ص ١٥٠. ثم سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ٣٠٤ / ١٢٣٨ - ١٢٤٠ هـ. ص ٦ و ص ١٠ و ص ١٥.
- (٦) انظر: السجل رقم ٢٢٠ / محاكم دمشق / ١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ. ص ٤٩٤ و ص ٥٦٩.
- (٧) انظر: السجل رقم ٣٢٣ / محكمة الميدان / ١٢٤٧ / ص ١٢١. ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢ / ٣٣٤ / ص ٨ و ص ١٢.
- (٨) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ١٢٠١ - ١٢٠٣ هـ. ص ٤٣ و ص ٢٠٨ و ص ٢٤٧.

لايثبت من جهة الأم .. وهو غير معتبر^(١) وتفسر هذه الظاهرة بالمكانة الاجتماعية المرموقة لاشراف دمشق وطموح العديد من الدمشقيين للوصول اليها والاستفادة من امتيازاتها . فادعوا النسب الشريف ولبسوا العمامة الخضراء اسوة بالاشراف الأصلاء . إلا أن الدولة العثمانية ، رغم مشاغلها ، لم تغفل عن ذلك بل كانت توجه بين الفينة والأخرى ، أوامرها إلى نقيب الاشراف في الولايات ومنها دمشق للتحقق من أنساب الادعياء ووضع حد لهم . مما دفع بنقيب أشراف دمشق للتدخل لدى قاضي القضاة «لمنع هؤلاء من لبس الشارة الخضراء والادعاء بالشرف»^(٢) .

ومن جهة أخرى وجدت بين أشراف دمشق الفروق المعتادة بين (الخاصة والعامة) شأن الفئات الدينية الأخرى ، على ضوء الملكية الشخصية والدخل الفردي وطبيعة العمل ، فكان خاصة الاشراف من أسرها البارزة التي تسلمت معظم المناصب الدينية الرفيعة ودعمت مراكزها بملكيتها الواسعة في الأرض والمرافق الاقتصادية الأخرى ، ناهيك عن توليها لآوقاف المدارس والجوامع والحرمين الشريفين وغيرها ، الأمر الذي وفر لها بمجوعة من العيش ، في حين كان عامة الأشراف كعامة دمشق ، عاشوا على دخول محدودة من صناعات وحرف مختلفة ، وعاقرو بعضهم الخمرة^(٣) ، واستخدموا كأدوات طيعة في أيدي خواصتهم ، فتصدوا بهم لمن هدد مصالحهم أو نافسهم على مناصبهم . فمثلا عندما عين السيد عبد الرحمن الكيلاني الحنفي الحموي القادري نقيباً للأشراف في دمشق ، شعر هؤلاء بالخطر على مصالحهم فحركوا رعاع الأشراف ضده وهجموا على داره الكائنة بالقرب من باب القلعة وأرادوا إيقاع الضرر فيه ... فعزل ومات سنة ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ - ١٧٨١ م^(٤) .

واكتسب عامة الاشراف كنياتهم من الحرف التي زاولوها في دمشق كالحجار^(٥) والعمار^(٦) وتوجد أدلة أخرى على ان بعضهم كان سليل حرفيين كعائلة الفلاقنسي التي

(١) رد المختار على الدر المختار . ج ٣ . ص ١٨ .

(٢) انظر سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ٢١٨ ص ٢٥٦ ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٠٢ / ص ١٨ .

(٣) انظر : المرادي ، محمد خليل ، سلك الدرر . ج ٤ ، ص ٢٤٦ .

(٤) المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٥) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٣٠٤ / ١٢٣٨ هـ - ١٢٤٠ هـ . ص ١٠ .

(٦) انظر : السجل رقم ١٨٢ / محاكم دمشق / ١١٨٣ - ١١٩٠ هـ . ص ١٤٩ .

كانت من النساجين (الحياكين) وبعض أفراد عائلة الحمزة الذين كانوا من الخياطين وبعض أفراد أسرة سلطان الذين كانوا من المؤذنين^(١).

ولم يقتصر سكن الأشراف على منطقة معينة في دمشق رغم وجود بعض الأوقعة التي كانت تحمل أسماءهم، مثل زقاق الأشراف في باب الجابية بالقرب من سيدي الشيخ عامود، وزقاق الأشراف باطن دمشق بمحلة الخراب^(٢)، بل سكنوا في أحياء دمشق المختلفة سواء داخل أسوارها أو خارجها. ففي سنة ١٢١٦ هـ كان يسكن نقيب الأشراف من آل العجلاني في زقاق المنجدين^(٣) باطن دمشق، وكذلك حسن أفندي حمزة الحسني كان يسكن في حي القيمرية بالشارع السلطاني^(٤)، في حين كان بعض آل العجلاني يسكنون خارج أسوار دمشق في حي الميدان. ومن الأشراف من سكن في قرى دمشق. ولم يستمد الأشراف نفوذهم الاجتماعي، من نظرة احترام الدماشقة لهم فحسب، بل استطاعوا تحقيقه من خلال حصول خاصتهم على المناصب الرفيعة في الدولة، كالقضاء والافتاء والتدريس ونظارة الأوقاف ومشيخة الطرق الصوفية والحرف بالإضافة إلى نقابة الأشراف. وبرزت منهم في هذا المجال أسرة المرادي والعجلاني والمنير والسرميني وحمزة والصدقي والتحسين وغيرها.

وكان أشراف دمشق في معظمهم من السنة بمذاهبها المختلفة وقلة منهم كانت من الشيعة الاثني عشرية كآل المرتضى^(٥). وبلغ عدد الأسر الشريفة على المذهب الحنفي تسع عائلات وعلى المذهب المالكي ثمان عائلات، وعلى الشافعي ثلاث عائلات، ولكن لم تكن إحدى هذه الأسر من الحنابلة^(٦).

ولم يلعب تنظيم الأشراف في دمشق دوراً سياسياً بارزاً في هذه الفترة، شأن أقرانهم في حلب، الذين كانوا أكثر تماسكاً فيما بينهم، من أشراف دمشق، الذين أثير الخلاف فيما

(١) انظر: شليشر، ليندا. المرجع السابق. ص ٣٢٩.

(٢) انظر: السجل رقم ٢٣٥ / محاكم دمشق / ص ١٨٠ و ص ١٨٩.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ - ١٢١٧ هـ. ص ٢٥.

(٤) انظر: المصدر السابق. ص ١٠٣.

(٥) انظر: الشطبي، محمد جميل. المصدر السابق. ص ١٣٦. ترجمة السيد سليم مرتضى.

(٦) انظر: شليشر، ليندا. المرجع السابق. ص ٣٢٩.

بينهم على منصب نقييهم وسلطاته التي حددت بالآتي : «حفظ أنسابهم وتمييز بطونهم ومعرفة من ولد منهم (ذكر أم اثني) واجبارهم على السلوك الذي ينسجم مع سمو نسبهم وتنزيههم عن المكاسب الدنيئة، ومنعهم من المطالب الخبيثة وكفهم عن ارتكاب المآثم وانتهاك الحرمات، ومنعهم من التسلط على العامة كي لا تكرههم. واستعطافهم في استيفاء حقوقهم منها، واستيفاء حقوقها منهم، وأن ينوب عنهم في استيفاء حقوقهم من بيت المال، ويراعي قسمها بينهم بحسب الشروط والأوصاف المرعية، وأن يمنع زواج نسائهم إلا من الأكفاء لشرفهن، وأن يقوم ذوي الهفوات ويقوم بالفصل في منازعاتهم ويتولى أوقافهم فيما ملكوه وإقامة الحدود عليهم فيما يرتكبون وتزويج الأيامي اللواتي ليس لهن أولياء، ويوقع الحجز على من يصاب بالعتة منهم»^(١).

وقام نقييهم بتمثيلهم أمام السلطات وتبوا بذلك مركز الوجاهة الاجتماعية. وكان معظم نقبائهم في دمشق من أسرتي العجلاني وحمزة وشاركتها في ذلك أسرة التحسين والمرادي والصديقي، وكان ترتيب النقباء على الشكل الآتي :

عبد الله اسماعيل العجلاني	١٧٧٠ — ١٧٧١ م
حمزة بن يحيى الحمزة	١٧٧١ — ١٨٠٢ م
محمد خليل بن علي المرادي	١٧٨٥ — ١٧٨٦ م
حمزة بن علي العجلاني	١٨٠٢ — ١٨١٢ م
سعيد بن حمزة العجلاني	١٨١٢ — ١٨٢٠ م ^(٢)

وفي سنة ١٢٤٥ هـ استلم النقابة أحمد رشيد تحسين الحسيني^(٣)، ومن بعده أحمد عارف تحسين^(٤)، الذي بقي نقيباً للأشراف في دمشق إلى سنة ١٢٤٨ هـ حيث حل محله السيد محمد خليل أفندي الصديقي^(٥). وأوكل أمر أشراف القرى إلى قيمقام نقيب الأشراف

(١) انظر: البطار، عبد الرزاق. حلية البشر... ج ٢. ص ١٠٤٣ و ص ١٠٤٤.

(٢) انظر: شليشر، ليندا. المرجع السابق. ص ٢٣٠.

(٣) انظر: سجلات الوثائق التاريخية بدمشق المجلد ٢. ثم الوثيقة رقم ٣٥ / ص ٤٣ تاريخ ١٢٤٥ هـ.

(٤) المصدر السابق الوثيقة رقم ١٧٢ / ص ١٧٠ سنة ١٢٤٧ هـ.

(٥) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٦ / ص ١٠٩.

الذي كان تابعا له . وكان هذا المنصب أيضاً في أسر دمشق الشريفة ، وكان قيمقام نقيب الأشراف يعين سنوياً . واستلم هذا المنصب السيد عبد المحسن العجلاني مابين ١٢٤٥ — ١٢٤٧ هـ^(١) .

ولقد تعرض الأشراف ، شأن بقية القوى المحلية في دمشق ، لضربات عديدة نتيجة للظروف السياسية والاقتصادية التي أحاطت بدمشق ، فوجهت اليهم ضربات موجعة على يد والي دمشق أحمد باشا الجزار . ففي سنة ١٢١٨ هـ قام زبانيته بعزل نقيب الأشراف حمزة أفندي العجلاني ونصبوا مكانه خليل أفندي الصديقي «بموجب بيوردي من الجزار»^(٢) ، ولم يكتف الجزار بذلك بل أصدر أوامره بقتل عبد الرحمن المرادي وأسعد أفندي المحاسني ، فخنقا في قلعة دمشق سنة ١٢١٨ هـ^(٣) . وأصدر أوامره بقتل آخرين من خاصة الأشراف وابتزاز أموال التجار منهم ، كالسيد محمد الصواف الذي سجنه وعذبه وأخذ منه عدة أكياس من القروش . ولم ينج الأشراف الذين عملوا في طوائف الحرف من الابتزاز وتشويه أجسادهم على يد زبانية الجزار .

وأصاب الأشراف ماأصاب رجال الدين من الضرر نتيجة لاصلاحات محمود الثاني من جهة ، وللمتغيرات التي أدخلها حكم ابراهيم باشا المصري ، في مجال التزام أموال الميري ، والقضاء والتدريس ، ودعوته لمساواة أهل الذمة مع المسلمين ، وإدخاله القناصل الاوربيين ، مما انعكس على الوضع الاجتماعي بشكل عام ، فتأثر الأشراف بذلك ، لما حرموه من امتيازاتهم العديدة نتيجة لتلك الإجراءات . وتغلظت أكبادهم مع بعض الخاصة من رجال الدين ضد ابراهيم باشا ، وبدأوا يحرضون على الثورة والعصيان ، إلا أن شدة حكم ابراهيم باشا جعل حقدهم نارا تعث تحت الرماد لم تقو على الاندلاع إلا في أحداث عام ١٨٦٠ م .

(١) انظر : سجل الوثائق التاريخية بدمشق المجلد رقم ٢ . الوثيقة رقم ٣٥ / ص ٤٣ . ثم الوثيقة رقم ٦٠ / ص ٦٥ . ثم الوثيقة رقم ٩٦ / ص ١٠٠ . ثم الوثيقة ١٤٢ / ص ١٤٢ . ثم الوثيقة رقم ١٧٢ / ص ١٧٠ .

(٢) انظر : العبد ، حسن آغا ، قطعة من تاريخ حسن آغا العبد ، ص ٨٩ .

(٣) انظر : الشطلي . المصدر السابق . ص ٦١ و ص ٩٣ .

أوقاف دمشق ودورها الاجتماعي

قسم الوقف الى وقف خيري^(١) أو وقف أهلي^(٢)، أما الخيري فكان إما لاغراض دينية أو لاغراض دينية ودنيوية. أما الوقف الأهلي فكان نوعين: وقف طائفي أو وقف ذري. أما نوع الملكية الموقوفة فكانت إما أموالاً منقولة أو غير منقولة. والأموال المنقولة، إما صامته أو ناطقة. وكان الحرمان الشريفان (مكة والمدينة) والجامع الأموي والتكية السليمانية والبيمارستان النوري والقيصري، ثم جامع أحمد شمسي باشا وجامع لالا مصطفى باشا، أكثر مانالت من الجهات والمؤسسات الخيرية من الأوقاف. وكانت دائرة الأوقاف من السعة بحيث شملت معظم أملاك دمشق، من هنا جاءت أهمية الوقف الاقتصادية والاجتماعية الدينية. وكثر عدد العاملين في مؤسساتها الخيرية، والمنتفعين بأموالها، وتعددت بذلك تسمياتهم. وكان الأوقاف تحت اشراف القضاة وتوابعهم في دمشق وكان المتولي من أهم موظفي الوقف، ويقوم بمهامه بموجب براءة سلطانية من استانبول. ففي هذه الفترة كان سليم آغا بن عبد الله الوكيل بن مصطفى آغا بن المرحوم حسن آغا الاسلامبولي متولياً على أوقاف البيمارستان النوري^(٣). في حين نرى أن من تولى أوقاف الحرمين الشريفين في دمشق كانوا من الأروام، ففي سنة ١٢١١ هـ كان ولي آغا بن محمد الرومي متولياً على الأوقاف المذكورة. وشاركهم في ذلك بعض الدماشقة، ففي سنة ١٢٠١ هـ كان متولياً على الأوقاف المذكورة محمد القدسي

(١) الوقف الخيري: هو ما حبس لجهة دينية كالمساجد والمعابد ومدارس العلم ودور الصناعات ورباطات المجاهدين وزوايا وتكايا الصوفية والفنادق لابناء السبيل ومستشفيات للمرضى ومقابر للموتى ودور لإيواء العاجزين والصرف عليهم ولاداء فريضة الحج وتجهيز البنات الى أزواجهن وهن اللواتي لاقدرة هن على ذلك. ولفكاك الأسرى ولتعديل الطرق والأرصفة ولتعويض كسر الأواني ولجرقنوات المياه ولانشاء المنارات وتأمين الأرامل ومساعدة المساكين وتقديم مساعدات نوعية للقرويين والمسنين وتأمين لباس أطفال المدارس ورز للطيور وطعام وماء للحيوانات وتمويل نزهة الأطفال في زمن الترفيع ودفن الفقراء بعد تجهيزهم وغيرها. انظر: الحصني، محمد أديب تقي الدين، مستحبات التواريخ لدمشق. ص ٩٧٩. ثم بن بدران، عبد القادر، منادمة الأطلال، ص ٥٤ و ٥٥.

(٢) الوقف الأهلي: وهو إما طائفي — كوقف الحنابلة والشافعية والشيعة. أو طوائف أهل الذمة كالموارنة والارثوذكس واليعاقبة — أو وقف ذري وهو ماحبسه الواقف على آبائه وأحفاده وأسياطه وأعقابهم الى انقراضهم ثم يحول الى جهة خيرية بحسب شرط الواقف.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢١ — ١٢٠٣ هـ. ص ٩.

الزهاوي ثم محمد هبة الله التاجي^(١)، وكانت أوقاف الجامع الأموي على المذاهب السنية الثلاثة الرئيسة في دمشق (الشافعية والأحناف والحنابلة)، ومن موظفي الوقف الآخرين الناظر الذي صح أن يكون ذكرا أو أنثى من ذرية الواقف، خاصة إذا كان الوقف ذريا، وقسم ربع النظارة بنسب معينة بحسب الأنصبة الشرعية على مستحقها.

ومن موظفي الوقف أيضا الجاني، الذي كان يقوم بجباية الأموال من مستأجري أملاك الوقف أو مستثمريه، ويقوم بدوره بدفع الأموال للناظر، ويحصل على منصبه بموجب براءة سلطانية، وكان له راتب مخصوص على ذلك. ومن مهامه فض الدعاوي والمخاصمات لدى الحكام والصرف والائجار والحبس والافراج والمكاتب والاشهاد على الوجه المعتاد^(٢). وبرزت في هذا المجال أسر دمشقية تغلب اسم عملها في الأوقاف على كنيها الأصلية وأصبحت تعرف به كآل الجاني.

ومن موظفي الأوقاف وكيل الجاني، الذي كان يقوم بمهام الجاني بتوكيل منه عندما لا يقوم الأخير بهذه المهمة شخصا، وكان للوكيل على ذلك مبلغ معلوم. ثم قيم مقام المتولي، الذي كان ينوب عن المتولي لدى القاضي فيما يتعلق بأمور الوقف^(٣). هذا ناهيك عن عدد من الموظفين والكتاب الذين عملوا في مصالح الوقف المختلفة، وفي المؤسسات الوقفية الخيرية. ففي التكية السلিমانيّة في دمشق كان يوجد قراء ووعاظ وحفاظ ومتولون وكتاب وجباة وأئمة ومؤقتون وبوابون وفراشون وكناسون وشغالون ومبشرون ومصرفون وشيوخ أجزاء ومراقبون وأساتذة وتلاميذ وخبازون ووكلاء خرج وحمالون وخزانة وغيرهم ماينوف على ١٠٣ أشخاص^(٤).

وكان لوقف شمسي أحمد باشا في سنة ٢٢٣٨ هـ (١٧٦) إرسالية متولي، و٣٦

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤ / ١٢٦٠ - ١٢١١ هـ. ص ٥٠. ثم سجلها رقم

٢٣٩ / ص ٢٩٨ و ص ٥٠٨. ثم سجلها رقم ٢٤٠ / ص ٤٨١. أيضا السجل رقم ٢٣٥ / محاكم دمشق /

١٢١٠ - ١٢١١ هـ. ص ٢٨. ثم سجل رقم ٢٥٠ / المحكمة الكبرى بدمشق. ص ١٠.

(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١ / ٢٢١ - ١٢٠٣ هـ. ص ١٩٨.

(٣) انظر: السجل رقم ٢٣٥ / محاكم دمشق / ١٢١٠ - ١٢١١ هـ. ص ٨٨.

(٤) انظر: الحسني، جعفر. التكية السلیمانيّة في دمشق. مجلة انجم العلمي العربي بدمشق. الجزء الثاني.

المجلد ٣١، ص ٢٢٦ و ص ٢٢٧. ١٩ شعبان ١٣٧٥ هـ / ١ نيسان ١٩٥٦ م.

وظيفة ناظر وقف و ٣٠ قائم مقام و ٢٤ وظيفة مختلفة، ووظيفة كتاب. وكانت به أيضا وظائف عدة لآل الاسطواني وعلي آغا وآل الشرباتي وآل المجد وآل العمري وآل منلا أفندي وغيرهم^(١).

ولم يكن الوقف حصرا بالمسلمين، بل كان لأهل الذمة أوقاف عديدة، حبست على جهات خيرية وأهلية مختلفة. تخص أبناءهم ومنشآتهم الدينية، وسجلت هذه الأوقاف في سجلات محاكم دمشق أمام قضاتها أو نوابهم إلا أن هذه الأوقاف لم تصل في اتساعها وغناها إلى ماوصلت إليه الأوقاف الإسلامية لسبب بسيط، هو قلة عدد الذميين إذا ماقيس بعدد المسلمين في دمشق، وحبست أوقافهم الخيرية على البيع والأديرة وغيرها، وكانت أوقاف المسيحيين على طوائفهم المختلفة، كالأرثوذكس والموارنة واليعاقبة والكاثوليك والكبوشيين، في الفترة الأخيرة^(٢) وغيرها. ولقد أشرف على أوقافهم، موظفون وقيمون شأن الأوقاف الإسلامية. وكان متولو أوقاف النصارى من النصارى أنفسهم وبحسب طوائفهم، أما نظار تلك الأوقاف فكانوا مناصفة بين النصارى والمسلمين، وحددت أسماء النظار والمتولين براءات سلطانية. فمثلاً: في سنة ١٢٠١ هـ كان متوليا على وقف دير صيدنايا بطريق طائفة النصارى دانييل جرجس حنا بموجب براءة سلطانية^(٣). كما تولى أوقاف دير طورسينا في دمشق القس يوسف بن الياس حنا^(٤)، ومن بعده في ١٢١٠ هـ/ ١٧٩٥ - ١٧٩٦ م تولاهم الراهب جستنيان ولد المعلم متري^(٥)، وفي نفس هذا العام كان متوليا على أوقاف الموارنة القس روفائيل عبد المعطي المسابكي الموراني^(٦). أما أوقاف اليعاقبة في دمشق فقد

(١) انظر: سجلات الوثائق التاريخية بدمشق. المجلد الثاني. ص ١.

(٢) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ - ١٢١٧ هـ. ص ٩٣ وص ٩٤ وص ٩٥. ثم سجل المحكمة العونية رقم ٢٦٠ / ١٢٢٢ - ١٢٢٣ هـ. ص ٩. ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ / ١٢١٠ - ١٢١١ هـ. ص ٧٢ وص ٩٥. ثم السجل رقم ٣٧٩ / محاكم دمشق ١٢٥٩ هـ. ص ٤ وص ١٥ وص ١٧.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ١٢٠١ - ١٢٠٣ هـ. ص ٣١٦. ثم: سجلها رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ - ١٢١٧ هـ. ص ٩٣ وص ٩٤.

(٤) المصدر السابق. ص ٤٣٧.

(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ / ١٢١٠ - ١٢١١ هـ. ص ٩٥.

(٦) المصدر السابق. ص ٧٢.

تولاها في ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ — ١٨٠٢ م سليمان ولد حور^(١) ، وفي سنة ١٢٥٩ هـ تولى أوقاف الروم الكاثوليك الخواجة ميخائيل ولد المعلم ابراهيم الأسود^(٢) . ولقد سجلت أوقاف المسيحيين واليهود في سجلات محاكم دمشق المختلفة ، كسجلات المحكمة الكبرى وسجلات المحكمة العونية وسجلات محكمة الميدان ، لقرب هذه المحاكم من أحيائهم السكنية ، في حين لا نرى مثل هذه المعاملات في سجلات محكمة الصالحية ، للأسباب التي ذكرناها آنفا .

وكانت أوقاف اليهود محدودة في دمشق لقلة عددهم فيها ، وجل أوقافهم كانت خيرية ومحبوسة على كنيسهم في قرية جوبر ، وكان ناظرا ومتوليا على هذا الوقف في سنة ١٢١٧ هـ ، بشة ابن يوسف آرازي ، الذي جرى تعيينه بالتماس وحضور جماعة من طائفتهم أمام القاضي^(٣) . وكذلك وقف يعقوب اليهودي الذي كان ناظرا عليه في سنة ١٢٢٣ هـ يعقوب اسحاق بموجب تقرير حصل عليه في سنة ١١٨٤ هـ^(٤) . ولكننا لانعلم طبيعة هذا الوقف ، أكان خيراً أم أهلياً ؟ ، ومع ذلك كان لليهود أوقاف أهلية وغير أهلية ، سجلت جميعها في سجلات محاكم دمشق الثلاثة الآنفه الذكر .

ومما يسترعي انتباهنا في هذه الفترة ، المشاكل التي كان يحدثها إسلام أحد أهل الذمة فيما إذا كانت له حصة من أوقاف دينية سابقة لإسلامه ، وكانت مثل هذه الحالة تعرض على القاضي ، فيأمر بصرف تعويض له مقابل تنازله عن حصته في الوقف ، ونسوق مثالا على ذلك ما حصل في سنة ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ — ١٧٩٦ م عندما أسلم جرجس سمور (الذي أسمى نفسه بكري) والذي كان يقاسم أخاه فرنسيس مناصفة في النظر على وقف جدهما ، فحكم القاضي للأخ الذي أسلم ، بأخذه مبلغا من المال مقابل تنازله عن حصته في النظر على وقف جده لأخيه النصراني^(٥) .

ضروب الخيل للسطو على أموال الأوقاف

نتيجة لاتساع أملاك الاوقاف وغناها ، وللظروف الاقتصادية والسياسية المضطربة ،

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ — ١٢١٧ هـ . ص ١٣٠ .

(٢) انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٣٧٨ / سنة ١٢٥٩ هـ . ص ١٥ .

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ — ١٢١٧ هـ . ص ٣٦٢ .

(٤) انظر: سجل المحكمة العونية بدمشق رقم ١٢٢٢/٢٦٠ — ١٢٢٣ . ص ٣١٣ .

(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٠/٢٣٥ — ١٢١١ هـ . ص ١٤٧ .

ورغبة في الثراء والحفاظ على دخول مادية عالية وبالتالي الحفاظ على الجاه الاجتماعي ، سعى العديد من الدماشقة وغيرهم من عناصر السلطة للسطو على ريع الأوقاف وممتلكاتها بحيل متباينة . ولم يكتفوا بذلك بل حولوا ملكياتهم الخاصة الى أوقاف ذرية للتهرب من مصادرة الدولة لأملاكهم ، التي كانت تحصل لاتفه الاسباب .

وهانحن نبسط فيما يلي أهم الحيل التي ابتكرها الطامعون في أملاك الأوقاف «الأرضين والمسقفات وغيرها» فكان على رأسها : (المرصد) بالنسبة للعقارات المسقوفة . فادعي على أنه دين على ذمة العقار الموقوف يوفى من أجرة العقار بعد استيفاء المتولي عليه مقدارا معجلا من المستأجر الذي سماه (خدمة) وفرض مقدارا مؤجلا على العقار استوفاه منه مساهمة وسماه (دينا مؤجلا) .

وأبدعوا حيلة أخرى بالنسبة للأراضي الزراعية الواقعة في ملك الأوقاف ، فاتبعوا طريقة أخرى أسموها (شد السكة أو مشد السكة) وتعني استحقاقاً لحراثة الأرض التي ليست مملوكة الرقبة للحرث . وكذلك أداء مرتب الوقف إذا كانت موقوفة الرقبة بعد أداء حق حرثها . وما أن حل القرن التاسع عشر حتى ساد الغموض التام بين الأرض الموقوفة والأرض غير الموقوفة ، أو الموقوفة بشكل صحيح بغيرها من الأراضي الموقوفة وقفا غير صحيح ، وشمل الاختلاط الأراضي ذات الوقف الأهلي بغيرها من الأراضي ذات الوقف الخيري . فضاء بذلك عدد كبير من الأراضي الموقوفة بتقادم العهد^(١) . وقام المتولون على الأوقاف أيضا بالتلاعب بمناشير السلاطين ، وتكتموا عليها ليتاح لهم التلاعب بشروط الواقفين من الميادين أو الحالات الخيرية ، واختلاسهم حقوق المستحقين من الوجهة الأهلية . واستغل بعض الدماشقة قاعدة (الاستبدال) بالنسبة للوقف . فاستبدلوا بالتواطؤ مع الحكام والقضاة أملاك الأوقاف الجيدة بأملاك سيئة لا تجدي نفعا تحقيقا لمصالحهم الشخصية^(٢) . وابتدعوا (الكذك أو الجدك) ثم القميص والحكر والاحترام والقيمة في مجال الأرضين . والمراد بكلمة (القيمة) هو جدران البستان (الدكوك) وما يشتمل عليه من جذور وشروش الفصاة ومعجن المشمش .

(١) انظر : الحصني ، محمد أديب ، منتخبات التواريخ لدمشق ، ص ٩٨٣ .

(٢) لمزيد من التفصيل يمكن العودة الى ابن عابدين ، محمد أمين . ود اختار على الدر المختار . ج ٣ . ص ٥٣٥ وص ٥٣٧ . وهو أحد الفقهاء الذين عاشوا في هذه الفترة وكتبوا عنها . ولد سنة ١١٩٨ هـ ومات سنة ١٢٥٢ هـ . ثم الشطي ، محمد جميل . ص ٢٤٩ . وما بعدها .

أما الكدك فكان منهم بدعة ، شملت المسقفات كالحمامات والخوانيت . أما كدك الحمامات فكان يشمل الفرش والأساس كالسجاد والوزرات والمداسات وغيرها ، وشمل كدك الخوانيت ماوضعه المستأجر فيها من أبواب ورفوف وغالات وغيرها . وكذلك بالنسبة لخوانيت المقاهي والحلاقة . وكان الكدك يسمى (خلوا أو حق السكن) . ويراد به قطب الرحي وأحجارها .

ولم تقتصر حيلهم على ذلك بل شملت عرصات البناء الموقوفة ، فأسموها (حكرا) وذلك بأن يأذن المتولي للمستأجر بإنشاء بناء على العرصة الموقوفة ، على أن يكون هذا البناء ملكا له بعد أن يؤدي لمتولي الوقف مقدارا معجلا يسمى (خدمة) . ويتعهد بدفع مبلغ من المال يؤديه مسانحة يسمى (دينا مؤجلا) . وقام مستأجرو أرض الوقف ، بغرس غراس فيها أسموا تلك الغراس (احتراما) ، وكان ذلك حيلة منهم للسيطرة على الوقف ، وحرمان مستحقي ريعها منها .

ولقد استفحلت ظاهرة الاحتيال وكثرت المشاحنات والمنازعات بين أصحاب الحقوق ، في الأوقاف والمتسلطين عليها ، مما أدى الى تعدد الشكاوى الى القضاة ونوابهم في دمشق . وسجلات محاكمها مليئة بمثل هذه القضايا . وحسبنا هنا أن نسوق مثالا على ذلك ماورد في سجل المحكمة الكبرى في عام ١٢١٦ هـ بخصوص (استبدال) بساتين جارية في وقف المرحوم جمال الدين الخضيرى والمستقرة تحت نظر قاسم آغا بن محمد آغا الدمشقي وابن عمه اسماعيل آغا : وذلك بالدراهم والدنانير ، ورغم أن تلك العملية كانت احتيالا لشراء أملاك الوقف المذكور ، وتلحق ضررا كبيرا به ، إلا أن القاضي وافق على عملية الاستبدال في ١٣ شعبان ١٢٢٦ هـ^(١) مبررا ذلك بحجج واهية . ولقد شمل الاحتيال أيضا أوقاف أهل الذمة^(٢) كما شمل أوقاف المسلمين ويعلق محمد أمين عابدين على عمليات الاحتيال بشكل عام فيقول : «إن أهل السوء المستأجرين ملك الأوقاف تواطؤا مع الحكام وسيطروا على هذه الاملاك واحتكروها وورثوها لابنائهم وأحفادهم .. فأدى ذلك الى نقصان فاحش في مردود

(١) انظر : تفصيل القضية في سجل المحكمة المذكورة رقم ٢٥٠ / ص ٨٣ كما وردت مواد احتيال مماثلة في سجل محكمة دمشق الكبرى رقم ٢٢١ / ١٢٠١ - ١٢٠٣ هـ . ص ١٧٨ و ص ٧٨ و ص ٢٢٨ و ص ٢٣٠ ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١ / ٢٤٥ - ١٢١٦ هـ . ص ٣٤٤ .

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ص ١٣٠ .

الأوقاف»^(١). ولم يكتف المختلسون بحيلهم تلك بل سعوا بعضهم للتلاعب بأموال الأوقاف وأكلها بالباطل جهارا كما حصل لمتولي أوقاف الجامع الأموي من أسرة سعد الدين . ويعلق المرادي على تصرفهم هذا بقوله : (اضمحل حالهم وخربت دورهم بسبب ذلك)^(٢) . وجرت بعض المحاولات لإصلاح حال الأوقاف من قبل بعض الفقهاء ورجال الدين وغيرهم ، فاتجهوا الى القضاة لوضع حد لتلك الألاعيب والحيل على أملاك الأوقاف . وكان منهم محمد أمين عابدين الذي استصدر أوامر من قاضي قضاة دمشق فيما يتعلق (باجراء المدة الطويلة والتالية والمنتظرة وثبوت المرصد والبيع الحكمي وغيرها)^(٣) . إلا أن هذه المحاولة لم تكن حلاً عاماً وجذرياً لمشكلة الأوقاف ، كما أنها لم تستطع أن تعيد الأوقاف إلى مسارها الصحيح ، فانعكس هذا الوضع السيء سلبا على المؤسسات الخيرية والمنشآت العامة التي اعتمدت في تغذيتها وصيانتها على مآثره أوقافها ، قال أمرها الى الاضمحلال والخراب . فاضطر السلطان محمود الثاني لإنشاء مديرية خاصة (تحولت الى وزارة فيما بعد) لتنظيم أمور الأوقاف بعد أن فسد أمرها ، وكثر تحويل الملك الى وقف أهلي أو ذري ، لتحاشي مصادرته من قبل الدولة ، ولما كان الوقف مقتصرا عادة على المدن وجوارها المباشر ، حيث شاع الملك وعم تحويله الى وقف ، بينما كانت معظم الأراضي الزراعية في الريف أراضي دولة تعطى كإقطاع وتجبى وارداتها عن طريق الالتزام ، فقد تحولت واردات الوقف لتقوية فئة العلماء ، الذين كانوا نظارا ومتولين للأوقاف ، وجاء هذا الاجراء الجديد ليحرم العلماء من مصدر هام من مصادر قوتهم وليزيد بالمقابل من سلطة الدولة^(٤) . وتحول هؤلاء الى دعم الدولة لطالما أن معاشهم يعتمد عليها .

(١) رد المختار على الدر المختار . ج ٣ ، ص ٥٤١ .

(٢) محمد خليل .. سلك الدرر ... ج ١ . ص ٤٢ .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٦ / ١٢٤٨ هـ . ص ١١٦ و ص ١١٧ .

(٤) انظر : رافق ، عبد الكريم . العرب والعثمانيون . ص ٣٧٩ و ص ٣٨٠ .

الفصل الرابع

البنى الإجتماعية
في دمشق

الأسرة الشامية

أسر دمشق البارزة — الأسرة الفلاحية — غذاء الأسرة الفلاحية — الأسرة الواسعة في مدينة دمشق — هندسة البيت الشامي — القصور في دمشق — بيوت الريف في مقاطعات ولاية الشام — حرمة البيوت وقديسيها — حياة الأسرة الدمشقية ونشاطها داخل البيت — المرأة الدمشقية — حجاب المرأة الدمشقية — عمل المرأة في دمشق ومقاطعاتها — ظاهرات الانحراف في المجتمع الدمشقي :

- ١- الزرب
- ٢- الرشوة والفسخ وأسبابهما
- ٣- السرقة والسطو والبلص
- ٤- تناول المخدرات ومعاقرة المسكرات
- ٥- الشذوذ الجنسي
- ٦- ظاهرة العهر.

الأسرة الشامية

من الثابت أن العثمانيين لم يتدخلوا في شؤون الأسرة في بلاد الشام ، فبقيت على حالها: الموروثة إلى العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، من حيث بنيتها وتنظيمها وتماسكها وسكناها وعاداتها وتقاليدها . وإذا ما طرأ عليها تطور ما ، كان طفيفاً ونظيماً ، نظراً لثبات علاقات الانتاج وطرقه من جهة ، ولانعزال دمشق عن المؤثرات الاوربية نسبياً من جهة أخرى ، في وقت بدأت فيه أوروبا تقود ركب الحضارة الانسانية . وبقيت دمشق مغلقة في وجه الأوربيين إلى الاحتلال المصري ، حيث غدا الغزو الاقتصادي واسعاً وعميق التأثير ، أعقبه غزو أوربي فكري ، نتج عنهما بداية تفكك البنى الاقتصادية والاجتماعية القديمة التي كانت سائدة ، لتحل محلها بنى وعلاقات اجتماعية جديدة .

وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نلمح مرحلتين أساسيتين مرت بهما الأسرة في فترة دراستنا الأولى منهما : هي التي سبقت الغزو الأوربي الأنف الذكر ، والثانية : انفتاح دمشق على الغرب في منتصف القرن التاسع عشر ، حيث انعكس ذلك على الاقتصاد الدمشقي بشكل عام ، وأثر بدوره على المجتمع من جهة أخرى . ولم تتأثر الأسرة في ذلك فحسب ، بل أدت تلك الأوضاع المستجدة إلى حدوث مفرزات اجتماعية جديدة أنف منها المجتمع ولكنه لم يقو على التخلص منها كما سنرى .

وفيما يلي سنتناول وضع الاسرة في المرحلة الاولى ، سواء في مدينة دمشق أو ريفها ، ولقد عبر عن الأسرة بألفاظ عدة ، اختلفت بين سكان دمشق وسكان القرى المحيطة بها . وسكان الاماكن البعيدة عنها ، سواء في جبال القلمون أو في حوران أو فلسطين أو البادية .

وكانت كلمة الاسرة في دمشق تعني (عائلة) أو عيلة بالكلمة الدارجة ، وشملت جميع أفراد الاسرة من ذكور أو إناث الذين يحملون اسمها ، ويرتبطون فيما بينهم بروابط الدم . وكان الذكر يهب اسم اسرته لابنائهم ، في حين لم يمنح المجتمع للمرأة هذا الحق . وكانت تعني بالمعنى الضيق (الاسرة الزوجية) ، المكونة من الزوجين وأولادهما فحسب ، كما تعني الاسرة الواسعة لتشمل بالاضافة إلى ذلك من يعيلهم رب الاسرة . فيقال عنه (صاحب عيلة) أو (أبو عيلة) إذا كان عدد من يعيلهم كبيراً ، وتشمل بالاضافة إلى الأولاد ، الأحفاد والاسباط في بعض الحالات .

وأطلق اسم (بيت) على الاسرة ، كما أطلق اسم (دار) على العائلة في جنوب بلاد الشام (فلسطين) والمقصود بذلك (الاسرة) التي تسكن داراً واحدة أو عدة دور .

واستخدم الفلاحون ، خاصة في المناطق البعيدة عن المدينة ، كلمة (حمولة) للدلالة على الاسرة الكبيرة ، وتشمل جميع أعضاء الاسرة ، الرجال والنساء ، الذين يرتبطون مع بعضهم بروابط الدم ، وينسبون إلى جد واحد ، كحمولة الحريري في حوران . ويسمى الفرع من الحمولة (فندة) كما في حوران أيضاً وقبائل البدو . وضمت الفندة مجموعة الافراد من جيل واحد أو من عدة أجيال ممن يرجعون إلى عضو معين من الحمولة ، ويحملون اسم هذا العضو . وتتفرع من الفندة فندة أخرى وهكذا .

ويضاف إلى أسماء الاسرة الواردة سابقاً كلمة (أهل) . وتعني هذه الكلمة الاب وأولاده وأحفاده العذاب والمتزوجين الذين يعيشون عادة في نفس المنزل^(١) . أما الابن الذي يعيش تحت سقف أبيه ، مع زوجته وأولاده ، فيسمى مجموعهم (العيال)^(٢) .

وفي بعض الجبال القريبة من دمشق أو الوديان ، وجدت اسر اقطاعية كبيرة ، حكم

1 - See: Daghestani.K. «la Famle Muslmane conteporaine En Syrie» PP.147-153. Paris. 1932.

(٢) الغزي . الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ١٩٢ .

بعضها مقاطعات كانت تابعة لولاية دمشق وصيدا، أو إمارة جبل لبنان، وكان لها شيوخها، وتفرعت هذه الاسر إلى اسر كبيرة، وجمعتها تسمية واحدة، أطلق عليها كلمة «آل»، كآل تلحوق أو آل عبد الملك أو آل عماد^(١)، في مناطق لبنان، ثم آل جرار أو طوقان في نابلس وهكذا.

أما العشيرة فضمت مجموعة أسرية أوسع مما ذكرناه آنفا، وكانت لدى البدو والحضر، وشملت كل من توالد في نطاق التسلسل البنوي، حتى الجيل العاشر، أو بمعنى آخر ضمت الأجيال المتولدة من خمسة أحفاد وضمت العشيرة عدة حمائل، وتعترف كلها بسلطة شيخ واحد^(٢) يرأسها. وبرز ذلك واضحاً في المناطق التي كانت على علاقة بالبدواة، كما في قرى حوران والجولان، ولدى البدو أنفسهم.

ولقد لعبت هذه الروابط دوراً في شد أزر المتخاصمين في دمشق، إبان الصراعات التي كانت تحدث فيها في هذه الفترة. نتيجة لبقاء من استوطنها من المهاجرين على علاقة وطيدة مع أصولهم في الريف.

ومن جهة أخرى، روعي في النسبة، ذكر اسم الوالد والجد، وذكر اللقب والمذهب الذي ينتمي إليه (حنفي — شافعي — حنبلي — مالكي ..) والنشأة (حليبي — حمصي — بغدادي — أضلي — سوسي .. الخ) والطريقة الصوفية التي يتبعها (نقشبندي — دسوقي — رفاعي ..) والحرفة التي يعمل بها. ودلينا على ذلك كتب التراجم وسجلات محاكم دمشق. وروعت الألقاب الاجتماعية والعسكرية والعلمية والإدارية والدينية، واستخدمت عبارات التفخيم لآبناء الهيئة الحاكمة والفئات الأرستقراطية والغنية، انسجماً مع النظام الإقطاعي الذي كان سائداً. فأضيف اسم (السيد) لسليل الأشراف أو (الشريفة) للمرأة التي تنحدر من نسل الأشراف، بالإضافة إلى كلمة (قادن) أو (خانم) بحسب وضعيتها الاجتماعية عازية أم متزوجة. واستخدمت كلمة (أفندي) كلقب تفخيم لأفراد الاسر الدينية، وموظفي الدولة أصحاب القلم. وذكرت الرتبة التي حصل عليها من الدولة (باشا،

(١) العبد، حسن آغا. المصدر السابق. ص ١٦٧، وص ١٦٨ وص ١٦٩.

(٢) كان حاكم المقاطعة يلقب بالشيخ أو المقدم. انظر: الصايغ، المقترَّب في حوادث الحضر والعرب. ص ٦٢ و

بيك، آغا، جوريجي، صوباشي) الخ... وورثت هذه الألقاب للابناء، وخطبوا بها، أما أفراد أهل الذمة من نصاري ويهود، فكان يعرف الفرد باسمه الشخصي وعندما يذكر اسم أبيه يقال (ولد فلان) ثم يذكر اسم أسرته، مضافاً إليها كلمة (الذمي النصرائي أو الذمي اليهودي).

أما الرقيق من (الممالك والعبيد والاماء والجواري) فكانوا يخاطبون بأسمائهم الشخصية، وإذا ذكروا في سجلات محاكم دمشق لسبب ما، فتذكر أسمائهم الشخصية ويكنون بأبناء (عبد الله) نظراً للجهل بأسماء آبائهم. ويضاف إلى ذلك أصل الرقيق وعرقه في بعض الأحيان (الأسود الكرجي.. الخ) وقد يكنى الرقيق باسم سادتهم، فيقال فلانة أمة فلان، أو فلانة أو مستولدة أو معتوقة فلان، أو فلانة أو فلان تابع فلان... وهكذا.

ولقد لعب الانتماء، إلى الأسرة الواحدة وحمل اسمها، دوراً في زيادة الروابط المعنوية والخلقية والروحية بين أفرادها، فتمسك هؤلاء الأفراد بتقاليد معينة، وكانوا حريصين على الحفاظ عليها. وكانت روابط الام والأب لها أهميتها. ولهذا أخذ بعين الاعتبار الزواج من أسر معينة، خاصة بالنسبة للأسر الأرستقراطية والغنية، في حين نرى أسراً نشأت في دمشق، دون أن يكون لها جذور في مجتمعها نتيجة لزواج الغرباء من بنات الغرباء أو من بنات دمشقيات. ومثال ذلك ما كان يحصل لجنود القباي قول في دمشق الذين تزوجوا منها وتحولوا إلى يرقية.

وكتعبير عن قوة البنية الأسرية وصلابتها ووحدتها، تركزت السلطة فيها بيد كبيرها. بالإضافة لأمرها الاقتصادية والاجتماعية والمنزلية. فالأب «الرئيس» هو الذي ينفق على الأسرة، خاصة وأن أولاده يعملون بأمرته في المتجر أو المحترف، ويقدمون ما يحصلون عليه من مال لأبيهم «الرئيس»، ويقوم هذا الرئيس بتنظيم الصرف والانفاق والادخار ومصرف الجيب للابناء والاحفاد. ويخصص شهرية للمتزوجين منهم... ولهذا كان محور جميع النشاطات الاجتماعية والاقتصادية للأسرة، وتمتع باحترامها، وكانت له هبة في نفوس أفرادها^(١).

وشاعت عادة تقبيل يده كل صباح، دلالة على ما يكتنه كل فرد من طاعة واحترام،

(١) ليلى، الصبغ. المرجع السابق. ص ١٤٤ وص ١٤٥. ثم: حطب، زهير. تطور بنى الأسرة العربية والجذور التاريخية والاجتماعية لقضاياها المعاصرة. ص ١٧٩.

وكان الأب يعاقب أبناءه الذين لا يرضى عن سلوكهم، لاعادتهم إلى جادة الصواب، بطرق مختلفة. وكانت أكبر نساء البيت (الجدة أو زوجة الجد)، لها سلطتها على نساء البيت جميعهن، وتقوم بتوزيع العمل عليهن، (كالطبخ والمسح والشطف والكنس والجلي والغسيل)، إلى غير ذلك من المهام المنزلية.

وكان التماسك الداخلي سمة أساسية للأسرة الواسعة في دمشق. وبرز تماسكها في رضى كل فرد منها بالقيام بما أوكل اليه من مهمات وأعمال، أو اندفاعه في سبيل بقية أفراد الأسرة، والأفراد يشعرون بأنهم ضروريون لحياة الأسرة التي ينتسبون اليها، في نظامها واستمرارها^(١).

وإذا مات الأب انتقلت السيطرة للابن الأكبر، وقد يبقى الاخوة على ما كانوا عليه، طالما أن الأم على قيد الحياة، ويعملون سوية، وتبقى أماكن شغلهم أو المشاغل أو الأرض مشاعاً بينهم، بحيث لا تباع ولا يدخل غريب اليها.

وكانت الاسر المركبة (الكبيرة) تقطن أحياناً في بيت واحد، أو عدة بيوت متجاورة. ويضم البيت الكبير الزوجات والابناء والاحفاد في الاسر الغنية بالإضافة إلى ذلك يضم الخدم من الارقاء والعبيد والجواري والاماء، وربما وكيل خرج يشرف على مصروف البيت وبعض الحوزيين والسياس^(٢).

وكانت الاسر تتزاور في المناسبات وغيرها. ففي الأعياد تزور الاسر كبيرها أولاً، ويعتبر ذلك من واجباتها، وتقوم نساء الأسرة بنفس المهمة فيزرن زوجة «عميد الأسرة» وتقدم الاسر التهناني بالافراح والتعازي بالاتراح، وتولى عناية خاصة للأسرة المنكوبة بفقد عزيز عليها^(٣).

أسر دمشق البارزة

وإذا ما حاولنا التعرف على أبرز أسر دمشق في هذه الفترة، لرأينا أنها من أصول

(١) حطب، زهير. المرجع السابق. ص ١٨٠.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/١٢٣٧ هـ. ص ١٧٤، حيث ورد ذلك في تركة أحد أشرف دمشق الأغنياء وهو السيد مصطفى الدقر الذي توفي سنة ١٢٣٨ هـ. ثم انظر: مذكرات فخري البارودي. ج ١، ص ١٣.

(٣) انظر: بكال، منير. رمضان وتقاليد دمشق. ص ٦٤ وض ٦٦.

مختلفة ، يعود بعضها إلى الفتح الاسلامي ، أو إلى فترة لاحقة ، وبعضها الآخر جاءها بعد الفتح العثماني ، وهذه الاسر من أصول عربية أو غير عربية ، كالفارسي أو التركي أو الهندي أو الكردي الخ ...

وكانت تلك الأسر مختلفة في مستواها المادي والاجتماعي ونفوذها السياسي ، وحتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر كانت تقسم إلى اسر دينية أو عسكرية أو شبه عسكرية أو مدنية . والدينية منها عرفَ ابناءها الحسيني بأنهم العلماء والاشراف . وكانت هذه الاسر تسيطر على المراكز الادارية الدينية المختلفة ، وعلى معظم الطرق الصوفية في دمشق . أما الاسر العسكرية فكانت تضم الأغوات والاعيان والزعماء من السباهية ، وكان منها أغوات متقاعدون أو أغوات في (أوجاقي القايقول واليرلية) ، أو أغوات في قوات المرتزقة .. والأسر المدنية تكونت ممن عمل في الزراعة والتجارة والحرف .

ولقد بدأت بعض المتغيرات تطرأ على تلك التركيبة الاجتماعية بدءاً من سنة ١٨٣١م / ١٢٤٦هـ بفعل ما طرأ على الساحة العثمانية من إصلاح وتأثير ما أدخله المصريون إلى دمشق على مختلف الأصعدة والمستويات الاجتماعية والاقتصادية والادارية والفكرية ، وبفعل الثورة الصناعية في أوروبا وتأثيرها على الدولة العثمانية بشكل عام .

فتغير حال رجال الدين والهيئة العسكرية وأهل الذمة والحرفيين والمزارعين وكان ذلك بداية مرحلة جديدة على الساحة الاجتماعية تميزت عن المرحلة السابقة . وشكلت إرهاصاً لمتغيرات واسعة النطاق ستظهر في الفترة اللاحقة .

واستطاعت بعض الاسر في دمشق أن تدرك طبيعة هذه المرحلة وما ستجره من تبدلات اجتماعية وسياسية واقتصادية ، فكيفت نفسها مع الواقع الجديد لتحافظ بذلك على مكانتها في سلم دمشق الاجتماعي ، في حين جهلت أسر أخرى هذه الحقيقة مما أدى إلى إزاحتها من مكانها لتحل محلها أسر أخرى .

ولقد حرصت الاسر الدمشقية على الحفاظ على ألقابها التفخيمية تمييزاً لنفسها عن الاسر الأخرى ، فكلمة (زاده) استخدمت إضافة إلى اسم الاسرة ، وكلمة (بك) إلى أبناء الباشوات والباكوات ، وكلمة (آغا) على أبنا الاغوات ، وكلمة (أفندي) على رجال الدين

وأبنائهم ، وكلمة السيد على الشريف ، وكلمة (الشريفة) أو قادين أو كلاتهما معا للشريفة العازية وكلمة (خاتم) للشريفة المتزوجة^(١) . واستاذ على المشرف على اقطاع ما ، والأوسطة للدلالة على رئيس حرفة ، والمعلم والحكيم والخواجه على بعض أهل الذمة البارزين في حرفة ما في الصيرفة وهكذا ، كما استخدمت تلك الالقاب في المستويات الدنيا .

ولقد استطاعت الاسر الدمشقية الدينية البارزة ، وعريقة الأصول التي تنحدر من آل البيت أو من صلب أحد الصحابة ، أن تحصر في أيديها ، معظم المناصب الدينية الهامة في دمشق (كالقضاء والافتاء ونقابة الاشراف وخطابة الجامع الأموي والتدريس فيه والنظر على أوقافه والتدريس في التكية السليمانية والسليمية والنظر على أوقافهما والنظر على أوقاف الحرمين الشريفين في دمشق ، ومشيخة الطرق الصوفية الهامة ، وغيرها من المناصب الدينية المختلفة ذات الشأن في دمشق . فلا غرابة إذا ما استطاعت هذه الاسر أن تشكل جانبا كبيرا من هيئة أهل العرض .

ودخلت هذه الاسر في علاقات متينة مع رجالات استانبول ، لضمان سيطرتها ونفوذها ، وجرت تلك المناصب الخلافات فيما بينها ، فكادت لبعضها البعض من أجل ذلك ، وقام بعض أفرادها باعتناق المذهب الحنفي بديلا عن مذهبهم الاصل طمعاً في المناصب الرفيعة التي خص بها الأحناف دون غيرهم . ونسوق مثالا على ذلك ما قام به بعض أفراد من آل حمزة في دمشق^(٢) ، وآل العجلاني وآل عابدين الذين كانوا شافعيين وآل السمرى الذي كانوا حنابلة فتحنفوا^(٣) جميعاً .

-
- (١) انظر : فاتر ، شيري . المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . ج ١ ، ص ١٠٦ وص ١٠٧ .
(٢) كان من آل حمزة (حمزة بن حمزة الحسيني نقيباً للأشراف في دمشق سنة ١٢١٧ هـ . ثم اسماعيل بن حمزة الذي ولي أمانة الفتوى ومات سنة ١٢٢٢ هـ . ثم حسين بن حمزة الحسيني الذي ساد أهل زمانه ، وتولى نظارة الجامع الأموي ومات سنة ١٢٠٣ هـ . ثم نسيب بن حمزة الحسيني نقيب السادة الأشراف الذي توفي سنة ١٢٠١ هـ . ثم درويش بن حمزة الذي تولى نقابة الأشراف (١٢٠٠ - ١٢٤٩ هـ) ، ثم عبد القادر بن حمزة بن درويش الذي ولي أمانة الفتوى . ثم محمد بن نسيب بن حمزة أحد أعلام دمشق) . انظر : مردم بك ، خليل . أعيان القرن الثالث عشر في التفكير والسياسة والاجتماع . ص ٢١ وص ٢٢ وص ٢٥ وص ٢٦ وص ٢٧ . الطبعة الأولى ١٩٧١ م ثم الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .
(٣) انظر : خوري ، فيليب . المرجع السابق - ج ١ ، ص ٤٤٣ . ثم مردم بك . المرجع السابق . ص ٣٤ وص ٣٦ وص ٣٧ ثم : العبد . تاريخه ، ص ٣٥ .

ومن جهة ثانية أحصى بعض المؤرخين ست عشرة أسرة دينية بارزة في دمشق هي : أسرة الحمزة التي استلم أفرادها نقابة الاشراف ووكالتها لفترة طويلة ولمرات عديدة ، وأسرة عجلان أو العجلاني ، التي تنحدر من الفاطميين وجاءوا إلى دمشق في القرن الخامس عشر ، فنازعوا آل حمزة على منصب الاشراف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وحصلوا على مالكانات في غوطة دمشق ودوما . وسكنوا في حي العمارة الذي كان سكناً للعديد من الاسر الدينية آنئذ^(١) . وتسلم (فرع منجك) من هذه الأسرة منصب شيخ مشايخ الطرق الصوفية والحرف^(٢) . ومن الاسر الدينية البارزة أيضاً ، أسرة (آل تغلب) أو التغلبي وآل سعد الدين وآل الميني وآل العمري الذين ينتسبون إلى الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب (ض) ، وآل البكري أو الصديقي الذين ينتسبون إلى الخليفة الأول الراشدي أبي بكر الصديق (ض) .

وكان من هذه الأسرة نقباء أشراف ومفتون . ثم آل السرميني والمنير الذين شغلوا عدة مرات منصب الافتاء أو نيابة الافتاء . في حين نرى أفراداً من أسرة الكيلاني والعمادي وسعد الدين والتغلي واليافي والسفرجلاني والعيطة والدسوقي قد استلموا شيوخاً للطرق الصوفية في دمشق^(٣) . أما آل الميني فكان منهم خطباء في الجامع الأموي ، وشاركوا آل الحصني في إفتاء الاحناف في دمشق^(٤) .

ثم آل المحاسني الذين شغلوا منصب خطيب الجامع الأموي . وكان لهذا المنصب أهميته البالغة ، نظراً لأن الخطيب كان يمثل صلة الوصل بين الحكومة الامبراطورية والزعامة المحلية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وبقي هذا المنصب في يدهم إلى سنة ١٨٦٠ م^(٥) . ونافسهم آل الخطيب على ذلك . واستلم آل المحاسني بعض المناصب الدينية

(١) انظر : خوري ، فيليب . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٤٥٨ و ص ٤٥٩ .

(٢) انظر : ابن بدران ، عبد القادر . مناداة الاطلال . ص ٣٠٥ ثم خوري . المرجع السابق ج ١ ، ص ٣٢٩ .

(٣) انظر : خوري ، فيليب . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٣٢٩ .

(٤) انظر : شليشر ، ليندا . المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . ج ١ ص ٣٣٢ و ص ٣٣٣ و ص ٣٣٥ و ص ٣٣٦ .

(٥) انظر : خوري ، فيليب . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٤٤٢ .

الأخرى، كمنصب الافتاء ونيابة القضاء في محاكم دمشق وكتّاباً فيها^(١). ثم آل الغزي وهي عائلة دينية قديمة في دمشق، جاءت في القرن الخامس عشر، وشغل أبنائها منصب مفتي الشافعية، واحتكروا هذا المنصب حتى القرن العشرين^(٢). وكان لعديد منهم مالكانات في منطقة دوما وغيرها.

ثم أسرة الجيلاني التي تدعي نسبها إلى عبد القادر الجيلاني (١٠٧٨-١١٦٦ هـ / ١٦٦٨-١٧٠٥ م) استقر أحد فروعها في حماه، وحصلوا هناك على مالكانات من الدولة الدولة العثمانية في القرن السابع عشر، وجاء بعضهم إلى دمشق في القرن الثامن عشر، وشغلوا فيها منصب نقيب الأشراف، وبعض المناصب الدينية، ومشيخة الطريقة الصوفية الجيلانية^(٣).

ثم آل العطار أو الحسيبي فيما بعد، وأصل هذه الأسرة من حمص، استقرت في دمشق في أواخر القرن السابع عشر، وبعد ثلاثة أجيال كان أفرادها قد دخلوا المهن التعليمية، وفي الجيل الرابع شرع علي العطار (١٧٤٢-١٨٢٧ م / ١١٣٦-١٢٤٤) ، الذي اشتهر كرجل علم وقضاء، في اثبات انحدر أسرته من سلالة الرسول، وقام بتغيير اسمه إلى (الحسيب) ثم قام ابنه (١٧٩٢-١٨٧٦ م / ١٢٠٦-١٢٩٠ هـ) بمتابعة طموح والده بالحصول على أراضي قرب دمشق على شكل منح من الدولة العثمانية، ثم أصبح عضواً في المجلس، مما جعله يفكر بضرورة نقل منزله من حي العقبية الشعبي إلى حي

(١) عين أسعد أفندي المحاسني مفتياً في دمشق سنة ١٢١٣ هـ انظر: العبد، حسن آغا، تاريخه، ص ٣٥ و ص ٧٥. ثم انظر: المحاسني، سليمان. حلول التعب والالام بوصول أبي الذهب إلى دمشق الشام. ص ١٠ و ص ١١. تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٢ م.

(٢) كان منهم: أحمد بن عبد الكريم من ١٦٩٧-١٦٩٨ م وحتى وفاته ١٧٣٠/١٧٣١ م.

ثم: مصطفى بن أحمد من ١٧٣٠-١٧٣١ م وحتى وفاته ١٧٤٢/١٧٤٢ م.

ثم: محمد بن عبد الرحمن من ١٧٤٢-١٧٤٣ م وحتى وفاته ١٧٥٣/١٧٥٤ م

ثم: محمد شريف بن محمد من ١٧٥٤ وحتى وفاته ١٧٨٨-١٧٨٩ م.

ثم: كمال الدين بن محمد شريف ١٧٨٨-١٧٨٩ م وحتى وفاته ١٧٩٩/١٨٠٠ م

ثم: عمر بن عبد الغني (١٨٠١-١٨٠٢ م وحتى وفاته).

- ذكرت ذلك ليندا شليس في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، المنعقد في دمشق ١٩٧٨. ج ١، ص ٣٣٤.

(٣) انظر: بخوري، فيليب. المرجع السابق. ج ١، ص ٤٥٩ و ص ٤٦٠.

القنوات الأرستقراطية . وأصبح من آل العطار أئمة للجامع الأموي وتولوا تدريس السليمانية في دمشق^(١) . وآل المرادي الذين يعودون في أصولهم إلى سمرقند ، جاء جدهم إلى دمشق في حدود ١٦٨٥ م / ١٠٩٦ هـ . وقد أقام في القسطنطينية عدة سنوات قبل ذلك ، وأنشأ في العاصمة علاقات جيدة مع السلطان والوزراء . وتمكنت هذه الأسرة في القرن الثامن عشر ، بفعل هذه الصلات ، ولزعامتها للطريقة النقشبندية ، من الحصول على إفتاء الاحناف في دمشق . ودخلت في صراع مع آل العمادي وآل الحمزة على هذا المنصب . واستلم آل المرادي بالإضافة إلى ذلك مناصب دينية هامة ، كנקابة الأشراف ، وزعامة الطريقة النقشبندية ، وبعض المناصب القضائية ، وتمكن أحد أفرادها وهو محمد خليل المرادي ، الذي كان مفتياً للاحناف في دمشق ، من عزل والي دمشق أحمد باشا الجزار في سنة ١١٩٩ هـ / ١٧٨٥^(٢) . ومن أسر دمشق الدينية آل الكزبري ، الذين كان منهم مدرسون في الجامع الأموي تحت قبة النسر^(٣) ، وآل البيطار الذين استقروا في الميدان وخرج منهم جماعة من أجلة العلماء والشعراء ، واستلم الشيخ محمد بن حسن بن ابراهيم أميناً للفتوى ، وكان الشيخ عبد الرزاق خطيباً لجامع في حي الميدان ، وكان له نفوذه السياسي في دمشق^(٤) . وآل العمادي أسرة قديمة برزت في دمشق في القرن الثامن عشر ، من خلال تسلمها مناصب عديدة ، كمنصب الافتاء ، ودخلت في صراع من أجل هذا المنصب مع آل المرادي خلال القرن الثامن عشر^(٥) .

ولقد استطاعت تلك الاسر أن تكون لنفسها نفوذاً سياسياً في دمشق ، اعتماداً على مناصبها المختلفة ، وعلى زعامتها للطرق الصوفية ، وعلى الإقطاعات الواسعة التي حصلت عليها من الدولة ، فشكل ذلك سنداً لها في صراعاتها فيما بينها ، وساعدها على شراء النصير والسند في استانبول^(٦) . وحفاظاً من هذه الاسر على مصالحها في دمشق ، لم تحدد موقفاً واضحاً مما

(١) انظر : خوري فيليب . المرجع السابق . ج ١ . ص ٤٤٢ . ثم مردم بك ، خليل . المرجع السابق . ص ٣٠ .

(٢) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخه . ص ٩ . ثم البيطار ، عبد الرزاق . حلية البشر ج ٣ ، ص ١٣٩٣

وص ١٤٠٥ . ثم خوري ، فيليب . المرجع السابق ج ١ ، ص ٤٤٢ .

(٣) انظر : مردم بك ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٤) البيطار ، عبد الرزاق . حلية البشر . ج ٣ ، ص ١٤٢١ الحاشية .

(٥) خوري ، فيليب . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٤٤٢ . ثم البديري الحلاق ، المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(٦) خوري ، فيليب . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٤٤٦ .

كان يقع فيها من الصراعات ، بين القوى السياسية والعسكرية المختلفة أو بين المحلية والغريبة ، بل كانت تترىث إلى انجلاء الموقف ، فتحدد موقفها على ضوء مصالحها الشخصية .

ونسوق مثالا على ذلك ما حصل عشية وصول ابراهيم باشا المصري إلى بلاد الشام ، وطلبه من رؤساء تلك الأسر تحديد موقفهم فأجابوه بأنهم يكتنون الاحترام الزائد لمحمد علي والي مصر ، الا أنهم عليهم احترام الوالي العثماني ، الذي يمثل السلطان ، فأظهروا بذلك نوعا من الحكمة ، إلى أن يتكشف الموقف عن المنتصر في الصراع ^(١) وهو موقف انتهازي صرف كما سنرى .

أما الاسر المدنية في دمشق ، فكانت من أصول عربية أو غير عربية ، وأبرزها على الاطلاق ، أسرة العظم التي توزعت سلطتها ما بين حماه ودمشق ، والمرجح أن هذه الأسرة تنحدر من أصول تركية ، وتنسب إلى جدها ابراهيم العظم ، الذي عاش في معرة النعمان في القرن السابع عشر ، وكانت معرة النعمان آنذا مركزاً تجارياً هاماً للبدو ما بين حماه وحلب . قتل ابراهيم العظم في إحدى الصدامات دفاعا عن مصالح الدولة العثمانية فكافأت ولديه (اسماعيل وسليمان) بمالكانات في حمص وحماه والمعرة . واستغل الولدان منصبهما وثروتهما في الحصول على منصب أرفع كولاية دمشق ، وقامت الاسرة بشراء الاملاك الواسعة بالاضافة إلى ما لكاناتها ، فخلق ذلك لها بحبوخة من المال والجاه لعدة أجيال ^(٢) .

وبقي نجم الأسرة متألقاً حتى الجيل الثالث منها ، والمتمثل بمحمد باشا العظم والي دمشق ، المتوفى فيها سنة ١٧٨٣ م / ١١٩٧ هـ ، ورغم حصول بعض أبنائها على منصب الولاية في أكثر من مكان من الدولة العثمانية (كعبد الله باشا ودرويش باشا ويوسف باشا) ، إلا أن نجم هذه الاسرة أفل بوفاة محمد باشا العظم . والملاحظ أن هذه الاسرة لم يبرز أحد منها بالعلم رغم ما أنشأته من المدارس العديدة وغيرها من الأوابد في دمشق .

ويورد محمد أديب آل تقي الدين الحصني في كتابه ، أسماء عدد من الاسر الدمشقية (عربية وغير عربية) ، برزت في هذه الفترة في أحياء مختلفة من دمشق وأرياضها ، ومن هذه

1 - See: Koury .G. op.cit.P.195.

(٢) انظر : خوري ، فيليب . المرجع السابق ج ١ ، ص ٤٤٦ .

الأسر، أسرة التكريتي من أعيان الصالحية وانتهت اليهم رئاستها^(١)، وآل العظمة التي كانت أسرة كبيرة.

اشتغل معظم أبنائها بالزراعة والتجارة، واستلم بعضهم مناصب في الإدارة العثمانية^(٢)، وآل صلح بك الذين ينتمون لجدهم الكنج يوسف باشا، الذي كان واليا على دمشق سنة ١٢٢٢ هـ. وكانت له دار كبيرة تقابل دار أسعد باشا العظم. وآل الركابي الذين ينحدرون من عشيرة بني ركاب القاطنة في جهة الكويت، وكانوا على قرابة بالنعم والطحان والجمالان، وعملوا بالزراعة والتجارة^(٣)، ثم أسرة آل يوسف وجدهم محمد بك ابن يوسف من قبيلة الزركلية من أعيان الاكراد في ديار بكر، أحب تجارة الأغنام واختار موضع تجارته دمشق، فاتسعت ثروته وجعل منزله منهلا للقاصد والوارد، مات سنة ١٢٥٠ هـ، وورثه ابنه في تلك التجارة، اتصل ببشير الشهابي الثاني فمنحه قسما من قرية مجدل عنجر، ثم تقلد بعد ذلك وظيفة الكلار ومحافظ الركب الشامي^(٤). ثم أسرة الحكيم اسفة في الميدان بعد مجيئها من طرابلس الشام وذكر المرادي: أن جدهم يوسف بن محمد كان من الأعيان دمشق ومات سنة ١١٠٥ هـ / ١٧٩٤ م. ومن تجار الحبوب في الميدان آنذاك آل احتاجت وآل الموصلي^(٥)، ثم آل الدالاتي، هاجر جدهم إلى دمشق من الغرب واشتهروا بتجارة الطحين، وبرز أناس منهم في الثروة والوجاهة^(٦). ثم بنو الحباب الذين اشتهروا بتجارة الحبوب واستقروا في الميدان، وآل الموره لي الذين ينتسبون إلى جدهم اسماعيل باشا الأرناؤوطي الأصل، الذي وفد إلى دمشق في القرن السادس عشر، وترك لهم أوقافاً كثيرة، مكنتهم مواردها من الوجاهة^(٧)، ثم آل الصوان والبقاقيبي والشحادة والقباني والنشواتي وعطارين الذين

(١) منتجات التواريخ لدمشق، ص ٦٩٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٤٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٥٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٥١. ويدعي بن بدران أن أسرة آل اليوسف تنحدر من أصول شريفة من قبيلة الأزرقة التي تنتسب إلى جعفر الصادق بن علي زين العابدين بن الحسين. انظر حول ذلك: الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن اليوسف صدر سورية. ص ٦ وص ٧ وص ٨ وص ٩. دمشق ١٩٣٩ م.

(٥) الحصني: المصدر السابق، ص ٨٥٣ وص ٨٥٩ وص ٨٦١.

(٦) منتخبات التواريخ لدمشق، ص ٨٦٣. ثم العبد، حسن آغا. تاريخه ص ٩٠.

(٧) الحصني. ص ٨٦٤.

كان منهم التجار الذين اشتهروا بغرائهم في عهد والي دمشق أحمد باشا الجزار^(١) ثم آل مردم بك الذين يعودون في أصولهم إلى جدهم والي دمشق لالا مصطفى باشا، في القرن التاسع عشر استطاع الاخوان علي (١٨١٣ - ١٨٨٧ م / ١٢٢٨ - ١٣٠٢ هـ) وعثمان (١٨١٩ - ١٨٩٦ م / ١٢٣٤ - ١٣١١ هـ) من الذهاب إلى القسطنطينية واستطاعا اثبات نسبهما للوالي المذكور، فحصلوا من الدولة العثمانية على الموافقة بالاشراف على وقف جدهما. وهكذا بدأ نجم هذه الاسرة بالتألق. وآل نصري الذين عملوا في تجارة الحبوب وكان منهم شيخ طحانة في سنة ١٢١٠ هـ / ١٧٩٦ م، وهو محمد بن نصري، الذي استطاع جمع ثروات كبيرة من خلال احتكاره للطحين^(٢).

وبرزت بعض الاسر الذمية في مجال الثروة والمال والصيرفة والتزام الجمارك. ومن هذه الاسر، اسرة آل فارحي اليهودية التي عملت في مجال الصيرفة والدفتردارية في ولايتي صيدا ودمشق. أما الاسر النصرانية فبرز منها أسرة عنحوري والشلهوب والشامية والصباغ والعدرا والمشاقة والمخلع. واعتمدت هذه الاسر في بروزها على ثرواتها التي جمعتها من التجارة وإدارة الحرف المختلفة، واستلام بعض المناصب المالية لدى الولاة. وعمل بعض النصاري كترجمة لدى القناصل فيما بعد، بعد أن فتحت دمشق على الغرب بدخول ابراهيم باشا المصري اليها، وحصل هؤلاء على براءات سلطانية لتأمين الحماية لانفسهم، وجنوا ثروات كبيرة بعد مساواتهم بالمسلمين، وقيامهم بدور الوسيط التجاري للغرب في دمشق وغيرها.

وحاولت بعض الاسر المدنية أن تبني لنفسها جيوباً سلطوية محلية في دمشق. على عكس الاسر الدينية التي سعت لتمتين أواصرها باستانبول، رغم ضعف السلطة المركزية، وذلك للحفاظ على مصالحها الشخصية.

وبقي حال الاسر المدنية هكذا إلى دخول القوات المصرية إلى دمشق في سنة ١٨٣١ م / ١٢٤٦ هـ، فسعت لدى هذه السلطات لحماية مكتسباتها المادية وامتيازاتها الاجتماعية، بأن دخلت ضمن التنظيم الاداري المصري لمدينة دمشق، وأصبحت تشكل جانباً من «أهل العرض» في دمشق^(٣). وعملت «وسيطاً» بين الدولة ومجتمع دمشق. ولا

(١) العبد، حسن آغا. تاريخه، ص ٢٥ وص ٩٩ وص ١٠٢ وص ١٠٣. ثم الحصني، ص ٨٧٠.

(٢) العبد، حسن آغا. تاريخه، ص ٢٧.

(٣) انظر: خوري، فيليب، المرجع السابق، ص ٤٤٩.

يسمع الوسيط الناجح إلا أن يظهر بمظهر المنسجم مع السلطة، ولو فعل غير ذلك لما استطاع الوصول إليها، فيعرض مصالح من يمثلهم في مجتمع دمشق للخطر، وبالتالي يفقد ثقتهم ويظهر كأنه أداة بيد السلطة.

أما الأسر العسكرية وشبه العسكرية في دمشق فقد سكنت غالباً خارج أسوارها وتوزعت على أحياء رئيسة كالميدان والعمارة وسوق صاروجة وبدرجة أقل في حي البحصنة والقنوات والشاغور والصالحية. وأبرز هذه الأسر كانت تنحدر من أصول تركانية سواء من (الاناضول أو الروملي، أو من أصل كردي. وكان بعضها ينحدر من أصول بدوية أو من بعض مدن الاقطار العربية كالموصل وبغداد وديار بكر. والمغرب بأقطاره الثلاثة أو صعيد مصر. ويمكن تسقط أخبارهم في كتب اليوميات والتراجم. ولقد شكل هؤلاء عنصر اضطراب في مجتمع دمشق، فلم تقو بسهولة على استيعابهم للوهن الاقتصادي العام الذي أصابها، خاصة في النصف الأول من القرن التاسع عشر وسعى هؤلاء للانضواء تحت زعامات مختلفة لحماية أنفسهم في وقت ازداد الصراع بين هذه القوى على مصادر الرزق التي شحت في دمشق وغابت عنها هيمنة الولاة الأقوياء إلا ما ندر.

ولقلة معلوماتنا عن قدرات الأغوات على التحريك السياسي في أحياء سكن هذه القوى، فقد تسربت إلى الطرق الصوفية ونقابات التجار والحرفيين لتوفير الرزق وحماية أنفسهم عند الحاجة. ولدينا بعض المعلومات على أن بعض أغواتها أصبحوا حماة لنقابات التجار في الميدان خاصة لنقابة تجار الحبوب. وبرز منهم في ذلك الحي عبد الله آغا سكر الذي أصبح في النهاية أكبر تجار القمح في الحي المذكور^(١).

ولقد عبر كتاب التراجم والسير والإخباريون في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في كثير من الأحيان، عن احتقارهم لمثل هذه الأسر ولاغواتهم، لأنهم خلقوا حالة من عدم الاستقرار في دمشق، وروعوها مرات عديدة. كما أسهمت هجرتهم في اكتظاظ المدينة، من جراء سيولهم المتدفقة إليها، سواء من البدو أو الفلاحين القادمين من حوران بفعل ضغط البدو على قراهم، أو بعض القبائل الكردية القادمة من شرقي الأناضول، أو المغاربة الذين جاؤوا طلباً للرزق والمجاورة.

(١) انظر: خوري، فيليب. المرجع السابق. ج ١ ص ٤٤٩.

وكان حي الميدان أكثر الأحياء استقبالا لسيل المهاجرين . وانخرط بعضهم في الأعمال الزراعية ، وتلقفت الأسر العسكرية المحلية بعضهم الآخر فضمتهم إلى صفوفها . وقام بعض الولاة بضم البعض الآخر إلى صفوف قواته الخاصة ، وجرت في الصالحية عملية مماثلة للاكراد المهاجرين ، حيث برز في صفوفهم زعماء خاصون لقبوا أنفسهم بالاغوات ، وشكلوا قوات شبه عسكرية ، قوامها رجال قبائلهم ومن هنا يمكن فهم الخوف الذي تولد لدى زعماء الأسر التقليدية في دمشق الذين جوبهوا بهذه القوى الوافدة مجددا .

... ومن خلال سلسلة من العوامل استطاعت زعامات هذه الأسر ، أن تسيطر على بعض مرافق الحياة الاقتصادية في دمشق ، كتجارة الحبوب والمواشي في الميدان وغيره من الأحياء . وسعى بعضهم للحصول على الالتزام والمالكانات في حوران وغيرها . وحصل أغواتهم على نفوذ قوي ، ودخلوا في علاقات متينة بتزواجهم من بنات الوجهاء المحليين .

وما بين عامي ١٨٠٠ — ١٨٦٠ م / ١٢١٥ — ١٢٧٦ هـ . استغل أبناء هذه الأسر تطوّر اقتصاديين ليصبحوا جزءا من فئة الوجهاء المدنيين . وتم ذلك من خلال استغلالهم للأراضي الواسعة في حوران ، وسيطرتهم على الفلاحين فيها ، مما وفر لهم سلاحا قويا في سيطرتهم على تموين دمشق بالقمح وتحديد أسعاره . وفي هذه الفترة كانت الصناعات التقليدية القديمة تتعرض لبعض الضربات من جراء تدفق بعض المصنوعات الأوربية إلى دمشق ، وأدى ذلك إلى إضعاف بعض الأسر المدنية ، التي كانت تعتمد في رزقها على تلك الصناعات ، وعوضت عن ذلك بمحصولها على المالكانات ، ثم أخذت تقدم الأموال بالفائدة مسبقا للمزارعين إلى حين جني المحاصيل ، وبأسعار زهيدة ، مما جعل هؤلاء يجنون المرباح الكبيرة على حساب الفلاحين ، وقامت بتقليد هذه الأسر ، الأسر شبه العسكرية فجنت المرباح مثلها ، وحققت لنفسها نفوذا سياسيا واجتماعيا .

وأبرز الأسر العسكرية في هذه الفترة ، عائلة التركاني التي شكلت ربع أوجاق الانكشارية البرلية ، واستقرت في الميدان ، ودخلت في صدامات دموية مع قوات الولاة العثمانيين ، كأُسعد باشا العظم وعبد الله باشا الجته جي وغيرهما . ثم أسرة الشوملي^(١) ، والبارودي التي خلف لها جدها حسن آغا كتحدا ثروة طائلة . جاء من مصر وعمل لدى

(١) انظر : نخوري ، فيليب . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٣٥٠ .

عبد الله باشا العظم ، وأصبح ولده محمد بك يقرض الناس النقد ، وقام ببناء دار كبيرة له في حي القنوات ، جاءت روضة للناظرين وقام بشراء مزارع وقرى ، وقام محمد بك بمصاهرة آل البكري^(١) . ثم أسرة المهائني وهي أسرة كبيرة تعود في أصولها إلى قرية مهين التابعة لقضاء النبك في وقتنا الحاضر . ومن مشاهيرهم صالح آغا ، وكان مثال الزعامة والوجاهة والشهامة العربية ، وكان منهم أغوات وجوريجية في أوائل القرن التاسع عشر وكانوا ناقدى الكلمة لدى الحكام والأمراء^(٢) . ثم آل شمدين الذين كان جدهم ذا ثروة عظيمة وسدة كبيرة عند عشيرته وقومه ، له مواقف عظيمة بالمدافعة عن دمشق أيام ابراهيم المصري ، وقد شكره على ذلك السلطان عبد المجيد^(٣) .

هذا ناهيك عن عديد من الأسر التي برزت في أوجاق القايي قول واليرلية وقوات المرتزقة كالبغدادى والهوارى والموصلى والمغربى . ثم الزعفرنجى والسمان ومورلى . وأرفا أمينى والمادان وسوقية وطالو والأزمري وعقيل وسبح وقباني والعبد والكردى وأغربوظ والشماع وغيرهم^(٤) . وتوزعت هذه الأسر على أحياء المدينة ، واستطاعت أن توطد أقدامها في مجتمعها ، وحافظت غالباً على أسمائها إلى وقتنا الحاضر .

الأسرة الفلاحية

بعد أن لمحنا ، فيما سبق ، وضع الأسرة الدمشقية بشكل عام ، ثم نشأتها وتفرعاتها ، كان علينا أن نرصد وضع الأسرة الفلاحية وبنيتها ، على ضوء تأثير الظروف المختلفة التي أحاطت ببريف دمشق في هذه الفترة . فقد كان الفلاح يتطلع للعمل الزراعي والانتاجي بشكل جماعي ، وكان عليه في نفس الوقت ، تأدية الضرائب للدولة والاتاوات لرجالها وللبدو

(١) انظر: الحصني . منتخبات التواريخ ، ص ٨٦٣ . ثم الشطبي ، محمد جميل . أعيان دمشق ، ص ٤٠ . ثم العبد ، حسن آغا تاريخه ، ص ٨٠ و ص ٨١ .

(٢) انظر: الحصني منتخبات التواريخ ، ص ٨٦٣ و ص ٨٦٤ . ثم العبد ، حسن آغا تاريخه ، ص ١٠٥ و ص ١٠٦ .

(٣) انظر: الحصني منتخبات التواريخ . ص ٨٩٩ .

(٤) انظر العبد ، حسن آغا . تاريخه ص ١١ و ص ١٥ و ص ١٢ و ص ١٦ و ص ١٨ و ص ١٩ و ص ٢٢ و ص ٢٥ و ص ٢٧ و ص ٣٥ و ص ٣٧ و ص ٤١ و ص ٤٣ و ص ٤٤ و ص ٤٨ و ص ٦٠ و ص ٧١ و ص ٧٢ و ص ٨٠ و ص ٨٨ و ص ٨٩ و ص ٩٣ و ص ٩٦ و ص ١٠٩ و ص ١٥٦ و ص ١٦١ .

في بعض الأحيان ، وأن يسد حاجاته الحياتية . وكان الانتاج شأناً أسرياً يعمل له أعضاء الأسرة كبيرهم وصغيرهم ، والذكر . وأنيط بكل فرد منهم عمل يتناسب وإمكاناته . ومن هذا المنظور أصبحت الأسرة وحدة عمل وانتاج ريفي .

يضاف إلى ما تقدم تأثره بالظروف الأمنية والخصومات العائلية على مستوى القرية والعشيرة ، التي شملت بتوضعها السكاني قرى عديدة . إذ كثيراً ما جرت الأسر إلى صدامات دموية ، لم تكن السلطات العثمانية بعيدة عن تحريكها وتغذيتها . لهذا سعت بعض الأسر لاكتثار نسلها ، فلجأت إلى استيلاء الزوجات بشكل مبكر ، ومجدت الخصوبة لديهن ، وزوجت أفراد الأسرة في سن مبكر وطلقت العاقرات^(١) من الزوجات أو أهملتهن ، ومجدت الذكورة لأن الذكر عامل ومقاتل . وحافظ للنسل ، ولا يحتمل جلبه للعار كالانثى ولا يحتاج للحماية مثلها .

وفي مجال ملكية الأرض والعمل عليها ، قامت الدولة العثمانية بسن القوانين لتنظيم انتقال حق التصرف بالأرض وحصره ضمن نطاق الأسرة الواحدة ، لتضمن بذلك دفع ما ترتب عليها من الأموال والضرائب . فبقيت الأرض مشاعة في الأسرة وانتقل حق التصرف بها للأولاد والأحفاد والاسباط . وسعت الدولة لتقليص التأثيرات السلبية على الزراعة ، الناتجة عن هجر الفلاحين للأرض والقرية ، فوقفت في وجه هجرتهم وأعطت حق التصرف في الأرض الواسعة لأهل القرية ، وكان عليهم دفع الضريبة عنها مهما تناقص عددهم . وأدت هذه السياسة إلى ترسيخ الأسرة الفلاحية الواسعة .

ومن جهة أخرى حمت الروابط العائلية والعشائرية التي تربط أفراد الأسرة الفلاحية من تأثير قوة القهر والمظالم التي فرضت على الفلاحين من أصحاب الأرض ورجال السلطة . فعاش الفرد ضمن مجتمع يقنعه بأن النظام السائد هو أفضل النظم رغم القيود التي كانت تغله^(٢) .

وعرفت الأسرة الفلاحية تماسكاً صلباً في داخلها مكنها من الصمود لاقسى الظروف التي تعرضت لها نتيجة لتكاتف أفرادها ، وتوزيعها لقوة الضغط ، مما ساعدها على الاستمرار

(١) الصباغ ، ليلي . المجتمع العربي السوري ، ص ٥١ .

2 - See: Cibb & Bowen .op.cit. VOL.1.PP.212-246.

والامتداد والتفرع فشد أفرادها من أزر بعضهم البعض في السراء والضراء، وزاد في تماسكها توجه أفرادها في زواجهم إلى داخلها^(١)، فكلما بردت حرارة القرى بعث فيها زواج جديد دفئاً جديداً.

وعلى مستوى تموين الأسرة، فقد اكتفت ذاتياً، وأمنت لنفسها معظم احتياجاتها، نظراً لكثرة عدد أفرادها، فزودت نفسها باللحم والبيض والألبان ومشتقاته، بتربيتها للمواشي والطيور الداجنة. ويذكر فتح الله بن أنطون الصايغ، أن الفلاحين كانوا يؤمنون لأنفسهم « جميع الفحم والخطب والجاج والبيض والزبدة واللبن والحليب والعنب والتين وأكثر الفواكي من عندهم كذلك جميع الذي يفيض من حبوب بعد موته يبيعه إلى أهل البلد والمدينة، من كامل أجناس الحبوب حتى البصل والتوم وجميع المأكولات والعسل والشمع وكثير أشياء^(٢) ».

وقامت المرأة بدور رئيس في هذا المجال، فهي التي كانت تشرف على تربية الدواجن، وجمع بيضها وحلب المواشي، وترويب الحليب وتستخرج السمن والقريشة، وتصنع الكشك وتنسج الصوف والقطن، وتدبغ الجلود في بعض الأحيان، تنسج البسط والخيام. واستخدمت المقايضة بمنتجاتها في شراء ما تحتاجه الأسرة من البائعين، وفي الأسواق الأسبوعية التي كانت تعقد في القرية أو الخانات القريبة والبازارات. ودفعت الأسرة ما ترتب عليها من الضرائب في بعض الأحيان عينا من منتجاتها^(٣).

ولقد قسمت قرى الفلاحين إلى حارات، سميت الواحدة منها باسم إحدى الجهات الأربعة، أو إحدى الأشجار المعمرة، أو أحد الينابيع أو المزارات، أو إحدى الأسر. ووجد في القرية أحياناً نجار وحداد وصانع فخار وبيطار وبناء ومجبر وكحال وأحياناً داية، وكل هؤلاء يقدمون خدماتهم لأسر القرية، وكان في القرية بائعون وحراس ومسجد أو كنيسة أو كلاهما معاً.

ورغم سعي السلطات المصرية لتعمير القرى وإعادة الفلاحين إلى المهجور منها، وتشجيعهم على الاستقرار فيها، وتوطين البدو، إلا أن الأسر الفلاحية المسلمة، قد تعرضت

(١) انظر: حطب، زهير. المجتمع العربي السوري، ص ١٥٩.

(٢) انظر: المقرب في حوادث الحضرة والعرب. ص ٤٥ ب و ص ١٤٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٤.

لهزات كبيرة، فاقت معظم الهزات التي تعرضت لها في الفترة السابقة. وبرز ذلك في فرض المصريين لنظام التجنيد الاجباري مما ترتب عليه سحب الشباب من قراهم إلى مصر لاعدادهم وتدريبهم على فنون القتال. ولم يكن الفلاحون وأبناء بلاد الشام بشكل عام، قد اعتادوا على ذلك من قبل. وشعرت الأسر بأن التجنيد سيفقدها أبناءها، وللتخلص من ذلك لجأت إلى تشويه أعضاء أبنائها لتخليصهم من السوق إلى الجندية، ففقت إحدى إحدى عيني الشاب، أو قطعت إحدى أصابعه، أو كسرت رجله «لأجل يجعلهم سقطات غير نافعين للعسكرية وأكثرهم يهربوا يتخبوا بالحروش ودغلات الأشجار». وإذا ما القي القبض على الفارين، يربطون مع بعضهم البعض، ويرسلون إلى المدينة «مقيدين بالجنائزير إلى حين إرسالهم إلى مصر». فمات الكثيرون من الشباب وفر الأباء «حتى لا يقرأوا على أبنائهم»، أما في المدن فكانت الأسر «تخبيء أبنائها تحت الأرض سنين طويلة، من غير اظهارهم على وجه الأرض، وصار الكبار تخبيء أولادها في بيوت القناصل، ومنهم من يستفر أولاده على خارج اباله الحكم المصري، مثل قبرص وكريد وأضاليا وبر الترك واسلامبول وأزمير وغيرها، ولا سيما عند العرب للعجول... واستمر ذلك زمان طويل حيث ما هو مرة واحدة بل خمس مرات حتى عريت البلاد من الشباب، فكلما صار عنده مبلغ من الشباب المملوكين يرسلهم إلى مصر، ويجب عسكر مصري بدلم إلى سورية»^(١).

ومن جهة أخرى، لم تقو الأسر الريفية على إعفاء أبنائها من التجنيد الاجباري، كما فعلت بعض الأسر الغنية مستخدمة الرشوة لتحقيق ذلك، وانعكس هذا الوضع بشكل سلبي على الأسرة الريفية وانتاجها.

غذاء الأسرة الريفية

سعت معظم الأسر للاكتفاء الذاتي في مجال تأمين غذائها. فزرعت المحصولات التي تحتاجها في غذائها اليومي، كالقمح والشعير، لتأمين الدقيق والبرغل، ونادراً ما خلعت وجبة من وجباتها من الخبز والبرغل. وزرعت العدس لصنع الحساء أو لإضافته إلى البرغل لصنع المجدرة^(٢).

(١) المصدر السابق، ص ٧٨ آ وص ٧٨ ب وص ٧٩ ب وص ٨٠ آ وص ٨ ب.

(٢) انظر الصباغ، ليلي. المجتمع العربي. ص ٥٨ وص ٥٩.

وزرعت الحمص لنفس الغاية أو لأكله بأشكال مختلفة . وزرعت الذرة البيضاء التي الفت قاعدة في غذائها ، فأكلتها خبزاً أو طبخاً مضافاً إليها بعض النباتات أو اللبن .

وسعت لتأمين ماشيتها في فصل الشتاء من التبن والعلف ، فزرعت بعض أنواع من البقول . وفي الغوطة زرعت الفصصة والبرسيم لهذه الغاية ، والفلول لتأكله أخضر ويابساً ، والخروع لاستخراج زيتة اللازم للإضاءة ليلاً . واستخدمت في بعض الأحيان زيت الزيتون أو الشحوم لنفس الغاية .

وملكت الجمال والخيول والحمير للركوب والنقل والحراثة ، والحمام والدجاج والأوز والبط للاستفادة من لحمه وريشه وبيضه . وملكت الثيرات للحراثة والجر واستخدمتها في جر عربات النقل والتحميل ، لأنها أصلح الحيوانات في جر العربات على الطرقات والأراضي آنذا^(١) .

وقامت بتربية الأبقار التي اختلفت أنواعها ما بين الغوطة وهوران والجولان وجبال القلمون ، وعهدت برعيها إلى رعاة من القرية ، أو ربيت في بساتين الغوطة . أما الأغنام والماعز فعهدت بتربيتها إلى رعاة أو إلى البدو أو بعض أفراد الأكراد ، الذين أتقنوا هذه الحرفة ، وكان ذلك مقابل أجرة عينية ، كالحبوب أو لقاء جزء من إنتاجها (حليب — خراف — صوف) .

وقامت النساء بدعم الوجبات الغذائية للأسرة بالسعي في الحقول والبراري لقطف الأعشاب التي تؤكل نيئة أو مطبوخة لوحدها ، أو مع الخبز والبرغل ، فشكلت جانباً من غذاء الأسرة ، بالإضافة إلى ما أنتجته الأسرة من الفواكه والثمار ، كالزيتون والعنب والتين والرمان والمشمش والاجاص والجنرك وغيرها^(٢) . واختلف ذلك من مقاطعة إلى أخرى . وكان فلاحو الغوطة أكثر غنى بالفواكه من فلاحو المقاطعات الأخرى ، نظراً لخصب تربة الغوطة وري بساتينها المستديم ، واعتدال مناخها . وحصل الفلاحون على ملح الطعام من جيروود (ما بين دمشق والقريتين) ، ومن الملاحات المحلية الشامية (جبول وتدمر) . وحصل فلاحو حوران على ملحهم من عكا . واستخدم الفلاحون الملح في صنع الطعام والخبز وفي حفظ الجلود النيئة .

(١) البديري: الحلاق . حوادث دمشق اليومية ، أحداث ١١٦٣ هـ ، ص ١٤٤ .

(٢) انظر : باسكوال ، جان بول ، المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام ، حثه بعنوان : البيئة والتغذية في حوران في القرن التاسع عشر . ج ١ ، ص ٤١٧ و ص ٤١٨ .

وقام فلاحو الغوطة بتأمين حاجتهم من زيت الزيتون ، مما زرعه في أراضيهم ، اما فلاحو حوران فاستوردوه من عجلون . وزرع الفلاحون البطيخ والمقاي في حوران والمناطق المحيطة بدمشق^(١) .

وحصل الفلاحون على البلح من متاجر دمشق ومن القوافل التجارية ، التي عبرت مناطقهم ومن البدو الرحل الذين كانوا يندفعوا في فصول معينة من السنة باتجاه قراهم . وقام بعض البائعين الجوالين بتأمين ذلك للفلاحين في قراهم .

أما السكر والقهوة والرز فكانت من الكماليات ، فاستوردت القهوة من اليمن عن طريق القوافل التجارية إلى القرن الثامن عشر ، وبعد ذلك قامت الدول الأوربية (فرنسا — انكلترا) بتصديره إلى بلاد الشام . واستورد الرز من مصر وكان غالي الثمن^(٢) . وكان ثمن كيلو الغرام الواحد يعادل ثمن ١٠ كيلو غرام من القمح ، وكان يقدم للضيوف في مضافات الشيوخ خاصة ، ولا تأكله سوى الأسر الغنية لارتفاع أسعاره .

أما السكر فاعتبر من أعظم المصادر الغذائية في توفير الطاقة للجسم ، واعتبر تناوله قبل القرن السادس عشر في أوروبا من قبيل الترف ، وظلت هذه النظرة اليه في بلاد الشام بعد ذلك بثلاثة قرون ، وظل معتبراً من الأصناف الغذائية الكمالية حتى النصف الأول من القرن العشرين . وعلى الرغم من أن زراعته في بلاد الشام ، قد زالت ولم تعد للظهور إلا في آواخر القرن التاسع عشر . واعتمدت بلاد الشام في استهلاكه على ما تصدره بريطانيا وفرنسا وعلى ما استوردته من مصر . واستخدم سكان ريف دمشق وفقراؤها بديلاً عنه الدبس أو رب العنب والخرنوب والعسل . وكانت الاسر تبتاعه من أسواق دمشق أو من الباعة المتجولين في الريف .

وكان احتساء القهوة محدوداً حتى القرن التاسع عشر بالنسبة للعامة في المدينة والريف ، واقتصر على تقديم المر منها في المضافات . وبقي احتساؤها في دمشق بشكل سري ، نظراً لتشدد بعض العلماء والسلطات العثمانية في منعها ، وبقي الحال كذلك إلى أن أصدرت

(١) بامسكوال، جان بول، المرجع السابق. ص ٤١١ وص ٤١٧ وص ٤١٨ .

(٢) بيع أردب الأرز في سنة ١٨٤٠م في اللاذقية بمائتين وخمسين قرشاً. انظر: الصايغ. المقرب.....، ص ٨٨. وكان الأردب عبارة عن ثلاث قفات مصرية .

هذه السلطات بلاغاً بإباحة شربها علناً^(١)، فأصبح الناس يشربونها في منتزهاتهم ومجالسهم وأصبح لشربها تقاليد اجتماعية معتبرة^(٢).

ولقد اتصف تنوع غذاء الأسرة الريفية بالرتابة وقلة التغير في نوع المأكّل. فكان أساس وجبات الفلاح، الحبوب التي صنع من دقيقها الخبز (قمح — ذرة بيضاء — شعير — حمص — جلبان)، وطحنت هذه الغلال في طواحين تدار بقوة الماء، وخبز العجين على الصاج أو التنور. وقامت النساء بهذه المهمة، وقدم ساخناً في بعض الأحيان ليؤكل معه البرغل أو بعض الخضار المطبوخة أو الأعشاب. وطبخ البرغل ساذجاً أو مضافاً إليه الحمص والعدس أو الخضار أو بعض الأعشاب البرية. وطبخ الفلاحون الفريكة (خاصة في حوران) نظراً لكثرة انتاجهم من القمح وطبخوا الحساء من العدس المجروش أو الكشك، وزودوا البرغل أو الحساء بالزيت والسمن أو الزبدة ومقلي البصل أحياناً.

أما الألبان فشكّلت قاعدة الغذاء للأسرة بعد توالد المواشي، وتوفر الحليب، فشرب بعد تسخينه أو رائباً، وأضيف الرائب إلى مطبوخ الذرة والبرغل. وصنع منه الكشك، ليؤكل في فصل الشتاء خاصة. واحتفظت الأسرة بالدبس والزبيب ويابس التين والمخللات والمكاديس والمقدمات والجبنة والزيتون وغيرها.

(١) انظر: الغزي. المجلد الثاني، ص ١٣ و ص ١٢٦.

(٢) انظر: الحصني، منتخبات التواريخ، ص ٥٦٨ و ص ٥٦٩. ولقد استشهد الغزي بابن طولون الذي ذكر أن المقاهي سميت في دمشق باسم الحمامات. ويذكر باسكوال في المرجع السابق (أن القهوة ظهرت في جنوب الجزيرة منذ أواخر القرن الرابع عشر ويمكننا متابعة انتشارها المتدرج باتجاه مكة والقاهرة، حيث حظر استعمالها على الناس في مطلع القرن السادس عشر. وفي غضون هذا القرن شاعت في الشام فتعاطاها سكان دمشق للمرة الأولى عام ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م / مما أثار خلافاً شديداً في أوساط العلماء الذين انقسموا فيما بينهم، وسرعان ما أفضى الخلاف إلى تحريمها عام ٩٥٣ هـ / ١٥٤٧ م / والواقع أن إجراءات التحريم شاعت في جميع أرجاء الدولة العثمانية في مطلع القرن السابع عشر وأدى ذلك إلى تباطؤ انتشارها لفترة من الزمن ثم ظهرت ثانية بعد الغاء الحظر ورغم انتشارها بين الأهالي (مدينة وريف) في أوسع فئاتها وبدل ذلك على استيراد القهوة المتزايد من جزر الأطلسي نتيجة لتزايد الاستهلاك من جهة ولتخفيض الرسوم الجمركية في أرجاء الامبراطورية من جهة أخرى. انظر: ج ١، ص ٤٢٠ من المرجع المذكور.

ويذكر البديري الحلاق في أحداث ١١٦٢ هـ أن أسعد باشا العظم أعلن أن كل من شرب القهوة في دمشق شق أو صلب ثم أمر برفعها فرفعت من سائر قهاوى الشام وأسواقها. وصار شربها في الشام من أعظم المصائب. ثم بدأ الناس يشربونها. ويذكر البديري في موضع آخر من أحداث ١٦٦٣ هـ / أنه شاهد الناس جالسين على شفير النهر وهم على أحمل وشرب قهوة.

أما اللحوم فلا يرد ذكرها في وجبات الاسرة الريفية آنثذ إلا في المناسبات ، كالأعياد ، وبعض الأفراح وايقاء النذور . فتقاسم الأهل لحم الذبيحة ، ولهذا الغرض ، قامت الاسر الفلاحية (في جبل لبنان والقلمون) بتربية بعض الخواريف وتسمينها لتذبح في تشرين وتحفظ على شكل (قاورما) وكان يفرز لحم الأحمر ثم الدهن والشحم ويقلّى ويوضع بعد ذلك في مسامن لتؤكل مسمنة بعد أخرى عند الطلب بدلاً عن اللحم الطازج الغالي الثمن والنادر الوجود في القرية آنثذ^(١) .

ولقد أجمع الرحالة الذين زاروا حوران على أن سكانها كانوا يعيشون حياة شظف ، وكانوا قانعين في شؤون ماأكلهم ومشربهم . وحتى الأغنياء منهم كانوا يعيشون حياة فقرائهم ، ولا يتجلى ثراؤهم إلا في اكرام ضيوفهم ، ويقول : (بوركهارت Burkhardt) : لقد اقتصرت الاسر الفلاحية الحورانية في غذائها على وجبتين من الطعام في اليوم ، وكان خبزها من دقيق الشعير بدلاً من القمح ، واقتصرت في تناولها اللحم على مرتين في العام^(٢) .

أما فيما يتعلق بتأمين مياه الشرب ، فقد اختلف الوضع من قرية إلى أخرى ، وبحسب وفرة المياه ومصدرها صيفا وشتاء (كالانهار أو الينابيع والآبار وبرك مياه الأمطار وغيرها) . ولقد أوكلت مهمة جلب المياه من مصادرها إلى النساء ، اللواتي استعملن في جلبه الأواني الفخارية المختلفة وغيرها ، وأبرز الأواني الفخارية التي استخدمت في حفظه (الزير) وهو عبارة عن اناء فخاري كبير يوضع في ساحة الدار في مكان مخصص ويملاً بالماء ويغرف منه بقصعات عند الحاجة^(٣) ، كما في قرى حوران والقلمون . وكانت مهمة الزير تبريد الماء بطريق الارتشاح والبحر وترسيب العوالق به . وكان فلاحو حوران يستوردون أوانيهم الفخارية من راشيا^(٤) ، الواقعة في سفوح جبل الشيخ الشمالية الغربية .

الأسرة الواسعة في مدينة دمشق

شاهدت مدينة دمشق ، في هذه الفترة ، الاسرة الواسعة والمتفرعة كما في أرباضها .

(١) خاطر ، لحد . العادات والتقاليد اللبنانية . ج ٢ / ص ٤ و ص ١٣٣ و ص ١٣٤ .

(٢) باسكوال . جان بول المرجع السابق . ج ١ ، ص ٤٢٣ .

(٣) انظر : باسكوال ، جان بول : المرجع سابق . ج ١ ، ص ٤٢١ و ص ٤٢٣ .

4 - See: Burckhardt . J.L. op.cit.PP.292.294.

وكان ذلك نتيجة لتركبة تاريخية من جهة ، ولأوضاع اقتصادية من جهة أخرى . وبرز ذلك في مركز السلطة بيد الأب أو الجد ، وفي تماسك الأسرة الداخلي ووحدتها البنائية ، وبسكنها في بيت كبير واحد أو بيوت متجاورة . وكان البيت الكبير يضم الأب والأم والأبناء والبنات والعمات والكنات والأحفاد . ويرجع تسمية الأسرة بـ (بيت فلان) للدلالة على اسم الأسرة أو العائلة . ولقد وصل عدد أفراد الأسرة في بعض الأحيان إلى خمسين شخصاً أو ما يزيد عن ذلك ، وأسكن كل ولد متزوج مع زوجته في غرفة من البيت الكبير . أما بقية الأبناء العذاب فخصصت لهم غرفة واحدة أو أكثر وأفردت للبنات مثل ذلك ، وللجدة التي هي على قيد الحياة والأخوات والعمات العوانث وربما المطلقات .

وكلما تزايد عدد أفراد الأسرة ، وضاق البيت الكبير عليها لجأت إلى بناء بيت جديد مجاور للبيت الكبير ان أمكن ، وإلا انتقلت إلى حي آخر ، فتعمر بمجموعها بيوتاً لسكنها . وصادف أن كانت الدخلات والحارة ببيوتها وفقاً على سكن أسرة واحدة كبيرة ، تعود في أصولها إلى جد واحد . ويمكن ملاحظة ذلك في تسميات العديد من الدخلات والحارات التي أخذت أسماءها من الأسر التي سكنتها كما سنرى .

وكان البيت الكبير قاعدة لأعمال العائلة ، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أحياناً ، كما كان مقر عمل لبعض شيوخ الحارات وكبار التجار ورجال الدين ومشايخ النقابات . ولهذا وجد فيه جناح للضيوف (السلامك) المخصص لاستقبال الغرباء عن البيت ... وغيرهم من أبناء الحارة طلباً للمشورة أو الخدمات القروض أو الاجتماعات والمؤتمرات .

وفيما يتعلق بنسب أسر دمشق في هذه الفترة ، تراه مرتكزاً على أحد أسس ستة هي :

١ — إما على أساس النسبة إلى مدينة شامية أو عربية كأسرة : الحمصي — الحموي — الحلبي — النابلسي — الغزي — الشطي — الطرابلسي — الصيداوي — البيروتي — الجبرتي — البغدادي — الموصل — التكريتي — الديار بكرلي . واستخدمت أحياناً « لي » التركية بدلاً عن ياء النسبة في اللغة العربية للتعريف بالمنسوب .

٢ — أو على أساس النسبة إلى مدن عثمانية في الاناضول أو الروملي مثل : أسرة الاضلي

— الاسلامبولي — الأماصيلي — الازميرلي — الموره لي — الأزنأوط
— الكرمانلي — الأورفه لي .

٣— أو على أساس النسبة إلى حرفة الأب أو الجد أو نسبة إلى رتبة عسكرية أو منصب إداري عثماني وهكذا... مثل : بيت الأغا — الباشا — الكتخدا أو الكاخيا أو الكيخيا — الشرجي (جورجي) — الدوه جي — الشهبندر — القدسي — الجونخدار — البيرقدار — المملوك — المعتوق — الأوربه أميني — الكلارجي — الدالي — الدالاتي — الهواري — الخزندار — الأوضه باشي — اليوزباشي — الطوغي — البلوكباشي — الزربا — المهتار — الصاغرجي — الياسرجي — القواص — الترجمان — الباشكاتب — المحتسب — الشاويش — السباهي — الدزدار — السكباني — الكرد أوغلي وغيرها . وما زالت هذه الكنيات في أسماء الأسر تعيش بين طهرانينا في دمشق في الوقت الحاضر بعد أن ضاعت كنياتها الأصلية فحلت محلها ألقابها تلك .

٤— أو على أساس حرفي كبيت : الحداد — النجار — البيطار — الحكيم — الصواف — المنجد — العقاد — المزيك — القباقيبي — البني — القهوجي — الحلونجي — الخانجي — المعلم — الخوجة — الحمامي — الصباغ... الخ .

٥— أو أخذت نسبتها من بعض الصفات كبيت : الحلو — والمز — والأبيض — الأسود — الأزرق ، الأحمر^(١) .

٦— أو على أساس النسب لطريقة صوفية مثل : الحريري — النقشبندي — الرفاعي — السعدي — الجيلاني — الشاذلي — البشرطي — الدسوقي — وغيرها .

ولقد حملت بعض الأسر مثل هذه الكنيات ، إلا أنها لم تكن تعمل بالحرف التي اكتسبت اسمها منها . فالسكر في الميدان كانوا تجارا ومزارعين . وآل العطار كانوا من رجال الدين ومدرسين في الجامع الأموي والسليمانية^(٢) .

(١) انظر : حطب ، زهير . المرجع السابق . ص ١٧٨ و ص ١٧٩ .

(٢) فاتر ، شيري . المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . ج ١ ، ص ١٠٤ و ص ١٠٥ .

هندسة البيت الشامي

كان البيت ملاذ الاسرة ومركز نشاطها ، فلا عجب إذا ما انصب اهتمامنا على دراسة هندسته ، وما طرأ عليه من الترتيبات في هذه الفترة ، سواء في مدينة دمشق أو بعض المقاطعات التابعة كجبال القلمون ولبنان وسهل الغوطة وحموران .

ولقد لعبت عوامل عدة في هندسة تلك المساكن ، كظروف الأمن والعادات والتقاليد والمعتقدات ، ونظرة السكان إلى الحياة وحسهم الجمالي ، وطبيعة الاسرة وحجمها العددي ووضعها المادي ومركزها الاجتماعي وأصولها القومية بالإضافة إلى المناخ ، فلا غرابة إذا ما اختلفت هندسة البيوت ما بين الريف والمدينة والسهول والجبال . ولقد لعبت دوراً في هذا المجال ، طبيعة مواد البناء المتوفرة ناهيك عن ظروف الأمن ، التي فعلت فعلها في هندسة البيوت ، فضحى السكان بالعديد من الأسس السابقة ، طلباً للأمن ونشداناً للاستقرار في مساكنهم ، في وقت سادت فيه الفوضى وأصبح الضعفاء نهياً للأقوياء .

وفيما يلي سنحاول تلمس أوضاع البيوت الدمشقية : التي تباينت حجماً واتساعاً وغنى وفقراً ، فمنها ما بنيت جدرانها بالحجارة المقطوعة المزينة أو الكلسية أو البازلتية السوداء ، وأحكم بناء تلك الجدران بشكل دقيق ، والتصقت حجارتها فوق بعضها بالجص^(١) والكلس مع التراب الذي يعقد معها فتلتحم كأنها جسم واحد . وهذا النوع لا يقوى عليه إلا الأثرياء .. ومنها ما بني باللبن (بكسر الباء) وهو التراب المجهول بالماء يوضع بقالب من خشب مربع ثم يجفف بالشمس ، وبعد يبسه يبنى به الفقراء بيوتهم ، أو من لا قدرة له على البناء بالحجارة . ومنها ما يبنى بالتراب خاصة وهو المسمى بالكوك .. ومنها ما يبنى بالتراب والكلس وصنعتة كالكوك ، إلا أن هذا أعظم جرماً منه مع زيادة بالكلس في ترابه ، وذلك بأن يتخذ لوحان من الخشب مقداراً طولا وعرضا منصبان على أساس ويباعد ما بينهما على رغبة صاحب البناء ، ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال ، وتسد الجهتان الباقيتان من ذلك الفراغ بلوحين آخرين صغيرين ، ثم يوضع فيه هذا التراب أو الرمل مخلوطاً

(١) يقول القاسمي : إن الجبصين يصنع من حجارة يحرق في أتون ثم يطحن في رس بواسطة دابة ثم يلقي ناعماً وينخل فيصير جبصينا تلتصق فيه الأحجار عند البناء . والجبصين للحجر كالمسمار للخشب . انظر : القاسمي قاموس الصناعات ... ج ١ ، ص ٧٧ .

بالكلس إلى أن يمتلىء ذلك الفراغ بين اللوحين على الصورة التي ذكرناها ويسمى ذلك الطابه وصانعه الطوّاب وهكذا شطرا بعد شطر أو لوحاً فوق لوح إلى أن ينتظم الحائط كأنه قطعة واحدة . وأغلب بناء الفقراء والفلاحين من الدك الذي يتعرض للسقوط والانهييار من جراء الأمطار الغزيرة والثلوج والهواء في فصل الشتاء^(١) . ويذكر البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٥٥ هـ / ١٧٤٣ م أن الله « أغاث عباده بالأمطار كالبحار وذلك في ابتداء كانون الثاني واستمر ليلاً ونهاراً وأثلجت الدنيا سبع مرات واستمر ذلك خمسة وأربعين يوماً انهدمت أماكن بحيث ما بقي محل ولا جهة في الشام إلا وقع الهدم فيها^(٢) . مما يدل على كثرة البيوت المبنية بهذه الطريقة أو من اللبن في دمشق في هذه الفترة .

وعرف الدمشقيون طرقاً أخرى في بناء بيوتهم ، كاستخدام الحشب واللبن في بناء الجدران ، وكانت قطع الحشب تستخدم ضمن الحائط طولياً وعرضياً ، وتثبت فيما بينها بمسامير وتملأ الفراغات فيما بينها باللبن لبنة فوق أخرى وبشكل مائل . ويكون وضع المدماك من اللبن مختلفاً عن المدماك المجاور له . وهكذا طلباً لقوة الجدار الذي يطين بعد ذلك من الخارج والداخل لعزله عن المؤثرات الخارجية .

واستخدم الدمشقيون أيضاً حجارة الغمس وحجارة الغشم مع طين وكلس ، مدماكاً فوق آخر ، أو مداميك سفلية من الحجارة لتحمل تأثير الرطوبة ، وفوقها إلى نهاية الجدار مداميك اللبن والدك . واستخدموا أيضاً الحجارة البيضاء المزينة أو البازلتية السوداء أو كليهما معاً في بناء فتحات الأبواب والشبابيك والقمارى واليوكات والكتيبات والأقواس في داخل البيت . وشاهدت دمشق أيضاً استخدام أسلوب العقد من الحجارة في البناء . وشمل العقد الجدران والسقف من البناء ، كما في الخانات والمدارس والتكايا والزوايا والحوانيت وبعض الأسواق والجوامع والحمامات وغيرها ، واستخدم أسلوب القباب في سقوف الأبنية كما في

(١) ويذكر القاسمي في كتابه السابق . ج ١ ، ص ٥٢ ، وص ١٤٤ . « أن الطوّاب يقوم بتخمير التراب مع التبن بالماء ويعجنه بعد تخميره ويضعه على أرض مستوية في قوالب . ويرفع القالب متى تماسك . وهكذا قالب وراء قالب ، ثم تصبح كالحجارة بتعرضها للشمس . واللبن أقوى من الدك . وبعض الأهالي في دمشق الفقراء الذين لا يقدرّون على عمارة بيوتهم من الحجارة يعمرّونها من اللبن فإذا طلي وجهه بالكلس وحفظ من الماء فإنه يبقى مائتي سنة » . انظر : أيضاً المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٥٦ و ص ٥٧ .

(٢) انظر : حوادث دمشق اليومية ص ٣٤ .

التكية السليمانية وخان الحماصنة وأسعد باشا العظم، ومدرسة الخياطين وغيرها. وأدخل القوس الرومي في بعض أبنية دمشق.

ويبدو أن معظم الغرباء الوافدين إلى دمشق في هذه الفترة قد أقاموا بيوتهم في أرباضها وحول أسوارها. وكانت بيوتهم مبنية من مواد بسيطة كاللبن والطين المندر. وتعرض بعضها للهدم من جراء فيضان نهر بردى وغزارة الأمطار والثلوج كما حصل في سنة ١١٦٠ في شهر محرم الموافق لكانون الثاني سنة ١٧٤٩ م حيث يقول البديري «زادت المياه بسبب سيل عظيم ودخوله للشام فحصل طوفان لم يسمع له نظير من قديم الزمان هجم الماء من نصف الليل إلى الشام. أغرق جميع ما كان في طريقه.. وقد شاب من هولها الكبير والصغير وقد غرق فيها أناس غير محصورين مع ما أتلقت من بهائم وأموال... وانهدمت أماكن كثيرة لا تحصى وتركتها بلاقع»^(١). ولقد أدخل بعض المهاجرين إلى دمشق نماذج من بناء أقاليمهم التي هاجروا منها كأبناء ريف حلب الذين كانوا يبنون سقوف بيوتهم من القباب على شاكلتها^(٢). وسميت تلك الحارة من الميدان بحارة القبيبات منسوبة إلى ذلك النموذج من البناء.

أما الغوطة فقد أمدت أبنائها بما يلزمهم من الأخشاب للبناء، كخشب الحور والصفصاف والسرو وغيرها والتي كانت تزرع في الغوطة وريف دمشق^(٣). وكانوا يسقفون بيوتهم بوضع الأخشاب أفقياً وتسمى (النقض) وتغطي بالعوارض والقصب والبلان والوزال والأتربة^(٤) الحمراء والقصرمل والتبن والكلس وتخلط بنسب معينة^(٥) وتتصلب هذه الخلطة مع الزمن بحيث تكون طبقة كثيفة غير نافذة للماء فلا تدلف أيام الشتاء المطيرة والمثلجة إلا مندر. وتتم عملية السقف أو التطيين في أيار الصيف. وكان يقوم بهذه الحرفة في دمشق

(١) حوادث دمشق اليومية. ص ٨٦.

(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠ / سنة ١٢٢٢ هـ - ١٢٢٣ هـ. ص ٧٥.

(٣) انظر: سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ٤١١ / سنة ١٢٦٥ هـ، ص ٣١.

(٤) خاطر، لحد. المرجع السابق. ج ٣، ص ١١١.

(٥) جلب التراب الأحمر على الدواب من محافر خاصة به وكان يباع في دمشق مع فطوم الشتاء لتطيين سطوح المنازل ولتعويض ما ذهب منه بفعل المطر والتعرية. انظر: القاسمي، محمد سعيد المصدر السابق. ج ١، ص ٦٨. ويذكر القاسمي: أنه كان يوضع لكل حمل تراب قفة تبقي ويخمر أياماً ويمزج مع بعضه ثم يستعمل.

أبناء القلمون من دير عطية والنبك وما جاورهما من القرى ، بحيث يأتون إلى دمشق لتطيين الاسطحة^(١) وكانوا يسمون بالطيانة .

وروعي في هندسة السطح أن يكون مائلا ميلا خفيفاً نحو المزارب ليسهل عملية سيلان الماء بسرعة إلى الشارع أو ساحة الديار الداخلية فمصرف الماء المالح . ويذكر راسل أن المواد التي استخدمت في أسطحة بيوت حلب كانت آتخذ مشابهة لما استخدم في دمشق فهي خليط من الجبصين والملاط والقطران والقصرمل وتتصلب هذه الخلطة إذا ما فرشت صيفاً ، وسرعان ما تتكسر إلى شرائح إذا ما فرشت شتاء بحيث لا تنفع في درء الأمطار أو تمنع الدلف وحفظ الجو الداخلي للغرف^(٢) .

أما عملية طلاء جدران البناء من الداخل فسميت (الزريقة) وكانت تتألف من خليطة القصرمل والكلس وسقط قشر القنب^(٣) . أما طلاؤها من الخارج فمن الطين الناعم المخلوط بالتبن لحمايتها .

ولقد رصفت أرضية البيوت بطرق مختلفة ، فبعضها وهو القليل ، رصف بالرخام ، وبعضها الآخر بالحجارة المزينة أو البازلت ، وفوقها الخشب . وروعي في رصف الحجارة أو الرخام أخذها أشكالاً جميلة مختلفة ، وهذا ما كنا نراه في قصور الخاصة وبعض الأبنية ذات النفع العام . أما بيوت العامة والفقراء فاستخدم في رصفها (عدسة) مكونة من القصرمل والكلس^(٤) .

ويأتي بعد ذلك التليس من الداخل وكانت تتم العملية بمزج (خلط) قنطار من الكلس باثني عشر (رطل) من قشر القنب المقطع ، وقد لون بألوان مختلفة ، وقام بالرسم الخاصة على الحيطان أناس مخصصون .

ولقد تأثر فن العمارة وهندسة البناء في دمشق بعوامل عدة . فمنها ما كان ناتجاً عن

(١) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/١٠٢٣ هـ . ص ١٧ .

2- See: RUSSELL. A. op. cit. Vol. 1.P. 35

أما طلاء الجدران فكان يخلط قنطاران من الكلس باثني عشر رطلا من قشر القنب المقطع .

(٣) القاسمي : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢٩٦ ، ص ٢٩٧ ، ص ٤١٥ .

(٤) القاسمي : المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

تركة تاريخية ومنها ما كان متأثراً بعامل المناخ ، والتقاليد والعادات الاجتماعية كحجب النساء عن أعين الجيران والمارة وادخار مؤونة الاسرة لفترة طويلة ، وايواء بعض الحيوانات التي تستخدمها ، والحالة المادية للأسرة ووضعها الاجتماعي وعدد أفرادها والعناصر الملحقه بها ، والحالة المادية للأسرة ووضعها الاجتماعي وعدد أفرادها والعناصر الملحقه بها من الرقيق والخدم ، ناهيك عن مساحة الأرض المعدة للبناء ، والنظرة للحياة والحس الجمالي والاستمتاع داخل البيت^(١) .

ومع ذلك فقد أسهم العثمانيون في هذا المجال في اتجاهين :

الأول منها : يبدو في نقلهم أسلوب البناء والهندسة الرومية إلى مدينة دمشق . ويمكن مشاهدة ذلك في الأبنية ذات النفع العام أو الخاص ، التي أقاموها في دمشق ، كالحانات والتكايا والمدارس والجوامع وقصور الولاة والحكام .

أما تأثيرهم الثاني فظهر في فترة دراستنا ، وكان تأثيراً غير مباشر نتج عن ضعف السلطة العثمانية في دمشق واضطراب حبل الأمن فيها ، فانعكس ذلك على تصميم مساكنها وخططها وشوارعها ، وبرز في ضيق أزقتها وتعرجها وكثرة الدخلات المسدودة وصغر مداخل البيوت إلى درجة يضطر فيها المرء للإنحناء عند ولوجها ، وصفححت أبوابها الخشبية بصفائح لتزيدها مناعة ولتصمد في وجه المهاجمين عند الحاجة . وأدخلت الدهاليز في تصميم بعض البيوت عند مداخلها ، فكنت تراها طويلة ومعتمة كونها مقبية بالخشب أو بحجارة العقد لتوفر الأمن لساكنيها^(٢) .

ولم يستطع معظم الدمشقيين استبدال اللبن والدك في بناء جدران بيوتهم بالحجارة ،

(١) لم يتغير نمط بناء دمشق حتى نهاية القرن التاسع عشر . ويقول الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي الذي زارها بعد القضاء على ثورة أحمد عرابي في مصر أن « عماراتها من الطين والخشب وبالأحجار كباقي بلاد الشام وقليلاً منها كالمساجد والمدارس القديمة ومباني السلاطين والملوك والأمراء القدماء وبعض بيوت جديدة في هذا العصر أنشئت على الطراز الجديد المعتاد الآن في مثل بيروت وغيرها من البلاد التي تقدمت في العمارة في هذا الزمان . إلا أنها مع كونها في الظاهر مبنية بالطين والخشب مزينة بالباطن بالرخام الملون والنقوش الذهبية ، فلقد رأينا داراً أصلها من عمارة الشيخ المرادي في الشام قديماً وانتقلت إلى ملك أولاد القوتلي في هذا العهد القريب ، وبها من حسن الصنعة وكال البهجة ما يهر العقول ويدهش الخواطر وتحار فيه الأعين والنواظر . انظر : نفحة البشام في رحلة الشام . ص ١٣١ . لبنان ١٤٠١ هـ .

2 - See: Burton .I. the inner Life of Syria, Palestins and the Holyland.P.34.

نظراً لارتفاع أسعارها، مما سهل نقبها واقتحامها من قبل المهاجمين أثناء الصدامات بين القوات المتصارعة فيها. ففي سنة ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥ - ١٨٠٦م تمكنت قوات الانكشارية اليرلية «من ثقب بيوت في زقاق الخندق عن طريق جدارها الملاصق لقهوة السكرية فدخلوا على القول من بيت محمد نصري وبيت سالم طيورة»^(١).

وأدت نقاط الضعف تلك إلى زيادة التصاق جدران البيوت، وبخاصة ما كان منها مطلاً على الشوارع والأزقة، وألغيت النوافذ من هذا الاتجاه، وإذا ما وجدت فكانت ضيقة ومسلحة بقضبان حديدية قوية بعد تطويقها بحجارة قوية بدلاً من اللبن أو الدك. أو فتحت شبابيك تطل على الشوارع في الطوابق العليا. وسلحت بقضبان الحديد، ووضعت عليها المصبغات لحجب نظر السابلة عمن في الداخل. وأصبحت معظم الشبابيك داخلية تطل على أرض الديار، فتوفر الهواء والضوء للمنازل. واندفعت بعض جدران البيوت إلى الشوارع والأزقة سعياً وراء توسيع المساكن من الداخل على حساب الصالح العام مما أدى إلى تعرج الشوارع والطرق. واندفع (قلد) أسطح الطوابق السفلى إلى الشوارع وباتجاه المجاورين لتوفر للطوابق العليا بعض الأمتار في الاتساع، مما أثار المشاحنات بين الجيران. ويقول القاسمي: «نظراً لكثرة ازدحام العمران، كان الناس في دمشق يتشاحون في الفضاء والهواء وللأعلى والأسفل ومن الانتفاع بمظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر من الحيطان فيمنع جاره من ذلك إلا ما كان فيه حق ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية وغير ذلك. وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو فنائه المتضايق الجوار. أو يدعي بعضهم اختلال حائطه خشية سقوطه. ولعب العارفون بالبناء وأحواله دوراً بارزاً في فصل الخصومات بين المتنازعين. فيستدلون على ذلك بالمعاقد والقلد ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتزالها ومقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسرب المياه مجلوبة أو مرفوعة بحيث لا تضر عما مرت عليه من البيوت والحيطان»^(٢).

ويمكن تفسير هذه الظاهرة بضيق مساحة البيوت على ساكنيها نتيجة لتزايد عدد أفراد الأسرة ورغبتهم بعد الزواج بالبقاء في مساكن رؤوسهم يتعاونون على متاعب الحياة ويدافعون

(١) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخه. ص ١٢٥.

(٢) انظر: قاموس الصناعات الشامية. ج ١، ص ٥٣.

مجمعين عند الحاجة فإذا ماتشتشوا غرقوا في بحر الغرباء الذين غصت بهم دمشق في هذه الفترة^(١).

واحتال السكان الاصليون على ضيق المساحات فأبدعوا الصيغيات^(٢) في البناء، وسعت بعض الأسر لشراء أجزاء من بيوت ملاصقة لبيوتها (مربع أو أكثر). وفي تلك الحالة كانت تقوم الأسرة المشترية بسد الأبواب والشبابيك المطللة على البيت المستخرجة منه وتفتح أبواب وشبابيك جديدة إن أمكن في الجدران المطللة على المسكن الذي ضمت إليه. ومثال ذلك ما جرى في سنة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ - ١٨٣٢ م / في زقاق العواميد الواقع في باب توما حيث قام «موسى دياب بشراء مربع (غرفة) مستخرج من دار الحاج مصطفى أبي الجود وضم المربع المذكور إلى داره»^(٣).

ونتج عن هذه الظاهرة أن اختلت هندسة البيوت وأهملت الشوارع والأزقة وامتألت بالقاذورات والنفايات، وجرت في طواريقها مياه آسنة، وامتألت بالأوحال والطين خاصة أيام الشتاء المطيرة وكان على السكان تعويض ما افتقدوه من نظافة الشوارع والأزقة بنظافة البيت. وبما يونق البصر في ساحته الداخلية، فكنت ترى في أرجائه بحرات وأحواض الأزهار والورود، وعرائش الكروم، وغيرها من الأشجار المثمرة كالشمش والتوت والبرتقال والنارج. وتطوق تلك الأحواض ساحات مبلطة في الغالب توفر الهواء وأشعة الشمس خاصة في البيوت الكبيرة الواسعة.

وشكلت تلك الباحات مرتعا لأطفال الأسرة ونسائها. ونادراً ما رؤي بيت في دمشق، مهما كان صغير المساحة، خالياً من تلك الفسحة السماوية. وكان في البيوت الكبيرة بالإضافة إلى ذلك عدد من الايوانات سواء (في السلامك والحرملك) هم المربعات والطزرات وبيوت المؤونة (الكلارات) والمطابخ والاصطبلات وأحياناً الحمامات. وغيرها، وتطل شبابيكها على الساحة الداخلية.

(١) انظر: العبد، حسن آغا، تاريخه. ص ٤٧ وص ٥٢.

(٢) قام الدماشقة ببناء بعض الغرف فوق الشارع اعتياداً على أحد حيطان البيت وحائط بيت الجيران المقابل بالاتفاق معهم. وأطلق على هذه الغرفة اسم (الصيغيات) ويشاهد العديد منها حتى وقتنا الحاضر في بعض أحياء دمشق القديمة كالشاغور البراني والعمارة. انظر: كيال، منير. الحمامات الدمشقية وتقاليدها. ص ١٥١ وص ١٥٢.

(٣) سجل: محكمة الميدان بدمشق رقم ١٢٤٧/٣٢٣ هـ. ص ٩.

وتوفرت المياه للبيوت من طوابع خاصة بها بحق معلوم، جلبت إليها من أحد فروع بردى الثلاثة (القنوات وبانياس ويزيد) لتصب في بحراتها ومطابخها ومراحيضها، ومنها إلى أقية الماء المالح فقليط ليخرج إلى بساتين شرقي الشاغور ويموت في الميدانين^(١).

وغالبا ما خصصت في البيت (مهما كان صغيراً) غرفة لاستقبال الضيوف تكون خارجية. أما في البيوت الكبيرة أو القصور فخصص جناح للضيوف أطلق عليه اسم (سلامك). ويصور لنا لامارتين أحدها أجمل تصوير عندما كان في دمشق سنة ١٨٢٣م / ١٢٣٨هـ بصحبة القنصل الفرنسي الميسو بودان، ولقد أدهشه الفرق بين ما رآه في الشوارع والأزقة وما شاهده في داخل أحد بيوت أغنياء النصاري فيقول: «دخلت أزقة مظلمة قدرة ومتعرجة في الحي الأرمني التي تشبه أكثر قرانا حرمانا، فالبيوت مبنية من الطين، جدرانها مثقبة من الخارج ونادرا ما ترى فيها النوافذ وإذا ما وجدت فهي صغيرة ومدهونة بلون أحمر وتحميها شباك ومصبغات خشبية، أما الأبواب الخرجية فتشبه أبواب الاصطبلات وترى بالقرب منها أكوام النفايات وبرك الماء الآجن. وإذا ما ولجت من الباب إلى داخل البيت مررت بدهليز مظلم يفضي بك إلى داخل البيت. وهنا تفاجأ بصورة تختلف كلياً عما شاهدته في الخارج حيث الأناقة والنظافة والثراء. قالباحة مفروشة بالبلاط تطوقها حجرات عديدة وعريضة مبلطة بحجر صقيل أو بالرخام الأبيض والأسود وتطوق أبواب تلك الحجرات ألواح المرمر أما درفات الأبواب فخشبية منقوشة ومزخرفة بالأرابيك أما سقوف هذه الحجرات فمرتكزة على أقواس حجرية مزينة بدورها. وفي أعلى الجدران ترى القماري^(٢) وأرضية هذه الغرف «المربعات» مفتوحة على بعضها بشكل خانات الشطرنج وفي المدخل ترى البحيرة الصغيرة وباتجاه كل ضلع من أضلاع المدخل تقابله غرفة مربعة أو مستطيلة قليلاً تسمى (المربع) وعددها ثلاث مربعات في ثلاث اتجاهات، وأرضية المربعات أعلى من أرضية

(١) انظر: الصيادي، محمد عز الدين. الروضة البهية في فضائل دمشق الحمية. ص ٢٦.

(٢) القماري عبارة عن شبايك علوية يوضع عليها الزجاج وربما كان ملوناً لجلب النور إلى داخل القاعات ويقول الأستاذ شفيق جبيري: (إن القمرى هي شبه شباك صغيرة في أعلى الحائط قريب من السقف مركب من زجاج ملون بألوان مختلفة ويعتقد أنها ربما سميت بهذا الاسم نسبة إلى لجوء ضرب من الحمام إليها وتعشيشها فيها). انظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. ج ٣. المجلد ٤٢. ص ٣٧. سنة ١٩٦٧م. ويلتقي القاسمي مع الأستاذ جبيري في أصل هذه التسمية فيقول: سميت بالقمرية نسبة إلى طائر القمرى أو طائر كرمي.

المدخل ويصعد منها إلى المربع بدرجة واحدة . وبلطت أرضياتها بالرخام أو بخشب الأرز بأشكال جميلة تثير الإعجاب»^(١) .

أما (بورتر) الذي عاش في دمشق حتى سنة ١٨٥٥ / ١٢٧١ - ١٢٧٢ هـ فيصف هذه البيوت ولا يتناقض في ذلك مع لامارتين بل يوضح الصورة التي عرضها الأخير . فاللون أو الايوان تراه غالباً في البيوت الكبيرة وهو عبارة عن موزع له ثلاثة جدران ، والجهة الرابعة تقام على قوس مفتوح مركّز على عامودين . وتطل على الساحة ، وبها بابان يفضي كل منهما إلى قاعة ، أما الجدار الذي يقابل القوس فيكون مسدوداً أو به قنصلية حجرية أو رخامية لتوضع عليها فوانيس الاضاءة وغيرها .

وكانت عادة الدماشقة فرش قاعة السلامك من جهاتها الثلاثة بالطوطيات (فرشات صغيرة) والوسائد ، وفي بعض الاحيان وضعوا فوق الطوطيات البساطات أو السجادات . وكان السجاد الفاخر يستورد من بلاد فارس أو بغداد وتغطي به أرضية القاعات ، واستخدموا الفرش الحريري في وسط القاعات والجلود . وغطيت الديفانات بأقمشة ثمينة أو بسجاد أكثر نعومة من سجاد الأرض . وترى في قاعة الحرمك أسرة الأطفال . أما رب الأسرة فكان يجلس على أريكة في السلامك ويضع ريشة طويلة إلى جانبه ، فعندما يريد الكتابة يضع الورقة على ركبتيه أو في يده اليسرى . ويستقبل ضيوفه ويقدم لهم الغلايين، والقهوة والشراب^(٢) .

وأطلق على الجناح الثاني في البيوت الكبيرة أو القصور اسم (الحرمك) ، وكان مرتعاً للعائلة وللحريم بشكل خاص ، انطلاقاً من عادة حجب النساء عن المحرمين عليهن ، وكان يحمي باب الحرمك في قصور الأغنياء والحكام أحد (الخصيان)^(٣) . ويذكر بورتر أنه استطاع زيارة جناح الحرمك^(٤) في أحد بيوت دمشق التي كان يقيم فيها أديسون مستأجراً . وتعود

1 - See: La, Martine .op.cit. VOL.2.P.35.

2 - Se Lamartine. op.cit. VOL.2.PP.4.5.

(٣) يذكر راسل أنه لم يكن في بيوت حلب العادية أجنحة منفصلة من أجل النساء وكان سيد البيت عندما يضطر للذهاب خارجه لايقفل باب بيته فحسب بل يأخذ مفتاحه معه .

انظر : Russell .A. OP. Cit. VoL1. P.238

4 - See: Porter, «five years in Damascus.» VOL.1. PP.33-34-35.

ملكية هذا البيت لعلّي آغا الذي كان موظفاً في خزانة دمشق ابان الحكيم المصري . وكان علي آغا مسلماً ذا عقل نير ومتحرراً وبعيداً عن التعصب ولكنه أعدم على يد العثمانيين بعد عودتهم إلى دمشق . ولتعاونه مع المصريين انتقلت ملكية البيت لابنته . وبنى الحرم لك في هذا البيت على مربع مساحته ٣٦٠ ياردة مربعة ، ورصف بالفسيفساء والرخام ، وفي وسطه ساحة تتوسطها بحرة ماء تحيطها نافورات عديدة صغيرة ، يفور منها الماء ليخفف من وطأة حرارة الصيف ، ومن حولها أحواض زرعت بأشجار البرتقال والليمون والنارج ، وعندما تزهو يفوح شذاها في الأرجاء .

بالإضافة إلى شجيرات الياسمين والسوسن ، تسلقت كرمات على عرائش في أماكن مختلفة من الباحة فوفرت ظلالاً وارفة . أما القاعات فطوقت الباحة من معظم جهاتها ، وتطل الأبواب والشبابيك عليها ^(١) .

ومن جهة أخرى فقد اهتمت بعض الفئات الاجتماعية الغنية بتزيين جدران بيوتها وسقوفها وأرضية قاعاتها ، واستخدمت في ذلك القاشاني والفسيفساء لرصف الجدران والسقوف بأشكال مختلفة ^(٢) ، ولكن ذلك كان قليلاً وفي حدود ضيقة جداً ، لارتفاع أثمانها ولقلة ما استورد منها من بلاد العجم ، وحل محلها في التزيين الخشب والمعاجين المختلفة الملونة بأشكال بديعة كما زينت الجدران بالآيات القرآنية أو الآيات الشعرية أو العبارات الماثورة والحكم المشهورة . ولم يصل خشب التزيين على الجدران من الأرصفة إلى السقف بل ترك الجزء العلوي منها ليطل بالكلس . وفي هذا الجزء تقع القماري ، وسمي هذه النوع من التزيين (بالرومي) . كما زينت بعض الجدران بأشكال النباتات وسمي هذا النوع (بالعجمي) ، وفي هذه الجدران شبابيك غير نافذة (خزانات) ذات رفوف أطلق عليها اسم (المكتبات) ^(٣) وضعت عليها المزهريات والزبادي والصواني والكتب وغيرها .

(١) استخدمت للزينة وتنسب إلى مدينة قاشان قرب أصفهان من بلاد فارس ، ويقال إن الفرس قد اقتبسوا هذه الصنعة عن البابليين ، ودلت الحفريات والآثار الباقية من فلسطين على أن الكنعانيين قد عرفوها أيضاً أما الفسيفساء فكان عبارة عن نقوش زجاجية ملونة رصفت قطعها بطريقة ترسم صوراً وأشكالاً ومناظر طبيعية جميلة . انظر : المعلوف ، اسكندر . مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق / ج ١ المجلد الأول ص ٢٢ . سنة ١٩٢١ م .

(٢) كانت الكتبة بارتفاع ذراعين وعرض ذراع وعمق ثلث أو نصف ذراع وتقسم طبقات خصصت لوضع الكتب في الأصل إلا أن دولة العلم دالت آنذا فأصبحت تستخدم لوضع ماتقدم من الهدايا والتحف والأواني . انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشلمية . ج ٢ . ص ٣٦٣ .

ووجدت شبائيك مماثلة لما ذكرناه إلا أنها أكثر عمقاً من الأولى ، وأطلق عليها اسم (اليوكات) ، وضعت فيها اللحافات والفرشات وبعض أثاث البيت كالسجاد والبسط . وقامت الكتيبات واليوكات مقام المكتبات والخزانات والصمديات في وقتنا الحاضر . ولقد وصل ارتفاع الجدران في بعض الأحيان إلى ٣٠ قدماً . وكان السقف يطعم بالذهب ويزخرف بالمرايا خاصة في بيوت الأثرياء والقصور ، وأخذت الزخرفة أشكالاً نباتية وهندسية مختلفة من نوع العجمي والارابسك ، وكانت بألوان متعددة ، كاللازور والأحمر والقرمزي والأزرق الغامق والبني والبيج وغيرها . يقول بورتر : (لم يقو على زخرفة مثل هذه البيوت في دمشق سوى أغنيائها ، حيث كانت الغرفة الواحدة تصل إلى ٢٠٠٠ / جنيه استرليني . ولقد قامت قلة من الأسر اليهودية الأكثر غنى بذلك ، بالإضافة إلى كتابتها لآيات من التوراة على جدرانها ، ولكن بيوتها مع ذلك لا يمكن مقارنتها ببيوت أغنياء المسلمين التي فاقتها فخامة وغنى في زخارفها ^(١) .

وروعي في تصميم البيوت التكيف مع المناخ واختلاف درجات الحرارة صيفا وشتاء ، فبنوا فوق بيوتهم بعض الغرف العلوية التي كانت تسمى (قصر) ، وما كان منها بسيطا سمي (فرنكة) . واستخدموا الطابق العلوي للنوم صيفا ، في حين أهملوه شتاءً ليناموا في الطابق السفلي ^(٢) من البيت طلباً للدفء .

ولقد اختلف فرش أرضيات المربعات بين فئة ، إجتماعية وأخرى . فالفقراء استخدموا في ذلك الحصر بدلا عن السجاجم الفاخرة . وكانت الحصر أنواعا . فالجيدة منها تسمى (المصرية) . وكان منها نوع آخر يصنع في قرى الشام كقرية (بلودان) نفيس جدا عليه نقوش جميلة ومنسوج بشكل جيد ، أما النوع الثاني فيسمى (الحصر الدباجية) ، وهي حصر غليظة جدا ، وكان يؤتى بها من قرية (خران) من قرى مرج الغوطة وكانت تباع في دمشق عند العلافة (جمع علاف) يشتريها الفلاحون وأصحاب القهاوي . ووجد نوع من الحصر أرق من الأنواع السابقة جيء بها من قرية (الحولة) وكانت تباع في دمشق لدى الحبوباتي ^(٣) . ووضع بعض العامة في دمشق البسط فوق الحصر والطوطايات التي هي عبارة

1 - Porter .op.cit. PP.37.38.

(٢) انظر: سامي ، عبد الرحمن بك . القول الحق . ص ٨٢ .

(٣) انظر القاسمي . قاموس الصناعات . ج ١ ص ٩٩ و ص ١٨٢ .

عن نوع من الفرشات (طراحات) صغيرة محشوة قطناً أو صوفاً، كما استخدموا لنفس الغرض جلود الغنم المدبوغة .

وكان من أثاث البيوت (البوريات) والسكمالات الساذجة والمطعمة بالصدف والخزائن والصناديق والمرايا والكراسي واسكماجايات وغيرها^(١) واستخدمت في المطابخ القصاع الغفارية والمالقي^(٢) . بالإضافة إلى الأواني النحاسية المختلفة الأغراض والأحجام وبعض الأواني الصينية كالزبادي والصحون وغيرها، واختلف ذلك من أسرة إلى أخرى، من حيث نوع الخشب والتطعيم والعدد . ونادراً ما خلي بيت من بيوت دمشق آنثد، من الأثاث الشرقي، الذي كان على جانب من الذوق والجمال مهما كان متواضعاً .

واستخدمت في إنارة البيوت الدمشقية ليلاً، قناديل اعتمدت في وقودها على زيت الزيتون، أو الزيوت النباتية الأخرى^(٣)، كزيت الخروع الذي زرع لهذه الغاية في أكثر من مكان في بلاد الشام، بالإضافة إلى الشموع التي صنعت في دمشق، وكان منها ثلاثة أنواع: المقاصيري وهو الأبيض الفاخر، والعسلي . أما الثالث فسمي بـ (مَن السمك) جلب من البلاد الغربية، وكانت الرغبة فيه أكثر من النوعين الأولين . وكان يجلب مع الحجاج، وكان منه نوع يستخدم خصيصاً في الأعراس^(٤) .

واستخدم الشمع في وعاء سمي بـ (الفنار)، وكان يصنع من القماش الخام أو الورق، بطول ذراع وباستدارة نصف ذراع يطبق وينشر، أحد طرفيه بقطعة من نحاس إذا كان نحاساً، ومن الجلد إذا كان ورقاً، وبوسطه محل لوضع الشمعة، وله من الطرف الأعلى، المصنوع أما من النحاس أو من الجلد، بابان مفتوحان من وسطه، فتركب الشمعة فيه بطرفه الأعلى وتطوق الباب الأعلى علاقة من شريط، للقبض عليها، فتركب الشمعة وسطه وتشعل عند اللزوم وينشر^(٥) .

(١) القاسمي . المصدر السابق . ج ٢، ص ٢٧١ — السكمالات — مفرداً اسكاملة وهي ماتعني في وقتنا الحاضر التريزة ذات القوائم القصيرة أو الطاولة المستديرة التي تستخدم للأكل وهي بدورها ذات قوائم قصيرة .

(٢) القاسمي : قاموس الصناعات . ج ٢، ص ٣٣٥

(٣) القساطلي، نعمان . الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ص ٩٥ .

(٤) القاسمي : قاموس الصناعات . ج ٢، ص ٢٥٦ .

(٥) القاسمي : قاموس الصناعات . ج ٢، ص ٢٥٦، وص ٢٥٨ .

ولقد استعملت ، في دمشق في أواخر هذه الفترة ، فوانيس الغاز التي استخدمت زيت الغاز (الكيروسين) لإنارة البيوت والطرقات والحارات ، فكسدت بذلك صناعة الشموع في دمشق^(١). واستخدمت في عهد ابراهيم باشا المصري قناديل قزاز^(٢).

وكانت للبيوت الدمشقية المضائة ليلاً مع من فيها ، سحرها عند الغريين ، ويعبر عن ذلك (بورتر) بقوله : « عندما كانت تغيب الشمس ، ويلف الظلام الكون بنقابه الكثيف ، ويحجب عن ناظريك كل شيء . يخرق هذا الظلام بريق عيون الحوريات الجميلات ، واشعاع حلين من المعادن الثمينة والحجارة الكريمة . وكانت المصابيح المتقدة هنا وهناك في المربعات والقاعات ترسل ضياءها في الأرجاء ، لندحر فلول الظلام ، ويتسكب ضياءها على وجوه تلك الحوريات وحلين وعلى مرايا الجدران ، فتشتت أطرافاً لتزيد المكان روعة وسحراً »^(٣).

واستخدم الدمشقيون في الشتاء كوانين خاصة ، صنعت من خليطة معروكة ومخمرة من التراب الناعم والتبن والماء ، وبعد يبنسها تشعل فيها النار للتدفئة . وكانت تلك الحرفة رائجة آنذاك . وبدأ الطباخ الحديدي يزاحمها في نهاية فترة دراستنا ، عندما استخدمه الأغنياء للتدفئة والطبخ معاً ، وبقي الفقراء يستخدمون الكانون الترابي إلى فترة متأخرة من الزمن^(٤).

وكان وقودها الحطب وفضلات ثمار الزيتون والمشمش والفحم الخشبي وغيره . وكانت الأسرة تتجمع حوله في أيام الشتاء فيستمعون إلى السير والحكايا والأحاديث المنوعة قبل ذهابهم إلى النوم .

أما فيما يتعلق بشرب مدينة دمشق ، فظلت طريقته كما كانت سائدة من قبل ، تعتمد في ذلك على مياه الأنهار والينابيع والآبار . وجل ما قدمه العهد العثماني في هذا المجال ، صيانة وترميم ما تهدم من المجاري ، خاصة بعد إصابتها بالتلف نتيجة للهزات الأرضية التي ضربت

(١) القاسمي : الصناعات . ج ٢ ، ص ٣٤٣ .

(٢) جاء في الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا المجلد ٣ - ٤ . ص ٢٢٠ . ورد رجعة مخنومة بختم حسن آغا صاغقول آغا سوري مؤرخة في ١٢ ل ١٢٥٤ هـ / تتضمن أخذ ثمانية قناديل قزاز عن كل قنديل خمسة وعشرون فضة للميري .

3 - See: Porter .J.L. op.cit. VOL.1.P.37

(٤) القاسمي : قاموس الصناعات . ج ٢ ، ص ٣٩٦ .

دمشق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر . وكانت العادة إدخال المياه إلى البيوت بواسطة أنابيب فخارية خاصة ، بحقوق معينة محددة لكل بيت بشخانات الأنابيب التي تحمل المياه إليه ، وقدرت ثخانتها بالاصبع ، وسجل ذلك في سجلات محاكم دمشق . وتنازل أصحاب البيوت الصباعة في المحاكم عن هذا الحق للشاري . وكثيراً ما أثارت تلك الحقوق مشاكل ومشاحنات اجتماعية ، خاصة عند شح الماء أو عندما تكون تلك الأنابيب تغذى أكثر من دار واحدة . ووجدت آبار مشتركة على الحد الفاصل بين بيتين متجاورين لإمدادهما بالمياه . أما الأنابيب المائية فكانت على أنواع منها (الزمرد) وهو أصغر الأنواع و (الشركس) وهو أكبر من الأول و (الايواني) وهو أكبر من الثاني و (السبيلي) و (المجبر) (والزنجاري) وهو أكبرها قياساً . وكانت المياه الحلوة (العذبة) تخرج من الأحواض تمر في الأنخلة والمراحيض للنظافة ، وما فاض منها يدفع بالفضلات إلى سياقات (كهاريز أو مجاري) خاصة مقبورة في الأرض تصب في مجرى رئيس ، ليجري فيه الماء إلى مصرف الماء المالح (قليط) ، أما البيوت التي بنيت فوق منسوب مجرى مياه الأنهار ، فاستخدمت النواعير لرفع المياه إليها ، كما في بعض بيوت الصالحية . وزودت البيوت الأخرى التي حرمت من المياه الجارية بمياه الآبار والينابيع والسبلان القريبة .

وواجهت هذه البيوت مشكلة تصريف قاذورات آبار المراحيض بعد امتلائها فوجد أناس مخصصون لتنظيفها وصيانتها كانوا في معظمهم من اليهود^(١) .

القصور في دمشق

برز التأثير العثماني في المباني ذات النفع العام والتي ذكرناها سابقاً . أما القصور فقام بينائها الولاة والمفتون والقضاة وغيرهم من الأثرياء والتجار ، وأكثر ما بني من القصور قام به الولاة مقلدين في ذلك قصور استانبول ، ثم قام من دونهم بتقليدهم وهكذا .

وروعي في هندسة القصور الاعتبارات الاجتماعية والتقاليد الموروثة ، بالإضافة للاعتبارات الأخرى . وتكونت تلك القصور غالباً من أجنحة ثلاثة : جناح الضيوف أو السبلاملك ، وجناح خاص بالأسرة للحريم والزوجات والابناء وسمي (بالحرملك) أما الجناح

(١) القاسمي : قاموس الصناعات . ج ٢ ، ص ٣٥١ .

الثالث فكان للخدم وبه الاصطبلات. وتأثر تصميم الجناحين الأولين برغبات أصحابها والحاجة التي أنشئت من أجلها. وكانت تلك القصور مترفة بزخارفها الزجاجية، ومطعمة بالخشب ومسحوق الفضة والذهب. وبالزخارف الحجرية المكففة فوق النوافذ وعتبات الأبواب والقماري وسقوف الغرف، بأشكال يصعب حصرها. واستخدم الجبصين للرسم النافر^(١). وكان السلامك رائع الالباء واسعها متسما بالجمال كبير القاعات والايوانات، وأما الحرمك فكان أعظم شأنًا لأنه كان مرتع النساء السجينات بين جدرانها، فكان لا بد له من تعويضهن عما افتقدنه من ذلك، فوفر لهن المعيشة المرفهة. وروعي فيه دخول الشمس ووفرة الظلال عند الحاجة لاختلاف الحاجة إلى ذلك بين الشتاء والصيف، وهناك البحرات الصغيرة والكبيرة والساحة المبلطة بالحجارة أو الرخام مرتع صبايا الأسرة ونسائها وأطفالها، والأحواض التي غرست بها الأشجار والزهور وعرائش الكرمه منشورة بانسجام في أنحاء الساحات الداخلية. ولعل قصر أسعد باشا العظم أكثر هذه القصور روعة وجمالاً. أقيم في نهاية سوق البزورية وكان في الأصل مكاناً لضرب الفلوس في صدر الاسلام ثم داراً لمعاوية ابن أبي سفيان، ثم داراً للذهب في عهد النائب المملوكي تنكز. وشرع أسعد باشا العظم في بنائه في سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ - ١٧٥٠ م بعد أن هدم لصالحه، ما حوله من الخانات والدكاكين، واعتمد في بنائه على عدد كبير من حجارة ورخام الأبنية المهدمة في دمشق، وروعي في هندسته وجود أجنحة ثلاثة: السلامك والحرمك وجناح الخدم والاتباع، ويعتبر هذا القصر أجمل قصور دمشق التي بنيت في العهد العثماني تخطيطاً وتزييناً، وأغناها زخرفة^(٢).

(١) كيال، منير. المصدر السابق. ص ١٧٦.

(٢) استخدم في زخرفته المرمر والرخام. ويقول إيكوشار من المحتمل أن يكون المرمر قد جيء به من إيطاليا، إلا أنه من المؤكد أن بعضه قد جمع من الدور والقصور الموجودة في دمشق، فقرشت الصحنون بالرخام كلها، وركبت بأشكال هندسية مختلفة، فتجد في هذه الأشكال المستطيلات والمثلثات والدوائر والمنحنيات والأقواس، ومن حيث لونها ترى الأبيض والأسود والأحمر، وفي بعض الأماكن من القصر ترى زخارف محفورة في الرخام، وقد أحيطت بخطوط من ذهب. أما الخشب المزرق فذو شأن لأنه ينسب للعصر التركي، ويستخدم لتغطية عمدان السقوف والأبواب ولكسوة الحيطان ودهن هذا الخشب بصورة عامة بأصباغ مختلفة، فيها توافق وانسجام، وزخرف بأشكال هندسية نباتية ترى فيها ضرباً من الزهور وأنواعاً من الفاكهة والخضراوات، وقد نجد بعضه يحمل آياتاً من الشعر وهذا الشعر أغلبه في مدح الرسول (ص)، أو آياتاً من بردة البوصيري حول الحيطان وفي أطراف السقوف وفي الإيوانات وفي

ولم يكن قصر أسعد باشا العظم وجنيدا في دمشق، بل شيدت قصور أخرى قبل عهده وبعده. إلا أن عدد ما بني في النصف الأول من القرن الثامن عشر، كان أكثر ما بني من القصور في فترة دراستنا هذه. ويمكن تفسير هذه الظاهرة بظروف دمشق الأمنية والاقتصادية السيئة وغياب السلطة وقصر مدة الولاة والحكام في مناصبهم، فلم يفكروا في بناء القصور بل انصب اهتمامهم على جمع الأموال وبأسرع ما يمكن، واخفائها كي لا تصادر أثناء عزلهم.

وأهم القصور في دمشق، التي وصلتنا أخبارها في هذه الفترة وما بعدها هي: قصر والي دمشق عبد الله باشا العظم حيث تولى هذه المنصب أكثر من مرة، لهذا بني قصرا فخماً في الطرف الشمالي من البزورية، وحوى على مقاضير وقاعات شرقية كبيرة وجميلة. وممرات علوية وسفلية وبرك ماء كبيرة وكان مكوناً من ٣٦٠ غرفة^(١) ثم قصر محمد باشا العظم الذي أقامه لصيقاً للمدرسة القجماسية جوار سوق الأروام^(٢) ثم قصر والي دمشق الكنج يوسف باشا الذي أصبح في العهد المصري مقراً للحكومة، ثم قصر أحمد أفندي ديوان أفندي باشا بالقرب من حائط الأحمدي في سوق الأروام. وشيدت قصور لنواب القضاة والمفتين والداftردارين ونقباء الأشراف والاغوات والتجار وغيرهم^(٣). وتوزعت تلك القصور في أحياء دمشق داخل سورها وخارجها. فكان لآل العطار الحسيني قصر في حي القنوات، ولآل العابد قصر في باب الجابية وما زال حتى الآن، ولآل الشمعة والمرادي والعجلاني وغيرهم قصور في حي العمارة. وأقام أغنياء دمشق وخاصتها قصورا في الصالحية للاستجمام، ويمكن تسقط أحوالها في شتات أخبارها الواردة في كتب التراجم واليوميات. فأورد المحبي والمرادي والبديري الخلاق أخبار تلك القصور مبثوثة في صفحات كتبهم، فكان منها قصر محمد أفندي فروخ أحد أمراء الحج الشامي، وكان يقع في طريق المرج الأخضر^(٤). وقصر السيد

القاعات. ونلاحظ السقوف أشكالا هندسية متنوعة وفاخرة وهي آية من آيات الزينة وبها أكبر مجموعة من الأخشاب الثمينة والخشب الذي يكسو الحيطان به زخارف نباتية بألوان زاهية بها خيوط الذهب.

انظر: كيال، منير. المصدر السابق. ص ١٧٤ و ص ١٧٥.

(١) انظر: القساطلي، نعمان. المصدر السابق، ص ٩٦.

(٢) المرادي.. سلك الدرر.. ج ٤، ص ١٠٢.

(٣) البديري، المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٤) المرادي. سلك الدرر ج ٢، ص ٣٨ ثم: القاياتي، محمد، نفحة البشام في رحلة الشام، ص ١٣٧.

يوسف المالكي مفتي المالكية في الجسر الأبيض من الصالحية حيث صرف عليه مالا كثيراً^(١). وقصر أبي البقاء بن عبد الله البفوري الأصل الدمشقي الصالح في الصالحية، وكان من أحسن المنتزهات^(٢). وقصر آل العمادي في الصالحية^(٣). وقصور آل الصديقي وسعيد أفندي الاستانبولية وآل الترجمان وآل سنان في الصالحية^(٤). وبني أحمد جورجي بن أحمد آغا سمان زاده قصرين في الصالحية قدر ثمنهما في سنة ١٢٢٢ هـ / ١٧٩٨ بـ ٣٩٠ قرش^(٥).

ونلاحظ تراخياً في بناء القصور حتى دخول المصريين إلى دمشق في سنة ١٨٣١ م / ١٢٤٦ - ١٢٤٧ هـ، حيث فتحوا دمشق على المؤثرات والبضائع الغربية ووفروا الأمن فيها، وأعلنوا المساواة بين طوائفها ونتج عن ذلك أن دخل بعض الدمشقيين في علاقات تجارية مع الغرب وصرفوا بضائعهم فيها، فجنوا من خلال ذلك مبالغ كبيرة. فأقاموا القصور في دمشق^(٦).

(١) المرادي. سلك الدرر. ج ٤، ص ٢٢٤ وص ٢٤٥ ترجمة يوسف المالكي.

(٢) المهبي، محمد. خلاصة الأثر... ج ١، ص ١١٣.

(٣) المبي، المصدر السابق. ج ١، ص ٣٣٣.

(٤) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥ / ١٢١٠ - ١٢١١ هـ، ١٦١.

(٥) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨ / ١٢١١ - ١٢١٢ هـ، ص ٤٥.

(٦) وأبرزها قصر متري شلهوب الذي بناه سنة ١٨٤٦ م / ١٢٦٢ هـ وكلفه ٢٦ ألف ليرة، ثم قصر أنطون أفندي الشامي، وهو أجمل وأوسع من القصر الأول وبني في نفس العام وأنفق على بنائه ٣٠ ألف ليرة. ثم دار يوسف أفندي عنبر في حي المتكنة لم يكن له نظير في دمشق، كان بناؤه سنة ١٨٦٧ م / ١٢٨٣ هـ. وأنفق عليه ٤٢ ألف ليرة، ثم دار شعاعيا أفندي ودار الخواجة اسلامبولي ودار الخواجة لزبونا (جميعهم من اليهود) ولم تكلف الدار الواحدة أقل من ٢٠ ألف ليرة وأقيمت كلها في الحي اليهودي من دمشق سنة ١٨٦٥ م / ١٢٨١ هـ مما يدل على ثراء هذه الأسر وشعورها بالأمن. ثم دار سعيد الطويل بجوار الأموي ثم دار مراد القوتلي بزقاق العواميد ثم دار حسن آغا البارودي ودار محمد سعيد باشا. انظر: القساطلي. نعمان. المصدر السابق: ص ٩٧.

وبقيت دمشق رغم ما جاءها من مؤثرات، محافظة على نمط بنائها الشرقي حتى مطلع القرن العشرين وعندما زارها محمد علي باشا سنة ١٣٢٨ هـ (وهو أحد أعضاء الأسرة الخديوية في مصر) قال: (كم كنت جديلاً ومسروراً من أن أهل الشام لا يزالون إلى اليوم محافظين على آثار أسلافهم وتاريخ عمائرهم إذ أن أكثرهم ما بقي يسكن البيوت الضيقة ولا سبب لهذا فيما نعلم إلا أن العوائد الأوربية لم تغلب عليهم ولم تل منهم). انظر: كتابه: الرحلة الشامية، ص ٨٢.

بيوت الريف في مقاطعات ولاية الشام

كانت بيوت الريف أكثر حفاظاً على أنماطها الموروثة ، وحافظت على الفروق فيما بينها (من حيث هندستها والمواد المستخدمة في بنائها واتساعها وملحقاتها) بتأثير الاختلافات الطبيعية والمناخية والاجتماعية بين تلك المقاطعات . ونلاحظ تلك الفوارق ما بين الغوطة وجبال القلمون وحوران وجبال لبنان والبقاع وهكذا .

واختلفت بيوت العامة عن بيوت الامراء وشيوخ القرى والاقطاعيين . فامتازت بيوت الأخيرين عن بيوت الفلاحين من حيث فخامتها واتساعها وعدد غرفها . ودلت هذه البيوت على غنى أصحابها ونفوذهم ورغبتهم في إظهار ألبتها والمفاخرة بها مع الآخرين . فكنت ترى أحياناً أرض الديار لها بوابة خاصة فخمة واسعة يحيطها إطار حجري منحوت ومزدانة بالنقوش والزخارف ، تعلوها قنطرة في وسطها بلاطة من رخام أو حجارة صلبة كالبلاليت كما في حوران ، وترى عليها أبياتاً من الشعر تنتهي بتاريخ تشييده ، وعلى جانبها قد ترى رسم أسد رابض قيد بجنزير . وعند أسفل عضادتها مقعدان يجلس على كل منهما حارس لاستقبال أي زائر بما يليق بمقامه ويتناسب مع علاقته بصاحب البيت . وعندما تعبر البوابة إلى الداخل ترى درجاً يؤدي إلى السطح الذي بني عليه طابق علوي تنتقل إليه أسرة البيت . عندما يشتد الحر في الصيف غالباً . وبعد هذا الدرج ترى منزلاً (مضافة) خاصة باستقبال الضيوف أو عابري السبيل ، تليها غرفة القهوة واعداد الاطعمة للضيوفان . ثم ترى غرفة أخرى لاقامة الخدم والحرس وغيرهم من الأجراء والاتباع المعهود اليهم بمختلف المصالح والاعمال . ونسوق مثالا على ذلك ما أورده لحد خاطر عن بيت إقطاعي في جبل لبنان . كان مؤلفاً من أجنحة ثلاثة أمامها قناطر وفسحة دار مفروشة ببلاط محلي حسن النحت تتوسط هذه الفسحة بركة ماء في وسطها فوارة يتعالى الماء منها صعدا وفي جنباتها مقاعد حجرية فرشت بالطراريج والمساند المحشوة قطناً ، يجلس أهل البيت وزائروهم في بعض اللقاءات الخاصة ، ولم يكن ذلك عاماً لدى جميع الاقطاعيين .

وكانت غرف بيت الاقطاعي فسيحة ارتكزت سقوفها على أعمدة وأقواس ، أعدت للإيفاء بمختلف الأغراض . ففيها المطبخ لاعداد الطعام وبيت المؤونة لخزنها ، وزرائب للجياذ والماشية من الغنم والماعز ، ومستودع للعلف والخطب ، وغير ذلك من مستلزمات المعيشة . وكانت غرفه مبيضة بالكلس ، وأبوابها مثبتة ومتقنة ومدهونة بألوان زاهية وبعضها غير مدهون .

ومن الاقطاعيين في لبنان من كانوا يمهّدون مدام دورهم الميادين ليزاولوا ألعاب الفروسية والحركات الحربية، وهو على ظهور الجياد يكرّون ويفرون يهجمون ويواقعون بخفة ورشاقة تعجب المشاهدين. وفي بعض المناسبات، غير العادية، كانوا يستخدمون هذه الميادين لاستقبال الجماهير المتوافدة اليهم في الأفراح والمآتم، أو لعقد الاجتماعات العامة لبحث ما يطرأ عليهم من أحداث خطيرة وشؤون هامة، كالتنحيز إلى ثورة أو حرب أو جباية ضريبة فرضتها الدولة.

وكان بعض الاقطاعيين يحيطون دورهم بمحاذق يزرعونها بأنواع الأشجار المثمرة أو الحراجية أو بالخضار أو الأزهار، ويتخذونها في بعض الأوقات منتزهاً لهم لتخفيف الهموم^(١).

ونلاحظ أن معظم إقطاعي دمشق، وحتى أساتذة القرى، قد سكنوا في المدينة ولم يسكنوا في الريف، ويعود ذلك إلى أن بعض الأقطاعيين في دمشق كانوا (غرباء) عنها، ولم تكن له الزعامة العشائرية الكبيرة كما في جبل لبنان. لهذا فضلوا السكن في دمشق وزاروا تلك الاقطاعات القريبة بين الحين والآخر، أو أوكّلوا أمر إدارتها إلى بعض من يثقون بهم.

أما بيوت الفلاحين فلم تختلف في هندستها عما ورثوه عن الآباء والأجداد في هذا المجال. وجل ما نلاحظه من تغيير، في هذه الفترة التي جفاها الاستقرار والأمن، أن روعي التصاق جدران البيوت ووضع قلد البيتين المتجاورين على جدار مشترك، وفتحت في الجدران الداخلية طاقات لاتصال الأسر عند الخطر. وبني بيت المؤونة داخل البيت يدخل إليه منه. وكذلك وضعت المواشي داخل البيت أحياناً خوفاً عليها من اللصوص والسطو. ونتيجة لالتصاق الاسطحة كنت تستطيع في بعض القرى أن تسير من سطح أول بيت في الحارة إلى آخر سطح فيها دون أن تطأ قدماك أرض الزاروب (الزقاق)، كما اندفعت الأبنية إلى الزوارب فضائق وازدادت تكسراً عما كانت عليه في السابق.

وقام الآباء عندما ضاقت بيوتهم عن استيعاب أبنائهم وأحفادهم، ببناء بيوت مجاورة أو ملاصقة لبيت الأسرة. واستقرت الأسر الكبيرة بكاملها في حارة واحدة من القرية، وأسبغت اسمها على تلك الحارة. كل ذلك ساعد الفلاحين على الدفاع عن أنفسهم عند إحدائق الخطر، وبقيت الأسرة الفلاحية متماسكة إلى أعلى درجات التماسك.

(١) انظر: التقاليد اللبنانية. ج ٢، ص ١٢٢ و ص ١٢٣.

أما فيما يتعلق بمواد البناء المستخدمة في إنشاء بيوت الفلاحين ، فقد اختلفت من قرية إلى أخرى ، وذلك بحسب المتوفر منها في تلك القرى . فكان منها حجر الغشيم أو الحجر الأبيض الصلب كما في القلمون ، أو الحجارة البازلتية في حوران والجولان ، أو اللبن أو الدك في الغوطة والبقاع . وكانت ترفع سقوف البيوت المتسعة على ركائز تكون على شكل أقواس حجرية أو على شكل أعمدة حجرية أو خشبية (الساموك) ، وتستلقي فوق الساموك أو السواميك خشبية قوية وطويلة تصل ما بين الجدار والجدار المقابل (البغلة) وترتكز فوقها أخشاب كثيرة بمسافات معينة وبشكل متصلب معها وتسمى (القلد) ، وتأتي فوقه فروع الأشجار أو القصب أو الخشب مرصوفة إلى جانب بعضها بشكل منسق أو بشكل فوضوي . وتأتي فوقها أعشاب قوية لتحجز ما يلقي فوقها من التراب وغيره . ويكون هذا النبات من (البلان أو الدلفان أو الحصى) ثم يضيفون فوقها طبقة واحدة متساوية من الطين تسمى (البلة) ، وأخيراً يختم السطح بطبقة من الحوار ممتزجة بحصى رقيقة ترص بالمدخلة جراً أو بالناعوص أو الماعوص ويتكرر الدحل يتناسك السطح ويتجمد .

أما جدران البيوت الخارجية فيكشف تطيينها لتقي من بداخلها من الرطوبة والحرارة وتطين جدرانها الداخلية باتقان . واستخدمت في ذلك طرق متباينة اختلفت باختلاف ريف دمشق ، فاستخدم في غوطة دمشق قشر القنب والكلس في حين استخدمت في حوران التربة الحمراء والتبن والحوار وهكذا .

ولقد روعي امتداد السقف إلى خارج الحائط بمقدار معين لمنع جريان مياه الأمطار على الجدران الخارجية . وأطلق على هذه الزوائد اسم (سفارات أو ظفارات)^(١) .

واهتمت مناطق البقاع والقلمون وحوران والغوطة وحتى مدينة دمشق بهذه السفارات ويلاحظ ذلك فيما تبقى من بيوت الشاغور الجواني والجورة ومأذنة الشحم وسوق صاروجا وغيرها من أحياء دمشق القديمة .

وأكثر ما يسترعى انتباهنا في هذه الفترة سكن بعض فلاحى حوران ، حيث قام هؤلاء باستخدام البيوت القديمة في مناطقهم والمبنية من قرون عديدة يعود بعضها إلى عهود سبقت

(١) انظر : خاطر ، لحد . المرجع السابق . ج ٢ ، ص ١٢٤ .

الاسلام وكانت سقوفها مبنية بصفائح (ألواح) من الحجارة البازلتية الصلبة وضعت فوق بعضها بطريقة فنية محكمة بحيث لا تسمح بدخول الماء إلى الداخل كما في بصرى وازرع ومحجة وجاسم وغيرها من (قرى حوران)، وبنيت جدرانها من حجارة البازلت الضخمة فحالت دون اقتحامها من الخصوم وامتنت على اللصوص والبدو، في وقت غابت فيه السلطة العثمانية عن جنوب بلاد الشام تقريباً. أما أبواب البيوت الخارجية فكانت كبيرة تسمح بدخول الجمال محملة إلى ساحة الدار، وكانت أبواب المربعات أو الغرف الداخلية ضيقة يصعب اقتحامها.

ولقد استرعت بيوت حوران الأنفة الذكر انتباه الرحالة الأجانب الذين زاروها في هذه الفترة وقام أحدهم بوصفها بالقول: (يرتكز السقف على قوس حجري بعرض م ٢ - ٣ أقدام في الوسط وعلى الجدران الأربعة للبيت. وكان السقف مكوناً من حجارة هي عبارة عن ألواح حجرية بعرض قدم وبسماكة خمس بوصات وبطول نصف الغرفة (أي من الجدار إلى ظهر القوس) ونهاية الألواح الحجرية تستقر على الحجارة الأخرى جانبياً بحيث تتشابه هذه الحجارة مع بعضها بشكل قوي. وكانت بعض السقوف مكونة من طبقتين من هذه الحجارة بدلاً من طبقة واحدة، الأولى منهما بعد (القوس) حيث نرى فراغاً ما بين كل لوح حجري وآخر، أما الثانية فلها بُعد مماثل وكانت تستلقي قريبة من بعضها على زوايا ألواح الحجارة في الطبقة الأولى. وكان ارتفاع سقف الغرف عن الأرض يتراوح ما بين ٩ - ١٠ أقدام. أما الشبايك والنوافذ فيها فكانت نادرة، وإذا ما وجدت فكانت صغيرة وفوق أسكفة الباب، ووجدت في بعض القرى غرفتان أو ثلاث غرف ذات أقواس واحدة فوق الأخرى على كل غريب لا تراه إلا في القرى والأماكن ذات الطابع الأثري في حوران^(١).

وروعي في بناء البيوت في منطقة القلمون ولبنان انسجامها مع طبيعة المناخ الذي يختلف قليلاً عما هو في حوران وغوطة دمشق. فبالإضافة إلى استخدام الأقواس والاعمدة في حمل السقف، استخدموا جذوع الأشجار الضخمة التي كانت تنبت في تلك الأقاليم، كالقطلب والسنديان، ووضعوا للأسطح مزارباً لتصريف مياه الأمطار، وجعلوا الأسطح مائلة قليلاً لتسهيل مسرى المياه. وصنعوا المزارب من جذوع التوت المجوفة، وكان الفلاحون

1 - See: Burckhardt, J.L. op.cit.57.58.

يتعاونون لجرف الثلوج عن سطوح بيوتهم ، وأدخلوا تصميمًا هندسيًا مناسبًا للتخفيف من تأثير الثلوج والرياح الشديدة في الشتاء، فأقاموا (الكلين) وهو عبارة عن حائط مزدوج لمقاومة الرياح الجنوبية الغربية الشديدة التي كانت تسمى (بالشرد). أما الجداران الباقيان وهما من جهة الشمال والشرق (المسقط) فكانا مفردين. وهذه التصاميم اكتسبت بالخبرة وورثتها الأبناء عن الآباء.

وكانت أبواب البيوت من درفة واحدة صنعت من خشب محلي، ضمت ألواحها إلى بعضها البعض بخوابير خشبية، وله من الوراثة تنوعان أو سباران الواحد من أعلاه والثاني من أسفله. يدور بهما في نقبين متوازيين عند فتحه وغلقه. ومن الجهة المعاكسة وعلى مرمى اليد قفل خشبي يسمى (سكرة) مكون من خشبتين مجوفتين، أولاهما عمودية فيها مسامير تتحرك هبوطاً وارتفاعاً تسمى (سواقيط) والثانية معترضة متحركة فيها أربعة ثقوب تدخل فيها تلك السواقيط بمفتاحها الخشبي عندما يراد قفلها، وترفع به إلى فوق عندما يراد فتحها. وبالإضافة إلى السكرة هناك أيضاً قفل آخر يدعى (النجر) وهو عبارة عن خشبة غالباً ما تكون مربعة على بجانب من الثخانة وفي صدرها حلقة من حديد توضع وراء الباب في ما يقابل السكرة فإذا نامت الأسرة ليلاً أقفلته بجرها إلى الأمام، وإذا ما استيقظت صباحاً فتحته باعادتها إلى حيث كانت.

وأول الولوج إلى البيت يرى ما يسمى بالمجازة، وهي عبارة عن حفرة من الأرض عمقها بين ١٠ — ١٥ ستمتراً وبعرض متر وبطول مترين تقريباً وبعضها ترايبية وبعضها الآخر مبلطة مع إفريزها بحجر ناعم، فيخلع الداخل نعله حسب العادة، ويلج البيت حافياً حفاظاً على نظافته مما يحمل من الوحول شتاءً ومن الغبار أو التراب صيفاً.

وفيما يلي الباب إلى إحدى الجهتين، ترى موضعاً من الخشب لجرتين ودويك وأبريق يملأ ماء للشرب، ويسدون فوهته بكتلة من القماش حفظاً لمائه مما يستكره. وفي بيوت اللاذقية كنت ترى في إحدى الزوايا القصية من البيت، أي بعيداً عما تجلس الأسرة أو تنام، جرنًا خاصاً صنع في جدار البيت بارتفاع متر تقريباً، لوضع وعاء الفخار (دبليز أو جرة) مملوء بماء الشرب، وتحت من أرضية البيت مجازة نافذة إلى الخارج تفضي بفضلات الماء إلى الطاروق فالزاروب.

أما فيما يتعلق بدواجن الفلاح فكان يتم مبيتها على عززال مقام في إحدى زوايا البيت خوفاً من سرقتها أو السطو عليها ، أو في قن ملاصق لجدار البيت من الخارج له فتحة محكمة الإغلاق خوفاً من تسرب الثعالب إلى داخله واقتراس ما به من الدجاج وكانت الدجاجات تبيض القن أو في كوات غير نافذة في الجدار الداخلي للبيت ، صممت خصيصاً لذلك . وتركت فتحة صغيرة في باب البيت لولوج الدجاجات إليه .

أما مواشي الفلاح فوضعت أيضاً في غرف مجاورة لبيته أو داخل البيت في إحدى زواياه تحت العززال الذي يضع فوقه ميساته من المؤونة وحاجاته الأخرى كالبصل اليابس والمكائن والخفيف والقرع وغيرها .

وكنتم ترى أيضاً رفوفاً من الخشب مثبتة على الجدران على ارتفاع قامة الإنسان لتصف عليها الأواني المنزلية كالقدور والمقاليات والطناجر والصحون والملاعق ، أو لوضع أدواته التي يحتاجها في حياته اليومية كالبلطة والقدوم والمنشار والحالوش والأمراس وغيرها^(١) .

ويقتطع الفلاح جزءاً من البيت في جهته الخلفية بمجارين مزدوجين متقابلين قدامهما مشبكات من الطراريح وقصب البزاز مطينا بالدلفان ومطروشا بالحوار على نحو غيرهما من الجدران ، وفي وسطهما باب يصل بين داخل القطع وخارجه ، وإلى يمين الواقف أمام الباب « نوك » تحفظ فيه الفرشات نهاراً ، وله ستر أنيط في أعلاه إلى قضيب من حديد بزرادات معدنية وازدان أسفله بأنواع من الخمرات والتنانف ، وفي داخل هذا القطع أرض تقام عليها دواير مربعة .

لتخزن فيها أنواع الحبوب والدقيق ، ولكل كؤارة منفذ في أعلاه تفرغ فيه المستودعات للحفاظ وفي أسفلها ثقب يدعى « جيازة » له سداة من أقمشة عتيقة تفتح كلما مست الحاجة إلى استخراج شيء من تلاء المستودعات .

أما ما وراء القطع فيدعى المخزن ، وأخص ما يخزن فيه أصناف المؤنة بأنواعها ، والامتعة كالصدور والدسوت والألكان والاسكمالات والصوج والاطباق والجوارش وأجران الكبة

(١) انظر: خاطر ، لحد . المرجع السابق . ج ٢ . ص ١٢٧ و ص ١٢٨ .

والمدقات والصناديق القديمة المزدانة بالنقوش وصواني القش المصنوعة من قش القمح أو الشعير وغيرها^(١).

أما مفروشات البيت فكانت من الحصر والبلس وجلود الأغنام واللباد. وكان أغنياء الفلاحين يزدون على ذلك البسط والسجاد والطراريح والمساند، والبعض يستخدم توطايات (طراحات) وأنطاع.

واستخدم الفلاحون في تدفئتهم طرقاً مختلفة، فمنهم من حفر (نقرة) في وسط البيت، وفوق النقرة (الروزنة) لابتلاع الدخان، ومنهم من استخدم الأثنية تحت الأوجاق، أو أشعل الفحم في الكانون. واستخدم الفلاحون طرقاً ووسائل مختلفة للإضاءة ليلاً، ففقرائهم استخدموا شظايا جذوع اللقش تنحت من جهة واحدة وتشك في ثقوب الجدار المجاور للجهة التي يسهرون فيها ويشعلونها حتى إذا احترقت كلها استبدلوها بغيرها. وكان البعض الآخر يستخدم شظايا جذوع الصنوبر كمناطق جبال اللاذقية حيث توفر مثل هذا النوع من الأشجار في غاباتها. واستخدم بعضهم أسرجة من فخار تدعى (صفيدات) ملأوها بزيت الزيتون ووضعوا فيها ذبالة من قماش مفتول يشعلونها بنار الموقدة أو بعود ثقاب، ويضعونها على رفراف في الجدار أو العمود، أو على مسرجة من خشب تنقل إلى حيث تدعو الحاجة^(٢). ولقد استخدم فقراء دمشق والغوطة زيت بذور المشمش وهو ما كان يسمى بـ (زيت المر) في الإنارة لرخص أسعاره إذا ما قورن بزيت الزيتون. وفي حوران استخدم زيت بذور الخروع. أما الأغنياء فكانوا يستعملون الشموع التي تنصب في شماعات من نحاس أو فضة وتوضع على مائدة من خشب يلائم مكانها مقاعد الجالسين وما حولهم، وكان خارج التينث الريفي في الغالب، عبارة عن فسحة دار معرضة للشمس والهواء انطلق، وفي صدرها مصطبة مرتفعة عن الأرض نخوا من نصف ذراع، تطين أرضها بالدلفان وترفع فوقها خيمة من أغصان الشجر، إن لم يكن هناك عريشة متشابكة الأغصان أو شجرة تظلها من عهد

(١) انظر: خاطر، لحد. المرجع السابق. ج ٢، ص ١٢٨.

(٢) انظر: خاطر، لحد. المرجع السابق. ج ٢، ص ١٣٠. ثم: القاسمي، المصدر السابق. ج ٤، ص ٢٥٦ و

ص ٣٤٣. ثم انظر: Porter, J.L. op.cit. VOL.P.37

ثم ابن كنان. المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية. تحقيق حكمت اسماعيل ص ٤٢. جامعة دمشق سنة ١٩٨٢ م.

طويل ، وتمد عليها الحصر والطراريج والمساند ليجلس عليها أهل المنزل كلما شاءوا الراحة من أتعابهم اليومية ، ولا سيما في القيلولات والسهرات مع من يزورهم من الجيران والأقرباء والأصدقاء . ثم يقيم الفلاح صيرة أو زريبة لماشيته (من بقر أو غنم أو ماعز) وما يكون عنده من بغل أو حمار أو حصان يستخدمها في النقل والحمل ، تكون هذه الصيرة في الجانب الأبعد من البيت مكونة من أربعة جدران مزودة بباب ومعالف وفوقها خيمة من السواميك وأوراق الشجر ، وإلى جانبها مزبلة يجمع فيها الروث ويصنع قسماً منه أطباقاً للقرز ، والقسم الآخر ينقله لتسميد مزروعاته أو يستخدمه وقوداً بعد تجفيفه . وينصب عرزالاً بجانب الصيرة لحراسة ماشيته من الحيوانات المفترسة والابصوص إن لم يتوفر له المكان داخل البيت نظراً لكثرتها .

وكان الفلاح يخص داره بمحاورة من أجل زرعها بالخضراوات والأشجار المثمرة ، وكان الفنائض من نتاجها يوزع على الأصدقاء والأقرباء مجاناً^(١) .

حرمة البيوت وقديستها

أخذ البيت قديسته من حرمة الاسرة التي قديستها جميع الطوائف والمذاهب ، سواء في دمشق أو ريفها ، لأن بين جنباته عرض الانسان وهو أعز ما يملكه كشرقي . والملاحظ في هذه الفترة أنه لم تراع هذه الحرمة بل اعتدي عليها أكثر من مرة رغم استهجان المجتمع الدمشقي لذلك ، خاصة ابان الصراعات بين الأطراف المتناحرة ، كما استباحها رجال السلطة وجنودها^(٢) .

والشواهد على ذلك عديدة فكثيراً ما هاجم الجنود البيوت ودخلوها عنوة واستباحوها واعتدوا على أعراض النساء فيها^(٣) وكتب إخباري تلك الفترة مليئة بمثل هذه الحوادث ، ففي عهد أسعد باشا العظم وفي سنة ١١٦٠ هـ / ١٧٤٨ م قامت قواته بمهاجمة قوات اليرلية في الميدان « فلم يبق فيه مكان إلا ودخلوه وإذن لهم المتسلم بالنهب والسلب من السوق إلى آخر الميدان فنهبوا : وقتلوا وهدموا . فسلبوا الأموال وقتلوا الرجال وسبوا الحرم وفضحوا

(١) انظر : خاطر ، لحد . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٢) انظر : العبد ، حسن آغا ، تاريخه . ص ٧٧ و ص ٩١ .

(٣) انظر : البديري . حوادث دمشق ... ، ص ٧٠ أحداث سنة ١١٥٩ هـ ثم ص ٨٧ .

نساءهم»^(١) وفي نفس العام قامت قوات أسعد باشا العظم بمهاجمة قرى لبنان (فانتكوا أعراض النساء فيها)^(٢) وعندما عزل أسعد باشا العظم وحل محله حسين باشا مكّي وهوجمت قافلة الحج اضطرت الدولة لعزله وتعيين عبد الله باشا الجته جي قاعد العدة لمهاجمة معقل اليرلية في الميدان في سنة ١١٧١هـ / ١٧٥٧م فاضطرت النساء وبعض الرجال لمغادرة حي الميدان قبل أن تقع الكارثة وتهاجمه قوات الوالي ، إدراكاً منهم أن النساء لسن بمأمن من اعتداء الجنود . وعندما زحفت قواته على الميدان « لم يتركوا كبيراً ولا صغيراً إلا قتيلاً أو أسيراً ولم يتركوا بيتاً ولا دكاناً ولا امرأة ولا طفل إلا استعملوا النهب والسبي وهتك الأعراض من سلب النساء وسلب البنات الأبنكار »^(٣) ولقد اعتبرت عملية الاعتداء على البيوت والنساء أشد أنواع الانتقام الذي يمارس ضد الخصم آنذا نظراً لما للأعراض من أهمية بالغة ، فهي شرف الانسان وكرامته .

على أن الاعتداء على البيوت وأعراض النساء لم يجر فقط عند الصدامات بين الأطراف المتناحرة في دمشق ، بل قام الجنود الغرباء دونما سبب بمهاجمة بعض النساء واغتصابهن . ففي سنة ١٢١٤هـ / ١٨٠٠م قام العساكر (بكبس للبيوت ينزلوا على حريم الناس)^(٤) وعندما تزايد عدد الجنود الغرباء في دمشق من المرسلين للتصدي لنابليون بونابرت في مصر ، قام هؤلاء في ١٢١٦ / ١٨٠٢م بالبحث عن أي مأوى لهم في بيوت دمشق ، ولم يراعوا حرمة هذه البيوت « فالدار الذي يجدوا فيها ياخر ينزلوا يربطوا خيلهم طيب غصب »^(٥) .

وعندما انسحبت تلك القوات من دمشق وعاد الصدام بين فئات الجند ، عاودوا عادتهم في اقتحام البيوت والاعتداء على النساء ففي سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٢ - ١٨٠٣م « اشتغل الشريرين العسكر وبين أولاد العمارة وصار من الدالاتية قتل ونهب وسلب وسبي حريم »^(٦) ويذكر العبد في أحداث ١٢١٨هـ / ١٨٠٣ - ١٨٠٤ أن والي دمشق الكنج

(١) انظر : البديري . حوادث دمشق ... ، ص ١١٩ .

(٢) انظر : البديري . حوادث دمشق ... ، ص ٩٩ .

(٣) انظر : البديري ، حوادث دمشق ... ، ص ٢١٤ و ٢١٥ .

(٤) انظر : العبد ، حسن آغا ، تاريخه ، ص ٦٢ .

(٥) انظر : العبد ، حسن آغا ، تاريخه ، ص ٦٩ .

(٦) انظر : العبد ، حسن آغا ، تاريخه ، ص ٧٧ .

يوسف باشا « عمل ركبة بعساكره إلى نحو طرابلس فقام هؤلاء بنهب القرى^(١) ». وفي سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ - ١٨٠٥ م قام جنود والي دمشق أحمد باشا الجزار باحتلال (بيت ترجمان المحكمة وطالعوا حريمه وباعوا جميع ما في البيت)^(٢). والأمثلة على ذلك كثيرة، ويصعب حصرها في هذا المجال. فالبيوت لم تبصن حرمتها ولم تحمها القوانين، واستطاع الأقوياء أن يتحدوا ذلك. وكانت السلطة من الضعف بحيث لم تستطع أن توفر الحماية لتلك البيوت، أو أن رجالها هم أنفسهم الذين قاموا بذلك في حالات الصدام مع الأطراف الأخرى التي ناصبتهم العدا، فانتقموا منها باقتحام بيوتها وهتك أعراضها.

حياة الأسرة الدمشقية ونشاطها داخل البيت

إن معلوماتنا عن معيشة الأسرة الدمشقية داخل بيتها في هذه الفترة ناقصة إلى حد ما. فقد أغفلت معظم المصادر حياة أسر العامة، وانصب اهتمامها على تصوير بعض الجوانب من حياة أسر الخاصة. لهذا جاءت معلوماتنا مبتسرة، ويعود ذلك إلى أن من اهتم بتصوير هذا الجانب من الحياة الاجتماعية في دمشق كان من الرحالة الأوروبيين، أو العرب أو المسلمين، الذين زاروا دمشق لفترة من الزمن. وإذا ما علمنا أن بعض أسر الخاصة هي التي استضافت مثل هؤلاء داخل بيوتها، وتم ذلك في جناح السلامك دون بقية الأجنحة، لذلك فإن أحداً من الرحالة لم يستطع وصف حياة الأسرة كاملة. ناهيك عن نظرة الحذر والريبة في الرحالة الأوروبيين في وقت ساد التعصب وهيمن على عقل وقلوب الناس. وشذ عن هذه القاعدة استقبال بعض الأسر المسيحية واليهودية لبعض الرحالة. وكتب هؤلاء عن مشاهداتهم. وقام رحالة من العرب والمسلمين الذين زاروا دمشق، بوصف عملية استضافتهم في بيوت أسر الخاصة في دمشق. ولعب الاحتجاب دوراً في عدم الاطلاع بطبيعة الحياة داخل البيت كله. ورغم هذه العقبات فقد سعينا لتتبع نثار هذه المعلومات من بطون الكتب المختلفة سعياً منا لرسم صورة مقبولة عن حياة أسر الخاصة والعامة، في المدينة والريف. لهذا رصدنا نشاطاتها الحياتية المختلفة داخل البيت، كالنوم والاستيقاظ واستقبال الضيوف من الجنسين، ونشاط أفراد الأسرة داخل البيت وخارجه، ووجبات طعامها وحجاب النساء،

(١) انظر: العبد، حسن آغا، تاريخه، ص ٨٧.

(٢) انظر: العبد، حسن آغا، تاريخه، ص ١٠٧.

وعلاقة أفراد الأسرة بعضهم ببعض، وتسليتهم وغير ذلك من الأمور الحياتية اليومية في تلك الفترة، والمؤثرات العثمانية على ذلك.

ففيما يتعلق بالاستيقاظ كان يختلف ما بين أسر العامة والخاصة. فالفقراء كانوا يستيقظون باكراً بحثاً عن الرزق في حين كان المترفون يستيقظون مع شروق الشمس أو بعده بقليل، فيحتسون القهوة ويدخنون الغليون، وبعد ساعة من ذلك يتناولون وجبة الافطار، وغالباً ما تكون من «الخبز والعسل والدبس أو الفواكه واللبن والجبن أو البيض والكعك المجبول بالزبدة»^(١)، وغيرها كل حسب اقتداره المادي. وبعد تناول وجبة الافطار يسعون إلى أعمالهم ولا يعودون إلى الفراش خلال النهار، إلا قلة منهم، وهؤلاء يستلقون على الفراش لمدة ساعة في جناح الحرملك بعد تناول وجبة الغذاء. ولا يعودون مرة أخرى إلى فراشهم إلا بعد ٣ - ٤ ساعات بعد ذلك. وكان الحرفيون والتجار يتناولون وجبات غذائهم في دكاكينهم ومحارفيهم، أو في غرفهم الخاصة من الخانات التجارية. ويجلبون وجبة الغذاء من بيوتهم أو يشترونها من السوق كالحبز والجبنة والفاكهة أو اللحم المشوي (الكياب). وكانت وجبة العشاء في اليوم هي الوجبة الرئيسية، يتناولونها ما بين الساعة الخامسة والسادسة مساءً، وبعدها قد يذهب البعض إلى أحد بيوت القهوة للتسلية، ويقفون هناك إلى صلاة العشاء، ثم يأوون إلى بيوتهم، أو يقومون بزيارة الأقرباء والأصدقاء ونادراً ما يرى أحدهم خارج بيته بعد العاشرة مساءً.

وكان التنقل خارج البيت يتم سيراً على الأقدام أو ركوباً على الحمير لارتداد الأماكن القريبة، وكانت الخاصة تستخدم العربات أو الخيول، وقد يرافق الواحد منهم اثنان إلى أربعة من الخدم والعبيد سيراً إلى جانبه لحمايته والسهر على راحته. ويورد لنا البديري الحلاق مثلاً على ذلك في أحداث عام ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ - ١٧٤٧ م أن القاضي كان يمتطي ظهر الحصان عند التنقل من مكان لآخر وأمامه رجاله وأعوانه^(٢).

ولقد اهتم هؤلاء بتلك المظاهر لما لها من أهمية لدى الناس آنذاك، فزينوا سروج الخيول (ورخوتها) واستطالت دلايات السروج الموشاة والمطرزة إلى الأرض. وكتبوا بعض العبارات

1 - See: Russell. op.cit. VOL. PP.166-167.

(٢) انظر: البديري، حوادث دمشق، ص ٥٦ و ص ٥٧.

على البردعة إضافة إلى اسرافهم في تزيينها ، حتى غدت كتلة من الفضة أو كادت . ووضعوا السيف على الجانب الايسر من الحصان ، واهتموا بتنزيل حروف الآيات القرآنية من المعادن الثمينة على نصال السيوف (كالذهب وغيره) ، ووضعوا الدبوس من الجانب الايمن لجسم الحصان ، حتى بدأ رأسه مثقلا بالفضة أو الذهب .

وكان الرجل عند عودته إلى البيت يترجل عند الباب الخارجي ليأخذ حصانه أحد خدمه ، ويسير إلى باب الجناح فينزح حذاءه عند العتبة ، فيتناول منه خادماً آخر ويقدم بديلاً عنه باهوجاً خاصاً ملفوفاً بقطعة قماشية ليلبسه فوق الشخصور ، وينتقل به إلى الداخل ، وكانت العادة أن يخلع المرء حذاءه عند عتبة باب القاعة أو المربع ويسير حافياً أو بالشخصور إلى الداخل .

ومن جهة أخرى لم تظهر النساء في الشوارع بعد غياب الشمس ، وكن يمتنعن عن التجول عندما يحتل حبل الأمن لسبب ما ، أو عندما يتدفق إلى دمشق الجنود الغرباء خوفاً من الاعتداء عليهن . وكانت سلطات دمشق ، في مثل هذه الحالات ، ترسل منادياً في الشوارع والأسواق لتنبيه النساء بعدم الخروج ، كما حصل في سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨ - ١٧٩٩م حيث دخل إلى دمشق آلاف الجنود العثمانيين في طريقهم إلى فلسطين لمواجهة قوات نابليون « فنادى حاكم الوقت على النسوان أن لا تطلع من بيوتها لأجل الفهساد من كثرة الخلق والغربة هلي في الشام »^(١) .

وكانت المرأة إذا ما رغبّت في زيارة الأخريات ، تقوم بذلك في ضوء النهار ، على أن تعود إلى بيتها قبل غروب الشمس ، وإذا ما شعرت بأنها ستتأخر في العودة إلى بيتها بعد ذلك ، تبات عند مضيفتها إلى اليوم التالي . ويقوم رجال الأسرة المضيضة في مثل هذه الحالة باخلاء غرفة الضيوف أو الحرملك ليناموا في غرفة أخرى أو في السلاملك .

أما الفرشات فكانت محشوة بالصوف ، وتما على أرضية الغرفة قبل النوم ، وترفع بعد الاستيقاظ لتوضع في (اليوك) المخصص لها . ولقد تعددت « اليوكات » في البيوت الكبيرة حتى وصلت إلى عشر يوكات في بعض الأحيان .

1 - See: Russell .op.cit. VOL.1.PP.173-177.

ولقد اختلفت عادة الايواء إلى الفراش بين فئة وآخري . وكانت العادة أن يخفف المرء من ثيابه قبل النوم . فيبقى على الصدرية والسراويل والتربان أو (العرقية) على الرأس ، في حين كان البعض الآخر ينام بكامل ثيابه ، كأبناء العامة والفلاحين .

ومن كان مغرمًا بالتدخين يشعل غليونه (الجوبوق) وهو مستلق على فراشه يعب من أنفاسه حتى يدب النعاس في أجفانه ، فيلقي بالغليون إلى جانب فراشه ليذهب في سبات عميق . فتقوم الزوجة أو الجارية بتغطيته باللحاف وتبعد الغليون عن الفراش . وإذا جفى الكرى أجفانه يلجأ إلى زوجته أو إحدى جواريه لتسليته سواء بالأحاديث ، أو بالعزف على إحدى الآلات التي تجيدها أو بالغناء ، ويتناول خلال ذلك جرعات من القهوة وأنفاساً من التبغ^(١) .

ونظراً لاختلاف درجات الحرارة بين الليل والنهار والصيف والشتاء ، اتبع الدمشقيون سبلاً لاتقاء البرد ولافح الحرارة . فناموا في الشتاء في الغرف المعزولة والواطئة من البيت ، واستخدموا النار للتدفئة في الكوانين والطباخات . وكان الوقود الرئيس المستخدم في ذلك ، الفحم الخشبي ، مما تسبب في بعض الأحيان بحوادث الاختناق . أما في حلب فكانت حرارة الصيف شديدة مما اضطر السكان فيها للنوم على أسطح المنازل أو في خيام نصبوها في ساحات البيوت خاصة لهذا الغرض ، أو ناموا في الايوانات^(٢) ، ومصادر تاريخ دمشق التي بين أيدينا لا تذكر أن مثل ذلك كان يحصل لسكان دمشق رغم أن مناخ دمشق مشابه لمناخ حلب . وربما لعبت نوافير المياه المتدفقة في بحرات البيوت دوراً في تلطيف الجو صيفاً . واستخدم الدمشقيون الغرف العلوية والقصور من بيوتهم ، وكذلك القصور التي بنيت في الصالحية وغيرها للاصطياف. لهذه الغاية . فقد بني عدد كبير منها على ضفاف الانهار والجداول وبين الأرياض .

وأشرف على راحة الخاصة في بيوتهم الخدم والجواري والاماء والعبيد ولقد أوكل أمر الخدمة للخصيان في جناح الحرملك . وكلف الخدم بمهام عديدة كأعمال النظافة المختلفة ونقل الأخبار والرسائل ، وجلب مواد الطعام والطبخ من الأسواق واعدادها . وكان ذلك يتم بإيعاز واشراف « الخاتم » رئيسة البيت أو تحت اشراف من ينوب منابها . ويقومون بتوزيع

1 - See: Russell. op.cit. VOL.1.PP.144.145.176.

2 - Ibid VOL.1.P.146.

الطعام على الغرف والمخادع والمربعات بحسب توزع أفراد الأسرة الكبيرة وضيوفها . وفي حال تعدد الزوجات عند رب الأسرة يخصص جارية لكل واحدة منهن . وقد تهدي العروس جارية من أهلها عند زفافها لعريسها .

وكان الرجال يتناولون في الغالب طعامهم منفصلين عن النساء والأطفال في حين كان العامة يتناولون وجبات الطعام مع أسرهم^(١) .

وكانت العادة أن توضع أطباق الطعام على قماش دائري ، يسط في وسط القاعة فوق السجاد أو البسط ، أو توضع الأطباق فوق صدر من النحاس^(٢) ، أو فوق طاولة قصيرة القوائم بارتفاع ١٥ بوصة من الأرض يطلق عليها (اسكملة) . وتكون الأطباق (الصحنون) من الصيني أو الفضة لدى الأغنياء أو النحاس المطلي بالقصدير وهي الغالبة ، لدى العامة . وتحتوي الأطباق على أصناف متنوعة من الطعام كالبقول والسلطات ولحم (الريستو) واللبن والكعك الأبيض والخبز . أما الملاعق فكانت مصنوعة من الخشب (الخشوقة) وهي مكورة كترس السلحفاة الأجوف . ولم يستخدموا الشوك والسكاكين في تناول الطعام كما في الغرب .

وتعددت أصناف الأباريق التي ملئت بالماء ووضعت إلى جانب المائدة . فكانت لدى الأغنياء والخاصة مصنوعة من الفضة في حين كانت لدى العامة من النحاس أو الفخار . وقامت الأسرة بتحضير (طست) إلى جانب المائدة لغسل الأيدي إذا ما استضافها أحد .

وكانت العادة ، قبل التحلق حول المائدة لتناول الطعام ، القيام بنزع بعض الثياب الخارجية ذات الأكم العريضة التي تعيقهم عند تناول الطعام مثل (الفروة والعباءة) . وكانوا يجلسون جاثين على ركبهم وكواحلهم أو يجلسون فوق فرشاة ومخدات توضع حول المائدة لهذا الغرض .

وتأتي صحاف الأكل مغطاة في بعض الأحيان ، وتباعاً ، إلى المائدة ، وقد تصل في بعض الولائم ولدى الأغنياء إلى ٣٠ طبقاً . وغالباً ما يكون الصحن الأول من الحساء

(١) انظر الداغستاني ، كاظم . البيت الشامي الكبير ، ص ١١٤ .

(٢) يذكر عبد الرحمن سامي بك . أن الصدر كان مصنوعاً من النحاس الأصفر غالباً وقطره ١٥ ر ١٠ متراً يوضع على كرسي (قاعدة) يرتفع عن الأرض بمقدار نصف ذراع وتوضع عليه صحاف الطعام وقد تستخدم الأسرة صدراً آخر إلى جانبه لقطع الحلوى والفواكه . وإذا كان المضيف من أبناء اليهود فتجلس الرجال مع النساء إلى مائدة واحدة في حين لم يحدث ذلك لدى الأسر الإسلامية لداعي الاحتجاب .

انظر : القول الحق في بيروت ودمشق ، ص ٨٦ و ص ٨٧ .

(الشورية) أما الصحن الأخير فمن الأرز أو اللحم والتوابل ، وما بينهما أنواع عديدة من المأكولات . وكانوا مغرمين بأكل لحم الضأن (الغنم) مشوياً (كباباً أو قطعاً) أو مطبوخاً بطرق عديدة، سواء مع الخضروات أو البقول أو مع العجين (كالكوزي ولحمة بعجين والقطاير والبرك) الخ...

ولقد تسربت بعض المأكولات التركية إلى المطبخ الشامي في هذه الفترة (كالضولة والبالوزة والدندمة والكنافة الاسلامبولية والبغاجة وداؤود باشا واليبرق واليالنجي والضرمة شكروبيلاف الأرز المطبوخ مع اللحم المفروم^(١) ، هذا ناهيك عن تسرب أطباق أخرى تعود في أصولها إلى غير الاتراك، مثل المأكولات الفارسية والهندية والكردية والمغربية، دخلت إلى المطبخ الدمشقي بتأثير أبنائها الذين اختلطوا في المجتمع الدمشقي لسبب أو لآخر في هذه الفترة، واستضافت الهيئة الحاكمة في أكثر من مناسبة، عناصر تركية هامة فحاولت أن ترضي أذواقها فأدخلت إلى مطبخها تلك المأكولات .

فلا غرابة إذا ما أصبح المطبخ الدمشقي مطبخاً للمأكولات الشرقية والغربية على حد سواء فيما بعد . وأسهمت الغوطة في تقديم ما تحتاجه دمشق من الخضار والفواكه، والاعشاب والبقول المختلفة . ولقد ذكر ابن كنان (١٠٧٤ - ١١٥٣ هـ / ١٦٦٣ - ١٧٤٠ م عديداً منها « كالخس والأسفاناج والهندبا والرجلة والبقلة الحمقاء والمباركة واللينة واليمانية التي كانت تسمى بالجرموز وكانت تؤكل هي والغلف بالخل والزيت ، ثم بقلة الروم والسلق والكرنب والحماض البري الذي يؤكل أصله ، وفرعه وكان ينبت لنفسه في الآجام والمياه العائحة . وكذلك الخضروات المختلفة واليقول والترخون والقنبيط (الكرنب الشامي) ، وكان منه نوعان الصنوبري المكتنز والمفرق ويؤكل باللحم والسمن والخل والمرى والبصل والثوم والكرات والرزيانج الرومي والكحون الحلو وهو البسباس الشامي والكزبرة^(٢) ، ومن البقول الحمص والفل والعدس والذرة والجلبان والكرسنة والبسلة ثم الزيتون بأنواعه المختلفة^(٣) ، كما أنتجت الكوسا والباذنجان . ثم أدخلت زراعة البندورة « الطماطم » في هذه الفترة إلى دمشق والتي جاءت من أمريكا .

(١) القاسمي، جمال الدين . مسودة كتابه . تعطير الشام بمآثر دمشق الشام، وهي خالية من الترقيم .

(٢) انظر : المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية . ص ٣٤٦ و ص ٣٤٧ و ص ٣٤٨ و ص ٣٤٩ و ص ٣٥٠ .

(٣) انظر : ابن كنان . المصدر السابق . ص ٣٥٩ و ص ٣٦٠ و ص ٣٦١ .

ووردت تسميات لخضار رومية كثيرة في هذه الفترة ربما قام العثمانيون بادخال زراعتها إلى غوطة دمشق، وقام المصريون بادخال زراعة القطن والنباتات الغذائية مثل البطاطس وبعض أنواع من العنب والقصب وغيرها^(١) وأدخلوا بعض أنواع من الأغنام الاسبانية والكرتية إلى بلاد الشام^(٢)

ونتيجة لفائض انتاج الغوطة من الخضراوات والفواكه والاعشاب والبقول وغيرها في فصل الربيع والصيف لجأ الدماشقة إلى حفظ بعضها إلى فصل الشتاء بطريقة التجفيف أو التخليل والمكاسيد أو المربيات . فعملوا الكشك من البرغل واللبن في فصل الربيع والصيف ، كما حفظوا اللحم (خاصة الاسر الفقيرة) بطريقة التقديد أو القاورما .. مؤونة للشتاء ، وكانت عناية الدمشقيين بالكشك أقل من عناية أهل الريف به ، فالدمشقيون يطبخونه باللحم والسمن ويصنعون منه الشورية . وكانوا يطبخون الكشكة الخضراء وهي طرية قبل تجفيفها ، وكانوا يضيفون اليها الجوز ومفروم البصل والبقدونس والزيتون والزيت . أما الفقراء منهم فيطبخونها بالزيت ومفروم البصل . وكان الكشك لدى الفلاحين من أهم أنواع المؤونة يدخرون منه كثيراً ، وهو غالب في الشتاء في طعامهم^(٣) .

وبقيت المأكولات الاوربية بعيدة عن المطبخ الدمشقي طيلة هذه الفترة على ما يبدو ، إلا ما جاء منها عن طريق استانبول ، أو عندما انفتحت دمشق على المؤثرات الغربية ، فأقام فيها قناصل وتجار وجاليات ، سربت عاداتها ومأكولاتها الى المجتمع الدمشقي مع الزمن .

وكان الخبز عنصراً أساسياً في كل وجبة من وجبات الدماشقة ، وكان أصنافاً : كالحواري^(٤) والخسكار والمغسول^(٥) والسميد والمغربي والطابوني^(٦) والملة^(٧) والقطايف

(١) ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا . ص ١٠٣ .

(٢) ذكرى البطل الفاتح . ص ١٠٤ .

(٣) القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات . ج ٢ ، ص ١٨٨ .

(٤) الحواري : هو المصنوع من لباب الخنطة المغسولة . انظر : ابن كنان . المصدر السابق . ص ٣٥٧

(٥) المغسول : ما يصنع من لباب الخبز اليابس ينقع في الماء الحار ثم ينقى ويوضع عليه الماء (غمره) حتى يبلغ غاية النفاخة . ابن كنان . المصدر السابق . ص ٣٥٧ .

(٦) الطابوني : كالتنور اللطيف مدفون في الأرض حتى لا يبقى إلا أقله ثم يجعل في أرضه الحصى ويجعل عليه طبق

(٧) حديد وفوق الطبق زبل أضمرت فيه النار ويجعل العجين على تلك الحصى ثم يمد الطبق حتى ينضج .

المخبوز على الزبل .

والمطبوخ^(١). وما يعمل من غير الخنطة فكثير ، وأجود الدقيق بالرحا المائية فانه خير من البهائي. ثم خبز المطابق^(٢) وخبز الأباريز ويسمى القرصة وصورته عجينة بسيرج وسمسم ، ثم خبز الحكماء المخلوط بالثوم وهو صحي . ومن يأكله يعمر طويلاً ، ثم البقسماط (وهو نوع من خبز الطوارئ) والسفر لمقاومته لعوامل الطبيعة ، ثم خبز الشعير وأجوده الحديث الأبيض وغذاؤه أقل من القمح ، ومنه نوع يسمى السلت ويعمل منه كشك له نفع . ويبدو أن تعدد أنواع الخبز يدل على تعدد الأذواق بتعدد أبناء القوميات المختلفة في دمشق آنئذ . ومما يسترعي انتباهنا من أنواع الخبز الخسكار والبقسماط والاباريز والمغربي وهي كما نرى ترتبط بأصول تركية وفارسية أو مغربية .

ومن جهة أخرى كانت العامة تثور لارتفاع اسعار المواد الغذائية في دمشق لسببين أولهما : لأن الخاصة ، كالبقضاء والولاة وغيرهم ، لم يقوموا بمهام الاحتساب ومكافحة الاحتكار ومراقبة الاسعار ، وثانيهما لأن الخاصة نفسها كانت تحتكر المواد الغذائية أو تتغافل عن المحتكرين . ونادراً ما تخلو صفحات كتب اليوميات والإخباريين في هذه الفترة من أخبار هذه الظاهرة وغضب العامة بسببها . فالبديري الحلاق يذكر في أحداث ١١٥٦هـ / ١٧٤٣م — ١٧٤٤م « أن الخبز لا يوجد والحكام يمزنون وأهل البلد يفعلون كفعلهم وإلى الله المصير »^(٣) ويذكر في موضع آخر من نفس العام أن العامة في دمشق قد « هجمت على المحكمة وطردها القاضي ونهبوا الأفران وسبب ذلك كثرة الغلاء والازدحام على الأفران . وقلة التفتيش على صاحب القمح والطحان والخزان »^(٤) .

والإخباري الثاني حسن آغا العبد اهتم بأسعار المواد الغذائية وعلى رأسها القمح والشعير ، المادتان الرئيستان في غذاء الشعب ، فيذكر في أحداث ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م ١٨٠٤م « أن الخنطة كانت موجودة وثمنها ستون قرشاً والشعير بأربعين في أوائل السنة ومن

(١) المطبوخ : يؤخذ قدر من الحديد يجعل به العجين وهو لين جداً ويوضع القدر في التنور بنار هادئة حتى ينضج ويخرج أحسن من خبز الفرن وأخف من الملة وأحسن من التنور والمطابق .

(٢) المطابق : خبز يابس يوافق ذوي الكد والتعب وأجوده المتخمر العجين . انظر ابن كنان . المصدر السابق . ص ٣٥٩ وص ٣٦٠ وص ٣٦١ .

(٣) المصدر السابق : ص ٣٨ .

(٤) المصدر السابق . ص ٤١ .

الظلم صار القمح ماله وجود وكان من يبيع بثمانين وبثمانين قرشاً صاغ ماله وجود»^(١).

المرأة الدمشقية

شكلت المرأة نصف المجتمع فكان من الحق أن نوليها اهتمامنا بالدراسة ، رغم أن مجتمع دمشق لم يولها الاهتمام المطلوب في هذه الفترة ، فلم تكن نظرتها اليها كنظرته إلى الرجل . وزاد في التضييق عليها في مختلف مجالات الحياة ، مما أدى إلى مسخها فكرياً وعقلياً .

وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على من تقوم بتربيتهم . ومجد مجتمع دمشق الذكر وفضله على الانثى . ولم ينظر اليها أكثر من نظرتها إلى الجارية في أغلب الأحيان . ويقول البديري في أحداث سنة ١١٥٥ هـ / ١٧٤٣ م « جاءتنا جارية مباركة كنا قد اشترينا لنا منزلاً جديداً في محلة التعديل »^(٢) وكنا في ضيق فقلنا لعل بقدمها يحصل لنا الفتح الفاتحة فسميناها صالحة جعلها الله فالحة . »

وكانت معاملتها السيئة تلك تتنافى كلياً مع ما حض عليه الدين ومع ما ورد في القرآن والسنة . إلا أن واقع الأمر كان كذلك ، ولاحظه الرحالة الغرباء عندما زاروا دمشق في تلك الفترة . وتحاشى الدمشقيون ذكر المرأة في مجالسهم وحتى أمام أصدقائهم . لاعتقادهم بأن ذلك يمس بالشرف . وإذا ما صادف وجود امرأة ورجل في مجلس واحد فتادراً ما تشارك المرأة في الحديث . وإذا ما تكلم الرجل كان على المرأة أن تصمت احتراماً منها للرجل . وشعور منها بنقصها . وكان ذلك عاماً لدى الاسر الاسلامية واليهودية والمسيحية في دمشق وعلى حد سواء^(٣)

ولم يكن واقع المرأة في مجتمع دمشق بعيداً عن المؤثرات العثمانية بطريقة أو أخرى .

(١) انظر : تاريخ حسن آغا العبد . ص ٥٧ وص ٩٦ . كما أورد أخبار الغلاء في أحداث ١٢١٤ هـ و ١٢٢٥ هـ و ١٢٣٠ هـ / ١٨٠٠ - ١٨١١ - ١٨١٥ - ١٨١٥ م و ربط ذلك بطريقة غير مباشرة بأسباب مختلفة . داخلية وخارجية . انظر : تاريخه . ص ١٤٩ وص ١٥٨ .

(٢) التعديل جزء من حي القنوت في دمشق ما زال قائماً حتى الآن .

(٣) حوادث دمشق اليومية . ص ١٨ .

فمن التقاليد التي أدخلوها إلى مجتمع دمشق في هذا المجال ، والتي تعتبر مهانة للمرأة ، تقبيلها ليد زوجها عند لقائهما بعد غياب أو في كل صباح ، تعبيراً عن الاحترام والطاعة . وكان ذلك من التقاليد التركية القديمة ^(١) . وفي الحقيقة لم تكن هذه الظاهرة سوى إشعار للمرأة بدونيتها .

وقامت الأسر الأرستقراطية والغنية بتلقين بناتها ألفاظ الاحترام للرجل أثناء مخاطبته ، ولو كان الرجل المخاطب (زوجها) ، كأن تخاطبه (ياباشا — أو يابك أو يا أفندي أو يا آغا) وهكذا ، واعتبرت كل واحدة لا تتقيد بمثل هذه الألفاظ أثناء مخاطبة على أنها سيئة الأدب ^(٢) .

أما الرجال فلم يراعوا مشاعر زوجاتهم بلجوئهم إلى الزواج أكثر من مرة ، وبالتسري بالجواري والإماء واستيلادهن . ولم يسمح للمرأة أن تبدي رأيها في ذلك . ولقد وصل عدد الزوجات والسراري لدى بعض الخاصة في بعض الأحيان إلى عشرات النساء . ونسوق مثلاً على ذلك متولي أوقاف السلیمانية آنخذ في دمشق سليمان آغا بن عبد الله العجمي « كان لديه أربع زوجات وكان يتسرى بعدد كبير بمن ملكه من الجواري والإماء » ^(٣) .

ولجأت الأسر الغنية إلى أسلوب آخر إمعاناً في احتقار مشاعر بناتهن ، فرفضت تلك الأسر في غالب الأحيان من تقدم من الرجال لخطبة بناتهن ، مما أدى إلى تزايد عدد العانسات لديها . وكانت تلك الأسر تهدف من وراء ذلك حفظ نصيب بناتهن من الإرث بيد الأخوة . وكلفت العانسات بتربية اخوته وأخواتهن الصغيرات ، ومن ثم تربية أبناء الأخوة بعد زواجهم ^(٤) . وفي أحسن الحالات فرض عليهن زواج من الأقرباء لحفظ الثروة في الأسرة . وهكذا حرمت المرأة من إبداء رأيها في انتقاء شريك حياتها ، وكان ذلك من حق الوالدين والأخوة . وإذا ما أظهرت رأيها اعتبر ذلك مانساً بشرفها ^(٥) ، وزوجت الفتيات في سن مبكر ودون سن البلوغ ، بحيث لم تقو على إبداء رأيها مما تسبب ذلك في تزايد حوادث الطلاق في مجتمع دمشق .

(١) انظر : الداغستاني ، كاظم . المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٢) الداغستاني : المصدر السابق . ص ١٢٨ .

(٣) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٠١ / ١١٩٠ - ١١٩٢ هـ . ص ٢ .

(٤) الداغستاني : المصدر السابق . ص ٨٤ و ص ١٠٢ .

(٥) الداغستاني : المصدر السابق . ص ١٠٧ .

أما فيما يتعلق بتعليم المرأة فكان نادراً وفي حدود ضيقة. وأوكل أمر هذه المهمة إلى امرأة أطلق عليها «الخجة» أو قامت الاسرة بذلك. ولهذا لم تبرز من نساء دمشق في مجال العلم أية امرأة، كما لم يقدّم كتاب التراجم بالترجمة للنساء اللهم إلا لاثنتين ورد ذكرهما في كتاب (سلك الدرر.. للمرادي) وواحدة في كتاب (حلية البشر...) للشيخ عبد الرزاق بيطار وهي زوجته، ولم تر أسر دمشق ضرورة في تعليم المرأة^(١).

واعتبر سلوك المرأة سبب بلایا دمشق، فإذا انتشر الطاعون أو الجراد، أو ارتفعت الاسعار أو ضربت الزلازل دمشق أو شحت السماء أو ساد القحط، كان ذلك بسبب تبرج المرأة وخروجها إلى المنتزهات على ضفاف بردی^(٢) حسب زعمهم.

ولهذا احتجزت الاسر الارستقراطية نساءها في بيوتها الكبيرة، وقام رب الأسرة بتأمين معيشتهم داخلها، وتُخصّص لهن جناح خاص (الحرملة)، وكان أشبه بمجتمع نسائي كامل، يمارسن نشاطهن ضمنه، ومنعن من الخروج حتى إلى المساجد أو لمشاهدة المراكب المختلفة، وتسقطن أخبارها من الخدم وبعض النساء، ولبسن الإزار وتعذر عليهن مقابلة النساء إلا قلة ممن أتین لزيارتهم. فأسدل عليهن حجاب كثيف دون المجتمع، وترتب على ذلك عواقب وخيمة، وأصبحن أسيرات أفكار التخلف السائدة، وانغمسن في ممارسات خرافية، وسعين للاستئثار بالزوج، ووصلن في ذلك إلى درجة الإذلال. وسلط عليهن تعدد الزوجات، ولم تستطع الواحدة منهن ابداء الرأي إلا من خلال أولادها^(٣). فلا غرابة إذا ما أصبحن موطناً للعادات المستقبة وأصبحت الواحدة منهن رقماً في حشد الحريم.

وكانت المعاشرة الزوجية وفقاً على الزوجات الجميلات والجواري صغيرات السن. وإذا ما رغب أحد الرجال بالزواج، يختار صغيرة السن من الفتيات طلباً للمتعة الجسدية^(٤). خاصة إذا ما كان لديه أولاد.

ولقد أسرف بعض الرجال في هذا المجال حتى أرى عدد زوجاته بين من هي على

(١) الداغستاني: المصدر السابق. ص ٤٨.

(٢) الداغستاني: المصدر السابق. ص ٥٢ وص ٥٣ وص ٥٤.

(٣) المرادي: سلك الدرر.. ج ١، ص ٢٦٤.

4 - See: Russell .A. op.cit.VOL.I.PP.276.277.

العصمة أو مطلقة على العشرين امرأة . ويورد لنا المرادي مثلاً على ذلك مصطفى الكيلاني الذي تزوج باثنتين وعشرين زوجة ببلده وسياحته ، ورزق بعدة بنين ماتوا في حياته ما عدا ذكرين وبنت واحدة^(١) .

وعرف ريف دمشق تعدد الزوجات آنئذ ، خاصة لدى أصحاب الدخول المتوسطة ، طلباً للذرية كيد عاملة في الأرض وللزود عن حياض الأسرة أو العشيرة حين اليأس ، وكان الفرد يبحث عن زوجة عندما تزداد ثروته ، وانصب الاهتمام على صغيرة السن أو الولود . وخص الرجل كل زوجة من زوجاته بغرفة من بيته . وكانت (الضررات) يتخاطبن بكلمة (أختي) إلا أن ذلك لم ينف نشوء المشادات بينهن^(٢) بين حين وآخر ، أما السرية (الضرة) من الجوّاري فكانت تخاطب الزوجة الحرة بسيدتي^(٣) .

وكان التنافس بين نساء الأسرة أكثر مما لدى رجالها ، وشمل ذلك الكنات (أو الكنائن) والحماة والزوجات ، وأجج الانجباب والجمال وتفضيل الزوج لاحداهن ، نار الغيرة والتنافس بينهن ، وإذا خبا أواره يبقى ناراً تحت الرماد لا يلبث أن يستعر . وتنتقل البغضاء إلى أبنائهن وإلى الأزواج ، إلا أن سلطة الأب القوية كانت تكبت هذه المشاعر في أغلب الأحيان وتمنعها من الظهور . وكانت الكنائن في بعض الأحيان يتفقن فيما بينهن ضد الحماة . وتستخدم الحماة طرقاً مختلفة لذر بذور الفرقة بين الكنات ، وتلجأ إلى أبنائها لتأديب كنائنها «زوجاتهم» . وكانت العادة لدى الأسر الأرستقراطية في دمشق أن تبقى خلافاتها العائلية ضمن البيت ، وألا تتجاوز حدوده إلى الخارج^(٤) .

ولقد أفضت الغيرة بين الزوجات إلى ارتكاب الجرائم خاصة لدى أسر العامة ، ففي أحداث سنة ١١٦٣هـ / ١٧٤٩ - ١٧٥٠م أقدمت زوجة على قتل زوجها لتفضيله ضرثها عليها ، فقطعت ذكره ومات إثر ذلك^(٥) .

(١) انظر : المرادي ، سلك الدرر . ج ٤ ، ص ٢٣٠ .

(٢) الصباغ ، ليلي . المرجع السابق . ص ١٥٣ . ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٠٢ - ١٢٠٢هـ . ص ٥٦٤ .

(٣) انظر : المحكمة العسكرية بدمشق رقم ٢٠١/٣ ص ٦ و ص ١٠ .

(٤) الداغستاني ، كاظم . المصدر السابق . ص ١٢٢ ر س ٢٥ ظ .

(٥) البديري ، المصدر السابق . ص ١٤٧ .

ومن جهة أخرى ميّز مجتمع دمشق بالألقاب الاجتماعية بين نساء الخاصة والعامة وأهل الذمة، كما ميّز بين العازبة والمتزوجة، واختلفت تبعاً لذلك طريقة مخاطبتهن، خاصة في محاكم دمشق، فالمرأة المسلمة من العامة خوطبت بالحرمة، وإذا كانت متزوجة ومسننة ولها أولاد خوطبت بالخاتم^(١). أما المرأة اليهودية أو النصرانية فورد ذكرها في سجلات محاكم دمشق (المرأة الذمية النصرانية أو اليهودية)، وإذا ما كانت متوفاة زيدت على ذلك كلمة «الهالكة» ويقابل ذلك المرحومة أو المتوفاة بالنسبة لأختها المسلمة، وأسبغت ألقاب التفخيم للشريفات وبنات رجال السلطة مثل «الشريفة أو القادن» أو (فخر المخدرات)^(٢). وإذا كانت شريفة أو من الخاصة، يطنب في إسباغ الألقاب عليها كالمصونة فلانة.. أو فخر المخدرات وزبدة الموقرات ذات الحجاب المنيع والجاه الشريف الرفيع المصونة فلانة^(٣). أو فخر المخدرات زين الموقرات الست المصونة والجوهرة المكنونة فلانة خاتم^(٤).

ومن جهة أخرى اهتم مجتمع دمشق بخصب المرأة وانجابها للأولاد، فإذا ما كانت عاقراً تهمل لدى أسر الخاصة، وغالباً ما تطلق لدى العامة، لأن الرجل لا يستطيع أن يصرف على زوجتين في وقت واحد. واعتبروا كبر العائلة بركة تقابل بالحمد، وحصنوا أبناءهم بالله تبركاً، وإذا ما سئل أحدهم هل لك أولاد؟ كان يجيب عندي منهم لله كذا وكذا أو عندي بعيون الشيطان سبعة أو ثمانية، ويقول المثل «بلاهم ولا بلاهم» أي متاعبهم ولا الحرمان منهم.

وخير دعاء للعازب أن يظفر بعروس وفق مزاجه. أما العازبة فيدعون لها بزواج اخوتها أو بقائهم. أما الدعاء بزواجها فكان يبعث بها على الحياء والخفر، وكانوا يسمون الصغار

(١) انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٣٧٨/١٢٥٩ هـ، ص ٣.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ ص ٢٣٢. «والدة محمد آغا من بلوكباشية دمشق».

(٣) السجل السابق ص ٧٣٦ «الشريفة راجحة زوجة عرش الحبال القبوقولي». ثم الشريفة خديجة قادين بنت السيد حسن أفندي صفى الدين الكفرسوسي. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٠٢/ ص ١٨ ثم: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ ٢٤٠ (راية بنت مصطفى بيك متولية على أوقاف جدها لالا مصطفى باشا).

ثم: السجل رقم ٣٧٩/ محاكم دمشق/ ص ٤١٢ عائشة خاتون ابنة فخر العلماء المدرسين الكرام السيد الشريف الحسيب النسيب كال الدين أفندي الحسيني.

(٤) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/ ص ٣١٩.

عرساناً، والصغيرات عرايس تيمناً بزواج الفريقين. ويخصون العازب على الزواج ويقولون «قرش الزواج ميسور».

وشاهد مجتمع دمشق زواج القاصرين والقاصرات. فزوجت الفتاة في سن الرابعة عشر من عمرها، والأمثلة على ذلك كثيرة فمثلاً «أصدق الحاج سعيد بن عبد الغني السابق المتولي على ولده عبد الغني القاصر عن درجة البلوغ وتحت ولايته بالأبوة شرعاً مخطوبة ولده عاتكة القاصرة عن درجة البلوغ على صداق قدره خمسمائة قرش فضة صحيحة صاغ ميريه على حكم التفصيل ثلاثمائة وخمسون قرشاً منه مقدم صداقها ومائة قرش وأحد وخمسون قرشاً صاغاً مؤخر صداقها مؤجل عليه إلى حين أحد الفراقين الموت أو الطلاق»^(١).

ويذكر فولني أن الشرقيين يتزوجون في سن مبكر، وكثيراً ما عقدوا قران الفتاة التي لا يتجاوز عمرها التاسعة أو العاشرة على فتى لا يتجاوز اثنتي عشر أو ثلاثة عشر من العمر. وربما حملهم على تزويج أبنائهم في سن مبكرة الخوف من سقوطهم في طريق الرذيلة^(٢).

وكانت الأسرة تستقبل نبأ حمل الزوجة بفرح، وإذا لم تحمل بعد زواجها سعت والدتها وربما حمايتها من أجل تحقيق ذلك، فيذهبن إلى الدايات ويستخدمن المخرجات من الأدوية والعقاقير، وينذرن النذور للأولياء والصالحين، ويلجأن إلى المشعوذات والمشعوذين، فيقوم هؤلاء بكتابة الرقى والتعاوين، وربما الآيات والطلاسم والتمايم، ويصفون طريقة إستعمالها، كأن تضعها فوق عينيها أو عتبة دارها، أو تذيبها في ماء وتشربها أو تضع الحجاب في عظم عنزة أو في ضريح مهجور الخ...

وكثيراً ما استغل بعض المشعوذين لهفة النساء العاقرات، فكانوا سبباً في هتك أعراضهن وطلاقهن، وفسقوا بهن ويقول القاسمي: (كان المشعوذ يكتب على بطن المرأة ويقول لها لا يؤخذ إلا هنا وكان كلما كتب يلمس كأنه غلط ليستأنف الكتابة.. أو يقول لها التيمة لا تكتب إلا بمائتين ماء الرجل وماء المرأة حتى يضطرها بخداعه لتسليم نفسها)^(٣).

- (١) انظر: السجل رقم ٣٢٢ / محاكم دمشق / ص ١٥١ القضية ١٤ جمادى الآخرة ١٢٤٧ هـ.
(٢) السيوفي، حبيب. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر ج ٢، ص ١١٣ لبنان صيدا. المطبعة الخلصية ١٩٤٩ م.
(٣) القاسمي: محمد سعيد، قاموس الصناعات.. ج ٢. ص ٢٣٢ وص ٣٣٤.

وروعي في علاقات الزواج الانتماء الاجتماعي ، أو علاقات القرى . فالبنيات أزواجهن من أبناء الأعمام أو الأخوال ، وهكذا . فمثلاً : « تزوجت أسماء خاتم بنت أسعد باشا العظم من ابن عمها محمد بك العظم »^(١) . ومن يرصد ظاهرة الزواج في سجلات محاكم دمشق يرى حقيقة ما ذهبنا إليه ، ففيها ترى بنات الحرفيين يتزوجن من أبناء الحرفيين ، سواء من الحرفة الواحدة أو الحرف المختلفة ، « فحسين أحمد الشالاتي ، تزوج بخاتون بنت السيد محمد القضماني ، وسالم آغا بن عبد الله الاسمر اللون تزوج بخديجة بنت حسين آغا والسيد ابراهيم الخضري تزوج بعائشة بنت سعيد القصار . ومحمد بشة بن محمد لباد نجار تزوج بكلسن بنت عمر اللحام والسيد سلامة بن السيد خالد التوتنجي تزوج بكلسن بنت محمد باكير الحواصلي »^(٢) وهكذا .

كما أن عدداً كبيراً من الغرباء الذين كانوا في أصولهم جنوداً في الأوجاقات المختلفة ، والذين أصبحوا يرلية وانخرطوا في تنظيمات طوائف الحرف المختلفة ، دخلوا في علاقات وطيدة مع أمثالهم عن طريق الزواج فمثلاً : محمد الأوزون كان متزوجاً بعائشة بنت ولي أفندي الإسلامبولي ، ومحمد آغا بن اسماعيل آغا كان متزوجاً من خديجة قادن بنت عبد الرزاق قببول آغاسي ، ثم الدالي علي بشة بن محمد التركاني الينكجري بدمشق كان متزوجاً ببنت يونس بن خوجة التركاني^(٣) .

ودخلت أسر الخاصة بعلاقات زواج مع بعضها مراعاة منها للاعتبارات الاجتماعية . فالسيد ابراهيم أفندي عمادي زاده كان متزوجاً من آمنة بنت محمد آغا الداغستاني . وإذا ما حصل زواج مغير لهذه القاعدة خاصة لدى أسر الخاصة الكبرى قبول بالاستهجان . فمثلاً : عندما زوج أسعد باشا العظم ابنته من مملوكه ، علق بعض الخاصة من رجال الدين في دمشق بقولهم (الله يرحم أيام الحسب والنسب فيلى أين نحن صائرون) ؟^(٤) .

(١) الداغستاني . المصدر السابق . ص ٧٢ .

(٢) انظر سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨ / الصفحات ص ٧٤ وص ٧٧ وص ٨١ وص ١٠٠ . لعام ١٢١١ - ١٢١٣ هـ .

(٣) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ١٢٦٤ هـ ص ٤١ وص ٤٩ . ثم سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ٢٤٤ .

(٤) الداغستاني : المصدر السابق . ص ٦٩ .

وعلى ضوء مراعاة الاعتبارات الاجتماعية في الزواج ، روعي أيضاً مبلغ صداق المرأة ، فاختلف ما بين فئة وأخرى . ويمكن رصد ذلك من خلال سجلات محاكم دمشق المختلفة ، وزاد صداق الفتاة العذراء الباكر على صداق الثيب أو الأرملة المطلقة . وتراوح الصداق ، ما بين ١٠٠ و ١٥٠٠ قرش فضة صحيحة ، المعجل منه الثلثان ، أما الثلث الآخر فيؤجل إلى حين الفراقين الطلاق أو الوفاة ، ونلاحظ أن مبلغ صداق المرأة المسيحية قد قل عن صداق أختها المسلمة في دمشق^(١) . ويمكن تفسير هذه الظاهرة بسوء أحوال النصارى المادية آنئذ من جهة ، وبمسمى رجال الدين المسيحيين لتسهيل عملية الزواج بين أبناء طوائفهم من جهة أخرى ، بحيث لا يقف « المهر » حائلاً دون ذلك .

أما طلاق المرأة فتأثر بعوامل عدة ، كان أبرزها العامل المادي والحاجة ، بالإضافة إلى العقم وغياب الزوج في أماكن مجهولة ولمدة طويلة ، ولهذا نجد أن أكبر نسبة من حوادث الطلاق كانت بين العامة خاصة الفقراء منهم ، في حين لم تكن النسبة عالية لدى الخاصة ، ولذلك لأن العامل المادي لم يلعب دوراً في ذلك . كما أن خلاف الزوجين سبباً لعلاقة الزوج واسرته مع أسرة الزوجة المطلقة . لذلك أثر الزوج الإبقاء على الزوجة عوضاً عن طلاقها . ناهيك عن أن أحواله المادية الحسنة ، تمكنه من الزواج بأخرى ، ومن اقتناء الجواري والإماء والتسري بهن .

ولقد تزايدت نسبة الطلاق بشكل عام في فترة دراستنا عما كانت عليه في الفترة السابقة لسوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية ، وبلغت تلك النسبة حدودها القصوى في العهد المصري ، بدخول عامل جديد أسهم في ذلك ، وهو سوق الشباب إلى الجندية وارسالهم بعيداً عن زوجاتهم إلى مصر ليدربوا فيها ، ومن ثم زجهن في جبهات القتال ضد العثمانيين ، مما دفع بالعديد من الشباب للفرار إلى الأماكن التي لاتقع ضمن الحكم

(١) يصف لنا الاخباري فتح الله الصايغ تلك الحالة في اللاذقية وريفها آنئذ بقوله : « بعد خلوصه من مسك أولاد النصرية أول خطرة ابتدأ مسك أولاد المسلمين وهناك ترى الأهوال التي حصلت من قلع عينين وتقطيع أصابع وتكسير أيادي شي يقشعر لأبدان والتخبي تحت الأرض في المقابر الخيفة سنين من غير إظهارهم على وجه الأرض وصارة الكلير تحيي أولادها في بيوت القناصل ومنهم من يسفر أولاده إلى خارج أياالة الحكم المصري مثل قبرص وكريت وأصاليا وبر الترك وإسلامبول وإزمير وغيرهم ولا سيما لعند العرب للجول ويروحوا أبائهم معهم لئلا ينطلبوا منهم ويأكلوا عذابات وحيس وضرب ويلتزموا بحضورهم ويسلموا للنظام . انظر : المقرب في حوادث الحضرة والعرب ص ٢٨٠ و ص ٨٠ ب .

المصري^(١). وهكذا أصبحت الزوجات الفقيرات بلا معيل وكثير عدد من مما دفعهن لطلب الطلاق في محاكم دمشق، معتمدين في ذلك على تلك الحجة أمام القضاة (حيث لا مال ولا معيل لهن) فاضطر القضاة للنزول عند رغباتهن في التفريق بينهن وبين الأزواج. وكثيراً ما حصلت بعض الحوادث المؤسفة في ذلك، كأن يعود الزوج بعد غياب طويل فيرى زوجته متزوجة بغيره^(٢).

حجاب المرأة الدمشقية

كان حجب المرأة عاماً في دمشق (المسلمة والذمية)، ولكن حجاب المرأة المسلمة تميّز عن المرأة المسيحية واليهودية^(٣). فلكل واحدة منهن حجابها الذي ميزها عن أخواتها خارج بيتها، ولم يسمح باختلاط الجنسين، لهذا حرم على الشباب رؤية خطيبته قبل الدخول بها. وكان من العار أن يتم زواج قام على العشق والهوى، سيما إذا كان الزوجان من أسرتين مختلفتين (لا تربطهما رابطة القرابة). ولهذا كان من الصعوبة بمكان أن يرى الشاب خطيبته. وبرزت هذه الظاهرة لدى الخاصة في دمشق. لأنه نادراً ما كان يسمح لبنات الخاصة بالخروج من بيوتهن، لهذا لجأ الشاب إلى حيل متعددة لرؤية فتاة أحلامه. كأن يتفق مع المؤذن أثناء آذان الظهر ليصعد معه إلى أعلى المئذنة، فيطل على بيت الخطيبة، ليلقي النظر على الصبايا وهن ملتفات حول بحرة الماء في ساحة الديار^(٤). فيوفر لنفسه فكرة عن شكل الفتاة وقدها وجمالها.

وفرض الحجاب داخل البيوت الكبيرة التي كانت تحوي أكثر من أسرة صغيرة، فلم يسمح للنساء بالخروج من مخادعهن دون حجاب لوجود غير المحرمين في البيت. فامرأة الأخ يحظر عليها أن تبرز أمام شقيق زوجها، وإذا ما اضطرتها الحاجة لعبور ساحة الديار تتلفع بمنزورها بحيث لا يبان من جسدها إلا وجهها^(٥).

(١) انظر القاسمي جمال الدين تعطير الشام بمآثر دمشق الشام. المسودة وهي خالية من الترقيم.

(٢) انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٢٢٣ / ١٢٠٢ — ١٠٢٤ هـ / ص ٥٧.

(٣) انظر: تفصيل ذلك في فقرة زي المرأة الدمشقية الوارد في أزياء دمشق سابقاً.

(٤) انظر: الداغستاني. المرجع السابق. ص ٩٥.

(٥) أيضاً: الداغستاني. ص ١١٢.

وحجبت المرأة (من الخاصة) نفسها عن الأنظار في طريق الحج بأن وضعت نفسها في هودج أو تختروان، الذي كان عبارة عن خيمة محمولة على عضادتين يحملها جملان أو بغلان، فيها مقاعد ولها باب ونافذة تنسدل عليها ستائر. وكانت ترافقها جارية تشرف على خدمتها^(١).

وفرض الحجاب على النساء في شوارع دمشق، فلم يخرجن دون الأزرق البيضاء أو الملاءات السوداء. وإبان الإحتفالات والمواكب كن يقفن منفصلات عن الرجال، وكان يستهجن وقوف الرجال إلى جانبهن مهما كانت درجة قرابتهن، كما يستهجن منهم التحديق في وجوههن. وإذا حصل ذلك، كانت المرأة تقوم بإسدال حجابها على وجهها^(٢).

ومن جهة أخرى استغلت بنات الهوى الحجاب للتستر تحته، والتنقل إلى حيث أردن، مما اضطر السلطات العثمانية في سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٨ - ١٨٤٩ م لأن تصدر أمرها في رفع غطاء الوجه بغية تمييز الساقطات. واستثنى ذلك الأمر نساء والي دمشق أسعد باشا العظم ونساء الكيخيا موسى: ويقول البيهقي الحلاق «نادى منادي على النساء لا يسبلن على وجوههن مناديل إلا حرم الباشا ونساء موسى كيخية»^(٣).

ولقد اكتسبت الأسر الدمشقية (من الخاصة). التي أقامت لبعض الوقت في استانبول، بعض العادات الرومية، كجلوس نساء الأسرة الواحدة مع رجالها وهن سافرات على موائد الطعام، وتبادل أطراف الحديث معهم، أو الجلوس في ساحة الديار دون حرج^(٤). وقامت بعض أسر أهل الذمة بتقليد الغربيين في حياتهم نتيجة لاحتكاكهم بهم بعد انفتاح دمشق، وبدأت بعض العادات الغربية تدخل إلى حياتهم، ومنها تخفيف قيود الحجاب. في حين كانت قرى دمشق متشددة في حجب النساء. وكان لكل قرية من قرى الغوطة تقريباً زها الخاص في مجال الحجاب، في حين حافظت نساء قرى حوران والقلمون على أزيائهن السابقة

(١) المرجع نفسه. ص ٩٧.

(٢) المرجع نفسه. ص ٢٧ و ٢٨ و ص ٣٦.

(٣) حوادث دمشق اليومية. ص ١٣٤.

(٤) الداغستاني. المرجع السابق. ص ١١٥.

والموروثة من عهود سابقة. وبقي حال المرأة بشكل عام، يسير على هذا المنوال حتى نهاية القرن التاسع عشر^(١)، وإن اختلف إلى حد ما بين المرأة المسلمة وأخواتها (الذميات) بفعل المؤثرات الغربية.

عمل المرأة في دمشق ومقاطعاتها

شكلت المرأة نصف أفراد المجتمع القادرين على العمل تقريباً، إلا أنها لم تسهم بهذه النسبة بل اقتصر نشاطها على بعض مرافق الحياة، واستبعدت من وظائف الدولة المختلفة والجيش والعديد من الحرف والصناعات والوظائف الدينية المختلفة تقريباً، ومارست بعض الأعمال التي وفرت لها الرزق كبيع الحرف أو العمل بالأرض وتربية الحيوانات والاشراف على بعض الأملاك والأوقاف الذرية أو التعليم (كالخوجة)، بالإضافة إلى تربيتها للأطفال. وتعود تلك القيود بالدرجة الأولى لدواعي الحجاب، ولم اعتراف المجتمع لها بإمكاناتها الجسدية والعقلية التي تمكّنها من الوقوف على قدم المساواة مع الرجل.

ويمكن رصد أهم الأعمال التي ارتزقت منها النساء في دمشق، مثل (الخوجة)، وهي معلمة البنات. وكان عدد المعلمات من هذا النوع قليلاً لقلة من أرسل من البنات للتعلم آنذاك. ثم عملت المرأة في حمامات دمشق في دور النساء فيها، فكانت منهن الاسطة والبلانة والتبع. وعملت المرأة في توليد النساء (داية) ومزينة للعروس قبل زفافها وأثناءه مع والددة العروس والعريس، ومحمرة أو نقاشة بالحناء للأيدي والأرجل وممسدة لتدليك ولف الوليد^(٢)، ومرضعة للأطفال وخياطة وغسالة للمتوفيات من النساء، بعد حصولها على قرار من

(١) يقول الرحالة المصري محمد عبد الجواد القاياني الذي زار دمشق في أواخر القرن التاسع عشر «أما أحوال النساء من أهل الإسلام، فيبرزن غير متبرجات ولو كن متزهات ومتفرجات، وعلى وجوههن المناديل وعلى رؤوسهن الإزار الطويل، وأما نساء النصارى في الشام فهن قليلات جداً لا يعرفن فيها ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى كما في مثل بيروت فإنهن كنساء الإفرنج وإن كن في الأصل من جيل لبنان. إلا أنهن قلدن الأورباويات الآن وزدن من هذا الشأن بكل ما في الإمكان، إلا أن التكشف من أعظم الدواعي وأكبر البواعث والمقدمات المثيرة المهيجة المحركة لسواكن الشهوات» انظر: نفحة البشام في رحلة الشام. ص ١٤١.

(٢) انظر: القاسمي، ظافر. المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج ١. ص ١٥٨ و ١٥٩ و ص ١٦٠ و ص ١٦١ و ص ١٦٢.

قاضي دمشق، ثم غسالة للثياب في بيوت الأغنياء، وكحالة للعيون ومعالجة القرع (المقبة)، وخادمة وطباخة. وفي مجال الحرف عملت النساء طرازات وغزالات ونساجات وصابغات الخصر^(١) ومجمدات (تجميد غصون الكروم) وشوارات، ومعشبات (نازعات للعشب الضار من بين المزروعات). ولقد شاركت المرأة في الريف الرجل في كل الأعمال وربما زادت عليه في بعض الأعمال، وعملت بعض النساء لطّامات (حيث كن يلبسن الثياب السوداء ويسخنن وجوههن وأيديهن بمسحوق الفحم ويحللن شعورهن وينسبن الميت ولهن أجر على ذلك) هذا ناهيك عن المهام داخل البيت كالطبخ وتنظيف الأواني والبيت بشكل عام، واعداد مؤونة الشتاء، إلى غير ذلك من الأعمال المختلفة.

أما النساء الارستقراطيات فقل عملهن وانشغلن ببعض الأعمال المنزلية وأعمال الابرة والسنارة والغزل ونسج الدراعات والتنانير والعرقيات وما شاكل ذلك، وأو كلن ماعدا ذلك من الاعمال إلى الخدم والجواري تحت اشرافهن، وأو كلن لبعض الأقرباء أمر الذهاب إلى المحاكم، وإذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، كاجراء عقود البيع أو التنازل عن عقار أو تأجيره أو مقاضاة الآخرين.

ومن خلال بعض الاحصائيات التي أجريناها، فإن حوالي ٦٠٪ من المعاملات في سجلات محاكم دمشق كانت بأسماء النساء، فمنهن البائعة أو الشارية أو النازرة على وقف أو مستأجرة أو مؤجرة (الكدك)، أو عهد اليها الاشراف على القاصرين من الاطفال اليتامى وهكذا. وما سيطرت المرأة عليه من العقارات، أكان من أموال أبويها أو زوجها الذي رغب في اعطائها وضعاً اقتصادياً لضمان حياتها في حدود القوانين والارث التي أقرتها الشريعة، أو الاشراف على الابناء القاصرين بعد وفاة الأب وكان ذلك الاشراف يتم بموجب وصية شرعية تثبت في إحدى محاكم دمشق.

ويمكن تفسير هذه الظاهرة غالباً بتعدد الزوجات، على اعتبار أن الزوج يشيخ قبل زوجته الفتية وعند دنو أجله يوكل اليها أمر الاشراف على أبنائه من بعده، ليجنبها بذلك

(١) خاطر، لحد. المرجع السابق. ج ١، ص ٣٠٤.

مضايقة الأهل والاقرباء^(١) وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بأكثر من ٩٠٪ من الوصيات على القاصرين ، الذين أوكلت أمورهم لأمهاتهم دون غيرهن .

(١) الأمثلة على ذلك كثيرة وكثيرة جداً، وحسبنا أن نسوق ١١٩٠ هـ الصفحات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٤ ، ٣٢ ، ١٣٢ . ثم الوثيقة رقم ٩٤ / تاريخ ١٧ جمادى الأولى ١٢٠٥ هـ ، ثم الوثيقة رقم ٩٥ / تاريخ ٣ جمادى الثاني ١١٩٩ هـ . ثم الوثيقة ٩٩ / تاريخ غرة شوال ١٢٠٥ هـ . ثم الوثيقة رقم ١١٢ / تاريخ ٤ ذي الحجة ١٢٢٣ هـ . ثم الوثيقة رقم ١٢٣ / تاريخ ٤ جمادى الأولى ١٢٣٨ هـ . ثم الوثيقة رقم ١٤١ / ١٢٥٧ هـ . ثم الوثيقة رقم ١٤٢ / ١٢٥٧ هـ . ثم السجل رقم ٤١١ / محاكم دمشق / ١٢٦٥ هـ .

ظواهر الانحراف في المجتمع الدمشقي

استفحلت تلك الظواهر في هذه الفترة نتيجة لعوامل عديدة أحاطت بالدولة العثمانية (داخلية وخارجية). وأبرز تلك العوامل، تدهور أوضاعها الاقتصادية والسياسية والعسكرية والادارية، حيث أضعفت تلك العوامل السلطة المركزية في استانبول، وانعكس ذلك بشكل سلبي على أحوال ولاياتها المختلفة. وزاد في سوء أحوال دمشق. ما أحاط بها، من أحوالها الداخلية والعربية، فاشتد الصراع ما بين الأمراء المحليين والحكام الاقطاعيين من جهة، وما بين هؤلاء وولايتهم من جهة أخرى، بالإضافة إلى الصراعات بين الولاة المعزولين والولاة المعينين مكانهم. ودفعت دمشق ضريبة هذه الصدمات. وزاد من ضعف ولاية دمشق اصطدامهم مع ولاية صيدا الأقوياء، وعجزهم عن إيقاف نشاط البدو ضد حواضر الولاية، مما دفع بأبنائها للهجرة إلى مدينة دمشق والضغط على اقتصادها، فزاد من أرباكها. وعجز ولاية دمشق عن حماية قوافل التجارة والحج مما أدى إلى إصابة اقتصاد المدينة بخسائر فادحة. ناهيك عن عجزهم عن التصدي للحركة الوهابية التي استفحل أمرها في الجزيرة العربية، وسيطرتها على مكة المكرمة والمدينة المنورة، الأمر الذي أدى إلى تقليص قافلة الحج الشامي، وبالتالي تقليص ما تجلبه من نفع اقتصادي لدمشق، وقد توقفت هذه القافلة لسنوات عديدة. ولعل أكبر الضربات التي وجهت إلى اقتصاد دمشق، ما أصاب حرفييها وبعض تجارها بفعل الثورة الصناعية في أوروبا، فزادت من أوضاعها ضعفا على إباله، وما أعقب

ذلك من جراء فتحها على الغرب في ظل الاحتلال المصري ، فانهارت بذلك معظم حرفها ، بسدها أبواب الرزق في وجه معظم حرفيها .

وكان من الطبيعي أن تفرز هذه العوامل ظاهرات إجتماعية سلبية ، ازداد معها عدد المنحرفين في دمشق . وسنحاول فيما يلي رصد تلك الظاهرات السلبية وأهم فئات المنحرفين في المجتمع الدمشقي ، مثل المتمردين على السلطة أو العابثين بالقانون والشرعية . والمرتشين والغشاشين واللصوص ، والمبتزين لأموال المستضعفين ، والمتناولين للمخدرات والمسكرات سراً وعلانية ، والشاذين في علاقاتهم الجنسية . واستفحال أمر العاهرات وبائعات الهوى .

ولقد حاول بعض العقلاء من رجال الدين ورجال السلطة ، وضع حد لتلك الظاهرات بعد أن خدشت حياة المجتمع وكبريائه ، إلا أن مساعيهم باءت بالفشل ، لأن المشكلة كانت أعمق من أن تعالج بإجراءات سطحية . كما أنهم على ما يبدو ، لم يدركوا الأسباب الرئيسة التي ذكرناها ، والتي كانت تفوق طاقتهم . أما المصريون . فقد حاولوا معالجة بعض هذه الجوانب السلبية ، فقاموا بمكافحة الآفات الزراعية كالجراد والفئران^(١) ، وسعوا لتوطين البدو في حواضر لا تتواءم خطرتهم عن الريف والمدن^(٢) .

وحسنوا طرق المواصلات والموانئ ، وأصلحو النظام الجمركي^(٣) ، وضربوا على يد

(١) قام بمكافحة الجراد الذي كان يسبب خسائر كبيرة في المحاصيل الزراعية كل عام فخصص عدداً كبيراً من رجاله لمكافحة موجة الجراد ، واستخدم في ذلك الطرق الناجعة ومنذ ١٨٣٥م / ١٢٥٢هـ تم تسجيل نقص محسوس في الأضرار الناتجة عن هذه الحشرات . انظر :

Enkiri. op.cit.P.294.

(٢) يتعلق مستر كامبل على عملية ربط البدو الرحل بالأرض بقوله على أنها إحدى أكبر الإصلاحات التي قامت الحكومة المصرية في سورية ، حيث كان البدو يعيشون فساداً في الحواضر فأصبحوا نافعين وأسهموا في تقدم الزراعة بعدما أقلعوا عن عادة النهب ، ويمكن اعتبارهم بذلك مواطنين صالحين انظر :

Enkiri. op.cit.P.294.

(٣) وكتب (Boisle Comte) في سنة ١٨٣٣م / ١٢٤٨هـ . مايلي : « كان للهيمنة المصرية على سورية أثر فوري . فقد نقلت السلطات المصرية النظر في الشؤون القضائية والإدارية إلى الاسكندرية بدلاً من القسطنطينية ، وفتحت دمشق للاحتكاك بالأجانب الأوروبيين ، وجهدت لاقامة تحسينات في المواصلات والنقل وبناء الموانئ على الساحل ، فزاد انتاج البلاد إلى درجة ملفتة للنظر واصلاحياته هذه فتحت دمشق لوكلاء التجار الأجانب ، وقام الحكم المصري بتوسيع مينائي صيدا وبيروت وتطهير ميناء اسكندرونة ، وحولوه

المختلسين والنشالين^(١)، وعلى يد الموظفين الذي أساءوا استخدام وظائفهم. فتحسنت الأوضاع الأمنية وبالتالي الأوضاع الاقتصادية بعض الشيء، مما انعكس بشكل إيجابي على الأوضاع الاجتماعية. إلا أنهم من جهة أخرى فتحوا دمشق للاوربيين فانعكس ذلك سلباً على أوضاعها الاقتصادية. كما أن صراعهم مع العثمانيين ومعارضة معظم الدول الأوربية لوجودهم في بلاد الشام، أو توسعهم في الأناضول، دفع بالأوربيين والعثمانيين على حد سواء، لخلق المتاعب للمصريين، وبرزت في المقدمة حركات التمرد ضد المصريين في أماكن عديدة من بلاد الشام. كل ذلك انعكس بشكل سلبي على الأوضاع في بلاد الشام. وبرزت مظاهره السلبية خاصة في الأماكن القصية والنائية عن مركز السلطة في دمشق^(٢).

وعلى ضوء ما تقدم نرى أن مرحلة الحكم المصري قد خففت بعض الشيء من تلك الظواهرات السلبية، إلا أنها أسهمت من جهة أخرى بخلق ظروف اقتصادية سيئة أدت بدورها إلى استفحال بعضها، بمعنى أن تلك المرحلة لم تستطع معالجة مسبباتها بشكل حاسم.

إلى ميناء حرلي لهم. ويلاحظ (Bolsle combte) أن تجارة سورية البحرية قد تطورت في عهد المصريين، فكانت صادراتها / ١٢٠٠٠٠٠٠ فرنكاً في حين كانت وارداتها / ١٩٠٠٠٠٠٠ فرنكاً كما يوافق كامبل (CAMBEL) وجميع الرحالة وغيرهم من الأوربيين، الذين زارو سورية، على أن تجارة سورية قد تزايدت في عهد المصريين ما بين عامي ١٨٣٣ - ١٨٤٠م / ١٢٤٩ - ١٢٥٥هـ. ولضمان استثمار رؤوس الأموال قام المصريون بإصلاح النظام الجمركي والضريبي. انظر:

Enkiri. op.cit. P.295.

(١) يقول فتح الله الصايغ « صدف أحد الفلاحين يقود حملاً محملاً حطباً فقام أحد العسكر المصريين بأخذ الحمار غصباً عنه، وأخبر أمير اللواء بما حصل، فقال للترجمان عد إلي الساعة الرابع وخذ النتيجة، فحالا ضربة التربيطة (الطبله) واجتمع كامل عسكر اللوى وضباطه، وجابوا العسكري بحضور كل العسكر ويطحوه على الأرض وجلس بلطجي على رأسه وبلطجي على رجله، وتنين بلطجية كل واحد بيده كبراج واشتغل الضرب ». ثم أعيد الحمار إلى صاحبه واعتذر له عن ذلك. ويورد حادثة مماثلة قام بها يوزباشي من الجيش المصري فأجير اليوزباشي على إعادة حمل الحطب إلى صاحبه بنفسه.

انظر: المقترّب في حوادث الحضر والعرب. ص ٧٥ أ و ص ٧٥ ب و ص ٧٦ أ.

(٢) ففي سنة ١٢٥٥هـ « نزل الحرامية على قرية صرفند العمار التابعة لتسلمية الرملة وسرقوا ٢٢ رأس من البقر وحصّة حوائج ومصاغ، وتوجهوا واعرّف أحد منهم. وفي حادثة أخرى نزل اللصوص على قرية سلبيت التابعة لتسلمية الرملة وقتلوا فيها رجلاً اسمه محمد نصر مع ابنه وتوجهوا ولم يعرفوا. » . انظر: رستم، أسد. الأصول العربية ... ص ٢٦١.

ومن ناحية ثانية يمكن القول ، بأن بعض ظاهرات الانحراف ، لم تكن وقفاً على فئة دون أخرى ، بل ترى خلافاً عاماً قد أصاب أخلاق الناس وعقولهم ، ويندر خلو مصدر تاريخي ، عالج أحداث هذه الفترة ، من أخبار هذه الظواهر الشاذة . ككتب اليوميات والحوليات والتراجم والرحلات . ولتسهيل دراسة هذه الظواهر ، ولأهميتها في السياق التاريخي العام لمدينة دمشق ، رأينا أن نبوها في فقرات بحسب أهميتها :

الزرب

مفردتها زربة . وهي لفظة يونانية الأصل أطلقت على أشقياء الجند والرعاع^(١) . وأطلق العامة آنئذ على الصدامات والحروب والثورات لفظة (زربات)^(٢) . كما أطلقت كلمة زرب أو زرباوات (جمع زربة) على الذعر ، وهي تقابل كلمة الفتوات^(٣) في مصر والعيّارين في العراق . شكل الزرب شريحة من الانكشارية ، فرزتهم أوضاع دمشق الاقتصادية والاجتماعية ، وجند بعضهم لصالح بعض الشخصيات ليجابوها بهم قوى القايي قول والمرزقة وغيرهم . وكانت لتسميتهم هذه مدلولها السياسي والعسكري عندما شغلوا حيزاً سياسياً في مدينة دمشق في هذه الفترة ، ويبرز هذا الاختلاط في مدلولاتهم لدى الاخباريين ، فلا يفرقون بينهم وبين البرلية . وعمل بعض الزرب في مجال الاقتصاد فكان منهم (حرفيون ولهم كدكات)^(٤) . ويذكر البديري الحلاق في أحداث ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ — ١٧٤٦ م (أن أمر الزرباوات قد تعاظم في دمشق وهم الأشقياء فاستطالوا في سب الدين وظلم الناس ... كما كان لهم زعيم في حي الميدان هو مصطفى آغا بن خضري الذي لقب نفسه بسلطان الشام)^(٥) ، ويدل ذلك على أن هؤلاء قد شكلوا قوة سياسية في دمشق في وقت ضعفت فيه السلطة العثمانية ، وحاولوا أن يتصدوا لعناصر السلطة وللخاصة . إلا أن تصرفهم لم يتصف بالتعقل ، ولم يكن لهم برنامج سياسي أو اقتصادي ، وإنما أفرزتهم ظروف مجتمع دمشق ، وجمعتهم كراهيتهم للاستقراطية فيها . فاستغلت الاستقراطية أخطاءهم لتزيد من كراهية الدمشقيين لهم^(٦) .

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . تاريخ المشرق العربي في العهد العثماني . ص ١٨٢ .

(٢) انظر : الصايغ ، فتح الله . المقرب في حوادث الحضر والعرب . ص ٥٣ .

(٣) انظر : البديري . حوادث دمشق . ص ٥ الحاشية .

(٤) البديري . نفس المصدر . ص ١٨ و ص ١٩ .

(٥) البديري . نفس المصدر . ص ٦٢ و ص ٦٧ .

(٦) رافق ، عبد الكريم . تاريخ المشرق العربي في العهد العثماني . ص ١٨٧ .

وحاول أسعد باشا العظم أن يستغل غضب العامة في سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م ، عندما ثارت لارتفاع الأسعار ، ومهاجمتها للقاضي ، لأنه لم يقم بمهام المحتسب ، وقطع الوالي المذكور الطريق على ثورتها باظهاره أن سبب المشكلة هم الزرب أنفسهم وأن حلها لا يتم إلا بتصفية زعمائهم .

فقام في ٢٢ صفر ١١٤٩ هـ / ١٧ آذار ١٨٤٦ م بمهاجمتهم في اتجاهين : الأول في حي الميدان والثاني باتجاه سوق صاروجة . وبعد احتلال الحيين قام بملاحقة الزرب في حارات دمشق ، وساعده في ذلك مشايخ الحارات ، وهدد كل من يحمي أو يجبيء أحدهم ، فصار شيوخ الحارات « يتتبعون الأشقياء واحد بعد واحد ويقولون لحضرة الباشا هذا الشقي فلان الفلاني وهذا الاغا الفلاني وهذا الشريجي الفلاني . فيضرب أعناقهم أمام باب السرايا وترك جثثهم تأكل منها الكلاب مدة طويلة حتى صاروا عبرة لمن اعتبر » . وفر عدد كبير من الزرب خارج دمشق ، فالتجأ بعضهم إلى البدو و (عرب ابن كليب) وإلى ضاهر العمر في طبريا ، وآخرون إلى جبل الدروز عند آل تلحوق وآل عبد الملك . وفي سنة ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ م قام الزرب بمهاجمة الزيداني ثم مدينة دمشق مستغلين غياب والي دمشق أسعد باشا العظم مع قافلة الحج ، فتصدى لهم متسلمه (موسى كيخيا) وردهم على أعقابهم اعتمادا على قوات المرتزة والقبائي قول^(١) . وبقي عدد كبير من الدمشقيين يتعاطفون مع الزرب مما عرضهم لنقمة أسعد باشا العظم ، حيث قام باعدام عدد منهم بتهمة مساعدة الزرب^(٢) . وقام أمير جبل لبنان بإبعاد من لجأ منهم إلى مقاطعاته كي لا يسيئ إلى علاقته مع أسعد باشا العظم ، وقبض ظاهر العمر على عدد منهم وقام بقطع رؤوسهم وأرسلها إلى استانبول ، ليدلل بذلك على طاعته وخضوعه للسلطة العثمانية ، ورغم الضعف الذي أصاب الزرب في أواخر عهد أسعد باشا العظم ، إلا أن الحال قد تغير في عهد خلفه حسين باشا مكّي . وعندما عزل الأخير عن ولاية دمشق أرسلت الدولة بديلاً عنه عبد الله باشا الجته جي ، فدخل دمشق في ٢٧ ربيع الثاني ١١٧١ هـ / ٨ كانون الثاني ١٧٥٨ م . مصطحباً معه قوات كبيرة من الدالاتية واللاوند والارناؤوط ، بهدف تصفية الزرب والتصدي للبدو الذين روعوا قافلة الحجاج في عهد سلفه حسين باشا مكّي ، وقام بمهاجمة معقلهم في حي

(١) انظر : البديري . حوادث دمشق ... ص ٦٩ .

(٢) انظر : رافق . تاريخ المشرق ... ص ١٨٨ .

الميدان فلم يستطع الزرب الصمود في وجهه ، واخترقت قواته حي الميدان دافعة أمامها قوات الزرب إلى أن وصلت إلى بوابة الله جنوب حي الميدان . وقامت قواته بقتل من صادفته منهم أو اعتقاله ، ويقول البديري : « لم يتركوا كبيراً ولا صغيراً الا قتيلاً أو أسيراً ... مستعملين القتل والنهب وهتك الأعراض ... وانتكبت أهل الشام في ذلك العام نكبة ما عهدت من أيام تيمور »^(١) .

ولقد سعت السلطات العثمانية للقضاء على الزرب أكثر من مرة ، إما بالتصفية الجسدية أو الملاحقة ، ورغم أن ذلك قد خضض شوكتهم إلا أنه لم يقض عليهم نهائياً . فكانت كلما آنسوا من أنفسهم القوة ومن السلطات العثمانية الضعف ، سعوا لسد الفراغ السياسي في دمشق ، كشريحة من قوى اليرلية ، مما أقض مضجع السلطات العثمانية وأربكها ، خاصة وأنه لا يمكنها أن تتغاضى عن وجود قوى في دمشق تعكر صفو أمنها ، نظراً لأهميتها الدينية ودورها في قافلة الحج الشامي ، في وقت كانت الدولة تعاني من هزائمها العسكرية على جبهات القتال مع روسيا وغيرها .

فلا غرابة إذا ما رأينا أن المسؤولين العثمانيين يعاودون الكرة في ضربهم وملاحقة عناصرهم أينما وجدوا . ففي سنة ١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ — ١٨٠٠ م قام الصدر الأعظم يوسف باشا باعتقال عبيد الأدهمي أحد زعماء الزرب في دمشق عندما لاقاه خارج دمشق وقال له : « انتي كنت زربا في الشام وطردتوا ابراهيم باشا ... وجابه بالجنزير الى دمشق وبعد أربعة أيام ختم بيته وقتله .. »^(٢) . ولم يكتف الصدر الأعظم بذلك بل لاحق زعماء الزرب كأبي حمزة وابن خنفس وغيرهما حيث قام بقتلهم . وقام والي دمشق أحمد باشا الجزار بملاحقة الزرب أيضاً فقتل بعضهم واعتقل بعضهم الآخر ، مما أدى إلى فرار الناجين منهم إلى خارج دمشق ، كحلب وجبل الدروز . ويقول ميخائيل الدمشقي معلقاً على ذلك بقوله : « الذي وقع انضمام جداً »^(٣) . وفي سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ — ١٨٠٤ م قامت قوات الجزار « بمسك الأولاد من الشام كل يوم يمسكوا أربعة خمسة ويحبسوهم بزئان القلعة ويشغل العذاب من الأكراد الذي باعتهم الجزار إلى الشام بالكاشات والحدايد والعصي وغير ذلك إلى أن

(١) البديري . المصدر السابق . ص ٢١٤ و ص ٢١٥ .

(٢) العبد ، حسن اغا : تاريخه ، ص ٥٨ و ص ٥٩ .

(٣) نفس المصدر . ص ٢٧ .

ينهبوا الرجل من القتل والعذاب». وبقي الزرب على هذه الحالة إلى وفاة الجزار ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ - ١٨٠٥ م حيث استرجعوا أنفاسهم، فقاموا على قدم وساق في دمشق للانتقام من زبائنه المتمثلة بقوى السكبان والدالاتية والأكراد «فتعذبهم الخلق بعد ما كانوا يعذبوا المخاليق»^(١).

وهكذا أدرك الزرب، أن أدوات السلطات العثمانية في التصدي لهم، كانت من القوى الغربية عن دمشق، كقوات القايي والمرتزة وغيرهم، ولهذا سعوا لابعاد الغرباء عن دمشق وحاولوا قفل أوجاق اليرلية في وجههم، ويعلق العبد في أحداث ١٢٣٠ هـ / ١٨١٤ - ١٨١٥ م: «أن أهل الشام حملوا السلاح، ونهبوا على الغربية يرحلوا عن الشام وأن ما رحلوا فدمهم مهدور كما ذهب الزرب إلى آغا اليرلية اسماعيل شربجي بن المهاني وأجبروه على عدم قبول الغرباء في أوجاق اليرلية»^(٢).

وفي سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ - ١٨٠٧ ازداد عدد قوات اليرلية والزرب في دمشق بدخول أعداد كبيرة من فلاحى الغوطة في تنظيمهم. ويقول العبد: إن هؤلاء «دخلوا بأخباز أو غير أخباز ومن القول أربعمئة خمسمائة ومن الضيع نحو ألفين ومن الصالحية نحو ألف واحد»^(٣). وقاموا بالتصدي لقوات القايي قول في شوارع دمشق، وبدأ إطلاق النار بين الطرفين من على الاسطحة والأسواق والمآذن^(٤). وبقي الحال كذلك إلى منتصف شهر شعبان ١٢٢١ هـ / كانون الثاني ١٨٠٧ م حيث عاد والي دمشق عبد الله باشا العظم من الدورة، إلا أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً، فازورّ في داره، ولم يذهب إلى سراية الحكم، وخاف من بطش الزرب، فلجأ مع حريمه إلى بيت مصطفى الأورفلي إلى شهر رمضان من ذلك العام^(٥).

ونتيجة لخطورة الوضع في دمشق والأماكن المقدسة في الحجاز، قامت الدولة العثمانية بعزل عبد الله باشا العظم، وعينت مكانه الكنج يوسف باشا واليا على دمشق، وقام الوالي

(١) نفس المصدر ص ١٠١ و ص ١٠٢ و ص ١١٠.

(٢) نفس المصدر. ص ٤٥ و ص ٤٦ و ص ٤٧.

(٣) نفس المصدر. ص ١٢٧ والمقصود بالقول — هو قوات القايي قول في دمشق.

(٤) نفس المصدر. ص ١٢٩.

(٥) نفس المصدر ص ١٢٨ و ص ١٢٩ و ص ١٣٠.

الجديد بقتل بعض زعماء الزرب، كاسماعيل شريجي بن المهائني وغيره^(١). الا أن الوالي المذكور لم يكمل طريقه في تصفية الزرب، بل التفت إلى تأمين مصالحه الشخصية وإهمال أمرهم، كما أهمل أمر الحركة الوهابية التي أقضت مضاجع السلطات العثمانية واستفحل أمرها.

وشاهدت استانبول في هذه الفترة اضطرابات شديدة بسبب الغاء أوجاق الانكشارية وادخال بعض الإصلاحات إلى جسم الامبراطورية. واستطاع السلطان محمود الثاني في ١٨٢٦ / ١٢٤١ - ١٢٤٢ م حسم الموقف لصالح التنظيمات، واقامة النظام الجديد في الدولة. وشعرت الانكشارية في دمشق أن ذلك سيصيب مصالحها بشر مستطير، لذا صممت على مقاومته بأي ثمن. وعندما أرسل السلطان في ١٨٣١ م / ١٢٤٦ - ١٢٤٧ هـ. الصدر الاعظم محمد سليم باشا واليا على دمشق لفرض ضرائب جديدة عليها، لتوفير المال من أجل النظام الجديد، شعرت قوى اليرلية بتضييق الخناق حول رقبتها، فكان لابد من تحركها، فأبعدت الغرباء عن أوجاقها كالمواصلة والتكاثرة والمغاربة خوفا من استخدامهم ضدها. ثم قام الاغويات المحليون بعقد مؤتمريهم في الربوة - - - و«تحالفوا على الطلاق ووضعوا يدهم على السيف والمصحف بأنهم يكونوا رأيا واحدا وحالا واحدة وكلمتهم واحدة وصلبان لا يمشوا ولوا ذهبوا (هلكوا) على آخرهم»^(٢).

وفي عصر يوم الجمعة ١٥ ايلول ١٨٣١ م / ١٢٤٦ - ١٢٤٧ هـ. قام زعرحي العمارة بضرب الموظفين المكلفين بتسجيل أسماء دافعي الضرائب^(٣)، وهي ضريبة الصليان على العقارات والدكاكين وغيرها، وحاولوا استغلال المشاعر الدينية الاسلامية فأشاعوا بأنها جزية. وشعر الوالي أن لابد من فرض هيبة الدولة، كما لابد من كسر شوكة اليرلية والزرب، ونشب الاصطدام بين الطرفين وذهب ضحيته عدد كبير منهما، وتحول الصدام إلى حرب شوارع في حي القنوات والشاغور والميدان، وتمكنت قوى الزرب من تطويق السرايا، وأجبرت الوالي على الفرار منها إلى جامع المعلق ومنه إلى خان الدالاتية. وفي النهاية تمكنت من قتل

(١) نفس المصدر. ص ١٣٧.

(٢) انظر: مجهول. مذكرات تاريخية. ص ٢٦.

(٣) انظر: الدمشقي، ميخائيل. المصدر السابق. ص ٥٠.

الوالي مع عدد كبير من جنوده . واستطاعت قوى الزرب أن تنفرد بحكم دمشق بدءاً من ٢٥ تشرين الأول ١٨٣١م/محرم ١٢٤٦هـ . وأجبرت السلطات العثمانية على الاعتراف بها، وغض الطرف عما قامت به في دمشق مرحلياً، أمام الخطر الأكبر المتمثل بزحف قوات ابراهيم باشا المصري على بلاد الشام . ولقد زاد موقف الدولة العثمانية، القوى اليرلية غروراً وثقة بالنفس، «فسارت بالعراضات في أحياء دمشق تحرض على القتال»^(١) ضد ابراهيم باشا المصري القادم إليها . وخرجت بعد ذلك لملاقاته في سهل كوكب . وفي ١٤ محرم ١٢٤٧هـ/١ حزيران ١٨٣٢م . وجرى الصدام بين الطرفين، فلاذت قوى الزرب بالفرار مخلفة وراءها عشرة أنفار قتلى كان أحدهم «لحام دكانه في باب البريد حليبي اسمه سعود رجل مشهود له بالمرجلة»^(٢) .

وتشتت قوات الزرب نتيجة لتعقب ابراهيم باشا المصري لفلولهم، لضمان سيطرته وتوفير الامن والاستقرار في دمشق، وأدى ذلك إلى تناقص عددهم وتدنّي شأنهم، وبقي حالهم كذلك إلى أن استعادت القوات العثمانية دمشق سنة ١٨٤٠م/١٢٥٥— ١٢٥٦هـ فقامت بتصفية حسابها مع من تبقى من زعمائهم الذين قادوا الثورة ضد الوالي محمد سليم باشا .

الرشوة والغش وأسبابهما

استفحلت هاتان الظاهرتان نتيجة لتردي الأوضاع الاقتصادية . وترتب على تلك الأوضاع أن وقع ضعاف النفوس والجشعون تحت وطأة الطمع، فأنحرفوا عن الطريق السوي، ومالوا إلى الرشوة، فانتشرت بين موظفي الدولة على اختلاف درجاتهم، وأصبح أمرها معروفاً لدى العامة والخاصة، وشملت وظائف الدولة من القمة في استانبول الى أدنى مستوياتها في دمشق تقريباً، وأصبحت المناصب العليا (كالولاية— والداfterدارية— والقضاء— والإفتاء— ونقابة الاشراف وغيرها)، لا تمنح بحسب الكفاءة بل مقابل مبلغ من المال، وأقيمت أسواق المزايدات عليها بين الطامعين، فاستلمها أناس غير أكفاء . فكان من الطبيعي أن يسعى

(١) انظر: البيطار، عبد الرزاق . حلية البشر ... ج ١ . ص ٣٢٠ .

(٢) مجهول . مذكرات تاريخية . ص ٥٤ .

هؤلاء لتعويض ما دفعوه ثمناً لمناصبهم ، بالإضافة إلى ادخار مبالغ من المال لأيام قد تدعو اليها الحاجة بعد العزل ، خاصة وأنهم يعلمون أن المنافسين ينتظرون دورهم للحصول عليها .

ونشج عن ذلك ، أن أهمل أصحاب المناصب مهامهم في الغالب ، وتغاضوا عن إجراء أي إصلاح ، والتفتوا إلى تأمين مصالحهم الخاصة ، فأرهبوا الشعب بطلب المال ، ومارسوا الظلم من أجل جمعه ، فتفاقمت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية ، وضاعت حقوق الضعفاء ، وطغت المحاباة على الحقوق في دوائر الدولة المختلفة ، وعم الفساد والرشوة ، وأصبح ماعداهما شذوذاً في نظر المجتمع الدمشقي . وحسبنا أن نسوق مثالا على ذلك ما أورده الإخباري الدمشقي الشيخ أحمد البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ - ١٧٤٩ م يقول : « إن أهل دمشق سعوا لعزل قاضي الشام السيد محمد أفندي بشمقجي زاده لأنه لا يأكل الرشوة ولا يميل في دعوى »^(١) .

ويورد المرادي مثالا آخر على تفشي الرشوة بين أصحاب المناصب الدينية وكيفية سعي البعض لمحاربتها فيقول : « إن المفتي الحنفي بن العمادي كان يزجر أمين الفتوى على !! كإني خوفاً من إدخال الرشوة في أمور الفتيا عليه » ... ويردف المرادي قائلاً : « رحم الله العمادي رحمة واسعة حيث قطع أيدي المرتشين »^(٢) . مما يدل على انتشارها بين أصحاب المناصب الدينية .

ويذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار في حلية البشر « ان السيد أسعد أفندي بن نسيب أفندي حمزة الدمشقي كان يتنقل في مجالس الحكومة من مجلس إلى آخر عضوا من الأعضاء وإن الناس تقصده لجلب التفع ورفع البلاء ويقدمون له جانيا من الدراهم والدنانير ليساعدهم فيقبلها على طريق الهدية من غير تأخير »^(٣) .

وعندما استفحل أمر الرشوة وشراء المناصب بالمال ، اضطرب السلاطين لاصدار فرمانات شاهانية لتحذير جميع العاملين في الدولة من الظلم والرشوة . إذ لا يفي تعيين مثل هؤلاء بالغرض بل يكون عبئاً على الدولة والشعب^(٤) .

(١) حوادث دمشق اليومية . ص ١٣٢ .

(٢) المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر ... ج ٣ . ص ٢٢٩ .

(٣) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر . ج ١ ، ص ٣١٠ .

(٤) انظر : سجلات الوثائق التاريخية بدمشق . المجلد الثاني . الوثيقة رقم ١١ / ص ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ص ٢٢ / تاريخ ٢٣ ح / سنة ١٢٤٤ هـ . ثم الوثيقة رقم ١٤ / ص ٢٤ و ٢٥ . تاريخ ٢٣ / ٧ / ١٢٤٤ هـ .

أما الغش فقد انتشر بدوره وكانت دوافعه نفس الدوافع إلى الرشوة. وشملت هذه الظاهرة بعض أفراد العامة من مجتمع دمشق، كالحرفين والصنّاع الغرباء المقيمين فيها وغيرهم، « طلباً للرزق أو طعماً في جني المرباح، فشمل نواحي عديدة كصك النقود وحرفة البزاز والبنّي والصبان والحلاب والحناوي والخباز والبرازقي والقشاطر والبوايكسي والدلال والسمسار والعميل والضمان للبساتين والفواكه والطبيب والساعاتي والرمال والعرافة والمنجم والراقي والسائل والكلاب والسراق»^(١). وغيرهم. وتطالعنا كتب التاريخ لهذه الفترة بحوادث عديدة من عمليات الغش، التي أدخلت إلى المواد الاستهلاكية. فمثلاً البديري يورد في أحداث سنة ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ - ١٧٤٨ م أن رجلاً باع جرة على أنها مليئة بزيت الزيتون، فإذا هي مليئة بالماء وعلى وجهها بعض الزيت^(٢)، كما أدخل الغش إلى القشطرة والأرز الناعم^(٣)، وأضاف بعض الحلايين الماء إلى الحليب وباعوه على أنه خالي الغش، وأضاف بعض الخبازين إلى دقيق القمح دقيق الفول أو الحمص أو الكرسة أو التراب أو الصفة (الرماد)، حتى أصبح «لاتأكله البهائم»^(٤).

ووقع الخبازون أسرى غش الطحانة للدقيق المباع لهم، ويعلق القاسمي على فعل الطحانة بقوله: «ندر من استمرت ثروته منهم إلى آخر حياته، وذلك لما انطوى عليه أصحاب هذه الحرفة من الغش الواضح البين، وهو طحن أصناف الحبوب التي قيمتها دون الحنطة، كالذرة والناعم من طحين البرغل وما ييس من البطاطا وادخالها مع طحين الحنطة وبيعها إلى القرانة»^(٥).

وأدخل بائعو الفحم الخشبي الحجازة إليه. ويعلق القاسمي على ذلك بقوله: «لا يفلحوا ما لم يتوبوا»^(٦).

أما المطربازيون الذين كانوا يبيعون الأمتعة، فقد سلكوا طريقاً آخر في الغش

(١) انظر: السباعي. أضواء على قاموس الصناعات الشامية. من ص ١٥٥ إلى ص ١٦٤. نقلاً عن القاسمي

(٢) حوادث دمشق اليومية. ص ١٥٥.

(٣) القاسمي، المصدر السابق. ج ١. ص ١٠٥ و ج ٢. ص ٣٥٣.

(٤) القاسمي، المصدر السابق. ج ١. ص ١٢١.

(٥) قاموس الصناعات الشامية. ج ٢. ص ٢٩٠.

(٦) القاسمي، المصدر السابق. ج ٢. ص ٢٣٦.

والاحتيايل ، فكانوا يتواطون على من يريد بيع أمتعته لحاجته إلى ذلك « فيشترونها بربع ثمنها ، وإذا ما ذهب البائع يتزايدون فيما بينهم . الا أن هذه الحرفة عديمة البركة لكثرة الغش »^(١) . وثوياً أصحاب البساتين من غوطة دمشق في موسم ضمان الثمار مع بعض الضمانة لرفع أسعار الضمان وإيقاع البسطاء من الضمانة في اشراكهم)^(٢) . ووجد النصاب الذي يذهب إلى القرى أو إلى البدو ، فيتعمم بشاش أخضر ، ويتوكأ على عصا معروفة (بالجوكالانة) تارة يرقى وأخرى . يكحل ، ويصحب معه ورقة ملفوفة بأخضر يزعم أن فيها نسبه أو سند طريقته^(٣) .

وهكذا اختلفت الاساليب والطرق الملتوية من أجل جني المال والكسب غير الحلال . على أن أسوأ أنواع الغش في هذه الفترة ، ما انصب على خلط النقود بمعادن خسيصة أو التنقيص من وزنها . فانعكس ذلك على قدرتها الشرائية بشكل سلبي ، وشمل ضررها كل من تعامل بها .

وتعود عملية خلط النقود بمعادن خسيصة إلى عوامل خارجية وداخلية ، أحاطت بالدولة العثمانية ، كان من أهمها استعمار العالم الجديد من قبل الدول الأوربية ، وتدفق المعادن الثمينة إليها ، ثم تحول معظم طرق التجارة الدولية من الشرق الأقصى إلى أوروبا ، عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ثم انعكاس حركة التجارة عبر بلاد الشام . فأدى ذلك إلى حرمان العثمانيين من دخول كبيرة .

ناهيك عن تفوق أورلا عسكرياً مما حرم الدولة العثمانية من غنائم الفتوحات ولعل أشد الضربات الموجعة التي وجهت إلى اقتصاد الدولة العثمانية كانت في قيام الثورة الصناعية في أوروبا اعتماداً على طاقة البخار ، فأدى ذلك إلى تفوق المصنوعات الأوربية كماً ونوعاً . فكنت المصنوعات المحلية من الأسواق ، كما اتبع الأوروبيون طريقة البيع بالنقد بدلاً من المقايضة بالبضائع العثمانية مما أدى إلى نزف كبير في المعادن الثمينة ، واستقرت في جيوب الأوربيين ، وشكل ذلك ضغطاً كبيراً على نقد الدولة العثمانية ، فأريك اقتصادها ، وعجزت عن حل تلك المعضلة رغم أنها سلكت سبيلين إلى ذلك :

(١) القاسمي ، المصدر السابق . ج ٢ . ص ٤٥٠ .

(٢) القاسمي ، المصدر السابق . ج ٢ . ص ٢٨٥ .

(٣) القاسمي ، المصدر السابق . ج ٢ . ص ٤٨٤ .

أولهما إدخال المعادن الخسيسة في صك نقود جديدة وطرحها للتداول بين أيدي المواطنين ، مما أدى إلى انخفاض قدرة النقد الجديد الشرائية ، فارتفعت الاسعار وحاول المواطنون الاحتفاظ بالنقد القديم والتعامل به بدلاً من النقد الجديد ، وكان النقد المتداول عديد الأنواع ، فمنه العثماني ومنه الأوربي ويمكن رصد هذه الأنواع في سجلات محاكم دمشق . كالبارة والقرش الميري الصباغ والقرش المعاملة الشامية ، وهناك النقود الذهبية المجرية و البندقية والتمساوية والانكليزية والاسبانية وغيرها .

أما السبيل الثاني الذي سلكته الدولة العثمانية فهو : سحب المعادن الثمينة من المواطنين ، فطلبت منهم تسليم ما بحوزتهم ، وما يمكن الاستغناء عنه لدى النساء والرجال ، كالخيل وبعض الحاجيات الخاصة ، وما استخدم منه في صناعة رخوت الخيل والجمال والغلايين وأبزاز وعلب التبغ وغيرها .

ونتج عن ذلك أن سعى بعض الطامعين والجشعين لاقتناص هذه الفرصة ، فجنوا مرابح كبيرة باستخدامهم أساليب الغش المختلفة . وكان على رأس هذه الفئة الصيارفة والتجار والمهربون وغيرهم . أما الصيارفة فقاموا بتخفيض وزن النقد المضروب مجدداً . وقام آخرون بضرب نقود مخلوطة بمعادن خسيسة ، وقاموا بترويجها في الأسواق للتداول خفية عن الدولة . ويذكر البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ / ١٧٥٠ م أنه « جرس رجل في دمشق قيل أنه يدق الزغل في المعاملة فركب حمار بالمقلوب وسخم وجهه بالسواد وآلة العمل (الضرب) على صدره ودير به في البلد كلها »^(١) .

وتطالعنها سجلات الوثائق التاريخية في المتحف الوطني بدمشق ببعض الفرمانات الصادرة عن الباب العالي ، والموجهة إلى والي دمشق والسلطات المالية فيها ، تحضهم على فرض التعامل بالنقود الجديدة وملاحقة الغشاشين ومهربي النقد القديم .

ومما جاء في نص فرمان سلطاني صادر في عام ١٢١٧ هـ / ١٨٠٢ - ١٨٠٣ م أن الدولة العثمانية منذ عدة سنوات تخوض حروباً لتأديب عصابات الروم الموجودين على الحدود مدفوعين من قبل الروس واضطربنا لدعوة عدد كبير من الجنود للتصدي لهم وسبب ذلك

(١) حوادث دمشق اليومية . ص ١٦٢ .

للدولة مصاريف باهظة وتلافياً للنقص الخطير في ميزانية الدولة فقد أصدرنا بعض النقود من فئة خمسة قروش و ١٠٠ مصرية و ٢٠٠ مصرية لتخفيض الاعباء عن كاهل الخزينة السلطانية ووضعتنا هذه النقود في التداول وهي ممهورة بخاتمنا فعلى جميع المسؤولين التعامل بها»^(١).

إلا أن استجابة الدمشقيين لذلك كانت سلبية، فاحتفظوا بالنقود القديمة وتعاملوا بها، واستمر الغشاشون بضرب النقود بوسائلهم الخاصة، واستمر تهريب واحتكار النقد القديم من قبل تجار السوق السوداء. فاضطرت الدولة لإصدار فرمانات أخرى نعتت أولئك: «بأصحاب النفوس المريضة الذين يستغلون ظروف الدولة الصعبة لارضاء جشعهم واملاء جيوبهم بشكل غير مشروع»^(٢).

وكان لابد للدولة العثمانية بعد ذلك من اتخاذ اجراءات حاسمة، فأرسلت بعض موظفيها إلى دمشق للاشراف على تبديل النقد الجديد، ووضعه للتعامل في يد الدمشقيين، ثم ملاحقة المتلاعبين بالنقد والغشاشين. فأرسلت في سنة ١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ - ١٨٣٠ القائمقام أحمد خلوصي مع بعض الموظفين، وحملته اختام السلطان لختم النقد المضروب في دمشق منعاً للتلاعب وعندما وصل إلى دمشق أقام مركزاً لضرب النقد وتبديله. ثم بث العيون لمراقبة المتلاعبين بالنقد وملاحقتهم. واستطاع أن يلقي القبض على بعض تجار السوق السوداء في هذا المجال وكان منهم: «التنجي أوغلي وصنجد بك. ورئيس الصيارفة وشريكه حسن وصاحب الخان حاج محمد قسطنموني حيث كانوا يتجمعون في إحدى التكايا ويخبئون فيها النقود المهرية»، وطلب من استانبول نفيهم إلى أماكن بعيدة عن دمشق ليكونوا عبء لغيرهم^(٣).

٣ - السرقة والسطو والبلص

كانت هذه الظواهر أيضاً من إفرازات الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية السيئة التي أحاطت بدمشق في تلك الفترة.

(١) انظر: المجلد ٢ الوثيقة رقم ٣٣ / ص ٣٩ و ص ٤٠.

(٢) المجلد ٢ / الوثيقة رقم ٤٣، ص ٥٢ القسطنطينية ٢ ربيع الاول ١٢٤٥ هـ.

(٣) انظر: المصدر السابق المجلد ٢ / الوثيقة رقم ٤٤ / ص ٥٢.

ولقد أخذت السرقة تسميات مختلفة في بحسب الطريقة التي اتبعت في تنفيذها . فالسراق مثلاً هو الذي يأخذ مالا خفية من حرز بليل أو نهار ، ويسمى أيضاً الحرامي باصطلاح أهل الشام ولقد اشتقت الكلمة من (الحرام) لحصوله على مال حرام وبطريقة غير مشروعة ، ثم النشترى وهو من يراقب شخصاً معه كيس دراهم مثلاً وينظر أين وضعه من ثيابه فيحاذيه في المشي سيما في الازدحام فيسحبه من جيبيه إذا أمكن وان لم يقدر شق ثوبه بسكين صغير يسمى «النشتر» ويأخذ ما معه^(١) . ولقد وجدت هذه الفئات من اللصوص في دمشق آنئذ كما وجد من يصرف لهم مسروقاتهم كالبيسطاطي^(٢) مثلاً . وتعاون اللصوص فيما بينهم في قرى الغوطة الغربية والشرقية ، فكان بعضهم يقوم بسرقة الحيوانات والمواشي في أماكنهم ويبيعونها في أماكن بعيدة عنهم كي لا يكشف أمرهم .

وكانت العادة ، عندما يتعرف صاحب السلعة المسروقة عليها ، أن يذهب إلى القاضي ليبلغه ذلك ، فيرسل الأخير توفتكجيا أو أكثر (بمثابة شرطي) لاستدعاء المدعى عليه إلى المحكمة ، ويأتي بالشهود ويقوم بالفصل في الدعوى . ونسوق مثالا على ذلك ما حصل في سنة ١٢٢٢ هـ / سنة ١٨٠٨ م حيث ادعى زين بن اسماعيل الغزالي لدى نائب قاضي قضاة دمشق في المحكمة العونية على مصطفى الاسكندراني بأن في حوزة المدعى عليه فرسا شقراء تعود ملكيتها للمدعى ، وأنها سرقت منه منذ سبع سنوات . وبعد اجراء التحقيق والمحكمة تبين للقاضي أن الفرس قد اشتراها مصطفى الاسكندراني من بلاد بشارة ، وأن ملكيتها تعود للمدعى ، فحكم القاضي باعادة الفرس لصاحبها السابق (المدعى)^(٣) .

ورغم أن السرقة كانت عامة في المدينة والريف ، إلا أن المناطق الوعرة والطرق التي تمر بها ، وكذلك الممرات الاجبارية في وديان الجبال ، والطرق القريبة من الاحراج والغابات أو القرية من أطراف البادية ، كانت أكثر خطورة على المسافرين والسابلة من بقية المناطق الأخرى ، على اعتبار أن تلك المناطق بعيدة عن حماية السلطة من جهة وقرية من مناطق لجوء اللصوص من جهة ثانية .

لهذا نرى سجل محكمة حماة مليء بمثل هذه القضايا ، ومعظم السرقات انصبت على

(١) القاسمي : قاموس الصناعات الشامية / ج ١ ، ص ١٨٣ .

(٢) البارودي ، فخري . مذكراته . ج ١ ، ص ٧٤ .

(٣) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠ / القضية بتاريخ ٩ رجب ١٢٢٢ هـ .

المواشي والحيوانات والمختلفة سواء من مراعيها أو مرابضها، أو أخذت عنوة من أصحابها (تشليح وسطو) لتباع بعد ذلك في bazارات بعيدة عن حماة^(١).

ولم يكن، حال أطراف دمشق وأرياضها وريفها بشكل عام، أفضل مما كان عليه الحال في حماه، ويقول القاسمي: «لا يمكن لأحد أن يغفل عن داره أو بستانه إلا وتلعب فيه أيادي أولئك الأشرار. فلا يجدون متاعاً إلا أخذوه ولا حيواناً إلا وأحرزوه.. هؤلاء الأشقياء يتألفون من جملة أشخاص في كل قرية أو شخصان، فإذا ما سرقوا شيئاً ما من قرية غربي دمشق، يقوم رفاقهم المقيمون في القرى الشرقية أو الشمالية بتخبئته ونقله. ولم يخل يوم من وقوع سرقة أو جملة سرقات^(٢)».

وفي مدينة دمشق لم تنج جوامعها أو أضرحة الأولياء، وحتى قبور الموتى فيها، من شر اللصوص، ويذكر البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٦٦هـ/ ١٧٥٢-١٧٥٣م أن لصوصاً قاموا «بنهب ضرائح الصحابة والأولياء في غرة رجب فخلعوا شباك سيدي بلال الحبشي، وأخذوا شباك مزار الشيخ عبد الجبار بن سيدي عبد القادر كيلاني الذي يقع في غربي باب الصغير، وأخذوا ثوب تابوت سيدي أبي الذي يقع قبلي حضرة الشيخ رسلان^(٣)». وفي سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦-١٧٩٧م وجد أناس في الشاغور «اعتادوا على تشليح الموتى وقام الوالي باعدام اثنين منهم شنقاً^(٤)». ولم تنج قافلة الحجاج من اللصوص.

وبرع بعض اللصوص في دمشق وذاع صيتهم. ويذكر البديري في أحداث سنة ١١٦٤هـ/ ١٧٥٠-١٧٥١م «أنه في ٨ جمادى الأولى اغتيل رجل شقي من الصالحية يعرف بالفستقي كان كما قيل داهية دهماء ومصيبة عظماء شجاع يرد مائة شجاع بعصا، سارق ما سمع بمثله بين اللصوص المشتهرين بالحيل فمتى وضع يده على أعلى حائط ومتى علق

(١) انظر: سجل محكمة حماة رقم ١٢٥١/٥٠ - ١٢٦٣هـ حيث ورد في ص ٢٥٤ «سرقة بغل وفي ص ٢٤٧ سرقة حمار أسود وفي ص ٢٤٦ سرقة بغل أغبر اللون وفي ص ٢٥٤ سرقة فرس حمراء وفي ص ٢٦١ سرقة فرس شقراء اللون وفي ص ٢٤٤ سرقة فرس زرقاء اللون وفي ص ٢٤٢ سرقة حمار أخضر اللون وفي ص ٢٢٣ سرقة ثور أغبر أزرق وفي ص ٢٢٢ سرقة ثور أحمر أعترا أكحل».

(٢) القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات... ج ٢. ص ٤٠١ و ٤٠٢.

(٣) انظر: البديري. المصدر السابق. ص ١٧٥.

(٤) الدمشقي، ميخائيل. تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص ٤٨.

ظفـره به صار بأعلاه ، وإذا أغلق عليه الباب وقفل خرج منه مهما كان ، وهذا كله لم يتجاوز العشرين من عمره»^(١).

ولقد استفحل أمر اللصوص وأقضوا مضجع المدينة وريفها^(٢) ، فحاولت السلطات ملاحقتهم واستخدمت أشد العقوبات ضدهم . ففي سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٨ - ١٧٤٩ م قام المتسلم في دمشق بشنق ثلاثة اللصوص في شجرة الدلبة التي في المرجة أمام باب تكية^(٣) - السليمانية . ومع ذلك لم يقض على هذه الظاهرة ولم يمتنع بقية اللصوص عن السرقة . ويقول العبد في أحداث سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ - ١٨٠٥ م «الحرامية متوالية كثيرون في الشام»^(٤) . ولم تخف وطأة السرقة واللصوص إلا في فترات الهدوء والاستقرار وسيادة الأمن ، كما في عهد محمد باشا العظم حيث يقول المرادي : «راقت دمشق وما والاها في أيامه وصفا لاهلها العيش ، ونامت الفتن وسلم الناس مع الإحن»^(٥) .

أما ظاهرة السطو والتشليح فكانت تمارس ضد المستضعفين ، من أبناء الشعب والفلاحين وأبناء السبيل وقوافل التجارة غير المسلحة وقوافل الحجاج في بعض الأحيان ، وقام بهذه العمليات عناصر مختلفة ، منهم اللصوص وقطاع الطرق المسلحون ، وكذلك الجنود والبدو^(٦) .

ولقد أورد مؤرخو تلك الفترة حوادث عديدة من عمليات السطو والنهب وقطع الطرق وذكروا بعضاً ممن فقد حياته على يد أولئك الأشرار . فيذكر البديري في أحداث سنة ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ - ١٧٥١ م «يوم الاثنين ٢٢ جمادى الثانية قتل اثنان من رعيان التركان في أرض الغوطة في الحفرة على يد بعض المغاربة ظنوا أن معهم مالا فعندما أوقعوا بهما ذلك الحال وجدو مع أحدهما ربع ريال والثاني قليلاً من الفلوس فرجعوا خاسرين الدنيا والدين»^(٧) .

-
- (١) حوادث دمشق اليومية ، ص ١٥٦ .
 - (٢) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .
 - (٣) المصدر السابق ، ص ١٧٣ .
 - (٤) حسن آغا العبد . تاريخه ، ١١٩ .
 - (٥) المرادي . سلك الدرر . ج ٤ ، ص ١٠١ .
 - (٦) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية ، ص ١٥٢ .
 - (٧) انظر : البديري . المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

ويذكر المرادي أن قطاع الطرق بين القدس والخليل قتلوا يحيى الدجاني الشافعي الخلوئي وقام قطاع الطرق في شعبان من عام ١١٨٥ هـ / ١٧٧٠ / ١٧٧١ م / بقتل السيد بعقوب الكيلاني الحموي الدمشقي على طريق المصرة^(١) ولهذا اضطر المسافرون من مكان إلى آخر لتوقيت سفرهم ضمن القوافل المحروسة تحسباً لكل طارئ .

ولقد نفذ الجنود والبدو أخطر عمليات السطو والنهب ضد الفلاحين والحواضر . وخاصة الجنود المرتزقة (الدالاتية واللاوند والسكبان والمغاربة)^(٢) . والمواصلة والتكارتة والبغادة وغيرهم . ويمكن تفسير هذه الظاهرة بالعوامل السابقة بالإضافة إلى أن هؤلاء كانوا يرتزقون من خلال تقديم خدماتهم كمقاتلين لمن أراد ذلك ، مقابل أجور معينة فعملوا لدى الولاة وبعض الأمراء والاقطاعيين والمليين وغيرهم . ولم تكن رواتبهم دائمة ، كما أنها لم تسد حاجتهم ، لهذا استغلوا أية ساحة لاغتصاب الاموال والأعراض ، والأمثلة على ذلك كثيرة في تلك الفترة ، ففي سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ — ١٧٩٩ م عزل عبد الله باشا العظم عن ولاية دمشق وخرج منها وبصحبته عدد كبير من جنوده « فابقا العسكر في البلاد يومين وليلتين حتى نهبوا القرايا من مأكول ومنظور حتى غالب البلاد عزموا على الرحيل لأجل الضرر الذي حصل لهم »^(٣) .

وعندما قام والي دمشق الكنج يوسف باشا بحملة ضد مصطفى بربر الموجود في قلعة طرابلس قام جنود الوالي المذكور « بنهب بعض بلاد الشام من قرايا الشام وغيرهم »^(٤) ، وعندما تصدى هذا الوالي للبدو في منطقة المرج شرقي الغوطة « نهب جنوده في طريقهم كم ضيعة »^(٥) .

ولقد أذاق زبانية الجزار دمشق الأمرين من عمليات البلص والابتزاز ، ولم ينج أحد من

(١) سلك الدرر . ج ٤ ، ص ٢٢٨ و ص ٢٣٥ .

(٢) لقد جاء في أحداث سنة ١٨١٢ م من كتاب « تاريخ حوادث الشام ولبنان » ما يلي : « كان عسكر المغاربة وغيرهم يكمنون في الطرقات وكل من وجدوه هارباً يعرفوه وقتل جملة أنفار من حرافيش البغادة الذين كانوا بالقلعة . فانعرض للباشا عن تصدي العسكر فأمر لرؤسائهم أن يجمعوا ناسهم ويمنعوهم ممن الاذى » . انظر مجهول . ص ٥٦ . تحقيق سبانو .

(٣) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخه ، ص ٤٥ و ص ٤٦ .

(٤) انظر : العبد أيضاً ص ٨٧ .

(٥) انظر : العبد أيضاً ص ٩٣ .

أبنائها من مظالمهم وابتزازهم . ويقول حسن آغا العبد معلقاً على ذلك بقوله : « الطرح على الخلق أشكال وألوان من بن وتنباك وآلاجة وحرير وشاشات وزنانير وبيوت وخانات وبيساتين وعثمانة ووظائف غير ذلك والعياذ بالله تعالى^(١) » وعندما توفي الجزار وأجبرت دمشق جنوده على مغادرتها قاموا « بنهب المزة والمعضمية والجديدة وعرطوز وهكذا جميع البلاد هلي في طريقهم من حمير ومغل وأواعي وغير ذلك »^(٢) . وفي عهد خلفه ابراهيم باشا الدالائي (قام الجنود بنهب البلاد وبعد عودته من الحج قام جنوده بنهب قرى الغوطة) ويعلق العبد على ذلك بقوله : « دشرهم على ضيعع الشام »^(٣) .

ومن جهة أخرى شاهدت شوارع دمشق عمليات خطف الأشياء الثمينة من أصحابها ، ولم تنج حتى عمائم الرجال الثمينة من ذلك^(٤) ، وكانت تلك العمليات تتم ليلاً وفي المنعطفات « ويتحدث الناس صبيحتها أن فلاناً خطفت البارحة عمته »^(٥) .

وحاول المصريون ابان حكمهم دمشق القضاء على تلك المظاهر السلبية بالقضاء على مسبباتها الاساسية ، فشملت اجراءاتهم مجالات الحياة المختلفة في بلاد الشام ، الاجتماعية والقضائية والاقتصادية والسياسية ، وسعوا لتوفير الامن والاستقرار ، فجمعوا السلاح من الأهلين ووزعوا قواتهم لحفظ الأمن في شوارع دمشق^(٦) ، وقاموا بمطاردة المشاغبين والزعر العابثين بالأمن^(٧) ، وأشركوا في مجلس الشورى أفراداً من أسر دمشق البارزة لضمان ولائهم وسعوا لتوطين الفلاحين في القرى المهجورة وأصلحوا بعض الأراضي ومجاري الأنهار^(٨) ، أملا

(١) انظر : العبد . تاريخه . ص ١١٢ .

(٢) العبد . أيضاً . ص ١١٦ .

(٣) انظر : العبد . أيضاً . ص ١٢٠ .

(٤) كان بعض الخاصة والاعنياء مرتدين عمامات من الاغباني يطلق عليها اسم عزيز خان وكانت غالبية الثمن يصل ثمن الواحدة الى خمسمئة قرش ولهذا أغرت النشترية في سرقها .

(٥) قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ . ص ٣٧٥ .

(٦) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص ٦١ .

(٧) المصدر السابق . ص ٦٠ .

(٨) ففي سنة ١٨٣٣ م / ١٢٥٠ هـ تم تنظيم سورية إدارياً وشكل المصريون مجالس شورى مكوناً من ٢٢ عضواً من أعيان دمشق دون تمييز ديني ، وكانوا من المسلمين والمسيحيين واليهود ، وأسندت الادارة المالية الى شخصية مالية قديرة هو (حنا البحري) فتمكنوا من تنفيذ مشاريع اجتماعية وادارية ومالية كثيرة وترميم مشاريع سابقة ... وتفرغ ابراهيم باشا هذه السنة لدراسة وضع الفلاحين والتجارة ، فأسس في دمشق البنك

في خلق مجتمع يسوده العدل وتتوفر له أسباب الرزق فتضمحل تلك الظواهر السلبية التي هي من صفات عصر الانحطاط .

تناول المخدرات ومعاقرة المسكرات

٤ — وقف مجتمع مدينة دمشق الاسلامي موقفاً مضاداً وصريحاً من كل مادة تخامر العقل ، أو لاتقرها الشريعة الاسلامية سواء كانت مخدراً أو مسكراً ، وكانت أية محاولة لخرق هذه النواهي أو التقاليد تقابل بالرفض والاستهجان .

إلا أنه مع ذلك نلاحظ تزايداً في معاقرة الخمر وتناول المخدرات في هذه الفترة ويمكن تفسير هذه الظاهرة على أنها عملية هروب للانسان من متاعب الحياة الناتجة عن الظروف السيئة التي أحاطت بدمشق على المستويات المختلفة ، فأقدم البعض على شرب الخمر ، وأكلوا المشيش المسمى بورق القنب وتناولوا الأفيون والبنج^(١) . وتناولوا أنواعاً من المخدرات على شكل سراب أو لعوق أو معاجين . وكان من المعاجين نوع يسمى البرش ، وهو ما صنع من الفلفل الأبيض والأسود وأوراق نبات القنب والأفيون وغيرها^(٢) .

إلا أن معلوماتنا تبقى ناقصة عن عدد الذين كانوا يتناولون المخدرات في دمشق في هذه الفترة ، إذ أن المصادر أغفلت ذلك ، وربما لأن تعاطيها كان سراً ومرفوضاً من المجتمع والسلطة

الزراعي لإقراض صغار الفلاحين والملاكين ، وقام بتوسيع مجاري الانهار والقنوات للمساعدة على الري وتوسيع الزراعة . وقام بتجفيف المستنقعات ، وأمد الفلاحين بالبذور المحسنة من الشونات (المستودعات الميرية) ... ويقول القنصل الفرنسي في اللاذقية وهو الميسو (جيوفروا GEAOYFROY) إن ابراهيم باشا قد أجبر الفلاحين على زراعة عدد كبير من أشجار التوت والزيتون والعنب في كل قرية فتضاعفت زراعة منطقة اللاذقية وأجبر البدو والرحل على الاستقرار على الأرض وزراعتها فزرعت أراضي لم تزرع من قرون ... كما يذكر الدكتور جون ياورتنج أنه لا يوجد محصول فلاحي نقصت زراعته في سورية وإنما حصل العكس في عهد ابراهيم باشا المصري فجميع أنواع الخضار والحبوب كموايد للتصدير أصبحت تزرع على نطاق واسع في كافة أنحاء سورية كما أجبر كبار الموظفين والاعنياء من السكان على إعادة بناء القرى المهجورة وزرع أراضيها فقامت نهضة زراعية عارمة في مقاطعات حلب وانطاكية وعنتاب وبيلان وكلس ودمشق ... ٥ . انظر :

Enkiri Gabriel: Ibrahim Pacha. PP.291.292.293

- (١) الأفيون هو ما استخرج من الحشائش . انظر : ابن عابدين ، رد المحتار ... ج ٢ ص ٥٨٣ .
- (٢) البكري ، عادل . مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . ج ١ المجلد ٤٨ / ص ١٧٣ و ص ١٧٤ و ص ١٧٥ / ذو الحجة ١٣٩٢ هـ / ٢٤ / ١٩٧٣ م .

على حد سواء . وحسبنا أن نسوق مثالا على استهجان ذلك ما ورد في كتاب المرادي « أن ابراهيم بن سعد الدين كان يأكل البرش المعجون »^(١) ، ويقصد بذلك أن سلوكه هذا كان مستهجناً ، خاصة وأنه سليل أسرة دينية فيها مشيخة الطريقة الصوفية السعدية ذات الشأن في دمشق .

أما الخمرة فقد تعددت أنواعها . فمنها ما صنع من العنب والتين والبلح ، وقام بصناعتها أهل الذمة إلا أنه لم يسمح لهم باحتسائها علناً^(٢) . ومع ذلك فإننا نرى عدداً من الجنود (خاصة الغرباء منهم) والزرب وبنات الهوى وغيرهم ، كانوا يشربونها سرّاً وعلناً ، متحدّين بذلك التقاليد العامة ومشاعر المجتمع . وأصبحت بعض الخانات والمقاهي مكاناً للشرب والشاربين . ولقد اعتبر رجال الدين أن ذلك من أسباب النكبات والمصائب التي حلت بدمشق ، حتى أن بعض الاخباريين يذكر هذه الظاهرة بمرارة وهو حسن آغا العبد حيث يقول : « السكر صار مباح في الشام »^(٣) .

وعندما أرسلت السلطات العثمانية قوات من استانبول إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة لحمايتها من الوهابيين ووصلت إلى دمشق بقيادة أحد الباشوات وعسكرت في التكية السليمانية ، منتظرة خروج قافلة الحج الشامي لتصاحبها إلى الديار المقدسة ، أمضت تلك المدة « على السكر ليلاً ونهاراً »^(٤) .

ومع ذلك بقي الخمر مستهجناً من مجتمع دمشق . ولهذا سعى بعض الولاة إلى كسب ود المسلمين في دمشق بمنع شرب الخمرة وحتى تخزينها وتقطيرها . ففي سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٦ م قام والي دمشق الكنج يوسف باشا الذي كان كردياً متعصباً وصوفياً نقشبندياً ، بإصدار أوامره إلى نصارى دمشق باراقة ما بحوزتهم من الخمر في الشوارع والطرقات وتحت ظائلة المسؤولية ، فارتق الخزون منها خوفاً من بطشه .

إلا أن ابراهيم باشا المصري سلك سلوكاً مغايراً في هذا المجال ، عندما أباح شرب الخمر

(١) سلك الدرر ... ج ١ . ص ٤٢ .

(٢) كان يطلب اليهم في أوائل العهد العثماني (حفر حفيرة والاختباء بها عندما يشربونها) . انظر ابن طولون . مفاكهة الخلان .. ج ١ . ص ٢٨٨ .

(٣) تاريخ حسن آغا العبد ، ص ١١٦ .

(٤) المصدر السابق . ص ١٢٢ .

وصنعها . ولم يكتف بذلك بل أوعز بإنشاء خمارة خاصة بالسلطات المصرية ، وتلزمها في مزاد علني ، مقابل مبلغ من المال « وبقي المزاد لمدة خمسة عشر يوماً حتى انتهى حال التزام الخمارة بسبعمئة كيس وصار ضمانها من عيد الصليب وضمنها يهود واسلام وأخذوا خان المصينة الذي في الخراب وقاعة النشا وعملوهم خمارة » ويعلق صاحب مذكرات تاريخية على ذلك بقوله : (تشوف الاسلام بأسوأ حال لأنه شيء قبل هذا عمره ما صار قبلاً بالشام)^(١) .

ويبدو أن ابراهيم باشا لم يقصد من إنشاء الخمارة الإساءة أو التحدي لمشاعر المسلمين ، بل أراد من خلال ذلك تقليد الغرب في كل شيء ، بما في ذلك صنع الخمر وشربها ، كطريقة لتحديث دمشق .

وأصبح يتردد على الخمارات ، بعض أبناء دمشق من المسلمين وغيرهم ، وأصبحت الخمر تباع في المقاهي وعلى قارعات الطريق .

إلا أن ذلك قوبل بمعارضة بعض المسلمين ، واعتبر تحدياً لمشاعرهم ومعتقداتهم . ولكنهم عجزوا عن مقاومته على ما يبدو ، مما أجج نار حقدهم على النظام المصري ، خاصة عند احتسائها علناً وفي العراضات . ففي سنة ١٢٤٨ هـ / ١٨٢٣ م صارت عراضة في حارة الخراب قوامها رجال مسيحيون وكان أحدهم يركب جملًا وبين يديه سودايتان من الخمر يجتسي منهما وعلى مرأى من المشاهدين المسلمين « فصاروا يكون من قهرهم »^(٢) .

الشذوذ الجنسي

ونقصد بالشذوذ الجنسي العلاقة الجنسية بين شخصين من جنس واحد (أنثى مع أنثى أو ذكر مع ذكر) وقد لعبت عوامل عدة في هذه العلاقة . فلم تكن الأوضاع الاقتصادية السيئة هي السبب في هذه العلاقة الشاذة فحسب بل أسهمت في ذلك عوامل اجتماعية كالتشدد في الحجاب ومنع الاختلاط بين الجنسين ، ثم العوامل النفسية البحتة .

إلا أن المصادر التي بين أيدينا لم تسعفنا في معرفة العلاقات الجنسية الشاذة بين النساء ، وجل ما بين أيدينا نتف من معلومات تتعلق بالعلاقة الشاذة بين الذكور .

(١) انظر : مجهول . ص ٦٦ .

(٢) انظر مجهول أيضاً . ص ٥٦ .

وإذا ما حاولنا رصد حالات الاختلاط بين الجنسين في بلاد الشام، نجد أنها لم تكن كما في أوروبا من جهة، ولم تدم هذه الحالات لفترة طويلة إذا حصلت صدفة في مناسبات معينة ولمدة محدودة، يصعب فيها انشاء علاقات عاطفية متينة بين الجنسين إلا في ما ندر.

وأهم هذه الحالات التي كان اللقاء يتم فيها هي: بمناسبة الاحتفال في العاشر من محرم (عاشوراء) عند قبر الست زينب في قرية روية، حيث يختلط الرجال بالنساء، وقد تحصل بعض المفاسد هناك نتيجة لذلك. ثم الخميس الثاني من شهر رجب من كل عام. وقصد بعض الجهلة من الرجال والنساء المساجد لقضاء وقت ممتع. فكانت النساء يجتمعن بالخطباء والمتشددين والوعاظ، وتخبر المرأة جاراتها بأن فلاناً المنشد الواعظ له صوت يرمي الطير^(١). وسعى الشباب إلى المساجد لمراقبة النساء وهن داخلات أو خارجات منها، كما ذهب فريق منهم للعب بالشطرنج والكعب والقدح والضرب بآلات فيها^(٢).

وشكلت بساتين الشام وجنائنها وضياف أنهارها منزهات لكلا الجنسين. ويذكر البديري في أحداث سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ - ١٧٥٠ م «أنه في ١٨ ربيع الأول خرجنا إلى سيران بناحية الشرف المطل على المرجة مع بعض أحبابنا وكان الوقت في مبادئ خروج الزهر وجلسنا مطلين على المرجة والتكية السليمية وإذا بالنساء أكثر من الرجال جالسين على شفير النهر وهم على أكل وشرب قهوة وتتن كما يفعل الرجال وهذا ما سمعنا بأنه وقع نظيره حتى شاهدناه ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٣) فشكلت هذه المناسبات والأماكن مجالا لاستراق النظرات بين الرجال والنساء ولو عن بعد إلا أنها مع ذلك لم تشكل اختلاطاً بين الجنسين إذا أن مجتمع دمشق قد رفضها رفضاً قاطعاً. والاختلاط الوحيد الذي كان مسموحاً به هو اختلاط الجنس الواحد. لهذا كان ثمة مجال لنشوء علاقات جنسية شاذة بين أفراد الجنس الواحد وبشكل سري. إلا أن المجتمع كان لا يستهجنها فحسب بل يقمعها بشدة. ولا غرابة

(١) مثل عامي محلي دارج يطلق للدلالة على الصوت الجميل الذي يطرب الطير فيتشني له فيقع.

(٢) أسى المقاصد. ص ٢٠ و ص ٢٨. نسمات الاسحار، ص ٢٠١ و ص ٢٠٣. كتاب التاريخ / ص ١٩٩ ب وتوجد من كتاب نسمات الاسحار عدة نسخ في ظاهرية دمشق أرقامها ٨٤٦ و ١٤١٥ و ١٤١٦ والكتاب أصلاً يذكر كرامات الأولياء والصالحين لكنه تعرض فيه بشكل مفصل لتقاليد الخطبة وعقد القران والزفاف في الشام مما لانجده عند غيره فكشف بذلك عن جانب هام من جوانب الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في تلك الفترة.

(٣) حوادث دمشق اليومية. ص ١٤٠.

في ذلك فان الشرقيين كانوا يرفضون أية علاقة جنسية بين جنسين مختلفين قبل الزواج فكيف يسمحون بعلاقة شاذة بين أفراد الجنس الواحد؟ إلا أنه مع ذلك استطعنا أن نرصد، اعتماداً على ما ورد في المصادر التاريخية لهذه الفترة، علاقات شاذة خاصة بين الذكور « اللواط ». ولم يكن الشذوذ في فئة اجتماعية معينة بل كان في معظم الفئات الاجتماعية في دمشق.

ويذكر المحبي في أكثر من موقع من كتابه، حوادث الشذوذ المختلفة، فمثلاً: « أبو بكر العمري الدمشقي من غريب خبره أنه هام بغلام أمرد وكان مجاوراً لحجرة في بعض المدارس فوجد في حالة لا يصح التصريح بذكرها القبيح فأمر به .. أن يطوق عنقه بساق ذلك الغلام ويطاف به في الأسواق بمشهد من الخاص والعام فاغتنمها فرصة وجعل يقبلها إلى الأقدام^(١) » ثم أبو السعود الدمشقي المعروف بابن الكاتب كان مغرماً بغلام وأنفق عليه مالا كثيراً وقتل نفسه هياماً به بأن أكل سبعة دراهم من الافيون^(٢). وهام أحمد القاياتي بغلام فكان القاياتي يجلس في دكان يقابل الدكان التي يعمل بها الغلام لمشاهدته^(٣).

ويذكر البديري في أحداث ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤ / ١٧٥٥ م أن « امرأة قتلت زوجها مع جماعة من الاشقياء، بدعوى أنه ينام مع مملوكه ولا ينام معها^(٤) ». ويذكر المرادي أن خطيب جامع السليلية في صالحة دمشق « كان ميالاً الى المرد والمعذرين^(٥) ».

ولقد تشدد بعض الولاة العثمانيين في دمشق في معاقبة اللواطيين، فمثلاً والي دمشق الكنج يوسف باشا أخبر في منتصف شوال من سنة ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ / ١٨٠٨ م أن « اثنين من الشباب قيل أنهما لاطا بعضهما فأرسل التفنكجي باشي وأحضرهما اليه وأمر بعد

(١) محمد بن فضل الله. خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر. ج ١. ص ٩٩ و ص ١٠٠.

(٢) المحبي: المصدر السابق. ج ١. ص ١١٨.

(٣) المحبي: المصدر السابق. ج ١. ص ١٦٧.

(٤) انظر: حوادث دمشق اليومية. ص ١٨٥.

(٥) سلك الدرر. ج ٢، ص ٢٠٦ ويذكر المرادي في ج ٣، ص ٢٠١ « أن مصطفى البيري كان يرفقه الشيخ مصطفى العمري الدمشقي في أحد الايام في محلة القباقيية بالقرب من دار العمري فنظر الى غلام كان يعمل في حانوت خاله لبيع التين. قدّمه مائل وورد تخلوده ذابل ... فقال له المترجم بعنا شيئاً من التين وأضف اليه شيئاً من المسك. فرد الغلام هذا المسك من خالي فقال المترجم:

بحبة مسك قد حباني جـؤذر وأشجى قواداً كسان من حبه خالسي
وقال ألا لا تحسب المسك من دمي لكـوني غزالا انما المسك من خالبي

ذلك بارسالهما الى جامع بني أمية والقائمتين من على مائدة العروس فرميا من فوقها فمات أحدهما بالحال والثاني بعد أربعة أيام»^(١)

ويذكر البيطار أن الشيخ أحمد الكامل المغربي المراكشي البصير كان يتغزل بالغلمان والشراب «وتواجد لهم تواجدا مغرقا في الارتياح قد دلنا صريح مقاله على حقيقة حاله . فاستخدم غلاما يزري بالقمر في ليلة أربعة عشر فأكثر الناس عليه القيل والقال وأخرجوه من دائرة الاعتدال وعرفوا ما أكنه وأسره وسلبوه ما كان عنده من الفرح والمسرّة .. وأخرجوه عن دائرة المروءة والنخوة وعلموا حاله واستندروا أمر حاله فلما عرف ذلك أخذ غلامه وسافر»^(٢).

ظاهرة العهر

لم يقبل مجتمع دمشق العربي الإسلامي ، بإقامة علاقة جنسية بين الذكر والانثى الا عن طريق الزواج أو التسري بما ملكت الايمان من الجوّاري والاماء ، حفاظا منه على الاسرة والنسب ، لهذا اعتبر أية علاقة عدا ما ذكرناه علاقة عهر مرفوضة ومستهجنة ، وترك باب التوبة مفتوحا لمن انحرفت . وقبلها في صفوف المجتمع كزوجة ، وعفا عما ارتكبه من فواحش اذا لم تعد اليها ثانية . والامثلة كثيرة على ذلك ، تطالعنا بها قضايا عديدة سجلت في سجلات محاكم دمشق وغيرها . فمثلاً الحرمة عائشة بنت باكير البلاجكلي في سنة ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧ - ١٨٠٨ م جاءت الى قاضي القضاة علي حسيب أفندي في المحكمة العونية بدمشق وأعلنت أمامه «أنها تابت إلى الله تعالى ورجعت عن جميع المعاصي وطلبت منه الموافقة على زواجها من أحمد العيسوي على صداق قدره ثلاثون قرشا صاغ . منه عشرون صاغ معجل وعشرة صاغ مؤجل لحين الفراقين .. وشهد لها شاهدان بالمحكمة»^(٣).

وفي سنة ١٢٥٩هـ / ١٨٤٣ - ١٨٤٤ م جاءت خالدية بنت عمر الشامية الى القاضي وأقرت بأنها خاطئة ومرتكبة للفحشاء وأنها الآن جاءت تائبة راغبة في قوله (ﷺ) التائب عن الذنب كمن لا ذنب له فتابت وأقلعت واتمست من مولانا الحاكم الشرعي الأذن لها

(١) العبد تاريخه ، ص ١٤٠ .

(٢) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر . ج ١ ، ص ٢٥ .

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠ / ١٢٢٢هـ . ص ٣١ .

بالزواج بخاطبها محمد بن السواس^(١). وحصلت هذه الظاهرة في بقية المدن الشامية . وتطالعنا سجلات محكمة حماه بحوادث مماثلة . ففي سنة ١٢٥١ هـ / ١٨٣٦ م جاءت عائشة بنت حسين الشاويش التي كانت ترتكب الفحشاء إلى القاضي وأعلنت توبتها^(٢) ثم جاءت امرأة أخرى في ١ صفر ١٢٦٠ هـ / ٣ آذار ١٨٤٥ م وهي حنيفة بنت عبده الشامي وأقرت نفس الاقرار وطلبت من القاضي الموافقة على زواجها^(٣) من أحد الرجال .

وعلى المستوى التنظيمي فقد اعترفت الدولة بالعاهرات طائفة حرفية بدمشق وفرضت عليهن ضريبة معينة للدولة . ووضعن تحت إشراف الصوباشي ، وجاءت هذه الفئة في الدرك الاسفل من الهرم الاجتماعي في دمشق ، وأطلق عليهن تسميات مختلفة (كالمغاني — المومسات — وبنات الخطأ أو الهوى^(٤) . كما اطلق عليهن اسم العاهرات — أو الشلكات والزانيات ، إلى غير ذلك من التسميات .

وأكثر ما يسترعي انتباهنا هنا ، أنهم شكلن طائفة معروفة في مجتمع على عكس الشاذين الذين بقيت ممارساتهم الجنسية سرية . كما يسترعي انتباهنا أيضا تزايد عددهن في هذه المرحلة حتى أن الشيخ عبد الله السويدي الذي زار دمشق وأقام فيها ما بين ٢٢ شعبان و ٢٠ شوال سنة ١١٥٧ هـ / ٣٠ ايلول — ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧٤٥ م ، قد دهش من كثرة الخلاعة وجراة الزناة والزواني في المدينة^(٥) .

وقامت بنات الهوى بممارسة الجنس في أماكن عديدة من دمشق ، كالحانات حيث كن يلتقين بالتجار والجند والغرباء الذين يقيمون فيها ، وفي المقاهي ملتقي الذعر والجند أيضا ، وفي البساتين المحيطة بدمشق والاماكن المهدامة أو المهجورة^(٦) ، أو في بعض بيوت الدماشقة إلا أن ذلك لم يكن مقبولا من جميع سكان البيت مما أدى إلى حصول أحداثٍ

(١) سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٣٦ / ١٢٥٠ — ١٢٥١ هـ . ص ١٢٥ .

(٢) سجل محكمة حماة رقم ٥٠ / ١٢٥١ — ١٢٦٣ هـ . ص ١١٧ .

(٣) المصدر السابق . ص ٢٤٦ .

(٤) البديري : المصدر السابق ص ٣٩ .

(٥) انظر : السويدي ، عبد الله . النفحة المسكية في الرحلة المكية . الورقة ٩٤ ب نقلا عن الدكتور عبد الكريم رافق . بلاد الشام ومصر ص ٣٣٨ و ٣٣٩ .

(٦) انظر المحبي . خلاصة الاثر ... ج ١ ص ٢٠١ . ثم المرادي . سلك الدرر ج ٤ ، ص ٩٨ .

مؤلة أودت بحياة بعضهم نتيجة لذلك أو احتجاجاً عليه، ففي سنة ١١٥٦ هـ / ١٧٤٤ م انتحر الشيخ يوسف الرفاعي برمي نفسه من أعلى منارة جامع الدقاق إلى الأرض لأن أخ زوجته أتى إلى بيته بإحدى الخاطئات^(١).

وكان للمومسات زقاق خاص بهن في آخر سوق السنانية من دمشق، يعرف بزقاق قليط إلى أن قامت السلطات العثمانية بنقلهن إلى محلة المرقص^(٢)، ولا نعلم أن كان المكان الحديد الذي نقلن إليه بمثابة مكان لعهر منظم وتحت إشراف السلطات أم أنه سكن خاص بهن معزول عن بقية أحياء دمشق. فالمصادر التاريخية الموجودة بين أيدينا تقصر عن توضيح ذلك.

ولقد وجد من الرجال في دمشق من عمل على تصيد الرجال للمومسات مقابل أجر معين وسمي الواحد منهم بـ «القواد أو الديوس أو العرصة وأحياناً كان يسمى (أبو نجيب)». وعمل بعضهم عرصة للأكابر من أبناء دمشق وكان مكرماً مبجلاً عندهم^(٣).

ولو تساءلنا عن أصول العاهرات، فيما إذا كن من الفئات الاجتماعية الدنيا في دمشق، أم من أصول دمشقية مولداً ونشأة؟ أم أنهن من أصول قومية متباينة؟ أم أن بعضهن كن من الجوارى والاماء أعتقن لسبب ما ونلن حريتهن ولم يجدن مورداً للرزق بعد العتق سوى سلوك طريق العهر والرزيلة؟ أم أنهن زوجات للجنود الذين صاحبهم إلى دمشق فقتل أولئك الأزواج أو ماتوا، أو قاموا بتطليقهن فتركن دون مورد رزق أو معيل لهن؟

والاجابة على هذه التساؤلات، وشيء من الحذر، أنهن من جميع هذه الفئات والاصول، أسهمت في إفرازهن عوامل اقتصادية وسياسية قاسية، فأنزلن في مهاوي الرذيلة ووجدن مرتعاً خصباً في الحشد الهائل من الجند والغرباء المختلفي الاصول، الذين وردوا إلى دمشق تحت ضغط الظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت ببلاد الشام، فقد من لهم المتعة الجسدية مقابل المال.

وسعى بعض الجند وغيرهم للايقاع ببعض النساء المحصنات المتزوجات في أشراكهم:

(١) البديري: المصدر السابق، ص ٥٠.

(٢) البديري: المصدر السابق، ص ١١٩.

(٣) البديري: المصدر السابق، ص ١٤٦ و ١٤٧.

ولقد أورد الاخباريون عدداً كبيراً من حوادث الخيانات الزوجية . ففي سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠ م قتل قرآن في حي العقبية على يد أناس كانوا يفسقون بزوجه في بيته . وفي نفس العام قتل رجل كردي زوجته في محلة سوق صاروجا ، حيث تبين له أنها عابت في غيابه عندما كان يؤدي مناسك الحج^(١) . وحوادث أخرى كثيرة يضيق المجال عن ذكرها . ولقد شكلت العاهرات في دمشق طائفة حرفية معترفا بها . وكان تضامنهن قويا الى الدرجة التي مكنتهن من القيام بعروضات في أسواق دمشق وشوارعها في مناسبات مختلفة « حاملات الشموع والقناديل والمباخر وهن يغنين ويصفقن بالكفوف ويدقن بالدفوف والناس وقوف صفوف تتفرج عليهن وهن مكشوفات الوجوه سادلات الشعور وما ثم ناكر لهذا المنكر »^(٢) .

وعندما كانت تتراخى السلطة كن يتمادين حتى على عالية المجتمع في دمشق ففي سنة ١١٥٧ هـ / ١٧٤٦ م قامت احدهن وهي سملون التي كانت سكرانة بمهاجمة موكب القاضي في الصالحية وكانت تحمل بيدها سكيناً مما حدا بحرسه لدفعها عنه . وكان ذلك سبباً لمقتلها فيما بعد ، وأدخل الروح في قلوب أخواتها من بنات الهوى « فسافر عدد منهن وأنزوى البقية »^(٣) .

ولما استفحلت ظاهرة العهر في دمشق في عهد واليها أسعد باشا العظم وأصبحت ، هذه الظاهرة ، تخدش الحياء العام وتقلق المجتمع ، تداعى الحكام والاعيان للاجتماع بالوالي المذكور لحل المشكلة ، وخاطب أحدهم الوالي بقوله : « دعنا نعمل لهم طريقاً اما بترحيلهم أو بوضعهم بمكان لا يتجاوزونه أو نتبصر في أمرهم » فرد الوالي قائلاً : « إنني لا أفعل شيئاً من هذه الأعمال ولا أدعهم يدعون علي في الليل والنهار » مما يدل على أن ذلك كان سيتسبب في قطع مورد رزقهن الوحيد الذي كن يعتمدن عليه في معيشتهم . وانقض الاجتماع « ولم يحصل من اجتماعهم فائدة »^(٤) .

ومع ذلك بقي موقف الوالي أسعد باشا من هذه الظاهرة حرجاً ، فكانت تتجاذبه

(١) البديري : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٢) البديري : المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٣) البديري : المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٤) البديري . المصدر السابق ، ص ١٢٧ و ١٢٨ .

قوتان متضاربتان ، أولاهما : قوة عليّة القوم وأعيان دمشق الذين أرادوا تهجيرهم خارج دمشق ، والقوة الثانية : وجدانه الشخصي الذي أشعره بمدى الحيف الذي سيقع عليهن فيما لو هجرهن وسد باب الرزق في وجههن . وفي سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٩ م رضخ أسعد باشا للقوة الأولى وأمر بإخراج بنات الهوى (وهم الشلكات من البلد إلى خارج البلد وأظهر أنه يريد أن ينفين إلى بلاد أخرى ونبه على مشايخ الحارات أو من وجد في حارته ذو شبهة لا يلومن إلا نفسه) . إلا أن هذا الاجراء لم يكن الدواء الناجع والحاسم لمشكلة استفحلت مع الزمن وتعددت أسبابها وأعضلت عن الحل ، فعدن إلى سابق عهدهن في الاسواق والأزقة والخانات وغيرها لبيع الهوى . وأمام هذا الواقع لم يكن أمام الوالي من حل سوى الاعتراف بالامر الواقع وفرض على كل واحدة منهن عشرة قروش شهريا « وجعل عليهم شوباصيا »^(١) .

وفي نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر تزايدت الفوضى السياسية في دمشق وتزايد الصراع حدة بين القوى العسكرية المحلية والغربية . مما أدى إلى اعتداء الجنود المتصارعين على النساء المحصنات انتقاما من الأزواج والأبناء ، كما حصل في سنة ١٢١٧ هـ / ١٨٠٣ م عندما جرى الصدام بين البرلية والدالاتية في حي العمارة^(٢) . وكانت النساء تلجأ في مثل هذه الصدامات إلى البيوت وتوصد دونهما الأبواب . وإذا ما هدد الجنود المدينة كانت النسوة اللواتي يقطن خارج الاسوار يلجأن إلى داخل أسوار المدينة ، كما حصل في سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٤ م^(٣) . وعندما تدفقت قوات كبيرة من أستانبول إلى دمشق في طريقها إلى فلسطين ثم مصر للتصدي لقوات الحملة الفرنسية ، كان الجنود يسكرون « وينزلوا على حريم الناس »^(٤) . وعندما تزايدت القوات المتدفقة على دمشق من أستانبول حيث بلغ عدد إحدى الدفعات في ١٧ ذو الحجة من عام ١٢١٣ هـ / أيار ١٧٩٨ م « نحو ستة آلاف رجل معهم بلكباشية وجاويشية .. وذلك اليوم نادى حاكم الوقت على النسوان أن لا تطلع من بيوتها لأجل الفساد من كثرة الخلق والغريبة هلي في الشام »^(٥) .

(١) البديري . المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) العبد ، حسن آغا . تاريخه ، ص ٧٢ .

(٣) العبد : تاريخه ، ص ٩١ و ص ٩٢ .

(٤) العبد : أيضاً ، ص ٦٢ .

(٥) العبد : أيضاً ، ص ٥١ و ص ٥٢ .

وبقيت ظاهرة العهر في دمشق واستمرت بنات الهوى تبيع الهوى لمن يريد، وحاول بعض الولاة ابعادهن عن طريق الرذيلة واغرائهن بالزواج أو التوبة، ومنعهن من الوقوف للعسكر، كما فعل والي دمشق الكنج يوسف باشا في سنة ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ - ١٨٠٨ م حيث «استتوب منهم كم وحدة»^(١). ورغم تقصير المصادر التي بين أيدينا عن تتبع أخبار بنات الهوى في دمشق من هذا التاريخ، إلا أنه لم يطرأ أي تغيير ذي بال على الساحة الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية يؤثر بدوره على هذه الظاهرة سلباً أو إيجاباً، إلى دخول ابراهيم باشا المصري إلى دمشق ١٨٣١ م / ١٢٤٦ - ١٢٤٧ هـ حيث بدأ بتغيير بعض مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في دمشق إلا أن مصادر هذه المرحلة تقصر بدورها عن ذكرهن وتصوير أوضاعهن.

(١) العبد: أيضاً، ص ١٣٩.

الفصل الخامس

الأزبياء في دمشق وريفها
ومدلولاتها المختلفة

الأزياء ومدلولاتها الاجتماعية

أزياء الهيئة الحاكمة في دمشق — أزياء العامة — زي نساء دمشق — زي المرأة الدمشقية خارج بيتها — لباس القدمين عند المرأة في دمشق — زينة المرأة الدمشقية وحليها — أزياء أبناء ريف دمشق — أزياء نساء الريف الدمشقي — حلي المرأة في الريف الدمشقي — التجميل وأدواته لدى نساء ريف دمشق — زي أهل الذمة «النصارى واليهود والسامرة» — زي البدو — زي البدوية — القماش والفراء .

الأزياء ومدلولاتها الاجتماعية

لم يهتم العثمانيون ، بعد احتلال بلاد الشام ، بتغيير الأزياء الشعبية التي كانت سائدة فيها . والتغيير الوحيد الذي شاهده دمشق هو في أزياء الهيئة الحاكمة بما فيها أزياء الجند العثمانيين بديلاً عما كان عليه زي المماليك^(١) . وبقي الحال كذلك إلى فترة الإصلاحات وخاصة في فترة السلطان محمود الثاني ومابعده ، حيث سعى هذا السلطان لادخال الأزياء الغربية إلى جهاز السلطة العثمانية^(٢) . ولكن تأثير ذلك على دمشق كان محدوداً . ولم يتسع هذا التأثير إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مرتكزاً بالدرجة الأولى على إجراءات الحكم المصري فيها .

ولهذا بقيت الأزياء الشعبية ، في بلاد الشام بخطوطها العامة ، صورة لتعامل الانسان مع المحيط الطبيعي والتركيب الاجتماعي ، وفلسفته في الحياة من جهة ، ونتيجة لتركبة تاريخية طويلة الأمد ، فكان من تلك الأزياء ما يعود إلى أصول عربية قديمة مثل الكنعانية الآرامية والآشورية أو غير عربية مثل الفارسية ، واليونانية والبيزنطية والعربية الإسلامية . بالإضافة إلى

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم : تاريخ المشرق العربي في العهد العثماني . ص ٥٩ .

2 - See: Shaw. J. Stanford. «history of the Ottoman empire and modern Turkey». VOL.2.P.49 Cambridge university Press. January. 1977.

مؤثرات الهنود وبعض القوميات الأخرى التي جاءت إلى بلاد الشام بأزيائها فتركت تأثيرها في هذا المجال .

ومما يسترعي انتباه الباحث تعدد أزياء المدن آنذا أكثر من الريف ، لأن المدن كانت مقراً للفتاحين والحاكمين والتجار والغرباء عبر تاريخها . وبقي اختلاط الوافدين بالريف أقل مما حصل في المدن . وإذا ما استقرت قبائل وأقوام في الريف ، فقد انعزلت عن بعضها بحدود معينة ، وحافظت على أزيائها على مدى عصور طويلة . ناهيك عن تأثير البيئة والمناخ في رسم خطوط الأزياء وألوانها ونوع أقمشتها .

وكانت للأزياء ، بالإضافة إلى ماتقدم ، وظيفة اجتماعية هامة ، حرص الق على إبرازها لإرضاء المجتمع وتحقيق أهدافه وأفكاره وفلسفته في الحياة . لهذا نراها بشكل عام ، مريحة تنسجم بتفصيلها ومقاييسها مع حركة الجسم العامة ، ومع طبيعة الأرض وعناصر المناخ ، وطريقة الجلوس على الأرض وتشمير الأكم عند الوضوء ، ومع حركتي الركوع والسجود ، ومراعاة الحجاب والحشمة .

ولقد أرضت غرور وكبرياء الشوام ، لهذا كنا نرى المبالغة في الثياب في كل شيء ، من حيث الطول المتزايد الذي يصل إلى الأرض ، والاتساع الذي يكسب صاحبها المهابة والوفار ، وكانت تخفي تقاطيع جسم المرأة الذي يثير الشهوة^(١) وروعى في ألوانها الحدة القوية ، والإسراف في التزيين بالرسوم الدقيقة ، واستخدام الحلي المختلفة ، والإسراف في فخامة غطاء الرأس (للرجال والنساء) ، وتجميله بالعملات والمصاغات الذهبية والفضية خاصة بالنسبة للنساء ، والغلو بإظهار الغنى والترف تجاه الآخرين وأكثر ما يبرز ذلك لدى العناصر الغنية والهيبة الحاكمة .

وهناك سمة أخرى اتسمت بها تلك الأزياء ، وهي الصدق والابتعاد عن التمجيد ، فمثلاً لم تستخدم النساء حمالات الصدر كالأوربيات آنذا . واستبعدت مشدات الوسط وحشوات العجز والأكماب المرتفعة في الأحذية ، عدا القباقيب التي كانت طويلة ولأهداف أخرى . ولم نر في المصادر التاريخية التي عالجت تلك الفترة من تاريخ بلاد الشام ما يثبت استخدام

(١) كانت الأزياء تراعى طبيعة السلوك المحافظ ، ففي اتساعها مراعاة لإخفاء شكل الجسم وتقاطيعه المغرية تحقيقاً لفكرة الكبت الجنسي المطلوب مراعاتها من كلا الجنسين ، الذكر والأنثى على حد سواء .

الدماشقة للمساحيق في تلوين البشرة بلون آخر ، سوى الحناء واستخدام الوشم والكحل .
وإذا ما استخدموها ، كانت لأغراض دينية أو طبية . ولكن الدماشقة أسرفوا في استخدام
الفراء والحلي والتطريز والزركشة تحقيقاً للكبرياء والتمايز الاجتماعي^(١) .

ومع ذلك نلاحظ وحدة في الأزياء ، في خطوطها العامة ، لدى جميع فئات الشعب
الدمشقي تقريباً ، وإن كان ثمة فرق في الزي بين شخص وآخر ، فيعود ذلك إلى انتماء
الشخص الاجتماعي أو الجنسي (ذكر أم أنثى) ، ويبرز الاختلاف في حجم العمامة ولون
قماشها ونوعه أو زينتها وطريقة لفها على التريان والقاروق ، وفي ألوان الثياب الخارجية ونوع
قماش الثياب بشكل عام ، واستخدام الفراء أو عدمه ، وطريقة التفرية ونوع الفراء (فراء ثمين
أم بخس) ثم نوع الزنار أو الكمر (قماشة وتفريته أو معدنه) وما يوضع في تلافيفه من
أدوات ، كالخنجر والطبنجة والدواية والساعة الخ ...

وعلى ضوء ذلك نلاحظ فروقاً بين أفراد الهيئة الحاكمة من جهة وبين بقية أبناء
الشعب بفئاته المختلفة من جهة أخرى ، كما نرى تمايزاً بين كل فئة وأخرى من فئات الهيئة
الحاكمة . فزي الوالي يختلف عن زي الدفتردار ، والأخير يختلف زيه عن القاضي ، وهذا
يختلف زيه عن نوابه . وزي المفتي يختلف عن أمين الفتوى ، وكاتبها ونقيب الأشراف يختلف
عن السابقين ، كما يختلف في زيه عن بقية الأشراف . وآغا الانكشارية يختلف في زيه عن
الانكشاريين الآخرين وعن الصوباشي ، ويختلف زي المرتزقة فيما بينهم بحسب أصولهم القطرية
والقومية ، ويختلفون بدورهم عن زي الانكشارية (القايي قول واليرلية) .

وعلى مستوى أبناء دمشق كان الزي متبايناً . فهناك زي أبناء دمشق الأصليين ،
وهناك أزياء أبناء الأقاليم الشامية الذين استقروا في أطراف دمشق وحول سورها ، وأزياء
الفلاحين تختلف عن بعضها بحسب قراهم وأقاليمهم . وكنا نرى أزياء متباينة بحسب الأصول
القطرية والقومية . ناهيك عن الاختلاف في الزي بين المسلمين وأهل الذمة ، والاختلاف
أيضاً بين فئات أهل الذمة (نصارى — يهود — سامرة) .

ومن هنا يمكن القول أن الأزياء في دمشق ، كانت تعطينا في تلك الفترة من الزمن ،

(١) انظر : حمامي ، حسن . الأزياء الشعبية وتقاليدھا في سورية . ص ٣٩ و ص ٤٢ .

صورة ظاهرية عن بنية مجتمع دمشق على جميع الأصعدة والمستويات . لهذا انصب اهتمامنا على دراستها وإفراد فصل خاص بها . كما انصب اهتمامنا على تعدد الثياب وأنواع الأقمشة المستخدمة في صناعتها ، وأنواع الفراء وزركشتها وتزيينها ، فكنا نرى تبايناً في هذا المجال ، بين فئات المجتمع الشامي . من حيث تعدد الثياب واختلافها بين ما يلبس منها داخل البيت وخارجه ، أو في المناسبات المختلفة . خاصة لدى الأغنياء والحكام ، في حين لا نرى ذلك لدى الفقراء وأغلب الفلاحين والبدو^(١) . وعلى صعيد الزركشة والتطريز ، استخدمت الخيوط بالسنة^(٢) وبالإبرة ، وبألوانها المختلفة لتزيين الثياب الخارجية خاصة . وكانت الزركشة متنوعة وذات موضوعات مختلفة تعود في معظمها لتركة تاريخية كبيرة لمدينت غابرة ، وبقيت حتى فترة دراستنا ، فظلت أصيلة في خطوطها في ريف دمشق أكثر مما كانت عليه داخل دمشق ، نظراً لانعزال الريف عن المؤثرات الوافدة إذا ما قيس بالمدينة آنئذ .

أما موضوعات الزينة فشملت الخطوط الهندسية البسيطة والمقطعة والمستمرة والمستقيمة والمتكررة والمتوازية والمتشابكة والأفقية والשאقولية . ومنها الموضوعات الهندسية الكاملة كالمثلث والمربع والدائرة وشارة الزائد . وشملت صوراً للنباتات كالأشجار والورود ، وصوراً للحيوانات الأليفة والنافعة كالحمد والطاووس والغزال والقواقع والأسماك ، والحيوانات الضارة كالأفعى ، وصوراً للشمس والقمر والنجوم . وهي رسوم موروثه لها مدلولاتها الجمالية السحرية والدينية .

وروعي في تكرار الرسوم الهندسية والنباتية توازناً وتناظراً بحيث يؤمن التوازن والاستقرار بين طرفي الثوب . واستخدم الدماشقة التزيين والزركشة في مواضع عدة من الثوب ، وفي كل موضع منه كان له رسم يتناسب معه ، فشجرة الحياة تطرزها المرأة على ثوبها من مكان الصدر ، وعندما كانت تطرز على أكمام الرجل كانت تعني أنه يطلب قلب المرأة عامراً بالحب

(١) يمكن ملاحظة ذلك في مخلفات الحاج حسين آغا الكردي المتوفى سنة ١٢٥٦هـ . انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص ٢ . ثم مخلفات أسماء بنت أحمد جوزه من قرية كفر سوسة ، لم يكن لها ثياب في تركتها . انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص ١٥ .

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٣٦٥/١٢٥٣ - ١٢٥٨هـ ، ص ٢٢٠ . ثم سجلها رقم ١١٩٤/٢١٥ - ١٢٠٠هـ ، ص ٩٥ ، حيث كانت تملك جبتيين أولاهما بفرو القاقوم والثانية بفرو السمور ظهارتاها مشغولتان بالتارة .

والحياة . وعندما كانت تزين سنابل القمح حواف ثوب العروس من الأسفل فذاك يعبر عن رمز التفاؤل في كثرة الخير والبركة والذرية المتعددة . أما شجرة السرو فكنت تراها في «صدرية» الرجل أو في قطشية النساء (الداير) وترمز إلى ديمومة وبقاء الحياة من زرع وضرع . ثم رسم الورود والزهور لدى ثياب النساء تحقيقاً للجانب الجمالي فيها . وهناك تطريز عنق الثوب الذي يوحى بالقلادة ، وكان يوحى تطريز الأكام وحواف الثوب والصدر بالتفاؤل . أما رسم السمك فيرمز للخير والبركة ، والغزال الأقرن الذي وجد على صدرية الرجال كان يرمز للركة والرشاقة . أما الطاووس فيرمز للأبهة وكان يرى في ثياب الرجال والنساء على حد سواء . والهدهد طائر البشارة والسعد ورمز الحظ لدى النساء . أما العصفور أو البطة فكنت ترى رسمها في ثياب المرأة ومحارمها ، ويوحى بالركة والجمال . أما رسم الأفعى فيرى على الصدر والأكام النسائية . ويوحى بالمكر والدهاء والموت وهو حرز لمن . وصور الشمس في ثياب النساء تعود إلى فترة عبادة الشمس أما صور القمر والهلل والماء في ثياب النساء فهي رمز للخصب والحياة^(١) .

بما تقدم ندرك أن أبناء دمشق وريفها قد تشبثوا بأزيائهم الوطنية الموروثة في العهد العثماني ، وأن هذا العهد كان تأثيره سطحياً في هذا المجال ، فاقصر على أفراد الهيئة الحاكمة والجيش واستمر ذلك إلى عهد الإصلاح كما سنرى . وفيما يلي سنرصد بشيء من التفصيل بعض أزياء الهيئات الاجتماعية المختلفة في دمشق وخارجها على امتداد فترة دراستنا .

أزياء الهيئة الحاكمة في دمشق

كانت أزياء هذه الفئة متميزة وتُرى في المناسبات الرسمية والدينية وغيرها . وهي واحدة تقريباً في الولايات العثمانية : إلا أنه يتعذر علينا رصدها في تفاصيلها لدى كل شخصية من تلك الشخصيات ، التي مثلت السلطة العثمانية آنذا ، نظراً لكثرة عددها وتباينها ولقلة ما بين أيدينا من مصادر تسعفنا في هذا المجال . إلا أن ما لا يدرك كله لا يترك جله .

ولقد اتسمت أزياء هذه الفئات بإسرافها في استخدام الفراء ، سواء في تزيين أطراف الثياب أو في تبطينها . وكان الفراء على أنواع عديدة بحسب جلود الحيوانات الفرائية ، فمنها فرو القاقوم والسمور والتمس والوشق والقط والناقة والغنم والمرعز وغيرها . وركبت هذه الفراء

(١) انظر : جامي ، حسن . المرجع السابق . ص ٦١ و ص ٩١ .

على ثيابهم المصنوعة من أفخر الأقمشة التي كانت منسوجة من خيوط الحرير أو القطن أو الصوف (الأجواخ) ، فضلاً عن استخدامهم للمجوهرات والمعادن الثمينة في تزيين أجزائها البارزة . وكانت ألوان ثيابهم متنافرة على الجسم ، فمنها الأسود والأحمر والبرتقالي إلى جانب الأزرق والأبيض^(١) ، وغيرها من الألوان .

وأكثر ما يسترعي انتباهنا لباس الرأس أو العمامة^(٢) ، وسميت بأسماء مختلفة ، واختص بلبسها الرجال الأكثر رصانة واعتباراً من الناحية الاجتماعية ، وقل من لبسها دون الأربعين . ولبسها (رجال الدين والموظفون الدينيون ، والقضاة ونوابهم والمفتون ونقباء الأشراف وخطباء الجوامع ومدرسو المدارس والأعيان والولاة والدفتردارون والأغوات ومشايخ الحارات وغيرهم) . وكان منها أنواع : أهمها الاسطواني والمخروطي . وتألقت العمامة من ثلاثة أجزاء هي : الطاقية المستديرة من القطن بيضاء اللون ، كانت تلبس على الرأس مباشرة . ثم يأتي فوقها الطربوش أو القاوق ويلف عليه الشاش . وكان الشاش بألوان مختلفة . وتختلف طريقة لف الشاش من شخصية إلى أخرى ، وأسرفوا بتزيينه في بعض الأحيان بالحجارة الكريمة والمجوهرات . أما النوع الثاني فكان المخروطي الشكل ، وتألّف بدوره من طاقية بيضاء جامدة القوام ذات رأس مرتفع ، يلف حولها الشاش . وهذا النوع من مؤثرات شمال أفريقيا . وكان الشاش مطبوعاً بشكل منظم ومبروماً حول نفسه ثم حول الطاقية . وكان أكثر شيوعاً من الأول لدى الهيئة المحكومة ، في حين كان الاسطواني هو الأكثر شيوعاً لدى الهيئة الحاكمة^(٣) ، وكان القضاة الأتراك يلبسونه ، ثم قام علماء دمشق بتقليدهم . أما الأشراف فلفوا الأغباني على الطربوش . وأبطلت العمامة على المستوى الرسمي في عهد السلطان محمود الثاني ، وعم استعمال الطربوش

(١) انظر : الصور الضوئية للأتباء العثمانية — الوثيقة رقم ١١٥/٧ . ثم الوثيقة رقم ١١٧/٩ . ثم الوثيقة رقم ١١٩/١١ ثم الوثيقة رقم ١٢٣/١٥ . حيث ترى صوراً لعدد من أعضاء الهيئة الحاكمة العثمانية مثل «باش قلاغور آغا ثم قول أوغلي باش جوقداري . ثم باش قلعة جي آغا . ثم بلوك آغاسي . وجوقدار وآغا القهوة والترجمان ثم خاصكي آغا وتوتنجي وصالة نفري وشويار آنفري ونظام جديد نفري واككري قالبا يلتي» . دار الوثائق التاريخية بدمشق .

(٢) تعود العمامة في أصلها إلى العرب السوريين الكنعانيين كما يقول العالم الأثري هوزي . وكانت تقليداً للخوذة العسكرية للملك مابين النهرين في الألف الثالثة ق . م . ثم استمرت في عصري اليونان والرومان ومن بعدهما في العصور الإسلامية ومازال حجمها يتزايد ويعتبر ذلك مثالا للاعتزاز وعلو المكانة الاجتماعية والقدر حتى فترة دراستنا . انظر : حمامي المرجع السابق . ص ٢٩١ و ص ٢٩٢ .

(٣) : حمامي . المرجع نفسه . ص ٢٩٣ .

بين أفراد الهيئة الحاكمة. ويذكر القاسمي في أحداث سنة ١٢٤٢هـ — ١٨٢٦ — ١٨٢٧م / ١٢٤٢ — ١٢٤٣هـ أن والي دمشق عبد الرؤوف باشا ١٢٤٤ — ١٢٤٦هـ / ١٨٢٩ — ١٨٣١م قد خرج مسافراً بموكب الحج وهو يلبس الطربوش بغير عمامة^(١).

وحل الطربوش التمسائي محل الطربوش الكبير^(٢) تشبهاً بالأجانب، وأطلق عليه اسم فس (FEZ) أو فينية نسبة إلى مكان صناعته وهي فينا عاصمة التمس، وكان شكله أسطوانياً أحمر أو أبيض اللون ثم أصبح يسمونه (فاس) نسبة إلى مدينة فاس في المغرب الأقصى، كي يموه على المسلمين منشؤه الأصلي ويرضي مشاعرهم الدينية^(٣).

وإبان الحكم المصري لدمشق قام المصريون بارتدائه دون عمامة، بدءاً من إبراهيم باشا المصري، وقلده في ذلك الأمير بشير الشهابي، وسماه جون باورنج (الطاقية الحمراء). وكانت هذه الطاقيات تستورد من فرنسا ثم مالبثت أن عم لبسها، فارتداها التجار^(٤)، ثم عامة الناس، بدءاً من عام ١٨٣٨م / ١٢٥٣ — ١٣٥٤هـ. وكان قد أرسل إبراهيم باشا « ٢٠ صبياً من الحرفيين من دمشق إلى مصر لتعلم صناعة الجوخ والطرايش ولادخال هذا الفن إلى دمشق فتتحول أرباح الأجانب من هذه البضاعة إلى أبناء البلاد »^(٥). واستبعد من أزياء الهيئة

(١) قاموس الصناعات الشامية. ج ٢، ص ٣٧٧.

(٢) كان الطربوش ثقيلاً وواسعاً وكانت طرته طويلة وعريضة جداً تتدلى على الكتفين وتنشر على الرقبة وأطراف الكتفين، ويقول بعضهم إن حكمة ذلك وقاية نفرة (القفا) من أشعة الشمس والرياح. انظر: القاسمي، محمد سعيد. المصدر السابق. ج ٢، ص ٣٧٧.

(٣) كان الطربوش يعرف في مصر والمغرب باسم (شاشية) أما عرب اسبانيا فكانوا يسمونه (غفارة). وكلمة طربوش محرفة عن الكلمة الفارسية (سربوش). وتعني زينة رأس الأمير. ثم حرفت إلى (شربوش) فأصبح شبه عمة تلتف حول قافية حمراء من الجوخ، سطحها الأعلى يتراوح ما بين ١٠ — ١٢ سم، تطوى بشكل مثلث، وتظهر ثنياتها من أعلى الرأس، وتعلق في وسطها طره أو شراية غليظة زرقاء تتدلى حتى الصفاق وكان يعرف في بلادنا باسم الطربوش العباسي أو المغربي، ولا يزال هذا النوع يرتديه علماء الأزهر في مصر. انظر: حمامي، المرجع السابق. ص ٢٩٣.

4 - See: Polk. «the opening of south Lebanon»; P.164.

(٥) انظر: عابدين — دفتر ٢١٠ رقم ٩٥ غ — المحفوظات ج ٢. ص ٣١٣. نقلاً عن ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا، ص ١١٦.

الحاكمة الكشمير والشال نظراً لقلة ماورد منهما إلى دمشق، بسبب توقف قافلة الشرق،
وبسبب ما حل محلها من البضائع الأوربية في أسواق دمشق.

أما الزي بشكل عام، فكان مكوناً من عدد من الثياب، سواء منها ما لبس على الجذع
أو الرأس أو ما لبس على الوسط والساقين والقدمين، ومنها ما لبس فوقها جميعاً بدءاً من
المنكبين إلى الكاحلين. وشذ عن ذلك في بعض التفاصيل زي النظام الجديد^(١)، وجنود
المدفعية^(٢) والسقاباشية^(٣)، الذين صممت أزيائهم بحيث لا تعيق حركتهم أثناء العمل،
فخفف الكثير من تلك الثياب، فهناك القميص المصنوع من الحرير أو الكتان أو القطن
ويُتَوَرَّح حنلفة يأتي على الجذع مباشرة، ثم يأتي الشخشير أو الشخشور (الجقشير) باللون
الأحمر أو البني أو الأزرق أو الأصفر^(٤)، وهو ما يسمى بالسراويل التي تثبت على الوسط
بدكة لتهدل إلى الأسفل ولتزم عند كل كاحل. وانهداها يغطي القدمين إلا مقدمتيهما،
ويرتدى المست من الجلد الأصفر وهو بديل عن الجوارب في وقتنا الحاضر^(٥).

وجاء فوق القميص القنبار (أو الغنبار) بأكم واسعة، ويصل إلى الركبتين، ويأتي فوقه
الضلماية أو الضولمان، وهي مفتوحة من الأمام لتظهر من تحتها الصدرية بأزرار خاصة مكونة
عن خيوط مكورة، وكانت الصدرية عامة لدى الحاكمين والمحكومين، إلا أن الفئة الأولى
والأغنياء صنعوها من الأقمشة الثمينة. وكانوا يرتدون فوق هذه الثياب الفروة (الكرك) أو
اللبة، كانت فضفاضة كالعباءة وأكمها طويلة وواسعة، وتضييق هذه الأكم عند المعصمين
في زي بعض أعضاء الهيئة الحاكمة. وهي من النوع المتصالب مفتوحة من الأمام وتتدلى إلى
الكاحلين أما قماشها فمن الجوخ غالباً^(٦). وإذا ما لوحظ اختلاف في اللبة بين فرد وآخر،
فيكون في لونها وتفريتها وأكمها (ضيقة أو اتساعاً). فمثلاً كانت حوافي جبة القاضي ورئيس
كتابه غنية بالفراء بالإضافة إلى تفرية أكمها. إلا أن الاختلاف فيما بينهما يبدو في لونها.
أما جبة أمين الفتوى فهي كالجبتين السابقتين إلا أن أكمها ضيقة ومفراة على العضد^(٧).

(١) انظر: الأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١٥/١٢٣. دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) انظر: المصدر السابق. الوثيقة رقم ١٩/١٢٧.

(٣) انظر: المصدر السابق. الوثيقة رقم ٢٧/١٣٥.

(٤) انظر: المصدر السابق. الوثيقة رقم ٧/١١٥، ثم الوثيقة رقم ٨/١١٦، ثم الوثيقة رقم ٩/١١٧.

(٥) المصدر السابق. الوثيقة رقم ٩/١١٧.

(٦) المصدر السابق. الوثيقة رقم ٨/١١٦.

(٧) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٣/٣٦٥ - ١٢٥٨هـ، ص ٥٣ و ٥٤ و ص ٨٢.

ولقد استخدم بعض رجال الهيئة الحاكمة أنواعاً من الزنانير من أقمشة مختلفة ، وكان البعض منها مبطناً بالفراء . وكانت الزنانير تلف حول الوسط فوق الصدرية ثلاث لفات غالباً . وقد يكون الزنار العادي ملفوفاً على نفسه ، وهو من لون واحد أو من عدة ألوان ^(١) . وثبتت الطبنجات أو الخناجر أو السيوف أو الدواة أو الساعة في الزنار . واستخدم بعضهم في تزيين ثيابهم الخارجية ، حلياً ومجوهرات ثمينة ، وبأشكال مختلفة ، خاصة في المواكب والاحتفالات الرسمية والدينية وغيرها . وقد أسرفوا في ذلك إلى درجة فاقت الوصف ، وأثارت دهشة المشاهدين من الغرباء الأوربيين في مثل تلك المناسبات . فإدوار لوكروى يصف والي دمشق أحمد باشا الجزائر عندما توجه إليها من عكا بقوله : « كان يغيب ضمن الأصفر والأحمر والأخضر والذهب والزمرد والياقوت الأحمر ولا يعلم أسبيكة هو أم علم ؟ » ^(٢) .

ولم يقتصر استخدام الزينة والحلي على بعض الباشوات ، بل شاركهم في ذلك بعض الرجال ، فاستخدموا الزينة في أصابع اليد وحتى القدمين وفي حاجياتهم الشخصية . فالسيوف زينت قبضاتها ونصالها والطبنجات والغدارات ورخوت الخيل ، كما زينت أذن الذكر الوحيد لأبويه بحلقة وحيدة وسمي بأبي حلقة ^(٣) . وفاء لنذر وهكذا .

ولقد تبدل زي الباشوات في عهد السلطان محمود الثاني ، الذي أدخل بعض الأزياء الأوربية إلى الهيئة الحاكمة ، وبدأ بنفسه عندما خلع زيه التقليدي وارتدى زي ملك أوربي ، وقام بتقصير لحيته ولبس على رأسه القبعة الغربية المعاصرة ، والسترة الرجالية التي تبلغ الركبتين ، والبنطلون بدلاً عن الأزياء الفاخرة الشرقية ، التي كان يلبسها سابقوه من السلاطين العثمانيين ^(٤) . وراعى ذلك بالنسبة لمروسيه من أعضاء الهيئة الحاكمة . فمثلاً عندما قام بتقليد حسين باشا ، مبيد الإنكشارية ، منصب القيادة العليا ، ألبسه « معطفاً قصيراً ذا نبيقة مزركشة بأسلاك الذهب وأهداه سيفاً مرصعاً بالألماس » ^(٥) ناهجاً في ذلك نهج الغربيين .

أما زي الدفتردار فكان مكوناً من الثياب السابقة التقليدية ، إلا أن جفته قد امتازت

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٢) انظر : كتابه « أحمد باشا الجزائر » ص ١٦٠ و ١٦١ . ترجمة جورج مسرة . البرازيل ، سان ياولو ١٩٢٤ م .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١ / ٢٢١ — ١٢٠٣ هـ . ص ٢٧٥ .

4 See, Shaw J. Standford, op.cit. VOL.2.P.49.

(٥) انظر : زكي ، عبد الرحمن . التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير . ص ٣٩٨ . سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م .

بلونها الأحمر ، وتتطويق حوافها بفراء بني ، وتعمم بعمامة أسطوانية تتسع قليلاً من الأعلى ، ويلون شاشها الأبيض وبيروز نبيقة حمراء من أعلاها ^(١) .

وكان زي آغا الإنكشارية لا يختلف عما أوردنا من أزياء الهيئة الحاكمة التقليدية ، إلا بكمر أخضر في وسطه دون زنار ، وطوق الكمر وسطه لمرة واحدة . وتبرز الصدرية البيضاء في أعلى جذعه ، وهي ذات أزرار كروية مصنوعة من الخيوط ، ويعتمر بعمامة ضيقة من أسفلها ومتسعة من أعلاها ، يطوقها شاش أبيض مدرب يسمح لقمة الطربوش الأحمر بالبروز من الأعلى . أما جيبته فكانت زيتية اللون خالية من الفراء لكنها مبطنة من الداخل بقماش زيتي اللون ^(٢) .

وتطالعنا سجلات محاكم دمشق للقسمة العسكرية بتركة أزياء أغواتها ، وكانت تتألف غالباً من الآتي : العتري — المضربية (المدرية) الصدرية — الميتان — الطربوش — والشاش البنش الجوخ — الفروة الزنارية — والتقميطة والمست والبابوج الأصفر ^(٣) . وتدل هذه التركة من الثياب على أن أغوات دمشق كانوا يرتدون ثياباً مختلفة بحسب تواجدهم داخل البيت أو خارجه .

ولقد تميز زي قاضي القضاة (شيخ الإسلام) عن غيره من أعضاء الهيئة الحاكمة ، بالفرجية البيضاء (الجبة) المصنوعة من الجوخ ، المفراة بفرو السمور الأسود ، ويبدو ذلك في حوافها الخارجية . ونسوق مثلاً على ذلك ما حصل في ٢٦ جمادى الثاني من سنة ١١٩٢ هـ لأسعد ابن عابدين ، الذي تلقى حلقة شيخ الإسلام البيضاء وكانت عبارة من فروج من الجوخ الأبيض حشوها السمور الأسود لا يلبسها إلا شيخ الإسلام المنسوب . والفروج أو الفراجة هي الفرجية بلغة أهل الشام ^(٤) .

(١) انظر : الأزياء العثمانية : الوثيقة رقم ١٣٨/٣٠ دار الوثائق التاريخية التابعة للمتحف الوطني بدمشق .

(٢) المصدر السابق : الوثيقة رقم ١١٧/٩ .

(٣) تركة محمد آغا بن حسن آغا المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ . ثم تركة أمين آغا بن عمر آغا مصيطر المتوفى سنة

١٢٦٥ هـ . انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٦٤/٤١٩ — ١٢٦٥ هـ . ص ١١١ . تاريخ

القضية ١٣ شوال ١٢٦٤ هـ . ثم انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٠/٣٦٤

— ١٢٥٨ هـ . ص ١٠ .

(٤) انظر : المرادي . سلك الدرر . ج ١ . ص ٢٢٩ .

وامتاز زي الجوباشي أو الصوباشي (رئيس الشرطة) بعمامته الضيقة من الأسفل والعريضة من الأعلى يطوقها شاش أبيض. وكان حليق الذقن وشارباه طويلان^(١). وفيما عدا ذلك فلا يختلف زيه وثيابه عما أوردناه سابقاً. وتطالعنا سجلات القسم العسكرية بدمشق بتركة أحد الصوباشية المتوفين فيها والتي كانت ثيابه تتألف من: جبة — فروة عنس وبنش فروة عرق (عدد ٢) ثم بنش جوخ وجبة جوخ وعتري آلاجة. وبنش أحمر وشالة عجمية وطربوش كبير وشاش وقاووق وجقشير ورخت فضة ويشلق بالإضافة إلى خنجر مكفت وطبنجات وبارودة^(٢).

أما زي الجوخدار فكانت ثيابه مفصلة بطريقة مخففة نسبياً، ويمتاز بعمامته التي يطوق قاووقها، شاش أبيض ملفوف بدوره على شكل الأفعوان، وجبته قصيرة ومفراة بلون أسود، وأكمامها ضيقة، ويحمل عصا في بعض الأحيان يرتكز عليها أثناء المسير^(٣) وحسبنا هنا أن نسوق مثالا على ذلك ما خلفه الجوخدار حسين آغا المتوفى سنة ١٢٦٤هـ، والتي كانت مكونة من: «الطربوش والعباية وعتري آلاجة وجبة فروة مارنوص وشروال وزنار طرابلسي وشالة عجمية وعباءة سوداء»^(٤). وما يلاحظ بأن زي الجوخدار بشكل عام قد حافظ على ما كان عليه سابقاً، إلا أن الطربوش قد حل محل العمامة. ويعود ذلك للتغيرات التي أدخلت إلى زي الهيئة الحاكمة بفعل تنظيمات السلطان محمود الثاني.

وكان زي الشاطر (التاتار) كزي الجوخدار، إلا أن زي الأول كان مخففاً أكثر من الثاني، ويساعده على السير السريع، فنرى قصراً في شخصيره وضالة في عمامة الرأس وقلة الفراء على ثيابه، أما لون جبته فباهت ليساعده على إخفاء الأوساخ والغبار الناتج عن طول المسافات التي كان يقطعها^(٥). بالإضافة إلى سلك نعله الزائد عن المألوف، ليصمد أمام المسافات الطويلة ووعورة الطرق.

وامتاز زي الباشي آغا بعمامته الضيقة من الأسفل والعريضة من الأعلى، يبرز في

(١) انظر: الأتباء العثمانية. الوثيقة رقم ٢٨ / ١٢٦ / دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨ / ١٢١١ — ١٢١٢هـ. ص ٦٦.

(٣) انظر: الأتباء العثمانية. الوثيقة رقم ٩ / ١١٧.

(٤) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ص ١٠٥.

(٥) انظر: الأتباء العثمانية. الوثيقة رقم ١٣ / ١٢١.

أقدمتها القاووق بلونه الأحمر والمدرّب بخطوط طويلة، وعلى شكل مثلث رأسه إلى الأسفل وقاعدته في الأعلى. ولا يصل رأس المثلث إلى نهاية الشاش بل يترك بقية منه^(١).

أما الجلاب فكان زيّه ينسجم مع المهمة التي أوكلت إليه في تنفيذ الإعدام، فأكمام جبته غير فضفاضة كي لا تعيق حركة يديه. بالإضافة إلى قصرها فتصل إلى مادون الركبتين فقط، ويرتدي من جزعه وإلى الأسفل شخصيراً أسود يصل إلى منتصف الساقين، وهو حليق اللحية طويل الشاربين ويعتمر بعمامة بسيطة مكونة من قاووق يُلف عليها شاش أبيض وضيق، ويحمل سيفه العريض^(٢).

ولم تشاهد دمشق زي الجنود المشابه لزي جنود أوروبا إلا في عهد المصريين ومابعده في عهد السلطان عبد المجيد. ولقد احاكى زي النظام الجديد، زي الأوربيين في هذا المجال، فخفف من الثياب السابقة الشيء الكثير، وتقلص الاهتمام بالفراء الثمين وحل محله فراء الثعالب^(٣) وحل الطربوش (الفاس) (FEZ) النمساوي الصنع محل العمامة والقاووق أو التربان، وحلت الجاكيت على الجزع خالية من الياقة ونأكمام طويلة حتى الرسغين بلونها الأصفر أو الأحمر، مكان القنبار أو الضللمان «الضلماية» والممتدة من الكتفين باتجاه الأسفل — وحل نطاق الجلد على الخصر مكان الزنار. وحل البنطلون مكان السراويل. وهو بلون أسود.

أما الحذاء فكان (المركوب) بلونه الأسود أو الأحمر أو الأصفر^(٤). مما يساعد الجندي على سهولة وسرعة الحركة، كما ارتدى العباءة عند الحاجة. وكان جنود المدفعية يرتدون زي النظام الجديد، وعلى الرأس قبق أسود أسطواني وطويل، أما الوسط فخال من نطاق أو حزام (زنار)، وتحت الجاكيت صدرية خاصة. ويرتدون الجوارب في أقدامهم تقليداً للأوربيين في ذلك^(٥).

(١) انظر: الأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١٢١/١٣.

(٢) انظر: الأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١٢٦/١٨.

(٣) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٣٣/٢٦.

(٤) انظر: الأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١٢٣/١٥.

(٥) انظر: المصدر السابق. الوثيقة رقم ١٢٧/١٩.

ولقد قلد الجيش المصري زي الجيش الفرنسي، فكان لباس الجندي المصري يتألف من الآتي : طربوش أحمر وسترة ضيقة (صدرية) وبنطلون (سروال واسع) ونطاق يُشد على الخصر ورباط للساق (طوزلق) وحذاء بلدي أحمر (مركوب). وكانت هذه الملابس تصنع من قماش قطني سميك في الصيف، أما ما كان يلبس في فصل الشتاء فصنع من الجوخ. وكان لون هذه الملابس متضارباً كما ذكر المعاصرون. فمثلاً يذكر الجنرال بويه رئيس البعثة العسكرية أن لون اللباس كان يختلف باختلاف الكتائب العسكرية، ما بين الأسود والأحمر والأسمر. ويقول الكابتن جول بلانا: إن السترة (الصدرية) والبنطلون كانا يصنعان من الجوخ الأحمر ومن نوع (السرج)، أما الدكتور كلوت بك فيذكر أن لون الصدرية كان أحمر (حصراً)، ويسكت عن لون السروال (البنطلون)، وطبق هذا النظام من الألبسة على الضباط إلا أنها كانت مصنوعة من الجوخ. وتزينها ضروب من التطريز، بالإضافة إلى الصدرية ذات الأزرار التي كان الضباط يلبسونها تحت السترة. وكانت تكسب الضباط رونقاً جميلاً. وكانت هذه الملابس تشبه الزي الوطني المصري في القرن التاسع عشر. وكان الجنود في الصف يرتدون الملابس البيضاء المصنوعة من القطن الغليظ، أما الفرسان فيرتدون ملابس تختلف باختلاف الوحدة، فمثلاً الفرسان ورجال المدفعية وجنود الحرس، كانوا يرتدون شتاء صدرية زرقاء في حين كان رجال الأسلحة الأخرى يرتدون صدرية حمراء. وكانت حلل ضباط الخيالة ذات جدائل مقصبة، أما الفرسان (المدرعون) من أهالي بعلبك الشام، كانوا يرتدون على رؤوسهم نحوذات من الطراز الذي كان معروفاً في أيام الصليبيين.

ولقد وضع الفرسان غير المدرعين على رؤوسهم، القالوطة المصنوعة من الصلب، تحيط بها عصاية من نفس المعدن. وكانت تثبت قطعة طويلة من الحديد، لوقاية الأنف من ضربات السيف، أمام واقية العين. وكان لصف الضباط شارات تدل على رتبهم العسكرية، فالأنباشي كان يحمل على صدره شريطاً واحداً، والجاويش اثنتين، والباشجاويش ثلاثة والصول نصف هلال من الفضة والملازم الثاني نجمة من الفضة والملازم الأول نصف هلال ونجمة من الفضة واليوزباشي هلالاً ونجمة من الذهب والقائمقام هلالاً من الذهب ونجمة من الذهب مرصعاً بالأماس وهكذا.

وفي فبراير (شباط) ١٨٤١م صدر فرمان سلطاني بتقييد اللباس والشارات

العسكرية كي تكون كما في الدولة العثمانية، والغاية من ذلك أن لا تشعر مصر على أنها مستقلة عن الدولة العثمانية^(١).

ومن أزياء رجال الدين، زي نقيب الأشراف وأزياء الطرق الصوفية. أما زي نقيب الأشراف فكان مشابها لزي قاضي القضاة (شيخ الإسلام) إلا أنه يختلف عنه بلون جيبته التي كانت لدى الأول فاتحة اللون ويعتمر بعمامة لها شاش أخضر. وعندما أدخل الطربوش كلباس للرأس قام نقيب الأشراف بلف الشاش الأخضر حول الطربوش، وكان الأشراف بشكل عام حريصين على الحفاظ على مظهرهم الخارجي، خاصة في المناسبات والاحتفالات وفي ذوائر الدولة وعند زيارة الحكام^(٢). إلا أن زي الأشراف لم يكن على درجة واحدة من الإتقان والثراء، بل توقف ذلك على درجة غنى كل واحد منهم، واختلف لذلك نوع القماش المستخدم في صنع ثيابهم، كما اختلف نوع فرائها وحتى زينتها، وعدد الثياب من النوع الواحد. وكان من الطبيعي أن نلاحظ ذلك بين غنيهم وفقيرهم. فأحد أغنياء الأشراف في دمشق وهو السيد عبد الله جلببي بن السيد مصطفى الدقر المتوفى سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م بلغت تركته مئاة الألوف من القروش، وكان من تركته الثياب الآتية: «عدد كبير من الجلبات المختلفة بلونها وقماشها وفرائها وعدد كبير من البنش والقمصان المضريبات (المدرجات) والسراريل والأثواب والأكار والتقميطات والميتانات والعنثري والمخازم والجقشير وعدد من الجواربي والإماء والعبيد»^(٣). في حين نرى تركة شريف آخر من دمشق، لم يكن على درجة غنى الأول، ولهذا لم يكن في تركته من الثياب العدد الكبير، وذلك الشريف هو السيد صالح بن الشيخ أمين العش المتوفى في ١٩ شوال ١٢٣٧هـ/١٨٢٣م وكانت تركته مؤلفة من الآتي: «بنش جوخ وجبة جوخ وعنثري آلاجة وجقشير وشالة وقميص

(١) انظر: رستم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا. ج ١، ص ٨٩.

2 - See: Russell, A. op.cit. VOL. I. PP. 159. 160.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٣٧/٢٩٩ - ١٢٤٥هـ. ص ١٧٤. ثم: تركة فرع الشجرة الزكية الشريف محمد أفندي بن اسماعيل العجلاني الذي بلغت تركته ١١٩٤٠ قرشاً وهو مبلغ كبير من المال آنذاك، وكان من تركته القلجيين والشال الإنكليزي بالإضافة إلى الثياب المتعددة والمتنوعة والمفزة بقراء ثمين. انظر، سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٣/٣٦٥، ص ١٥٠ القضية تاريخ ١٨ ذي الحجة سنة ١٢٥٣هـ.

ورقيق وشاش وقاوق وشالة عجمية وشالة بيضاء وجزمة ومست وبابوج ، وبلغت ثروته
مئات القروش^(١)

أما أتباع الطرق الصوفية فكانوا من حيث الأزياء صنفان : أولهما زاهد في الثياب
لا يرتدي إلى الخشن منها^(٢) ، أو لا يبدل ثيابه إلا بعد مضي سنوات طويلة . فمثلاً أبو زيد
الخلبي المتصوف « لم ينزع قميصه نحو اثنتي عشر سنة » ومات
١١٧٣هـ / ١٧٥٩ - ١٧٦٠^(٣) . في حين كان بعض المتصوفين يتصدق بالثياب
الجديدة ، ويرتدي الثياب الخشنة القديمة مثل الياس الكردي المتوفى سنة
١١٣٨هـ / ١٧٢٦م^(٤) .

أما الصنف الآخر من المتصوفين في دمشق فبرز آئذ في معظم أتباع الطرق الصوفية
المختلفة . وتميز هؤلاء بلباس الرأس ولون الشاش والجبة أو بعض الثياب . فأصحاب الطريقة
الرفاعية كانوا يلفون الشاش الأخضر على التاج^(٥) ، أما زهبا فكان الأسمر والأبيض^(٦) . أما إذا
كان الشاش ملفوفاً على الطربوش فيدل على أن صاحبه من السادة الأشراف وهذا هو الفرق
بينهما . وكان أصحاب الطريقة القادرية يلفون شاشاً أسود حول عماماتهم ، وإذا كان شريفاً ،
فتعلو الشاش قطعة من اللون الأخضر المقصب . وكان أتباع الطريقة المولوية يلبسون على
رؤوسهم قلنسوة طويلة (كلاة) من الصوف الأحمر أو الوبر بالإضافة إلى الجبة السوداء^(٧) .
وكان زي الطريقة الرفاعية والسعدية اللون الأخضر^(٨) .

- (١) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ١٢٤٥هـ . ص ١٧٤ .
- (٢) انظر : المحبي . خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . ج ١ . ص ٣٧٢ و ص ٣٧٥ .
- (٣) انظر : المرادي . سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . ج ١ . ص ٧٣ مطبعة بولاق . مصر . ويذكر
المرادي أن حسين الحموي المتصوف كان يلبس الخشن من الثياب ومات سنة ١١٠٦هـ . انظر : سلك
الدرر . ج ٢ . ص ٦٧ و ص ٢٧٢ .
- (٤) المرادي : المصدر السابق . ص ٢١٧ .
- (٥) العلاف ، أحمد حلمي . دمشق في مطلع القرن العشرين . ص ٢٤ . تحقيق علي جميل نعيمة . دمشق ،
١٩٧٦م .
- (٦) انظر : التفتازاني ، أبو الوفا . مقالة له في مجلة كلية الآداب بالقاهرة . تحت عنوان : الطرق الصوفية في مصر .
العدد ١ ، ص ٧٥ . القاهرة . سنة ١٩٦٣م .
- (٧) العلاف : المصدر السابق . ص ٢٥ .
- (٨) التفتازاني ، أبو الوفا ، المرجع السابق . ص ٧٦ .

أزياء العامة

اتفق زي الرجال مع زي النساء في نواحي عدة ، مثل التزيين والزركشة ، وفي تسمياته والإسراف في أبعاده ، وكان الخلاف بين الزين بسيطاً ، وأقل مما نراه الآن بينهما من فروق ، وشاركت دمشق في ذلك المدن الشامية الأخرى .

وتعود تلك الأزياء في أصولها إلى عدد من المؤثرات والحضارات التي قامت في منطقتنا . فكان منها ما يعود إلى أصول عربية قديمة كالآرامية والكتنانية والآشورية وغيرها وإلى أصول غير عربية كالحبشية والفارسية والهندية والإغريقية والبنظية ، وبرزت في هذه الفترة أزياء أهل المغرب العربي التي جاءت مع أبنائه إلى دمشق ، بالإضافة إلى أزياء أبناء الأقاليم العثمانية غير العربية .

ونسجت الأقمشة من خيوط القطن أو الكتان أو الصوف أو الوبر أو الحرير ، وكانت خالصة أو بنسب معينة من تلك الخيوط ، وذلك لترضي أذواق الدمشقيين . وكان منها المصنوع محلياً أو المستورد من أقاليم الامبراطورية العثمانية أو خارجها .

ونلاحظ أيضاً شغف العامة باقتناء الفراء الذي كان مثار الإعزاز والتفاخر . إلا أن ما استجد من أحداث على الساحة العثمانية والدولية ، وحتى الدمشقية ، في هذه الفترة ، قد أثر أيما تأثير على ظاهرة اقتناء الفرو الثمين . فلجأ بعض العامة إلى اقتناء فرو الثعالب والغنم ، أما البعض الآخر فعزف عن اقتنائه كلياً ، ليس لارتفاع أسعاره فحسب ، وإنما لاضطراب حبل الأمن ، وضعف السلطة المركزية وفقدانها لهيبتها ، مما جعل المواطنين عرضة لابتزاز الحكام . فاضطر بعض الأثرياء للتظاهر بالفقر وعزفوا عن لبس فاخر الثياب ، واستعاضوا عنها بلبس الأتفال البالية خارج بيوتهم ، لإبعاد أنظار عوانية^(١) الظالمين من الحكام .

وبقي الناس ميالين إلى ارتداء الثياب ذات الألوان الناصعة ، كالأحمر والوردي والأبيض والبنفسجي ، إلى عام ١٨٤٧م / ١٢٦٣ - ١٢٦٤هـ ، حيث هجر أبناء الفئات العليا الثياب من تلك الألوان ولبسوا الجوخ الأسود والأزرق والكستنائي ، في حين استمرت فئات العامة باقتناء الثياب من الألوان السابقة الذكر^(٢) .

(١) انظر . حمامي . المرجع السابق ، ص ٥٨ .

2 - See: Polk.op.cit.PP.164-166.

ویدخول البضائع الأوربية إلى دمشق وعلى نطاق واسع ، بدأ العديد من أبناءها يعزفون عن الأقمشة المصنوعة محلياً أو المستوردة من الشرق ، لتحل محلها الأقمشة الانكليزية ، نظراً لرخص أسعارها ، إذا ما قورنت بأسعار الكشمير والشنال . وأصبح حتى البدوي يضع على رأسه كوفية مستوردة من برمنغهام . أما أبناء ريف دمشق فاستمروا بصنع ثيابهم الخاصة مما يغزلونه من خيوط القطن أو الصوف ، فصنعوا منها عباءاتهم (من الصوف وسراويلهم من نسيج القطن الخشن المحلي) ولكن اهتمامهم بالنسيج الأوروي مالبث أن تزايد مع الزمن ، وبدأوا يخيطنون ثيابهم منه وخاصة رمادية اللون ، لتناسب العمل في الأرض ، وكانت مثل هذه الأقمشة أهم منتجات بريطانيا النسيجية .

ومن جهة أخرى كان أبناء دمشق ينفرون من الأزياء الأوربية ، وكان لابسوها يتعرضون للإهانة . لهذا راعى الأوروبيون ، عند دخولهم إلى دمشق ، خلع أزيائهم القومية واستبدلها بأزياء محلية ، كي لا يتعرضوا لمضايقات الشعب . وبقي هذا الحال إلى عهد ابراهيم باشا المصري « حيث قام بتعويد الدمشقيين على رؤية هذه الأزياء »^(١) .

وسنحاول فيما يلي رصد أهم الأزياء عند عامة دمشق وخارجها ، وسيشمل الرصد زي الرأس والجزع وأسفل الجسم ، مع ذكر أهم الحلي والمجوهرات والزينة المستخدمة لدى الرجال والنساء وستتناول زي الرجال أولاً ثم بعد ذلك زي النساء وهكذا .

١ — لباس الرأس لدى الرجال

وقد تنوع لباس الرأس ، ونادراً ما كنا نرى أحداً من الرجال حاسر الرأس ، لأن خلع مثل هذا الغطاء كان مستهجنأ ، وكان نوعه يدل على انتفاء صاحبه الاجتماعي ، وكان القاوق^(٢) أساس لباس الرأس ، وتنوعت العمامة الملفوفة عليه لدى العامة بشكل يصعب علينا حصر

١ - See: Douin .G. «Mission boisle comte en Syrie». P.202.

(٢) القاوق : وهو عبارة عن قلنسوة تلبس على الرأس يفصلها صانعها من جوخ أو غيره . وكان يطلق على صانعها في دمشق اسم القاوقجي ، وكان يفصل على قدر الرأس وله بطانة وظهارة يحشى ما بينهما بالقطن وسطح دائرتها المماس للأعلى (الترس) عريض مدور يلائم القاوقجي ظهارته وبطانته بدروب عديدة وأسلاك مخيطة . وفي الترس نقوش من الخياطة وضروب لطيفة تجمع على زرها الوسط . وكان يلبسه ويعتم - العلماء والوزراء والأعيان مع الشاش الأبيض . انظر : القاسمي . المصدر السابق . ج ٢ . ص ٣٧٣

أنواعها ، فالطرطور^(١) للأولاد وللدلاة ، والقلبيق^(٢) لاتباع الطريقة الصوفية المولوية وللجنود ، والكلاة^(٣) لل دراويش المولوية ، والطبزية^(٤) لمشايخ الطرق الصوفية ، والتاج^(٥) للمتصوفة ، والكففة للبدو وبعض سكان القرى وهكذا .

(١) الطرطور : لباس رأس قديم عند السوريين ، وهو على شكل مخروطي ، لبسه الأولاد على الرأس في هذه الفترة كما لبسه الجنود الدلاة ، وكان لديهم من اللون الأسود المصنوع من جلود الغنم الصغار . انظر : العبد ، حسن آغا : تاريخه ، ص ١٧ . الحاشية . ثم انظر : الأزياء العثمانية — القسم الخاص — الوثيقة رقم ١٢٧/١٩ . ثم الوثيقة رقم ١١٩/١١ .

(٢) القلبيق : كان بمثابة لبادة تلبسها المولوية ، وكان يغشى بجلد الجدي الصغير ، وكان يلبسه الجنود بعد أن يضيفوا إليه عمامة صغيرة لا تغطيه بكامله ، ثم أصبح يصنع من جلد الخروف الأسود بدلاً من جلد الجدي . وكان يزين ترسه العلوي بالسيم أو القصب . وكان القلبيقي وهو صانع القلابق يفصله من الجوخ على قوالب خاصة ومكابس من الخشب . انظر : الأزياء العثمانية القسم الخاص . الوثيقة رقم ١١٥/٧ . ثم القاسمي قاموس الصناعات . ج ٢ ، ص ٣٧٩ . ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١١٩٧/٢١٥ — ١٢٠٠ هـ ، ص ٧٧ و ص ٧٨ .

(٣) الكلاة : وكان يلبسها الدراويش ، وهي من اللباد غالباً ، فيلبسها دراويش الطريقة المولوية وغيرهم في دمشق . انظر : حمامي . المرجع السابق . ص ٢٩٨ .

(٤) الطبزية : ويقال لها الطبزة وهي اسم لكسوة كبرى وعمة عظمى تلف من الشاش الأخضر الكثير الأزرق على القاوق أو العرف ، وكان يلبسها العلماء ومشايخ الطرق في مواعيد خاصة وأوقات معينة وفي ليالي إقامة الأذكار ، وهذه الطبزية تختلف في حجمها ، فمنها الصغير والمتوسط والمفرط في كبره ، وكانت ترى بأشكال مختلفة على بعض القبور القديمة من حجر منحوت أو قماش وكانت بعض بيوت العلم الدمشقية تحتفظ بها لوفاة عالم أو شيخ طريق . يضعونها على النعش ناحية رأس الميت إعلاناً بأنه عالم أو شيخ طريق أو نسيب . انظر : القاسمي ، محمد سعيد . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٣٧٤ .

(٥) التاج : كان يلبسه بعض المتصوفة ، فمنهم من يتعمم عليه ، ومنهم من لا يتعمم عليه . أما اللبادة البيضاء فكانت على أشكال ، لكل شيخ طريق شكل خاص منها ، كاللبادة الطويلة بطول لبادة المولوية ، تلف عليها صوف أبيض بهندسة خاصة ، ومنها لبادة الطربوش ومنها لبادة مضلعة . وكان من لا يجيد التعمم على القاوق أو اللبادة يرسلها إلى من يجيدها وهم أشخاص كانوا معروفين يرتزقون من ذلك ، فكانوا يتقنون هيئة العمة وشكلها على حسب رغبة صاحبها ومظهره وطريقته ومن الناس من كانت عمته على قاوق مدور كالدف الكبير المعروف بالمزهر وكثيراً من العلماء كان يتعمم على القاوق بالشاش الأبيض ومنهم من كان يتعمم بعمام من الحرير المطرز المعروف بـ (عزيز خان) أو بالأغباني ، وهي عمة سائر التجار وبقية الناس .

وكان لأكثر الناس عمامتان فأكثر ويقولون عمة للرياسة وعمة للسياسة ، ويعنون بذلك عمة لمقابلة الناس وعمة للدار وتعاطي الحرفة . فالأولى روعيت نظافتها أكثر من الثانية ولما كثرت الطرايش وانتشرت في عهد

تكوّن لباس جزع الرجل آتخذ من ثياب عديدة، اختلفت بألوانها وتفصيلها، فمنها ما كان يصل إلى وسطه أو إلى ركبتيه أو يصل إلى كاحليه، ومنها ما كان بأكمام تصل إلى الرسغين أو ما كان بدون أكمام. وصنعت تلك الثياب من أقمشة مختلفة، فكان منها القطني أو الحريري أو الكتاني، أو من خيوط مختلفة. واختلفت أيضاً تلك الثياب من فئة إلى أخرى بحسب أحوالها المادية. فالأغنياء أدخلوا إلى بعضها الفراء، سواء في بطانتها أو في أكمامها أو حوافها. واختلف تبعاً لذلك نوع الفراء المستخدم، واستخدمت الثياب المفراة في فصل الشتاء، نظراً لما توفره من الدفء للجسم. واستخدم في بعضها التطريز والتزيين بموضوعات مختلفة وأهم هذه الثياب هي: القميص^(١) ويأتي على الجزع مباشرة، ثم تأتي فوقه الصدرية^(٢) وتتممها السراويل أو الشخشير بحيث ينسجمان مع بعضهما في اللون ونوع القماش. ثم القنار أو العنتري وكان يلبس بدلاً عن الصدرية إذا كان قصيراً، أما الطويل منه فكان يصل

السلطان محمود الثاني أخذت القواويق تتناقص وصارت الطرايش تجلب من الخارج، وبدأ أمرها ينتشر حتى عم. واستعاضت الناس بها عن جميع ماتقدم من القواويق والعرف والطبزة واللبادة عدا بقية مشايخ الطرق، وصارت الناس تتعمم على الطربوش. وبدأوا يتلطفون بحجم العمامة. انظر: القاسمي، محمد سعيد المصدر السابق. ج ١. ص ٣٧٥ و ص ٣٧٦.

(١) القميص: ثوب رقيق أو من قماش قطني أو من الحرير. وكان يحل محل هذا القميص ثوب آخر يلبس مكانه أو فوقه، مصنوع من قماش خريوي، أو قطني، أطلق عليه الكيرمازوت (Kermazoot) وكان ساذجاً أو مزهراً، وهو غالي الثمن مبطن بفرو، وضعه الأغنياء من فراء الفاقوم (Ermine) وبره قصير، وكان بدون أكمام، مطوق بزيق (كنار) ضيق من الفرو حول الرقبة، ويتدلى بطوله إلى مادن الفخذين وإذا ما صنع له كانا يصلان إلى مابعد الكوعين. وكان القميص المصنوع من القطن عريض الأكمام ويصل من الكتفين إلى أسفل الجسم. انظر: حمامي، المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(٢) الصدرية: كانت مفتوحة من الأمام، وفي منتصفها أزرار صغيرة بحجم حبة الحمص، ولا يقل عددها عن الخمسين، وهي من الخيوط الحريرية المبرومة الملتفة على بعضها، تزرر عند الحاجة، وكانت تطرز من الأمام على جانب الأزرار من الأعلى إلى الأسفل، ويوضع طرفها السفلي تحت السراويل، ويلفها زنار من الشال أو الحرير (قمماش مبطن من الداخل) بقماش آخر أو فراء، ويختلف نوعه ما بين الصيف والشتاء. ويكون الزنار مطرزاً بمواضيع هندسية ونباتية.

وضعت الصدرية الصيفية من الحرير الأطلسي اللامع المخطط من نوع الصاية بأقلام عمودية، ذات لونين متباينين كالأبيض والأزرق أو الأبيض والخمري أو الأسود والأصفر، أو من الحرير السكري (كريم ساذج) أو من الأغنياء. انظر: حمامي، المرجع السابق، ص ١٤٨ و ص ١٤٩.

إلى الكاحلين ، ويسمى الضلماية أو الضلمان^(١) . ثم الميتان^(٢) والبنش أو الدامر^(٣) . والجبة^(٤)

(١) تستقر على الجسم بسهولة ويسر ، وتربط برباط قماشي من أحد الجانبين . وهي مفتوحة (متصالبة) وعليها عدد من الأزرار الصغيرة كما في الصدرية . حيث تزرر على الصدر . وإذا مالبت الصدرية تحت الضلمان ، تكون الأخيرة مفتوحة بحيث تسمح للصدرية بالبروز من تحتها .

وكانت الضلماية من القماش البسيط أو الحام المزهر . وكانت أجناساً مختلفة كالمصرية والحامدية . والآلاجة والبقنة . أما بالنسبة لطولها ، فكانت بمثابة ثوب طويل يصل إلى مشط القدمين ، مفتوحة بكليتها من الأمام . فهي إذن من اللباس المتصالب ، ويقول لوروا غوران إن القنباز « عريض من الأسفل ثم يضيق تدريجياً نحو الأعلى ويردف الطرف الأيمن عادة فوق الطرف الأيسر ، ويفلق عند العنق بزر ظاهر . وله كمان طويلاً يتسعان عند راحة الكف ليساعدا على التشمير عند الوضوء والطعام . ويكون إما من الجوخ أو الحرير الساذج أو القلم بخطوط طويلة ملونة بعدة ألوان — ويستخدم القنباز الحريري في فصل الصيف ، ويسميه العامة (الصاية) أو شاية وقد يكون من الحرير الأبيض الساذج وهذا ما يسمى بالروز أو من حرير الأغباني ذي الخيوط الحريرية الصفراء المطرزة على القماش برسوم نباتية ملتفة . وكان القنباز الحريري (الصاية) يسمى بأسماء عديدة بحسب ألوانه فمنه : الحامدية والعطافية والشاهية والأساورية والديما ، وهناك أنواع أخرى للصاية (القنباز) كالمصرية والهندية والعثمانية ، أما قنباز الشتاء فكان يصنع من الجوخ الساذج أو القلم . انظر : حمامي . قاموس الصناعات ، ج ٢ . ص ٢٧٢ و ٢٧٣ و ص ٢٧٤ و ص ٢٧٥ . ثم انظر : العلاف . أحمد حلمي ، دمشق في مطلع القرن العشرين ص ٢٦ .

(٢) الميتان : ويأتي فوق الصدرية أو الضلماية . وكان عبارة عن قطعة نصفية مفتوحة من الأمام ، ذات أكمام طويلة وتبقى مفتوحة دائماً من الأمام ، ويتصالب طرفاها من الأسفل فوق الزنار ، وليس بها أزرار . أما قماشها ولونها فكانا متممين لقماش الثياب ولونها بشكل عام ، تطرز بالقصب من الأمام وعلى طرفي الكمين بزخارف هندسية متنوعة . انظر : حمامي . المرجع السابق ، ص ١٤٩ و ص ١٥٠ .

(٣) البنش أو الدامر : كان في الأصل لبس أهل الجبال والبادي والسهول ، وكان عندهم قصيراً وغنياً بالزخارف ، وهو قطعة من الثياب تشبه المعطف القصير ، يصل بطوله إلى الفخذين ، متسع فضفاض ، أكمامه طويلة وواسعة ، ذات فتحة مطرزة وليس له أزرار ، وكان ثوباً للرجال والنساء ، ولشدة محبة الناس لهذا اللباس الجميل والمرح ، كان يلبس من قبل الرجال والنساء ، وكان منه أنواع : الشالي الخياري والجوخ والقبوط ويفرغ بأنواع الفراء المختلفة .

انظر : حمامي . المرجع السابق ، ص ٢٥٥ . ثم انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم / ٢١٥ / ص ١٠ و ص ٣٠ .

(٤) الجبة : هي معطف من الجوخ قديم في حياة الشرقيين ، أخذه العرب عن كهنة الآشوريين والفرس ، وتحدث عنه ابن سعد في طبقاته . ولقد عرف هذا اللباس ما قبل الإسلام ، والجبة مبطنة وطويلة حتى القدمين ، وهي من الأمام أقصر من الخلف ، وإذا مالبت فوقها عباءة فتحزم الجبة من الوسط ، وليس للجبة ياقة أو جيوب ، وكانت عريضة الأكمام ، وتقور على استدارة العنق ، ولا تلتقي حافتاها الأماميتان إلا بضمها بواسطة اليدين . وليس لها أزرار ولا عروات ، ولذا كانت تبقى مفتوحة على الدوام ، وتكشف ماتحتها من الثياب الداخلية ، وكانت العباءة تلبس فوقها عند تهطل الأمطار أو الثلوج ، وبطنت الجبة عند الأغنياء وعناصر

والمدرية^(١) أو المضربية كما كانت العامة تلفظها آنئذ، ثم الزنار الذي كان يشد على الوسط ويسمى محزماً أو حزاماً أو شالاً أو شالة أو شملة، ويتفق وجوده مع الثياب المفتوحة من الأمام، ويمسك بأطراف ثياب الجذع والسرّافيل، ويلف عدة لفات حول البطن. واختلف طوله وعرضه من شخص إلى آخر، وكان ساذجاً أو مقلماً، وصنع من أقمشة مختلفة كالحرير أو الصوف، أو القطن، وأضيفت شراشيب خاصة إلى زنار المرأة، وربط من الجانب الأيسر من جسمها، أو كان له بزيم لتثبيتته بدلاً من الربط، وكان منه الحلبي أو الحمصي أو اليمني أو الحموي أو شلماً. ومن حرير القز أو الإسلامبولي أو الطرابلسي أو الدهدار^(٢). وكانت له استخدامات مختلفة، كأن تثبت ضمنه الساعة والطبنجة والخنجر أو الدواة أو المسواك^(٣). أو تحفظ فيه الدراهم أو بعض الأوراق الخ...

واستخدم حزام الجلد للوسط. وكان من المعدن أو الجلد وأطلق عليه اسم (كمر) أو

الهيئة الحاكمة بالجوخ أو الفراء في أطرافهما وعنقها وأكامها بنوع من الفراء الثمين المعروف بالسمور أو القاقوم أو الثمب وغيره من الفراء، وكان لون الفرو ينسجم مع لون الجبة لدى فئات الحكام، تمييزاً لكل واحد منهم عن الآخر، وكانت تسمى لدى رجال الدين بالفرجية، وعندما تفرّى وتكون طويلة تسمى الفوقانية.

انظر: حمّامي - المرجع السابق. ص ٢٧٨ و ص ٢٨١. ثم: DOZY op.cit. P.330.

(١) المديرية: لفظها العامة آنئذ المضربية ووردت هكذا في سجلات محاكم القسمة المختلفة في دمشق. ويبدو أنها كانت لباساً عاماً لدى جميع فئات الشعب الدمشقي، الأغنياء والفقراء النساء والرجال، وهي عبارة عن جبة طويلة مقلمة على الغالب بألوان متساوية تبطن من الداخل. توضع بين القماش الأصل وبطائه طبقة خفيفة من القطن، وتدرّب كلها خياطة بخطوط مستقيمة أو مائلة. ومن هنا أخذت اسمها (المدرية). وقد تحزم بزنار شالة أو شالة عريضة، ثم يلبس فوقها دامر، وتشبه في تفصيلها المعطف، إلا أنها عريضة الأكم وتبقى مفتوحة على الدوام لتظهر من تحنها السراويل والصدريّة والكشمير.

انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / سنة ١٢٥٠ - ١٢٥٨ هـ. ص ٢ و ص ٤ و ص ١١ و ص ٢٢ و ص ٤٠.

ثم: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥ / سنة ١٢٥٣ - ١٢٥٨ هـ. ص ٣٠ و ص ٣١ و ص ٥٢ و ص ٥٣ و ص ٥٤ و ص ٥٦ و ص ٥٧ و ص ٨١ و ص ٨٢.

ثم: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / سنة ١٢٣٧ هـ. ص ١٨٤ و ص ١٣٤ و ص ٢١٥ و ص ٢٠٦ و ص ١٩٥ و ص ١٩٢ و ص ١٨٧.

ثم: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / سنة ١١٩٧ - ١٢٠٠ هـ، ص ٥ و ص ١٠.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص ٥ و ص ٩ و ص ٩٠. ثم سجلها رقم

٣٦٤ / ص ٢٠. ثم سجلها رقم ٢٩٩ / ص ١٨٥ و ص ١٨٦.

(٣) انظر: حمّامي، المرجع السابق، ص ١٥١ و ص ١٥٢ و ص ١٥٣.

رخت. وكانت به حافظات للنقد أو لبعض الحاجيات الصغيرة. وكان يستخدمه الحرفيون فوق السراويل والصدريّة والميتان، ويكون في مثل هذه الحالة له جلدتان طويلتان أو أكثر يدخلها الحرفي في أحد طرفي الكمر بواسطة قطع حديدية صغيرة في وسطها مسمار للتثبيت^(١). وفي نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر انتشر لباس الزناير المقصبة الطرابلسية وغيرها، واعتبرها بعض رجال السلطة العثمانية المتزمتين خروجاً على المألوف، فأصدروا أوامرهـم بإبطالها^(٢). وكانت القطشـية^(٣) وهي كالدامر إلا أنها أقصر منه تلبس فوق الثياب.

٣ — أما ثياب الجزء السفلي من الجسم بدءاً من الوسط، فكان الرجل يرتدي السراويل أو الشخشير أو الجقشير أو الجنتيان أو الجروال، وهو سربال الرجال، وكان من القماش الأحمر أو البني أو الأصفر، يثبت على الوسط بزمه بواسطة خيط (دكة) ويضم على نهاية الساقين عند الكاحلين، بحيث يهدل ليغطي معظم القدمين. وكان يحافظ على حرارة الجسم الداخلية من تأثير تقلبات الجو الخارجي.

أما فيما يتعلق بلباس القدمين، فكان يأتي أولاً (المست)^(٤) أو المزد. الذي لبسه الدمشقيون حتى أوائل القرن التاسع عشر بدلاً عن الجوارب. وكان المست يصل بطوله إلى مفرق الكاحلين ويبقى في القدمين في حال الدخول إلى المجلس أو المسجد، بعد خلع الحذاء، ويُسار به على السجاد أو الحصر، دون أن يمسه بأذى ويبقى نظيفاً، ولم يخلعه لابسـه سواء أثناء وضوئه بالماء أو أثناء أدائه فريضة الصلاة.

ولم تدخل الجوارب أو (القلشين أو القلجين) على نطاق واسع إلا بعد دخول إبراهيم

(١) انظر: العلاف، أحمد حلمي. دمشق في مطلع القرن العشرين، ص ٢٦ و ص ٢٧.

(٢) العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص ١٣٩.

(٣) القطشـية: جاءت تسميتها من شكلها المختصر، فهي كالدامر قصيرة بطولها مفتوحة من الأمام بدون أكمام أو أزرار، وقد تكون بأكمام طويلة، إلا أنها على كل الأحوال قصيرة الجزع، وتخاط من الجوخ الأحمر، أو الأزرق أو الخمري، وتزين بمطرزات من القصب ذات مواضيع هندسية أو نباتية أو حيوانية على الصدر والظهر، وتلبس عادة فوق السراويل في الاحتفالات الرسمية، وكانت من أزياء الهيئة الحاكمة المفضلة. وربما تعود في أصولها إلى البيزنطيين، حيث اقتبسها العثمانيون وجاءت إلى بلادنا معهم.

انظر: تـمامي. المرجع السابق، ص ١٥٠ و ص ١٥١.

(٤) كلمة تركية تعني نوعاً من الجلد الطري الملون بالأسود أو البني أو الأصفر. الذي يكسو كامل القدمين.

باشا إلى دمشق ، ونلاحظ ذلك من خلال تركة المتوفين من جنوده^(١) ، ثم بعد ذلك عم لبسه بين أفراد الهيئة الحاكمة وانتشر بين العامة فحل محل المست بالتدريج .

ولقد تعددت أنواع الأحذية التي لبست فوق المست أو القلجيين ، سواء داخل البيت أو خارجه . فكان منها البابوج أو الصرماية أو الجزمة أو القبقاب أو الثبات^(٢) . ثم شاع لبس الكندرة في حدود سنة ١٢٨٠هـ^(٣) . وكان البابوج والصرماية هما الأعم من الأحذية لدى الرجال والنساء ، في حين لا نرى إلا ذكراً محدوداً لأنواع الأحذية الأخرى في تركات المتوفين ، الواردة في سجلات القسم المختلفة لمدينة دمشق آنئذ ، مما يدل على قلة شيوعها . كما ورد ذكر الجزمة ، وهي من النعال ذات الرقبة التي تغطي جزءاً من الساقين . أما الأغنياء فكانوا يرتدون في أقدامهم حذاءً أطلق عليه اسم (الثبات)^(٤) ، وحوّرتة العامة إلى (الصباط) ، وسمي بذلك لثباته في القدمين نظراً لطول رقبته ، وربما كان المقصود به الجزمة نفسها^(٥) وسمي البابوج بالسرموز أو السرموزة والكلمة فارسية الأصل ، شكله كالجندول ، ولم يسمح لغير المسلمين بلبس الأسود منه^(٦) في حين كانت ألوانه مختلفة لدى أفراد الهيئة الحاكمة ، كالأسود والأصفر والبيج^(٧) . ومن الأحذية الصرماية التي اختص بصناعتها الزراييلي وغيره من

(١) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥ / سنة ١٢٥٣ — ١٢٥٨هـ . ص ٤١ و ص ٥٦ و ص ١١٣ و ص ١٥٠ .

(٢) انظر: حمامي . المرجع السابق ، ص ٢٣٧ و ص ٣٠٢ .

(٣) ويقول القاسمي : أن صنعة الكندرجي في منتصف القرن السابق (ق ١٩) كانت عديمة الوجود حتى ذلك التاريخ ، وكان ماهو موجود من لباس القدمين الخف والبابوج . الأصفر والصرامي الحمر ، ولما انتشرت الكندرة ، والتي كانت من لباس الفرّنج ، انتقد من لبسها ، بحجة أنه لا يجوز تقليد الفرّنج فيما يناقض الدين . ويعقب القاسمي على هذا الرأي بقوله : « إن إدخال الدين في الأزياء من الجهل » . انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٣ ، ص ٣٩٤ .

(٤) انظر: حمامي . المرجع السابق . ص ١٦٦ و ص ٣٠٣ . ثم سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ١١٩٤ — ١٢٠٠هـ ، ص ١١٧ و ص ٢٢٧ .

(٥) العلامة . أحمد حلمي . المصدر السابق . ص ٢٦ . ولقد ورد ذكرها في سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ١٨٨ و ص ٢١٧ . وذلك في مخلفات الخلاق محمد بن السيد طالب الزعتري ومخلفات السيد صالح العث . القضية تاريخ ٣ ربيع الأول سنة ١٢٣٨هـ ثم القضية تاريخ ١٩ شوال سنة ١٢٣٧هـ .

(٦) انظر: حمامي ، المرجع السابق ، ص ٣٠٢ . ثم الحلبي . يوسف بن ديمتري . المرتاد في تاريخ حلب وبغداد . ص ٣٠ و ص ٤٧ .

(٧) انظر: الصور الضوئية للأزياء العثمانية . الوثيقة رقم ١١٥ / ١٧ . ثم الوثيقة رقم ١١٦ / ٨ . ثم الوثيقة رقم ١١٧ / ٩ . ثم الوثيقة رقم ١١٨ / ١٠ .

صانعي الأحذية^(١)، وصنعت من النعل والسختيان الأحمر^(٢)، وكان يرتديها الجنود ويضعون فوقها على الساقين طماقات للوقاية بعد أن أصبح الشخصير قصيراً إلى مادون الركبتين مباشرة، تقليداً لزي الجندي الأوربي، طبقاً للتنظيمات التي أجراها السلطان محمود الثاني. أما المركوب فكان لباساً للقدمين لدى أبناء دمشق وريفها على حد سواء، ولبسه أفراد الجيش المصري في دمشق بالإضافة إلى المركوب الأفرنجي^(٣). أما الخف الذي صنع من الجلد فكان لباس القدمين للرجال والنساء، ولقد زين خف النساء الغنيات بالقصب أو بشرطين من خيوط الذهب، ورصع بالجواهر، وكان يصنع من الصوف ويطن بثوب من الكتان أو الجلد الرقيق^(٤).

ومن لباس القدمين أيضاً القبقاب: الذي كان يلبس داخل البيت وخارجه، خاصة في أيام الشتاء، وكان يصنع من خشب الصفصاف أو الحور أو الجوز لكثرة هذه الأشجار في دمشق، وله سير من الجلد يطوق مشطي القدمين، واستخدمه الكبار والصغار والرجال والنساء. وكان لقبقاب النساء وظيفة جمالية، لأنه يزيد من طولهن ويرفع ثيابهن عن الأرض، فيسرن فيه بغنج ودلال، خاصة في الحفلات. ولقد راجت صناعة القبقاب في دمشق وكانت له سوق خاصة جنوب الجامع الأموي. ووصل عدد قباقيب بعض النسوة إلى ٣٠ زوجاً. وكانت القباقيب تعرض مع جهاز العروس، ولقد تفنن القباقيب بصنعها فطعموا خشبها بالمعادن والحجارة الكريمة والصدف، وطرزوا سيورها بخيوط من الفضة والذهب. وكانت القباقيب أنواعاً متعددة كالشبراوي والساذج والمطعم بألوان مختلفة^(٥). ولقد اختلف شكل القبقاب ونوعه ما بين الأغنياء والفقراء، واختلف ما لبس منه داخل البيت وخارجه، وبقي استعماله في دمشق حتى القرن العشرين.

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص ١٣٤ و ص ١٢٦. ثم الصور الضوئية للأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١١٩/١١.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية رقم ٣٦٥/ص ٥٦. نركة حسين آغا الكردي بن محمد آغا بازو.

(٣) المصدر السابق. ص ٤٥ و ص ٣٩ و ص ٤٠.

4 - Dozy. op.cit. PP.155.157.159.

(٥) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/١٢٣٧ - ١٢٤٥ هـ. ص ١٨٤. من مخلفات القباقيب الشيخ محمد أحمد سنهاجي الذي كان يصنع مثل هذه القباقيب في سوق القباقيب في دمشق. القضية تاريخ ١٢٢٨ هـ. ثم الداغستاني، حكاية البيت الشامي الكبير. ص ٢٩ و ص ٣٠. دمشق ١٩٧٢ م. ثم الغلاف، أحمد حلمي. دمشق في مطلع القرن العشرين. ص ٢٧.

ومن جهة أخرى فإن الثياب التي ذكرناها آنفاً كانت تقريباً سائدة لدى الدمشقيين ، مع وجود بعض الفروق بين فئة اجتماعية وأخرى ، من حيث بعض تسمياتها ، وعددها ونوع القماش المصنوعة منه ، ونوع الفراء المستخدم في تزيينها الخ ...

وحسبنا أن نسوق بعض الأمثلة على تركات عيinat من الرجال يتتسبون إلى فئات اجتماعية مختلفة . فمثلاً : تركة الشيخ (رجل الدين) أمين بن فيض الله أفندي من الثياب والمتوفى سنة ١١٩٧هـ / ١٧٨٢ - ١٧٨٣م ، كانت مكونة من الآتي : قطش (قطشية) جبة زرداوة — فروة سمور — بنش زرداوة (كورك) (أي مغرى) ثم بنش فرو قاقوم . وبنش شالة — ثم جقشير من الجوخ — ثم شالة برزي (كورك) وقطش عرف (كورك) وشالي جبة — وجبة كورك فرو قاقوم وساعة حلايلي وسيف وقبوط مع بشلق وقاروق . ثم تركة المؤذن (رجل دين) عبد الرحمن محمد كانت مكونة من : « بنش جوخ — بنش ناقة — ساعة حلايلية — قنبار — قميص — رقيق — زنار — وشال وقاروق — جبة شالة — غدارة — طبنجة ويطقان »^(١) .

وهناك أمثلة أخرى من تركات ثياب الحرفيين في دمشق كالصرمايائي والزراييلي والحلاق والعتال والمصرياني ، نسوقها هنا للتعرف على أنيائهم آخذ بالصرمايائي سليم بن أمين المتوفى سنة ١٢٤٥هـ كانت تركته من الثياب تتألف من الآتي : « بكديلة — فروة ناقة — مضربية — أسلك — قميص — طربوش — أغبانية — عتري آلاجة — كمر — صدرية »^(٢) ، ثم الزراييلي حسين بن عوض كانت تركة ثيابه مكونة من الآتي : « جبة — عتري قطني — شالة انكليزية — عباية — فروة زرناية — قميص كتان — طربوش — مضربية — جوز زراييل »^(٣) ، ثم الحلاق الحاج محمد بن السيد طالب الزعترى وتكونت تركة ثيابه من الآتي : « أسلك — قميص جبة آلاجة — فروة — زنار حموي — عتري قميص — عباية سودة — عتري قطني — مست — جزمة »^(٤) ، والجلالاتي السيد محمد بن السيد عبد الله كانت

(١) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١١٩٤/٢١٥ - ١٢٠٠هـ ، ص ٥ و ص ٩٦ والبطقان نوع من السيوف .

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص ١٣٤ . القضية ٥ ربيع الثاني ١٢٤٥هـ .

(٣) المصدر السابق . ص ١٢٦ ، القضية في شهر رجب سنة ١٢٤٥هـ .

(٤) المصدر السابق . ص ١٨٨ ، القضية في ربيع الثاني ١٢٣٨هـ .

تركته مكونة من « جبة جوخ — شروال جوخ — عنتري آلاجة — زنار — شالة افرنجية — فروة ناقة — طربوش — مضربية »^(١)، ثم العتال عبد القادر ابن جمال كانت تركته : « عنتري آلاجة — عباية سوداء — جبة جوخ — شروال — ثوب — لفات هندية — لفة بيضاء — مضربية — فروة تنارية — طربوش — قميص »^(٢)، ثم تركة أحد المعصرانية من الثياب كانت « فروة زرداوية — فروة زنارية — فروة ناقة — بنش جوخ — بنش شالي — جبة جوخ — جبة شالة — عنتري آلاجة — صدرية شالة أغباني — قميص — رقيق — جقشير جوخ — شاش — وقاووق »^(٣).

هذا ناهيك عن بعض الأزياء التي كانت تشاهد في دمشق، ممثلة في أزياء أبناء الأقطار العربية والأجنبية الذين استقروا في دمشق وحافظوا عليها، وربما كانت وسيلة للتعرف فيما بينهم. ولم تكن أزيائهم تختلف كثيراً عن أزياء الدماشقة إلا في بعض التفاصيل، أو بعض أنواع من الثياب اقتضتها الظروف المناخية وبعض التقاليد الاجتماعية في أوطانهم. ونضرب مثلاً على ذلك زي أبناء المغرب الذين عمل بعضهم جنوداً مرتزقة لدى الولاة والحكام، وتميزوا بالبرنس المغربي^(٤) وعمامة الرأس، وكذلك زي أبناء ماردن الذين تميزوا ببنش خانصوف والصربوغي^(٥) وهكذا.

ولقد بدأ زي الرجال يتغير في دمشق بالتدريج، بدأ من رجال الهيئة الحاكمة والجند، نتيجة لتطبيق الإصلاحات والنظام الجديد، فاضطر أولئك الرجال للبس الزي الأوربي انسجماً مع مجريات التنظيمات التي أدخلها السلطان محمود الثاني ومأدخله ابراهيم باشا

(١) المصدر السابق. ص ٢١٠/١٢٣٧هـ.

(٢) سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/١٢٣٧هـ. ص ٢٤١.

(٣) المصدر السابق. ص ٢٢٣، شعبان ١٢٣٧هـ.

(٤) تركة محمد آغا كرتلي المغربي والمكونة من: فروة ناقة — جبة جوخ — ميثان آلاجة — جروال — صدرية — برنس مغربي — قميص — صرماية — وكمر — ساعة فضة. انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٢٨/١٢١١ — ١٢١٣هـ. ص ٧٣.

(٥) تركة أحد أبناء ماردن الذي توفي في دمشق والتي وردت في سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/١٢٦٤ — ١٢٦٥هـ. ص ١٨. القضية تاريخ ١٥ رمضان سنة ١٢٦٤هـ — وكانت مكونة من الآتي: بنش خانصوف — بنش جوخ — جبة جوخ — فروة ناقة — مضربية شال — قميص عنتري — صربوغي وقميص ولباس وقميص خولية وساعة فضة — ومست وبابوج.

المصري بعد احتلاله لدمشق ، ثم بدأت تتسرب الأزياء الأوربية إلى رجال أهل الذمة بالتدريج ثم بعد ذلك إلى بقية رجال دمشق . وكان الزي مزيجاً من المحلي والأوربي^(١) إلى أن ساد الزي الأوربي في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

زي نساء دمشق

لم يختلف زي نساء دمشق عن زي الرجال في الخطوط العامة ومسميات الثياب . إلا أن ثياب المرأة كانت أكثر تزييناً وزركشة واختلف زيتها في داخل البيت عما كان عليه خارجه ، حيث كانت مضطرة للخروج بالحجاب في الشوارع والأسواق . وبقي زي النساء على حاله الموروث من عهود سابقة . ولم يطرأ أي تبدل يذكر في هذا المجال ، إلا في زي نساء الفئة الحاكمة والغنية خاصة اللواتي قلدن فيه نساء عليّة القوم في استانبول .

ولقد تعددت ثياب المرأة ، وبرز ذلك في لباس الجزع والوسط والقدمين ، واللباس الخارجي الذي جاء فوقها جميعاً . فأضاع بذلك ماقد يبرز من تقاطيع جسمها ووجهها . وأهم ثيابها هي : القميص والسروالة والثوب والقزبة والبلك والزبون ثم القنبار أو العنتري والميتان والدراعة والزنار والمدرية (المضربية) والجبة والمست والبابوج والقبقاب وغيرها .

أما الثوب^(٢) : فقد بقي هذا النوع من اللباس حتى القرن التاسع عشر ، وكان يصنع من الحرير الساذج أو القلم ويوصل إلى القدمين ، وأكمام عريضة عند الطرفين ، وله فتحة من الأمام ، وعلى طوله دراعة حلب أو زبون وادي الفرات ، وفتحتان جانبيتان تمتدان من محاذاة الفخذين وحتى القدمين . وله مطرزات من الحرير على الصدر ، ويستخدم داخل البيت .

(١) ويذكر عبد الرحمن بك سامي ، الذي زار دمشق في أواخر القرن التاسع عشر ، أن ملابس الرجال في دمشق كان جلها من القنبار ، له قبة يبلغ ارتفاعها قيراطاً ونصف القيراط ، وأكمامه ضيقة وطولها إلى الكتف وأطول قليلاً ويتمنطق الرجال فوقه بشالات أو زنابير حريرية أو غير ذلك ، كانوا يلبسون فوق ذلك الطيلسانات ، إلا أن معظمهم عدلوا عن هذه العادة وصاروا يلبسون صيفاً البانطات الخفيفة الحمل ، وشتاء الفراء والبانطات الثقيلة . وجميعهم يلبسون الطرايش الاسلامبولية . إلا أن معظم المسلمين يتعمتون فوقها بعمامات من قماش الأغبالي ، وطلبة العلم منهم يتعممون بعمائم من قماش الشاش الناصع البياض وبعض العملة من النصاري واليهود يلقون على طرايشهم المناديل . وقد أخذ البعض في التسرول أو لبس البنطلون وأخص من لبس البنطلون خدمة الحكومة . انظر كتابه : القول الحق في بيروت ودمشق . ص ٧٩ .

(٢) الثوب : هو اللباس بشكل عام إلا أنه قد يأخذ معنى خاصاً فيعني لباساً فضفاضاً . انظر : DOZY .

ثم القزبة : وهي ما تسمى أحياناً بالقزبي أو الكزبي ، صنع من حرير القز ، وصبغ في دمشق بقشور الرمان المغلي الذي يعطيه لوناً خمرياً ، وزين برسوم هندسية مختلفة .

ثم التلي : وهو من أروع أزياء نساء دمشق آنئذ ، وربما اشتق اسمه من كلمة (تول) الفرنسية والتي تعني القماش الحريري الأسود ، المفرغ بخيوط متشابكة كخلية النحل عامة ، وكان يدخل إليه بعض خيوط الفضة الرفيعة بأشكال طولانية ومستقيمة وعليها بعض الرسوم الهندسية المختلفة . ولا ارتفاع ثمن هذا الثوب آنئذ اقتصر لبسه على النساء الغنيات .

أما البلك : فهو من الأزياء القديمة للمرأة ويعني الثوب بالتركية ، يمتد من الكتفين حتى القدمين ويضيق في قسمه الأعلى ، وله عند الصدر فتحة ، ويضاف إلى هذا الثوب صدرية قصيرة وضيقة ذات أكمام طويلة لها فتحة كبيرة ومستديرة ، وتشد طرفي الصدرية إلى الأسفل أشربة أو أزرار ليرتفع صدر المرأة فيبرز الثديان نحو الأمام والأعلى . ولهذا كانت النساء يغطين صدورهن بشاشية رقيقة عند خروجهن من البيت إحشاماً^(١) .

ثم الزيون أو المدرية : وكلمة زيون كلمة تركية ، أما كلمة المدرية فهي عربية (من التدريب) ولقد لفظها العامة آنئذ « المضربية » كما وردت أيضاً في سجلات القسمة في دمشق ، وكانت عبارة عن ثوب نسائي يصل إلى تحت الركبتين مفتوح من الأمام ويحزم بشرائط خاصة ، وهو من حرير أو أطلس له وجه وبطانة ، وما بينهما يحشى بالقطن ويندرب بإخاطته . وقد يكون من الحرير المبوقش وأحياناً من الجوخ أو الحمل الساذج أو من القطن المصبوغ بالأزرق ، وعليه كثير من المطرقات ، وله فتحتان جانبيتان صغيرتان من الأسفل . وكان تطريز المدرية النسائية يشمل أشكالاً هندسية أو رموزاً أو زخارف نباتية مختلفة من الأمام والخلف . وكانت المرأة ترتديه في البيت وعند استقبال الضيوف ، أو عندما يكون الفصل صيفاً ، وفي ساعات الصباح والمساء والسهرات الطويلة التي كانت نساء دمشق يقمن فيها حفلات السمر والغناء شتاء . كما استعملتها المرأة خارج بيئها . وكانت منها المقرأة أو المصنوعة من خام الشيت^(٢) . وقلما تخلو تركات نساء دمشق في هذه الفترة من هذا النوع من الثياب ، مما يدل على شيوعها بينهن . ونسوق مثلاً على ذلك ماجاء في تركة الحجة حسنة بنت السيد ابراهيم

(١) انظر : حمامي . المرجع السابق ، ص ٣١١ و ص ٣١٢ و ص ٣١٣ و ص ٣١٦ و ص ٣١٧ . ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١١٩٧/٢١٥ - ١٢٠٠ هـ . ص ٩٥ . ثم سجلها رقم ٢٩٩ / ص ١٨٤ .

الموصلية المتوفاة سنة ١٢٣٨ هـ^(١)، ثم الجارية المعتوقة نسرین بنت عبد الله^(٢). ثم أسماء بنت علي الشيخ من كفر موسى^(٣)، وزينب بنت السيد عباس قدح^(٤) وغيرهن.

السروالة: كانت المرأة ترتديها تحت أثوابها كسراويل الرجل، تثبتها على وسطها بدكة، وتزمت وتثبت على الكاحلين، فتهدل على القدمين أو تترك حرتين. وصنعت السروالة من قماش رقيق لهذا وردت تسميتها باسم (رقيق) في سجلات القسمة بدمشق. وزينت السروالة بخيوط الحرير، وطعمت أحياناً بخيوط الذهب وبأشكال ومواضيع مختلفة. أما ألوانها فتراوحت ما بين السماوي والحمري والأسود. وكانت المرأة ترتدي فوقها سترة طويلة من نفس اللون والقماش بمثابة القميص على الجزع. وتعلوها عصبة ثميّة (وتسمى أحياناً تقيطة) وغطاء طويل بحيث تنسجم هذه الألبسة مع بعضها بالشكل واللون^(٥)، وكانت تصنع من النسيج الهندي أو الدمشقي أو اليمني أو الحلبي أو المصري وغيره^(٦).

العنثري أو القمباز: وكان هذا الثوب لدى نساء دمشق. ونادراً ماتخول تركة أية امرأة متوفاة من ذكر هذا النوع من الثياب. وكان العنثري على أنواع، فمنه الالاجة أو الرقيق أو المخطط أو الصرقي أو الكمخة أو الزمام^(٧) أو المحجر أو الهندي أو الأوز أو المخرج بالقصب أو اليمني أو الديما أو الورقلي^(٨) وغيرها.

وكانت المرأة تضم ثيابها مع السروالة إلى جسدها بالزنار، وهو بمثابة حزام الوسط

-
- (١) السجل السابق رقم ٢٩٩/ص ١٥١.
 - (٢) المصدر السابق. ص ١٨٤.
 - (٣) المصدر السابق. ص ٢١٨.
 - (٤) سجل القسمة العسكرية رقم ١٢٥٣/٣٦٥ هـ. ص ١٢٥. ثم سجلها رقم ١٢٥٦/٣٦٤ هـ. ص ١٥.
 - (٥) حماني. المرجع السابق، ص ٣١٧ و ص ٣١٨.
 - (٦) السيوفي، حبيب. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثالث عشر نقلاً عن فولني. ص ١٠٠ و ص ١٠١. لبنان المطبعة المخلصة في صيدا سنة ١٩٤٩ م.
 - (٧) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص ٤ و ص ٢٢. تركة أسماء بنت شريف العطار الحلبي.
 - (٨) سجل القسمة العسكرية رقم ٢٩٩/ص ١٨٤ و ص ١٩٦ و ص ٢٤١ و ص ٢٤٠ و ص ٢١٨. ثم سجلها رقم ٢١٥/ص ٥.

وسمي زناراً أو محزماً أو كمرّاً أو شالاً، وكان متنوعاً فمنه مثلاً القز (من الحرير) أو الصوف ومنه زنار دهدار وزنار آلاجة ومنه ما كان مفرداً بفراء السمور أو بغيره من الفراء^(١) ثم الزنار الحمصي والشالة^(٢) والمقصب والطرابلسي وغيرها من الزنانير القماشية^(٣).

ولقد استخدمت النساء بدلاً من الزنار الكمر المصنوع من أحد المعادن الخسيسة أو الثمينة كالنحاس أو الفضة أو الذهب. وطعم الكمر بالأحجار الكريمة وسمي بالرخت وكان وقفاً على نساء الأغنياء وجواربهم المفضلات نظراً لثمنه المرتفع. وثبت الرخت على وسط المرأة بأبازيم خاصة.

زي المرأة الدمشقية خارج بيتها

لم تخرج المرأة الدمشقية، مسلمة كانت أم ذمية، خارج بيتها إلا متحجبة، إلا في حالات نادرة^(٤) واستخدمت لذلك فوق ثيابها الإزار^(٥) والملاءة. واختلف الحجاب ما بين المتزوجة والعازبة والمرأة المسلمة وأخواتها الذميات في بعض مظاهره الخارجية. وكانت المرأة تتلفع بالازار أو الملاءة من رأسها إلى قدميها، دون أن يشف ذلك عن شيء من جسمها، وكان الازار أبيض بالنسبة للعازبات والمسيحيات عموماً، أما المتزوجات فكن يضعن على الوجه منديلاً من المسلمين بلون أبيض أو أسود رقيق أو سميك، وكان مثقوباً من الأعلى ليسمح للعين برؤية الدرب. وكان الازار عاماً لدى نساء دمشق البالغات وعلى اختلاف

(١) سجلها رقم ٢٩٩/ص ٢١٠ و ص ١٨٧.

(٢) انظر: أيضاً سجلها رقم ٣٦٤/ص ٢ و ص ٧ و ص ٢٢ و ص ٤٠.

(٣) ولقد وضع الزنار القماشي بطول من ٤ — ٥ أمتار ويعرض من ١٠ — ١٢ سم وتكون من قطع قماشية مختلفة ألوانها كالمقصب والأحمر والأسود والأخضر وغيرها من الألوان. وانتهى طرفاه بشراشيب وكانت المرأة بعد لفه على وسطها تعقده من الناحية اليسرى. انظر: حمامي. المرجع السابق. ص ١٩٥ و ص ٢٢٧ و ص ٢٢٨.

(٤) انظر: الداغستاني، كاظم. والبيت الشامي. ص ٥٨ و ص ٥٩.

(٥) الإزار مكون من قطعتين مستطيلتين دجتاً دمجاً عرضانياً بطول ثلاثة أمتار ونصف وعرض متر تقريباً. وكان الجزء العلوي يلف رأسها وكتفيها وذراعيها وظهرها، ويبلغ القسم السفلي الساقين حتى القدمين، وثبت على الخصر كما تثبت القوطة، ولم يسمح للإزار بظهور ثياب المرأة الداخلية.. وكان لونه أبيض بالنسبة للعازبات. انظر: مجلة العمران الصادرة في دمشق عن وزارة البلديات، العدد ١. سنة ١٩٦٧م.

فئاتهم الاجتماعية . ويمكن رصد ذلك من خلال تركات النساء المتوفيات والوارد ذكرهن في سجلات القسم المختلفة في دمشق^(١) إلا أنه بألوان مختلفة كالأبيض والأزرق والأسود^(٢) .

ولقد اتخذ الأزار ألواناً وأشكالاً مختلفة^(٣) خاصة في قرى دمشق ، حيث كنا نرى كل قرية تتميز نساؤها المحجبات بازار خاص من حيث شكله ونوع قماشه ولونه . وقامت النساء الغنيات بتوشية أزاهن بخيوط الذهب والقصب^(٤) . واستخدمت النساء الدمشقيات الملائة كحجاب لهن ، ويعتقد أنهن تأثرن بذلك بنساء الأندلس . واستخدم بعضهن العباءة التي تغطي جسدهن من قمة الرأس إلى أخمص القدم . وكانت المرأة عند سيرها في الأسواق والشوارع ، تمسك بها من الأمام لتحجب بذلك ماقد يبدو من ثيابها^(٥) . وفي أواخر هذه

(١) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص ٢٢٧ . مخلفات فاطمة قادن بنت أحمد أفندي البهنسي . ثم سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص ٤ و ص ١١ و ص ٥٩ . تركة الذمية المسيحية أليس بنت نعمة ومرتة بنت نقولا الدياك الوارد ذكرهما في نفس المصدر السابق . ثم مخلفات الجارية محبوبة بنت عبد الله سمرات اللون . ثم مخلفات أسما بنت شريف العطار . كما ورد في نفس المصدر ، ص ١٢ . ومخلفات زمزم بنت الحاج محمد البغدادي . المصدر السابق . ص ١٢ .

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ١٢٠٠ — ١٢٠٣ هـ . ص ٢٦٥ .

(٣) يذكر أليكس راسل : أن نساء حلب كن لا يظهرن في حلب إلا محجبات بالأزرق التي هي على نوعين أوطما : ما يسمى بالفرجي وهو العام بالنسبة للنساء المسلمات ، والآخر وهو الإزار الحلبي . الذي يشبه القفطان الواسع بأكمام طويلة ومستقيمة . أما غطاء الرأس فمربع الشكل يتدلى على الظهر ، وأحياناً يكون من الكتان الأبيض أو من الشال أو أي قماش آخر ، والفرجي يصل إلى عقب القدمين ، ويغطي جميع الملابس التي تحته ، من العنق حتى الكاحلين ، كما يغطي العنق والرأس منديل أبيض وتخلعه المرأة بمجرد دخولها إلى الحرمك ، واستخدمت بعض النساء المسلمات قماش الكريب (CRAPE) بديلاً عن المنديل وكان يفتح عند وجهها قليلاً ليسمح لها بالتنفس بحرية أكثر مما كان عليه في السابق بحيث تبقى العينان والأنف بدون تغطية . أما حجاب المسيحيات واليهوديات فكان مصنوعاً من الشيث القطني (الساذج أو المخطط) . وكانت المرأة اليهودية ترتدي حجاباً من نموذج خاص بها ، وهو مخطط على شكل مربعات الشطرنج ، وبه تميز عن غيرها من النساء ، وكانت ترك إحدى ذراعيها حرة خارج الإزار انظر : Russell, op.cit. VOL.1. P.113.

(٤) انظر : سامي ، عبد الرحمن بك ، القول الحق في بيروت ودمشق . ص ٨٠ . بيروت ١٩٨١ م .

(٥) وكانت الملائة تتكون من ثلاث قطع منفصلة عن بعضها وهي :
أ — القطعة السفلى : وهي بمثابة /تنورة/ أو خراطة عريضة جداً تثبت حول الخصر بدكة وتزم حوله وتنزل بطولها إلى القدمين .

ب — القطعة العليا : وتسمى الفجة أو الفوقانية أو برلين كما يلفظها العامة ، وتكون على شكل مثلث متساوي الأضلاع فيغطي رأسه رأس المرأة ، ثم يردف طرفاه إلى الخلف ليستر نقرة المرأة وتغطيها

الفترة بدأت النساء في دمشق بتقليد الأزياء الأوربية وبخاصة من النساء الذميات (المسيحيات واليهوديات)، اللواتي احتككن بالأوربيات عندما أقمن بين ظهرانين في العقد الرابع من القرن التاسع عشر. ولكن التأثير بأزياء الأوربيات كان بطيئاً، وكان وفقاً على الثريات من الذميات*.

ويمكن الاستدلال على بطء محاكاة الأزياء الأوربية في دمشق بما أورده المصريان عبد الرحمن القاياتي^(١) وعبد الرحمن سامي بك^(٢) والأديب الفرنسي بيير لوتي^(٣)، الذين كانت

وظهرها، ثم يردف من جديد إلى الأمام ليستر قفا وجه المرأة وعنقها، ويثبت ضلعاً المثلث على الصدر بواسطة دبوس خاص أو تثبته على رأسها بواسطة شريطين طويلين إضافيين من نفس لون القماش لينعاه من الحركة أو الانزلاق عن الرأس، وهذا النوع من التعميم كان يقصد به ستر المرأة أكثر من تلبية حاجة الحياة العملية. وكان في الغالب من الحرير. وكان يستعاض عن قماش الحرير الأسود بآخر من القطن الأبيض أو المقصب لدى العذارى والمسيحيات.

ج - منديل الوجه: ويثبت طرفه الأعلى فوق الرأس مباشرة بواسطة الفجة فتسبله المرأة على الوجه أو ترسله إلى الخلف عندما لا يوجد رجل غريب، وكان من الموصليين أو الحرير الخشن والمبرقع، وفيه بعض الثقوب لتلمس المرأة طريقها.

- * انظر: حماني. المرجع السابق. ص ٣٢٧ و ٣٢٨ و ٣٢٩.
- ثم: سجل القسمة العسكرية رقم ٢١٥ / ص ٦٨ مخلفات كلسن بنت خليل عبد الله.
- ثم: المصدر نفسه. ص ١٢. مخلفات زمزم بنت الحاج محمد البغدادي.
- م: المصدر نفسه. ص ١٨. مخلفات مريم بنت باكير التركالي.
- ثم: المصدر نفسه. ص ١٥١. مخلفات الخجا حسنة بنت السيد البرصلي.
- ثم: المصدر نفسه. ص ١٩٦. مخلفات فاطمة بنت شاكر السادات.
- ثم: سجل القسمة العسكرية رقم ٢٩٩ / ص ٢٣٨. مخلفات نفيسة بنت السيد أحمد الجرة.

(١) يقول الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي «أما أحوال النساء من أهل الإسلام فإنهن في غاية السكينة والاحتشام يبرزن غير متبرجات ولو كن متزهات أو متفرجات على وجوههن المناديل وعلى رؤوسهن الإزار الطويل، أما نساء النصارى لا يعرفن فيها ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى. انظر: نفحة البشام في رحلة الشام. ص ١٤١.

(٢) ويذكر عبد الرحمن سامي بك «النساء متبعات الأزياء الإفرنجية في ملابسهن وترتيب شعورهن وفي بيوتهن يلبسن البنوار وأما في زيارتهن والأيام الرسمية كالأعياد والأفراح وما هو نحو ذلك فيلبسن بحسب المودات الإفرنجية التي تكون جارية. ولا يخرجن من بيوتهن إلا مؤننات مسبلات المناديل (المدورات) على أوجههن. إلا أن المسيحيات واليهوديات فهن لا يسبلن مناديلهن إلا عند خروجهن من أحيائهن». انظر: القول الحق في بيروت ودمشق. ص ٧٩ و ٨٠.

(٣) أما الأديب الفرنسي بيير لوتي الذي زار دمشق في سنة ١٨٩٠م فيقول: «النصرانيات مؤننات. بأزر بيض

زيارتهم إلى دمشق في أواخر القرن التاسع عشر ، فلاحظوا تغيراً في الأزياء بعض الشيء إلا أن الحجاب قد احتفظ بمكانته ، خاصة لدى النساء المسلمات ، سواء داخل البيت أو خارجه ، كما احتفظ بمكانته لدى معظم النساء المسيحيات واليهوديات خارج بيوتهن .

لباس القدمين عند المرأة في دمشق

ارتدت المرأة الدمشقية في هذه الفترة ، في رجليها ، أنواعاً من اللباس كالقبقاب الذي ذكرناه آنفاً ، وكانت تلبسه في البيت والشوارع والسهرات وغيرها . ثم المست والبابوج ، ونادراً ماتخلو تركة متوفاة من ذكر المست والبابوج ، مما يدل على أنه كان عاماً . ومست المرأة كمست الرجل إلا أن حواشيه كانت توشى بشرائط ملونة ، ومنه رأس زريق مدبب يرتفع إلى الأعلى وكان بمثابة الجوارب في وقتنا الحاضر .

ويذكر صاحب مجلة قطايف اللطائف المصرية في عددها الصادر عام ١٨٩٤م / ١٣٠٠هـ ، بأن الجوارب النسائية لم تكن مستعملة قبل ثمانين عاماً وعليه فإن استعمالها ولأول مرة يجب أن لا يتعدى عام ١٨١٤م / ١٢٢٩ — ١٢٣٠هـ أي في النصف الأول من القرن التاسع عشر^(١) . كما ورد ذكر لاستخدام القلشين الذي صنع في بعض قرى دمشق قبل هذا التاريخ بفترة طويلة من الزمن ، مما يدل على أن مشرقنا عرف هذا النوع من اللباس . ولكن على ما يبدو أن المست كان أكثر انتشاراً كلباس للرجلين بدلاً عن القلشين (الجوارب) في مدينة دمشق ، لدى النساء والرجال على حد سواء ، بدلالة ماتطالعنا به سجلات القسم المختلفة في دمشق .

ويذكر اليكس راسل أن نساء حلب ، في فترة دراستنا هذه ، كن يخرجن من بيوتهن لابسات في أرجلهن أحذية رقيقة صفراء تصل إلى منتصف الفخذين ، ويلبسن فوقه بابوجاً

وقد أسفرن عن وجوههن الجميلة وشعورهن المزدانة بالأزهار الطبيعية أما المسلمات يظهرن في الشوارع تحت مناديل الموصلين الفاتحة وفيها أمام العينين ثقبان يصران الدرب من خلألهما .
انظر : مجلة العمران الصادرة في دمشق عن وزارة البلديات . العدد ١ . سنة ١٩٦٧م .

(١) انظر : حمامي . حسن . المرجع السابق . ص ٣٣٣ . ثم سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٦/٣٦٤ — ١٢٥٨هـ . ص ١١ . كان من مخلفات أليس بنت غطاس نعمة ، زوج جرابات سلبند .

أصفر أو خفأً، أما في الجو الماطر فكن يلبسن، عوضاً عن البابوج، نوعاً من القباقيب الخشبية، يرتفع الواحد منها عن الأرض بمقدار ٨ — ١٠ بوصة، ولقد استخدم القباقيب للانتقال من جناح إلى آخر داخل البيت. وقد وصل ارتفاع بعض القباقيب إلى ١٨ بوصة، وكانت تزين بالأحجار الكريمة واللآلئ بطريقة ملفتة للنظر^(١).

وبشكل عام كانت هناك فروق في ثياب النساء تبعاً للفروق الاجتماعية بينهن، من حيث أنواع القماش المستخدم والفراء والحلي وكميته، وحسبنا هنا أن نسوق مثلاً على ذلك تركة ثلاث نساء من فئة واحدة في دمشق وهي فئة الأشراف. الأولى منهن الشريفة زينب بنت السيد عباس قدح بعلمها افتخار المشايخ الكبار جناب الشيخ خليل أفندي سعد الدين السعدي^(٢)، والثانية الشريفة ميمونة بنت جرنجي الفاخوري بعلمها الشيخ مصطفى السعدي^(٣)، والثالثة السيدة نفيسة بنت السيد أحمد الجرّة^(٤) فكانت تركة الأولى منهن تبلغ مئات الألوف من القروش بالإضافة إلى عدد كبير من الثياب الثمينة والحلي الذهبية والحجارة الكريمة، بينما الثانية كانت تركتها دون ذلك بكثير، في حين أن الثالثة كانت تركتها لا تتجاوز عدة قروش. ولم يكن في تركتها من الثياب إلا القليل والبخس.

زينة المرأة الدمشقية وحليها

شغفت المرأة في دمشق بالزينة والحلي والمصاغ من الذهب الخالص أو المطعم بالحجارة الكريمة المختلفة (الزمرد — العقيق — اللؤلؤ — الألماس) وغيرها. وتراجعت الحلي الفضية أمام الحلي الذهبية. وقلدت نساء دمشق الغنيات، نساء استانبول في ذلك، فقمّن بتزيين الرأس والعنق والأذنين والصدر والوسط واليدين والأصابع والكاحلين، وحتى باهم الرجل والأنف.

واختلف نوع المصاغ وكميته بين امرأة وأخرى بحسب فئتها الاجتماعية. وأخذت الحلي أشكالاً مختلفة، فكان منها الضفائر والأهلة والحلق والأساور والخلائل والعصائب والقلادات

1 - See: the natural history of aleppo VOL.1,P.113.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥/١٢٥٣هـ. ص ١٢٥.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/١٢٣٧هـ. ص ١٨٥.

(٤) المصدر السابق. ص ٢٣٨.

والسلاسل والحبال الذهبية أو الفضية والمناطف والحجابات والمكاحل والبندقيين والأشباح والخواتم والخزومات ، والكردانات والحبيات والسلتات والطيور الذهبية والأزهار وغيرها .

وكانت النساء يستخدمون في زينتهن النقود الفضية والذهبية الأوربية ، كالريال الفضي الألماني وذهب البندقية ، الذي كن يرغبن به لنقاء معدنه وخلوه من الشوائب . وكن يثقبن تلك النقود ويجمعنها في سلسلة ذهبية ، يجعلنها تتدلي من أعناقهن إلى صدورهن . وكلما أكثر المرأة من تلك القطع والسلاسل ازدادت زهواً بها ومباهاة ، وحتى المتلاحات كن يحملن هذا التمثل من النقود كزينة لهن ، خاصة الفضية منها . أما نساء الخاتمة فكن لا يرغبن إلا بالذهب البندقي أو النقود الإسبانية الذهبية الكبيرة ، ووصل بعضهن إلى حمل مئة قطعة أو ثلاثمائة قطعة منها دفعة واحدة . وكن يدلين قسماً منها من العنق وقسماً آخر يصنّفنه ويشددنه على الجبين عند حاشية عصابة الرأس^(١) .

ولقد حافظ بنات ريف دمشق على الأشكال الموروثة في الحلي ، وضل تأثيرهن بما جاء منها من استانبول أكثر مما حصل لبنات المدن^(٢) وأبطلت بعض الحلي لدى نساء دمشق لتحل محلها حلي أخرى (كالطواقي والطشاطي)^(٣) .

وكان للحلي هدف آخر غير الزينة فهي ذخيرة لأيام الحاجة ، خاصة وأن أوضاع الناس والاقتصاد والسياسة قد اضطربت أحوالها بفعل عوامل عدة داخلية وخارجية ، ولتدني قيمة النقد المتداول بشكل مستمر لم يهتم به كأداة ادخار ، مما جعل الناس يلتفتون إلى جعل ذخائرتهم من المعادن الثمينة دون غيرها وبخاصة بعد أن حاولت الدولة العثمانية إدخال المعادن الذهبية في سك النقود وسحب ما يمكن سحبه من تلك المعادن الثمينة من أيدي المواطنين ، لتدعم بذلك اقتصادها المنهار . ففي ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م جاء فرمان سلطاني إلى والي حلب فحواه « أن الناس تبيع الفضة الزائدة عندهم في ٢٥ كبة

(١) انظر : السيوفي ، حبيب سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثالث عشر . ص ٩٦ لبنان المطبعة المخلصية سنة ١٩٤٩م .

(٢) انظر : بعض ماورد من هذه الحلي في — التوراة — سفر أشعيا — الاصحاح الثالث الآية ١٨ والآية ٢٤ .

(٣) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . ج ٢ ، ص ١٣٥ . ترجمة عبد المعطي القلاسي — ويقول فيها المرادي إنه كان بالقرب من جامع بني أمية — سوق لدق ذهب الطواقي والطشاطي لعلها الطست الذي كانت تلبسه النساء في ذلك الزمان بدمشق وبطل هذا الزي في سنة سبع ومائة وألف .

والذهب في ٦ ، فالرجال لهم أغرلق كيف^(١) والدواية فقط. والخاتم ، والحريم الخاتم والحبية^(٢) ،
والزنار والحلق وماعدها يباع ومن لم يبيع عليه لعنة .. فحالا أصحاب رخوت^(٣) الخيل ضربوا
عوضهم جلد وروبووا^(٤) الفضة وأعطوها للمحصل^(٥) . فكان من الطبيعي والحالة هذه أن
تحتفظ النساء بالمعادن الثمينة على شكل حلي أو نقد قديم لاحتفاظه بقيمته ، دون التأثير بما
يسمى بالتضخم النقدي ، الناتج عن إدخال المعادن الخسيسة في سك النقد .

ومن جهة أخرى فقد استخدمت النساء في حلين ، الرباع القندقلية ثم الجهادية
القديمة ، والغازي العادلي التاريخي وغيرها^(٦) ، لنقاء معادنها . ولقد تعرضت النساء
الدمشقيات لمضايقات بعض الولاة فيما يتعلق بزينةن بالحلي . كما حصل في عهد والي دمشق
الكنج يوسف باشا حيث أصدر أوامره بإبطال المصاغ لكامل النساء إسلام ونصاري^(٧) .

وبصعب علينا إحصاء جميع أنواع الحلي التي استخدمت من قبل نساء دمشق آنئذ .
وباستعراض تركات بعض النساء المتوفيات في هذه الفترة يمكننا تكوين فكرة مقبولة عنها .
وحسبنا أن نرصد ماورد في سجلات محاكم القسمة في دمشق ، والتي شملت تركات مختلفة
لمتوفيات في هذه الفترة ، كتركة الحاجة زينة بنت المنلا يوسف الياسلي ، التي ورد فيها مايلي :
« سنويرة ذهب وكردان ذهب ، وجوز أساور ذهب وحلق وشكل ذهب وترس ذهب وترس
لؤلؤ وسوالت ذهب وأساور ذهب »^(٨) ، وكذلك تركة إحدى النساء المتوفيات في سنة
١٢٥٤هـ / ١٨٣٨ — ١٨٣٩م وكانت مجوهراتها مكونة من الآتي : « ربعية فندقلي جوز
سباحات ذهب وجوز حلق ذهب محلاة ببنته أنصاف غازي وناطور ألماس وتسعون جهادي

-
- (١) أغرلق كيف « مشرب التبغ » انظر : المرتاد في تاريخ حلب وبغداد . ص ١١٥ .
 - (٢) نوع من العقود التي كانت تلبسها النساء آنئذ وتصل إلى تحت الصدر . انظر : المرتاد . ص ١١٦ .
 - (٣) رخوت : مفردا رخت — فارسية وتعني حزام أو سرج الخيل وكان يصنع من الذهب أو الفضة بحسب
غنى الفرد .
 - (٤) روبص . ضغط وجمع « كلمة آرامية الأصل » .
 - (٥) انظر : الحلبي ، يوسف بن ديمثري . المرتاد في تاريخ حلب وبغداد . ص ١١٥ و ١١٦ .
 - (٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ١٢٠١ — ١٢٠٣هـ ص ٢٧٥ .
 - (٧) انظر — مجهول تاريخ حوادث الشام ولبنان سنة ١١٩٢ — ١٢٥٧هـ / ١٧٨٢ — ١٨٤١م . ص ٣٧
دمشق ١٩٨١م .
 - (٨) انظر : سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٣٢٧ / ١٢٤٧ — ١٢٤٩هـ . ص ١٤٠ .

قديم وأربعة رباعي عادلية تاريخي وربعية فندقلي وكردان ألماس وزوج سلتات ذهب وحبلان لؤلؤ وشقفة ألماس»^(١). وكذلك تركة زليخة بنت الشيخ محمد الكردي المتوفاة سنة ١٢٠٢هـ. كان منها «زنار ذهب صغير وزنار فضة ولوح ذهب وأربعة خواتم وجوز حلق وسنوية وثمان ضفائر ذهب وعشرة نصفيات ذهب اسلامبولي وخرص ذهب بلولو وزنار صدف وخلخال فضة بلولو وطوقان فضة صغار»^(٢). ولم يكن استخدام الحلي والمصاغ وقفاً على النساء المسلمات دون الذميات، فمثلاً. كان من تركة مريم بنت جرجس المتوفاة سنة ١١٨٤هـ / ١٧٧٠ — ١٧٧١م مايلى: «طرة لولو زنار فضة خلخال وسوار ذهب، سوار شالحي، دبوس لولو، ثم حشيش ذهب ومكحلة مفضضة، وحلق لولو ومحبس ذهب ومنطف لولو بذهب وخاتم ذهب»^(٣).

وكانت الأساور على أنواع فمنها الأساور العريضة والمبرومة، والبقاعي التي توضع في المعصمين وكذلك الخلاخل التي كانت تلبس في الكاحلين، والأطواق في العنق والشكالات التي كانت توضع على الرأس والصدر أو على الثياب الخارجية في أماكن مختلفة منها. وحبال اللؤلؤ ورخوت الفضة التي تطوق الخصر^(٤).

واستخدمت النساء الحناء لتلوين اليدين والقدمين، بأشكال ورسوم مختلفة. واستخدمن الكحل الأسود لرموش العينين. ولكن لم يستخدمن المساحيق والألوان للوجه، ولم يلجأن إلى تخطيط الحاجبين إلا نادراً، وكان المجتمع الدمشقي يرفض ذلك. فإذا ما حاولت إحداهن استخدام ذلك عُدَّت مَخِيَّت سَمْعَة سيئة^(٥). واستخدمت بعض النساء الوشم لأغراض طبية وتزيينية في مواضع مختلفة من الجسم كالوجه واليدين والكاحلين، وكانت هذه عادة البدو والمناطق المجاورة لهم كحوران. واستخدمت المرأة البدوية في زينتها عقود الزجاج أو قطع الذهب أو القطع المعدنية أو الصدف^(٦).

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠/١٢٥٠ — ١٢٥٤هـ. ص ١٤٠ و ص ١٤٧.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية رقم ٢٢١/١٢٠١ — ١٢٠٣هـ. ص ٢٦٥.

(٣) انظر: سجل القسمة البلدية رقم ١٨٢/١١٨٣ — ١١٩٠هـ. ص ٣٥.

(٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/١١١٢ — ١١١٥هـ. ص ٨٤ القضية رقم ١٧٢.

5 - See: Russell. op.cit. VOL.PP.109 112.

6 - Volney C.F. Voyags en egypte et en Syrie. P.282.

أبناء الريف دمشق^(١)

حافظ الريفيون على أزيائهم الموروثة أكثر مما فعل أبناء مدينة دمشق . وربما يعود ذلك إلى أن أبناء الريف النسبية عن المؤثرات الوافدة . ومن جهة أخرى لعبت عوامل عديدة في رسم تلك الأزياء ، وتأني في مقدمتها الظروف الطبيعية والمناخية والظروف التاريخية المتعددة . تأميناك عن النظرة إلى الحياة ، والحس الجمالي ، والمعتقدات الدينية . فلا غرابة إذا ما عصيت بعض هذه الأزياء على الزمن وصمدت في وجه طغيان المؤثرات الغربية فاندفعت قدماً حتى القرن العشرين ولنراها الآن في بعض قرى الشام .

وتعددت تلك الأزياء بحيث يصعب حصرها . كما قصرت المصادر التي عالجتها عن إشباع فهمنا في معرفتها بشكل كامل . ولهذا سنقتصر على بحث أهمها لدى الجنسين .

أ - زي الرجال

تألف لباس الجزع للرجال من القميص ثم الصدرية والميتان والقطشية . ولا تختلف هذه الثياب في خطوطها العامة عما كان يلبسها معاصروهم من أبناء مدينة دمشق^(٢) . وهناك لباس الوسط إلى الكاحلين وهي مانسميها بالسراويل ، وصنع لباس الرجال والنساء في المدينة والريف من الجوخ أو القطن . أما الجوخ فكان بلون غامق أو أسود أو أزرق أو بني أو ييج أو أبيض^(٣) .

ومن الثياب الشال أو الزنار الذي كان يلبسه أهل القلمون . والتسمية فارسية الأصل . وهو من قماش الموصلين أو الصوف . وكان يطن ويطوى بشكل مائل ويلف حول

(١) نقصد بريف دمشق سكان الريف « نساء ورجالا » الذين استقروا في المقاطعات التابعة لدمشق سواء في الغوطة أو وادي بردى أو جبال القلمون وحوارن وجبل العرب . في فترة دراستنا .

(٢) انظر : ماسبق في زي أبناء مدينة دمشق . ثم انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ١٧٥ . ثم سجلها رقم ٢١٥ / ص ١٨٠ .

(٣) انظر : حمامي ، حسن . المصدر السابق . ص ١٣٨ الى ص ١٤٣ . حيث يقول أيضاً : أن الجروال تسمية فارسية الأصل وقد انتشر هذا النوع في بلاد فارس والعراق وسورية وعلى طول سواحل المتوسط حتى اسبانيا حيث كان يسمى فيها (GURAGUELLA) . وكان قيد الاستعمال في العهود الاسلامية الأولى .

الخصر دوائر متعددة بحيث تبدو ثنياته من الأمام متدرجة ومنسقة فوق بعضها بعدد فردي دائماً، وفي طرفيه شريطان يعقدان من الخلف عند الرجال، ومن الأمام عند النساء، ويلف حول الخصر بصورة أعرض كثيراً أو قليلاً عما كان يفعله جنود الإنكشارية... وكانت له قيمته الفنية والجمالية مما جعله في مقدمة الثياب وجاهة، ولُبس في المناسبات والأفراح، وارتداه أغنياء الريف. وكانت له رسوم نباتية وهندسية وحيوانية. أما لونه فكان أحمر وأخضر أو بنياً أو أسود^(١). وكانت بعض زناير أهل الجبال تصنع من الصوف الناعم الرقيق (الكشمير). وهناك الكمر الذي صنع من القطن وكانت بشراشيب واستخدمته النساء لحزم ثيابهن على أوساطهن^(٢).

أما غطاء الرأس فكان فيه بعض الاختلاف بين مقاطعة وأخرى. ففي جبل حوران كان رجل الدين يرتدي توباً أبيض حول شاش أبيض. في حين كان الفرد من العامة يرتدي الكفية^(٣) أو الكوفية، وهي عبارة عن قطعة قماش بشكل مربع تطوى قبل وضعها على الرأس لتصبح بشكل مثلث، وتستخدم فوق العرقية أو الطاقية، أو وحيدة وتثبت بالعقال. والكوفية تميزت أحياناً بنونها وأهدابها وتطريزها من قرية إلى أخرى، ففي جبعلين وحلبون وبعض القرى المجاورة لوادي بردى كعين الفيحة كانت لها أهداب (شراشيب)، وكانت تطرز بالخيوط الحريرية الذهبية وتسمى حينئذ الأغاني. وكان فلاحو الغوطة يضعونها مباشرة على الرأس لتقيهم من الحر والبرد.

أما العقال الذي كان يثبتها على الرأس فهو عبارة عن طارة كبيرة توضع على الرأس بدائرتين متقاطعتين، وله من الخلف دلالة تنتهي من الأسفل بطرتين صغيرتين على شكل هلال فتحتة إلى الأسفل، ويرتبط وجودهما إما بعقائد سحرية في القدم أو بتقاليد اجتماعية أو طبقية. وكان أبناء الجبال يرتدونه فوق الحطة^(٤). أما أبناء حوران فقد استخدموا عقلاً فوق

(١) انظر: حمامي، حسن. المصدر السابق. ص ١٥١ و ص ١٥٢.

(٢) حمامي: المصدر السابق. ص ١٦٢.

3 See: Burckhardt, John, «travels in Syria and the Holyland». PP.294.303.306.

(٤) حمامي: المرجع السابق. ص ١٥٣.

الكوفية مصنوعاً من وبر الجمال^(١). ولقد استخدم الطربوش في غوطة دمشق بعد عهد التنظيمات كلباس للرأس^(٢).

أما العباءة: فكانت من ثياب الريف، ارتداها الفلاح فوق ثيابه جميعها. وكان منها أنواع، كالعباءة الجبلية لدى سكان المرتفعات، وكانت تسمى (الزنازية أو الحمراء أو الدفية أو المشلح أو البشت)، وهي تختلف عن العباءة التقليدية الواسعة المعروفة عند أعراب البادية، كما تختلف أيضاً عما كانت لدى أبناء جبل حوران، وتعود في جذورها إلى أصول آشورية وفارسية قديمة. أما قماشها فجامد وخشن، وكان ينسج من شعر الماعز المبروم أو من الصوف المحلي على أنوال صغيرة يدوية من الخشب، وكان قوامها قصيراً ولا تكاد تغطي ركبتي الرجل، وأما أكمامها فقصيرة أيضاً لا تتعدى المرفقين. وهي ضيقة التفصيل بحيث لا تتلامس أطرافها من الأمام إلا قليلاً وخالية من العروات أو الأزرار، ولهذا كانت تحرم من الوسط بشرطين صغيرين من الأمام أو بزناز رفيع عند العمل لئلا تعيق صاحبها عن العمل. وكانت تترك مفتوحة سائبة في الحالات العادية والأعياد والاحتفالات. والأصل في هذه العباءة أن تكون مخططة بالأبيض والأسود أو البني. بأقلام طويلة متوالية. وهذا النوع قديم جداً خصص للعمل لدى المزارعين والرعاة وسمي لديهم بـ «العباية الدفية»، في حين كانت عباءة العيد والاحتفالات ساذجة اللون حمراء أو زرقاء مطرزة بالإبرة بصورة جميلة جداً بخيوط من القصب أو بالألوان المختلفة وبأشكال هندسية رائعة ربما رمزت إلى معانٍ تفاؤلية قديمة وكانت تنحصر تلك الزخارف على الكتفين والصدر وأجملها على الظهر^(٣).

وكانت عباءة جبل حوران تختلف عما ذكرناه، كما تختلف عن عباءة البدو، وصنعت من الجوخ الأسود طويلة متهدلة تصل إلى القدمين، وذات أكمام طويلة وضيقة. وهي من النوع المتصالب الذي يردف فيه الطرف الواحد على الآخر من الأمام. ولها أشرطة أمامية من نفس القماش، تشبه السقايف في فروة البدو، وتستخدم لشيئها على الكتفين^(٤).

١ - See: Burekhardt, John and See: Russell, A. op.cit.V. op.cit.P.294. and See: Russell. A op.cit.VOL.I.P.111.

(٢) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٦/٣٦٤ - ١٢٥٧ هـ، ص ٢٥: تركة شاكر محمد رجب من أهالي دوما المتوفى سنة ١٢٥٧ هـ.

(٣) انظر: حمامي. المرجع السابق. ص ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٧.

(٤) انظر: حمامي: المرجع السابق. ص ١٣٨.

ويلاحظ في هذه الفترة أن بعض الرعاة في الجبال المحيطة بدمشق كانوا من الأكراد وكان لهم زي خاص أقرب لزي البدو من الحضر . فكان الراعي منهم يرتدي على رأسه طاقية مخروطية من اللباد (لبادة) وقميصاً على جزعه بدون ياقة ، ويشد على وسطه شالاً ، يثبت فيه سيفاً معقوفاً ، ويرتدي (شخشيراً) يمتد من وسطه إلى الكاحلين ، ليزم عندهما ، وكان يرتدي فوق ثيابه جبة خالية من الأكمام والأزرار من النوع المتصالب ، تصل بطولها إلى الركبتين ، وينتعل في قدميه خفا وهو الزربول ويضع في يديه رمحاً تحسباً للطوارئ^(١) .

وكان أبناء الريف يلفون أرجلهم بقطع من القماش الطويل الصوفي ويلبسون في أقدامهم حذاءً عالي العنق ، مما يثقل السير ، إلا أنه يوفر الدفء شتاء . وكان الجنود العثمانيون يستخدمون النوع الأول سواء من القماش أو الجلد وأطلق عليه اسم «الطماق» .

ولقد تعددت أنواع الأحذية الجلدية التي استخدمها الريفيون وكانت ملونة أو ساذجة دون تلوين ، وأهم تلك الأحذية : الخف والنعل والشاروخ والمداس والمركوب والبابوج والقندرة والجزمة واليمنية والسرموحة (الزرموجة) والمست والزربول ، وتلفظ (زربون) أحياناً ، وكانت بعض تلك الأسماء لمسمى واحد من تلك الأحذية ، اختلفت باختلاف المناطق والقرى .

وصنعت تلك الأحذية في أماكن مختلفة ، ووجدت في مدينة دمشق أسواق خاصة بها كالزرايلية والجزماتية . وما صنع منها في ميدان الحصى كان من النوع الرديء ، ولون جلده أبرش وإلى الصفار أقرب . وفضله فلاحو حوران نساء ورجالاً^(٢) .

ولعل أحسن ما صنع من الأحذية هو الكوندورا أو ماسمي بالفارسية (السرموزة) . وكانت تسمى قديماً المركوب ، وكان الرعاة يلبسونه في أعالي الجبال . ثم الزربون (الزربول) وهو من نوع القندرة حادة الرأس (شكلها كالجندول) تكسو مشط القدم مرتفعة مع نعل كثيف لتحمل وعورة الأرض وقسوتها^(٣) . أما الصرماية فهي حمراء اللون بدائر دون كعب ، ومنها صنف سمي (بالحلبى) كان يلبسها أهل المدن في حين كان الريفيون يرتدون نوعاً آخر

1 - See: Porter. J.L. «five years in Damascus» VOL.1.P.337.

(٢) انظر : القاسمي . المصدر السابق . ج ١ ، ص ٨٢ .

(٣) حمامي : المرجع السابق . ص ١٦٧ ثم القاسمي : المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

يسمى (نصف كشفة) . واستخدم الريفيون أيضاً القباقيب على نطاق ضيق ، ضمن البيوت أو في أزقة القرى وسار بعضهم حفاة كما في قرى حوران^(١) . وكانت ثياب أهل حوران (مسيحيين ومسلمين) متشابهة ، وقرية من ثياب البدو ، وتتكون من قنبار ورداء مصنوع من قماش القطن الأبيض الخشن ، ويعتمرون بالكوفية ويأتي فوقها العقال المصنوع من وبر الجمال ، ليثبتها على الرأس . ويرتدون فوق ثيابهم العباءة التي يلقونها فوق الكتفين . أما صدورهم فكانت عارية ، ويطلقون لحاهم ويستخدمون الكحل لتزيين رموش العينين (رجالاً ونساء)^(٢) .

وسجلات محاكم القسمة في دمشق مليئة بتركات عدد كبير من الفلاحين . وأكثر ما يسترعي انتباهنا في تركاتهم قلة ما خلفوه من ثياب ، إذا ما قيس بتركاتهم من الدور والبساتين والأراضي والدراهم . مما يدل على عدم اكتراث الفلاحين بهندامهم وثيابهم . ونسوق مثلاً على ذلك ما خلفه أحد فلاحي قرية شبعة مصطفى بن عبد القادر المتوفى سنة ١١٩٨هـ / ١٧٨٣ - ١٧٨٤م ، وكانت تركته مكونة من « ٢٨٥٠٠ قرش في حين لم تتجاوز تركته من الثياب سوى العنتري ديما وقميص رقيق وشالة »^(٣) . ثم أحمد بشة بن عمر التلي من أهالي قرية زبدین المتوفى سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٤ - ١٧٨٥م كانت تركته تقدر بعشرات الألوف من القروش أما ثيابه فكانت مكونة من « جروال جوخ عنتري ولباس أزرق وخنجر بفضة وسكين وخاتم فضة »^(٤) .

وكان وضع شيوخ القرى الأغنياء يختلف عن الفلاحين ، ولقد شكلوا صلة الوصل بين الفلاحين والسلطات العثمانية المحلية وكان عليهم الظهور بما يليق بمقامهم ، فاقتنوا الثياب المتعددة والتمينة إذا ما قيست بثياب الفلاحين . ففي مخلفات شيخ قرية الكسوة المتوفى سنة ١١٩٨هـ / ١٧٨٣ - ١٧٨٤م نرى الآتي : « بنش فروة ناقة وجبة فروة ناقة وبنش جوخ

١ - See: Burekhardt. J. op.cit. P.306.

٢ - Ibid. P.294.

(٣) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص ١٨٠ .

(٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ١١٩٧ - ١٢٠٠هـ / ص ١٨٠ - القضية في محرم سنة ١١٩٩هـ .

وجروال جوخ وعنتري آلاجة وقميص وزنار وفاس وسيف وطبنجة» بالإضافة إلى عدد من رؤوس الخيل والبقر والحمير والأحواش والأراضي^(١).

أزياء نساء الريف الدمشقي

اتفق مع زي الرجال في بعض جوانبه، واختلف عنه من حيث شكل لباس الرأس والزرکشة والحلي. واختلف زي النساء فيما بينهن (الغنية والفقيرة، العازبة والمتزوجة) كما اختلف بين نساء المقاطعة الواحدة والمقاطعات الأخرى التابعة لمدينة دمشق، وما بين قرية وأخرى. إلا أن زيهن بشكل عام كان يشمل الآتي:

١ — البدلة: كانت عامة من الجوخ أو الخمل الأسود، وكانت لدى نساء جبال القلمون وجبل حوران، وكانت تتألف من قطعتين منفصلتين: عليا ضيقة تبعث على الدفء، وسفلى (التنورة) عريضة وواسعة لتساعد المرأة علي المسير. وقامت النسوة آنئذ بتزيين التنورة من الأسفل برسوم دائرية متوازية أو بدروب من المطرزات المتموجة والمتكسرة ويخيوط من ألوان تتماشى مع لون الثوب، وجعلن على الصدر عدة ثنيات مستقيمة ومتوازية أو دروباً من المطرزات ذات مواضيع مختلفة كالورود والزهور وأهمها شجرة الحياة.

وقامت المرأة بوضع زنار من الشال الصوفي^(٢)، شبيه بشال الرجل تماماً، كما أشرنا إليه سابقاً. ويأتي هذا الشال فوق البدلة، وكان يسمى محزماً، ولم تعن المرأة بهذا الشال عناية الرجل فيه، وكانت تعقده من الأمام أو الجانب بدلاً من الخلف. ولم يكن لهذا الثوب عموماً فتحة عند الصدر كما في قرى القلمون. بينما وجدت هذه الفتحة في وادي بردى مستديرة الشكل واسعة، بحيث تبرز ثديي المرأة كثيراً إلى الأمام. وتغطي المرأة ثوبها الرئيس من الأمام بواقية نصفية كانت لها تسميات مختلفة بحسب المناطق فمنها: (المملوك أو مريول أو فوقية أو حضنية أو قدامية أو دراية) كما في جبل حوران وحماه وحمص^(٣).

(١) المصدر نفسه. ص ١٠٦ — القضية في ختام شوال سنة ١١٩٨ هـ.

(٢) انظر: سجل القسم العسكرية رقم ٢١٥/ص ٩. تركة نفيسة بنت علي ييضمون من قرية كفر سوسية المتوفاة سنة ١١٩٨ هـ. ثم ص ١٨٨. تركمة رحمة بنت الحاج محمد من قرية دوما المتوفاة سنة ١١٩٩ هـ.

(٣) انظر: حمامي — المرجعي السابق ص ١٧٣ ثم سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/سنة ١٢٣٧ هـ/ص ٢١٥. تركة المرحومة رابعة بنت السيد أحمد الجاني من أهالي قرية حرستا.

٢ — الدراعة : وكانت المرأة ترتديها عند الخروج بعيداً عن دارها ، وذلك فوق البدلة . والدراعة كانت عبارة عن معطف مفتوح على طوله من الأمام وله فتحتان جانبيتان في قسمه السفلي يتراوح طولهما بين ٣٠ — ٧٠ سم ، وتصلان من الخصر إلى الأرض . وتطرز الدراعة بزخارف وموضوعات نباتية وهندسية من الأمام وعلى الكتفين والكمين والظهر بصورة عامة . وكان هذا الثوب الإضافي قصيراً نسبياً ليسمح للبدلة الرئيسة بالظهور من الأسفل وضيقاً لا يتلامس طرفاه الأماميان إلا بواسطة أشرطة أو زنار أو أزرار . وقماش الدراعة كان من الجوخ كما في حوران أو من الخام البلدي المصبوغ بالأزرق المطرز بزخارف هندسية ملونة كما في قرية التواني (من القلمون) ، أو من الخمل المطرز بالقصب كما في قرى القلمون التحتاني (القطيفة والرحيبة والمعضمية) وسمي بأسماء مختلفة ، وفي القلمون ومنطقة دمشق سمي « بالمدرية »^(١) .

٣ — القطشية : كانت من ثياب المرأة في ريف دمشق عامة ، بسهولة وجباله ، ارتدتها فوق ثوبها الرئيس الطويل . وهي من لباس الجزع إلا أنها نصفية مفتوحة من الأمام عريضة وواسعة وذات أكمام طويلة وليس بها أزرار ، لذا كانت تبقى مفتوحة على الدوام ، وكانت موضوعاً لزخارف كثيرة ومطرزات ثمينة على غاية من الروعة . كانت في مناطق حوران أيضاً وكانت من ثياب الرجال أيضاً ، يرتديها الجنسان (الرجل والمرأة) باعتزاز ، ولا سيما (العرسان والشباب) ، ولبسها المعذب في مضافة أبيه بكل تيه فوق سراويله وصدرته وميثانه وشالته ، عندما كان يقدم القهوة المرة والنراجيل للحاضرين لأنه كان يرى فيها أجمل لباس لأجمل مناسبة . وكانت العروس في هذه المناطق تخصص هذه القطعة الثمينة لتزين بها فوق ثيابها سيما يوم زفافها .

وهناك قطشية العمل التي كانت بسيطة دون زخارف ، متوسطة الطول ، أو تقتصر الزخارف فيها على دروب من الخلف بأشكال هندسية . وكانت ذات لون أسود عموماً .

٤ — القبعة : أو القباء أو الكب أو الشرش من ثياب المرأة في حوران والجولان والمرج شرقي غوطة دمشق وفي البادية .. وهي قديمة في تاريخ المنطقة وتتألف من قطعة قماش مستطيلة

(١) انظر : حمامي . المرجع السابق . ص ١٧٩ و ص ١٨٠ .

الشكل تشني عند تفصيلها نصفين متساويين ، بحيث يغطي كل جزء النصف الآخر تماماً . ثم تخاط الأطراف الجانبية وتترك فتحتان جانبيتان لتخاط فيهما الأكمام . ويفتح ضلع المستطيل من الأعلى على شكل دائرة ضيقة أو على شكل العدد (٧) سبعة من الأمام ، وذلك حسب مناخ وتقاليده كل منطقة من المناطق التابعة لدمشق ، ليدخل منها الرأس والعنق ، وتطرز فتحة الصيدر هذه بشريط من الزخارف الهندسية تارة والورود والزهور الملونة تارة أخرى وكانت تستخدم هذه المطرزات على الظهر والكتفين والكمين والحواف السفلية ، ويطرز غالباً بمثلث قاعدته إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل أو بالعكس ، وقد يكون ضلعاً هذا المثلث مسننين على شكل هرم مدرج . وكان هذا النوع عاماً تقريباً في بلاد الشام . ولونه أسود ومن نسيج القطن أو الخام البلدي المصبوغ محلياً أو من الحرير مع المبالغة في المطرزات الهندسية الملونة كلما اتجهنا نحو الشمال السوري . أما الألوان المستخدمة في خيوط التطريز في القبعة فهي : الأصفر والبرتقالي والأخضر والبنفسجي وغيرها .

وكان القباء في حوران والجولان من الحرير والأطلس اللامع أو الجوخ أو الخمل بلون أسود ، مع اختفاء المطرزات . أو أزرق اللون قاتم مع أساور بيضاء من نفس القماش في أعلى الكمين على الطريقة المصرية القديمة : وتقتصر المطرزات الهندسية على الياقة والحواف السفلى للثوب وعلى طرفي الأكمام ، كما كان في بصرى الشام ، وسمي هناك بالشرش أو الثوب . وفي القلمون التحتاني كان هذا الثوب من الخام الأبيض المقصور أو الأزرق مع أردان طويلة مثلثة الشكل ، ومطرزاته على غاية من الدقة والاتقان وبأشكال هندسية وألوان غامقة تشغل مقدمة الثوب والأردان معاً . وكانت تطلق أثناء تفتيلة العروس وترسل على الكتفين وتعقد على الظهر . وكانت العروس تطرز هذا الثوب قبل الزفاف بإبرتها الرشيقة مدة طويلة ، وتعاونها فيه صديقاتها أو قريباتها ممن اشتهرن بالدقة والمهارة . وتنسجم مواضيع المطرزات مع موضوع الزواج عامة إذ تتضمن ، إما معاني تفاؤلية أو وفائية خدمة للعريس في حياتهما الجديدة . وكانت المرأة ترتدي فوقها إما قطشية عادية أو مزركشة وذلك في الجبال العالية أو الدراعة كما في حوران . وتسمى البيرومية (لفظة تركية تعني العيدية) ^(١) ، لكونها تلبس في المناسبات المفرحة كالأعياد والأعراس .

(١) انظر : حمامي . المرجع السابق . ص ١٩٠ و ص ١٩٩ .

وهناك ثياب داخلية كانت ترتديها نساء ريف دمشق (في السهول والجبال) وهي كثيرة وثقيلة منها ثوب عريض أو ثوبان متشابهان يأتيان مباشرة بعد الأثواب الخارجية يليهما قميص نصفي عريض وطويل يدخل ضمن (سروال) طويل ضيق أو عريض يصل إلى أسفل القدمين ويعقد بتكة .

٥ - الشنتيان أو الجنتيان : كانت ترتديه المرأة كسوة لعورتها من الوسط إلى الكاحلين . ويسمى سروالة أو شنتياناً أو شلواراً أو جنتياناً أو شخشيراً أو لباساً^(١) ، وكانت تثبته بتكة تربطه من الخلف على وسطها ، وكان يوفر الدفء لها ويغطي ساقيها . ويكون مطرزاً في الأسفل في بعض الأحيان بموضوعات هندسية تتناسب مع لونه عامة كما كان في قرى القلمون .

٦ - الزنار النسائي : استعملته النساء لتحقيق الدفء والزينة ولحزم الثوب الرئيس من الداخل أو الدراعة من الخارج . وكان منه أنواع لهذا اتخذ تسميات مختلفة هي :

أ - الشالة العجمية : استخدمتها نساء القلمون المسنات كما في قرى صيدنايا ورنكوس . واستخدمت بعض النساء في فترة متأخرة من دراستنا ، الشالة الانكليزية ، كنساء قرى الغوطة^(٢) .

ب - الشالة الملونة : كانت من الحرير المقلم ، بألوان كثيرة طويلة تتراوح بين الفضي والبنفسجي والأخضر البرتقالي ، استعملتها العروس والشابات آنذاك .

ج - الكمر : كان زناراً نسائياً من الصوف بطول ٤ - ٥ أمتار ويعرض ١٠ - ١٢ سم ، وملوناً بأقلام أفقية حمراء وسوداء وخضراء ، وتنتهي

(١) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/ص ٩ ، تركة نفيسة بنت علي بيضون من قرية كفر سوسية المتوفاة ١١٩٨هـ . ثم ص ١٨٨ ، تركة رحمة بنت الحاج محمد من أهالي قرية دوما المتوفاة سنة ١١٩٩هـ .

ثم : سجل القسم العسكرية رقم ٢٦٥/ص ١٢٤ ، تركة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفر سوسية المتوفاة سنة ١٢٥٣هـ .

(٢) انظر : سجل القسم العسكرية . رقم ٣٦٥/١٢٥٣هـ . ص ١٢٤ ، تركة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفر سوسية .

أطرافه بشراشيب من الصوف بنفس الألوان السابقة، استخدمته نساء سهول دمشق (حران العواميد).

د — الحزام الفضي أو الذهبي : اختصت به العروس والمرأة الشابة عموماً، وكان عبارة عن سلك فضي رقيق يتراوح عرضه ما بين ٥ — ٧ سم وله قفل جميل من الأمام، يتخذ غالباً موضوعاً لزخارف متنوعة مصاغة بأسلاك رفيعة من الفضة الملتفة والمرصعة بالأحجار الكريمة المختلفة كالفيروز والياقوت^(١).

وكان الزنار القماشي يعقد من أحد الجانبين أو من الأمام، فتهتز شراشيبه أثناء المسير بطريقة جذابة وجميلة^(٢).

أما لباس رأس المرأة الريفية آنذ فكان متنوعاً وبأشكال مختلفة، نتيجة لتنوع الموروث التاريخي، فكان منه ما يعود في أصوله إلى الكنعانيين والآشوريين والحثيين، والمصريين ومابين النهرين، وغيرهم. ولقد اختلف من منطقة إلى أخرى من حيث تزيينه واستخدام المجوهرات والمصاغ، وكانت عمائم النساء مخروطة أو أسطوانية، والنوع الأخير كان محبباً للنساء، لأنه يزيد من طول المرأة ورشاقتها، وكانت تلبسها بنوع من الزهو. وتلف فوقها طرحة شفافة، كنساء قرى القلمون وحوران. ولقد تشكل غطاء الرأس بشكل عام من الأجزاء الآتية :

١ — **الطاقية** : كانت مستديرة الشكل بيضاء أو حمراء سميت (عرقية)، وكانت توضع مباشرة على الرأس، ويلف في طرفها السفلي عند الجبهة رتل أو صف من الغوازي العثمانية الذهبية^(٣)، مرصوفة إلى جانب بعضها، وتسمى (شك أو صفية)، وكانت الغاية من الطاقية تثبيت العمامة وامتصاص العرق، واستخدمت نساء جبل حوران وجبل لبنان، وبعض القرى المحيطة بدمشق، التريان أو الطرطور بديلاً عن الطاقية.

(١) انظر : سجل القسم العسكرية رقم ٢١٥/ص ١٨٨، تركة الحاجة رحمة بنت الحاج محمد من أهالي قرية دوما. القضية ١٩/ربيع الثاني سنة ١١٩٩هـ. ثم سجلها رقم ٢١٥/ص ٦٨، تركة كلسن بنت خليل عبدالله المتوفاة ١١٩٧هـ كان لديها زنار من الفضة وزنار من الذهب.

(٢) انظر : حمامي. حسن. المرجع السابق، ص ١٩٠ و ص ١٩٩.

(٣) استخدمت المرأة أنواعاً عديدة من النقود الذهبية (عثمانية وغير عثمانية) في هذه الصفة وغيرها من أدوات الزينة. وكان من هذه النقود : غازي قديم، وفندقلي، وعادلي، ومجري، وجهادي تاريخي اسلامبولي وفرنجي أبو شوشة وفرنجي أبو عامود وغيره. انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥/ص ٣٠.

٢ - **العصبة** : كانت عبارة عن قطعة مربعة الشكل من القطن أو الحرير ، ذات لون أسود أو بني أو خمري ، مطعمة بالخيط الذهبية أو الفضية وفق خطوط مستقيمة ، أو بزخارف نباتية ، ولها شرائيب على جميع أطرافها ، تطوى باتجاه أحد القطرين بصورة مسننة ، وقد تطبق بانتظام حول الرأس بدورين أو أكثر بحيث تظهر صفية الغوازي متدلّية على الجبين وخيوط القصب واضحة من الأمام ، ثم تعقد أطرافها من الخلف كأكثر مناطق دمشق ، أو من الأمام لدى نساء قرية زاكية ، أو على أحد الجانبين لدى نساء قرية يبرود ونجعة^(١) .

ولقد سعت أكثر النساء لجعل العصبة عريضة من الأمام لتستوعب مجموعات المصاغ الفضي والذهبي ، الذي يعكس في بريقه الأضواء والأنوار على وجوههن ، فيزيدهن سحراً وجاذبية ، وكانت العصبة تبطن من الداخل بحيث يبلغ وزنها الكيلو غرامين ، أو توضع ضمن ثيابها بعض الحشيات من الخرق ليبدو شكل الرأس أكثر كبراً وفخامة ، مما يزيدها جمالاً ومهابة .. وفي جبل حوران تحولت العصبة إلى طربوش أحمر طري تثبت على أطرافه السفلى والعليا صفيات الغوازي ، وينتهي في أعلاه بقرص ذهبي أو فضي مصاغ بمواضيع زخرفية بأسلاك فضية ملتفة حول نفسها بدوائر متناظرة . وهذا ما يسمى عند الصياغ بطريقة (كسر جفت) أو (Felagrane) . ويقول الرحالة (لين - LANE) الذي زار مصر سنة ١٨٣٦م واصفاً ذلك بقوله : « إن النساء المصريات يلبسن على رؤوسهن طربوشاً يلف حوله قماش ثمين أو شال من الكشمير ، ويثبت عليه أحياناً قرص من الفضة أو الذهب » وربما يدل على أن بنات جبل حوران قد توارثنه من عهد الفاطميين . وقد تطورت هذه العصبة الضخمة في قرى وادي بردى ووادي تل منين وبعض قرى القلمون ، كالنبك ، إلى شاشية رقيقة شفافة يعصب بها الجبين من الأمام وعليها رسوم نباتية مختلفة^(٢) .

٣ - **الطرحة** : كانت عبارة عن غطاء رقيق مؤلف من قطعة مستطيلة الشكل يُسبل فوق العصبة فيغطيها كلياً أو جزئياً ، ثم يردف قسم منها إلى الخلف فيلف العنق وجزءاً من الوجه والكتفين . وكانت الطرحة بيضاء اللون في جبل حوران ووادي بردى وبعض قرى القلمون كالنبك والقطيفة . وقد تطوّلت الطرحة حتى تصل عدة أمتار ، فتلف العنق وتردّف إلى الخلف

(١) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ٢١٨ ، تركة أسما بنت علي بن الشيخ عمر من كفر سوسية .

(٢) انظر : حمامي . المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

حتى تصل إلى الأرض ثم ترفع إلى الأعلى ، وتعلق بواسطة زنار المرأة في بعض قرى القلمون مثل
بيروود وبخعة ، وكانت الطرحة خليطاً بين الأسود والبني ، كما في معلولا وعين التينة ورنكوس
وغيرها من ريف دمشق . وكانت المرأة تكتفي أحياناً بوضع لفاح أسود على الرأس مباشرة
يُلف به العنق وله طرز أو شراشيب على أطرافه ، كما في جيروود وصيدنايا ، أو يضع من
الصوف البلدي المشغول بسنارة واحدة ، وسمي بـ (صوفية) كما في النبك ، وكان أسود اللون أو
صُوفاً ساذجاً . أو من الحرير الطبيعي الساذج ويُحاك بسنارة واحدة وتزين أطرافه ويُسمى
(بالقزية)^(١) .

٤ — الشنبر : كان عبارة عن منديل حرير أسود اللون مستطيل الشكل ، طوله متران أو
أكثر وعرضه يتراوح بين ٥٠ — ٦٠ سم ، يطرح على الرأس مباشرة ويلف شعر الرأس
والعنق والصدر ، ويردف إلى الخلف فيغطي النقرة ، وتنزل أطرافه ذوات اللون الأحمر تحت
ثوب المرأة الرئيس المسمى (بالشرش) كما في حوران .

٥ — العصابة : كانت الغاية من لبسها حماية الرأس من حر الشمس والعينين من الغبار
الشديد ، لهذا كانت كثيفة وعريضة من الأمام لتسمح بوضع قطع الحلي بصورة ظاهرة ،
وكانت توضع العصابة فوق الشنبر مباشرة . وكانت في هضبة الجولان والجيدور ، ذات لون
خمري ومبرومة كالعقال ومقصبة بخيوط من الفضة . وكانت تسمى في حوران « بالعصابة »
وكانت طويلة من القطن وذات لون أسود ، وتعقد عند مؤخرة الرأس ، بحيث يتدلى طرفها
المثلث الشكل إلى الأسفل^(٢) .

حلي المرأة في الريف الدمشقي

اهتمت المرأة في ريف دمشق بالحلي الفضية ، بالإضافة إلى الحلي الذهبية المطعمة
بالحجارة الكريمة أو بدونها ، وكانت بأشكال مختلفة تزين بها رأسها وأذنيها وعنقها ومعصمها
وأصابع يديها ووسطها وساقها . وأهم هذه الحلي :

(١) كانت تسمى « شيكان قزي » . انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص ٤ . مخلفات أسماء
بنت محمد شريف العطار المتوفاة سنة ١٢٥٦ هـ .

(٢) انظر : حمامي . المرجع السابق . ص ٢٠٦ و ص ٢٠٧ و ص ٢٠٨ .

١ — العُرجة: وكانت المرأة تزين بها رأسها. وهي عبارة عن طاقيّة من الفضة ذات سلسلتين عريضتين متقابلتين، بعرض يتراوح ما بين ٤ — ٥ سم. ويتدلى من هذه الطاقيّة شرابات فضية تتأرجح على جبينها بشكل اللوزة^(١)، وكانت ترمز إلى الماء والتماء والخصب والخير، لتلاقيه العروس في حياتها الجديدة. وفي مؤخرة الطاقيّة وجد شريط من القماش المزركش والمطرز بالألوان المختلفة مشغول بالإبرة علقّت فيه النقود الفضية، وغطت هذه العصبة نقرة العروس، وكانت تخرج من أسفلها، دلالة من القماش المزخرف أيضاً شبيهة بالقطعة السابقة بعرض ١٠ سم تقريباً، تتدلى على الظهر، وكانت تعلق فيها مجموعة من الريالات العثمانية (المجيدى)، بعدد فردي، وكان يحمل آخر ريال منها من الأسفل، خمس قطع من النقود الفضية الصغيرة، وتلي ذلك طرر حريرية ملونة ملتفة مرسلة، وكان ذلك لدى نساء منطقة المرح شرق الغوطة وحوران^(٢).

٢ — القلادة: كانت عبارة عن طوق من الفضة وكانت المرأة تضعه في جيدها أو يتدلى على صدرها. ويتألف من سلسلة واحدة أو سلسلتين، تعلق فيهما قطع مختلفة من النقود الفضية القديمة، وكان يخرج من كل منها عدة ديايات تحمل كل واحدة بدورها قطعة نقدية صغيرة كما في القلمون (القطيفة)، وكانت تحوي القلادة عدة سلاسل تحمل بدورها نقوداً فضية، بشكل القلب أو اللوزة أو الهلال أو القرون أو الأجراس.

٣ — الشكل: وكانت من أجمل حلي الفضة آنئذ، وتعتبر آية في فن الصياغة السورية القديمة وتعود في أصولها إلى الآشوريين.

٤ — الخلخال: زينت المرأة به ساقها، وعضدها أحياناً. وكان من الذهب أو الفضة وسمي (بالحجول) وأضيفت إليه أجراس لدى الأطفال المدللين.

٥ — القرص المستدير: لبسته نساء جبل حوران فوق طربوش أحمر. وكان من الفضة أو

(١) سميت في مدينة دمشق (بالسنورة) وهي من الذهب. انظر: سجل القسم العسكري بدمشق رقم ٢١٥/ج ٦٨، تركة كلسن بنت خليل عبد الله المتوفاة سنة ١١٩٧هـ في دمشق.

(٢) حمامي. المرجع السابق. ص ٢٠٩.

الذهب ، وبه زخارف من أسلاك الفضة ملتفة على نفسها بدوائر تؤلف في مجموعها موضوعاً فنياً رائعاً ، يعود في جذوره إلى الفاطميين في مصر^(١) .

— وهناك بالإضافة إلى ذلك الحجاب^(٢) من الفضة ، والجدادة والزيقلية .

أما لباس القدمين فلم يختلف بشكله عن حذاء الرجل بصورة عامة . ولقد اتصف هذا اللباس بشكل عام (لدى الجنسين) بنعل مزدوج ليقاوم وعورة الأرض ، ووجهه من الجلد الأحمر أو الأسود أو الساذج الذي يميل إلى الصفرة قليلاً . وكان حذاء المرأة في القرى المحيطة بدمشق لا يختلف عما هو لدى رجالها ، أما في الجبال فكان الأمر يختلف عما ذكرناه . حيث كانت النساء في بعض المناطق الريفية لا يسن حافيات كما في حوران . في حين قامت بعض نساء الجبال بنسج قلعشين خاص لبسنه في الشتاء .

ومن لباس القدمين كانت الصرماية التي كان جلد وجهها أحمر اللون بدائر ، ولا كعب لها ، لبسها أهل الريف ، وكان منها نوع لطيف الشكل يسمى (بنصف كشفة) ، ثم النوع الأصفر الذي لبسه بعض أهل العلم . وبقيت صنعتها رائجة في الشام إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر (لرغبة من يلبس الصرماية)^(٣) ثم البابوج وكان ذو وجه أصفر بلا دائر ، لبسه أهل العلم وفقراء الطلبة والنادر من النساء العجائز . وكان على أنواع ، فمنه مالبسته نساء الفلاحين ، وهو أنواع أيضاً على حسب عاداتهم في ملبوسهم ، إذ كان لكل قرية طراز يخالف الأخرى^(٤) . ومن الأحذية التي لبسها الريفيون المست الأصفر والأسود^(٥) ، والجزمة ، التي كانت لباس الرجال ، تستر الساقين وبدون كعب ، فالعالي منها لبسه أمراء البدو وشيوخهم ، جلدها أحمر قاني بها طيات أمام الساق ، وكان على رأس ساقها المطوي طرة حريرية طويلة ، لونها أزرق تلتف عليها خيوط من السيم ، وبأسفل قدميها حذوة من الحديد ، يلبسها البدوي ويفتخر بها . وهي مثمنة ، والوسط دونها في القيمة والحسن ، ثم

(١) حامي . المرجع السابق ، ص ٢١١ و ٢١٢ و ٢١٣ و ص ٢١٥ .

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥ / ص ١٢٢ تركة الحرمة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفر سوسية .

(٣) القاسمي : محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

(٤) القاسمي : المصدر السابق . ج ١ ، ص ٥٧ .

(٥) القاسمي : المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٤٤٣ .

الدون وكان لهما سوق مخصوص بميدان الحصا ، يقال له سوق الجزماتية حيث كانوا يشتغلون بها الجزمات الدون ، لون جلدها أبرش إلى الصفار أقرب ، وكان يلبسها فلاحو حوران نساء ورجالا ، وأهل تلك الجهات من البدو^(١) .

التجميل وأدواته لدى نساء ريف دمشق

لم يسمح المجتمع آنئذ للفتاة في أن تضع على وجهها المساحيق والألوان « الغندرة » حتى^١ : رفافها ، وإذا ما فعلت إحداهن مثل ذلك ، كانت تعتبر خارجة على مألوف عاداته وتقاليده ، ويستدعي ذلك ذمها وتأنيبها والشك برصانتها ، مما جعل النساء لا يعرفن أصول الغندرة ، وإذا ما جاءت مناسبتها ، وهي ليلة زفافها ، استخدمت في غندرتها كميات كبيرة خرجت عن المعقول وشذت عن القواعد الجمالية . ولقد سمح المجتمع للمرأة ببعض الجوانب التي اعتبرت من الأسس الجمالية والصحية وهي :

أ — الوشم : الذي كانت المرأة تزين وجهها به وتبالغ فيه ، وله عندها مكانة هامة ، وكان له عدة مواضع ومواضع ، فالنقطة الزرقاء في رأس الأنف مثلاً تسمى (دق) والمثلث المسنن من الخارج بين الحاجبين يدعى (حجاب) والخط المستقيم بنصف الشفة السفلى هو (رتمة) . كما أن الرسوم على طرفي الفم والعينين والذقن ورأس الخدين والرسغين وعلى الزند والبطن والساق والظهر كان لكل منها اسمها ووظيفتها التجميلية أو الوقائية والعلاجية .

ب — الحناء : وكانت المرأة تخضب بها يديها وقدميها في مواسم معينة ، وفي مناسبات خاصة ، كحنة رجب والعيدين وعند الزواج .. وكانت للحنة أشكال معروفة تسمى كل نقشة باسمها ، ويشترك الرجال والأطفال أحياناً في ذلك . وجلب هذا الصباغ المسحوق من الهند ، وكان نوعين : الأحمر لليدين ، والأسود للعجائز يتخذنه صباغاً للشعر .

ج — الكحل : استخدمه (الجنسان) على حد سواء ، وهو الإثمد من نوع الانتموان أو شحار زيت الزيتون ، كان يسحق وينخل بشاشة ناعمة جداً ، ثم يمزج ببعض الأصبغة العضوية ، ويوضع بمكحلة فيها ميل رفيع تخطط به العينان والحاجبان ، وكان له من النواحي

(١) القاسمي : المصدر السابق . ج ١ ، ص ٨١ .

التزيينية والطبية قيمة كبرى ، إذ يضاعف جمال العينين ، فيزيدهما اتساعاً وشفاءً أو سواداً فوق البشرة البيضاء ، وكانت الحرارة والغبار الشديدين يجعلان منه ضرورة لازمة . لأنهم كانوا يعتقدون بأن يطفىء حرارة الأجفان ويزيد الرجال وقاراً ومهابة .

د - البراق : كان عبارة عن مسحوق ناعم (درور) ، يثبت على الوجه ، أو تلصقه الماشطة بأصابعها ، فيعطي تموجات جميلة . وقد سمي بعرف العرائس بهرجاناً ، واستعمل في (بنعة وجبعدين) ، وهما قريتان سريانيتان ، وفي قرية حينة من جبل الشيخ . وربما يعود هذا النوع من التزيين إلى أصول آرامية ^(١) .

هـ - التسريحة : كانت عند البنات والنساء ، بإطالة الشعر الذي اعتبر رمزاً للجمال ، فجعلنه ضفائر ، مضافاً إليه جدائل من الصوف الأزرق ، يرسلنها وراء ظهورهن . وكانت الثريات منهن يربطن جدائلهن بقطع من النقد والفضة المتداولة آنئذ . ودامت هذه العادة حتى أواخر القرن التاسع عشر ^(٢) .

و - الحوائج الخاصة : وكانت السيدة تحمل حاجات خاصة ، منها الحجب وبها آيات قرآنية ، أو بعض الأدعية والتعاويذ ، موضوعة ضمن غلاف معدني (فضة أو ذهب) .

وكانت السيدة تحمل أحياناً أطواقاً من الخرز الأزرق وقطع الشب ، تتوسطها أحجار العقيق وناب الذئب وموسى صغيرة وجوزة وترس سلحفاة صغير . ويحمل كل منها تاريخاً لعقائد شعبية قديمة تعود لأقدم العصور في التاريخ ، فمنها ما يعود للأصل الحجري دينياً كأنواع الخرز ، أو يعود إلى العصر المعدني ، كحمل الأجراس الرمزية وحدوة الحصان ، ومنها ما يمت لمذهب الانسم بصلة الاعتقاد ورمز الأفعى ولباس جلود الحيوانات المفترسة القوية كلها تعود إلى عصر الصيد . وكانت المرأة تحمل ضمن تلافيف زنارها دراهمها ومرآتها وإبرة الخياطة والكشتبان ، ومفتاح صندوقها ومفتاح الدار الخشبي ، وأحياناً أنواعاً من القضامة والزيبب والتين وغيرها ^(٣) .

(١) انظر حمامي . المرجع السابق . ص ٢٢٣ و ص ٢٢٤ و ص ٢٢٥ .

(٢) انظر : خنشت ، يوسف ، طرائف الأمس غرائب اليوم . ص ١٥ .

(٣) انظر : حمامي . المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

زي أهل الذمة (النصارى واليهود والسامرة)

ألزم أهل الذمة (النصارى واليهود والسامرة) بزي خاص يميزهم عن المسلمين . وفرضت عليهم بعض القيود في مجال البناء وركب المطايا وطريقة مخاطبة المسلم . وكان اليهود قبل ١٦٠٠م / ١٠٠٩هـ ، يرتدون على رؤوسهم قبعات حمراء بدون حواف ، ولكن في حدود ذلك التاريخ أصدر الصدر الأعظم أوامره بإجبارهم على ارتداء القبعات الزرقاء (التربانات) على أن يبقى الشاش أحمر^(١) حتى اليهود الأوربيين في الدولة العثمانية أجبرهم الخاخام للتقيد بذلك^(٢) .

أما السامرة فمنذ أوائل عهد السلطان ناصر بن قلاوون امتازوا بزي خاص يميزهم عن اليهود الربانيين والقرائيين ، وفرض التمييز في (التربانات) فيما بين أهل الذمة ، من حيث حجمها ولون شاشها على أن يكون التربان لدى اليهودي أصغر من تربان المسيحي ، وتربان المسيحي أصغر من تربان المسلم^(٣) .

ولقد ألزم أهل الذمة في هذه الفترة من العهد العثماني بارتداء الغيار في الملابس الذي يميزهم عن المسلمين ، ويميزهم فيما بينهم ، فالزم النصارى باللون الأزرق أو الكحلي ، واليهود ، القراؤون الربانيون باللون الأصفر والسامرة باللون الأحمر^(٤) وفرض على المسيحيين وضع صليب من الحديد أو الرصاص أو النحاس في رقابهم عند دخولهم الحمامات ، وحرم عليهم ركوب الخيل والبغال النفيسة داخل دمشق عدا الرئيس الديني ، وحرم عليهم حمل السلاح والتقليد بالسيوف ، ولبس العمام الزاهية . وكان لون عمام النصارى الأزرق أو الكحلي ،

(١) انظر : ماير . الملابس المملوكية / ص ١٢٥ و ص ١٢٦ نقلا عن قاسم عبده قاسم . أهل الذمة في مصر في عهد المماليك . ص ١٩١ و ص ١٩٢ . رسالة قدمت إلى جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، لنيل درجة الدكتوراة سنة ١٩٧٥ م .

2 - See: Russell .A. op.cit.VOL.2.P.59.60.

(٣) انظر : الزيات ، حبيب . مقالته في مجلة المشرق العربي التي تصدر عن جامعة القديس يوسف (اليسوعية) العدد ٣٦ / ص ١٧٠ ، لعام ١٩٣٨ م .

(٤) يذكر مجهول في كتابه ، تاريخ حوادث الشام ولبنان . والذي يؤرخ فيه لأحداث سنة ١١٩٢ — ١٢٥٧هـ / ١٧٨٢ — ١٨٤١م «أن النصارى كانوا يرتدون لباس رأس شاش كحلي واليهود بشاش أحمر وكل معروف أمره ولا أحد يتعدى الرسوم الذي كسبه شال لا يمكنه يلبس قاووق» . انظر : ص ٢٣ و ص ٢٤ منه .

واليهود اللون الأصفر والسامرة اللون الأحمر^(١). وفرض على النصارى أن يشدوا على أوساطهم الزنار وهو غليظ كالحبل ويشد إلى أوساطهم، أو يكون من الكتان فوق الثياب. ويبدو أن الزنار كان كافياً في بعض الأحيان لتمييز النصارى لأنه من لون الثياب الملزمين بلبسها.

أما نساء أهل الذمة فقد قيدن بدورهن بأزياء مللهم، فكان على المرأة المسيحية أن تشد الزنار فوق ثيابها ومن تحت الإزار (الملاءة) الزرقاء (الكحلية)، وكان على المرأة اليهودية أن ترتدي الإزار الأصفر والسامرة الإزار الأحمر^(٢).

وفرض على المرأة الذمية انتعال خف من لونين متباينين ليميزها عن المرأة المسلمة. وفرضت على أهل الذمة القيود في مجال بناء الجديد من أديرتهم وبيعهم وكنائسهم وحتى أبواب بيوتهم، بحيث تكون بارتفاع معين حتى لا يضطر المسلم لخفض رأسه إذا دخلها. وأجبر الذمي على عدم رفع صوته في وجه المسلم أو السير عن يمينه فيما لو صدف مرورهما في إحدى الطرقات، وألزم بحمل (كيس الحاجة) على كتفه في بعض الأحيان لتقديم خدمات طارئة ومجانية للمسلم، كأن يحمل له أشياءه إلى داره^(٣).

ولقد توقف هذا التشديد على الظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بالدولة العثمانية. فمثلاً عند هزائمها أمام الأوربيين (المسيحيين) كانت تصدر الأوامر للتضييق على المسيحيين كما حصل إبان الثورة اليونانية، أو عندما تتكرر هزائم الدولة العثمانية أمام روسية، وعلى المستوى الداخلي والمحلي، لعب رعايا المسلمين والجهلة منهم دوراً في عملية الإزلال تلك، وشكل عقلاؤهم سياج حماية للمسيحيين.

ولقد لعبت المناطق البعيدة عن متناول السلطة في دمشق، دوراً في تراخي قبضتها عن فرض تلك القيود، كما حصل لنصارى حوران^(٤) وجبال القلمون. ففي صيدنايا عزف

1 - See: Douin .G. Mission Boisle combe en Syrie, P.201.

(٢) ثم انظر: قاسم، قاسم. المرجع السابق. ص ٨١ و ص ٨٢ و ص ١٩١ و ص ١٩٢:

(٣) ماير. الملابس المملوكية ص ١٢٥ و ص ١٢٦ نقلاً عن قاسم عبده قاسم — المرجع السابق، ص ٨٣.

مجهول. حسر اللثام عن نكبات الشام. ص ٣٨. ثم: مشاققة، ميخائيل. مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان. ص ٢٦ و ص ٢٧، مصر ١٩٠٨ م.

(٤) يقول بوركهارة الذي زار حوران في أوائل القرن التاسع عشر. إن زي النساء المسلمات والمسيحيات كان واحداً في حوران، لكنه يختلف عما لدى الدرزيات في الجبل وكان زي الحورانيات يشبه زي النساء البدويات. فلباس رأسهن، النقاب، ونادراً ما يغطين وجوههن انظر كتابه:

Travel in Syria and the Holyland. P.254.

النصارى عن التقيد بزيتهم المفروض ، مما دفع بوالي دمشق درويش باشا ، لإصدار أوامره إلى اختيارية ومشايخ القرية المذكورة ليَجبروا النصارى على العودة إلى قيود اللباس المحدد للنصارى ، وجاء في أوامره الصادرة سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠ — ١٨٢١م مايلي : « البادي هو أن النصارى عندكم عمال يقلدوا الإسلام في ملابسهم وعمائمهم وفعالهم وتعدوا درجاتهم وخالفوها فهذا مالم يعط به رخصة .. فيجب أن تنبهوا عليهم أن يتقيدوا بملبوسهم الأزرق والعمامة السوداء والنعال الأسود ولا تدعوهم يقلدوا الإسلام بأدنى شيء لانساء ولا رجال »^(١).

ولقد اختلف موقف من قام بمهمة المحتسب ، في دمشق في هذه الفترة ، من قيود الثياب على أهل الذمة (كالقضاة والولاة والصدر الأعظم) . فمثلاً والي دمشق محمد باشا العظم تساهل في ذلك ، في حين أن والي دمشق الكردي الأصل الكنج يوسف باشا ، الذي اتصف بالتعصب ، قد تشدد في ذلك ، فأرسل منادياً في الأسواق ينادي على النصارى رجالاً ونساء أن لا ينسوا إلا السواد حتى الحذاء وأن لا يلبسوا أخضر زيتي وأن حريمهم يجعلوا أغطيتهم وملبوسهن أسود إلا المست والبابوج . ولقد صادف أن اعتقل فلاحان من جبل لبنان (زحلة) متزنيين بخزام صوف أخضر^(٢) . وهو مخالف للون الأسود أو الأزرق الخاص بالنصارى ، فخيّرهما بين الدخول في الإسلام أو القتل ، فأسلم أحدهما والثاني رفض ذلك فقطع عنقه^(٣).

وقام بعض الولاة بمساومة النصارى ، على مبلغ من المال مقابل غض الطرف عن قيود اللباس . ففي سنة ١١٨٨هـ / ١٧٧٤ — ١٧٧٥م قام والي حلب محمد باشا ابن ابراهيم باشا زادة « بإحضار وكالات النصارى الأربعة — روم — موارنة — سريان — أرمن وأمرهم بأن يلبس النصارى قلابق وباقي الملبوس أسود والمست والحدا (الخف) يكون عنابي والجخجور بنفسجي ... وبعد مساومتهم قطع الجرم بأربعة آلاف ذهب »^(٤).

كما أثرت التمزقات التي حصلت في الكنيسة الأرثوذكسية في القرن الثامن عشر ،

(١) مجهول . حسر اللثام عن نكبات الشام ، ص ٤٣ و ص ٤٤ .

(٢) كان اللون الأخضر زبي الأشراف وبعض الطرق الصوفية .

(٣) مجهول . تاريخ حوادث الشام ولبنان ، ص ٣٨ و ص ٤١ .

(٤) الحلبي . المرتاد في تاريخ حلب وبغداد . ص ١٧ و ص ١٨ .

وانسلاخ فئة منها وانضمامها إلى الكنيسة الكاثوليكية، دوراً في جعل الفريقين يكيدان لبعضهما البعض لدى الحكام العثمانيين، وقام الآخرون باستغلال ذلك أبشع استغلال. ففي عهد والي الشام عبد الله باشا، قام الأرثوذكس باتهم الكاثوليك « بأنهم متواطؤون مع الإفرنج وبمداخلة بطريرك الأرثوذكس سيروفيوم مع الوزير المذكور أصدر الأخير أوامره ضد الكاثوليك لمنعهم من ارتداء ثياب حمراء ولا سيما الحذاء الأحمر فاضطروا لتسويده قبل خروجهم من بيوتهم »^(١).

لقد أطلق النصارى لحاهم شأن المسلمين، إلا أن البعض بدأ يخلق ذقنه في عهد ابراهيم باشا المصري، ويرسل شاريه مقلداً بذلك الأوروبيين آنذا. مما أثار سخرية المسلمين فأطلقوا عليهم اسم (المنجرجين)^(٢)، لأن المجتمع لم يكن قد اعتاد على ذلك من قبل.

أما فيما عدا ذلك فلم يختلف زهم عن زي المسلمين. فمثلاً نجد في مخلفات نقولا ولد ميخائيل المتوفى في دمشق في شوال سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢١ - ١٨٢٢ م ماييلي من الثياب : « مديرية طويلة قطني — عتري قطني — بنش جوخ — جبة جوخ — جروال — فروة »^(٣). وكذلك مخلفات الأرمني كراييت ولد أستاروك الأماصيلي والمتوفى في دمشق سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢ - ١٨٢٣ م كانت تتكون من الآتي : « زنار طرابلسي — بنش — عتري — رقيق — أغباني — جيكان جروال — عباية »^(٤). وورد في مجلة المشرق أن قيافة الرجل المسيحي كانت تتكون من الآتي : « عمامة زرقاء. مخططة بالبياض — حليق الذقن — طليق الشارين — يرتدي على جزعه قنبازا من نوع السبع ملوك وسروالاً أورياً — وفي قدميه مست وبابوج وفوق القنباز والسراويل زنار يطوق وسطه من شال الترمات وتحت جميع الثياب قميص حسيني — العباءة الزرقاء فوق ثيابه جميعها »^(٥). وهو نفس زي المسلم ولا يختلف عنه إلا في بعض ألوانه.

(١) انظر : مشاققة . مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان . ص ٧٧ .

(٢) انظر : الصايغ . المقترب في حوادث الحضر والعرب . ص ٣٥ ب . ثم : العبد ، حسن آغا تاريخه . ص ٢٨ . ثم : مجهول . حوادث الشام ولبنان . ص ٣٩ .

(٣) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ٢٢١ . القضية في شوال سنة ١٢٣٧هـ .

(٤) المصدر السابق . ص ١٩٥ القضية ١٩ صفر سنة ١٢٣٨هـ .

(٥) انظر : اليسوعي ، الأب . توتل ، مقالته في المجلة المذكورة العدد ٣٦ / ص ٤٨٤ . سنة ١٩٣٧ م .

وكانت ثياب النساء المسيحيات مماثلة لثياب المسلمين . وحسبنا هنا أن نسوق مثلاً على ذلك ماخلفته إحدى المسيحيات المتوفاة والذي ورد ذكره في إحدى سجلات القسم في دمشق وكان يتكون من : « قنبار — قبوط — شروال — قنبار زرلي مقصب — قنبار أغباني — شالة — قنبار آلاجة — فرملية جوخ — زنار بقجة — قميص ومست وبابوج وصاية ولباس خام »^(١) . وهناك مثال آخر على ذلك مانراه في تركة حنة بنت كساب المتوفاة بدمشق سنة ١٢٦٤هـ / ١٨٤٧ — ١٨٤٨م وكانت مكونة من الآتي : « عتري آلاجة — عتري كرمسوت — رقيق — مانوص مخمل — قميص — زنار فروة — إزار — طربوش — منديل — مست وبابوج قلشين — شالة — حلق ذهب — محملين لولو — سباحات خرز ولولو ذهب وخواتم »^(٢) . ومخلفات مرتبه بنت نقولا الدياك المتوفاة بدمشق سنة ١٢٥٧هـ / ١٨٤٢ — ١٨٤٣م كانت مكونة من « عتري قصب — فرملية مخمل — جروال كزي — عتري آلاجة — ورقيق آلاجة — قمصان قنبار — شالة تقليد — تنورة آلاجة — أحمدية — عتري — سلبد طربوش — عتري أغباني — عتري أبيض — إزار — مست وبابوج — سيف ذهب — وجوز حلق »^(٣) .

وبقي الغيار الخارجي في أزيائهم مفروضاً إلى أن رفعت القيود عنهم في عهد ابراهيم باشا المصري ، وأعلنت المساواة التامة في تنظيمات السلطان عبد المجيد ، فألغيت القيود على أزيائهم الخارجية . ومع ذلك بقيت لهم أزيائهم الطوعية المفضلة ، كالقنبار والسراويل المائلة للون الأصفر ، والطرايش التي تميزهم عن المسلمين بالمناديل التي تطوقها كالخمار ، ويقول أحمد حلمي العلاف الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر « إنك إذا مارأيت رجلاً في دمشق يلبس قنباراً مقلماً أصفر ، أو طربوشاً فوقه منديل ، أدركت أنه مسيحي ويعرفون بحلق لحياتهم وإطلاق شواربهم ويلبسون تحت القنايز سراويل بيضاء يدخلون نهايتها داخل الجوارب (لفافة رجل) ويربطونها بها ، أما شبابهم فيلبسون الطرايش المائلة إلى السواد ، وتكون طويلة وبها يعرفون ، أما وقت العمل فيتحررون من الغيار كاليهود ويكتفون بالسراويل والقميص »^(٤) .

(١) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ١٢٦٤ — ١٢٦٥هـ . ص ٢٣٣ .

(٢) المصدر السابق . ص ١١٧ .

(٣) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص ٥٩ .

(٤) دمشق في مطلع القرن العشرين ... ص ٣٢ و ٣٣ و ص ٣٤ .

أما زي رجال الدين ، فكان فيه بعض الاختلاف من طائفة إلى أخرى فالمطران منهم يرتدي برداً بسيطاً أسود وفوقه عباءة سوداء ، ويحمل في يده عصا من البلوط طويلة تعبيراً عن هيئة الأساقفة^(١) ، وله قلنسوة خاصة على رأسه . والأسقف الكبوشي الكاثوليكي كان له زي متميز أيضاً . فالبادري توما الذي قتل في عهد ابراهيم باشا المصري كان يرتدي ثوباً أسود وحزاماً كالعادة عبارة عن حبل أبيض وفوق رأسه طربوش أسود^(٢) . ورهبان الكاثوليك الذين كانوا من الروم لا يختلفون في زيهم عن الرهبان الأرثوذكس فعلى الرأس القلوصة وعلى أجسامهم الثياب السوداء^(٣) .

أما راهبات دير صيدنايا الأرثوذكسيات فكن يرتدين زياً موحداً ، مكوناً من الثوب « الفستان » الطويل من قماش الشيت القطني الأزرق ، ومن الوسط إلى الأسفل سراويل واسعة من نفس القماش المذكور . وعلى رؤوسهن نقاب أسود واسع . ويشبه زيهن هذا زي نساء القرى المحيطة بديرهن ولا يختلف عنه إلا من حيث اللون^(٤) .

ورغم القيود التي فرضت على لون الثياب الخارجية ، بالنسبة لنساء النصارى ، إلا أن النصارى ، وخاصة في حلب قد شغفن بالمقصب والمخرج والبرق في زينة الرأس ، واعتبر ذلك من رجال دين النصارى خروجاً على الدين ، ففي سنة ١٨٢٧م / ١٢٤٢ - ١٢٤٣هـ ، اضطر المطران جرمانوس لإصدار أوامره إلى رعيته في حلب لإيقاف مثل ذلك والعودة إلى القديم « حيث حل القنبار محل الفستان القديم وأصبحت القنايز شفافة خالية من البطانات وانتشر لبس القصبليات المشروطة واستخدم المخرج العريض والقصب المزين بالبرق »^(٥) ولا شك أن ذلك تم في حلب قبل دمشق لانفتاح الأولى على الغرب قبل الأخيرة بفترة طويلة من الزمن .

ومن جهة أخرى فقد استرعت أناقة الثياب المسيحيات في دمشق نظر الرحالة

1 - See: Burckhardt, op.cit. P.28.

(٢) انظر: رستم ، أسد الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . ج ٢ . ص ١١ .

(٣) رستم . المصدر السابق . المجلد ٢ ، ص ٦٣ .

4 - See: Porter . J.L. «five years in Damascus». VOL.1.P.345.

(٥) انظر: مجلة المشرق العدد ٣٦ / ص ٧٠ ، سنة ١٩٣٨م .

الأوربيين الذين أتيح لهم زيارة بعض أسرها ، وعلى رأس هؤلاء لامارتين الشاعر الفرنسي الذي زار دمشق في بداية العقد الرابع من القرن التاسع عشر حيث يقول : « إن الصورة الجميلة التي كونتها في مخيلتي عن جمال نساء أوربة وأثينا ، قد اضمحلت وفقدت قيمتها ، برؤيتي نساء سورية وبخاصة نساء الأرمن في دمشق ، حيث لا يوجد من يماثلهن في الجمال ، فعينا الواحدة منهن تشعان بنور صادق أخاذ ، ينم عن صفاء الروح ، وفوقهما حاجبان سوداوان ناعمان تعجز أمهر يدي رسام عن تقليدهما ، وتسبح المقلتان فاحمتا السواد في لجة ثلجية البياض . والوجنتان مشربتان بحمرة دفاقة أعارتا للورد نشوته ، أما الشفتان فقرمزتان يفتران عن لالي ناصعة البياض فريدة في جمالها . وتشنف الآذان رنة الصوت المغناج ، كل شيء في تلك النسوة متناسق ومدهش ، وإذا ما تحدثن تنساب نبرات أصواتهن في دلال ونبل وتواضع فكأنما خلقن لإثارة الإعجاب . ولقد ساعدهن في ذلك مناخ دمشق وحياتهن في بيوت خلّت من العواطف المصطنعة التي نشاهدها في مجتمعات أخرى ، والتي كانت تستهلك الروح والجسد ، وشاهدت في كل بيت دخلته الأم وبناتها كأنهن أخوات في نضارتهن وجمالهن ، على الرغم من أن البنات كن في الخامسة عشرة أو السادسة عشر من أعمارهن ، حيث كانت الفتاة تزوج وهي ما بين الثانية عشر والثالثة عشر من عمرها ، ولأخفي إعجابي بأناقتهن التي فاقت في جمالها معظم أزياء الشرق ، أما رؤوسهن فمكشوفة تطوقها جدائل الشعر الملفوفة لعدة مرات على جانبي الجبين كما تنهدل ضفائر طويلة إلى العنق والكتفين . ونرى إسرافاً في زينة الشعر مكونة من فصوص الجواهر والمعادن الثمينة ، وتتسّم قمة الرأس ، طاقية (كلوتة) صغيرة مقصبة بخيوط الذهب ، أما النهدان فيندفعان إلى الأمام شبه غاريين ، وعلى الجزع سترة قصيرة بأكمام عريضة مفتوحة من الأمام ، صنعت من قماش حريري موشحة بخيوط الذهب ، والسراويل البيضاء تصل إلى الكعبين ، وفي القدمين المست المصنوع من الجلد الأصفر ، وفوق الجسم ترى ثوباً بلونه الصارخ ينسدل على الكتفين مفتوحاً من الأمام ليبرز ماتحته من الصدر والسراويل ، وفي الوسط حزام جميل تدلت أطرافه باتجاه الأرض . كل ذلك قد سمر ناظري بحيث لم أستطع تحويلهما عن هذا المشهد الساحر⁽¹⁾ .

ولقد فرض على اليهود والسامرة من أهل الذمة زي خاص . شأن النصاري ، وقرر اللون الأصفر في ثيابهم الخارجية (القراؤون والربانيون من اليهود) كما فرض اللون البنفسجي في لباس

1 - See: Lamartine. «Voyage en orient».VOL.1.PP.5-6.

القدمين . أما لباس الرأس فكان أزرق (ساذجاً أو مقلماً) وكان حجم التريان أصغر مما كان لدى النصارى . وكان اليهود يطلقون لحاهم ويرسلون سوافهم . أما اليهود السامرة فكانت ثيابهم الخارجية بلون أحمر^(١) ولقد أبطل السلطان العثماني قبل ١٢٦٣/م ١٢٦٤هـ لبس القاوق^(٢) ، فقام اليهود بإبطاله بدورهم « وصاروا يحكم النصارى حتى ما عادوا ينعرفوا إلا من لهم سواف طويلة »^(٣) ولقد التبس أمر تمييز اليهود عن النصارى على قوات الصدر الأعظم التي عبرت دمشق متجهة إلى مصر لطرد قوات نابليون ، فقام هؤلاء الجنود ببلص اليهود وإيذائهم وإهانتهم على أنهم نصارى .

إلا أن اليهود لم يتعرضوا للاضطهاد كما تعرض النصارى له ، كونهم لا يشكلون خطراً على الدولة العثمانية كالنصارى ، ولأن اليهود أقلية لا تربطهم روابط دينية بالدول الأوربية كالمسيحيين .

وسعى بعض اليهود (كالصيارفة والتجار) للتخلص من قيود الزي المفروض على أبناء جلدتهم . بحصولهم على براءة سلطانية ووضع أنفسهم تحت حماية القناصل الأجانب ، فيعاملوا معاملة رعايا الدول الأوربية بموجبها ويتزويوا بالأزواء الأوربية كما فعل الصراف اليهودي روفائيل الفارحي^(٤) ، وامتاز اليهود في دمشق بلكنة في نطقهم العربية ، واستخدموا عبارات عبرية في سلامهم خاصة يوم السبت^(٥) .

أما ثياب اليهودي بشكل عام ، فكانت كأزياء المسلمين إلا أنها أيضاً تختلف بين غنيهم وفقيرهم . فمثلاً زي شيخ حارة اليهود في دمشق الخواجة شحادة الفارحي المتوفى سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠ - ١٨٤١م كان مكوناً من الآتي : « عنصري هندي — عنصري زمام — عنصري الحجر — جبة جوج عدد ٣ — زنار حرير بوشية — شالة ، شال كمخة — شالة الكنار — شالة حمراء — فروة سمور عدد ٣ — ميتان عنصري — آلاجة — بزكهريا

(١) انظر : الزيات ، حبيب . مجلة المشرق . العدد ٣٦ / ص ٧٠ سنة ١٩٣٨م ثم : Russell. A. op.cit. PP.59.60.

(٢) مجهول : حوادث الشام ولبنان . ص ٢٣ و ص ٢٤ .

(٣) حوادث الشام ولبنان . ص ٢٣ .

(٤) مجهول : مذكرات تاريخية . ص ٢٤ و ص ٢٤٠ و ص ٢٤٣ مطبعة القديس بولص — حريصا — لبنان .

5 - Russell. A. op.cit. VOL.2.P.60.

عدد ٣ — شروال جوخ — فروة سنجاب — فرو عزق — فروة قاقوم — جبة فروة مضربية
 ١ — زنار أبيض — شروال جوخ — كمر — جبة خان صوف — عنصري آلاجة — زنار.
 حمصي، عنصري زمام — شروال وفرملية — فروة سنجاب — فروة ناقة — فروة سلط
 — مضربية — كرمسوتية — جبة شال — ثوب أغباني — ثوب عزيز خان — عنصري أبيض
 — عنصري أطلس — عنصري عزيز خان — أسلك — فرجية — فروة كزي — طاكية قصب
 حلبية — طاكية هندية — طاكية افرنجية — شيكان — شخصير وقدرت ثروته بـ ٦٩٠٢ ٤
 قرشاً^(١).

أما زي النساء اليهوديات فلم يختلف عن زي المسلمات، إلا من حيث لون الثياب
 الخارجية التي قيدت بلون خاص، تميز بها النساء اليهوديات، وكن يلبسن الأزار عند
 خروجهن من بيوتهن ويتركن إحدى الذراعين حرة^(٢).

وخفضت القيود على أهل الذمة بعد دخول الجيش المصري إلى دمشق سنة
 ١٨٣١م / ١٢٤٦هـ — ١٢٤٧هـ، حيث نادى المصريون بالمساواة بين المسلمين وأهل الذمة
 (نصارى ويهود وسامرة). واعتبروا الحمية الدينية تعصباً مزموماً، وأزالوا الفوارق والقيود التي
 فرضت على أهل الذمة (كالزي وركب المطايا وشرب الخمر بشكل علني الخ) وسمحوا
 للأوربيين بالتجول في دمشق بأزيائهم الأوربية، التي لم يعتد الدماشقة على رؤيتها من قبل في
 مدينتهم^(٣).

وعندما كان هؤلاء يرون مسيحياً أو أوربياً يمتطي جواداً في المدينة يقولون: « لا إله إلا
 الله ومحمد رسول الله » تعبيراً منهم عن الغيظ، مما دفع بآبراهيم باشا لوضع جنوده في شوارع

(١) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / سنة ١٢٥٦ — ١٢٥٧هـ. ص ٢٢.

2 - Russell .A. op.cit.VOL.2.P.114.

كانت مدينة دمشق أكثر حفاظاً من حلب في هذه الفترة. لهذا راعى الأجانب الأوربيون عدم الظهور في
 شوارعها بأزيائهم القومية الغربية، حتى أن القنصل الفرنسي كان يلبس لباس أهلها كي لا يثير نفور
 الأهليين، وعندما دخلها الشاعر الفرنسي لامارتين مع زوجته راعى أن يكون زيه مع زوجته مماثلاً لأزياء
 أبنائها.

(٣) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخه. المقدمة، ص ١٠٧. أول رسالة جامعية لنيل درجة الماجستير في التاريخ
 الحديث من كلية آداب جامعة دمشق سنة ١٩٧٦م.

دمشق على بعد النظر بين الجندي والآخر، خوفاً من هياجهم واعتدائهم عليهم^(١). ومن جهة أخرى طلب ابراهيم باشا المصري من الأوربيين المرافقين لجيشه أن يحتفظوا بأزيائهم القومية المخالفة لأزياء أبناء دمشق كي يتعود الدماشقة على ذلك^(٢). إلا أنه لم يهضم بسهولة من قبلهم وكان أمره عسيراً عليهم، واقتضى من المصريين تسكينهم بالقوة. وزاد في الطين بلة ترك أهل الذمة لقيود الثياب وتقليد المسلمين بثيابهم حتى خرج ابراهيم باشا من سورية سنة ١٨٤٠م/١٢٥٦ - ١٢٥٧هـ، وعندما استعاد العثمانيون دمشق بعد هذا التاريخ، قام متسلم الوالي العثماني الجديد بمعاينة من تعاون من الدماشقة مع ابراهيم باشا المصري، وكان منهم (أغوات سابقون وتجار وعناصر من الروم الأرثوذكس والكاثوليك ويهود أو غيرهم). ثم حرم على النصاري اقتناء الجوارى، ولف الشاش الأبيض على عماماتهم، وركوب الخيل وتقلد السلاح، إرضاء منه لشعور المسلمين في دمشق. وتعرض بعض المسيحيين، ممن لف شاشاً أبيض للاعتداء وبقي حالهم هكذا إلى أن أصدر السلطان عبد المجيد تنظيماته وتعهداته للدول الأوربية بإلغاء الفروق بين المسلمين وأهل الذمة. ونتيجة لذلك قام والي دمشق أحمد زكريا باشا بإرسال منادي في شوارع دمشق معلناً: «إن النصرائي يقتني جوارى ويلف لفه بيضاء، ويركب خيل ويشرب عرق وخمر، ويكون مثل أيام ابراهيم باشا وزيادة، ولا أحد يتعارضه بشيء من ذلك، وكل من يتعارض نصرائي يترتب قصاصه، وصار فرح عظيم عند النصاري». إلا أن المسلمين لم يقبلوا ذلك بسهولة، ويقول صاحب مذكرات تاريخية «طهمز أهالي البلد على النصاري وصاروا أهل سوق السلاح كلما نظروا نصرائي لاف لفه بيضاء يخربطوها له^(٣)». مما دفع بالوالي العثماني للتصدي للمعتدين بحزم فأصدر أوامره «أن كل مسلم أياً كان يبدو منه أي تعدي على المتعمم بعمامة بيضة من الطائفة المسيحية ينال قصاصاً صارماً^(٤)».

وبدأت الأحداث المستجدة على الساحة الدولية العثمانية والدمشقية تؤثر على أزياء أبناء دمشق بشكل عام، وشملت شكل اللباس والتخفيف من مظاهره القديمة، فحل القنباز الطويل والشالة والزنار الحريري والطربوش الاسلامبولي، محل الثياب القديمة، وصغرت

1 - See: Douin .G. op.cit,P.202.

2 - Ibid. P.204.

(٣) مجهول: مذكرات تاريخية. ص ١٣٨ و ص ١٣٩.

(٤) مشاققة، ميخائيل. مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان. ص ١٣٧.

العمامات ، وحل قماش الأغباني محل الشاش الضخم على الطربوش ، واختفت الطيلسانات الطويلة التي كانت تلبس فوق الثياب لتحل محلها البالطات . وبدأ القوم بحلق شعر الرأس وتشذيب اللحية وإرسال الشوارب . أما النساء فقد خفن بدورهن من ثيابهن القديمة ، خاصة العمائم الكبيرة ، ليحل محلها غطاء رأس مناسب من قماش رقيق وبقي الحجاب ، إلا أنه قمن بتقليد الأزياء الأفرنجية ، وصرن يظهرن في كل يوم بزي جديد . ومع كل اجتهدهن في ذلك ، لم يستطعن مجازاة الإفرنجيات في أزيائهن ، وبدأن بنبد الأقمشة الوطنية وبحسبان كل قماش غير موسوم بسمه أفرنجية شيطاناً رجيماً^(١) وتجلى ذلك بدءاً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

زي البدو

لم يتغير زي البدو منذ أقدم العصور إلا بشكل بسيط . وعلى ذلك كان يختلف عن زي بعض الحواضر والمدن^(٢) ويتألف لباس البدو من قميص واسع طويل . وفوقه قميص أطول وأوسع حتى القدمين اسمه « الثوب » ، وهو ثوب أبيض أو (ثوب مردون) ، ذو أكمام عريضة طويلة فضفاضة مشقوقة تدعى (الردون جمع ردن) . ولون الثوب أبيض أو ترابي مدبوغ بقشر الرمان في مدن الشام ونسيجه من القطن . وكلما كانت الردون طويلة دلت على عراقية لابسها في البداوة فردون (العنتري) أطول مما هي عند عربان الديرة . وإذا وقف لابسها وألقى يديه إلى جانبيه كاد ردنا ثوبه يمسان الأرض ولكنهما في الغالب يعقدان وراء الظهر .

أما السروال إن وجد فكان فضفاضاً ، كما كان لدى عربان الديرة ، شأن القرويين في (أطراف الغوطة وحوران) ، أما البدو الأقحاح فلم يلبسوا سراويل قط ، وربما عابوا لابسها (رجالهم ونسائهم في ذلك سواء) ويزعمون أنها تحبس الهواء . وكان البدوي لا يغسل ثيابه إلا كل شهرين أو ثلاثة أشهر مرة ، إذ ليس لديه غيرها . وقد يعود ذلك لندرة الماء في أغلب الأحيان خاصة من كان متوغلاً في البادية .

ولبس البدوي فوق الثوب (الصاية) أو الزبون ، وهو عبارة عن قنبار من القماش

(١) انظر : القساطلي ، نعمان . الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص ١٢٦ .

2 - Russell .A. op.cit.VOL.1.P.180.

الريق اللماع مفتوح من الأمام ومشقوق من أسفله على الجانبين . أما أكمامه وردونه فهي أقصر منها في الثوب . وله في كل جانب جيوب تدعى (مخبأ) . ولبس البدوي فوق الصاية زناراً وهو حزام من الصوف ، عرضه نحو عشرة سنتيمترات وطوله بقدر مايلف الخصر ، مرتين أو ثلاث مرات وهو أبيض أو أحمر ، وإذا كان مزدوجاً يسمح بوضع النقود وحفظها فاسمه (كمر) . وكان يلبس فوق الصاية (محازم) أو جنادات ثمر من فوق الأكتاف من الجلد وفيها بيوت لوضع أشياءهم الصغيرة . وكانوا لا يرفعون هذه الجنادات عنهم أثناء النوم . وكان من عادة البدو أن يناموا (نساء ورجالاً) بثيابهم كلها^(١) .

وبعض القبائل لم تعرف تمييزاً في زياها صيفاً أو شتاءً كعنزة وشمز . إلا أن الأغنياء منهم كانوا يلبسون عباءة رقيقة في الصيف يسمونها (مزوية) أو حسوية . وفي الشتاء يزيدون عليها كساءً مبطناً أو جلدأ من جلود الغنم المدبوغة يسمونه (فروة) أو صديرية . وكان البدوي يتدارك لباسه مخيطاً من البائع الشامي الذي كان يسمى (القبيسي) أو (الكبيسي) وكان هؤلاء البياعون يلتحقون بالعشائر ويبيعونها أكثر حاجياتها المجلوبة من دمشق وغيرها^(٢) عندما تغرب القبائل وتقرب من الحواضر .

وكان أمراء البدو يرتدون الشاش الأسود عندما يأتون إلى المدينة . وكان يتدلى إلى أسفل العنق من جانب واحد ، والعباءة العربية ، ثم القنبار ولكن ليس الضللمان أو الضلماية .

أما لباس رأس البدوي فكانت الحطة (الكوفية أو الشماخ) وهي من نسيج الحرير أو القطن مربعة الشكل محبوكة الحياكة ، مخططة بخيوط متسعة صفراء وحمراء ، وتبرم لحمتها من الحاشية إلى خيوط متينة وقصيرة ، وتطوى هذه الكوفية (الكفية) بشكل مثلث ، لتوضع على الرأس ، فيتدلى طرفاها على الكتفين أو أمامهما ، بينما يتدلى الطرف الثالث منها إلى الورا ، ويلف فوقها العقال أو البريم ، بني اللون من وبر الجمال ، مبروماً ثلاثة أطواق على بعضها البعض .

(١) انظر: زكريا، أحمد وصفي . عشائر الشام . ج ١ ، ص ٢٢٦ و ص ٢٢٧ . دمشق سنة ١٩٤٥ م .
(٢) زكريا: المصدر السابق . ص ٢٢٦ . ثم الصايغ . المقرب في حوادث الحضرة والعرب . ص ٨ و ص ٨ ب و ص ٢١ آ .

وكانت ترى من تحت الكفية ضفائر شعره المجدولة التي تتدلى حتى تصل إلى كتفيه ويعتبرها رمزاً للجمال والقوة والشباب ، وكنت ترى اللحي مسترسلة والشوارب طليقة . وتأخذ اللحية شكل المثلث^(١) ، لا تغادر الكوفية رأس البدوي صيفاً أو شتاءً . فهي تقيه حر الهاجرة صيفاً وقارص البرد شتاءً ، ويغطي بها وجهه عندما تهب الريح فتثير الغبار^(٢) .

أما لباس القدمين فكان الخف أو الشاروخ (النعل) ، وهذا الحذاء يلائم طبيعة الأرض الطرية المرملة والحارة ، لذا فإن أحسن حذاء لديه ما كان يوفر الآتي :

١ — أن يكون مستوياً وعريضاً ليتفادى الغروز في الرمال الطرية ، لهذا لم يكن له كعبان .

٢ — وما كان مفتوحاً من الجوانب ، بحيث يسمح بخروج حبات الرمال ، إذا ماتسرت تحت القدم ، ويوفر عدم انحباس الهواء في قدميه .

٣ — أن يوفر ثباتاً في القدم يساعد على الحركة والركض والعمل ، وهذا مايوفره الخف ، فكان ذا أشربة جلدية ضيقة في أسفل النعل تربط بالقدم بواسطة إبريم . وهذا النوع من الأحذية قديم في تاريخ منطقتنا ، لا بل أقدم الأنواع على الإطلاق ، استعملته النساء بالإضافة إلى رجال البدو .

ولبس البدوي في البرد القارس الجورب من الصوف وكان مكوناً من قطعتين : الساق الطويلة والقدم وكانت الساق عبارة عن أسطوانة صوفية تغطي ساق البدوي من الكاحل حتى مادون الركبة . أما القطعة الثانية فكانت تغطي كامل القدم . وكانت تقوم بغزل الصوف البدويات بواسطة مغزل خشبي طويل ، ثم يقمن بعد ذلك بنسجه بعيدان محلية ، ويطلق على لباس القدمين اسم (القلاشين) .

وكان البدو رجالاً ونساء يرتدون في الشتاء الموحد حذاء أسود بعنق يصل إلى ما تحت الركبة ، ودون أشربة . وكان يشاركهم في لبسه فلاحو المرج شرق الغوطة . وكان أصفر اللون به طرة ضخمة زرقاء ، تثبت على وجه الحذاء ، وكان هذا النوع رقيقاً يرتفع قليلاً إلى العلاء . على

(١) انظر : فريزر ، جيمس . رحلة فريزر إلى بغداد . ص ٨٩ و ص ٩٠ .

(٢) حمامي . حسن . المرجع السابق . ص ٢٣٨ .

أن بعض البدو الفقراء كانوا يسيرون حفاة القدمين حتى تسمى أقدامهم قاسية الأديم بحيث لا تؤثر فيها حصا الطرق ولا لسعات الرمال الحارة أو لدغات الحيات والعقارب^(١).

زي البدوية

كانت المرأة البدوية ترتدي الجلباب المصنوع من القطن بلونه الأسمر أو الأسود أو الأزرق أو النيلي، وكان الثوب طويلاً لدرجة كانت تسحبه البدوية على الأرض حين تسير. وتشد فوقه على وسطها زناراً من الصوف يسمى (الشويحي) وأحياناً تشد على وسطها (الكمر) وهو بلون أحمر، وتلبس الفتاة البدوية (دراعة جوخ) زرقاء اللون أو سوداء قصيرة الكمين.

أما لباس رأسها فسمي (بالمقرونة)، وهي تقابل كوفية الرجال إلا أنها أوسع منها. وهي من الحرير الأسود، وأطرافها ملونة، وذات أهداب سوداء، تجعلها بشكل عمامة وتدعى (العصبة) أو القمطة، وتلبسها تحت الشنبر، وهو ضرب من المناديل الملونة تضعه في مؤخرة الرأس ليظهر من بين قطعتي القماش قسماً من خصال الشعر. وتعقد المقرونة وراء الرأس وهذا عند عنزة، أما فتيات عربان الديرة فلم يلبسن الشمبر (الشنبر) بل وضعن على رؤوسهن كوفية أو مقرونة دون أن يدورنها بشكل عصبة (الشنبر)، وكانت من القطن أو الحرير الرقيق، وكن يلبسها على رؤوسهن بشكل قمطة، فتتدلى ذات اليمين وذات الشمال على الصدر وعلى الظهر. وكن يتمنطقن بكمر يضعن فيه نقودهن، ويلبسن الحراير والقمصان في بعض المناسبات، بالإضافة إلى بعض الحللي من المرجان والخرز والسوارات في أيديهن^(٢) وكان أكثرهن يمشين حافيات^(٣)، أما في فصل الشتاء فكن يلبسن الجزمة أو الزربول وهو من الجلد الأصفر أو الأحمر، له من الأمام هذبات زرقاء متدلّية وفي نعله مسامير ضخمة. ولثقله كن يزحفن به زحفاً، ويحدثن به قرقة خاصة، إذا سرن في شوارع المدينة^(٤).

وحيث للعمل كانت البدوية تلبس ثوباً مخصوصاً يسمى (قب) وهو القباء بلون

(١) حمامي. المرجع السابق. ص ٢٤٢ و ص ٢٤٣ و ص ٢٤٧.

(٢) انظر: الصايغ. المقترّب في حوادث الحضرة والعرب. ص ٨ ب.

3 - See: Volney .C.F. op.cit.P.282.

(٤) انظر: زكريا، أحمد وصفي. المرجع السابق. ج ١، ص ٢٢٩ و ص ٢٣٠.

أصفر ، وهو كالثوب إلا أن أكمامه أقصر ولونه أخضر ثم يسود ويتلون بسرعة . وكانت بعض البدويات يدخنّ بالغليون الذي يصنعه الرعاة من الطين^(١) .

ولقد استخدمت المرأة البدوية آنثذ طرقاً عديدة في تزيين نفسها . فكان منها الحلي والمصاغ والوشم^(٢) والحناء وغيرها ، فاستخدمت المصاغ لتزيين أنفها (الخزام) وصدرها ونحرها (القلادات) أو أذنيها (الحلق) أو ساعديها (الأساور) وعضدها وكاحليها (الخلائل) أو أصابع يديها (الخواتم) ، وكانت تلك الحلي من الفضة والخرز والزجاج الملون والذهب وغيره .

وأكثر ما كان يسترعي انتباهنا في حليها ، خزام أنفها ، حيث كانت تثقبه من جهة اليمين لتضع فيه حلقة بقدر ٥ ر ١ بوصة ، وصيغ الخزام من معدن الرصاص أو النحاس أو التوتياء لدى فقيرات البدو ، ولقد اتسعت حلقة الخزام حتى وصل قطرها من الأنف إلى شفة الفم ، وكانت تعتبر كياسة كبيرة من الزوج البدوي عندما يقبل زوجته من خلال تلك الحلقة (الخزام) .

ولقد لعب القبيسي دوراً في تزويد البدويات بحاجاتهن من الحلي (الفضية والزجاجية والكهرمان أو الخرز البندقي) وغيرها من الحاجات . وكانت المرأة البدوية تجدل شعرها في ضفائر . أما البدويات اللواتي اضطرتهن ظروف الحياة للعمل في المدن وداخل الحرملك ، فكن يقلدن سيداتهن في أزيائهن ولا يَلَوْن شفاهن كما لا يستخدمن الخزام في الأنف ، ويلبسن الكتان الخاص الأنيق والحذاء الأصفر أو البابوج ، ولا يخرجن من البيت إلى الشارع إلا محجبات . واحتفظن بأزيائهن البدوية ، كالثوب الأزرق والمقرونة ، والأخيرة استخدمنها في حجب الوجه بزاوية بحيث يتم حجب الفم والأنف ، واستخدم بعضهن (قناعاً) حجاباً صغيراً من الكتان ، كن يرمينه ملتصقاً فوق الرأس ، ونادراً مايرين داخل المدينة حافيات شأن نساء البادية^(٣)

(١) انظر : زكريا . المرجع السابق . ص ٢٣ .

(٢) استخدمت الإبر في الرسم فرادي أو مجموعة ، بحيث يتم رسم شكل ما على الجلد المطلوب وشمه ، ثم يثقب هذا الرسم بالإبرة أو بمجموعة إبر ، ويرشون بعد ذلك على الجلد المثقب مسحوقاً معيناً فيتحول إلى اللون الأزرق ، كما كان يرى آنثذ لدى البحارة الانكليز وعامة الشعب البريطاني . See: Russell.A.op.cit.

القماش والفراء

صنعت ثياب الدماشقة من أنسجة مختلفة محلية ومستوردة، وزركشت وطرزت بالخيوط برسوم مختلفة، وبطنت بفراء الحيوانات. وقام بتفصيلها وإخاطتها أصحابها ممن يعرفون الخياطة، أو دفعت إلى الخياطين المختصين، واستخدم هؤلاء في ذلك المقص والهنداسة والإبرة والكشتبان والدف الأملس^(١).

وكانت الأقمشة الحريرية تنسج في دمشق وبعض المدن الشامية « كحماء وحمص وعلبك وصيدا واللد والقدس^(٢) ونابلس^(٣) وطرابلس وغيرها » ومن الأقمشة ما استورد بواسطة قوافل تجارة العراق أو الحج من (اليمن ومصر والمغرب)^(٤) والعراق . ومنها ما كان يؤتي به من كرمان^(٥) واستانبول^(٦) أو من بعض مدن الأناضول ، ومن خارج الامبراطورية العثمانية كبلاد فارس^(٧) والهند^(٨) وانكلترا^(٩) وفرنسا^(١٠).

-
- (١) انظر : القاسمي . المصدر السابق . ج ١ . ص ١٣٠ و ص ١٤٤ .
- (٢) المؤتمر الدولي الثاني لبلاد الشام . ج ١ . ص ٥٠ جامعة دمشق كلية الآداب ١٩٧٨ م ويذكر هذا المرجع أن الأوربيين تنافسوا على استيراد النسيج البعلبكي والخام والحموي والديمة ونسيج الجبل ... من أواخر القرن السابع عشر .
- (٣) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٩٩ / ص ٧٤ .
- (٤) الديما المغربية . انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص ٤٠ .
- (٥) العنتري الكرمانلي . انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ٢٢٨ . ثم الشال الكرمانلي والشالة الكرمانلي المقلمة . انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص ٢ و ص ٤ .
- (٦) الزنار الاسلامبولي . انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص ١٠ و ص ٩١ . ثم الجيكان الكزي والعنتري والصرتي . انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ١٩٦ ثم ص ١٨٨ .
- (٧) الشالة العجمية : انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ٢٢٨ و ص ٢١٧ .
- (٨) الثوب الهندي . انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص ٩٥ و ص ١٠ تركة السيد محمود أفندي بن الدرويش . ثم العنتري الهندي والطاقيّة الهندية انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص ٢٢ . تركة الخواجة موسى بن شحادة الفارحي اليهودي . ثم اللفات الهندية . سجل القسم العسكرية رقم ٢٩٩ / ص ٢٤١ . ثم بطانات هندية ، المصدر السابق . ص ٢٣٩ . ثم الكرمسوت (الحرير الهندي) . انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ و ص ٧٧ و ص ٧٨ .
- (٩) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص ١١ .
- (١٠) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ٢٢٠ و ص ٢٢٨ . ثم أثواب افرنجية بيضاء . انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ١٧٤ .

وصنعت الأقمشة آتخذ من خيوط القطن أو الكتان أو الصوف أو الحرير أو وبر الجمال أو الماعز أو ذبول الخيل . وقصب بعضها بخيوط الذهب والفضة . أو كانت خليطاً وينسب معينة من بعض هذه الخيوط لسد حاجة معينة . ويذكر ابن طولون^(١) أن في عهده كان ألف نوع من الحياك ، إلا أنه لم يذكر إلا خمسة عشر نوعاً منهم في دمشق وغيرها ، فكان منهم : حياكو القطن الذين ينسجون البطاين واشتهر في ذلك أهل بعلبك ، ثم النسيج الرفيع واشتهر به أهل الموصل ، والثياب الملونة واشتهر بها أهل الكرك ، والعمائم والأزر واللحف واشتهر به أهل اليمن . والكتان الأبيض الذي اشتهرت به مصر ، وكان منه الكتان الأزرق والحصف والملون كالظهور والكتان مع الحرير (التفاصيل)^(٢) .

وكانت الآلاجة من أهم الأقمشة التي دخلت في ثياب الدماشقة آتخذ ، وصنعت من الحرير والقطن ، وحيكّت بأشكال مختلفة ، فكان منها الهندية والقطنية والمصرية والكمخة والمثمّنة والمسنّنة والعطافية ، وسميت القطعة منها اسم (صاية آلاجة) وهي ماكان لها بريق ولمعان كالأمواج^(٣) ، ولقد راج نسيجها نظراً لاستخدامه في ثياب الرجال والنساء في دمشق على حد سواء ، وانتشرت أنواله في الصالحية^(٤) والخانات التي تقع داخل دمشق وخارج أسوارها وحي الشاغور البراني والقيبات وغيرها^(٥) .

ثم صاية الديما المصنوعة من القطن ، وكانت بأقلام صفراء وحمراء أو صفراء وبيضاء ، وكانت الصاية أنواعاً منها المصرية والهندية والعثمانية وغير ذلك^(٦) . ولقد استخدم الدماشقة أقمشة مصنوعة من خيوط الحرير والكتان أو الحرير المقصب بخيوط الذهب أو الفضة ، ويذكر ابن طولون أصنافاً منها مثل «عمل الدار — والهرمزي — والرش — والنيل

(١) انظر: ضوء السراج فيما قبل في النسيج، وثيقة قدمتها الدكتور ليلي الصباغ إلى المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام . ج ١ . ص ٣٥ إلى ص ٩٤ .

(٢) الصباغ ، ليلي . مؤتمر بلاد الشام الثاني . ج ١ . ص ٤١ وما بعدها .

(٣) القاسمي . المصدر السابق . ج ١ ، ص ٣٩ .

(٤) انظر : الصباغ ، ليلي : المرجع السابق . ج ١ . ص ٣٩ .

(٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٧ / ١٢٢١ — ١٢٢٢ هـ / ص ٨٥ و ص ٢١٩ و ص ٣٠٦ و ص ٣٠٧ و ص ٣١٤ .

(٦) انظر : حمامي ، حسن . المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

والنجيل»^(١). إلا أننا لم نقع على ذكر لها في كتب التاريخ وسجلات محاكم دمشق المختلفة في هذه الفترة، وربما يعود ذلك لبطلانها أو تغيير تسمياتها^(٢)، وكانت الأقمشة الحريرية بألوان مختلفة «فمنها الأحمر والأصفر — والكوازي — والأبيض — والذهبي — والبردقاني — والكحلي — واللازوردي — وماشاكلها من الأشكال حسب طلب معلم الحرير وهي حرفة رائجة»^(٣) رغم أن عدداً من رجال الدين المسيحيين والمسلمين وحتى الولاة حاولوا منعها^(٤)، لاعتقادهم بأن لبسها مذموم فيقول ابن طولون: «إن لبس الحرير قاصر النفع لأنه من أمور النساء. وثانيهما أن صنعة حيّاكه تحتاج إلى صبي يخلون به ويغلقون عليه الباب وتبقى سيقانه عند رأسه وهذا أمر محرم بلاريب»^(٥). وصنعت من الحرير ثياب مختلفة كالزنانير (الحمصية والطرابلسية والحموية) والعنثري المقصب والبيدية الحرير. والجيكان. والقمصان^(٦) والطاقيات وبغض العمام. ولقد وجد في دمشق بعض الحرفيين الذين يقومون بالرسم على ثياب الحرير وسمي عملهم بـ (التطريز)، وقصب الحرير بخيوط الذهب أو الفضة وغيرها وسمي القماش (بالصرمة)^(٧).

أما الأقمشة الصوفية. فكان غالبها يستورد من بلاد الإفرنج، حيث كانت صناعة النسيج الرئيسة في أوروبا، واشتهرت بها البندقية حتى منتصف القرن التاسع عشر، ثم نافستها في ذلك إنكلترا وهولندا — وصنعت أقمشة الصوف في بلاد الروم وآسيا الصغرى، وكان الأتراك العثمانيون أصحاب هذه الصناعة، وكانت تجلب من بلادهم إلى دمشق، وسمي هذا

- (١) الصباغ، ليلي. المرجع السابق. ج ١، ص ٤٢.
- (٢) طاقة قصب حلية. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٦/٣٦٤ — ١٢٥٨هـ/ص ٢٢.
- (٣) القاسمي. المصدر السابق. ج ٢، ص ٢٦٧.
- (٤) انظر: مجهول. تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص ٢٣ و ٢٤. حيث قام والي دمشق الكنج يوسف باشا بمنع لبس المقصب وذلك في عام ١٢١١هـ/١٧٩٩م.
- (٥) الصباغ، ليلي. المرجع السابق. ج ١، ص ٤٣.
- (٦) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص ٢ و ٢٥. زنار جمصي حرير. والعنثري المقصب. ثم انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٣٧/٢٩٩هـ، ص ١٨٥ و ١٨٦.
- (٧) ص ١٩٥ و ١٩٦. أما القميص فهذا نوع من الألبسة يرتدى فوق السروال وقد يكون طويلاً ويصل إلى الركبة أو قصيراً فيمتد إلى الخصر أو مابعد قليل. انظر: DOZY. P.371.
- (٧) القاسمي. المصدر السابق. ج ١، ص ١٥٤.

النوع (بالخمتم) ، ووجد نوع آخر منه في دمشق سمي (بالمغربي) وكان يصنع من الصوف والحرير ، ويبدو أنه جاء من المغرب أو نقل صناعته بعض المغاربة الذين استقروا في دمشق^(١) .

أما قماش الجوخ فكان كالقماش الصوفي يعمل في بلاد الإفرنج والروم . ويقول بن طولون أنه « رأى في دمشق من يقلد حياكة الجوخ من مادة القطن .. ولكنه ليس في حسن الجوخ وماويته »^(٢) . وكان الصوف الملون يطرز كالحرير وسمي آنئذ (بالكنأويشا)^(٣) . واستخدمت الإبرة والسنارة في تطريز الثياب من الداخل والظاهر^(٤) .

واستوردت دمشق النيل من أوربا عن طريق ميناء صيدا ، حيث أقام فيها بعض التجار الأوروبيين الذين كانوا يستوردونه من أوربا ، ويصدرونه إلى تجار دمشق ، ويقوم هؤلاء ببيعه إلى الدماشقة فمثلاً في سنة ١١٩٠ هـ كان « عبد الرحيم بشة بن أحمد آغا عبد الرحيم وكيلاً في دمشق للخواجة لويزو الذمي الإفرنجي المقيم بمدينة صيدا ، وكان يتزود منه بالجوخ والنيل »^(٥) . أما أقمشة الكتان فكان منها المجوز وهو أنواع ، كأثواب الكركي والمحازم الكتانية وأثواب الشيب الأسيوطي والقماش البلدي والمناديل والشاشات الشامية وغيرها^(٦) ثم شاش الازر وقمصان الازر^(٧) ، وعنتري الازر وجدوال الازر^(٨) ، ثم قماش المارنوس المخملي واليمني والثوب الهمايون وشقق مضام وشقق مناديل^(٩) .

(١) انظر : سجل محكمة حماه رقم ١ / ص ١٦٠ و ص ١٧٥ . القضية رقم ٤٧١ ورقم ٤٩٠ .
(٢) الصباغ ، ليلي . المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . ج ١ ، ص ٤٢ . والجوخ كلمة تركية عربت وأصلها جوقة وتعني نسيج صوفي . ويبدو أن هذا النسيج الذي كان يصنع في أوربا لم يرحب به المشاركة لأول وهلة ومن المعلوم أن البندقية مصدره الأول أما الثاني فكان إنكلترا وهولندا . انظر : المصدر نفسه . ص ٥٩ و ص ٦٠ .

(٣) القاسمي . المصدر السابق . ج ١ ، ص ١٥٤ .
(٤) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص ٩٥ .
(٥) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٠١ / ١١٩٠ — ١١٩٢ هـ ، ص ٢٣ القضية رقم ٦٢ تاريخ ١٣ ذي الحجة سنة ١١٩٠ هـ .

(٦) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ٣٣٧ القضية رقم ٦٩٢ .
(٧) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص ٤ .
(٨) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ١٨٤ و ص ١٩٦ .
(٩) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ٨٦ .

وكان الشال أنواعاً ، فمنه الغراماش والسليمي والكرماني والكرماني المقلسم^(١) والخراساني^(٢) وشال الكنار^(٣) والشال الانكليزي والافرنسي^(٤) وماشاكلة من الشال الفاخر ، ولقد كانت هذه الصنعة رائجة آنذ في دمشق نظراً لكثرة الرغبة فيه في الشام . ولكن مع الزمن قل رغبوه سيما وقد قلده بالshal المعروف بالshal شغل الشام ، كالبرزري^(٥) والشال التقليد الأغباني^(٦) وهو بالنسبة للشال القديم بخس جداً^(٧) .

وبرز في هذه الفترة نوع من النسيج سمي بالكركي أو الكريكي وشرحه (DOZY) بأنه نوع من الحرير ، تصنع منه الفرجية ، ومن المرجح أنه صنع في الكرك من جبل لبنان التي تقع بالقرب من بعلبك ، التي كانت آنذ مركزاً لنسيج القطن . أو في كرك الأردن التي كانت تقع على طريق قوافل التجارة والحج . ولقربها من وادي الأردن الذي يزودها بصباغ النيلج^(٨) .

أما الفراء : فعادة لبسه قديمة جداً في مدينة دمشق^(٩) ، وكانت منه أنواع كثيرة . كفرو السمور والألما وهو أعلى أنواعه ، والسمور الأحمر والسنجاب والقاقوم وهو الأوسط والأبيض والسلوا وهو الأدنى^(١٠) ، ثم فرو القط الأسود والتمس والناقة والذرداوة^(١١) وفراء تقليد (يلنجي) وسطرنجي^(١٢) ، ثم فروة الغنم الناعم التي كان يصنعها الفراءون ويستخدمونها ذور اليسار

انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص ٢ .

انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ٢٠٦ .

(٣) ظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص ٢٢ .

(٤) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص ١٢٦ و ص ١٦٠ و ص ٢٢٨ . ثم سجلها رقم ٣٦٥ / ص ٣٠ .

(٥) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص ٥ .

(٦) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص ٤٠ .

(٧) القاسمي . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

(٨) الصباغ ، بي . المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . ج ١ ، ص ٦٢ .

(٩) انظر : سي . مي ، عبد الرحمن بك . القول الحق في بيروت ودمشق ، ص ٧٩ .

(١٠) القاسمي . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٣٣٨ .

(١١) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ٢٤٣ و ص ٢١٧ . ثم سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص ٣٠ و ص ٢٢٧ .

(١٢) سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص ٢٢٧ .

خرجوا إلى قراهم ، وغالب المتوسطين كانوا يلبسونها داخل البلدة ، ثم الصنف الثاني من الفراء شعره طويل أحمر أو أبيض وكان يعنى بلبسه أهل القرى والبدو^(١) .

وكانت عادة أصحاب صناعة الفراء أن يسافروا في أواخر الشتاء إلى البلاد التي يوجد بها أصناف الفراء لشرائه وإخاطته بشكل مناسب ، ويشكلون كل قطعة كبيرة بطول ٥ أرا ذراعاً ويعرض ١٥ أرا ، وتكون أكبر أو أصغر من ذلك ، ويطلق على هذه القطعة اسم (شقة) ، ويأتون بهذا الفرو في فصل الخريف لبيعه ، وكانت تبجل قيمة الفرو النفيسة التي هي من خالص الألبا أو السمر خمسين ذهباً^(٢) ، في حين تطالعنا سجلات محاكم دمشق بأسعار بعض الفراء المستعمل آنئذ ، فمثلاً في سنة ١١٩٩ هـ كان سعر فروة القط الأسود المستعملة ٤٢ قرشاً وفروة الزرداوة ٣٠ قرشاً وفروة يلنجي ١٣ قرشاً وفروة سطرجي ٤٠ قرشاً^(٣) .

ومن جهة أخرى فقد لعبت شدة البرد في دمشق دوراً في رواج سوق الفراء ، وكلما خفت البرودة كسد سوقه . وأسهمت الظروف الاقتصادية التي أحاطت بدمشق في هذه الفترة دوراً في ارتفاع أسعاره وندرة وجوده ، مما أدى إلى إقلاع عدد كبير من متوسطي الحال عن اقتنائه وأصبح اقتناء الجيد منه وفقاً على الفئة الميسورة دون غيرها .

ونلاحظ ذلك من خلال إطلاعنا على تركات المتوفين في دمشق . حيث أصبح لبس فراء السمر يميز به الأغنياء والمتنفذون ، وأصبحوا يتباهون بلبسه ويتفاخرون^(٤) .

وبقيام الثورة الصناعية في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر ، واستخدام الأوربيين لطاقة البخار بدلاً عن طاقة الإنسان والحيوان في صناعة النسيج . أدى ذلك إلى ضرب معظم الأنوال النسيجية في الأقاليم العثمانية ومنها بلاد الشام^(٥) ، واستطاعت صناعة النسيج الأوربية

(١) القاسمي . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٣٤٢ .

(٢) انظر : القاسمي . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٣) : انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ١١٩٧/٢١٥ — ١٢٠٠ هـ . ص ٢٢٧ تسعير تركة قادن بنت أحمد أفندي البهنسي المتوفاة بدمشق سنة ١١٩٩ هـ .

(٤) انظر : جبري ، شفيق ، مقالته تحت عنوان (بيت القهوة) . مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق — المجلد ٤٢ / ص ٣٧٥ ربيع الأول ١٣٨٧ هـ / تموز (يوليو) ١٩٦٧ م .

(٥) يقول ألفرد وود : دخلت موانئ بلاد الشام في طور جديد إثر قيام الثورة الصناعية في أوروبا التي اعتمدت

أن تكتسح الأسواق الشامية بإنتاجها النسيجي المتفوق على ما يصنع منه في دمشق وبلاد الشام ، من حيث اتقانه وصباغه ورخص أثمانه وارضائه لأذواق المستهلكين ، فتكدست منه كميات كبيرة في أسواق الشرق وشمال أفريقيا . وبقيت دمشق صامدة في وجه هذه الموجة إلى دخول ابراهيم باشا المصري ، الذي مكّن القناصل الأوربيين من دخول دمشق . وبدأ هؤلاء ، بعد رفع القيود عن أهل الذمة ، بالاتفاق مع التجار منهم لإدخال البضائع الأوربية ، فحلت محل البضائع الدمشقية والمحلية ، وبدأ هؤلاء يقلدون الأوربيين في أزيائهم ، وتغيرت طبيعة العلاقات الاقتصادية وأدت بدورها إلى الأزمات السياسية التي انفجرت في أحداث سنة ١٨٦٠م في لبنان ودمشق ، واعتبر المسيحيون مسؤولون عما أصاب دمشق من خراب اقتصادي .

على طاقة البحار فتبدلت طبيعة الحركة التجارية فيها فأصبحت بريطانيا تنهج طريقة جديدة في تجارتها فلم تعد تأخذ كالسابق كل البضائع المكدسة في الموانئ الشامية . بل أصبحت تستورد ما تحتاجه من المواد الأولية الصالحة لصناعتها وتقدم مقابل ذلك المواد النسيجية والقطنية . ففي سنة ١٧٨٠م كانت قيمة بضائع بريطانية القطنية المصدرة إلى الشرق ٣٣٥٠٦ ر ٤٦ ر ٨٧٥ ر ١ جنيتها ثم ارتفعت إلى أكثر من سبعة ملايين جنيتها سنة ١٨٠١م وفي سنة ١٨٥٥ وصلت إلى ٣٠٧٩٥٠٠٠ ر ٧ جنيتها وكانت بضائعها رخيصة ومتينة وخفيفة ولونها ثابت الصباغ وبهيج ، صممت خصيصاً لترضي أذواق الشرقيين ، كائنة من طريقها البضائع المصنوعة محلياً ، وبلغت درجة عالية من الاتقان ، ويقول القنصل الفرنسي دروفيتي في تقريره لحكومته والمؤرخ سنة ١٨١٢م « إن كل مخازن ومستودعات آسيا وإفريقيا قد امتلأت بالبضائع الانكليزية الرخيصة » .

See: Wood .A.A. hisrory of Levant company. PP.188,189,190,192,193. London. 1935.

الفصل السادس

الأفراح والأأتراح
والتسلية

— الأعياد وطقوسها في دمشق

أ — أعياد المسلمين واحتفالاتهم الدينية

أ — تقاليد دمشق في عاشوراء

ب — الاحتفال بالمولد النبوي

ج — مراسم المدارس في الأعياد

د — مراسم الختام

هـ — مراسم الختان

و — دور الطرق الصوفية في الاحتفالات الدينية

ز — الاحتفالات بتوديع واستقبال قافلة الحج الشامي

أ — موكب الزيت والشموع

أ — موكب الحمل والصنجد

أ — موكب قافلة الحج

أ — استقبال قافلة الحج

٢ — أعياد أهل الذمة في دمشق

— المواكب والاحتفالات الرسمية في دمشق

أ - الاحتفالات بالمناسبات السلطانية

آ - الاحتفال بتتصيب سلطان جديد

ب - الاحتفال بولادة الأمراء والأميرات

ج - الاحتفال بمختان أبناء السلاطين

٢ - استقبال الصدور العظام والولاة وضيوف الوالي.

٣ - استقبال قاضي القضاة والمتسلم والمفتين وأغوات الإنكشارية.

— الاحتفالات بالمناسبات العسكرية المختلفة

— الأفراس في دمشق وريفها

آ - أعراس دمشق

ب - أعراس الريف

ج - أعراس البدو

د - أعراس أهل الدمة في دمشق

— الأتراح لدى مسلمي دمشق

— مآتم أهل الدمة في دمشق

— الرلع بالموسيقى والغناء

— الألعاب وتمضية الوقت : الحاوي ، ألعاب الخفة والبهلوانية ، الخمسان والسييران

— شرب المنبهات والتدخين والمسكرات والمخدرات

— نتائج البحث العلمية

الأعياد وطقوسها في دمشق

تعددت أعياد دمشق بتعدد طوائفها، وكان لكل طائفة فيها عاداتها وتقاليدها وطقوسها الخاصة بها، تمارسها بحسب العيد وأهميته الدينية. وسنحاول فيما يلي رصد هذه الأعياد وطقوسها الدينية ومظاهرها الاجتماعية، كما سنرصد قدر الامكان انعكاس التغيرات عليها في هذه الفترة، وسنتناول مظاهرها بالبحث بحسب أهمية الشرائح الاجتماعية آنثذ من جهة، وبحسب أهمية تلك الأعياد لديها من جهة أخرى.

١ - أعياد المسلمين واحتفالاتهم الدينية

كان في دمشق فئتان من المسلمين، أولاهما فرقة السنة والثانية فرقة الشيعة. ورغم اشتراكهما في الأعياد الدينية الرئيسة إلا أننا نلاحظ فرقاً بينهما في تركيز إحداهما على عيد أو مناسبة، في حين لا نرى لدى الأخرى، كشهر محرم، والاحتفال بعاشوراء.

وأهم الأعياد المشتركة والرئيسة هي: الاحتفال بقدوم شهر رمضان، ثم الاحتفال بعيد الفطر (العيد الصغير) ثم الاحتفال بعيد النحر أو الأضحى أو الأضحية (العيد الكبير). وهناك أعياد أخرى كالاحتفال بشهر محرم الحرام وليلة النصف من شعبان وليلة المعراج الشريف، وعاشوراء ووجدت مناسبات دينية مختلفة ليست أعياداً دينية، ولكن الاحتفال بها

شابه الأعياد الدينية ، لا بل فاقها في بعض مظاهره . كتوديع واستقبال قافلة الحج الشامي ، ثم تطبيق السنة في الختان ، وإيفاء النذور وغيرها كما سنرى .

وسنرصد فيما يلي مظاهر الاحتفال بتلك الأعياد في فترة دراستنا ، ومدى الاهتمام الذي أولته السلطات العثمانية لتلك المظاهر ، وسبب ذلك :

شهر رمضان وعيد الفطر

اهتمت الدولة العثمانية بالأعياد الدينية ، وسعت لآظهار الاحتفالات بمظهر يتناسب مع قدر هذه الأعياد في نفوس المسلمين ، خاصة وأن ذلك كان يظهرها بمظهر الحامي لحمى الشريعة الإسلامية والدين الحنيف ، في وقت كان للدين تأثيره الكبير على النفوس . ولا غرابة في ذلك إذا ما علمنا أن الدين هو الرابطة الوحيدة التي كانت تربط دمشق بالدولة العثمانية . لذا أولت الدولة العثمانية أهمية كبيرة للإحتفالات بشهر رمضان ورجب وشعبان ، وهي الأشهر الفضيلة لدى المسلمين . وكثيراً ما كان عدد كبير من المسلمين يصومون هذه الأشهر كلها . فيبدأون صيامهم من شهر رجب الفرد لأنه وحده المنفصل عن الأشهر الحرم^(١) . وفي شهر رجب يومان مقدسان هما (جمعة رجب وليلة المعراج) التي عرج فيها الرسول الأعظم إلى السماء ، وكان مسلمو دمشق في جمعة رجب يقصدون الصالحية من سائر جهاتها ، ومن القرى المجاورة بهدف زيارة الأماكن المقدسة فيها كأضرحة الأنبياء والأولياء والصالحين . وكان ذلك يتم قبل صلاة الظهر من ذلك اليوم فيتسلقون جبل قاسيون ويزورون الكهف والأربعين والجوعية وذا الكفل عليه السلام ، وبقية مراقد الصالحين . ومنهم من يعمد بعد زيارته تلك إلى زيارة مسجد الحنابلة « المسجد المظفري » فيقف أمام بابه الغربي ويقرأ

(١) الأشهر الحرم : ذو القعدة — ذو الحجة — محرم — رجب . وكانت هذه الأشهر معروفة في الجاهلية ولها تقاليدھا في علاقات الناس الاجتماعية والسياسية ولقد احترمها الإسلام . وأهم المواسم والأعياد الإسلامية : بدء صوم رمضان ورمضان وليلة القدر في ٢٧ رمضان وختام الصوم وفيه وقفة عيد الفطر في ٣٠ رمضان ، ثم عيد الفطر في ١ شوال ، ثم آخر أيام عيد الفطر في ٣ شوال ، ثم وقفة عيد الأضحى والوقوف في عرفات في ٩ ذي الحجة ، ثم عيد الأضحى في ١٠ ذي الحجة ، ثم عيد رأس السنة الهجرية في ١ محرم ، ثم يوم عاشوراء في ١٠ محرم ، وعيد المولد النبوي في ١٢ ربيع الأول ، ثم ليلة الإسراء والمعراج في ٢٦ رجب . انظر : جريدة البشير . ص ٣٩ . بيروت ، لبنان . المطبعة اليسوعية . ١ أيلول ١٩٣٢ م .

ما تيسر من آيات الله ويوهب ذلك إلى الأنبياء وأرواح الصالحين . ومنهم من يضرب حلقة الباب كناية عن الطلب ليحظو بالإجابة ويذكر أثناء ذلك حاجته كائنة ما كانت^(١) .

أما الاحتفال بليلة المعراج الشريف والتي تقع في السادس والعشرين من رجب ، فكان المسلمون يجتمعون في هذا اليوم في المساجد والدور لسماع قصة المعراج الشريف ، ويصغون إليها باحترام ويتذكرون ما بها ماعملوا من شر فيرجعون إلى الله تائبين ... ويزورون موتاهم ويتصدقون على أرواحهم^(٢) .

وكان المسلمون يحتفلون بليلة النصف من شعبان ، فكانوا يراقبون الهلال وغالباً ما يصومون سحابة نهار ذلك اليوم وبعد صلاة المغرب يجلسون في المساجد أو في بيوتهم مع عائلاتهم ، لقراءة دعاء النصف من شعبان ويباشرون مراسم الاحتفال بها على الصورة التالية : فإذا كان الاحتفال بها في المساجد يلتف المسلمون حول الإمام ويوكل لأحد القراء سورة (يس) . وبعد الانتهاء من التلاوة سراً يياشر بالدعاء ، وإذا انتهى من قراءتها أشار الإمام بقراءتها ثانية ثم ثالثة ، فالمرّة الأولى بنية طول العمر ، والثانية بنية دفع البلاء ، والثالثة بنية الاستغناء عن الاستجداء . وكان بعض المسلمين يحيون هذه الليلة في المساجد والكهوف والأماكن المقدسة من الصالحية ، وتوزع الحلوى الغريبة^(٣) بهذه المناسبة .

وأقامت دمشق مراسم للاحتفال بشهر رمضان المبارك ، وكان لها تقاليدها الموروثة في هذا المجال ، وكانت تبدأ بأثبات شهر رمضان ، فإذا ما كانت ليلة الثلاثين من شعبان ، جلس القضاة والعلماء والوجهاء في المحكمة خلال الساعات التي يتوقع خلالها ظهور هلال رمضان ، فإذا ما ثبت ظهوره توقد القناديل في أسواق ومآذن جوامع المدينة وخاصة في مآذن الجامع الأموي ، وتضرب المدافع لأثباته حتى منتصف الليل ، ويحصل للناس زحمة في حركة السحور ، حتى تفتح دكاكين الطعام ليلاً كالحبازين والسمانين^(٤) .

وكان المسلمون يحتفلون بليلة القدر التي تقع في السابع والعشرين من شهر رمضان

(١) انظر : العلاف ، أحمد حلمي . دمشق في مطلع القرن العشرين . ص ٦٦ .

(٢) العلاف أيضاً ، ص ٦٧ .

(٣) العلاف أيضاً . ص ٦٧ و ص ٦٨ .

(٤) البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ٢٣ .

فيحيونها إلى وقت السحور . وكان لها تقاليدھا الدينية الخاصة ، وتقام في جامع بني أمية وبقية جوامع دمشق ويشارك فيها الخاصة والعامة .. وكانت عادة المسلمين في شهر رمضان السهر في ليليه بالتسليه وتقام فيها حفلات خيال الظل وغيره من المسارح^(١) . وكان المسحراتية يقومون بإيقاظ الناس لتناول طعام السحور . وكان لهؤلاء طائفة خاصة بهم وكان لكل حي مسحر خاص به ، ينقر على طبلته مكرراً بعض العبارات المتعارف عليها وينقرع الأبواب واحداً بعد آخر بالسقاطات أبو بالضرب على الباب بيده وينادي صاحب البيت باسمه^(٢) .

وفي شهر رمضان كان الصفاء الروحي يسود بين الدماشقة فيتخلقون بأداب رمضان الروحية ، وينصرفون إلى الازكار والطاعات ويتوافدون إلى المساجد والتكايا والزوايا ، والمسجد الكبير . ويتخلقون حول الأئمة والوعاظ يتفقهون في شؤون دينهم . ويلعب موظفو الدولة الدينيون دوراً في توجيه العامة لمحبة السلطان العثماني ، والدعاء له وشدة العامة إلى محبة الدولة العثمانية .

أما المخازن في أسواق دمشق فكانت تبقى مفتوحة خلال جزء كبير من الليل ، وتبقى بيوت القهوة والحمامات فاتحة أبوابها حتى قرب الفجر ، وكان اليهود والنصارى يشاركون المسلمين في هذا الصخب الليلي ، أما النساء فكن لا يتجولن في الشوارع أثناء الليل . وكان الناس يخرجون الصدقات والذكوات والتوسيع على الفقراء وتكثر الزيارات ويصفح القوم عما بينهم من خصوصيات وسيئات^(٣) . ولكن الظروف الاقتصادية السيئة في هذه الفترة أثرت على العديد من تلك المظاهر ، وانعكست إلى حد ما على تعامل الناس بشكل سلبي ، فكانت الأسعار ترتفع في هذا الشهر ، ويندر وجود المواد الغذائية . ويعيد البديري الحلاق أسباب ذلك إلى عدم تفتيش الحكام^(٤) . وفي الحقيقة لم يكن عدم التفتيش على الأسواق أو مراقبة الباعة هما السببان الرئيسان في ارتفاع الأسعار في شهر رمضان في هذه الفترة ، بل تعددت الأسباب وكان من أهمها : زيادة استهلاك السلع والمواد الغذائية في هذا الشهر ، وقلة

(١) دائرة المعارف الإسلامية . كلمة (رمضان) ، ص ١٧٦ الترجمة .

(٢) القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية ، ج ١ ، ص ٦٩ .

(٣) كرد علي ، محمد . خطط الشام ، ج ٦ . ص ٢٧٤ و ص ٢٧٥ .

(٤) حوادث دمشق اليومية . ص ٢٥ .

المعروض منها ، فتقل كميتها وترتفع أسعارها انطلاقاً من مبدأ (قانون العرض والطلب) ،
ناهيك عن عملية الإحتكار من قبل بعض التجار والباعة .

ويقول نعمان القساطلي : « إن معدل عدد الأغنام التي تذبح في دمشق كل يوم
٢٨٠ / رأساً ومقطوعية المدينة كل يوم من الحنطة ٢٣٠٠ كيلة ومن الشعير ٢٥٠٠
كيلة »^(١) في حين تتضاعف كمية الاستهلاك من هذه المواد عن المعدل العادي في شهر
رمضان فلا غرابة إذا ما ارتفعت أسعارها وقل وجودها في الأسواق .

ومن التقاليد التي اتبعت بمناسبة شهر رمضان في هذه الفترة ، قيام ولاية دمشق
العثمانيين بإيلاء الولائم من أول يوم إلى آخر يوم في هذا الشهر . ويخصون بولائهم الخاصة
والعلماء وأحياناً العامة ورجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية وغيرهم .

وكان رجال الدين على اختلاف فئاتهم يتوجهون إلى دار السيد نقيب أشراف دمشق
ليباركوا له بهذا الشهر ، فيولم لهم الولائم بهذه المناسبة . وبعد ذلك يقوم نقيب الأشراف بدوره
وبصحبه رجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية ، بزيارة الوالي ليباركوا له في هذا الشهر . ثم يقوم
المفتي والنقيب بزيارة العلماء ومشايخ الطرق الصوفية ورجالات الأحياء^(٢) .

وكان الأغنياء والخاصة من المسلمين يقيمون مواعيد الإفطار للعامة ، فيحضرها عدد من
أبناء دمشق ، ويشترك الدمشقيون في ولائم جماعية ، بحيث يحضر كل واحد منهم ماعنده من
المآكل ، ليفطروا سوياً في بيت أحدهم^(٣) .

وكانت الاحتفالات تبلغ ذروتها في الليالي العشر الأخيرة من رمضان ، ويبرز ذلك جلياً
لدى طائفة المسحرين خاصة في ليلة السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر) ، حيث
كانوا يجتمعون في مقهى السروجية^(٤) في الشاغور ، أو في مقهى النجارين الغربية في نفس

(١) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص ١٣٠ .

(٢) كيال ، منير . رمضان وتقاليد الدمشقية . ص ١١٥ .

(٣) ابن بدران ، عبد القادر . منادمة الأطلال ومسامرة الخيال . ص ٥٥ .

(٤) يقع هذا المقهى مقابل مسجد الشيخ أحمد السروجي الذي يطلق عليه اسم (بطاح الجمل) وللسروجي
مكانة روحية لدى أهل الحي المذكور . حيث تقدم له النور (كالشموع) وزيت الإنارة انظر : كيال ،
منير . رمضان وتقاليد . ص ١١٩ .

الحى المذكور، ويستثنى من هذا الاجتماع مسحرو حى الصالحية والشيخ محى الدين، ويتصدر اجتماعهم شيخ الكار والنقيب والشواش، ويجلس المسحرون من حولهم وتنصب أمامهم مائدة مضاءة بالشموع تمثل مسحري دمشق. ويدخل كل مسحر بيده طبله وفانوس وسلة. وبعد أن يباركهم شيخ الكار ويشيد بعملهم، يبدأ الجميع بإنشاد المدائح النبوية، ويرافق ذلك نقراتهم على طبلاهم، أو نقرات الدفوف والصنوج، ويتساجلون بالمدائح النبوية^(١).

وكان شهر رمضان ينتهى بعيد الفطر الذى يستمر لمدة ثلاثة أيام، فيعلن العيد بإطلاق المدافع بعد إثباته بظهور هلال شوال، وتبقى معظم الحوانيت مقفلة خلال الأيام الثلاثة من العيد، وتنصب على أبواب المدينة الألعاب المختلفة، وتتلأ الأكشاك باللعب والفواكه فى العراء. ويقوم الرقاصون والمصارعون والمشعوذون بألعابهم بأجور معينة، ويعرض بعضهم الضباع والأفاعى والموادج المحملة على الجمال المزينة.. يرافق ذلك الأهازيج.

وكان الأطفال يرتدون ثيابهم الجديدة كاملة، من الطربوش إلى البابو، ويتراكمون لتقبيل الأيدي ويمدون أيديهم لتلقى العيدية، فإذا ما حصلوا على مبتغاهم انطلقوا إلى حيث يصرفون أموالهم من شراء المأكول وقضاء فترة التسلية^(٢).

وكانت المدينة ترتدى حلة قشبية من الأنوار فى مآذنها ومساجدها وطرقاتها، وتفرد بسطات الباعة فى كل مكان، يدللون على بضاعتهم بما يرغب من العبارات لترويجها، فتتحول الأسواق والساحات إلى بحر متلاطم من البشر.

أما النساء فى البيوت فكن ينهضن لتهيئة المضافة، والسلاملك، ويمدون الأسمطة من الحلوى ويوقدن الفحم فى المناقل، ويرقدن القهوة الساذجة ويعددن طعام العيد، وكان الرجال يتوافدون إلى المساجد مكبرين مهللين، فتهدر الأصوات حتى إذا ماتمت صلاة العيد، صعد الخطيب إلى المنبر يحدث القوم فى أمور دينهم ودنياهم، ويحذرهم من مغبة ترك الأولاد على سجيته فى المأكول والتجوال.. مطالباً إياهم الاستمرار فى خلق رمضان وروحه. فإذا ما انتهى

(١) القاسمى، محمد سعيد. المصدر السابق. ج ١، ص ٦٨.

(٢) كيال، منير. رمضان وتقاليدته الدمشقية. ص ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٤.

الخطيب تلاقت الأكف وشدت على بعضها مهنئة مباركة . ثم ينطلق القوم إلى المقابر لزيارة موتاهم مصطحبين معهم أغصان الآس والزهور لتزيين شواهد القبور . فترتدي القبور حلة خضراء ، وتلى الفاتحة على أرواح الموتي كما تتلى آيات من القرآن . ثم يعودون لاستقبال المهنيين بالعيد^(١) . وكانت العادة المتبعة في دمشق أن يقوم المسحرون بالمرور على البيوت لأخذ العيدية ، وما أن تأتي ليلة الثاني من شوال (الليلة اليتيمة) حتى يأوي الناس إلى مضاجعهم باكراً نتيجة للارهاق الذي أصابهم بإحيائهم ليالي رمضان . ولهذا تكثر سرقات اللصوص منستفيدين من استغراق الناس في نومهم^(٢) .

أما الاحتفال بيوم عرفة ، وهو من أهم أيام ذي الحجة وفيه كان الدمشقيون يخرجون بعد صلاة الظهر من يوم عرفة إلى المساجد ، ويقف بهم أئمتهم كاشفي الرؤوس داعين خاضعين ملتزمين البركة متوخين الساعة التي يقفون في عرفة ، ويبقون على هذه الحالة حتى غروب الشمس ، فينفرون كما ينفر الحجاج باكين إلى ما حرموه من ذلك الموقف الشريف في عرفات ، داعين الله أن يوصلهم إليها^(٣) .

آ - تقاليد دمشق في عاشوراء

كان مسلمون دمشق يتذكرون فاجعة كربلاء بحزن عميق ، وكان ذلك الجرح يُقضى سدواً في العاشر من شهر محرم وكان ذلك يبرز أكثر ما يبرز لدى الشيعة في دمشق ، حيث كانوا يتجمعون في اليوم الأول من شهر محرم في أحد دورهم ، ويقوم أحدهم بقص تفاصيل الفاجعة على الجميع ، ويبدأ البكاء والنحيب والعويل ، فيضربون كفا على كف ، ومنهم من يضرب رأسه وصدره قائلاً (آه ليتنا كنا معهم) ، وتتجلى سحابة حزن عميق على الجميع . وفي العاشر من محرم كانوا ينظمون موكباً هائلاً ينتظم فيه كافة الشيعة في دمشق وأرجائها ، ويسير موكبهم متجهاً إلى قبر السيدة زينب (في راوية) ، ويكون في المقدمة الرجال الأقوياء وبأيديهم العصي والحرايب القصيرة ، وفي وسطهم تابوت مجلل بالبياض إشارة إلى تابوت شهداء عاشوراء ، وخلفهم يسير الشيوخ والنساء ويرتفع صوت البكاء والصراخ ، ويضربون

(١) المرجع السابق . ص ١٣٣ .

(٢) العلاف ، أحمد حلمي . ص ٧١ و ٧٢ و ص ٧٣ .

(٣) انظر : ابن بدران . منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، ص ٥٦ .

رؤوسهم وأجسامهم إلى أن يصلوا إلى قبر السيدة زينب ، وهناك تقام بعض مراسم الأدعية والصلوات ويبقى بعضهم ثلاث ليال ، ومنهم من يعود بعد إقامة المراسم إلى دورهم .

وكان المسلمون يصومون في عاشوراء ، ويفطرون على طعام من الحبوب اتباعاً لسنة نبي الله نوح (عليه السلام) عند نزوله من سفينته بعد الطوفان . ويوزع هذا الطعام على الفقراء والجيران والأصحاب ، ويستعد بعضهم لاستقبال ذويهم العائدين من الحج . وكان لبعض المسلمين الدماشقة تقليد خاص في آخر يوم أربعاء من شهر صفر ، بأن يكتبوا آيات من القرآن على بطاقات صغيرة ويضعونها في ماء ويشربونه للتبرك به^(١) .

ب - الاحتفال بالمولد النبوي

كان المسلمون قبل حلول الثاني عشر من ربيع الأول بأيام ، يقيمون معالم الزينة وينصبون أغصان الشجر ويلقون بها القناديل وأنواع المفروشات الفاخرة في كافة الأسواق والأحياء ، ويعين كل حي ليلة لقراءة المولد باسم المحلة ، ويدعى أبناء الحي وبعض وجوه الأحياء الأخرى . وتجري مختلف الألعاب بالسيف والترس والحكم^(٢) وغيرها من الألعاب ، وتوزع صفائح الحلوى على المستمعين ، فيأكلون أو يوزع عليهم الملبس وهكذا في سائر الأسواق والأحياء والبيوت والمدارس ، أما السلطات العثمانية فكانت حفلة المولد النبوي الشريف نهراً في المسجد الأموي^(٣) .

ج - مراسم المدارس في الأعياد

يقوم تلاميذ المدارس بتظاهرات قبل حلول الأعياد الدينية بثلاثة أيام ، فيطوف بهم

(١) العلاف ، أحمد حلمي ، ص ٧٥ .

(٢) لعبة الحكم : هي عبارة عن طارتين من الجلد محشوتين قطناً وصوفاً ، لها وجه الترس وخلفها ممسك من جنسها ، تمسك باليد اليسرى ، وتكون في اليمين خيزرانة أو قضيب سفرجل فيحمل كل منهما على الآخر ويتقي (بالحكم) من أن تصيب جسمه الضربات الموجهة إليه . فإذا انتهى اللعب انتقل إلى التمرن على السيف والترس . ثم على القوس والتبل ويسمونه (القوس والنشاب) . انظر : العلاف . المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .

(٣) العلاف ، أحمد حلمي ، أيضاً ، ص ٦٤ .

شيخهم أو شيختهم (الخجا) بنظام الزكا (اثنين اثنين) يسرون خلف بعضهم ، يتقدمهم أحد الأطفال واضعاً على رأسه كرسي التلاوة وعلى الكرسي المصحف الشريف محلاً بالمحمل الأخضر . وعلى جانبي الطفل زميلان أو أكثر خلف بعضهم ويبد كل منهم ورقة طويلة ملتفة على بعضها بطول متر أو أقل أو أكثر ، فيفردوها قليلاً قليلاً لقراءة ما فيها ويلف القسم الذي انتهى من قراءته أثناء ذلك . وأما محتويات هذه الأوراق فهي عبارة عن أناشيد مختلفة مكتوبة بخط الشيخ على القاعدة النسخية باللون الأسود ، ومنقطة بالأحمر ومخاطة بخطوط خضراء ، وبين كل سطر وآخر نقطة مستديرة بماء الذهب ، وفي مطلع الورقة عنوان لها بخطوط ماء الذهب أيضاً . وعندما يصل الشيخ أمام مدرسته يأمرهم المبادرة بالانشاد ، فيبدأ حملة الأوراق بأناشيدهم منفردين ويردد أقوالهم بقية الطلبة ومن ذلك قولهم :

يارينا يارينا إغفر لنا ذنوبنا
وكفر عنا سيئاتنا نحن وكل المسلمين

فيردد الجميع هذه العبارات ومن ذلك أيضاً :

يارينا بالبقرة وبالرجال العشرة
تجعل أموري ميسرة أنا وكل المسلمين

فيرددونها أيضاً ثم :

يارينا بآل عمران وبالنبي العذنان
نحفظنا بسر القرآن أنا وكل المسلمين
رينا بالمائدة وبالرجال القاعدة
تجعل أموري نافذة أنا وكل المسلمين

وهكذا إلى أن يصلوا إلى أقرب دار من دور الأولاد ، حيث يعلم ذلك ذورهم فيعدون لهم المقاعد في صحن الدار ليسجلوا عليها ، وعندما يفتح لهم باب الدار يدخلها الطلاب ويقولون :

سلام سلام ، سلام سلام سلام عليكم فردوا السلام

ويكررها الجميع ثم يطوفون في باحة البيت دورة أو دورتين على هذا النحو ، ويجلسون والشيخ سائر إلى جانبهم ليجلس على متكأ خاص معد له من قبل ولي الطالب . وبعد استراحة بضع دقائق توزع عليهم قطع الحلوى والدراهم على حسب سعة ولي الطالب . ثم يمد الشيخ يده بالصحفة ليتناول قرشين أو ثلاثة باسم عيدية وقبل خروجهم من الدار ينهض الطالب ابن صاحب الدار ويقول كلمات علمه إياها شيخه هكذا :

أنت ياوالدي نعم الوالد شفيق رفيق مسعد
عسى نراك في الجنات قاعد في فردوس ونعيم خالد

ثم يلتفت إلى جهة أمه ويقول :

وأنت ياأمي فنعم الوالدة شفيقة رفيقة مساعدة
عسى نراك في الجنات قاعدة مع زينب ومريم وفاطمة

على أن كل معاني هذه العبارات الموجهة إلى أبويه تتضمن معاني الدعاء عليها بالموت السريع كما ترى ، في حين أن الشيخ يقصد من تعليمها للطفل بأنه سيكون بعدهما نعم الطفل يذكرهما بخير في حياتهما وبعد موتهما ، وغر عاق بهما بل وفياً كل الوفاء . ويخرجون من الدار إلى بقية دور الطلاب على النحو المذكور . وبعد أن يزوروا ويجوبوا الأسواق بقصد الدعاية للشيخ ومدرسته يعودون إلى مدرستهم فيوجه الشيخ إليهم العبارة الآتية (يا أولاد اسمعوا ، الذي منكم أعطاني أبوه عيدية فهو مسموح له من الآن أن يذهب إلى داره إلى مابعد العيد وأما الذي لم يعطني أبوه العيدية فسيبقى يداوم على المدرسة كل يوم حتى يأتي بالعيدية) وقد يستعين بالخيزرانة أحياناً على جوانب الطفل لو على رجله ليذهب باكياً إلى أبيه ويأتيه بالعيدية .

٥ - مراسم الختام

كانت العادة لدى مسلمي دمشق ، في زمان شيخ الطالب للقرآن ، تبشير والده ، واختار موسم الأعياد لذلك . فيجلس الطالب الخاتم القرآن في المدرسة أمام الشيخ ويقرأ مبادئ سورة البقرة حتى يحصل إلى آية : « حَسْبُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ هُمْ أَغْنَىٰ عَنْ دِينٍ وَعَالَمِينَ » ، فيقوم أحد الطلاب من زملائه

فيصفعه على قفاه ، ويلتقط طربوشه ويمضي جرياً إلى أبيه فيسلمه إياه مقابل (حلوان) ، ثم يعود إليه فيلبسه طربوشه ، ويخرج الطلاب بالصورة المذكورة في موسم الأعياد بين الأناشيد والصياح إلى دار الطالب الخاتم فقط ، ويتناولون طعام الغداء والحلوى ، ويهتفون بإتمام معرفته لقراءة المصحف . ويتناول الشيخ الحلوان ويذهب الطالب ليمارس صنعة أبيه ويساعده على مضى الحياة إذا كان فقيراً ، وإن كان غنياً أو متوسط الحال يستمر في دراسته^(١) .

هـ — مراسم الختان

وهي من العمليات التي كان يهتم بها الدمشقيون وكانت تلك العملية تجري للطفل بين الرابعة والثانية عشر من عمره ، ويطلق عليها اسم (الطهور) ، وهي لدى المسلمين واليهود ، ويقوم الوالدان بدعوة الأقارب والأصحاب إلى يوم معلوم لحضور حفلة الختان ، ويهيئون الأطعمة ومختلف السكاكر والحلوى للمدعوين . ويمد الأقارب يد المساعدة بكثير من القمح والسمن والأرز والسكر . ومنهم من يقدم الخرفان أو نوعاً من المصاغ والجواهر ، ويرسلون ذلك قبل حلول اليوم المحدد إلى دار الوالدين ، وذلك على سبيل المعاونة فيحفظ الوالدان ذلك لهم وينتظران فرصة أو مناسبة عند أحدهم ليقوما بواجبهما مقابلة المثل بالمثل . وفي اليوم المعين يتقاطر المدعوون إلى دار الوالدين ، وإذا لم تكن دارهما على استعداد لاستيعاب المدعوين ، فإنهما يستعيران دار الأقرباء أو الجيران^(٢) .

وإذا أراد الوالدان إقامة نشيدة بمناسبة ختان إبنهما ، فيجمع أبناء الكتاب ويكون الجميع لابسين أحسن ثيابهم ، ويلبس الطفل المراد ختنه الأثواب المقصبة والمزركشة ، ويزين بأصناف الحلوى فتصطف الأولاد مثنى مثنى (بنظام الزكا) وهو بينهم ، وأمامه المجرى لباساً ثوباً أحمر يصيح بصوت جهوري : سعيد من يصلي على النبي ، قلب العامر يصلي على النبي . ويده مغمرة فيها أنواع العود والبخور ، والأولاد ينشدون بأصوات عالية أناشيد الكتاتيب ، ويدورون بغالب أسواق البلد ، ويعودون لدار صاحب النشيدة ، حيث يكون قد شياً لهم الطعام وبعده يفرق عليهم جميعاً الدراهم^(٣) .

(١) العلاف ، أحمد حامي ، ص ٦٠ و ٦١ و ص ٦٢ .

(٢) انظر : العلاف ، أحمد حامي ، ص ٦٢ و ص ٦٤ .

(٣) القاسمي ، محمد سعيد ، المصدر السابق ، ص ٢ ، ص ٤١٨ . كتاب أورث أليكس راسل صورة الاعتنان . ص ١١١ .

أما عملية الختان فكان الحلاقون يقومون بها ، ويوضع الولد بين يدي الحلاق ، ويحاول مد يده إلى الطفل مموهاً بأنه يريد أن يأخذ قياس طول ألبسته ، ليأتي له بلباس فاخر ، وبذلك يحصل التعارف بين الطفل والحلاق ، ويبعد بذلك الرهبة والخوف عن الطفل . ثم يتقدم الحلاق ثانية من الطفل ويكلف أحد الحاضرين وعلى مسمع من الطفل قائلاً : خذ لي قياس قدمه من الخلف حتى لا أخطيء بالحذاء المقصّب الجميل ، هذا والولد بدون سرواله . فيأتي الرجل ويمسك قدمه من الخلف ، ويضمه إلى صدره قابضاً على يدي الطفل من الأمام ، وهنا يسرع الحاضرون بالصياح والتصفيق والصلوات بصخب وضجيج ، حتى لا ينتبه الطفل إلى يدي الحلاق (المزين) حيث يخرج مروداً من الحديد دقيقاً وموسى ماضية ، وبسرعة البرق يدخل المرود في حمامة (الفلفة) الطفل بين الجلد والتمرّة ، ويعكفها إلى الخلف ، ثم يقوم بقطع القلفة . ويضمدها باللصوق والأدوية ، ويتعهده الحلاق حتى يشفى . وله إكرام على ذلك كل شخص على حسبه .

وكان من عادات الختان في دمشق أن ينذر الوالدان لابنهما نذوراً غريبة ، فمثلاً : إذا ما كبر وتم ختانه ، أن يقيموا له نوبة وهي حفلة يدعون إليها بعض الفقراء والمشعوذين ممن

حلب ولم تكن عاداتهم في ذلك لتختلف عما كانت عليه في دمشق في هذه الفترة . فكانت العادة أن يلبس الولد المراد إجراء الختان له ثياباً جديدة ، وعوضاً عن الشملة تزيّن بالأزهار والأشرطة وبعض الجواهر والحلي ، ويركب على ظهر حصان يزين بدوره أيضاً ، ويدار به في شوارع المدينة في عراضة ، وتصدح الموسيقى في موكبه ويقوم بعض الرجال الذين يرافقون موكبه ، باللعب بالسيوف المعقوفة والتروس ، ومن خلفهم تطلق قريبات الولد من النسوة الزغاريد بين الفينة والأخرى لإثارة الحماس وخلق البهجة . ويقوم الرجال بإطلاق التراويد . وقد يخرج أكثر من ولد من يراد ختانهم على ظهور الأحصنة فيزداد الموكب روعة وجمالاً . RUSSELL, op.cit. VOL.1 ولقد أورد أحمد حلمي العلاف صورة لطريقة الختان ومراسمه في دمشق في نهاية القرن التاسع عشر لا تختلف عما كانت عليه في حلب فيقول : « كان بعض الدماشقة يحتفلون بمناسبة الختان كأن يضعوا الخناء والنقوش بالشمع المغلي الملون على الأكف والأصابع والقدمين وإذا كان الطفل طالباً بإحدى المكاتب القرآنية زينوه بأفخر الملابس ووضعوا على رأسه إكليلاً من الزهور فوق الطربوش ومشيياً به على غرار سعيهم عند حلول الأعياد . وذلك على ظهر دابة مجلاة بالدياج يطوفون به في الأسواق في عراضة حتى يصلوا به إلى داره ويرافقه أهله وأقاربه وأصدقائهم وتقام حفلات الأغاني والرقص ويقون كذلك إلى شفاء جرح الختون وهذه الحفلات تعد بأهميتها في الدرجة الثانية بعد الأعراس » انظر : دمشق في مطلع القرن العشرين . ص ٧٨ .

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٤٣٥ و ص ٤٣٦ . ثم العلاف . المصدر السابق . ص ٧٦ و ص ٧٧ .

يضرِبون على الطار والطبل ، ويلعبون الشيش أو بقطع من السلاح الأبيض ، ويطفئون بافواههم النيران فيجتمع عليهم الأطفال وبعض صغار الأحلام^(١) . إلى غير ذلك من الطرق والتقاليد .

أما أفراد الهيئة الحاكمة فكانوا يحتفلون بختان أولادهم بطريقة يبرزون فيها علو مكانتهم الاجتماعية ، ويحاولون فيها كسب ود الخاصة والعامة على حد سواء . فيدعون إليها جمعاً غفيراً منهم ، وينحون الذبائح لضيوفهم ويولون الولائم ويزعون الدراهم على الفقراء والمحتاجين ، ويختنون عدداً كبيراً من أبناء الشعب على حسابهم . ونسوق مثلاً على ذلك ماتم إبان ختان أحمد بك ابن والي دمشق سليمان باشا العظم سنة ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م حيث قام الوالي المذكور « بجمع حشد كبير من طبقات الشعب المختلفة في الجنية التي في محلة العمارة ، وجمع فيها سائر الملاعب وأرباب الغناء واليهود والنصارى ، واجتمع فيه من الأعيان والأكابر من الأفندية والأغوات ما لا يحصى ، وأطلق الحرية لأجل الملاعب يلعبون بما شاؤوا ، من رقص وخلعة وغير ذلك ، ولا زالوا على هذا الحال سبعة أيام بلياليها ، ومن ذلك امر بالزينة فترينت أسواق الشام كلها سبعة أيام بإيقاد الشموع والقناديل زينة ماسمع مثلها ، وعمل موكب ركب فيه الأغوات والشرجية والأكابر والانكشارية ، وفيه الملاعب الغريبة من تمثيل شجعان العرب وغير ذلك ، وتاني يوم طهر ولده أحمد بك وأقر من صدقاته أنه يطهر من أولاد الفقراء وغيرهم ممن أراد . فصارت الناس تقبل بأولادهم وكلما طهروا ولدا يعطوه بدلة وذهبين ، وأنعم على الخاص والعام والفقراء والمساكين ، بأطعمة وأكسية وغير ذلك »^(٢) .

و - دور الطرق الصوفية في الاحتفالات الدينية

شاركت الطرق الصوفية مجتمع دمشق احتفالاته الدينية ، وحتى المدنية منها . وكان لكل طريقة أسلوبها الخاص ومظهرها المتميز . في شهر رمضان كان التغالبة يقرعون الطبول ويهللون^(٣) وكانت الطريقة السعدية تقيم الدوسة^(٤) في رمضان وغيره من المناسبات الدينية

(١) انظر: كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ . ص ٢٧٥ .

(٢) البديري . حوادث دمشق اليومية ، ص ٣٨ و ص ٣٩ .

(٣) انظر: البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، ص ٢٣ و ص ٨٣ و ص ٩٠ و ص ٩١ و ص ٩٢ و ص ١٨٧ .

(٤) احتفال كان يقيمه رجال الطريقة السعدية في مولد النبي وبعض الأولياء . فكان بعض رجالها ينبطحون أرضاً

والمدينة ، كالمولد النبوي أو عندما تشع السماء ، أن تصاب دمشق بجائحة الطاعون وغيرها . وكانت الطرق الصوفية تشارك رجال الدين في الصلوات في الجوامع والمساجد ، ويرافق ذلك البكاء والنحيب والتضرع إلى الله برفع البلاء عن دمشق^(١) .

وكانت تلك الطرق تقيم حفلات دينية في تكاياها أو زواياها ويرتدي أتباعها أزياء خاصة أثناء ذلك ، فمثلاً دراويش المولوية كانوا يرتدون زياً أبيض فضفاضاً وعلى رؤوسهم (كلالة) أو كلاه . أما شيخهم فيضع على رأسه عمامة خضراء وكانوا يدورون حول أنفسهم على نغمات الموسيقى وحفلاتهم أتقن الحفلات الدينية على الإطلاق وهي بالحفلات المدنية أليق منها بالدينية^(٢) .

وكانت بعض هذه الطرق تقيم حفلات الأذكار في ليالي الأعياد الدينية كافة ، وكان المريدون والمقدمون وشيوخ الطرق يجتمعون في كل ليلة إثنين أو جمعة في أحد المساجد عقب صلاة المغرب أو عقب صلاة العشاء ليقوموا بالأذكار . أما إذا كان اجتماعهم في دار عادية أو في زاويتهم الخاصة بهم فيهللون ويكبرون قياماً وركوعاً وقعوداً ، وهم يذكرون الله تعالى أثناء ذلك . وينشد بعض ذوي الأصوات الجميلة أناشيد الزهاد أو أناشيد شيوخهم بصورة تتناسب مع أصوات التهليل ، ثم ينتهي ذلك بالدعاء لكافة المسلمين والصالح لأولياء الأمور ويتلون ماتيسر من آيات الله لأرواح المسلمين .

وقامت الطرق الصوفية بتنظيم مواكب زيارات خاصة إلى أضرحة الزهاد والأولياء في دمشق في أيام معينة من السنة . وكان يطلق عليها اسم السيرة . وكانت مواكبهم في غاية الترتيب والخشوع ، حيث يسير المريدون على شكل صفوف مؤلفة من خمسة أو أكثر يلبسون طواقي ملونة بحسب الطريقة فمنها الأخضر والأحمر والبني ، وعليهم أردية من نفس اللون غالباً ، ويذكرون الله تعالى أثناء مسيرهم جهرًا . ثم يأتي خلفهم حملة المظاهر يقرعونها بلطف وبينهم يسير حامل اللواء الكبير وله أطراف تنتهي بقطع من المرس يمسك بأطرافها

على وجوههم ثم يسير شيخ الطريقة فوقهم ممتطياً جواده يقوده اثنان من أتباعه فيدوسهم واحداً بعد آخر ولا يصناب أحد بضر . انظر : دائرة المعارف الإسلامية (مادة الدوسة) المجلد ٩ . ص ٣١٧ و ص ٣١٨ .

(١) البديري الحلاق ، المصدر السابق . ص ٩١ و ص ٩٢ .

(٢) كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ ، ص ٢٧٦ .

بعض المريدين يتوزعون على مسافة منه وحوله ليساعدوا حامله كي لا يقع إذا ماسفه الريح . ثم يأتي بعدهم حامل الطبل الكبير (الخليلية) وهي عبارة عن صفحتين من النحاس يضرب بهما حاملهما بإيقاع ينسجم مع ضربات الطبل . ويأتي خلفهما شيخ الطريقة الحالي (ابن الوقت) راكباً على فرس ولابساً عمامة شيوخه الأوائل . ويحيط به جماعة من المريدين يحملون أعلاماً صغيرة كتب عليها بعض الآيات القرآنية . ويأتي بعده طبقة المريدين من الشبان يحملون نقارات صغيرة يضربون عليها ، ويأتي بعدهم المريدون المتبقون ، وينطلق هذا الموكب من زاوية الطريقة الصوفية الخاصة بها إلى الضريح المراد زيارته وتنشد الأفواه بالذكر تهليلاً وتكبيراً^(١) .

وكانت كل طريقة تتجه إلى أحد الأضرحة فمنها من يذهب إلى ضريح الشيخ رسلان ظاهر دمشق من ناحية الشرق ، أو إلى مقام الولي العارف بالله السروجي في حي الشاغور ، أو إلى ضريح الزغبى في الصالحية أو إلى ضريح الشيخ محي الدين بن عربي .

وكانت هذه السيارات عبارة عن تمارين لهذه الطرق حيث تسير مجموعة بعد ذلك إلى قرية برزة حيث كهف مقام ابراهيم الخليل . وكان يطلب من كل شيخ طريقة هناك أن يدخل الكهف مع فرسه ، وفي ذلك مجاذفة ولم يقدم على ذلك إلا من تأكد من طهارة جسمه وسريته ، لضيق الكهف ، إذ قد يؤدي ذلك بحياته ، وإذا لم يستطع الشيخ الدخول فيسبب له حرجاً . أمام مريديه ومريدي الطرق الأخرى . وكان الشيوخ يتعاقبون على الدخول بأفراسهم ولم يكن ليتجاوز عدد من يقحمون أنفسهم بهذه المخاطرة أكثر من أربعة أو خمسة من جميع شيوخ الطرق . كان يطلق على هذا المهرجان الكبير اسم (موسم جمعة برزة) أو موسم (خميس المشايخ)^(٢) . ثم بعد ذلك كانت تعود المواكب إلى زواياها التي انطلقت منها جموعهم ومنها إلى بيوتهم .

ز — الاحتفالات بتوديع واستقبال قافلة الحج الشامي

وتعتبر مراسم الاحتفال بها أطول المراسم الدينية والمدنية ، وأكثرها روعة ، كما أن عدد

(١) كرد علي ، محمد خطط الشام . ج ٦ ، ص ١٣٠ .

(٢) العلاف . أحمد حلمي . المصدر السابق ، ص ١٢ و ص ١٣٠ و ص ١٣١ و ص ١٣٢ و ص ١٣٣ .

المشاركين فيها يزيد على مائتهم من المشاركين في الاحتفالات الأخرى التي كانت تقام في دمشق لسبب أو لآخر، وشملت تلك المراسم مواكب عديدة منها: موكب الشموع والزيت، ثم موكب المحمل والصنجدق وموكب القافلة نفسها.

أ - موكب الزيت والشموع

أقيم هذا الموكب في السابع من شوال من كل عام، وكان هذا الاحتفال خاصاً بموكب الزيت والشموع التي سترسل من دمشق إلى الحرم النبوي الشريف مع القافلة. فكان الزيت يؤتى به من قرية كفر سوسية في ضروف مزخرفة تحملها جمال مزينة أيضاً، ويسير في مقدمتها بريق أخضر بشراشيب حمراء داكنة ويكتب على تلك البيارق بعض العبارات الدينية، وتتقدم الجمال جوقة موسيقية. وينطلق هذا الموكب من قرية كفر سوسية إلى دمشق. أما تلك الجوقة الموسيقية فكانت مكونة من أربعين، ٤٠ شخصاً، منهم عثمانيون رجال، ينفخون في آلات موسيقية (Brass) وتسعة آخرون ينفخون في آلات موسيقية تشبه الباي (Flutes) واثنان منهم يضربان على طبلين على طبلينهما وآخرون يضربون بالصنوج النحاسية. وكان يشارك في هذا الموكب عدد من أهالي كفر سوسية بألعابهم ورويدهم، ومنهم من يلعب بالسيف والعصى حتى يصل الموكب إلى باب السريحة بالقرب من ضريح الصحابي زيد بن ثابت، حيث يتجه الموكب إلى سوق باب الجابية فسوق الدرويشية فباب السرايا فمركز الكلاز في منطقة السنجدار حيث يوضع الزيت إلى جانب أدوات الحج الأخرى.

وكانت الشموع تصنع في دار أحد ذوات دمشق لينال من وراء ذلك البركة. وكانت تصنع بمقاييس مختلفة وعند انتهاء صناعتها يؤتى بها في موكب خاص محمولة على أيدي مجموعة من الرجال، إما محضونة من قبلهم أو موضوعة بشباك خاصة ويحمل كل شبكة رجلان. وتلف تلك الشموع قبل حملها بشال من الكشمير الفاخر وترافق موكبها الموسيقى السلطانية، ويسير خلفها مؤذنو الجامع الأموي وجمع غفير من الأشراف والذوات والعامة. ويرأس المؤذنين رئيس مؤذني الجامع الأموي حيث يعتمر بقلنسوة سوداء ويسير وراءه سبعة رجال يحملون المباخر إحداها مصنوعة من الفضة وأما المباخر الأخريات فهي من الفضة إلا أنها مطلية بالذهب، إلى أن يصل الموكب إلى الكلاز رخصة حيث توضع تلك الشموع في

أكياس خاصة بها^(١). وكان هذان الموكبان يسبقان ماعد هما من مواكب الحج، كالمحمل والصنجد والقافلة نفسها.

٢ - موكب المحمل والصنجد^(٢)

كان موكبهما يبدأ في دمشق في الثامن من شوال. ولقد اعتبرتهما الحركة الوهابية من البدع التي دُخِلَ على الإسلام. وعندما سيطر الوهابيون على الأماكن المقدسة في أوائل القرن التاسع عشر، منعوا من دخول الأماكن المقدسة وتسبب ذلك في منع القافلة كلها كما حصل في سنة ١٨٠٧م^(٣).

أما طريقة الاحتفال بهما في دمشق، فكانت تتم بوضع المحمل على جمل مخصص له، ويرفع الصنجد على سارية خاصة به، بعد إخراجهما مع من الكلار خانة، الموجود بالقرب من جامع السنجددار. ويتقدم على الصنجد جمل المحمل المبارك، ويكونان مزينين بالزينة المصنوعة من خيوط الذهب الخالص. ويرفع الصنجد عن أيدي حامله وإلى جانبه الأيمن مجموعة من الجنود، ويحمل دعاماته الذهبية رجالان وترافقه عشرة أعلام أحدها أبيض واثنان

1 - See: Burton Isabel, op.cit. PP.46-47.

ثم: عربي كاتبي، محمد عز الدين. الروضة البهية في فضائل دمشق الحميد، ص ٣٠.

(٢) المحمل: هيكل مغطى بقماش مخملي أخضر، كتب عليه بالقصب آيات من القرآن، يحمله جمل مزين بأقمشة مزركشة وجلود جميلة خيطة عليه أصداف صغيرة ومرايا. يرافق أمير الحج من دمشق إلى الأماكن المقدسة في الحجاز. واعتبر شعاراً للسلطان العثماني ورمزاً لسيادته على الحرمين الشريفين.

أما الصنجد: فهو علم النبي العربي (ص) كان يحمل على جمل ويمسك بهذا الجمل موظف خاص يلبس هنداماً خاصاً مزركشاً. وتقول إيزابيل بورتون: إنه ستارة خيمة عائشة أم المؤمنين. أو عمامة صهيب الرومي. وأنه انتقل إلى يد الأمويين ومنهم إلى العباسيين في بغداد، ثم انتقل إلى القاهرة على يد الفاطميين، وأعيد إلى دمشق على يد السلطان سليم الأول بعد القضاء على دولة المماليك. ونقل إلى استانبول بواسطة الصدر الأعظم سنان باشا ووضع تحت حماية كزلار آغاسي في غرفة خاصة من الباب العالي أطلق عليها اسم «خرقة شريف أودة سي» ولم يسمح إلا لقلة من المسلمين بلمسه نظراً لقدسيتها. وكان الدمشقيون يحترمون هذين الجملين ويتمسحون بهما تبركاً ويخرج موكبهما من دمشق إلى الحج في السادس عشر من شوال. انظر: العظيم، خالد مذكراته. ج ١ ص ١١. ثم جان، سوفاجة. دمشق لمحة تاريخية. ص ٤٤. ثم ابن كنان المصدر السابق، ص ١٧٩.

ثم Burton. op.cit. PP.48,49,45.

3 - See: Koury, George. «province of Damascus». PP.125-126.

أخضران وبقية الأعلام بلون أحمر . أما أحجامها فمختلفة ، فالأربعة الأولى منها بأحجام صغيرة ومثبتة على البنادق في حين أن الستة الأخرى متدرجة في أحجامها وتسير خلف بعضها ، الأصغر في المقدمة ويليه الكبير فالأكبر وهكذا . ويصادف إخراجهما انتهاء صلاة الظهر في جامع السنجدار . ويُحمل مع الصنجدق غلافه الأخضر المرسل من استانبول للحفاظ عليه وصيانتة .

وكانت مجموعة من المؤذنين يتقدمون هذا الموكب ويحملون المباخر في أيديهم . وخلف الصنجدق والحمل المحمولين يأتي الجرجية في أزيائهم القشبية وبأسلحتهم المذهبة ، ويأتي ، من بعدهم ، السكبانية والأرناؤوطية (الجنود الخاصة) ثم الينكجerie والسباهية والزعماء وعسكر القلعة وأعوانهم وأكابر الدولة وقاضي الحمل بعمامته وباش دفتردار وآغا القايي قول بعمامته وكاتب الينكجerie بعمامته ثم تأتي التخت (جمع تختروان) المزينة بالأطالس ومعهم عامة الحج الشريف أجواقاً أجواقاً ثم أمير الحج . وعندما يبدأ الموكب بالمسير ، تطلق المدفعية نيرانها ابتهاجاً بهذه المناسبة ، ويردد المؤذنون والمصلون العبارات الدينية ثلاث مرات ، وكان دراويش الطرق الصوفية يشاركون في هذا الموكب بأسمائهم البالية والمرقعة ، وعلى رؤوسهم قبعات يحيطها فراء ، ويعلو تلك القبعات شعار طريقته المختلفة بين طريقة وأخرى .

ويتحرك الموكب من السنجدار ، إلى السنانية ، فمرقص السودان ، فطريق الشاغور ، فباب كيسان ، فباب شرقي ، فسيدنا يلال ، فبرج الروس ، فالسادات ، فالعمارة ، وينعطف الموكب بعد ذلك إلى السرايا ، وأمام بابها الظاهري (الكبير) تقدم الضيافات من سائر الألوان . ويوضع الصنجدق في السرايا ^(١) وينفض الموكب . وكانت الشوارع والأسطحة تغص بالمتفرجين من الجنسين بالأعمار المختلفة وكانت النساء تشاهدن هذا الموكب من خلال مصبغات شبايك بيوتهن المطلة على هذه الشوارع . أو في الشوارع نفسها التي يمر منها الموكب .

ومن جهة أخرى كان الصنجدق يخرج من مكانه بمناسبة تنصيب سلطان جديد في استانبول ، فتسير العراضات وتزين دمشق ، ويتقدم تلك المواكب الصنجدق الشريف . وكانت

(١) ابن كنان . المواكب الإسلامية ، ص ١٧٨ و ص ١٧٩ . مخطوطة في الظاهرية تحت رقم ٢٦ . ثم انظر :

Burton.I. op.cit. PP.48-49.

السلطات العثمانية تصر على ذلك لتعطي منصب السلطان صفة دينية ولتشدد العامة إلى السلطان العثماني .

٣ — موكب قافلة الحج

كان خروجها ما بين ١٥ — ١٧ شوال من كل عام^(١) حيث تنطلق في الساعة التاسعة والنصف صباحاً . وكانت تضم حجاجاً من جنسيات وقوميات مختلفة سواء عثمانية أو غيرها . وكان حجاج أوربة وآسيا يعدون بالآلاف بين رجل وامرأة^(٢) ، وكان من الحجاج ، العرب والفرس والأكراد والتركمان والهنود واليزبك والجرجانيون والشركس والألبان والبشناق والأفغان ، وبعض أبناء جنوب شرق آسيا الذين يأتون براً ، وغيرهم من مسلمي القوميات الأخرى .

ولأهمية قافلة الحج عينت الدولة أميراً عليها والي دمشق في هذه الفترة وأعفته من جميع الالتزامات تجاه الدولة العثمانية ، شأن بقية ولاية بلاد الشام ، مقابل تأمين القافلة وسلامتها .

إلا أن عدد الحجاج قد تناقص في أواخر القرن الثامن عشر ، وتوقفت القافلة نهائياً ما بين عامي ١٨٠٧ — ١٨١٤م / ١٢٢١ — ١٢٢٨هـ ، لسيطرة الوهابيين على مكة والمدينة^(٣) . ثم عادت القافلة من جديد إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج وذلك بعد استعادة الأماكن المقدسة منهم .

وبدخول إبراهيم باشا المصري إلى دمشق ١٨٣١م ، توقفت قافلة الحج لفترة من

-
- (١) انظر : البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، المقدمة ، ص ٥١ . تحقيق أحمد عزت عبد الكريم .
- (٢) حدد تريس (TRESS) وقت مبارحة أمين الصرة للعاصمة العثمانية في ٢٥ رجب ووقت وصوله إلى دمشق من ٢٠ — ٢٥ رمضان في القرن الثامن عشر ويذكر تريس أن عدد المشتركين في قافلة الحج الشامي ٤٠ ألفاً ثم تتناقص العدد في القرن التاسع عشر . وفي تقدير الرجال بوركهارت ١٨١٤م بلغ عدد الحجاج ٥ / ٥ آلاف وفي عام ١٨٣٤م ٤٥٠٠ وفي عام ١٨٥٣م ٧ / ٧ آلاف حسب تقدير إيزابيل بورتن . نقلاً عن مقدمة أحمد عزت عبد الكريم ، لحوادث دمشق اليومية ، للبديري الحلاق ، ص ٥١ .
- (٣) يقول حسن آغا العبد : « أنا كنت صحبة الحج ، توجهت صحبة الوزير ، وأنا أرفأ أمينني وحجينا ، وكانت وقتنا يوم الجمعة ، واجتمع حضرة الوزير مع محمد علي باشا وزير مصر ، ومراده يروح إلى الوهابي إلى بلدة الدرعية ، وجمع عساكر كثيرة ، وفي اثنين وعشرين ذي الحجة ، كان قيام الوزير والحاج من مكة إلى نحو الشام ، ووصل الحج والوزير إلى دمشق سالمين » . انظر : تاريخ حسن آغا العبد . ص ١٥٦ و ١٥٧ .

الزمن، ثم عادت لتستأنف سيرها إلى مكة المكرمة. ولقد انشغلت دمشق على المستويين الرسمي والشعبي بقافلة الحج، من حيث اعدادها واستعراضها وتوديعها، وفي بعض الأحيان إمدادها بما تحتاجه أثناء العودة. ويبدو أن موكب قافلة الحج سار على وتيرة واحدة تقريباً إلى هذه الفترة. وحسبنا أن نسوق وصفاً له ماأوردته إيزابيل بورتن للقافلة التي شاهدت موكبها في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث تقول: «تخرج أولاً الصناديق المقفلة بإحكام، والمربوطة بقماش الخام، والمختومة بخاتم الوالي الخاص، وتعقبها أربعة طبول وخلفها ثلاثون فارساً مكلفين بحراسة هذه الصناديق التي بها (عفش أمير الحج والقافلة) وتأتي بعدهم هدايا الحكومة العثمانية للمدينتين المقدستين»^(١)، محروسة بجنود غير نظاميين، حلوا محل الجنود النظاميين، يؤلفون أربع كتائب، كل كتيبة منهم مكونة من ١١٣ رجل ويرأسها قائد. ولهذه الكتائب قائد عام برتبة (مباشي)، فيمضي هؤلاء ليلتهم في مسجد القدم خارج بوابة الله أو (مصر قبوسي) أي باب مصر في الضاحية الجنوبية. وتعقب كتائب الفرسان تلك، جمال تحمل عش أمير الحج، مزينة شكل جميل، عليها أوسمة بشكل مرايا، تتدلى منها بخيوط معدنية للزينة. ثم تعقب العش محفات السفر، وفي آخرها جملان تتدلى عن جانبي كل منهما (محارتان) على شكل أسرة الأطفال الهزاة أو على شكل سلال كبيرة، تستخدم للسفر والنوم، مغطاة بمظلات صغيرة، كل واحدة منها على شكل النجمة، لونها أزرق وضعت للوقاية من لفح أشعة الشمس، ويرتفع فوقها علم مثلث الشكل، مثبت على رأس رمح.

وكانت تسير بين الجمال خيالة (فرسان) من الرجال وبعض النساء اللواتي كن يرتدين الأزار ويعلو وجه الواحدة منهن نقاب (حجاب)، وهن على صهوات الجياد مفعمات بالنشاط والحيوية، كل واحدة منهن منفرجة الساقين شأن الرجال فوق تلك الصهوات.

ويمر بعد ذلك أفراد الفرقة الموسيقية يملأهم الاعتزاز وهم يعزفون على آلاتهم المختلفة،

(١) خصص في عهد السلطان محمد شليبي العثماني ٤ آلاف ذهب لتوزع على فقراء الحجاز: كما خصص بعد ذلك السلطان سليم الأول بعد احتلاله لبلاد الشام سنة ١٥١٦م، لكل شيخ من شيوخ عشائر الحجاز، ولكل بلوي ذهبية.. ولكل شريف من الأشراف خمسمائة ذهبية، وخصص ٥ آلاف ذهبية لفقراء مكة المكرمة، وألفي ذهبية لفقراء المدينة المنورة، وقمحا وأرزاقاً تقدر قيمتها بمائتي ألف ذهبية توزع على الفقراء والبدو. انظر: النمر، إحسان. تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ج ١. ص ١ ص ٦٣ و ٦٤ و ص ٦٥.

المكونة من النايات والأبواق والصنوج والباغودة من النحاس ، وتتدلى منها أجراس صغيرة تصدح بالحنان حزينة فتثير في نفس السامع الحزن والكآبة أكثر مما تثيره من حماس . ثم تعقب هذه الفرقة فرقة الطبول الصغيرة لتأتي بعدها عربة الوالي ويأتي خلفها الموكب الرئيس للقافلة . وعلى رأسه صفان من الضابطية يقودهم أحد البكوات أو قائمقام . ثم تأتي من بعدهم مجموعة من الفرسان يبلغ عددهم مائتي رجل بأزيائهم الحمراء القرمزية ، ويتكون زني الرجل منهم من سترة صغيرة وينطال واسع وعلى رأسهم العمرات ويتسلحون بالبنادق الصغيرة (القربينات) ، وبعد ذلك تمر المدفعية ممثلة بمدفعين من النحاس على عربتين خضراوين ، وسدنتهما يسيرون على الأقدام ، حيث يكون في انتظارهم بقية سرية المدفعية المرافقة لقافلة الحج خارج بوابة الله . يلي المدفعين تختروان فارغ خاص بأمر الحج مزين بالذهب ... نحمل على عضادتين مزخرفتين بنقوش مختلفة ، وبه نوافذ عليها زجاج شاف لا يحجب الرؤية عن من داخله ، وعلى نوافذه ستائر خاصة ، وفرشت أرضيته بالفرش المناسب وفوق الفرش سجاد ، وزود في مقدمته بقنديل للاضاءة ليلاً . ويحمل التختروان بغلان أحدهما في مقدمته والآخر من خلف الأول . وهذان البغلان مسرجان بسرجين أحمرين مزركشين يهدل عن ظهرهما قماش أحمر مطرز بجداول وصفائر صفراء .

ويأتي خلف التختروان العلماء المحليون على صهوات جيادهم بأزيائهم الخاصة المميزة بياقات ستراتهم العريضة والموشاة بالذهب ، وتطوق طرايشهم الحمراء لفات شاش مختلفة ، أما معاطفهم فكانت قرنفلية اللون مطرزة وموشاة بدورها بأشكال جميلة للغاية . ويأتي في مقدمتهم الملا أفندي (قاضي القضاة) بعمامته البيضاء المزينة بشريط ذهبي وخلفه نائبه الخفي ثم نوابه الآخرون بأزيائهم الرسمية ، ويأتي بعدهم رجال الدين مع طلابهم الذين يرتدون تريانات (عمائم) مختلفة في أحجامها واتساعها وألوانها . للدلالة على وظائف أصحابها .

ويلي هذا الموكب المحمل الشريف ثم الصنوج فأمر الحج ويعقبه رتلان من حرسه الخاص والمكون بدوره من عدد من الرجال الأشداء ، ومن ورائهم جنود يقرعون على طبولهم . ويأتي بعدهم مايقرب من مائة رجل من البدو الشجعان القادمين من جوار بغداد وحماه والسخنة أو أماكن أخرى من البادية ، يركبون الهجن (الجمال السريعة) يتمايلون على ظهورها بقربيناتهم ، وتتدلى من جماهم شرايات طويلة . وتنطلق من الجمال رائحة قوية . أما ثيابهم فرثة ويقودون الهجن بعيدان من خشب اللوز أو مايسمى واحدها (بالمشعب) وكان بعضهم

يحمل سيفاً عربياً أو بارودة ذات سبطانة طويلة، تزينها شرابات خاصة، تتدلى منها، وبها نطاق من الجلد يطلق عليه نطاق الحج^(١). وتسير خلفهم جمال تحمل صناديق تحوي حقائب الحجاج وبضائعهم. ومن خلال هذا الوصف لموكب القافلة يمكن أن نلاحظ مدى الاهتمام الذي أولته الدولة العثمانية للقافلة في فترة التنظيمات لما لها من أهمية دينية وسياسية بالنسبة لها. ويمكن ملاحظة الفرق بمقارنة ذلك بما كان عليه وضع القافلة وموكبها في القرن السابع عشر^(٢).

وكان أبناء دمشق يتزاحمون على أبواب المدينة للولوج إلى داخلها في هذه المناسبة. وهم في أبهى حللهم القشبية وألوان أنبائهم الزاهية. فتمر الشخصيات البارزة وهي تمتطي صهوات جيادها بسروجها المذهبة والبعض الآخر على الحمير البيضاء، وترى بعضهم يقف متكاسلا ليدخن في غليونه أو يحتسي القهوة، والنساء يقفن أمام المخازن على المصاطب النافرة

1 - Burton.I. op.cit,PP.54-55

(٢) يمكن أخذ مثال على ذلك وصف موكب قافلة الحج في دمشق في ٢٩ ك الثاني ١٦٩٧ كما ورد في كتاب توماس رايت حيث يقول: «كان أمير الحج لهذا العام والي طرابلس سنان باشا. ولضمان سلامتنا كأوربيين ودرء شر المتعصيين، استأجرنا حانوتاً في أحد الأسواق يمر من أمامه موكب القافلة.. فمر أولاً من أمامنا موكب فرسان مكون من ٤٦ دلي، يحمل كل واحد منهم بيده علماً من الحرير الأحمر والأخضر أو من الأصفر والأخضر، وجاء بعدهم ثلاث مجموعات من السكبان يقودهم رجل تركي. ثم جاء بعض جند السباهية بقيادة واحد منهم، فبأن سرايا من المغاربة (الذين كانوا يسمون بالأتراك البرابرة) سيراً على الأقدام، فمجموعة من الرجال المكلفين بحماية قلاع الحج والذين يدلون كل عام بغيرهم من الجنود. وفي وسط المغاربة مرت ست مجموعات محلية سيراً على أقدامها وهي من جنود حامية قلعة دمشق، بستراتهم المدرعة، يحملون بأيديهم تروسهم الواقية، ثم قطعاً أخرى عليها دروع قديمة، ثم قطعتان من فرسان الانكشارية يرأسهما الآغا، ومر بعدهما طوغا الباشا يحملهما آغا القصر، ومن ورائه ستة عناصر تقود خيولاً مسرجة بشكل ممتاز وأنيق، وفوق كل بردعة حصان حزام متين لقيادته، وعلى كل بردعة ترس فضي كبير مطلي بالذهب. ثم جاء بعد هذه الخيول الحمل، الذي هو عبارة عن سراق (خيمة كبيرة أو فسطاط) من الحرير الأسود منصوبة على ظهر جمل ضخمة للغاية، تتدلى شراشيه من حوله حتى تصل إلى الأرض وتزين قمته كرة ذهبية، تتدلى منها أيضاً شراشيب ذهبية. وكان جمل الحمل مزيناً بها لا حصر له من الزينات، كالمرايا والصدف وذبول الثعالب وأقمشة الزينة المختلفة، تتدلى على رقبته وفخذه وإبطيه وظهره، وكان هذا الحمل يرسل سنوياً لتغطية ضريح النبي محمد (ص) في المدينة من قبل السلطان (Griat signoy) ليحل محل القديم الذي تصطحبه القافلة أثناء عودتها إلى دمشق. ويأتي بعد الحمل الباشا وحراسه وخلفهم عشرون جملاً محملاً، ومن خلفها تأتي بقية القافلة. وكان مرور الموكب يستغرق أربعين دقيقة تقريباً.

See: early travels in palestine. PP.489-490.

أمامها، والأطفال على أسطح المنازل والمحلات. فكنت لا ترى بوصة واحدة مربعة إلا مشغولة بالنساء المتلفعات بالأزر الزرقاء والبيضاء، وبعضهن يحملن أطفالهن.

وكانت تلك المناسبة ممتعة للجميع إلى الدرجة القصوى، فكنت ترى في هذا الزحام الفرس والتركمان عليهم عمائمهم وعباءاتهم الخاصة الفضفاضة المصنوعة من جلد الخواريق. أما الهنود والأفغان فيرتدون ستراتهم السوداء وعماماتهم الكبيرة البيضاء، والمغاربة بيرنسهم الوطني أبيض اللون وبأعداد كبيرة، والسمرقنديون والبخاريون الذين يمتازون بوجوههم المنبسطة وأنوفهم الفطساء وعيونهم الضيقة ونظراتهم الخالية من التعبير والشعر الباهت. أو الأصفر كالروس والقفقاسيين مسترسل اللحي ويعتمرون بعمامات ضخمة لالون لها. أو بقلنسوات فرائية خشنة، مطوقة بشاش مدرب. أما الجنود الأتراك فيرتدون زياً مزركشاً على شكل جنود الزواوة (الجزائريين)، والحجاج الفرس باللباد ويلحي أرجوانية أو مخضبة بالحناء، ويرتدي بعضهم جلود الحملان وتبدو على وجوههم مظاهر رسوخ العقيدة، ويتلفعون بسترات صوفية طويلة من الشال أو ماشابه ذلك. أو بثياب فضفاضة وبها نقاط خضراء محبوكة بشكل جيد^(١).

أما الطرق الصوفية فكانت كل واحدة منها تشارك في هذا الموكب بأسلوبها الخاص، فيقوم الدراويش بعمل عقدات (أنشوطات) على شكل وردة النساء مع قيامهم بالإنشاد والتراتيل الدينية كآيات من القرآن الكريم. وتراهم مسترسل الشعر الطويل واللحي تصل بطولها حتى منتصف الصدر، ويضعون على رؤوسهم قلنسوات من اللباد. وترى على كتفي شيخ الطريقة جلد نمر أو غزال وتتدلى من عنقه سبحة خشبية الحبات أو مصنوعة من الخرز طويلة وضخمة تصل في طولها إلى حزامه أو وسطه، أو يحمل بيديه فرعاً يابساً من محار البحر يطلق عليه اسم كجكول (Kajkul)، أو وعاء من التلك، وتقوم النساء بوضع قطع نقدية صغيرة أو قطع من الخبز فيه^(٢). في حين كان دراويش المولوية مع شيخهم يختفلون بهذه المناسبة بطريقتهم الخاصة التي تتصف بدورانهم بانتظام وعلى رؤوسهم قلنسواتهم المخروطية الشكل المصنوعة من قماش الدراب ذي اللون (الأسمر الفاتح أو من اللباد)^(٣).

١ - See: Burton, Label, op.cit, PP. 50

٢ - Ibid P. 50.

٣ - Ibid, P. 57.

واستغل هذه المناسبة بعض الكسبة لسع الحلوى وحبوب البقول المسلوقة والمخللات (الكوامخ) كاللفت والشوندر أو الخبز المحفف والشرابات وغيرها. وينادون على سلعهم بكلمات وأصوات مختلفة مع قرع بعض الضحون المعدنية الداعة على بعضها كبائعي السوس. حيث يحمل الواحد منهم وعاء السوس على ظهره ويفتح صنبوره بيده اليمنى عند الحاجة ليملاً الكأس ويقدمها لربونه. وهناك بائعو الكعك والبرازا والمأكولات المختلفة، ولكل واحد منهم بداؤه الخاص الذي يختلف عن صاحبه لاستيعاب انتباه الجمهور إلى سلعته^(١).

٤ - استقبال قافلة الحج

كان استقبال القافلة، كتوديعها، مرهوناً بالظرف الأمتية والسياسية والاقتصادية العامة والمحلية التي أحاطت ببلاء السام الحجاز في هذه الفترة، والتي أثرت على عدد الحجاج المشاركين بالقافلة. لهذا نرى أن حجم القافلة وطريقة توديعها واستقبالها، مرّ في مراحل متباينة، بدءاً من السبعينات في القرن الثامن عشر فبعد عزل أسعد باشا العظم وتعيين حسين باشا مكّي بديلاً عنه هاجم بنوصخر القافلة في سنة ١١٧١ هـ / ١٧٥٨ م^(٢) ونهب الحمل الشريف والعينجق، وقتل عدد من الحجاج، ونهب ما بحوزتهم وتشنت شملهم، وشيبت الحاجات من النساء وانتهكت أعراضهن وعزل حسين باشا مكّي عن ولاية الشام كما قتل أسعد باشا العظم لاثامه بتحريض البدو على ذلك، وعين عبد الله باشا الجته جي وكلف بالقضاء على البدو في طريق القافلة، وطلب إليه وضع قوات البرية كحاميات في قلاع الحج. ولكن مع ذلك، تناقص عدد الحجاج^(٣)، رغم أنه قادها بأمان ودخل في معركة مع البدو وانتصر عليهم^(٤).

واستطاع خلفه عثمان باشا الكرجي أن يؤمن قافلة الحج ما بين عامي ١١٧٤ - ١١٨٥ هـ / ١٧٦٠ - ١٧٧١ م، بفضل ماعمره من قلاع ووضعه الحاميات فيها^(٥). وعندما جاء محمد بك أبو الذهب ليحتل دمشق، تأثر وضع القافلة وتناقص عدد

1 - Ibid. P.57.

(٢) البديري. ص ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢٠٨.

(٣) رافق، عبد الكريم. بلاد الشام ومصر، ص ٣٥٦.

(٤) البديري. ص ٢٢١.

(٥) رافق. بلاد الشام، ص ٣٥٩ و ٣٦٠.

المشارية فيها وفي عهد أحمد باشا الجزار الذي عين ولياً على ولايتي صيدا ودمشق أكثر من مرة، استطاع هذا بما لديه من قوة، بما استخدمه من بطش، أن يؤمن قافلة الحج حتى رفاته (٤١٨٠ م / ١١٩٠ هـ)، رغم تعرض بلاد الشام في عهده لهجوم نابليون بونابرت واشغاله في صده، واستطاع خلفه سليمان باشا الحزاري، تأمين قافلة الحج غم ما فرضه الوهابيون على القافلة من سوء، ومع ذلك كانت القافلة ناجحة ووقفت وفي عهد والي دمشق ابراهيم قطر اغاغا كانت قافلة الحج من القوافل الكرى^(١).

إلا أن احوال القافلة قد ساءت بآ من ١٨٠٦ م / ١٢٠١ هـ، حين قام الوهابيون بقيادة سعود بن عبد العزيز بالسيطرة على المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) وفرضوا شروطاً مهينة على أمر الحج عبد الله باشا العظم، مما اضطره للعودة دون أداء مناسك الحج. ويعلق حسن آغا العد نفوله «جمع عبد الله باشا الأعظم أكابر الحج واستشارهم فشاروا عليه بأن يرجع من غير حج. جمع هو والحجاج سوى»^(٢).

واستطاع الوهابيون أن يحكموا قبضتهم على الحجاز، فتوقفت تلك قافلة الحج نهائياً إلى سنة ١٨١١ م / ١٢١٥ هـ، مما دفع بالدولة العثمانية بعد عجز ولايتي دمشق وبغداد عن التصدي لهم، لتكليف محمد علي باشا والي مصر للقضاء على الوهابيين، فاستطاع أن يستعيد المدينتين المقدستين من الوهابيين في سنة ١٨١٣ هـ / ١٢٢٧ - ١٢٢٨ هـ. واستأنفت القافلة سيرها من جديد إلى الديار المقدسة. إلا أن قافلة حج عام ١٨١٤ م / ١٢٢٩ هـ أصيبت بطاعون قضى على الكثيرين من الحجاج ولكن بعد هذا التاريخ زاد عدد الحجاج. ففي سنة ١٨٢٤ م / ١٢٣٩ - ١٢٤٠ هـ وصل عددهم إلى ٢٠٠٠٠ حاج، والتحق بهم ٢٥٠٠ / حاج من بغداد في مزيرب^(٣). وأصيبت القافلة بنكسة أخرى في فترة الاضطرابات التي أصابت دمشق في عهد واليها محمد سليم باشا، ثم توقفت في سنة ١٨٣١ م / ١٢٤٦ - ١٢٤٧ هـ عندما دخلت قوات ابراهيم باشا المصري إلى دمشق حيث قام بإعفاء أهل دمشق من ضريبة المير، لهذا العام فحرمت القافلة من تمثيلها^(٤).

1- Koury. province of Damascus. P.114.

(٢) العبد. تاريخه. ص ١٣٢.

(٣) مجهول مذكرات تاريخية. ص ٤٩. حرصا، لبنان.

4 - Koury op cit PP.174-175

وعندما عينت الدولة أميراً للحج ووالياً على دمشق علوش باشا « حضر بعسكر زهيد وموكب مختلف عن حال من هو وزير نظيره وذلك خوفاً واحتساباً ، واجتهد في تدبير سفر الحج فتعسر الأمر وماراح الحاج بهذه السنة لعدم وجود السلامة^(١) . وبعدما سيطر ابراهيم باشا على كامل بلاد الشام استأنفت القافلة رحلاتها لأداء مناسك الحج ، إلا أن عددها تناقص بسبب ظروف الحرب بين المصريين والعثمانيين ، إلى أن انسحبت القوات المصرية من بلاد الشام في سنة ١٨٤٠م فقامت الدولة العثمانية بتنظيمها مرة أخرى .

أما ما يخص استقبال القافلة في دمشق في الحالات العادية فكان يجري على الشكل التالي : يدخل الجوقدار مابين الرابع والعشرين والسابع والعشرين من شهر محرم ليشر بسلامة القافلة^(٢) ، فيخرج الناس لملاقاة ذويهم الحجاج إلى خان ذنون والبعض الآخر إلى أبعد من ذلك . فإذا كان الوقت ليلاً ينادون على الحجاج يافلان « باسمهم من أجل التعرف على أقربائهم بين هذا الحشد الكبير من الحجاج^(٣) ، ثم يرافقونهم إلى دمشق حيث تكون شوارعها غاصة بالناس على امتداد أميال وبحشد كبير من المتفرجين ، وكنت ترى من القلق بادياً على الوجوه حتى يطمئنوا على عودة الأقرباء والأصدقاء . والجميع ينظرون إلى الحجاج نظرة الاحترام والتبجيل ، لما عانوا وتجشموا من المصاعب والمخاطر في طريقهم لأداء مناسك الحج . وكنت ترى الحجاج من هو سائر على قدميه أو راكب حماراً أو جملاً أو حصاناً أو في محفات (تختروان) أو محارات على جانبي الراحلة .

وفي السادس من شهر صفر يدخل المحمل الشريف ، يرافقه « موكب من الكواخي والبشاوات ويرافقه غالباً والي صيدا أو طرابلس ثم أمير الحج الشامي^(٤) » ويدخل أمام أمير القافلة / ٣٠٠ / دالي (خيال) ، على صهوات جيادهم مسلحين بأسلحة فردية متنوعة ثم عدد من الرجال على ظهور الجمال ، وهم مسلحون بالقربينات (بنادق قصيرة) يضعونها أمامهم مثبتة على قاعدة دواة ، ثم يدخل بعد ذلك كبار ضباط المدينة مرتبين على نسق

(١) انظر: الدمشقي، ميخائيل. تاريخ حوادث الشام ولبنان. سنة ١١٩٢ - ١٢٥٧هـ / ١٧٨٢م - ١٨٤١م تحقيق سبانو.

(٢) البديري: المصدر السابق. ص ١٧٩ و ص ١٨٣ و ص ١٨٨.

(٣) انظر: الخياري، ابراهيم. تحفة الأدباء وسلوة الغرباء. ج ١. ص ٨٥ و ص ٨٦ - بغداد ١٩٦٩م.

(٤) الخياري أيضاً. ص ١٨٨.

جيد . وبأزيائهم الخاصة المزركشة ، ويسير خلفهم عدد من الانكشارية التابعين لوالي طرابلس بقبعاتهم الجيدة ويتسليحهم الكامل ، حيث يسير وراءهم الباشا نفسه مع ضباطه وبقية حرسه الخاص . ثم يعقبهم عدد من الرجال المسلحين بالقربينات وعددهم ٣٠ رجلاً وخلفهم ١٥٠ رجلاً من الألبانيين في زهم الخاص المتميز ، يسرون بتنظيم اثنين اثنين ، ثم يعقبهم الصنجدق الشريف ، وهو من الحرير الأخضر ، وعليه بعض الآيات القرآنية ، بخيوط من ذهب ، تحميه عناصر من المشاة المغاربة الأقوياء ثم تعقبهم أطواخ الباشا الثلاثة ، وهي من شعر الخيل الأبيض يحملها عدد من الرجال على ظهور اثني عشر حصاناً ، سروجها مفرطة في زركشتها وزينتها ، ويحمل كل واحد منهم ترساً فضياً وسيفاً مقوساً ذا حد وحيد . ثم ستة رجال يقودون جمالاً بحللهم القشبية . ويعقب هؤلاء عدد من أعيان دمشق ، منهم آغا القايقول في قلعة دمشق ، ومن ورائه المحصل وأخيراً الباشا نفسه الذي يرتدي رداءً من القماش الأخضر ، مزيناً بفراء الثعلب الأسود ، ثم خلفه حرسه الخاص المكون من ٤٠٠ مسلح على ظهور جيادهم ، يسرون على نسق دقيق . ومن بعدهم ١٠٠ جمل تحمل خيام وحاجيات السفر . كل ذلك والموكب يمر بدون جلبة أو ضوضاء ، والدماشقة واقفون للفرجة لساعات طويلة^(١) .

أما الحجاج الغرباء فكانوا يتابعون مسيرهم باتجاه أوطانهم والبعض الآخر يبقى في دمشق لعدة أيام ثم يتابع طريقه باتجاه الوطن . ويستعد الحجاج الدماشقة لاستقبال المهثين من الأقرباء والأصدقاء ، ويتبادلون الهدايا ، كل حسب مقدرة المادية ، بهذه المناسبة .

ولم يكن استقبال الحجاج في دمشق بالضرورة على هذا النسق في كل عام فقد لعبت الظروف الأمنية التي أحاطت بطريق القافلة وداخل دمشق دوراً في ذلك^(٢) . ففي هذه الفترة

1 - See: Browne.W. «travels in Africa Egypte and Syria». PP.395-396.and : Barker, Edward, Syria and Egypte under the Last five Sultans of Turkey. VOL.1.PP.156-158.

(٢) ولم يكن موكب استقبال الحجاج في دمشق بالضرورة على هذا النسق فقد لعبت الظروف الأمنية التي أحاطت بطريق القافلة دوراً في ذلك . وحسبنا أن نسوق مثلاً على ذلك ما حصل للقافلة في سنة ١١٧١هـ / ١٧٥٨م حيث قام البدو بمهاجمتها ، ويقول البديري أنه جاءت الأنباء في سابع عشر صفر من نفس العام إلى الشام « بأن الحج قد شلحه العرب ونهبوه والعرب سلبت الرجال والنساء أموالهم وحوائجهم فضجت العالم وتباكت الخلق وأظلمت الشام وبلغ الناس بأنه جاء إلى المتسلم مئة مكاتب أن يخرج إلى

تجمعت ظروف عدة انعكست على استقبال القافلة بشكل سلبي ، فمنها عزل الولاة وهم في طريقهم إلى دمشق^(١) . أو منعت القافلة من أداء مناسك الحج : فعادت من حيث أتت قبل دخولها الأماكن المقدسة بفعل سيطرة الوهابيين عليها ، وتهديداتهم لدمشق نفسها . أو هوجمت من البدو في طريق عودتها فشتوا شمل الحجاج بعد نهب ما بحوزتهم ، ناهيك عن مهاجمة دمشق نفسها من قبل قوات خارجية كقوات أبي الذهب أو تهديدها بالهجوم بقوات نابليون بونابرت التي وصلت طلائعها إلى جبل طابور^(٢) . ثم هجوم قوات إبراهيم باشا المصري على دمشق واحتلالها وزحفها شمالاً ، مما جعل الطرقات غير آمنة ، بفعل الصدام بين قواته وقوات السلطان . وقد أدى ذلك كله إلى خلق جو من الاضطراب وفقدان للأمن أثر بدوره أيما تأثير على القافلة ككل ، من حيث توديعها واستقبالها . ودام الحال إلى خروج إبراهيم باشا المصري من سورية ، وهي نهاية فترة دراستنا ، حيث استعادت الدولة العثمانية تلك الممتلكات التي كانت مقسمة بينها وبين السلطات المصرية ، كما أعادت تنظيم قافلة .

ومن جهة أخرى فقد شاهدت دمشق مواكب كبرى ، كاستقبال خزانة مصر المرسلة إلى استانبول براً عن طريق دمشق . وصادف وصولها أحياناً وصول قافلة الحج الشامي^(٣) وعلى أيام متتالية . كما أقامت دمشق موكباً لاستقبال ماء السمرمر^(٤) ، وكانت العادة أن يخرج

الحاج نجدة فلم يظهرها فقامت العامة وهجموا على المتسلم في السرايا ورحموه بالأحجار... وفي يوم الخميس خامس وعشرين صفر الخير أقبلت انكشارية الشام من جهة الحج ومعهم حجاج مركبين كل اثنين أو ثلاثة على دابة وهم في آخر درجة العدم والمناهي معهم معه راية بيضاء ينادي هذه راية الانكشارية فضجت الناس بالبكاء والويل وأخبروا أن خلفهم خلق كثير من الحجاج ومعهم النساء والبنات مع الكثرة حفايا عرايا وبعد يؤمن أقبلت شرايحة الانكشارية من المزريب ومعهم المشطجي والقفطجي والجميع مشلحين وفي ذلك اليوم رجعت الانكشارية ومن بقي من الملاقية .. وفي يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الأول وصل خير إلى دمشق أن عمر المحاميد شيخ حوران وجد الحمل والصنجد عند العرب وقد أرضاهم حتى فكهما منهم وفي سادس وعشرين ربيع الأول وصل الحمل ودخل الشام وهو محمول على جمل وقد ستروه بثوبه الأخضر التحتاني ومعه محمد بشة السقباري وبعض فرسان دروز وبعض عربان ثم صارت الحجاج تأتي زمراً زمراً ثم جاءت البلطجية ومعهم قاضي المدينة وبعض النساء . انظر : البديري . ص ٢٠٦ و ص ٢٠٧ و ص ٢٠٨ و ص ٢٠٩ .

- (١) مجهول . حوادث الشام ولبنان ، ص ١٤ .
- (٢) العبد . تاريخه . ص ٨٦ .
- (٣) انظر : البديري . ص ١٧٨ .
- (٤) والسمرمر نوع من الطير كان الناس يعتقدون أنه يفتك بالجراد فكانوا يحرسون على الاتيان به إذا نزل الجراد

لملاقاته مشايخ وأهل الطرق الصوفية . الإعلام والمزاهر وطبول الباز ويدخلون بموكب عظيم ويكي خلق كثير ويقومون بتعليقه في مياه الشيخ الأكبر (الشيخ محي الدين) في الصالحية ومنازة تكية المرجة ومنازل الجامع الأموي وفي بعض الأماكن الأخرى^(١).

فمثلاً سنة ١٨١٦م / ١٢٣١هـ - ١٢١٢هـ عارت أسراب الجراد على بلاد الشام وأهلكت الزرع ، ويقول الأمير حيدر الشهابي : « أرسل الله السممر فقفس في أرض رادي التيم وغير أماكن ثم لحق الجراد بعد طيرانه فاخترق من جميع عربستان^(٢) وبقي الاهتمام بماء السممر إلى دخول إبراهيم باشا المصري حيث استخدم طرذاً حديثة في مكانة الجراد ، ودأب الاهتمام بتراجع بماء السممر منذ ذلك التاريخ إلى أن توقفت مراكبه نهائياً في دمشق .

أعياد أهل الدمة في دمشق

احتفل البصري من أهل الدمة في دمشق بأعيادهم الدينية الخاصة^(٣)، إلا أن

بأرضهم ولكنه في اعتقادهم لا يأتي إلا تابعا نوعاً خاصاً من الماء يجلب خصيصاً من عين بين أصمهان وشيراز فإذا برل الجراد بأرض ، جلب إليها من تلك العين ماء ، بحيث أن حامل الماء لا يضعه على الأرض ولا يلتفت وراءه ، فيبقى طير السممر على رأس حامل ذلك الماء كالسحابة السوداء إلى أن يصل الأرض التي بها الجراد ، ونفع الطيور عليه وتقتله . ومن شرطه أن يكون حامل الماء من أهل الصلاة ولا يمر به تحت سقف فإن فعل بطل مفعوله

انظر : المرادي ، سلك الدرر . ج ٣ . ص ٢١٤ و ص ٢١٥ . ثم الغزي . ج ٣ ص ٢٣٠ و ٢٦١ و ص ٢٦٤ .

(١) انظر : البديري . ص ٨١ .

(٢) ج ١٣ . من تاريخه ص ٦٣ .

(٣) كان لدى المسيحيين على اختلاف طوائفهم أعياد وأصوام وقطاعات . فلدى الطوائف الكاثوليكية عيد الميلاد ويصادف يوم الأحد الأول من كانون الثاني . ثم عيد الغطاس في ٦ كانون الثاني . ثم عيد دخول المسيح إلى أريحا في ٢ شباط . بعيد مار مارون لدى الموارنة في ٩ شباط . ثم عيد مار يوحنا مارون في ٢ آذار . وعيد الأعمش في ٩ آذار وعيد الشارة أو بشارة العذراء في ٢٥ آذار . وعيد الفصح في ١٦ نيسان . والقيامة في ١٧ نيسان . ثم عيد حنانه مار يوسف في ٧ أيار . وعيد خميس الجسد في ١٥ حزيران . وعيد قلب يسوع في ١ حزيران . وعيد مولد يوحنا المعمدان في ٢٤ حزيران . وعيد الرسولين بطرس وبولس في ٢٩ حزيران . وعيد مار توما الرسول عند الكلدان في ٣ تموز . ثم عيد القديسة حنة أم العذراء في ٢٦ تموز . وعيد المساكين في ١٠ تموز . وعيد إيليا النبي في ٢٠ تموز . ثم عيد القديسة حنة أم العذراء في ٢٦ تموز .

احتفالاتهم كانت على نطاق الحارات التي يقطنونها وضمن أديرتهم وبيعهم وكنائسهم ، سواء ما كان منها داخل دمشق أو في القرى المحيطة بها .

وكانت طريقة الاحتفال وزمنه يختلفان من طائفة إلى أخرى ، لأن كل واحدة منها تتبع تقوياً يختلف عن الأخرى . وأيضاً بحسب رأيها في قدسية العيد . ونتيجة لتلك الاختلافات كانت أعياد كل طائفة تتقدم أو تتأخر عن الطائفة الأخرى . وكان لكل طائفة قدسوها الذين تحتفل بأعياد ميلادهم أو ذكرى وفاتهم . ولن نرصد هنا إلا الأعياد الرئيسة الكبيرة والصغيرة لدى النصارى ، التي كانوا يحتفلون بها في دمشق في تلك الفترة .

فالأعياد الكبيرة هي : عيد البشارة الذي بشر فيه جبريل العذراء بمولد السيد المسيح عليه السلام ، ثم عيد الزيتونة أو الشعانين ومعناه التسبيح في ذكرى دخول السيد المسيح إلى القدس ثم دخوله الهيكل راكباً على اليعفور (الحمار) ، والناس بين يديه يسبحون ، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ثم العيد التالي وهو عيد الفصح ، وهو بمثابة العيد الكبير لدى المسلمين وهو يوم الفطر لديهم بعد صومهم الأكبر وتمثيل قيام السيد المسيح بعد صلبه ودخوله على تلامذته وتسليمه عليهم وأكله معهم وإقامته في الأرض أربعين يوماً . ثم العيد الرابع وهو خميس الأربعين حيث ترك تلامذته وصعد إلى السماء ثم العيد الخامس وهو عيد الخميس أو عيد العنصرة . ويعتقد النصارى أن روح القدس حلت في حواربي السيد المسيح . ثم عيد الميلاد ثم عيد الغطاس حيث قام يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) بتعميد السيد المسيح في مياه الأردن^(١) .

ثم عيد مولد السيدة في ٨ أيلول ثم عيد الصليب المقدس في ١٤ أيلول ثم عيد الملائكة الحراس في ٢ تشرين الثاني ثم عيد القديس ديمتريوس في ٢٦ تشرين الأول ثم عيد جميع القديسين في ١ تشرين الثاني ثم عيد تقديم العذراء للهيكل في ٢١ تشرين الثاني ثم عيد القديس يوحنا الدمشقي في ٤ كانون الأول ثم عيد ميلاد الرب حسب الجسد في ٢٥ كانون الأول الحبل بلا دنس في ٨ كانون الأول انظر : جريدة البشير ص ٣٥ ص ٣٦ ٣٧ عدد أيلول ١٩٣٢ م . بيروت . أما أعياد الروم الأرثوذكس فهي : عيد رأس السنة الشرقي في ١ كانون الثاني ثم عيد الغطاس في ٦ كانون الثاني ثم عيد دخول المسيح إلى الهيكل في ٢ شباط شرقي ثم عيد البشارة في ٢٥ آذار ثم عيد الفصح في ٣ شباط ثم عيد الصعود في ١٢ أيار شرقي وعيد العنصرة في ٢٢ أيار شرقي ثم عيد التجلي في ١٦ آب ثم عيد انتقال العذراء في ١٥ آب شرقي ثم عيد ميلاد العذراء في ٨ أيلول ثم عيد تقديم العذراء للهيكل في ٢١ تشرين الثاني ثم عيد الميلاد في ٢٥ كانون الأول شرقي .

انظر : جريدة البشير . ص ٣٩ . عدد أيلول ١٩٣٢ م .

(١) انظر : المقرئزي ، تقي الدين . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . ج ١ . ص ٢٦٤ و ص ٢٦٥ و ص ٢٦٩ .

أما الأعياد الصغيرة فهي : عيد الختان وهو خاص بالأقباط ، حيث يقومون ، دون غيرهم من النصارى ، بختان أبنائهم ، ثم عيد الأربعين وخميس العهد ، وحد الحدود . ثم عيد التجلي ثم عيد الصليب . وفي هذا العيد من كل عام كانت تجرى قرب دير صيدنايا اجتماعات وأفراح ، ويأتيها الناس من الأقاليم المجاورة وغيرها^(١) .

وكان للنصارى تقاليدهم الخاصة للاحتفال بهذه الأعياد . إلا أن ذلك كان يتم في أحيائهم الخاصة وفي بيعتهم^(٢) ، وبقي حالهم كذلك إلى أن احتل إبراهيم باشا المصري دمشق حيث ألغى القيود عن أهل الذمة ، فنالوا بعض حقوقهم التي حرموها في العهود السابقة ، وتغير حالهم في طريقة الاحتفالات .

أما الفئة الثانية من أهل الذمة فكانت طائفة اليهود ، التي لم يبق منها في دمشق سوى أتباع فرقتين هما : فرقة (الربانيين والسامرة) ، وكان لكل فرقة من هاتين الفرقتين كنسها ، وخصصت في كل بيت من بيوتهم حجرة كبيرة للعبادة ، وكانت كنسهم العامة عديدة ومنتشرة في أحيائهم ، وأشهرها كنيس سوق الجمعة^(٣) ثم كنيس جوبر وهو أقدمها^(٤) ، ولقد احتفلوا بأعيادهم ومناسباتهم الدينية على طريقتهم الخاصة . وقسمت المصادر الغربية أعيادهم إلى قسمين^(٥) : أعياد شرعية وأعياد محدثة .

(١) انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ . ص ٣٤ .

(٢) انظر : الدمشقي ، ميخائيل . حوادث الشام ولبنان ، ص ١٣ . تحقيق سبانو .

(٣) انظر : القساطلي ، نعمان . الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، ص ١٠٤ .

(٤) وفيه مغارة النبي إلياس (إيليا) أو الياهو ويذكر الرحالة اليهودي الراي يتاخيا الراتزبوني الذي قام برحلته ما بين ١١٧٠ — ١١٨٧ م وزار دمشق فيها أنه بقرب دمشق كنيس مشهور قديم بناه النبي الإشاع ويقصد بذلك كنيس جوبر انظر :

Adler . « Jewish Travelers. The travel of Rabbi Petachia of Ratislon 1701-1767, AD. P.90.

نقلا عن الفارس دارفيو . وصف دمشق في القرن السابع عشر ، ص ٩٢ . ترجمة أحمد إيش كما ذكر الرحالة اليهودي الراي موشيه باسولا (١٥٢١ — ١٥٢٢ م) ، أن سدة الكنيس أخبروه أنه قائم منذ أيام الإشاع ولقد بنى الكنيس بعد عام ٤٣ ٣٠ للخلقة / القرن التاسع قبل الميلاد / ومن ثم اتخذ اليهود حول الكنيس قرية سكنوها وهي جوبر ، ورغم قدم الكنيس فإن الكتب الحديثة لم تعرج على ذكره إلا نادراً ، وكان سكان جوبر يعدون في سنة ١٨٣٩ م ٦٠٠٠ نسمة وقد نهب قبل هذا التاريخ بفترة ، ولكنه لم يعز اليهود السطوالي الدولة ، لأنها كانت تعاملهم معاملة حسنة

See: Bowring Areport on the commercial statistics of Syria. P.7.

(٥) القلقشندي . صبح الأعشى / ج ٢ . ص ٤٢٦ و ص ٤٢٨ . والمقريري . الخطط . ج ٢ . ص ٤٧١

ويستمر حتى خامس آذار، حيث يتم احتفال صاحب . ويتسم الاحتفال به بمظاهر اللهو والخلاعة حتى أطلقت عليه المصادر العربية اسم المساخر أو المسخرة .

أما ثاني الأعياد المستحدثة فهو عيد (الحنكة أو الحانوكه) أي التنظيف ، ويستمر ثمانية أيام ، تبدأ من ليلة الخامس والعشرين من شهر كسلو أو كسليف ، ويقع في ١٣ كانون الأول . وترجع مناسبة هذا العيد إلى سنة ١٦٥ ق . م عندما حاول الملك اليوناني إرغام اليهود على عبادة الأصنام ، ولكن كاهنهم الأكبر قاد حركة مقاومة ضده ، وانتصر وانتزع من الهيكل الأوثان الإغريقية ، وزود الهيكل بمذبح جديد ، وفي هذا العيد يوقدون المصابيح على أبواب دورهم في كل ليلة حتى تتم ثمان ليال . وكان يحتفل بهذا العيد الريانيون دون غيرهم^(١) . ويتبادلون الهدايا بهذه المناسبة فيما بينهم .

ومن المواسم الدينية لديهم صوم السابع عشر من تموز وصوم التاسع من آب . أما يوم السبت لدى اليهود فهو مقدس ، وتقوم نساؤهم بإعداد البيت لهذا اليوم بدءاً من ظهر يوم الجمعة ، فكن يذهبن إلى الحمام ، ويقمن بإيقاد الفوانيس قبل بدء يوم السبت . ويقوم رجالهم بترك أعمالهم قبل الوقت المعتاد ويرتدون أجمل ما لديهم من الثياب ، ويعدون أنفسهم لأداء فرائض العبادة منذ الصباح ، وبعد الظهر يذهبون مع النساء إلى الكنيس للعبادة والصلاة . وبعد الصلاة يتبادلون الزيارات . وفي المساء كنت ترى رجالهم يتنزهون في الحدائق والجنائن ويجلسون على شرفات منازلهم . ويتوقفون في هذا اليوم عن أداء أي عمل ، وحتى طعامهم يكون معداً من اليوم السابق للسبت ، ويمتنعون عن إضرام أية نار ، وذلك انسجماً مع تقليد ديني قديم . ولا يسمح بتجاوز هذا التقليد إلا في حال وجود مريض في البيت ، تقتضي حالته تناول طعام خاص أو ساخن . وكانوا يستخدمون في بيوتهم خادومات من البدو أو المسيحيات . وفي يوم السبت كنت تشاهد نساء بدويات يتكسبن في أحياء اليهود بتقديم نار لنارجيلاتهم وينادين في أحيائهم (نار ، نار) ونادراً ما كانوا يقومون بزيارة المرضى منهم في هذا اليوم ، ما لم يكن من الأقوياء المقربين وحتى نساءهم كن يفعلن فعلهم^(٢) .

(١) انظر : قاسم ، قاسم ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

2 - Russell. alex.op.cit.VOL.2.PP.64-65.

ثم انظر : جريدة البشير : ص ٤٠ ، العدد ١٩٣٢ م ، بيروت .

المواكب والاحتفالات الرسمية في دمشق

شاهدت دمشق في هذه الفترة إحتفالات ومواكب غير دينية متعددة، اختلفت مراسمها ومدتها وعدد المشاركين بها من وقت إلى آخر، وبحسب ظروفها الداخلية. وأهم هذه المواكب ما كان يتم بمناسبة سلطانية كتتنصيب سلطان جديد في استانبول أو ولادة الأمراء والأميرات فيها، وختان أبناء السلاطين. واحتفت دمشق بالصدور العظام القادمين إليها، أو بالولاة المولين عليها. وبمجيء المقرر السنوي لهم أو بمناسبة قدوم دفتردار أو قاض، وغيرهم من الشخصيات الهامة العسكرية والمدنية والدينية. كما نصبت الزينات وأقيمت المواكب والأفراح بمناسبة الانتصارات العسكرية آنئذ.

وسعت السلطات العثمانية لظهور هذه المواكب في دمشق بمظهر الأبهة، لاعتقادها بأن ذلك قد يرسخ احترامها في نفوس الدمشقيين، والتعويض عما افتقدته من هيبتها من جراء الهزائم العسكرية على جبهات القتال.

ومن جهة أخرى فإن الظروف الداخلية في الدولة العثمانية، والمحلية التي أحاطت ببلاد الشام، قد أثرت أيما تأثير على طابع هذه الاحتفالات. فكثرة عزل الولاة وقصر مددهم في مناصبهم، وتنامي القوى المحلية، والحملات العسكرية التي اجتاحت دمشق أو هددتها بالاجتياح، مثل حملة أبي الذهب الأولى والثانية، وحملة نابليون بونابرت على فلسطين وحصاره لها، وقيام الحركة الوهابية في الجزيرة العربية واحتلالها للأماكن المقدسة، وتهديدها لدمشق نفسها، ومقتل بعض الولاة على يد القوى اليرلية في دمشق، واحتلال القوات المصرية لها سنة ١٨٣١م/١٢٤٦هـ - ١٢٤٧هـ، ناهيك عن ظروف استانبول والصراعات فيها، وعزل السلاطين ومقتلهم، كل ذلك انعكس على دمشق وأثر فيها بشكل سلبي، وانعكس على طبيعة مواكبها واحتفالاتها، ومع ذلك نرصد بين الفينة والأخرى مواكب متنوعة، أقيمت في دمشق في مناسبات مختلفة، كانت من أهمها:

أ - الاحتفالات بالمناسبات السلطانية المتعددة، كالاحتفال بتنصيب السلاطين وولادة الأمراء وختان أبنائهم

أ - الاحتفال بتنصيب سلطان جديد: حيث كانت ترد الأوامر إلى الوالي بهذه

المناسبة لإقامة الزينات والعروضات (المواكب) لمدة سبعة أيام . ولكننا نلاحظ في هذه الفترة أن سلطانين قد قُتلا ، وهما : السلطان سليم الثالث ومصطفى الرابع ، والسلطان الثالث هو السلطان محمود الثاني الذي استخدم العنف في تصفية الانكشارية وأعوانهم في استانبول . ولم يورد الإخباريون أي ذكر لاحتفالات أقيمت في دمشق بمناسبة تنصيب هؤلاء السلاطين ، وجل ماذكروه . عزل سلطان ونصب آخر . وهكذا فإن أمر الاحتفالات في دمشق بهذه المناسبة توقف على أوضاع استانبول وأوامرها .

ب — الاحتفال بولادة الأمراء والأميرات . أولب السلطات المركزية في استانبول اهتماماً كبيراً لذلك ، فأقامت الاحتفالات في الولايات بمناسبة ولادة الأمراء والأميرات (أبناء وبنات السلطان) ، وكانت ترسل (قبجي خاص) إلى دمشق من أجل إقامة الزينات والعروضات . ويذكر المرادي أنه في سنة ١١٧٤هـ / ١٧٦٠ — ١٧٦١م وبمناسبة ولادة سليم خان ابن السلطان مصطفى خان ، أقام والي دمشق عثمان باشا زينة عظيمة فيها دامت سبعة أيام وبذل عليها أموالاً عظيمة^(١) . ويذكر حسن آغا العيد في أحداث عام ١١٩٠هـ / ١١٧٦ — ١٧٧٧م أنه « كانت زينة مولانا السلطان محمود خان بن السلطان عبد الحميد وهو سلطان زماننا وكانت زينة ماساهد مثلها بحيث امتدت سبعة أيام بلياليها كأنها الأعياد »^(٢) ، وكانت العادة أن توجه استانبول دعوة لبعض الشخصيات في دمشق للمشاركة في احتفال يقام بهذه المناسبة في تلك المدينة .

ج — الاحتفال بمحنتان أبناء السلاطين . وهي أيضاً من المناسبات التي كانت تقام من أجلها احتفالات كبرى في العاصمة والولايات العثمانية بما فيها دمشق ، وكان السلطان يوجه دعوات كثيرة للأشخاص البارزين وكبار رجال لليس في دمشق لحضور تلك

(١) انظر : سلك الدرر ج ٢ ، ص ١٦٠ .

(٢) تاريخ حسن آغا العيد . ص ٣ و ٤ . ويذكر أحمد حلمي العلاف في كنهه ، دمشق في مطلع القرن العشرين ص ١٢٠ مابلي : كانت الحكومة تقيم عيادا سمية في الايام المصادفة ليوم جلوس السلطان ، أو بولادته ويشترك لها . « نترن » شعباً محلياً في سائر أنحاء المملكة العثمانية ، وبالجملة فقد كانت دمشق . هذه الذكرى طويلاً أو كرهاً فتقام معالم الزينة على الخواص والأعيان الرسمية ودور كبار الموظفين . ثم رجال الأعيان بالعروضات لئلا يراها في ذلك اليوم في فرحة وتزيين . فاما بها فاجتمع وجوه كل حي يصنعون الأسس المركبة ويأعون اساس للعمل فن يرتيهم ويتوجهون بالموكب . يبلغوا دار الحكومة وبعد ان يقفوا قليلاً ويظهروا شعور لولاء مشاطر الحكومة بالأفراح يعودون من حيث أتوا .

الاحتفالات في استانبول . ويذكر أحد علماء دمشق وهو الشيخ عبد الرزاق البيطار أن الدعوة قد وجهت لوالده من السلطان عبد المجيد خان عندما عزم على ختان ولديه مراد وعبد الحميد^(١) .

٢ — استقبال الصدر العظام والولاة وضيوف الوالي : فهي من المناسبات التي كانت السلطات الرسمية في دمشق توليها اهتماماً كبيراً . ولقد حرص الصدر العظام والولاة عند دخولهم إظهار أعلى قدر ممكن من القوة والعظمة في مواكبهم . كما حصل في سنة ١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ — ١٨٠٠ م عندما دخل الصدر الأعظم يوسف باشا الذي كان متوجهاً مع قواته إلى مصر للتصدي لقوات نابليون بونابرت . ويصف الإخباري حسن آغا العبد موكبه أثناء دخوله دمشق بقوله : « دخل دمشق بموكب عظيم ، وهرعت جميع أهل البلد إلى الفرجة عليه ، ودخل معه من قدامه نحو خمسمائة رجل بطرايش فاس ووراه نحو ثلاثمائة مدرع ، وهذا كله ماعدا العساكر ونزل في التكية والمرجة »^(٢) ، فأقام في دمشق لمدة ثمانية وأربعين يوماً ثم رحل عنها يوم السبت عاشر جمادى الأولى من نفس السنة ، متوجهاً إلى فلسطين عن طريق المزة ، وأثناء عودته إلى دمشق حرص أيضاً على إظهار موكبه بنفس العظمة^(٣) .

ولم يحصل بعد ذلك أن استقبلت دمشق صدوراً عظماً في هذه الفترة من دراستنا ، بل استقبلتهم ولاة عينوا عليها . لهذا كان استقبال الولاة العاديين ، مع احتفاظهم

(١) انظر : حلة البشر ... ج ١ . ص ١٤٣ .

(٢) انظر : تاريخ حسن آغا العبد ، ص ٦٧ و ص ٦٨ .

(٣) ويقول حسن آغا العبد واصفاً عودة الصدر الأعظم إلى دمشق بقوله : خرج لملاقاته حسن أفندي الرزمنجي في ٨ ذي القعدة ، ثم خرج عبد الرحمن أفندي شيخ مراد وأسعد أفندي المحاسني وقاضي القضاة وقضاة دمشق من العلماء ورجال الدين لملاقاته . « وحضر فرمان مخصوص إلى آلاي بيك بأن يطلعوا جميع الزعماء ويكوموا تلال تراب من الشام إلى أن يوصلوا إلى عند الوزير ، ما بين التل والتل ساعة لأن هذا معتاد الأسفار ولأجل يعلموا أن عرضي همايون مر من هذا الطريق بعد حين . وفي يوم الخميس عشرين من ذي القعدة ست وعشرين ومائتين وألف مع طلوع الشمس وصل ظواخ الوزير الأعظم إلى الشام وصحبته يبرق بنوبة سلطانية وما إنقطع يوم الأربعاء ويوم الخميس السكر ليلاً ونهاراً عن المجيء وأنه اتخذت بيوت البلد الكبار منازل إلى أتباع الوزير وفي يوم الجمعة إحدى وعشرين من ذي القعدة دخل الوزير الأعظم يوسف باشا العظم في موكب عظيم ونزل في دار السعادة وزينت البلد له » .

انظر : تاريخ حسن آغا العبد . ص ٦٩ و ص ٧٠ .

بأطواخهم^(١) كصدور عظام سابقين ، ورفعت تلك الأطواخ في مقدمة مواكبهم . وكانت تلك الأطواخ تزيد على أطواخ الولاية العديدين .

ومن جهة أخرى فقد أسرف بعض الولاية في إظهار مواكبهم بمظهر القوة لاعتقادهم بأن ذلك يوقع في قلوب الشعب الاحترام والهيبة . ومن هؤلاء أحمد باشا الجزار الذي عين والياً على دمشق عدة مرات بالإضافة إلى منصب ولاية صيدا فكانت ترى في موكبه رتلاً طويلاً من الفرسان مزركشي الثياب زاهية ألوانها ومدججين بالسلاح ، ترافقهم الطبول ويطلقون بين الفينة والأخرى عيارات نارية^(٢) .

وفي حال تعيين والٍ جديد على دمشق يخرج لملاقاته أعضاء الهيئة الحاكمة ورجال الدين وأركان السرايا كالكيخية والحواجبية والترجمان في السرايا وديوان أفندي العربي والحاخام اليهودي ورجال الدين المسيحي برئاسة البطريرك حيث يستقبلونه بالمزمار والقيثارة^(٣) ، ويحمل المستقبلون معهم الهدايا من محاسن المأكول والشرابات والسكرية مما يليق بالبasha . ثم يجعل خيمته في حرسنا كالعادة وتقدم له الضيافة بقدر جماعته من سائر الألوان . ويقدم العليق للخييل ويستقبله هناك اليتكجربة والزعماء والقبوقول وحكام القلعة وأئمتها والباشا دفتردار من المتعممين والجرتجية وهم عدد معلوم والأدباشية والأياباشية ، ثم قاضي الشام والمفتي والمدرسون وأرباب الرقع الصوفية والمدرسون الكبار ، ثم بعد ذلك يهبط موكبه ليدخل دمشق بهذه العناصر جميعها بزيتها وحيولها وسلاحها وريشها وقوات الوالي الخاصة ، مشكلين موكباً في ترتيب معين فيأتي على الرأس الزعماء ، وأحياناً يكون أولاً الجرججية وأحياناً يتأخر الريش ثم دولة القلعة حيث آغاتها بعمامته ثم بعده باشا دفتردار ثم العلماء فالمدرسون فاليدكات قاضي الشام الذي يسير على يمين الباشا ثم أولاد خزنة الباشا إلى أن يصلوا إلى مصطبة السرايا بتوزع العسكر ليدخل من تبقى من الرجال إلى السرايا بحسب رتبهم في حين يقف

(١) وكان عدد أطواخ الصدر الأعظم خمسة أطواخ . انظر : جيب وباوون . المجتمع الإسلامي والغرب . ج ١ ، ص ١٩٧ . والطوغ عبارة عن ذنب حصان معقود على صعدة يعلوها آكرة من نحاس مذهب . انظر : الغزي ، نهر الذهب . ج ١ ، ص ٣١٥ .

(٢) انظر : إدوار لوكروي . أحمد الجزار ، ص ١٥٨ و ص ١٥٩ و ص ١٦٠ و ص ١٦١ . ترجمة جورج مسرة — البرازيل — سان باولو سنة ١٩٢٤ م .

(٣) انظر : مشاقة ، ميخائيل . مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان . ص ٧٦ و ص ٧٧ .

العلماء مقابل السرايا وتأخذ بالسلام من غير دخولها وقد يدعوهم للدخول . وبعد ذلك ينفض الجمع . وعامة الشعب كانوا يستقبلون الوالي الجديد وهم يحملون في أيديهم المباخر والمشاعل ويزينون الشارع ويدون له أسمى آيات الطاعة ويطنبون في مديحه رغم أنهم لا يعلمون أي شيء عنه^(١) .

وفي أول جمعة الواقعة بعد وصول الوالي إلى دمشق واستلامه مهام منصبه يتجمع الجرجية والجاويشية والأياباشية والتراجمين والكتاب بالسرايا وغالب الجند الشامي وأرباب الريش بالريش على ظهور خيولهم حيث يرافقون موكب الباشا في طريقه إلى باب الجامع الأموي (باب البريد) حيث يدخل الجميع وقدامه الريش الصغار ليصلي عند رأس نبي الله يحيى عليه السلام ثم يصلي الجمعة ويسمع العشر ثم يعود إلى السرايا بالموكب الذي طلع فيه^(٢) .

وكانت عادة دمشق أن تزين لمدة أربعة أيام بهذه المناسبة^(٣) . كما احتفلت دمشق بمجيء المقرر السنوي للوالي من استانبول . وكانت العادة المتبعة أن يجتمع أعيان دمشق في المحكمة الكبرى أو السرايا وبحضور الوالي حيث يقرأون فرمان السلطاني علناً ويعقب ذلك شنك فتضرب المدافع ثم يقوم الوالي باللباس الحاضرين من أصحاب المناصب العالية فروات سمور .

وهناك صورة أوضح لما كان يجري في هذه المناسبة في ولاية حلب ، حيث يقول الشيخ كامل الغزي إن الوالي كان « يدخل دار الحكومة بموكب رسمي ، فيخرج التقليد من خريطة معه ، ويقبله ويدفعه لمن اختاره من كبار الكتبة ، فيتناوله الكاتب ويقبله ، ويبدأ بقراءته بصوت مرتفع واقفاً إلى جانب الوالي ، وفي جانبه الآخر القاضي وأصحاب الرتب والموظفون والرؤساء الروحانيون ورئيس الحاخاميين « اليهود » ، ويكون الناس والعسكر والموسيقى في الخارج ، وعندما يفرغ من قراءته تضرب المدافع من القلعة ، ثم بعد ذلك يخطب الوالي بالدعاء للسلطان ، ويثني على أهل الولاية ويدعو المفتي للسلطان ثم يعقبه المطران والحاخام ، ثم تعزف

1 - See: Koury ,G.op.cit,P.162.

(٢) انظر : ابن كنان . المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية . ص ١٧٧ و ص ١٧٨ .

(٣) انظر : العبد حسن آغا . ص ١٣٤ .

الموسيقى بألحانها عدة فصول ، ثم يصيح العساكر بلسان صوت واحد قائلين (بادبشاحم جوقيشا) ثم ينفض الجمع «رياسر الوالي أعماله» .^(١) ويعزز الوالي الحديد هيبته في نفوس الشعب ، كان يقوم بإعدام بعض المجرمين^(٢) .

وحرص بعض الولاة العابرين لمدينة دمشق لسبب ما ، على أن يُستقبلوا بمظاهر الاحترام . وروعت بعض الاعتبارات في استقبالهم من قبل والي دمشق منها : مرتبة الوالي وعدد أطواغه ، فإذا كانت مرتبة الوالي مساوية لمرتبة والي دمشق . أو كانت أعلى من مرتبته . يخرج والي دمشق إلى حرستا لاستقبال ضيفه ، ويدخل الواليان دمشق في موكب رسمي ، تحف بهما الحاشية ورجال الدولة والدين ، أما إذا كان والي دمشق أعلى من ضيفه مرتبة ، فيستقبله ثاني يوم في السرايا ، ويرافق موكب الاستقبال إطلاء المدافع والزينات^(٣) .

وكان والي دمشق يراعي في استقبال ضيوفه اعتبارات عديدة أهمها : مكانة الضيف الإجتماعية والإدارية . فإذا كان أحدهم القاضي أو المفتي أو نقيب الأشراف أو أحد رجال الولاية أو أحد كبار رجال الدين ، فينهض الوالي عن مقعده لاستقبال ضيفه عند دخوله إلى قاعة جلوس الوالي ، أما ماتبقى من الضيوف والزوار فيستقبلهم الوالي وهو جالس ، أو ينهض قليلاً عن مجلسه . وبعد ذلك يأخذ الضيوف أماكنهم على الدفانات في القاعة ، ليتناولوا أطراف الحديث مع الوالي ، وكان الخُدام يقومون بتقديم الضيافات المختلفة^(٤) . وفي أيام

(١) انظر : نهر الذهب في تاريخ حلب . ١ ، ص ٣٢٢ ، ص ٣١٣ . على أن الإجماع حسن آغا العبد الذي كان أحد أفراد الهيئة الحاكمة في دمشق والذي رصد أحداثها لم يفصل في وصف مواكب الولاة وجل مذكره في هذا المجال أن دخل الوالي غلان إلى دمشق بموكب عظيم . انظر مثلاً تاريخ حسن آغا العبد ص ١٠ و ص ١١ و ص ١٢ .

2 - See: Koury G. op. cit. p. 162

(٣) انظر : ابن كنان . المواكب ، ص ١٨٠ .

(٤) الدفانات . كانت توضع في أركان مريحة من الغرفة (الربيع) وهي واطئة لا ترتفع عن الأرض أكثر من ١٦ - ١٨ بوصة إلا قليلاً وكانت تفرش بالنوطايات أو (فرشاة) صغيرة رفقاها السجاد وتحيط بها مساند لتوفير الاستناد والراحة لمن يجلس عليها . وكانت تفرش في بعض الأحيان بالحرير . ولقد استخدمت الدفانات للأكل أو الجلوس والتدخين والنوم باستقبال الضيوف .

(٥) ويذكر توماس رايت في كتابه وصفاً لعملية الضيافة في علسر الوالي بقول : مأن يستقر الضيوف على الدفانات حتى يأتي القهوجي بسريره الخيرية الفصفضاة تاملأ بين يديه صينية مدورة مغطاة بقماش أحمر في وسطها قدر القهوة ويحيط بالقدر نصف درنة من فناجين القهوة مطبوعة على وجهها ويقف إلى

الأعياد والمناسبات الرسمية والدينية كان يكثر عدد ضيوف الوالي ، الذين يأتونه على دفعات ، فيقوم الخدم بمهام الضيافة دون إيعاز من سيدهم . ويعرفون وقت تقديم الرائحة العطرة للضيوف . وكانت الضيافات تقدم للضيوف بعد انتهائهم من تدخين غلايين التبغ . وفي نهاية الزيارة كان الخادم يأتي بالمبخرة الفضية التي لها غطاء مثقب وبها فحم خشبي متقد مضافة إليه قطع من خشب (ALO) أو خشب الند المعطر ، ويدور بها على الضيوف ، فينطلق منها دخان عطر الرائحة ، ويتغلغل في لحي الضيوف فيضمخها . ويعني ذلك انتهاء الزيارة حيث يغادر الضيوف المكان .

وكانت العادة إذا ما طلب أحد الأجانب ، أو أي شخص عادي ، مقابلة الباشا ، أن يدخل هدية مناسبة للوالي ليقوم بعد ذلك بتحديد موعد للمقابلة . وعندما كان الضيف يدخل إلى الباب الخارجي ، يستقبله أحد الضباط أو رجالات السرايا ، وهكذا من جناح إلى آخر حتى يصل إلى المربع الذي يجلس فيه الباشا . وكان على الضيف أن يتملق للباشا المضيف بكلمات الإطراء لأن ذلك يدخل إلى قلب المضيف أفضل آيات البهجة والحبور^(١) .

هذا ما لحناه فيما سبق من العادات والتقاليد المتعلقة في استقبال الولاة في دمشق ، واستقبالهم بدورهم لضيوفهم المختلفين . إلا أن ذلك يقودنا للتساؤل عن كيفية توديع الولاة المعزولين في هذه الفترة ، فهل تم ذلك في ظروف طبيعية ولاقوا الحفاوة التي لاقوها حين استقبالهم ؟ والحقيقة أن الأمر كان معاكساً لاستقبالهم ، فأغلب الولاة عزلوا عن دمشق

جانبه عدد من الخدم الأول منهم يحمل مندبلاً مطرزاً من الحرير يتقدم نحو الضيوف ويركع على ركبتيه ليفرش المناديل فوق ثيابهم لوقايتها مما قد يلوثها من الضيافة . ويتقدم خادم ثاني بعد الأول ليقدم المربي (الحلوى) المعنة من أوراق الزهر أو الليمون أو التمر هندي أو زهر البرتقال ، وتقدم هذه الحلوى لكل ضيف في كأس مع ملعقة ، فيقوم الضيف بعد ذلك بخدمة نفسه ، ويقوم خادم ثالث بأخذ الكأس من القهوجي ، ويكون جاهزاً بالقهوة ولا يركع أمام الضيوف بل يقف باحترام وخضوع ويراقب من ينهي ما بكأسه من الحلوى ليزيد له أو لأخذ الكأس منه ، ثم يحضر خادم رابع الغلايين المفعممة بالتبغ بعد أن يضع النفاضات أمام الضيوف ، التي تستقر بها أجران الغلايين ، ويقدمها بيده إليهم ويده الأخرى موضوعة على صدره تعبيراً عن الاحترام ، وعندما ينتهي الضيوف من احتساء ما بالفناجين من القهوة يسرع الخادم لجمع الفناجين في الطبق (الصينية) وهو راكع ويسحب القوط (المناديل) من الضيوف . ويتراجع الخدم إلى العتبة باحترام .

See: Early Travels in Palestine, P. 407.

1 - Ibid. P.408 and Russell. op.cit. VOL.1. PP.168-169-170.

وخرجوا منها في حالة سيئة، وصودرت أموالهم بعد ذلك بأوامر من السلطات المركزية من استانبول، ففي سنة ١١٩٨هـ / ١٧٨٣ - ١٧٨٤م. عزل أحمد باشا الجزار عن ولاية دمشق قهراً عنه^(١). وفي ١٢١٣هـ / ١٧٩٨ - ١٧٩٩م عزل عبد الله باشا العظم ورحل من العسالي ودمر مدافعه وخيامه وخزنته عندما رأى في أعين جنوده الغدر^(٢) به. وفي سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠ - ١٨١١م طرد الكنج يوسف باشا من دمشق ونهبت أمواله^(٣). وفي سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٥ - ١٨١٦م عزل سليمان باشا عن ولاية دمشق ونزعت أطواغه منه^(٤). وعندما عزل ابراهيم باشا في ١٢٣١هـ / ١٨١٥ - ١٨١٦م جاءت أوامر استانبول لأن «يسقوا عليه ويحرروا أمواله ويصادروها»^(٥). وعندما عزل الحافظ علي باشا ١٢٣٢هـ / ١٨١٦ - ١٨١٧م. جرت صدامات بين القوى المحلية وسكرت البلد^(٦)، وقتل الدمشقيون والي دمشق محمد سليم باشا وذهب دمه هدراً دون محاسبتهم من السلطات العثمانية، نظراً لدخول ابراهيم باشا المصري إلى دمشق.

أما استقبال الشخصيات الرسمية التي كانت تلي الوالي في الأهمية، كالدفتدار والمتسلم والقاضي والمفتي ونقيب الأشراف والأغوات وغيرهم. فقد روعيت في استقبالهم مراسم وتقاليد معينة تتناسب مع الشخصية ومكانتها الاجتماعية، فالدفتدار مثلاً الذي كان يأتي في أهميته بعد الوالي، كان استقباله يتوقف أيضاً على مرتبته الوظيفية، فإذا كان بمرتبة وزير، يرسل الوالي كاتبه وأغواته والمهتر خانة وجميع دائرته واليرلية والقايقول مع أغواتهم إلى حرسنا لاستقباله، ومن ثم يؤلف هذا الجمع موكباً رسمياً يسير إلى دمشق ويجري شئك بهذه المناسبة^(٧).

٣ - أما استقبال قاضي القضاة والمتسلم والمفتين وأغوات الانكشارية : فكانت العادة أن يخرج لاستقبالهم قضاة دمشق والمدرسون وكتاب المحاكم. ويخرج أحياناً الدفتدار والمتسلم

(١) انظر العبد. المصدر السابق، ص ١٠.

(٢) انظر العبد. المصدر السابق. ص ٩١ و ص ٩٢.

(٣) أيضاً العبد. ص ١٥٢.

(٤) أيضاً العبد. ص ١٥٩.

(٥) أيضاً العبد. ص ١٦٢.

(٦) أيضاً العبد. ص ١٦٢.

(٧) أيضاً العبد، ص ٥٩ و ص ٩٣.

وأغوات القايي قول واليرلية ، ويدخل جمعهم إلى دمشق في موكب رسمي ، فيمر على الأبارين فباب البريد فدار الحكم فالمحكمة الكبرى (بالنسبة لقاضي القضاة) أما بقية الشخصيات فكل واحد منهم يذهب إلى مقر عمله في دمشق أو إلى بيته ، وفي اليوم الثاني يذهب المسلم ليسلم على هذه الشخصية ثم بعد ذلك يقوم هؤلاء بزيارة الوالي ، فيخلع عليهم فراء السمور ، ويخرجون من عنده بالفراء المذكور وبرقتهم حاشيتهم^(١) .

وكانت العادة في دمشق أن يُستقبل المسلم أيضاً بمواكب رسمية وشعبية . فبعد استقباله من رجالات دمشق الرسميين في القابون ، يقوم الدماشقة بإقامة العراضات « حيث تقوم كل حارة من حاراتها بفرقة خاصة بها يرافق ذلك القواص ولعب السيف والترس والرماح والتراويد »^(٢) .

وكان الأشراف أو نقيبهم عندما يدخلون دمشق تسعى الأشراف فيها لإكرامهم وإقامة المواكب لهم . ويذكر المحبي أنه عندما قدم الشريف أحمد بن زيد إلى دمشق في طريقه إلى استانبول مع أصحابه « تلقاهم أهلها وأمرأؤها وكبرأؤها وعلمأؤها ونقيبها ودخلوا بموكب عظيم والأشراف من أهل الشام حولهم مئات بأمر نقيبهم »^(٣) .

وتقلصت بعض هذه المواكب في دمشق في عهد ابراهيم باشا المصري وشاهدت مواكب لم تشاهدها من قبل ، كمواكب دخول القناصل . كما حصل في سنة ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣ — ١٨٣٤م عندما دخلها القنصل الانكليزي (Mr Ferren)^(٤) .

(١) ابن كنان . المصدر السابق ، ص ١٧٩ و ص ١٨٠ .

(٢) مجهول . مذكرات تاريخية ، ص ٣٩ .

(٣) خلاصة الأثر ... ج ١ ، ص ١٩١ .

(٤) ويذكر صاحب مذكرات تاريخية أنه : « طلع للملاقاته عمر بك مير اللواء واستنظره في قصر عبد الرزاق باشا الذي بالمرجة ، وصحبته ألف عسكري نظام وكان يرفق القنصل حاضر من بيروت أربعة وعشرين خيال في يبارق النظام وقواصة عدة ثمانية وعبددين وتراجمين ثلاثة وكبخية وخزندار وحول في قصر عبد الرزاق باشا عند عمر بك تفكجي باشي واستقام مقدار نصف ساعة وقام ركب مشوا قدامه ألف عسكري نظام في الموسيقى وبين باشي وبعده ثلاثين قواص من قواصة الوزير وبعده الخيالة الذين حضروا معه من بيروت بيارقهم وبعده تفكجي باشي وجماعته وبعده قواصة لابسين طقومة وردي . جزايرلي مقصب وبيدهم عصي فضة مكوبجين ذات قبضة على كسم صليب وبعدهم التراجمين في الشالات الكشميري والخييل المنظومة وبعدهم القنصل راكب على راس خيل من الخيول الجياد عدته مشغولة من الصرما ولابس على راسه برنيطة محجرة بالأماس وفي

الاحتفالات بالمناسبات العسكرية المختلفة

أقيمت الزينات والمواكب والاحتفالات في دمشق بطرق مختلفة في المناسبات العسكرية المتعددة ، كدخول قوات جديدة إليها ، كما حصل في سنة ١١٦٤هـ / ١٧٥٠ - ١٧٥١م عندما قامت استانبول بإرسال قوات جديدة ، من القايي قول بهدف الحد من نفوذ قوات اليرلية فيها ، فأرسلت الأورطة أتمش إيكي أي الأورطة (الثانية والسبعين) ويقول البديري الحلاق إنه « خرج لملاقاتها كل من لف برمه مع مائتي تفكجي وجماعة من الدالاتية كل ذلك بأمر الباشا ودخلت بعراضة أي موكب ولا موكب الحج الشريف وخرجت الناس للفرجة رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً وزينوا لهم حارة العمارة بالقناديل والمشاعل ودخلوا بكبر وجبر وعتو»^(١) إلا أن قوات اليرلية لم تشارك في استقبال هذه الأورطة لادراكها أنها ستكون الهدف المطلوب ضربه في دمشق ، في حين شاركت قوات المرتزقة المتمثلة بالدالاتية في استقبالها وتحالفت القوتان ضد اليرلية فيما بعد .

واحتفلت دمشق بمناسبات الانتصارات العسكرية المختلفة ، فأقامت الزينات والعروضات ، وزينت شوارعها وأسواقها ، وفي الليالي أوقدت الشموع في الدكاكين وإلى جانبها « الصمد والفرش » ورافق ذلك الدق والغناء والنوبات وتسيير العراضات في جميع الأسواق^(٢) . فمثلاً في سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨ - ١٧٩٩م جاءت سبعة رؤوس من النصاري الفرنسيين إلى دمشق « فصار شنك في الشام » وعندما استرجع العثمانيون مصر من الفرنسيين « صار

راسها جملة ريش أبيض وأحمر ويرمي سلام ووراه كيخيته وخزنداره وعبيده وتنظر العالم منتشرة من عند قصر المرجة شي لا ينحصى وحكم طريقه على الدوالك على بيت يوسف باشا على باب السرايا على سوق الأروام وسوق الجديد على باب القلعة على باب البريد على سوق الجديد على البزورية على مئذنة الشحم على الخراب على طالع القبة على حمام المسك على باب توما على حمام البكري على زقاق القميم (القميلة) على بيته . فكانوا قبل بمدة آخذين له بيت قزها الذي قدام قناية الخطب ودخلوا العساكر جميعها لعند بيته فحالاً رفعوا له البنديرة فوق باب البيت على راس السطوح وتأتي يوم وضع فوق باب بيته نيشان المملكة (الآرمة) مصور فيها تاج الملك وحصان وسبع وكان يوجد قدام بيته على مدة سبعة ثمانية أيام مثل فرجة الحاج (لكثرة) الناس فوق بعضها .

انظر : مجهول . ص ٦٨ و ص ٦٩ .

(١) انظر : حوادث دمشق اليومية . ص ١٥٩ .

(٢) مجهول . مذكرات تاريخية . ص ٦٦ .

شنك في الشام ثلاثة أيام وثلاثة ليالي وزينت البلد»^(١). وكانت طوائف دمشق الدينية تحدد موقفها من هذه الإحتفالات على ضوء انتمائها الطائفي. فمثلاً عندما زحفت قوات ابراهيم باشا المصري شمالاً، وعند سقوط دمشق بيدها، ودحرها للقوات العثمانية، صدرت الأوامر إلى دمشق لتنظيم الزينات بهذه المناسبة، فبالغ المسيحيون في إقامة الزينات والأفراح في حين لم يشاركهم في ذلك سوى الرسميين وعناصر قلعة دمشق وقلة من المسلمين^(٢).

وأصدرت السلطات المصرية في دمشق أوامرها بالزينة مرة أخرى بمناسبة توقيع معاهدة كوتاهية بين المصريين والسلطان في سنة ١٨٣٣م / ١٢٤٨ — ١٢٤٩ هـ، فقام بالجانب الأعظم من الزينة المسيحيون في دمشق في حين «يومها كانت أهالي البلد كادت تفقع مرايرها من الذي عملوه النصارى»^(٣) ويمكن تفسير موقف المسلمين السلبي هذا بعدم رضاهم عن سياسة المساواة التي نادى بها ابراهيم باشا بينهم وبين أهل الذمة من جهة، ولأن السلطان العثماني في نظرهم هو الزعيم الديني الإسلامي الوحيد، وإن مايقوم به ابراهيم باشا من أعمال ما هو إلا بإيعاز من بعض الدول الأوربية التي تكيد للإسلام من خلال محاولة القضاء على الدولة العثمانية، بالإضافة إلى تضرر مصالح خاصتهم من التغيرات التي أدخلها ابراهيم باشا. كل ذلك جعل موقفهم بارداً من انتصاراته، مما أفقد تلك المواكب زهوتها وألقها المعتادين في مثل هذه المناسبات.

(١) العبد، حسن آغا. تاريخه، ص ٥٤.

(٢) مجهول. مذكرات تاريخية. ص ٦٨.

(٣) أيضاً: المصدر السابق. ص ٨٣.

الأفراح في دمشق وريفها

كانت الأفراح ظاهرة اجتماعية لها تقاليدها الموروثة منذ أجيال ، ولعبت في إظهارها عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وغيرها ، واختلفت طريقة الاحتفال ومظاهره من فئة اجتماعية إلى أخرى ، من حيث عدد المشاركين والمخصصات المالية . فلا عجب إذا ما تأثرت هذه الظاهرة بظروف دمشق في هذه الفترة .

ومن جهة أخرى كانت الأفراح تقام في مناسبات دينية ومدنية . وكان للدمشقيين في كل واحدة منهما طريقتهم الخاصة في إقامتها . ولقد سبق لنا توضيح الاحتفالات الدينية ، أما هنا فسنتناول الجانب الآخر منها كالأعراس والخلاص من مشقة ، وعودة الغائب من سفر طويل ، وإبلاء الشخص من مرض وغيرها .

آ — أعراس دمشق

وكانت عبارة عن احتفالات تقام بمناسبة زف العروسين إلى بعضهما وأجريت هذه الاحتفالات قبل وأثناء وبعد زف العروسين وكانت العادة أن يبدأ الاستعداد لها قبل أيام من إقامتها ، وكانت تتم على مراحل ، على مستوى العروسين والأهل والأصدقاء والأصحاب .

وعلى الشكل التالي :

١ — النقش : حيث تقوم النسوة بنقش يدي ورجلي العروس قبل زفافها ، ويشترك من أهلها وذويها مَنْ يرغب في نقش اليدين والأصابع وتقوم النقاشة بذلك^(١) ، وكان النقش يتم بإذابة كمية من الشمع العسلي على النار مع اللبان الأسود ، وتنقش به اليد عروقاً متنوعة بواسطة قشة تغمس بالخليط المذاب فيجمد على اليد في الحال ، وغب ذلك يوضع على تلك العروق معجون الحناء وتلف الأيدي والأرجل بلفائف من قماش عتيق . حتى إذا ثبتت الحناء على النقش ينزعون تلك اللفائف ويقلعون الشمع واللبان مع الحناء ، فتظهر تلك العروق التي صبغتها الحناء بلون أحمر فيطلونها بـ (الغشوش) وهو ما كان من مسحوق القلي والزرنخ مع الحناء فتظهر تلك العروق التي صبغت من الحناء والفلفل والبهار جداء متساوية فيمزجونها بقليل من الدبس يدهن محل النقش مقدار ربع ساعة ثم يغسل ذلك الطلاء فيصبح ذلك اللون أحمرأ إلى سواد قائم^(٢) ، وقل الاهتمام بالنقش في أواخر القرن التاسع عشر واقتصر على لفيف من العوام وفي أطراف دمشق .

٢ — الزمر والطبل : كان يبدأ عملهما الدعائي للحفلة قبل ثلاثة أيام . فلا يزال الطبال يضرب على طبله في غالب أوقات النهار والرجال والأولاد آخذون في اللعب بالسيف والعصا . وكانت أوقات السرور المصطلح عليها عند الدمشقيين ثلاثة أيام ، يمرحون ويلعبون و « أبونا عسة » وهو أحد النور يقدم لهم أصناف السخريات المضحكة ، ويقوم ببعض الألعاب حتى اليوم الرابع ، حيث تبدأ مرحلة الزفاف حيث تزف العروس إلى عريسها^(٣) .

ولم تخلُ احتفالات العامة بالأعراس في هذه الفترة ، مما يعكر صفوها من قبل عناصر السلطة وجنودها ، ففي سنة ١١٦٠هـ / ١٧٤٧ — ١٧٤٨م أقام أحد العامة عراضة بمناسبة زفاف ابنه ، فهاجمها الجنود « فالبعض ترك قاووقه وآخر بابوجه وثالث جبته وتفرق جمعهم »^(٤) .

ولقد احتفلت خاصة دمشق بمثل هذه المناسبات ، وكان أفراد الهيئة الحاكمة منها ، يبالغون في إظهار علو مكانتهم الاجتماعية ويستغلون مثل هذه المناسبات لدعم نفوذهم

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٢٨٧ و ص ٢٨٨ .

(٢) القاسمي . المصدر السابق ، ص ٤٨٢ .

(٣) البديري . حوادث دمشق اليومية ، ص ٢٨٨ .

(٤) أيضاً البديري ، ص ١١٣ .

السياسي، من خلال توجيههم الدعوة لممثلي فئات الشعب المختلفة وتقديم الهدايا لهم، وكانت احتفالاتهم بأعراس أبنائهم تدوم سبعة أيام متصلة، ونسوق مثلاً على ذلك ما قام به دفتردار ولاية دمشق فتحي القلانسي الذي زوج ابنته من ابن أخيه في سنة ١١٥٦هـ / ١٧٤٣ - ١٧٤٤م « فخصص اليوم الأول لحضرة والي الشام سليمان باشا العظم، واليوم الثاني إلى الموالي وعلماء الأتراك والأمراء، واليوم الثالث للمشايخ والعلماء، واليوم الرابع للتجار والمهنيين، واليوم الخامس إلى النصاري واليهود، واليوم السادس إلى الفلاحين، واليوم السابع إلى المغاني والمومسات، وهم بنات الخطا والهوى، وقد تكرم عليهم كرمًا زائداً، وأعطاهم الذهب والفضة بلا حساب، وكان قبل الفرح عمل تهليلة جمع بها جميع مشايخ الطرق»^(١).

ومن جهة أخرى، برزت حرف عديدة قدمت خدماتها في هذه المناسبات المفرحة، كالتختراونيين^(٢) والجمرجيين والحمالين والخانجية والحنائين ومؤجري أواني النحاس، ويذكر المرادي أن حسن الشهير بالحنبلي اقتنى أواني النحاس بكميات كبيرة ليؤجرها للناس في الأفراح واتخذ منها حرفة^(٣).

٣ - أما مرحلة نقل الجهاز إلى دار العريس: فكان يقوم بهذه المهمة أفراد الأسرة والأقرباء والأصدقاء، في حين كانت الأسر الغنية توكل أمر ذلك، للحمالين المهرة ذوي الخبرة والمختصين بذلك. فكانوا يضعون الأواني الزجاجية الرقيقة والتحف اللطيفة من جهاز العروس على رؤوسهم، مركزة على فروش خشبية مستديرة ذات إطارات واقية من صفائح الخشب بشكل يجعلها بارزة للعيان، ومنهم من يحمل ثياب العروس كل ثوب على حدة، بأنواعها المختلفة التي كانت تلبس آنذاك، كالصارمة والشال والخراساني والغراماشي وغيرها، أو يحمل أدوات زينة العروس وأرديتها وألبستها الخارجية وحتى الأحذية منها كالبوايج بمختلف أشكالها وأنواعها والقباقيب الخشبية ذات السيور المطرزة والقباقيب الشبراوية الطويلة الأكعاب، أو العادية منها أو المفضضة أو المطعمة بالصدف أو التي تعلوها سيور من الجلد أو القماش المزركش بخيوط الفضة والذهب. وبعضهم الآخر يحمل (القواطع) الديفانات

(١) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية، ص ٣٩.

(٢) انظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. ج ١. المجلد ٤٥ / ص ١٤٣. شوال، ١٣٨٩هـ / ك ٢، ١٩٧٠م.

(٣) المرادي. سلك الدرر. ج ٢، ص ٣٠.

والمفروشات المحشية قطناً أو صوفاً والمغلقة بأقمشة من ألوان مختلفة ، ولقد تباين ذلك بحسب انتهاء العروسين الإجتماعي .

وكانت العادة أن يقوم أهل العروس ومحبوهم بمدافعة وممانعة أهل العريس عند نقل الجهاز ، لهذا كان يرافق الموكب عدد كبير من الرجال الأشداء ، ولهم مكافأة عندما يوصلون الأمتعة إلى محلة العريس^(١) ، وكانوا يصطحبون معهم البغال والحمير لنقل الجهاز من الحارات البعيدة ، وكان أهل حارة العروس يفرجون عن الجهاز ويكفون عن الممانعة ، عندما يقدم أهل العريس رؤوس الأغنام أو بعض المال لهم^(٢) .

٤ — مرحلة نقل العريس والعروس إلى بيت الزوجية : كان رفاق العريس وغيرهم يقومون بإلباس العريس ثيابه الجديدة المعدة لهذه المناسبة وذلك ما بين الصلاتين (المغرب والعشاء) . وبعد الانتهاء من ذلك يأتي المجرمي وهو لابس ثوباً أحمر (جبة حمراء) مزركشة ومعمراً بعمامة مطرزة بخيوط خضراء . وممسكاً بيساره عصا ضخمة ليتوكأ عليها إن كان مسناً ، ويحمل يمينه (مجمرة) فيها جمرات من الفحم المتقد ويصب عليها البخور والحصلبان والعود فينطلق الدخان منها مفعماً برائحة طيبة . ويصيح هذا المجرمي بين الحين والآخر وبصوت عريض حسن « سعيد من يصلي على النبي — القلب العامر يصلي على النبي »^(٣) وهو سائر أمام موكب العريس المكون من أصحاب العريس وأقربائه وأصدقائه وأهل حارته . يرافقهم المرفعية فيطبلون وي زمرون ، ويحمل بعض المشاركين السلاح ، ويصيحون بأصوات مختلفة وبأدوار حماسية عامية مقفاة إلى أن يصلوا بالعريس إلى داره^(٤) وسط الأهازيج والزغاريد . وتتداخل أهازيج الرجال خارج البيت بزغاريد النساء وتهليلهن داخل البيت .

أما موكب العروس فكانت تخرج في شيء يقال له السربوش^(٥) ، ويسمى المقنزع

-
- (١) . الداغستاني ، كاظم . حكاية البيت الشامي الكبير . ص ٢٧ و ص ٣٢ .
(٢) . مقالة لعبد الهادي هاشم تحت عنوان « أعراس دمشق » مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . المجلد ٣٢ ص ٣٣٢ . رمضان سنة ١٣٧٦ هـ / نيسان سنة ١٩٥٧ م .
(٣) . الداغستاني . المصدر السابق . ص ٣٤ . ثم القاسمي . المصدر السابق . ج ٢ . ص ٤١٧ .
(٤) . القاسمي . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٤١٨ .
(٥) . لفظة فارسية الأصل . والسربوش عبارة عن لباس تضعه النساء على الرأس وعرف المتأخرون السربوش وقالوا أنه يشبه التاج شكله مثلث يجعل على الرأس بغير عمامة . انظر : معجم الثياب ، ص ٢٢

وتوضع في تختروان إلى بيت الزوجية في موكب من النساء وسط زغاريدهن وتهاليلهن . وعندما تصل إلى البيت توضع في مكان بارز من الدار ويكون أهل العريس قد أحضروا « شمعة لا تقل عن ثلاثة أذرع مقصورة بيضاء مزينة على أصناف النقوش والفاكهة من رمان وإجاص وتفاع وغيرها المعمولة من الشمع الملصق ذلك بالشمعة . لتوضع إلى جانب العروسين وبعدها يدخل العريس على عروسه »^(١) . ولا تفارق الداية أو الماشطة العروس أبداً ، فهي التي قامت بتمشيطها وتسريح شعرها وإلباسها ثيابها وتزيينها بأصناف الحللي والحلل والشكول .

وبعد انصراف الأهل تبقى الماشطة على باب مخلي العروسين منتظرة نداءها ، ولتحقيق ما يطلبه العريس كإحضار أمه أو أخته أو عمته أو الذهاب بالعروس إلى قضاء حاجة أو فرش الفراش وأمثال ذلك . ولا تزال على باب العروسين إلى الصباح . ويكرمها الزوج بمجمع أنواع الحلوى مع شمعة عسلية ويضيف إلى ذلك دراهم على قدر ثروة أهل العرس .

وإذا كانت العروس صغيرة وقد لا تطيق غشيان زوجها ، كان العريس ينادي الماشطة ، فتحضر وتمسكها أو تقعد على صدرها وترفع له رجلها قسراً ، وتشير عليه أن يفعل ، وهي تصرخ وتستغيث ولا من من مغيث ، وقد حصل من جراء ذلك حوادث مؤلمة كثيراً ما أفضت إلى موت العروس ضحية الجهل المركب . وتنظر الماشطة مندبل الفراش وتلوّثه لتذهب به إلى أهلها زعماً أنه دليل عفتها وأنه قاطع للقليل والقال ، وكله جهل بحقيقة الحال . وثمة شيء أقبح وهو توكيل الزوج الماشطة أن تفتض البكارة بإصبعها وقد جرت عادة جميع الشرقيين بالاهتمام بغشاء البكارة ويرون ذلك وصفاً محققاً لعفة البنات وبراءتهن من الزنا^(٢) .

ب — أعراس الريف

جرت العادة في قرى غوطة دمشق وريفها البعيد ، أن يجلب النور الذين يتقنون

وذيل المعاجم العربية . ج ١ ، ص ٧٤٢ نقلاً عن مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . ج ٢ . المجلد ٣٢ / ص ٣٣٦ رمضان سنة ١٣٧٦هـ / نيسان سنة ١٩٥٧م .

(١) انظر : الشيخ علوان . نسمات الأسحار . حيث وصف تلك الاحتفالات التي تقام في الأعراس وذلك في القرن العاشر للهجرة ٩٠٦هـ / السادس عشر للميلاد . ولا يختلف عما أورده القاسمي في هذا المجال مما يدل على أن تطور الظواهر الاجتماعية كان بطيئاً جداً . انظر : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ٢ . المجلد الثاني والثلاثون ، ص ٣٣٦ .

(٢) القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ . ص ٤٠٩ و ص ٤١٠ و ص ٤١١ .

الضرب على الطبل بغاية الرشاقة لإحياء حفلات الأعراس . وكان يتخلل ذلك فترات متواليات من الطرب ، خصوصاً إذا رافق الطبال زمار . ولا يزال الطبال يضرب على طبله في غالب أوقات النهار والرجال والأولاد آخذين في اللعب بالسيف والعصا . وأوقات السرور المصطلح عليها عندهم ثلاثة أيام يمرحون ويلعبون حتى إذا دخل اليوم الرابع يزفون العروس إلى عريسها^(١) . ويتم قبل ذلك تدوير العريس حول القرية ويعطى المشاركون الشموع من قبل أهل العريس فيحملونها مشعلة بما فيهم النساء المشاركات . وعند زف العروس تحمل كل واحدة منهن بيدها شمعة مشعلة وأمام العروس شمعة كبيرة تمسكها إحدى أقاربها^(٢) .

وكانت العادة أن تركب العروس على حصان أو جمل يرافقها رقص الراقصين وزغردة النساء . إلى أن تصل إلى بيت عريسها ، حيث يكون بانتظارها على شرفة البيت ويده قطع الحلوى والنقود فيرميها فوق رأسها قبل ولوجها إلى البيت ، أملاً في جلب السعادة وكثرة الذرية . فيتزاحم الأولاد لالتقاطها من على الأرض . كما تعطى العروس قطعة من العجين لإلصاقها على عتبة الباب قبل دخولها عنواناً للمحبة والبركة .

ويبدو أن تقاليد الاحتفال بالعرس كانت واحدة بين قرى دمشق تقريباً ، وإن كان ثمة اختلاف فكان في بعض التفاصيل الصغيرة . فأغنياء الفلاحين كانوا يوجهون الدعوات في مثل هذه المناسبة لجميع الأقرباء في القرية ، والأقرباء والأصدقاء من القرى المجاورة ، ويولون الولائم ويذبحون الذبائح وتقدم موائد الطعام في المضافات والبيوت المعدة لذلك . وكان الأقرباء بالمقابل يقدمون الهدايا في مثل هذه المناسبة للعريس وأهله .

وحسبنا أن نسوق رواية رحالة أجنبي شاهد عرساً في إحدى قرى حوران سنة ١٨٠٩م / ١٢٢٣هـ حيث يقول : « لقد كان حظي كبيراً عندما شاهدت عرساً في حوران كانت العروس من قرية (عيرة ، Aaere) وهي مسيحية زفت إلى عريسها من قرية تبعد عن قرية عريسها مسير نصف ساعة ، وقد جاءت العروس ومجموعة من صديقاتها وقرباتها من قريتها على ظهر جملين مزينين بالشراشيب الجميلة ، وأنزلن لدى أحد أقاربهن في قرية العريس ، وأثناء دخول العروس القرية رافقتها زغاريد النساء ، وهن يضربن على دفوفهن ابتهاجاً بهذه

(١) أيضاً القاسمي . نفس المصدر . ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

(٢) أيضاً القاسمي . نفس المصدر . ج ٢ . ص ٢٥٨ و ٢٥٩ .

المناسبة ، ورافق ذلك إطلاق عيارات نارية من شباب القرية . أما عريسها فقد انسحب من بين زملائه إلى نبع القرية للاستحمام وارتداء ثيابه الجديدة ، وعاد بعد ذلك راكباً جواده المزين وعلى بردعته غطاء مرزكش ، محاطاً بشباب القرية ، وكان اثنان منهم يضربان على الدفوف أما البقية فكانوا يطلقون العيارات النارية من بنادقهم وسار موكبهم بالعريس إلى بيت شيخ القرية ، وحمل هناك على ذراعي رجلين ، وسارا به لمدة ربع ساعة وسط المغنين والهاتفين ، وعادوا به مرة أخرى إلى شيخ القرية ، حيث قام بتهنئته وتبعه في ذلك جميع الحضور ، وبقيت الاحتفالات حتى غروب الشمس والعريس موضع لنكات الزملاء والأصدقاء . وبعد ذلك أخذ إلى كنيسة القرية حيث كان الخوري بانتظاره مع عروسه لتكليلهما وعقد قرانهما » وبعد ذلك عادت جوقة الشباب إلى سابق أمرها في الهتافات والرقص والغناء .. أما والد العريس فقد قام منذ الصباح بذبح عدد من الحملان والجدايا ليسلقها في ثلاث حلل خاصة ، ويطبخ البرغل إلى جانبها ، كل ذلك في مضافة شيخ القرية ، ولقد خصصت حلتان منها لإطعام عامة الناس أما الحلة الثالثة فخصصت لإطعام وجوه القرية . وفي الليل تم زفاف العروسين»^(١) .

ج - أعراس البدو

لم تتبدل عادات البدو في هذا المجال عما ورثوه منذ أجيال . فالبدوي يسعى للزواج ما بين سن ١٥ — ٢٥ ، وقبلما يتأخر إلى سن الثلاثين . وينتقي البدوي شريكة حياته من خلال الحل والترحال واختلاط الجنسين وتعارفهما . وكان يراعى في ذلك الاعتبارات الاجتماعية . ويقول فتح الله بن أنطون الصايغ : « البدو لا يتزوجون إلا كل واحد من أمثاله الكبير بالكبير والمتوسط بالمتوسط والصغير بالصغير . وذلك كي لا يضيع النسب بل يبقا دائما محفوظا »^(٢) .

ومن جهة أخرى كانت البنات البدويات يطلبن للزواج وهن صغيرات السن أكثر من أخواتهن الحضريات . لأن عيش البداوة وإقليم البادية يعجل في نضجهن مبكراً . وبهرمهن أيضاً في سن مبكر . ولم تستشر الفتاة البدوية في اختيار شريك حياتها إلا عند عقد قرانها .

1 - See: Burckhardt. John «travels in Syria and the Holyland». PP.297.

(٢) انظر : المقرب في حوادث الحضر والعرب . ص ١٦ أ و ص ١٦ ب .

فوالدها أو ولي أمرها يزوجه لمن يشاء، وغالباً لمن يزيد في نقدها. وزواجها يتم بحسب القاعدة الشرعية. ويتم خطبة الفتاة بعد استمزاغ رأي والديها، فإذا ما قبلا يستصحب ولي العريس جماعة من ذوي الوجاهة إلى مضارب أهلها، ومعهم ما يلزم للطعام من ذبائح وبرغل وطحين وسمن وقهوة.. وعند وصولهم يقوم كبيرهم مخاطباً والدها أو وليها قائلاً: «جيناك طالبين ومن عندك إن شاء الله مانعود خايين» فيجيب على ذلك «حياكم الله القمرء أمامكم والظلمة قفام» وعندئذ يعلنون الموضوع فيجيبهم إلى طلبهم بأنه وهبها لهم، فيجيب والد العريس نقابل عملك هذا بمكافأة كذا من المال والحلال من الماشية أو الجمال.

وكان مهر الفتاة يزداد وينقص بحسب وضع والدها وعريسها المادي والاجتماعي. وتبدأ المراسم بذبح الذبائح وإيلاء الولائم ويقدم الخطيب الخطيبته كوفية حريرية معقودة على نقود ذهبية عنوان الرضى والربط والقبول.

ويذكر أن قبائل الشرارات وأمثالهم من القبائل المتوغلة في البوادي، كانوا إذا ما أرادوا الاقتران أو الزواج لا يذبحون ذبيحة بل يضع الخطيب في قبضة يده اليمين حنطة وتطبق مخطوبته يدها فوق يده. ويخاطبها قائلاً: «أتقبليني لك رجلاً على سنة الله ورسوله» فتجيبه «قبلتك» فيقول: «بحق البر وخالق البر لأتوق ولا نوق هي سنة الله ورسوله ورباط العيش ورب العيش أنا لك زوج وأنت لي حليلة»^(١).

أما ما يتعلق بمراسم العرس لدى البدو فكانت الاستعدادات تتم قبل بداية الاحتفالات ويبدأ الاحتفال في يوم الأحد غالباً ويجتمع الرجال كل مساء والنساء حيث يغنون (ويدبكون) ويرقصون معاً حتى يوم الثلاثاء، حيث تتشكل قافلة من رجال ونساء عشيرة العريس، يركبون على الخيول وبعضهم يسير على الأقدام وبعض النساء في الهودج المحمولة على الإبل. وتخرج تلك القافلة إلى منزل أهل العروس وهم يرحون على ظهور الخيل والنساء يغنين والرجال يطلقون العيارات النارية في الفضاء.

ويدعوهم لضيافته أول من يصادفهم، فيلبون دعوته، وبعد إكرامهم تذهب النساء إلى أهل العروس فيستقبلن بالترحاب، ويأتي أهل العروس التي تكون قد اختفت من الوجهة

(١) انظر: زكريا، أحمد وصفي. عشائر الشام. ج ١، ص ٢٣٨.

نحجلاً فيحملنها ويلبسنها أثواب العرس ويعطرنها كما هو المعتاد ، وهن يغنين وينشدن . ويذبح
لهن ذبيحة خاصة ويعد لهن الطعام . وفي المساء يأتي من محارم العروس (والدتها — شقيقتها
— خالاتها — عماتها — ومن يمت إليها بقرابة) يحممنها ويزينها بأجمل ما أمكن من أنواع
الزينة السخية (تنميق الحبايب) وفي الصباح يأخذن العروس ومعها أمها وإحدى المحرمات ،
بالنشيد والأغاني وإطلاق الرصاص إلى مضارب خيام العريس ويسمون القافلة (قطار
العرس) . وفي هذا الوقت يكون العريس قد استحم وأعد نفسه للزفاف . ثم تعد للعروسين
خيمة منفردة متوسطة يسمونها (البرزة) . وفي اليوم الثاني يقدم العريس لعروسه نقوداً يسمى
(نقوطاً) ، وصباح اليوم الثاني يتوافد الأصدقاء لتقديم التهئة العرايسية مع تقديمهم الهدايا
ويقوم أهل العريس بذبح الذبائح وإعداد الطعام لهم . وبعد أسبوع تقوم العروس بزيارة أهلها
وتأخذ معها سمناً لتقدمه لهم ، وتعود من عندهم بالهدايا هذا ما يتعلق بعرس البدوية العذراء ،
أما الثيب فلا يتم لها مثل هذا الاحتفال ^(١) .

وكانت عادة البدو عندما يتجولون مع زوجاتهم في البادية أن يحملوا معهم شهادة
زواجهما كي لا يتعرضا لأي مكروه من قبل البدو الآخرين . ويذكر الصايغ أنه كان على
العروس « أن تحفظ هذه الوثيقة في رأسها حفظاً جيداً وتحترس عليها من الضياعان (الضياع)
وأسباب ذلك من حيث وجودهم بالجلول (البادية) يروحوا مراراً كثيرة إلى عند بعضهم من
قبيلة إلى أخرى لأجل يروحوا لعند أقربائهم أو أحبابهم من المعلوم يمرون على قبائل عرب كثيرة
بالطريق فيمسكوه ويطلبوا منه ورقة الزينة ... وخوفاً ليلاً يكون مشروطاً من عند أهلها يعني
خاطفها وهارب بها فحينئذ يظهر لهم الورقة فيطلقوا سبيلهم يتوجهوا إلى محل مقصدهم
والذي يكون مامعه ورقة ، ضايعة منه يخلصوا المراهمة ويحطوها في بيت الحاكم حتى يروح
زوجها يرجع إلى قبيلته ويحجب ورقة ثانية بشهود وختم الحاكم يسلموه زوجته ويروح إلى محل
سبيله » ^(٢) .

د — أعراس أهل الذمة في دمشق

لم يكن من خلاف يذكر بين أعراس المسلمين وأعراس أهل الذمة في هذه الفترة ، إلا

(١) انظر : زكريا ، أحمد وصفي . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٢٤٦ و ص ٢٤٧ .

(٢) المقترَّب في حوادث الحضرة والعرب . ص ٧ ب و ص ٨ أ .

من حيث الطقوس الدينية ، ودرجة التحرر . ويقول نعمان القساطلي إن النصارى « لا تظهر نساءهم على رجالهم وكان اختيار العروس عندهم كاختيار المسلمين لها وهذه عادة مضرة جداً بالنظر إلى الأمة المسيحية التي لا طلاق عندها . وكم فتاة شنيعة المنظر سيئة الطباع تزوجت بجمال أختها لأنهم كانوا يرون الخاطبات الجميلة ويدلونها وقت العرس بالشنيعة إلى غير ذلك من الأعمال المضرة »^(١) ولا غرابة في ذلك فحجاب النساء عادة قديمة في الشرقيين وكان يحرم الاختلاط بين الجنسين واستمر الحال في هذه الفترة ، حيث كانت قريبات العريس يقمن برؤية الفتاة شريكة حياته المقبلة ويقمن بوصفها له ولا يسمح له برؤيتها إلا بعد كتب كتابها .. وبدأ التغير يطرأ على أهل الذمة في هذا المجال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعد أن فتحت دمشق على المؤثرات الغربية وازداد الاحتكاك بالغربيين فاقتبس الدمشقيون بعض عاداتهم وخاصة النصارى واليهود . فأصبح الخطيب قادراً « أن يختار الفتاة التي تناسبه فيما إذا قبلت به » أما مدة الاحتفال بالعرس فكان سبعة أيام ثم صار ثلاثة أيام وبعد سنة ١٨٦٠م / ١٢٧٦هـ صار يوماً وليلة^(٢) .

وكانت عادة النصارى أن يوزعوا الدعوات قبل سبعة أيام من العرس ، ويأتي المدعوون إلى بيت العريس يوم الأحد مساءً ، وتأخذ آلات الطرب تعزف من الساعة الرابعة أو الخامسة ، ويذهب الجمع رجالاً ونساء ليأتوا بالعروس ، ولا يسمح للعداري بمرافقة الموكب ، والرجال يحملون الشموع الموقدة في أيديهم . وعند وصول موكبهم إلى بيت العروس يجدون باب بيتها مغلقاً فيطرقونه ، ولا يفتح لهم بسهولة ، وهي عادة قديمة ، وتعني أن العروس عزيزة على أهلها . وعندما يفتح الباب يدخل الإشبين أولاً (وكيل العريس) فيكرم البواب بدراهم ، ويدخل وراءه الناس ، فيستقبلون أحسن استقبال . وبعد أن يلبثوا ببسط وانشراح وشرب يوزع وكيل العريس شمعاً على الرجال الذين في بيت العروس ، ثم تغطي العروس بإزار ويذهبون بها إلى بيت العريس بالأغاني والتراتيل والرجال تتقدم النساء كما أتوا . وحينما يدخلون البيت تلبث النساء مع العروس في حجرة وحدهن ، وبعد هنية تصوير صلاة الإكليل ، ثم تحيط النساء بالعروس ، ويجلبنها برقص وغناء والشموع بأيديهن ، ويذهبن إلى حجرة المائدة ، وتكون عليها المآكل الفاخرة من الحلوى والفواكه . وبعد أن يأكل جميع الحاضرين يذهب بالعروس إلى

(١) انظر : الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص ١٢٦ و ص ١٢٧ .

(٢) القساطلي ، نعمان . المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

حجرة معدة لها ولعريسها ، ويأتون بعريسها يأخذون بالانصراف ولا يبقى إلا بعض النساء اللواتي هن أشد قرباً للعريس مع والددة العروس^(١) .

أما أعراس اليهود فكانت مزيجاً من عادات المسلمين والنصارى^(٢) ، وكان الزواج يتم لديهم في سن مبكرة أكثر من المسلمين ، والبعض منهم يخطب في سن مبكرة جداً ، أو قبل الزواج بأشهر قليلة ، على اعتبار أن زواجهم لا يتم إلا من أبناء دينهم ويتم بين الأقرباء ، وفي مثل هذه الحال تكون الفرصة مهيئة لتعرف العروسين على بعضهما البعض^(٣) . وأهم ماميز اليهود في هذا المجال ، سؤال الشاب عن الفتاة ومالديها من مال ، وما يريد أهلها وهبها منه^(٤) . ومتى تمت الخطبة يكتب بين الخطيبين ما يسمى (قنيان) أي عهد ، ويسمونه (شيطارا) ، ويعينون فيه مقدار المهر المدفوع من الطرفين ، ويذكرون فيه ما اتفق الطرفان عليه من شروط . وفي اليوم المحدد تنعقد جمعية يسمونها « كتبة » ، فيتسلم الزوج الأمتعة والنقود التي تعهدت الزوجة بتقديمها إليه . وبعد ثلاثة أيام تكون حفلة الزفاف المعروفة باسم (قدوس)^(٥) .

وكان عرس اليهودي مشهوراً بما يظهر فيه من مظاهر الفرح ، وكانت تقام وليمة العرس لمدة سبعة أيام كاملة ، بحضور الأقرباء والأصدقاء ، وكان يظهر في هذه المناسبة بين نسائهم عديد من النساء المسلمات والمسيحيات المدعوات للعرس ، فتعزف الموسيقى ويبدأ الجمع بالرقص ، والمهرجون بتقديم ألعابهم ، وكانت عاداتهم أن يشترك الجنسان (ذكوراً وأنثاء) في إحياء حفلة العرس . وكانت العروس تجلس على كرسي ذي ذراعين في وسط الديوان المفتوح ، أو على ديوان في فجوة أو زاوية وخلفها ثلاثة شموع ضخمة طويلة مشعلة في حين تكون العروس مغطاة بحجاب القز الأحمر الشفاف لدرجة يشف عما تحته ، وتكون أجفانها مطبقة ، أما بشرة وجهها فمطلية بالحمرة^(٦) وثيابها من الحرير وكانت تزين جسمها المجوهرات والحلي وكانت تجلس والدتها أو إحدى قريباتها إلى جانبها . أما بقية النسوة فيجلسن محجبات على بعد خطوة وراء العروس ، وتبقى العروس على هذا الوضع لمدة ساعة حتى ظهور الرجال

(١) أيضاً القساطلي . المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٢) أيضاً القساطلي المصدر السابق . ص ١٢٩ .

3 - Russell, alex. op.cit.VOL.2,P.79.

(٤) القساطلي ، نعمان . المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

(٥) كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ . ص ٢٩٠ .

(٦) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

القادمين لإتمام بعض الإجراءات الدينية للعريس في الكنيس . وحالما تنتهي تلك الطقوس الدينية كانوا يأتون بموكب يتقدمهم الحاخام و ٢ - ٣ من الربانيين ويدخلون إلى العروس فتتوقف الموسيقى والغناء ويقود العريس والده إلى يسار عروسته ليغطي رأسيهما بنقاب صوفي وتسمى (طليطة) أي طيلسان ، ثم يقدم الزوج إلى زوجته قطعة من الفضة فتأخذها منه ويشهد بذلك رجلان ليس لهما قرابة بأحد الطرفين ومن حين تسلم الزوجة القطعة المذكورة من الزوج ، يخاطبها بقوله : « هاري آت ميقديشت لي بي طباعت زكيدات موشي واسرائيل » أي أنت مقدسة لي بهذه القطعة مثل دين موسى واسرائيل . ويعود الوالد إلى الورا ، ويقدم زجاجتين من الخمر للحاخام الكبير فيبارك ذلك بدعاء طويل باللغة العبرانية ، ويشرب منه جرعة ثم يدار على الحاضرين ، فيشرب كل واحد منهم جرعة ثم يعاد إلى الحاخام فيرميه إلى الأرض فينكسر .. وقد تسفح الخمرة على الأرض وتعاد الزجاجتان الفارغتان مرة أخرى إلى الحاخام .. وبعد ذلك ينزع الحجاب عنهما ويتقدم العريس من الديوان لتقبل التهاني من أصدقائه ، وكان يصحبه موكب الرجال إلى بيته الخاص ، ليتجمعوا على وليمة كبيرة تكون معدة لهذه المناسبة ، وتحتوي على الفاكهة والحلويات الفاخرة المتنوعة .

وعندما يصل إلى ذلك البيت تكون عروسه قد وصلت إلى بيت الزوجية بصحبة النساء . وتستأنف الموسيقى عزف الألحان ويرافق ذلك الغناء . وتبقى قريبات العروس حتى نهاية الأسبوع . أما بقية النساء فيذهبن مع الليل إلى بيوتهن^(١) وبعد زواجهما ، كان على العريس الإمساك عن زوجته خمسة عشر يوماً ، وأن ينطبل أي ينغمس في حوض خصوصي . وعلى الزوج أن يدعو في ثاني يوم من زواجه عشرة من رؤساء الدين ليولم لهم ، وعلى رئيسهم قبل الأكل أن يبارك على المائدة سبع مرات كما بارك على كأس الخمر يوم الزفاف^(٢) .

(١) كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ ، ص ٢٩٠ . ثم انظر : Russell.A.op.cit.PP.80-81-82 وما ذكره

محمد بكرد علي عن الاجراءات وتقاليد العرس لدى اليهود لا يختلف عما ذكره اليكس راسل لدى اليهود في حلب في القرن الثامن عشر .

(٢) كرد علي ، محمد . المصدر السابق . ج ٦ ، ص ٢٩٠ .

الأتراح لدى مسلمي دمشق

الموت أهم حدث يثير الحزن لدى الانسان ، سيما إذا كان المتوفى قريباً أو عزيزاً ، ولهذا كانت المراسم والتقاليد التي ترافق حدث الموت محترمة بكل أجزائها ، وهي منقولة من أجيال سابقة ويكاد يستوى في رعايتها الفقير والغني والجاهل والعالم والكبير والصغير ، وطقوسها الدينية واحدة وجل مافيه من اختلاف كان في مراسمها الاجتماعية بحسب فئة المتوفى الاجتماعية .

فمن العادات التي كانت متبعة آنئذ في دمشق لدى أغنيائها استدعاء بعض النادبات لذكر مناقب الميت ، واستدرار الدمع مقابل أجر معلوم يدفعه أهله لهن . ويقول القاسمي كان « ثمة نساء متهتكات يكلفن بالندب فيندين وذلك عندما يموت أحد الأغنياء أو التجار الكبار فيأتي أهله باللطامات ويوفوهن أجورهن سلفاً ، فعلى قدر ما يعطونهن من الأجرة يقمن بنظيره إن كان كثيراً فكثيراً وإن كان قليلاً فقليلاً ، وهن مؤلفات من أربع إلى عشر نساء ، يلبسن الثياب السود ويسخنن وجوههن وأيديهن بمسحوق الفحم ويحللن شعورهن على أكتافهن ، ويدرن بأطراف الدار وهن كالرئيس ، وأهل الميت حولهن كالتلاميذ ، فيأخذن بالولاول والصراخ والبكاء والنحيب والندب ، ويعددن صفات الميت ومحاسنه وما كان عليه في حال حياته من بره وكرمه وعطائه وإحسانه للفقراء والأرامل والأيتام وغيرهم ، ويلطمن على

صدورهن وأرجلهن ويصحن بالولاول ويساعدهن على ذلك أهل الميت^(١)، إلى أن يخرج بالميت من الدار ويبقى ذلك ثلاثة أيام متتالية، وإذا ما قضى أحدهم نجه خارج بلده غريباً وحيداً وبلغ أهله ذلك يأتون باللطامات وقيمون المآتم ثلاثة أيام متتالية^(٢) ولقد استنكر علماء دمشق هذه العادات واعتبروها منافية للإسلام وزالت مع الزمن فأصبح نادراً وقوعه إلا من أراذل الناس وسفلتهم^(٣).

ومن الإجراءات المتبعة أن يغسل الميت قبل الصلاة عليه ودفنه، وتغسيل الميت له هدفان: هدف ديني وهدف اجتماعي. أما الهدف الديني فتغسيله «كغسل الجنابة وفرائضها وسنتها وفضائلها سواء بسواء»^(٤) أما الهدف الاجتماعي فهو بمثابة الكشف الطبي في وقتنا الحاضر للتأكد من أن المتوفى قضى نجه بشكل طبيعي دون عملية غدر من أحد. وكان يقوم بهذه المهمة أناس محترفون فيغسل المتوفى رجل مختص وتغسل المتوفاة امرأة مختصة أيضاً. وكانت هذه الحرفة متوارثة في أسر معينة في دمشق وقراها، وكان على محترفيها أن يحصلوا على إقرار من القاضي في دمشق وتسجل موافقته في سجلات محاكم دمشق. فمثلاً في ٢٢ صفر سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٢ - ١٨٠٣م قرر القاضي محمد سعدي صديقي «راجحة بنت السيد عثمان في وظيفة التغسيل بقرية عين ترما لنساء أموات المسلمين لشغور ذلك»^(٥).

وغالباً ما يوضع الميت على المغتسل الذي هو ملك عام للحي أو القرية ويغطى بغطاء معين كي يستر العورة إذا كان على ملأ من الناس، وبعد ذلك تنشف الجثة وتكفن بقماش ناعم وتحمل على نعش أو سحلية حيث يوجد في مقابلة الرأس قطعة خشب مثبتة في النعش

(١) يذكر نعمان القساطلي أنه من عوائد «الدماشقة في أحزانهم عندما يصاب أحد أفراد البيت بالموت يستنوي أهل المتوفى وأصحابه فيأتون ويلبسون ملابس سوداء أما النساء فيحللن شعورهن ويأخذن في أنواع النحيب وبعضهن يبالغن في ذلك حتى يسببن ضرراً لزواتهن وأقرب الناس إلى الميت يلبسون الأسود حزناً عليه مدة طويلة». انظر: الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ص ١٢٩.

(٢) القاسمي: قاموس الصناعات الشامية. ج ٢، ص ٤٠٣. ثم السباعي، بدر الدين أضواء على قاموس الصناعات الشامية. ص ١٤٢.

(٣) القاسمي. المصدر السابق. ج ٢، ص ٤٠٣. ثم السباعي. المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٤) القاسمي. المصدر السابق. ج ٢، ص ٤٥٩.

(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ - ١٢١٧هـ / ص ١٥٤.

يوضع عليها الترابان أو الطربوش « في الفترة المتأخرة » أو العمامة أو الطبزة إذا كان المتوفى من شيوخ الطرق الصوفية^(١) .

وكان من عادة الحلبيين في هذه الفترة بعد تغسيل الجثة دهن بعض أجزائها بمرهم الناردين « مرهم عطري الرائحة » أو بمسحوق مركب من هذا المرهم مضافاً إليه بعض الأعشاب العطرية الطبية ، ويغطي نعش المرأة المتوفاة بغطاء من القز الأبيض ويوضع أحياناً على النعش بعض طاقات الزهور^(٢) .

ويرافق موكب الجنازة أقرباء الميت وأصحابه ، والقراء الذين يقرأون القرآن بالأصوات الحسنة والتهليل ويكون على رأس الموكب الشيوخ المسنون ويأتي بعدهم النعش محمولاً على أيدي رجال مخصوصين لهذه الغاية يأخذون أجراً على ذلك ويحيطه بعض الشيوخ ، ويأتي خلف النعش أقرباء المتوفى الذكور أما أصحابه فيسيرون بحسب مراتبهم الاجتماعية ، ثم بعدهم تأتي النساء والعبدات الجوارى ، وبينهن النادبة أو النادبات ، مسدلات الشعور والنقاب مسدل بغير إحكام مطلعات الولولات ناشجات باكيات وإذا ما اشتد الهياج يشددن شعرهن ضاربات صدورهن العارية .

أما إذا كانت المتوفاة هي الأم فيلحق بناقليها إلى قبرها أولادها . أما المرأة المسنة والأرملة فكانت ترافقها الأسرة دون حزن عميق ، ويبدو الهدوء على النسوة المرافقات لها ، وقد يكلفن إحدى النادبات للقيام بهذه المهمة . وفي مثل تلك الحالة فإن موكب الجنازة يتقدم بخطى سريعة إلى ساحة أقرب جامع مجاور لبית الميت . أما إذا كان المتوفى من الشخصيات البارزة في دمشق كأحد كبار رجال الدين والحكام وغيرهم فغالباً ما كان يصلى عليهم في الجامع الأموي فيوضع الميت قبالة المقصورة ، ويدخلونه بالقراءة إلى موضع الصلاة ، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد ودخلوا بالجنازة . وبعضهم يتجمع له بالبلاط الغربي من الصحن على مقربة من باب البريد ، فيجلسون وأمامهم ريعات القرآن يقرؤون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل من القراء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون : « بسم الله فلان الدين بن كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك ، فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون : افتكروا

(١) القاسمي . محمد سعيد . ج ٢ ، ص ٣٧٤ .

2 - Russell .A. op.cit.VOL.1.P.307.

واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه»^(١).

وكانت دمشق تجتمع لجنزة أحد علمائها فيورد البديري كما يورد صاحب سلك الدرر عديداً من الأمثلة على ذلك . فمثلاً في سنة ١١٦٣هـ / ١٧٤٩ — ١٧٥٠م مات الشيخ محمد بن عبد الهادي العمري وصلوا عليه في الجامع الأموي ودفن في مقبرة مرج الدحداح وكانت جنازته غاصة بالرجال والنساء ، وأيضاً لما توفي نجيب أفندي السفرجلاني الذي كان من صدور أكابر دمشق ، صار له مشهد عظيم ودفن في مقبرة باب الصغير وكذلك لما توفي الشيخ الصالح العالم الشيخ مصطفى بن الشيخ شعيب من محلة باب السريجة ، صار له مشهد عظيم بالاعلام وخرجت بجنازته جميع مشايخ الطرق^(٢) . وعندما توفي أحمد السيد المرادي سنة ١١٨٠هـ / ١٧٦٦ — ١٧٦٧م اجتمع للصلاة عليه وعلى دفنه جميع علماء وكبراء دمشق^(٣) . وعندما مات والي دمشق الوزير محمد باشا العظم في سنة ١١٩٧هـ / ١٧٨٢ — ١٧٨٣م «اجتمعت الأعيان والرؤساء بداره فغسل بها وخرج بجنازته على السوق الجديد حتى وصلوا إلى الجامع الأموي ، فوضعت تجاه ضريح سيدي يحيى وتقدم للصلاة عليه المولى أسعد أفندي الصديقي المفتي ثم حمل بجمع عظيم لم يتخلف عنه أحد من أهل دمشق من الرجال والنساء وخرجوا بالجنازة على سوق جقمق فالباب الصغير حيث دفن بها»^(٤).

وكانت عادة الدماشقة قراءة القرآن والأذكار على روح المتوفى ، ويطلق عليها اسم (التهليلة) وكانت تقام في الليلة الثالثة و ليلة أول خميس من وفاته ثم ليلة الأربعاء أو ليلة وفاء عدة زوجته ، أو ليلة تمام السنة . ففي هذه المواعيد تقام التهليل خاصة إذا كان المتوفى غنياً أو طبقاً لوصيته قبل وفاته . وعلى ضوء ذلك يختلف الاحتفال بذلك ، وكمية الأموال المصروفة من شخص لآخر ، وتوهب خير الآيات المتلوة إلى روحه . وكان يقوم بذلك في دمشق بعض

(١) انظر : ابن بدران ، عبد القادر . منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، ص ٥٦ .

(٢) حوادث دمشق اليومية ، ص ١٣٦ و ص ١٣٧ .

(٣) سلك الدرر . ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٤) المرادي ، محمد خليل . المصدر السابق . ج ٤ ، ص ١٠٢ .

الشيخ العميان أو بعض الطرق الصوفية^(١). ويعطون من الأموال بحسب هبته أو بحسب ماتبرع به الورثة وأهل الفقيد، وتراوح المبلغ ما بين الخمسمائة قرش إلى عشر ليرات، أو ربما زاد عليها^(٢). ويأخذ شيخ التهيلة المال ليشتري به سمناً لقلي العوامة، وطحينا من الجنس العالي، وزيتاً وخشباً وسكراً ودخاناً، ويرسل وزاء قلا العوامة فيأتي ويتفق معه على العجين والطحين، فيحضر ويعجن من النهار في أطباق ويبي كانونه ويهيأ له تنكة سمن ويكون بيت الشيخ قد تهيأ بفرشه وتزينت أمكنة الجلوس للضيوف المدعويين وتعلق المصابيح بعد أن يكون قد دعا رئيس الذكر مع جماعته وهم نحو ستة أو أكثر. وقد يدعى لها جماعة من المولوية حتى إذا أذن لصلاة العشا أخذ المدعوون وأهل الذكر ومن يدعوهم الشيخ من أهله وجيرانه، يغدون إلى دار الشيخ وبعد أن يلبث الجميع حصّة يتناولون بها القهوة، تفرق أجزاء الربعة، فبعد أن يقرأ منها ما يقرأ، تمد لرئيس الذكر وجماعته فرشة يجلسون عليها، ويبدأون بعملهم وتسمى (المسبحة الأولى)، ويبقى الذكر نحو ساعة ونصف والمنشدون من ورائهم ستة إلى عشرة بحسب أهمية التهيلة، ويضيفون إلى الإذكار كثيراً من الأناشيد الأخرى، كالششتري، ويقرؤون الإكرامية ومنظومة الدردير أو البكري بتمامها. وكنت ترى ضجة المنشدين الذاكرين تسمع من مسافة عشرين بيتاً أيام الصيف، وبعد انقضاء العمل، يستريحون برهة يشربون فيها القهوة، ثم يقومون إلى إعادة العمل السابق، ويستمر ذلك لمدة ساعة. ثم يستريحون أيضاً ويقرؤون بعد ذلك للوقوف فيذكرون وهم قيام أقل من ساعة أنواعاً من أناشيد الهيام والتواجد، وهناك يلبس جماعة المولوية وهم عشرة أوائل، لباسها الأبيض، ويدورون على الذكر ثلاث مرات في ثلاث ترويجات، ثم ينصرفون. ويختتم رئيس الذكر وجماعته بعدهم الذكر المعروف بذكر الحجازي الذي هو الآمدية. ثم يجتمعون ويدعو شيخ التهيلة للميت ويؤمن الحاضرون على هذا الدعاء، ويهدي ثواب قراءة القرآن ونشيدان الإذكار إلى الميت. ثم يجلسون ويكون

(١) القاسمي، قاموس. ج ٢، ص ٤٥٩.

(٢) «أوصى المرحوم قواص الحاج علي بن ابراهيم كناهوي قبل وفاته أن يصرف من ماله مائة وثلاثون غرشاً لاسقاط الصلاة وكفارة والفتال والجمال وصنقات للفقراء وخمسة وأربعين قرشاً للغير وثمانية وستين غرشاً ونصف للكفن ولشاهدة تسعة غروش وتلاوة ختم القرآن إحدى وعشرين قرشاً ولوقف مكرم شريف ثمانية غرش وبساط إلى الجامع الأموي الشريف. وثمانية غروش ومائة قرش يعمل بها حلالة على روح المتوفي فتكون بدون تكرار ٥٨٣ قرشاً». انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٤٠ / ١٢٥٠ — ١٢٥٤ هـ. ص ٣٥.

أهل دار الشيخ قد هياؤا سفرة الطعام للمسبحة الأولى . ودعوا لها من حضر تدريجياً على حسب المقام . ولا يفرغ الذكر بتمامه حتى يكون قد أكل كثير من الحاضرين وانصرفوا . ثم يفرق الشيخ الجوائز على الذاكرين والمنشدين والمولوية والخدم وماتبقى فيأخذه لنفسه^(١) .

وفي الأيام المحددة (العدان) التي ذكرناه آنفاً يذهب أهل المتوفى إلى الشيخ الذي اشتهر بإقامة التهليل في داره فيعطونه المقدار الموصى به للتهليلة أو المتبرع به ، فيتكلف الشيخ بإقامة التهليلة « ولا يقام وزن للتهليلة حتى ولو قدمت جميع المآكل دون العوامة »^(٢) .

ويقوم أهل المتوفى بطبخ الطعام وتقديمه للفقراء والمساكين داخل الدار ويوزعون أرغفة الخبز وفي طيها الطعام والدراهم ، فيأتي الكلايب^(٣) لتناول بعض الصدقات سواء كانت طعاماً أو دراهم . ولقد كثر عدد أصحاب هذه الحرفة بدمشق وكثر أذاهم وكان لهم جواسيس يجلبون لهم الأخبار عمن مات ويحسبون لهم مواسم الموتى من أربعين وإتمام السنة ... ويمكن تفسير ذلك بسوء الأحوال الاقتصادية إذ لو توفر لبعضهم الكسب الحلال لما امتنعوا تلك الحرفة التي غالباً ما كانت على حساب كرامتهم .

(١) انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ . ص ٢٢٢ و ص ٢٢٣ .

(٢) انظر : القاسمي . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٣٢٤ و ص ٣٢٥ .

(٣) جمع كلاب وهو من الفقراء والمعدمين الذي يتبع الجنازات فيأتي دور الموتى لتقبل الصدقات التي يوزعها أهل المتوفى عن روحه في العدانات المعروفة . وبعض الكلايب لا يرضون بما يعطون فيتكلمون بالانسان ولا يمكنه أن ينفك عنهم حتى يرضيهم ، وقد يكون من وزع الدراهم غير مهذب ولا ميسور ، فيشتمونهم ويضربونه ، وقد يتساقبون مع بعضهم ويتضاربون ، إذا كانت صدقة أحدهم تزيد عن الآخر ، ويدخل هؤلاء الدار بالرغم من أهلها ، وقد يضطر أهل المتوفى لوضع حارس عند باب الدار ، ويكون شجاعاً ليدافع ويمنع ولكن لا ينصرفون دون شيء .

انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٣٩١ و ص ٣٩٢ .

مآتم أهل الذمة في دمشق

كانت مراسمها تنسجم مع عقائدهم الدينية . فاليهود منهم اعتادوا عندما تحضر المنية أحدهم أن يجلس اثنان منهم عند رجله ويذكرانه بقولهما : « شيماع اسرائيل آدوناي ايلو هينو آدوناي آحاد » أي اسمع يا اسرائيل الديان إلحنا الديان واحد . فإذا قضى نحبه وضعوه على (اللوحوت) أي المغتسل ، ويغسلونه بالماء الفاتر ، ثم يدرجونه في ثوب من الكتان ، ويعيونه بالتقريض والخروق كيلا يطمع به نباشو القبور ، ثم يضعون الجثة في (الأورت) أي النعش ، ويحضر أحد أقربائه ويقرأ عليه (قداشا) أي يصلي عليه صلاة الميت ، ثم يحمل النعش بين ثلاثة أشخاص وعلى كل من مرت به الجنازة أن يمشي معها أربعة أذرع أو أكثر ، ويطلب من الميت السماح ، فإذا وصلوا بالنعش إلى الكنيس قرأ عليه أحد أقربائه قداشا آخر ثم يحملونه إلى مدفنه ويوارونه في التراب ، ويقوم أحد الحاضرين ويبارك عليه بقوله « باروخ ديان ها ايميت » أي تبارك من شرع الحق . ثم يقرأ ولده قداشا ثانياً ويعود هو ومن معه من الأقارب والأصحاب إلى بيت الميت ، وفي أثناء الطريق يغسل كل واحد من الحاضرين يديه ويقول : « عينينو لو رأوو يادينو لو شافيوخو بيدام هذه » أي عينا مارأت وأيدينا ماسفكت هذا الدم . فإذا وصلوا إلى بيت الميت قام أحد الحاضرين إلى كل وارث له ومزق ثوبه من زيقه وهو يقول : « باروخ ديان ها ايميت » ثم تخرج مائدة عليها أطعمة متنوعة يرسلها أحد الحاضرين فيأكل منها ورثة الميت على شرط أن يضع الطعام بأيديهم أحد الحاضرين ويبارك لهم بقوله

« باروخ ميناخيم ايليم » أي تبارك الذي يسلي الحزين . وعلى ورثة الميت أن يلزموا منازلهم سبعة أيام لا يعملون فيها عملاً مطلقاً ، ويسمونها (التآيل) أي الحداد . وفي اليوم السابع يصنع طعام للفقراء ، وهكذا في اليوم الثلاثين وتمرور تسعة أشهر وتمرور سنة ^(١) .

وكانت عادة النصارى إذا ما احتضر أحدهم جاءه الكاهن (يستأديه وإجباته الدينية) ، وبعد أن يقضي نجه يتربصون بدفنه مدة أربع وعشرين ساعة يضعونه خلالها في صندوق ليحضر أقرباؤه وأصدقائه وفي الوقت المحدد يضعون الصندوق في نعش يزدان بالأيقونات وأكاليل الزهور فيحمل إلى البيعة ليصلي عليه ، ثم يحمل إلى المقبرة ، وأمامه صفوف الكهنة يترنمون بآيات من الإنجيل ، ووراءهم عظماء الطائفة وتلامذة المكاتب وحملة الصليبان والشموع ، وقد التف النعش أربعة من كبار الطائفة يمسكونه من أربع أطرافه بسفائف من الحرير الأسود . وحينما يصلون به إلى اللحد يضعه الحمالون عن كواهلهم ليوارى في لحده . ويصطف أهل المتوفى لتقبل التعازي ويمر عليهم المشيعون لجنازته لتعزيتهم وفي مقدمتهم رجال الدين . وفي اليوم الثالث للوفاة تقام صلاة للمتوفى في البيعة يسمونها جنازاً ، يسرجون فيها المصابيح قدر مايقع عليه الاتفاق من النقود بين أهل الميت وبين كهنة الطائفة ، وهذه الصلاة تعاد في اليوم التاسع وفي يوم الأربعين وفي نصف السنة . وكانت للنصارى تقاليدهم في الحداد ومدة يحدون فيها بحسب درجة قرابة المتوفى ، فحداد الولد على أبويه ثلاث سنين ، والأخ على أخيه والزوجين أحدهما على الآخر والأبوين على ابنيهما سنتان ^(٢) وكان لبعض الأسر مغارات يدفنون فيها موتاهم ، ولقد تعرضت موجوداتها للسرقة من قبل بعض اللصوص . ففي عهد سليمان باشا وفي سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٦ — ١٧٩٧م توفي مسيحي ميداني ودفن في ساحة مار جرجس فقام بسرقة ثيابه أناس من الشاغور ، وعندما شكت والدته المتوفى للوالي ألقى القبض على اللصوص وأعدمهم ^(٣) . وإن دلت هذه الظاهرة على شيء فإنما تدل على تسيب الأمن من جهة وعلى الظروف الاقتصادية السيئة التي كانت تعاني منها دمشق من جهة أخرى مما دفع باللصوص للسطو على موجودات الأموات في مقابرهم .

(١) انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ . ص ٢٩٠ و ص ٢٩١ .

ثم : رستم ، أسد . المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥ .

(٢) انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ ، ص ٢٨٨ و ص ٢٨٩ .

(٣) انظر : تفاصيل ذلك في تاريخ حوادث الشام ولبنان . لميخائيل الدمشقي ، ص ٤٨ .

التسلية والملاهي في دمشق

أدعى الدمشقيون أوقات فراغهم بطرق مختلفة . كالسهرات في البيوت بين الأهل والأقرباء والأصدقاء ، أو بارتياح أماكن التسلية في بيوت القهوة ، وتناولوا فيها أطراف الحديث فيما بينهم ، أو بالاستماع إلى النوبات والآلات الموسيقية والغناء ، أو باللعب باللعب المختلفة التي كانت سائدة آنئذ كالفناجين والخطبة والشطرنج والنرد والضومنا والمنقلة ، أو بالاستماع للحكايا من الحكواتي أو من أحد الحاضرين ، أو بمشاهدة الكركوزاتي (خيال الظل) .

ويلاحظ في هذه الفترة ازدياد عدد مرتادي المقاهي والخانات لتمضية وقت الفراغ ، مما يدل على تزايد عدد الغاطلين والمتسكعين ، ولم يرتد تلك الأماكن سوى الذكور دون الإناث إلا من كانت من بنات الهوى للارتزاق .

واختصت بيوت القهوة بالعامية دون الخاصة ، فارتادها الحرفيون وأبناء الأقطار العربية المقيمون في دمشق وأبناء القوميات غير العربية ، لهذا كنت ترى فيها بيوتاً خاصة بأبناء حارة معينة يرتادها أولئك دون غيرهم . ووجدت بيوت قهوة يرتادها أبناء الحرفة الواحدة كقهوة اللحامين والنجارين وغيرهم^(١) . ووجدت بيوت خاصة بالانكشارية اليرلية وأخرى خاصة

(١) كان لمخترفي تربية الطيور مكان يجتمعون فيه يسمى (قهوة الحمام) يقصده كل من يقوم أو يرغب بتربية الحمام ويطلق عليهم اسم حميماتية . انظر : القاسمي ، المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

بالقاضي قول ، وثالثة خاصة بالجنود المرتزقة توضع على عتباتها شاراتهم الخاصة ، فاعتبرت لذلك ملاذا لكل من يلجأ إليها وكان على روادها حمايته مهما كانت فعلته حتى ولو كانت جريمة^(١) . ووجدت بيوت قهوة خاصة بالمواصلة والبغداديين (البغادة) والمغاربة وغيرهم ، وبيوت خاصة بالأكراد والأفغان والأرناؤوط والأتراك . ولهذا يمكن اعتبار بيوت القهوة آنئذ بمثابة أندية في عرفنا الحاضر ، تلتقي فيها تلك الفئات المختلفة فتحل مشاكلها وتعتقد فيها المؤامرات ضد بعضها البعض وترسم الخطط ، بالإضافة إلى كونها أماكن للهو والتسلية . وملتقى للعاطلين والساقطين من أبناء مجتمع دمشق . ولهذا لم يأمن الخاصة على سمعتهم إذا ما ارتادوها . ويقول القاضي : « لا يدخل تلك القهاوي من كان به أي شهامة أو عقل أو دين حيث إنها مجمع الأسافل والأرزال »^(٢) . وكثيراً ما هوجم صبي يسير على قارعة الطريق من أحد الجالسين فيها أو اغتصبت امرأة أو قتل أحد المارة بسلاح أحدهم دونما ذنب اقترفه .

وكان من الطبيعي أن يخاف أفراد الخاصة على سمعتهم فيما لو جلسوا فيها . لهذا وصف من يجلس منهم فيها بالتواضع . ويذكر البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م أما أن الشيخ إبراهيم الجبائي « قد بلغ جاهاً عظيماً مع تواضع كلي بحيث يجلس بالقهاوي »^(٣) . ولا غرابة في قول البديري إذا ما علمنا أن الجبائي سليل أسرة دينية صوفية عريقة في دمشق .

ومن جهة أخرى فقد اختلف عدد بيوت القهوة في دمشق من فترة إلى أخرى . وما أن جاء القرن التاسع عشر حتى بلغ عددها / ١١٠ / مائة وعشرة مقاهي في أحيائها وأحيائها . وأشهر بيوت القهوة آنئذ هي : قهوة السكرية في باب الجابية وقهوة اللحامين بالقرب منها ، وقهوة الدرويشية وقهوة العسرونية وقهوة المناخلية وقهوة الجنينة بسوق الخيل ، وقهاوي العمارة وقهوة الجاويش بالقيصرية وقهوة الرطل بباب توما وقهوة باب السلام^(٤) . على أن أكثر المقاهي اتساعاً وأجلها للانشراح ما كان منها في المرجة . ففي فصل الصيف تتسع له / ٤٠٠ — ٥٠٠ / شخص تظللها أغصان وارفة ، وإذا ماتساقطت أوراقها في الخريف

(١) القساطلي ، نعمان . الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص ١٠٩ و ص ١١٠ .

(٢) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

(٣) حوادث دمشق اليومية . ص ١٩٣ .

(٤) القساطلي . المصدر السابق ، ص ١١٠ .

استعويض عنها بالحصر. وكان منها قسمان قسم صيفي وآخر شتوي، ومنها ما كان يقع في جزر صغيرة كَوْنها النهر ويعبر إليها على جسور أو مخاضات، وكان يرتاد هذه المقاهي عدد كبير من الأتراك، فيجلسون على الديفانات ليمتعوا الأنظار بما يونقهما من الماء والخضرة^(١).

ولم يكن يسمح بتناول المسكرات في تلك المقاهي علناً، إلا بعد دخول ابراهيم باشا المصري إلى دمشق في سنة ١٨٣١م / ١٢٤٦ - ١٢٤٧هـ. وإذا ما أراد أحد تناول المسكرات كان عليه أن يذهب إلى المقاهي المسيحية في باب توما، ويقول القاسمي: «من أراد تعاطي المسكرات والعياذ بالله يذهب لجهة باب الشرقي في حارة النصاري حيث يوجد هناك قهاوي متعددة تعرف بالجنائن في باب توما وقاصدوها يتعاطون القهوة والأراكيل والمسكرات»^(٢) وبقي حال دمشق هكذا إلى أن وقعت معاهدة كوتاهية بين ابراهيم باشا المصري والسلطان العثماني في سنة ١٨٣٣م / ١٢٤٨ - ١٢٤٩ حيث أعلن المصريون في دمشق عن قرارهم بإنشاء خمار في دمشق، وبيع انتاجها في مقاهي دمشق كقهوة علي ابن منين وقهوة باب شرقي وقهوة باب توما ودكاكين في باب الجابية وسوق الخيل وباب مصلى»^(٣).

وقدم الزبائن في بيوت القهوة، البن والأراكيل والشرابات المثلجة^(٤) مثل شراب الورد والتوت وغيرها، كما قدمت أدوات التسلية المختلفة المعروفة آنذ والتي ذكرنا بعضها آنفاً. ولقد تطورت المقاهي في القرن التاسع عشر بفعل المؤثرات الغربية فأصبحت نوعين: الأول وهو القديم وكان يسمى بالبلدي وتتألف من مصاطب مستديرة عليها حصر أو طوطايات وبها كراسي مربعة كوانين للتدفئة وبها مناخذ متينة موازية للكراسي. أما النوع الثاني فهو المدني وبها كراسي خيزران، ومايلزم من أدوات اللعب كالشطرنج والنرد والبيلارد واليزبك وورق اللعب وغيرها^(٥).

1 - See: Wright. Thomas.op.cit.PP.491-492.

- (٢) قلحوس الصناعات الشامية. ج ١، ص ٥١. وج ٢، ص ٣٦٢.
- (٣) مجهول. مذكرات تاريخية. ص ١٢ و ص ٨٩. مطبعة القديس بولس - حريصا - لبنان.
- (٤) كان يطلق على الثلج المحفوظ في كهوف جبال القلمون اسم (السويق) وكان يحفظ في كهوف نظيفة نسبياً زمن الشتاء، ويجلب إلى دمشق في فصل الصيف على الدواب ويباع لأصحاب المحلات والمقاهي.
- (٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠. ١٢١١ - ١٢١٦هـ. ص ٤٧٥. ثم سجلها رقم ٢٢١ لعام ١٢٠١ - ١٢٠٣هـ. ص ٢٤٣. ثم سجل محكمته المئدان رقم ٣٢٣ / ١٢٤٧هـ / ص ٦٥ و ص ٧٣. ثم البارودي، فخري. مذكراته ج ١، ص ٩٣. بيروت - دمشق سنة ١٩٥١م.

ولقد أغفلت سجلات محاكم دمشق لهذه الفترة أدوات اللعب فلم تأت على ذكرها . وربما اعتبرت أدوات ميسر نهى عنها الدين الإسلامي فتحايلتها . وجل مذكرته منها ، مكانها وهندستها وأثاثها .. وحسبنا أن نسوق مثلاً على ذلك موجودات القهوة خانة التي كانت موجودة ظاهر دمشق بمحلة سوق السنانية التي كانت تعرف بقهوة الحمام المشتملة على : « داخل وفناء وسقف وبركة ومساطب مستديرة وأوجاق معد لطبخ القهوة ومنافع شرعية ، ويشمل كامل كدكها على رفوف وخرستان وشبايك وأوجاق ولكن وغال وسكرة ومفاتيح وسبعة أراكيل . قشور وأربعة أراكيل نحاس وطاسة نحاس ولكن نحاس وتبعية نحاس وأربعة دولات نحاس وخمسين كرسي وبساط أحمر ... وعدة قناديل ومنافع شرعية وهي من أوقاف سنان باشا »^(١) .

ولقد وجد في بيوت القهوة حكواتية وكراكوزاتية يقدمون حكاياتهم وعروضهم لروادها مقابل أجر معين يدفعه الحاضرون . وكان معظم رواد الكراكوزاتية والحكواتية من الناس الذين يمجدون البطولة ، ويهتمون بأبطالهم في مغامراتهم ومعاركهم وحياتهم وبؤسهم وشقائهم ونعيمهم وسعادتهم ، فكنت ترى الحزن يسيطر عليهم عندما تحيق بأبطالهم الصعاب ويقعون في المآزق ، ويتمنون لو أنهم يستطيعون مساعدتهم ، كما ترى الفرح والبهجة في عيونهم وحركاتهم وتعليقاتهم عندما ينتصر أبطالهم على الصعاب والأعداء . وكانوا يرددون في مجالسهم وفي أوقات فراغهم تلك الحكايا والروايات التي شاهدوها أو سمعوها في بيوت القهوة^(٢) . ولهذا فإن هذا النوع من التسلية كان مفيداً وله أهداف تربوية . فكان يساعد على ترسيخ القيم الإيجابية في نفوس الجماهير ويشذب من أخلاقهم وينتزع جانباً من سلبياتها .

الحكواتي : كان الحكواتي يأتي إلى بيت القهوة في وقت مخصوص لإلقاء الحكايات . وكان يلقيها عن ظهر قلبه أو من الكتاب كقصة عنترة أو الملك الظاهر أو الملك سيف بن زي يزن ، أو بعض الحكايات المضحكة وغير ذلك^(٣) .

وكان أغلب أوقات تواجده في القهوة بعد المغرب وبعد العشاء . وقبل شروعه في

-
- (١) انظر : سجل محكمة الميدان دمشق رقم ٤١١ لعام ١٢٦٥هـ . ص ٦١ .
(٢) انظر : السيوفي ، حبيب . سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر . ج ٢ ، ص ٨ . لبنان المطبعة الخلصية سنة ١٩٤٩م .
(٣) القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج ١ ، ص ١١٢ .

الحكاية يحكي لهم مقدمة تسمى (الدهلز) فيها أمور مضحكة ، ونصائح وهي من العجب ثم بعد إتمامها يشرع في إتمام ما كان قدمه لهم في الليلة الماضية ، لأن الحكواتي يقف في محل من القصة تتحرق النفوس لتوقفه ، وبعضهم يتأذى بذلك القطع التأذي العظيم ، وذلك شطارة ومهارة من الحكواتي حتى ييكر الناس لاستماع تمام القصة في اليوم التالي ... ويورد لنا صاحب قاموس الصناعات الشامية صوراً عن تفاعل المستمعين مع الحكواتي تفاعلاً قوياً يصل إلى حد الخروج على حدود الصبر ، وينبذ الأكل والشرب ويسيطر القلق ويطير النوم من عيون البعض . ويورد لنا مثلاً على ذلك الحمصي الذي علم بسقوط عنترة أسيراً بتوقف الحكواتي عند ذلك ، فاسودت الدنيا في عينيه وذهب إلى بيته حزناً رافضاً الطعام مسيئاً معاملة زوجته ، وخرج إلى الأسواق لا يقر له قرار . حتى ذهب إلى بيت الحكواتي موقظاً إياه من نومه قائلاً : « قد وضعت عنترة في السجن قعيداً وأنت تنام مستريح البال فأرجوك أن تخرجه من السجن وأنا أعطيك ماتجمعه من الجمهور وإلا فإني لا أقدر أن أنام وعنترة محبوس مسجون . فلم يزل الحمصي على حاله من الغضب والهيجان حتى أتم له الحكواتي القصة ... وأخرج عنترة من السجن فطابت نفسه وحسن حاله » .

ولم يقتصر عمل الحكواتي على القهاوي بل ذهب إلى بعض البيوت بأجرة مخصوصة ، عند اقتضاء ليلة سرور ، وأما أجرته في القهوة فنصف أجرة صاحب القهوة ، لأن كل شخص يدفع لصاحب القهوة عشر بارات ويشرب قهوة ودخان فيأخذ الحكواتي نصف الحاصل^(١) . وأكثر ما يسترعي انتباهنا هو استخدام الحكواتية لأكثر من لغة في سرد حكاياهم مراعاة منهم لنوعية المستمعين في مقاهي دمشق . ويذكر لنا الإخباريون بعضاً من مشاهيرهم ، فيقول البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٥٥هـ أنه توفي سليمان بن الحشيش الحكواتي الذي « كان فريد عصره ووحيداً في أوانه وكان يحكي سيرة الظاهر وعنترة وسيف ونوادر غزبية في التركي والعربي ومع ذلك فهو أُمي لا يقرأ ولا يكتب »^(٢) .

وأورد محمد خليل المرادي اسم أحد الحكواتية الذين عاصروهم وهو أحمد شاكر الحكواتي ١١٢١ - ١١٩٣هـ / ١٧١٠ - ١٧٨٠م الذي كان يعمل في « بيوت القهوة

(١) القاسمي : المصدر السابق . ج ١ ، ص ١١٤ .

(٢) حوادث دمشق اليومية . ص ٣٤ .

فينقل الحكايات والوقائع ويبيدي النوادر واللطائف في أقبح المواضع مع فضله وأدبه الذي لا ينكر»^(١).

الكاركوزاتي : يبدو أن الكاركوزاتي كان أكثر تأثيراً بمشاهديه ومستمعيه من الحكواتي ، فالحكواتي كان تأثيره يقع على المستمعين من خلال وقائع قصته من ناحية ، ومن نبرات صوته التي تتلون حسب وقائع الأحداث بحيث يعطي نبرة الحزن التي تختلف عن نبرة الفرح ، أو الحماس أو الشمم أو الإباء وهكذا من أجل إحداث التأثير في سامعيه وشد انتباههم إلى أحداث القصة . في حين أن الكاركوزاتي بالإضافة إلى ماتقدم ، يعرض صوراً لشخصيات قصصه المختلفة ، ويلون نبرات صوته من وراء الستارة مع كل شخصية بحيث تختلف من شخصية إلى أخرى ، ويتعقب تحركات شخصياته التي يعرضها بأصوات مختلفة ، فتارة يركضون أو يركبون الخيل أو يحملون السلاح أو يدخلون المعارك ، بانفعالات مختلفة كالضحك والبكاء ، ويرتدون الأزياء الملونة . وهنا لا تخاطب حاسة السمع لدى المشاهدين كالحكواتي فحسب بل يخاطب حاسة البصر أيضاً ، وهما أمران هامين للتأثير على المشاهدين . لذلك يمكن القول أنه كان بمثابة الراي (التلفزيون) في وقتنا الحاضر .

ويصف لنا القاسمي عمل الكاركوزاتي بأنه كان « يعمل في القهاوي فينصب ستارة من قماش في زاوية من القهوة ، يربط بأسفل الشاشة خشبة على عرض الستارة ويضع فوقها سراجاً يوقد من زيت الزيتون ، وهو يقف خلف الستارة يلعب الخيالات ، وتكون القهوة مملوءة بالمتفرجين »^(٢).

ولقد وجد عدد من الكاركوزاتية ممن أتقنوا هذه الحرفة بسرعة تحريكهم الخيالات . ومرافقة ذلك بالغناء الجميل وتعليقاتهم الذكية والمؤثرة . وكان للكاركوزاتي طريقة في العمل . فقبل أن يبدأ بتحريك صوته على الطريقة التي يقتضيها فصل القصة يخرج شخصاً يسمى (الوصاف) فيخطب خطبة يعظم الله فيها ويحمده . ثم يتكلم على كل صنف من الصور التي تخرج بعده من خلف الستارة ، ثم يعلم الجماعة أن الله تعالى نصب هذا مثلاً لعباده ليعتبروا ويعلموا أن هذا العالم مع الله مثل هذه الصور مع محركها وإن هذه الستارة حجاب

(١) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . ج ١ ، ص ١٥٥ .

(٢) قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٣٨٤ .

سر الغد، المحكم في الخلائق، ومع هذا كله يتخذ الغافلون لهواً ولعباً^(١). ثم يبدأ العرض والتعليق.

ولقد لعب الكاركوزاتي دوراً اجتماعياً وسياسياً، حتى أنه في المراحل الأخيرة من حكم العثمانيين أرسلت السلطات العثمانية العيون إلى المقاهي لمراقبة ماتقدمه الكراكوزاتية لمشاهديهم من تحريض أو نقد لاذع للسلطات بطريقة غير مباشرة، مما يدل على أن ذلك كان يفعل فعله في نفوس المشاهدين.

صندوق الدنيا: ولقد كان قليل الأهمية بالنسبة للحكواتي والكراكوزاتي، إلا أنه كان له زبائنه وعشاقه. وكان معظمهم من الأطفال والفلاحين وبعض العوام. وهو عبارة عن صندوق خشبي له عيون باللورية مكبرة وبه لولبان ملفوفة عليهما الصور. فيعرضها بإدارة اللولب ويعلق على كل صورة في الوقت الذي ينظر إليها متفرج أو أكثر بحسب عدد الفتحات في الصندوق. وبعد انتهاء عرض الصور تنتهي الفرجة فيدفع المتفرج لصاحب الصندوق مبلغاً من المال^(٢).

الولع بالموسيقى والغناء

لم تكن الموسيقى والغناء أداتي طرب وتسلية لقتل الفراغ في شيء جميل محب للنفس فحسب بل ارتبطا في بعض جوانبهما بالنواحي الدينية. وبرزا في قراءة القرآن ترتيلاً وتجويداً، كما برزا لدى المؤذنين والقائمين بالذكر لدى بعض الطرق الصوفية، وفي التواشيح النبوية. وأقام المتصوفون احتفالاتهم الدينية باستخدامهم الآلات الموسيقية التي يرافق عزفها إنشاد المنشدين، حتى أن الطريقة المولوية كان أفرادها يدورون على أنغام موسيقية مطربة جداً «وهي بالحفلات المدنية أليق منها بالدينية»^(٣).

وفي هذه الفترة استمر الجدل في الموسيقى والغناء بين علماء دمشق. فحسسين بن طعمة البيتماني تلميذ عبد الغني النابلسي المتصوف الكبير، يروي لنا رسالة في السماع وأنه

(١) انظر: قاموس الصناعات الشامية. ج ٢، ص ٣٨٥.

(٢) وصف ذلك القاسمي في قاموس الصناعات الشامية. ج ٣، ص ٣٠٢.

(٣) انظر: كرد علي، محمد. خطط الشام. ج ٦، ص ٢٧٦.

ضربت نوبة السماع في منزل محمد المرادي في حضرته وحضرة عبد الغني النابلسي وكان منها السنطير والناي والكمنجة والعود والوتر والشباب مع إنشاد الشعر والغناء والنقر باليد. وإن أحداً لم ينكر ذلك. وكتب البيهقي مقتفياً آثار أستاذه النابلسي كتاباً أسماه «إيضاح الدلالات في سماع الآلات» كما أخلف النابلسي إكثار الناس الكلام بين الخواص والعوام فيما يتعلق بالآلات والسماع ويرد تلميذه البيهقي «إن السماع بالآلات كالمطر ينزل على أرض النفوس فتتهز فتنبت مافيها من الأسرار الالهية والتقادير العلمية الكامنة في خزائن النفوس. فإن كان طيباً نبت طيباً وإن كان خبيثاً نبت خبيثاً»^(١).

ولقد برز عديد من رجال الدين في هذه الفترة ممن كانوا موهوبين بأصواتهم الجميلة ومتقنين لفن الموسيقى. ويورد لنا المرادي وغيره من الاخباريين والمؤرخين أسماء عدد من هؤلاء. ولم يكن ذلك وقفاً على المسلمين بل شاركهم في ذلك بعض أبناء أهل الذمة في دمشق، كسليم بن جبرائيل الخوري الذي «اشتغل في فن الموسيقى وقصد أن يضبط الألحان العربية على الروابط الافرنجية فوضع مقدمة لتأليف مخصوص في هذا الفن»^(٢). ومن المسلمين عمر بن شاهين المتوفى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م والذي تفوق بالموسيقى ودرس تلاوة القرآن بالألحان مع مراعاة التجويد وكان أستاذه في ذلك عمر بن محمد البصير المصري الذي كان يعلمه كيفية الانتقال من نغم إلى نغم. ونستطيع أن نتلمس من خلال تنمة رواية ابن شاهين معالم العناية التي حظي بها الصوت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، فقد كان يتلقى قراءة التحقيق والترتيل والحذر والوقف والابتداء وكان أستاذه يباحثه في طول النفس إذ ربما درج ثلاث آيات أو أربعاً من الآيات المتوسطات في نفس واحد. ولا غرابة أن يبرع في الموسيقى والغناء من يفترض منهم التزمت والتحنث مثل صالح المزور خطيب السليمية في صالحية دمشق الذي وصف بأنه: «حسن الصوت ماهو بالموسيقى والألحان»^(٣). ثم سعيد السمان الشافعي الدمشقي سنة ١١١٨ — ١١٧٢ هـ / ١٧٠٤ — ١٧٥٨ م كان حسن الصوت

(١) انظر: حسين بن طعمة كشف الالتباس في مسألة الاستماع أو رسالة السماع، ص ١٩٨. ضمن مجموع تحت رقم ٦٠٦٩ خط، دار الكتب الظاهرية. دمشق.

(٢) انظر: مردم بك، خليل: أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع. ص ٣٠٠ و ص ٣٠١. بيروت سنة ١٩٧٧ م.

(٣) المرادي. سلك الدرر. ج ٣، ص ١٧٧ و ص ١٨٩. ثم ج ٢، ص ٢٠٢.

والأداء له معرفة بالموسيقى^(١) ثم محمد سعيد القاسمي كان له معرفة بالموسيقى وأنغامها ، ألف قصيدة ضمّن كل بيت من أبياتها اسم نغم من الأنغام الشرقية كلها^(٢) .

ورغم مواقف علماء دمشق المتباينة من الآلات والغناء فقد مال بعض رجال الدين وغيرهم من العامة في هذه الفترة للاستماع والطرب (العامة والخاصة على حد سواء) . واستخدم الدمشقيون أدوات موسيقية مختلفة لعزف الألحان ومرافقة الغناء . وكان من هذه الآلات . العود — الكمنجة — الدف — النقارات — الدريكة — الناي — الرباب — المزمار — القانون — والسنتير وغيرها . وسمعت ألعانها في بيوت القهوة وبيوت الخاصة والعامة — وفي متنزهاتها وعلى مستوى النوبات الرسمية للدولة في المواكب واحتفالاتها .

وكان السيران أو النزهة في بساينها وجنائنها الغناء ، تستوجب السماع في فصل الربيع والصيف . وإذا ما حل الشتاء ، استعاضوا عن ذلك بالاجتماع في بيوت القهوة أو البيوت فيقيمون حفلاتهم فيها ويأتون بعوادين وآلاتية^(٣) .

ومن جهة أخرى احترف البعض البعض على الآلات الموسيقية وكذلك الغناء ، وكان منهم يهود ومسيحيون ومسلمون ، بهدف الارتزاق ، وكانوا يقيمون الحفلات في بيوت الأكابر والمتوسطين^(٤) . وبلغت أجرة بعض هذه الفرق مئة قرش فأقل^(٥) .

واستقبلت دمشق بعض الفرق الموسيقية من المدن الشامية والعثمانية ، وقدمت تلك الفرق عروضها في بيوت القهوة . ويذكر البديري في أحداث سنة ١١٦٠ هـ / ١٧٤٨ م أنه « ورد إلى الشام ثلاثة يهود من مدينة حلب لهم مهارة في ضرب الآلات بأحسن النغمات ، فصاروا يشتغلون في قهاوي الشام ويسمعهم الخاص والعام »^(٦) .

(١) المرادي . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ١٤١ . ج ٣ ، ص ١٨٨ و ص ١٩٠ . وذكر المرادي آخري من اشتهروا بالغناء والموسيقى كصالح الحلي وعبد المعطي القلاقسي وعليم الله الهندي اللاهوري نزيل دمشق . انظر : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢١٦ . ثم ج ٣ ، ص ١٣٥ ، ص ٢٦١ .

(٢) السباعي بدر الدين . المرجع السابق . ص ١٤٠ و ص ١٤١ .

(٣) القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج ١ ، ص ٨ و ص ٩ .

(٤) القاسمي . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٣٢٣ .

(٥) القاسمي . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

(٦) حوادث دمشق اليومية ، ص ٩٥ .

وعلى المستوى الشعبي أحياء بعض الجعيدية والنور حفلات الأعراس والختان ، وأيضاً النذور وغيرها . بالضرب على الطبل والنفخ في الزمار ، وجمال بعضهم في أسواق دمشق وأمام دكاكينها يعزفون على مزمار القصب (المجوز) أو الشبابة أو الناي يسمعون السابلة أنغاماً فيجذبون لهم العطاء^(١) .

ومع ذلك قام بعض الولاة العثمانيين ممن أتسموا بالتمزت والجمود بمنع حفلات الغناء والسماع ظناً منهم أن ذلك يفتن الشعب عن عقيدته وإيمانه . فالكنج يوسف باشا الذي كان والياً على دمشق أصدر أوامره في سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٦ — ١٨٠٧م بمنع (النوبات والالات) ^(٢) ، كما ضيق على البعض مما اضطرتهم لإقامة حفلات الطرب في سراديب تحت الأرض كي لا يسمع صوتهم إلى الخارج ، ومع ذلك تعرضوا لغضب الوالي أو حاشيته أو الأغوات أو شيخ الحارة ^(٣) . ولقد تأثر في سلوكه هذا بتوجيهات شيخه النقشبندي الكردي مما دعا رجال الدين المسلمين للتدخل في الأمر وكلموه عن الخلل الذي حصل منه وأنه ينافي مذهب الإسلام .. وأشاروا عليه بطرد الشيخ الكردي من عنده فقبل كلامهم وطرد الشيخ وأظهر لطفاً وعدلاً ^(٤) .

الألعاب وتمضية الوقت

لم نر جديداً في مجال الألعاب وطرق تمضية الفائض من الوقت في هذه الفترة ،

(١) القاسمي . المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٢) العبد ، حسن آغا . المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٣) مجهول . حسر اللثام عن نكبات الشام ، ص ٣٩ . كانت الدولة العثمانية على مذهب أبي حنيفة النعمان (١٥٠هـ / ٧٦٧م) ولقد قال بكراهية الغناء وجعله من الذنوب ، وقد شدد أتباع مذهبه في هذا بحيث أنهم حرموا سماع الملاحى كلها حتى الضرب بالقضيب « صرحوا بأنه معصية يوجب الفسق ، وتُرَدُّ به الشهادة » . انظر حول ذلك :

١ — الغزالي ، أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ الطبعة الأولى — مصر ١٣٠٢هـ .

٢ — ابن قيم الجوزية ، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ج ١ ، ص ٢٧٧ ، تحقيق محمد حامد الفقي ، مطبعة البابي ، القاهرة سنة ١٩٣٩م .

٣ — ابن عابدين ، محمد أديب ، رد المحتار على الدر المختار ، شرح تنوير الأبصار ج ٥ ، ص ٢٤١ و ص ٢٤٤ ، مصر سنة ١٣٠٧هـ .

(٤) انظر : مجهول . تاريخ حوادث الشام ولبنان . ص ٣٩ و ص ٤٠ و ص ٤١ .

ومعظمها كان موروثاً من عهود سابقة . فكان منها ما يخص الأطفال أو الشباب ومنها ما كان للفرجة والارتزاق . وكان لبعضها صفة الميسر ، ومنها ما كان رياضة للذهن أو البدن ، أو ذا أهداف تربوية أو من ألعاب الخفة والسيما الخ وسنتناول معظمها فيما يلي :

الحاوي : وهو الذي يهتم بمسك الأفاعي والثعابين « خاصة من البيوت حيث كان يقرأ في طاسة ماء ويرشها على أربع جهات البيت ثم ينده (ينادي) الحية قايلًا تعالى يا مباركة فتطلع من وكرها تحضر إلى بين رجله فيمسكها ويوضعها بجراب جلد فيعطيه صاحب البيت أجرته أربعة خمسة غروش ويأخذها وينصرف »^(١) . وكان بعض الحواة يرقصون الأفاعي المطرمة (المنزوعة الأنياب) على نغم الناي في أسواق دمشق فيتصدق عليهم بعض المارة بشيء من النقود . واستخدم بعض الرعاع من الحواة الأفاعي في بعض أحياء دمشق للتخويف وجمع المال . وكان العقاري يأتي بالعقارب حية فيكسر إبرتها ويتركها تخرج ويدور على الحارات ليفرجها للأطفال والنساء ويأخذ مقابل ذلك بعض الدراهم^(٢) .

ووجد في دمشق من يقوم بألعاب الخفة والبهلوانية في أسواقها أو مقاهيها أو ساحاتها وجنائنها على الملأ . ويذكر البديري في أحداث سنة ١١٦٣هـ / ١٧٥٠م أنه : « جاء رجل من الأتراك إلى دمشق ومعه صحن من نحاس يضعه على عود ويفتله عليه ويقذفه إلى أعلى قامتين ويتلقاه على العود وهو يفتل وينقله من إصبع إلى إصبع وهو دائر يفتل ويلم فلوس من المتفرجين .. كما جاء رجل آخر من أبناء الترك قبل الذي ذكرناه يصفق بأصابعه يضرب الواجدة على الأخرى ويدق برجله على الأرض دقاً محكماً ويغني بالتركي والعربي فتجمع عليه الخلق ويعطونه فلوساً »^(٣) .

وكان في دمشق بعض المزعجين الذين يقدمون ضرباً من الخزعلات والشعوذة ، فمنها ما يسمى السيما ومنها النيرنجيان « ونيرنج فارسي معرب وأصله نورنك أي لون جديد » والنيرنجيان هو إظهار الأفعال العجيبة القائمة على سرعة الحركة وخفة اليد وهي حرفة كان يحترفها قلة من أبناء دمشق يقدمون ألعابهم في القهاوي ، وجاء إلى دمشق بعض الغرباء فقدموا ألعابهم في القهاوي وكانت تغص بالمتفرجين .

(١) انظر : الصايغ . المقترَّب في حوادث الخضر والعرب ، ص ٤٨ ب .

(٢) القاسمي ، المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٣١٥ .

(٣) حوادث دمشق اليومية . ص ١٤٦ .

وعندما فتحت دمشق على الغرب على نطاق واسع في عهد ابراهيم باشا المصري، جاءت إليها بعض الفرق البهلوانية لتقديم عروضها. فقد أتى في هذه الفترة إلى دمشق شخص يقال له (مالديس) «وافتح وقتاً في قهوة العصرية وجمع أموالاً كثيرة وهرعت الناس إليه من كل فج عميق»^(١). وقدم إلى دمشق في صيف عام ١٨٣٨م / ١٢٥٣هـ - ١٢٥٤هـ فريق مكون من أربعة خمسة أنفار إفرنج بهلوانية استأجروا جنيئة الأفندي التي كانت في باب توما.. «ثلاثة أشهر عملوا في دايرها ثلاثة قاطات (طبقات) خشب لأجل جلوس الناس وتركوا الوسط فاضي لأجل اللعب وصاروا يلعبوا بالجمعة يومين لأجل الرجال ويوم لأجل الحريم ويوم الذي يلعبوا يلصقوا أوراق في جميع أسواق البلد. في المصلبات في صفة اللعب الذي مرادهم يلعبوه ويكتبوا ورقة صغيرة يلصقوها جانب التصاوير مكتوب فيها بخط مشبق إعلام إلى أهالي دمشق أن الفرجة على البهلوان في جنيئة الأفندي الساعة بالثمانية من النهار الجالس يعطي خمسة قروش والواقف قرشين فتوجه الناس تتفرج وجمعوا من البلد مبلغ ولكن الذي يلعبوه ونظراً لصورة اللعب الذي مصور في الورقة التي يلصقوها في شوارع البلد مثل السيمة لأن البهلوان منهم يقف على ظهر الحصان رجله الواحدة على ظهر الحصان والثانية رافعها إلى الخلا ويديه واحدة ماسك فيها رمح والثانية سيف والحصان عمال يركد فيه بالساحة ويفتل مثل الدولاب» وقدموا لعبة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة إلى درجة إنهم شعبوا عقول الناس،^(٢) مما يدل على أن مجتمع دمشق لم يألف هذه الألعاب من قبل. وقدم بعض المصارعين عروضهم في مقاهي دمشق مقابل مبلغ من المال^(٣).

وكان للكبار والصغار ألعابهم وتسلياتهم التي يمضون بها وقت فراغهم (فرادي ومجتمعين). فالأطفال كانت لهم ألعابهم في الأيام العادية والأعياد خارج البيت وداخله. ففي البيت يتراكضون في ساحة الديار وعندما يتعبون يجرنجمون حول إحدى العجائز (كالجدات والأمهات) فتروي لهم نكات جميلة وقصصاً قصيرة على لسان الحيوانات ويبقى أولئك مصغين لحديثها حتى يدب النعاس في أجفانهم فينامون ويلقون على أسرتهم واستخدم بعضهن اللعب الطريفة والحزازير والأحاجي^(٤) لتسلية الأطفال.

(١) القاسمي. المصدر السابق. ج ٢، ص ٤٣٤.

(٢) مجهول. مذكرات تاريخية. ص ١٠٣ و ص ١٠٤. تحقيق سبانو.

(٣) القاسمي. المصدر السابق. ج ٢، ص ٤٤٤.

(٤) العلاف. أحمد حلمي. دمشق في مطلع القرن العشرين. ص ٣٣٥ و ص ٣٤١.

١ أما الأولاد الكبار فكانوا يلعبون في المساء ألعاباً مختلفة لا تحتاج في الغالب لأدوات معينة . كالطميمة في حاراتهم ، حيث يجتمعون ويبقى أحدهم باحثاً عنهم ويتراكمضون . ثم لعبة الدحل و لعبة شال العجم ، و لعبة الخطة و لعبة العطور و لعبة طرة و نقش و لعبة الدوش و لعبة العرج و لعبة الحجر و المقرعة و لعبة القاق و لعبة ساقك و لعبة نوم اسكندرية و لعبة البيل^(١) ثم لعبة المروحة و هي لعبة ضرب الكف و لعبة الطبقة^(٢) ثم لعبة الطيح والأسير و أم عميش و كسرة اليد و سياف الركض ، ثم لعبة السيف و الترس و لعبة الحكم^(٣) .

أما ألعاب الأعياد فكانت متنوعة ، ويعتمد الأطفال فيها على أصحاب الأدوات و الحيوانات التي يقدمونها لهم مقابل أجر معين ، فمنها ركب الحمير أو الخيول المعدة للتنقل لمسافات قصيرة و العربات المجللات بالطنافس ، و الركوب في الهودج و المحارات على ظهور الجمال تشبهاً بركب حجاج بيت الله الحرام . و في فترة متأخرة كانوا يركبون القلابات ذات الأسرة الأربعة فتدور بهم دورات محورية ، أو الدويجات ذات الأسرة المتنوعة الأشكال ، و كان يعد لطائفة البنات من الأناث في مثل هذه المناسبات أراجيح ضمن دور مستورة مختلفة الشكل منفصلة عن الذكور ، وكن يجلسن بها و يتأرجحن و ينشدن و يضررن على الدف^(٤) ، و جاء بعض الناس بالحيوانات المفترسة كالضباع و الذئاب و غيرها . مغلولة أو في أقفاص و وضعوها في أحد الأماكن المغلقة و أدخلوا الناس عليها للفرجة مقابل أجر معين .

وكانت للنساء تسلياتهن الخاصة داخل بيوتهن خاصة عندما تستضيف الأسرة أسرة أخرى ، فينفصل الرجال عن النساء ، و يستقبل الرجال الرجال في السلامك في حين تدخل النساء الضيفات إلى الحرمك ، فيمارسن أساليب عديدة من التسلية ، كتناول أطراف الحديث . أو الاستماع إلى حكواتية^(٥) . أو يقمن ببعض الألعاب التي تثير الضحك بطريقة الأسئلة و الأجوبة المضحكة^(٦) إلى انتهاء السهرة ، فيخرجن مع رجالهن إلى بيوتهن .

(١) العلاف . المصدر السابق . ص ٣٧٤ و ص ٣٨١ .

(٢) البارودي ، فخري . مذكراته . ج ١ ، ص ١٠٦ و ص ١٠٨ .

(٣) البارودي . المصدر السابق . ج ١ ، ص ٤٥ و ص ٤٦ .

(٤) العلاف . دمشق في مطلع القرن العشرين ص ٤٨ و ص ٤٩ .

5 - See: Russell .A. op.cit,PP.251-259.

(٦) العلاف . أيضاً . ص ٢٣١ و ص ٢٣٢ .

الخمسان والسياران : وكانت العادة في دمشق في شهر آذار أن تبدأ معه الخمسان ، فأول خميس يدعى « خميس النبات » والثاني « خميس القطاط » والثالث « خميس الأموات » يهرع الناس إلى زيارة القبور ويتكون من ذلك حركة جديدة للبيع والأخذ والعطاء . وقد يتخلل موسم البرد وخاصة في نهايته بعض أيام جميلة قبيل استقبال الربيع ، يخرج الناس فيها إلى ظاهر المدينة والأمكنة المرتفعة لمشاهدة الأعشاب الطبيعية في الجبال والسهول . على أنهم يقسمون الأيام غالباً على المواقع الجميلة حتى يتمكنوا من التمتع بمختلف زخارفها وحللها الطبيعية الجديدة . وكان لكل يوم من أيام الأسبوع المكان المفضل في نزهتهم ، فهناك نزهة السبت أو (السبتية) حيث كانوا يذهبون به حيث يشاؤون ، وغالباً إلى قرية جوبر حيث مجتمع اليهود في كنيسهم . ثم يوم الأحد إلى الصوفانية حيث يشاهدون مرح النصارى في الناحية الشمالية الشرقية من خارج دمشق ، ثم يوم الاثنين إلى سيدي دحية الكلبي في قرية المزة ، فيشاهدون السهل الفسيح بمروجه ، ثم يوم الثلاثاء يذهبون إلى صدر الباز ، حيث المرج الفسيح على الشاطئ الأيمن من مجرى نهر بردى ، فيجلسون على المرج الأخضر بضع ساعات حسب دفء الطقس ، فيأكلون ويمرحون ثم يرجعون ، ثم يوم الأربعاء إلى قرية برزة لزيارة كهف مقام ابراهيم الخليل عليه السلام ، ثم يوم الخميس يذهبون إلى العسالي ظاهر دمشق من جهة باب مصر فيستقبلون السهول الممتدة شرقاً وغرباً حتى متعرج قرية الكسوة . أما يوم الجمعة فيذهبون إلى الصالحية حيث ينتشرون في سفح جبل قاسيون فيمتعون أبصارهم بمناظر كافة أنحاء الغوطتين ، والنيرين ويزورون هناك بعض الأماكن المقدسة وأضرحة الأولياء والصالحين^(١) .

وكان بعض الدمشقيين مولعين بالطبيعة ، يلجأون إليها بين الفينة والأخرى ، ليلقوا بأنفسهم إلى أحضانها . ولا غرابة في ذلك إذا ما علمنا جمال طبيعة الغوطتين الآخاذ ومواسمهما المزهرة المثمرة . ومن تلك المواسم كان موسم زهر السفرجل والمشمش للأشجار اللوزية والآس وغيرها ، فكانت أماكنها القرية^(٢) ملاذهم ومقيلهم .

ولقد أطلق الدماشقة على نزهاتهم اسم (السيران) ، أو سيرين ، ومازالت هذه العبارة تستخدم في دمشق حتى وقتنا الحاضر ، ولم يكن هذا السيران وقفاً على العامة دون الخاصة

(١) العلاف . أيضاً . ص ١٧١ و ص ١٧٢ و ص ١٧٣ .

(٢) انظر : العليبي ، أكرم حسن . دمشق في نهاية عهد المماليك ، وعهد سييبي . ص ١٠٣ .

من أبنائها ، بل شارك الجميع في هذه المواسم والأيام من فصل الربيع والصيف وأمضوا أوقاتاً ممتعة في ربوعها ، وتناولوا الأطعمة المختلفة المعدة لمثل هذه النزهة (السيран) ، وحتى ولاية الدولة العثمانية وقضاتها قاموا بالسييران مع من يحبون فأولوا الولائم في الغوطة للأصدقاء والأصحاب والأتباع .

ويذكر البديري الحلاق أن والي دمشق أسعد باشا العظم ، قد ذهب إلى السييران في جنيئة أبيه في مسجد الأقصاب ، وقام في يوم الاثنين سادس جمادى الأولى بسييران في أرض الغوطة ومعه أكابر دمشق وأعيانها ^(١) . كما يذكر لنا البديري سييران العامة في دمشق الذين كانوا يذهبون فيها إلى متنزهات قريية . فالبديري نفسه قام بسييران في يوم الخميس ثامن عشر ربيع الأول في الشرف المطل على المرجة مع بعض أحبابه ويذكر أن الوقت مبادئ خروج الزهر وجلس مع أصحابه مطلين على المرجة والتكية السلیمانية وأن النساء أكثر من الرجال جالسين على شفير النهر على أكل وشرب وشرب قهوة وتتن كما تفعل الرجال ويعلق على ذلك بقوله : « هذا شيء ماسمعنا بأنه وقع نظيره حتى شاهدناه ولا حول ولا قوة إلا بالله » ثم يقول : « ولم نزل في سرور وانبساط حتى أنشدت هذه المواليا :

مضى لنا يوم ماسبق ياخال	في مرجة الشام ماتشوفون موضع خال
ملا خميس ^(٢) مضى ماصادفه أرزال	في ثامن عشر ربيع الآخر راح البرد
ياهل الأدب ارحمـوه	الضيـق عنكم زال ^(٣)

وكان الشباب وغيرهم من أهالي دمشق يعدون العدة للذهاب في سييرانهم إلى ضواحي المدينة قبل يوم أو يومين . ويخرجون إلى تلك المروج مبكرين ومعهم حاجياتهم من طعام وأسباب التسلية ، فيأكلون وينعمون ويقيمون الألعاب المختلفة مثل لعبة المقارع ^(٤) أو

(١) السييران : تعبير أهل الشام ويعني النزهة في الخلاء . انظر : حوادث دمشق اليومية . ص ١٢٩ و ص ١٤٥ ، الحاشية .

(٢) كان أحد الخمسان الذي يحتفل به قبل العهد العثماني . انظر : العلي . المرجع السابق . ص ١٠٣ . ثم : العلاف . المصدر السابق . ص ١٧١ .

(٣) البديري . ص ١٤٠ .

(٤) مفردها المقرعة . وهي السوط وكل ماقرع به . وكانت تستعمل في دمشق مقارع قماشية . انظر : العلاف . المصدر السابق . ص ٢١٢ . الحاشية .

المخازيق فيتناول أحدهم المقرعة ويخبي شيئاً معه ويسأل أحدهم عن مكان الخيئة فيسير إلى أحد اخوانه فإذا لم تكن لديه ضربه السائل بالمقرعة وسأل الثاني والثالث وهكذا حتى يعلم مكانها وهكذا... ولعبوا أيضاً لعبة الأسير أو القفز . فإذا ماجاء المساء جمعوا متاعهم وجاؤوا إلى أحدهم من خفيفي الدم المضحكين ، فجعلوا على رأسه إكليلاً من الزهور كالعروس وإلى جانبه آخر كالعريس ، وراحوا يتظاهرون بالأهازيج حتى يصلوا المدينة إلى أن يتفرقوا إلى دورهم ، أو أنهم أجمعوا مسبقاً واتفقوا على أن ينزلوا بدار أحدهم حتى الانتهاء من السيران ، فيواصلون سيران النهار بسهر الليل ، ويقيمون شتى الألعاب والأهازيج والدبكات والرقص والنكات المستملحة حتى مطلع الفجر^(١).

ولقد سار الدمشقيون إلى متنزهاتهم مشياً على الأقدام أو باستخدام العربات أو الحمير أو الخيول . ووجد في دمشق بعض أصحاب الحمير الذين يؤجرونها لمن يريد استئجارها ، للذهاب إلى مراع الغوطة لقضاء السيران . وأطلق على أصحاب الحمير تلك اسم (الحمارون) وكان الحمار يرسل أحد غلمانه مع الغريب لإيصاله إلى المكان الذي يريده ، ويعود بالحمار إليه ، ويحدد له موعداً ليعود به إلى دمشق . كل ذلك مقابل أجر معين . وبقي الحمار يستخدم إلى جانب العربة في السيران إلى سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩٣ م^(٢).

ونلاحظ مما تقدم أن أبناء دمشق ، رغم كل مآلم بهم في هذه الفترة ، لم يتخلوا عما اعتادوه من التمتع بمحاسن الطبيعة التي حباها الله بها ، ويقوا ينطلقون بين الفينة والأخرى من منازلهم إلى أحضان الطبيعة .

(١) العلاف . المصدر السابق . ص ٢١٣ و ص ٢١٤ . ثم القاسمي المصدر السابق . ج ٢ . ص ٣٠٥ و ص ٣٥٤ .

(٢) القاسمي . المصدر السابق . ج ١ . ص ١٠٦ .

شرب المنبهات والتدخين والمسكرات والمخدرات

أما المنبهات فتأتي القهوة على رأسها ، حيث عم شربها في دمشق سواء في المحلات العامة أو الخاصة ، وفي دوائر الدولة ، في هذه الفترة . ويعتقد أن البن قد دخل إلى دمشق عن طريق اليمن وأن أول من اتخذها شرباً هو الشيخ الصالح العارف بالله أبو بكر بن عبد الله الشاذلي العيد روسي الذي مات بدمشق سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٤ م ، وذلك عندما كان سائحاً باليمن فشاهد شجرة البن واقتات من ثمارها ، فرأى فيها تجفيفاً للدماغ واجتلاباً للسهر وتنشيطاً للعبادة ، فاتخذة قوتاً وطعاماً وشرباً ، وأرشد مريديه وأتباعه إلى ذلك ، ثم انتشر في اليمن ثم في الحجاز ثم في الشام ومصر .

ولقد اختلف العلماء في أول القرن العاشر في أمر القهوة وإباحة شربها أو تحريمها ، وانقسموا في ذلك قسمين ولكن أكثرهم أباحها . ويبدو أن تحريمها كان يعود لجهل في مفعولها ، حيث خشي بعضهم أن تكون من نوع المخدرات . ومع ذلك فقد أدخل شربها إلى تركيا في عام ٩٦٢ هـ / ١٥٥٥ م وفي سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م أقام رجل حلبي مشرباً للقهوة في الاستانة^(١) ، ثم تأسست بيوت القهوة في أكثر من محل في دمشق ، وبدأت تقدم شربها لزبائنها .

(١) انظر : الحصني ، محمد أديب . منتخبات التواريخ لدمشق . ج ٢ . ص ٥٦٦ و ص ٥٦٨ و ص ٥٦٩ .

ومع ذلك استمر الخلاف حول إباحتها شربها إلى القرن الثامن عشر في دمشق، ووقف بعض الولاة إلى جانب تحريمها، وهددوا من شربها بالصلب أو الشنق، ففي أحداث عام ١١٦٢هـ / ١٧٤٨ - ١٧٤٩م يذكر البديري أن والي دمشق أسعد باشا العظم قد «أمر برفعها من سائر قهاوي الشام وأسواقها وصار شربها في الشام من أعظم المصائب»^(١).

ولقد اعتبرت صنو التبغ، وكتب فيها الكثيرون، فحامد العمادي مفتي دمشق وضع رسالة في القهوة إلى أن أبيع شربها، فأصبحت تشرب من قبل الجميع وتقدم للضيوف، وفي محاكم دمشق من قبل قضاتها أنفسهم، وشربها الرجال والنساء في السيران والمنتزهات. وفي العهد المصري بدأت دمشق تستورد القهوة عن طريق جديد وهو أمريكا اللاتينية بواسطة السفن الأوروبية، وخاصة بواسطة فرنسا التي كانت تأتي بها من سانت دومينغو^(٢). ولقد أثار الدخان أو التبغ أيضاً جدلاً بين فقهاء العصر، وتباينت آراؤهم في ذلك بين محلل وكاره ومحرم، مما دفع بعبد الغني النابلسي نفسه إلى أن يضع رسالة يثبتك عنوانها عن الخلاف الذي أثاره موضوع التدخين بين الفقهاء، وكان عنوانها «الصلح بين الإخوان في حكم إباحتها الدخان»^(٣). إذ كان النابلسي نفسه يبيح التدخين مخالفاً من حرمة أو قال بكراهيته، لأنه لم يثبت لديه فقهاً ما يحرمه أو يكرهه، واستهلاله الرسالة بقوله في منافع الدخان كالإسراع في الهضم «وكم له من منافع أخرى يعرفها المجربون ولا سيما وقد تأيدت تجربتهم بما في كتب الأطباء من التصريح بنفعه من السموم وخاصة العقرب شرباً ومصاً»^(٤) يقطع بالرأي من مسألة كثر فيها الأخذ والرد في مجتمع دمشق وبين فقهاءها.

وحرصه على تبيان موقفه من الدخان ليس تعصباً وإنما هو الحرص على الأحكام الشرعية «حتى لا يدخلها شيء من الزيادة أو النقصان» إذ ليس في الشرع ما يزيل حكم الإباحتها^(٥). وقد تعدى البحث النطاق الفقهي للدخان، فإذا به يتناول أصله وابتداء استعماله، ومجيئه الشام وأشعار المتأخرين في التغزل به. فمثلاً في تقييده للفتاوى بتحريمه،

(١) حوادث دمشق اليومية. ص ١٣٠.

2 - See: Polk.op.cit.Introduction.pxix.

(٣) مخطوطة في دار الكتب الظاهرية بدمشق تحت رقم / ١٨٦٩.

(٤) انظر: النابلسي، الصلح بين الإخوان في إباحتها الدخان. ص ٢. الظاهرية بدمشق تحت رقم ١٨٦٩.

(٥) انظر: ص ٤. من المخطوطة السابقة الذكر.

وتبيان منشئه والأدلة التي حرم بها ، واستخلاص ما يقال في التصريح بإباحة شربه بعد انتفاء
الحرمة والكراهة ومن الطريف أن يختم البحث بشعر من نظمه فيقول :

قولوا لمن يشرب الخمر الحرام هنا شيء حلال بلا سكر له طرب
غليون تبغ نظيف طيب نفحت روائح المسك منه حين تقترب .

ثم يصف محرمه بأنه :

يظل يكذب من فرط العناد على رب العباد بما لم تحوه الكتب^(١)

وهكذا نجد أوار الجدال بين فقهاء دمشق بخصوص الدخان في النصف الثاني من
القرن الثامن عشر ، وعم استعماله على نطاق واسع لدى العامة والخاصة ورجال الدين
أنفسهم ، فمثلاً خالد بن أحمد بن حسين الشهرزوري الشافعي النقشبندي طريقة ونزيل
دمشق في سنة ١١٩٣هـ / ١٧٨٠م « كان يشرب الدخان وقد أخذ عليه بعض علماء
دمشق ذلك فاستدعاهم إلى وليمة وقبل تناول الطعام أخذ يبحث في أصل إباحة وخطر
الأشياء حتى وصل إلى شرب الدخان ، فما برح يناظرهم منه حتى ألزمهم القول بحله
بالبرهان^(٢) وما أن جاء القرن التاسع عشر حتى كنت تراه يباع في دكاكين عديدة من
دمشق ، وكان يسمى بئعه (التونجي) ، ثم بدأت زراعته في أكثر من مكان من غوطة
دمشق . وكان أنواعاً مختلفة ، كالتمتاز والوسط والدون ، وسمي بأسماء القرى التي يزرع في
أراضيها . كالشعاوي والكوراني ، وهذا النوع كان مرغوباً فيه ، ثم الكفرسوساني والحسن
كيف وهو الأدنى ، وكان منه العربي والاسلامبولي والافرنجي ، أما العربي فكان منه أنواع
أيضاً .

أما فيما يتعلق بطريقة تدخينه فكانت له أدوات خاصة يطلق عليها اسم الجوبوق
والغليون . وكان صانع الجوبوق يطلق عليه اسم الجوبوقجي أما صانع الغليون فأطلق عليه اسم
(الغليونجي)^(٣) وكان الغليون يصنع من قطعتين أو ثلاث قطع ، الأولى وهي (الجرن) الذي

(١) انظر : النابلسي — عبد الغني . الصلح بين الإخوان . من ص ٥ — ص ١٥ .

(٢) انظر : الحصني ، محمد أديب . ج ٢ . ص ٦٥٢ و ص ٦٥٣ .

(٣) القاسمي ، محمد سعيد . ج ٢ . ص ٢٣٧ . ثم ج ١ . ص ٦٦ و ص ٦٧ .

يوضع فيه التبغ (التوتون) ، وهذا يصنع من الصلصال أو التراب المطحون المنخول ، يخمر في الماء حيث يكور ويحضر بطريقة تسمح بوضع التبغ وفتحة لسحب دخانه بواسطة أنبوبة خشبية ، وكانت تشوى العجينة الطينية على النار في فرن معد له ، وغب إخراجها من الفرن يدهن بالدهان المرغوب من أسود وأحمر وذهبي ، وكان يصنع له أنبوب خاص ، يصل ما بين الجرن وفم المدخن يسمى (القصبه) . وهي أنواع من حيث تزيينها ونوع العيدان المستخدمة في صنعها ، وتكون بطول ثلاثة أذرع ، وقد تكون قطعة مجوفة من الكهرباء النفيس أو من الذهب أو الفضة وكانت تسمى « البز » وكانت تجلب أقصاب الغليون من قرية شبع ، وكانت تضع من أعواد اللوز أو الورد وغيرها وتثقب وتزركش^(١) .

وكانت تجارة التبغ والتبناك والبن والمخدرات مورد رزق لعدد من الدمشقيين ، ونورد بعض أسمائهم على سبيل المثال وليس الحصر . ففي سنة ١٢٦٤هـ / ١٨٤٧ - ١٨٤٨م كان علي آغا بن حسن آغا جاويش أوغلي الوانلي : « يبيع توتن مفروم وتوتن كوراني وتوتن جردني وتوتن حسن كيف وتوتن سقط وتوتن بشاري وتوتن كهنة »^(٢) . وتاجر بعضهم بالتبناك والخشخاش والبن الإفرنجي أو الحجازي^(٣) . ولقب بائع التبناك بالتبناكي أيضاً . وكان التبناك أنواعاً ، وأجوده القادم من بلاد العجم ، وتاجره غالباً ما يثري^(٤) ، ودخن التبناك في النارجيلات (الأركيلات) في البيوت والمقاهي والمتنزهات ، من الخاصة والعامة . وكان خدام الخاصة يكلفون بإعداد الغلايين والأركيلات لسادتهم .

أما المسكرات والمخدرات فقد انتشر تعاطيها في دمشق وازدادت في هذه الفترة . ربما كانت هروباً من الهموم اليومية والمعاناة بسبب الظروف المعاشية ، كما كانت وسيلة للمتعة من جهة أخرى . ولقد تشدد بعض الحكام والولاة في دمشق بمنع المسكرات والمخدرات ، وكافحوا تعاطيها وأرسلوا من ينادي في الأسواق « لا أحد يسكر »^(٥) ، إلا أنهم مع ذلك لم يستطيعوا

(١) القاسمي . المصدر السابق . ج ٢ . ص ٣٣٠ و ص ٣٥٦ .

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / تاريخ ١٢٦٤ - ١٢٦٥هـ ص ١٠ القضية تاريخ ١٩ شوال سنة ١٢٦٤هـ .

(٣) المصدر السابق . ص ١٥٧ .

(٤) القاسمي . المصدر السابق . ج ١ . ص ٧٠ و ص ٧١ .

(٥) العبد ، حسن آغا . المصدر السابق . ص ١٢٩ .

إيقاف تيار تعاطيها الجارف في دمشق. ويعلق أحد الإخباريين على ذلك بقوله: «السكر صار مباح في الشام»^(١) وذلك في سنة ١١١٩هـ / ١٧٠٧ - ١٧٠٨م. دلالة على استغرابه وعجز السلطات العثمانية عن منعه. ويبدو أن بعض الغرباء والجنود والزعر أسهموا في نشر شرب الخمر في دمشق. وبقيت عملية قمع السلطات العثمانية لشرب الخمر وملاحقة شاربيه بين مد وجزر إلى أن تم توقيع معاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٣م / ١٢٤٨هـ بين السلطات العثمانية وإبراهيم باشا فأنشأ في دمشق خماراً للدولة وقام بتلزييمها لأناس في دمشق، ويعلق أحد الإخباريين على ذلك بقوله: «عمره ماصار قبلاً بالشام»^(٢). وأصبح الخمر يباع على قارعة الطريق ويشربه من يريد.

ولجأ البعض لتعاطي المخدرات، كالأفيون والبرش والخشخاش وغيره، كابراهيم سعد الدين الذي كان يأكل البرش المعجون المشهور^(٣)، وأحمد المنقار كان يتعاطى المكيفات فغلبت عليه السوداء فاختلط عليه، كما تعاطاها توفيق بن محمد الكيلاني حيث كان يأكل الأفيون^(٤). وانتشر ذلك على نطاق واسع، ويمكن تفسير ذلك بالظروف العديدة السيئة الضاغطة على أحاسيس الناس فكانت ملاذاً خادعاً من المتاعب والآلام التي كانوا يعانون منها وتزايد الطلب على المشروبات الكحولية السورية من الأقطار المجاورة، لأنه رغم السماح بشربها، لم يتسع انتشارها وصدر الفائض منها إلى مصر^(٥).

-
- (١) العبد. المصدر السابق. ص ١١٦.
 - (٢) مجهول. مذكرات تاريخية. ص ٨٨ و ٨٩.
 - (٣) المرادي. سلك الدرر. ج ١. ص ٤٢.
 - (٤) المحبي. خلاصة الأثر. ج ١. ص ٢٩٦ و ٤٩.

نتائج البحث العلمية

يمكننا أن نجمل نتائج هذا البحث وما تضمنته من حقائق ومعلومات، على النحو التالي:

إن الفترة التي تناولها البحث (١١٨٦ — ١٢٥٦هـ / ١٧٧٢ — ١٨٤٠م) كانت فترة هامة خصبة بالحوادث والمستجدات بفعل عوامل متعددة، عثمانية ودولية، إضافة إلى الظروف المحلية الخاصة بدمشق، ويمكن اعتبار هذه الفترة مرحلة إرهاص لمتغيرات جذرية ستحصل في الفترة اللاحقة.

ومن جهة أخرى، فإن التغيرات الاجتماعية في وجوها المختلفة لم تكن على مستوى واحد، بل تفاوتت بين جانب وآخر، بحيث يظهر التغير واضحاً في أحد الجوانب، في حين تبقى جوانب أخرى وكأنها جامدة على حالها دون تغيير.

لقد حافظت دمشق بالنسبة لمدينة بلاد الشام الأخرى على مركزها الممتاز حتى مجيء حملة أبي الذهب، وانتقل مركز الثقل السياسي إلى جنوب بلاد الشام، وتقلصت قافلة الحج الشامي في مطلع القرن التاسع عشر، بظهور الوهابيين في الجزيرة العربية وسيطرتهم على المدينتين المقدستين، وتوقفت هذه القافلة بعد ذلك، الأمر الذي حرم دمشق من مورد اقتصادي هام كان يحد من أثر الظروف الخارجية، الدولية والعثمانية، السلبية.

ثم كانت الحملة المصرية بقيادة ابراهيم باشا، فأحدثت تغيرات كبيرة من أهمها، فتح دمشق على المؤثرات الغربية، الاقتصادية والفكرية بعد أن كانت مغلقة أمامها، مما انعكس على مجتمعها بشكل عام وهيأتها لمرحلة تالية انتهت بسقوط دمشق والمنطقة بيد الاستعمار الغربي.

وكان نمو الدول الغربية، فكرياً واقتصادياً وعسكرياً، والصراع فيما بينها على مناطق النفوذ، وضعف الدولة العثمانية من جهة أخرى دور بعيد في دفع بلاد الشام إلى مقدمة الاهتمامات الدولية.

وبرز ذلك بشكل مفاجئ بحملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام، وماتلا هذه الحملة من الصراع الاستعماري على المنطقة، الذي ظهر كأوضح ما يكون بمجيء الحملة المصرية واحتلالها دمشق، ثم انسحابها، ومرافق ذلك من تأثيرات.

فعلى المستوى الاقتصادي، كان من نتائج الحكم المصري، دخول القناصل والتجار الأجانب والبعثات التبشيرية إلى دمشق، وأدى ذلك إلى ربط اقتصاد دمشق وبلاد الشام بالاقتصاد الأوربي، فتدفقت السلع الأوربية، الأمر الذي كان له أثر كبير على الحرف المحلية التقليدية، وعلى البنية الاجتماعية في دمشق، بظهور طبقة جديدة من التجار الوسطاء للغرب، حلت محل الطبقة القديمة، التي اندفعت إلى الاهتمام بالأرض والزراعة، إضافة إلى قلة منها شاركت في تجارة الغرب بدلاً من الشرق. كما كان له أثره في حركة السكان في بلاد الشام بشكل عام، وتحولها من هجرة أبناء الريف إلى المدينة إلى هجرة معاكسة.

وكان من أثر نمو التجارة مع الغرب في ظل الثورة الصناعية، أن تغيرت طريقة التعامل التجاري بين أوروبا ومدن بلاد الشام، التي كانت تقوم على المقايضة إلى طريقة البيع نقداً، مما أدى إلى نزيف نقدي وفقر بالمعادن الثمينة. وهذا مادفع السلطة العثمانية لخلط المعدن الثمين المستخدم في سك النقود بمعادن خسيصة، مما أدى إلى تدني قيمة النقد الشرائية وارتفاع الأسعار، وبالتالي إلى تفشي الرشوة والابتزاز والفوضى الإدارية والتفسخ الاجتماعي.

وبالرغم من محاولة الحكم المصري إصلاح النظام المالي وتنظيم جباية الضرائب ومنع التجاوز والابتزاز، ومحاولة العثمانيين فيما بعد السير في السياسة نفسها، إلا أن تغلغل

الاقتصاد الأوربي من جهة وزيادة الضرائب لتغطية نفقات الجيش والعمليات العسكرية وتعويضات الحروب من جهة أخرى ، جعل أثر هذه السياسة محدوداً .

ومن زاوية أخرى ، فقد عرف الاقتصاد الشامي بعض الومضات التي توهم بشيء من الانتعاش في هذه الفترة . وكان ذلك نتيجة عوامل متعددة أهمها : إن نسبة كبيرة من السكان الذين هم عماد الإنتاج الزراعي والحرفي كانت تذهب ضحية الجائحات الوبائية . فكان لجوء الحكم المصري لإيجاد نوع من الرعاية الصحية العامة ، بمكافحة الأوبئة وإدخال بعض قواعد الطب الوقائي ، والاهتمام بالنظافة العامة ، عاملاً في تقليص الخسائر التي كانت تحقق باليد العاملة أداة الانتاج الرئيسة آنذاك .

كما أن اهتمام الحكم المصري بتوفير الأمن وتوطين البدو ، واستعمال بعضهم للوقوف في وجه غارات البعض الآخر ، ومكافحة الآفات الزراعية المختلفة والحشرات الضارة ، أدى من جهة إلى استقرار الفلاح في أرضه ، ومن جهة أخرى إلى هجرة من المدينة إلى الريف وإعمار القرى المهجورة وتوسع الرقعة الزراعية ، وبشكل عام إلى انتعاش نسبي في الريف بالمقارنة مع المدن ، وتحولت فئة من التجار الذين فقدوا تجارتهم نتيجة تحول حركة التجارة الدولية وطبيعتها ، وبعض عناصر الفئة الحاكمة ، إلا الاهتمام بملكية الأرض وزراعتها ، حفاظاً على مستواهم المادي .

والظاهرة البارزة هي أن مجتمع دمشق ، في الفترة التي بدأنا فيها هذه الدراسة ، لم يكن مجتمعاً من نسيج واحد ، بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، بقدر ما كان تجمعات متعددة تكاد تنغلق على نفسها ، مبنية على أسس طائفية أو إقليمية أو قومية .

وفيما يتعلق بالفئة الحاكمة ، فقد تأثرت إلى حد كبير بضعف السلطة المركزية في استانبول ، وبالظروف المحلية . وانعكس ذلك على مواردها وسلطتها ، فقصرت مدة ولاية الولاة في مناصبهم ، وازداد اعتمادهم في إدارتهم على الشدة والقسوة ، وانصب اهتمامهم على جمع المال بدل الاهتمام بالمصالح العامة . ونتج عن ذلك ظهور قوى محلية تصدت للدفاع عن مصالحها في مجتمع انعدم فيه الأمن ، فبرزت قوة البرلية مدعومة بطوائف الحرف وبعض الشرائع الاجتماعية .

وكان من أثر انعدام الأمن أن اهتم السكان بتأمين الدفاع عن النفس في أماكن سكنهم ، وانعكس ذلك على خطط المدينة بشكل عام ، وتجلى في طريقة بناء الحارات الجديدة التي حاكت الحارات القديمة بضيق أزقتها وكثرة دخلاتها المسدودة وانعدام النوافذ المطلة على الشارع في بيوتها ، ووجد باب رئيس وحيد للحارة يغلق عند اللزوم وتؤمن حراسته من قبل أبناء الحارة أنفسهم ، مع مراعاة صغر أبواب دور السكن ومنعتها . إلا أنه أفقد تلك الحارات رونقها . وأدى ذلك من الناحية الاجتماعية ، إلى تماسك أبناء الحارة الواحدة وتشبثهم بالانتماء إليها ، وعدم اندماجهم مع أبناء الحارات الأخرى ، وبرز ذلك واضحاً في الحارات التي سكنت من قبل أقليات طائفية أو قومية ، ونمت قوة (شيخ الحارة) والمتنفذين فيها ، الذين شكلوا صلة الوصل بين الحاكمين والمحكومين .

ونلاحظ أيضاً نمو سلطة رجال الدين ، بحكم التوجه الديني وبحكم توليهم الوظائف المختلفة التي وفرت لهم إمكانيات مادية واسعة . إلا أن سلطتهم ونفوذهم قد تعرضا لهزة كبيرة في أوائل القرن التاسع عشر ، نتيجة لسياسة محمود الثاني في مجالي الأوقاف والاقطاع (التيمار) ووضعهما تحت إشراف الدولة ، مما حرّمهم من مورد مالي كبير ، فضعفت مكانتهم لضعف ركائزهم المادية ، وأجبروا على الارتباط بالدولة والتقيّد بأوامرها أكثر من السابق .

وكان لظهور التعليم العلماني في العهد المصري ، ثم للمدارس التي افتتحتها البعثات التبشيرية ، أثر كبير في فقدان رجال الدين المسلمين مكانتهم الاجتماعية التي كانوا يستمدونها من إشرافهم الكامل على التعليم . وكان لظهور هذه المدارس ، العلمانية والتبشيرية ، إلى جانب المدارس الدينية الإسلامية ، دور كبير في وجود شرائح اجتماعية تختلف من حيث توجهاتها الفكرية وانتماءاتها السياسية ، وشكل ذلك أول احتكاك مع الغرب بطريقة غير مباشر .

أما أهل الذمة ، فقد حافظوا على أوضاعهم السابقة حتى دخول إبراهيم باشا إلى بلاد الشام ، ومناداته بالمساواة بين الطوائف ، ورفع بعض القيود التي كانت مفروضة على أهل الذمة ، وكانت هذه السياسة ، التي لم يستطع العثمانيون التراجع عنها بعد خروج المصريين ، الخطوة الأولى نحو المساواة بين الطوائف .

ففي عهده ومابعده تغيرت أوضاع أهل الذمة وارتفع مستواهم من نواح مختلفة ،

كربية واقتصادية واجتماعية ، فمن الناحية الفكرية توفر لهم دخول المدارس الحديثة التي نشأها ابراهيم باشا ، والمدارس التي أنشأتها البعثات التبشيرية بعد ذلك . وكان دخول المدارس محظوراً عليهم من قبل كونها مدارس دينية إسلامية .

ومن الناحية الاقتصادية كان لسياسة ابراهيم باشا بالانفتاح على الغرب أن أصبح بعض المتنفذين من أهل الذمة وكلاء ووسطاء للتجارة مع أوربة ، وجنوا من ذلك مرباح كثيرة غيرت من وضعهم المادي والاجتماعي .

وفيما يتعلق بالأسرة ، والمرأة ، لا نشاهد تطوراً ملحوظاً في واقعهما ، إذ بقي نمط الأسرة الكبيرة هو النمط المسيطر ، وحافظ رب الأسرة على سلطاته الموروثة منذ أجيال ، فكان المرجع الأعلى لأسرته ، من حيث توجيههم واختيار ميادين عملهم والتحكم بمواردهم المالية والانفاق عليهم ، ومن حيث علاقتهم بالغير وعلاقة الأسرة ككل بالأسر الأخرى ، وحافظ على تمثين الرابطة ما بين أعضاء أسرته ، وشاركت زوجته في هذه السلطة بالنسبة لنساء الأسرة من فتيات وزوجات الأبناء .

وبقي حال المرأة كما كان عليه دون تغيير ، فمجال عملها محدود بفعل العزلة والحجاب المفروضين عليها ، مما حال دونها ودخول المدارس ومتابعة التحصيل ، باستثناء فئة قليلة من الفتيات الذميات اللواتي التحقن بمدارس البعثات التبشيرية .

ومما يسترعي الانتباه فيما يتعلق بالمرأة في هذه الفترة كثرة حالات الطلاق خلال سنوات الحكم المصري وبطلبات تقدمت بها الزوجات للقاضي . وذلك يعود لغياب الأزواج في جهات مجهولة هرباً من الجندية ، وبالتالي انعدام المورد المالي الذي يؤمن لهن سبل الحياة فلجأن إلى الطلاق . والبحث عن أزواج جدد وهكذا . وبقيت المرأة في وضع دولي بالنسبة للرجل داخل الأسرة وفي المجتمع

وكان الرقيق يشكل جزءاً أساسياً من الأسرة ، سواء في ذلك السراري والمربيات والخادومات . وأكثر ما يسترعي الانتباه في هذه الفترة تناقص عدد الجوارى والمماليك البيض بالمقارنة مع الإماء والعبيد السود وذلك بسبب انقطاع النوع الأول بتوسع روسيا واستيلائها على مواطن الرقيق ومحاربة دول أوربة لتجارة الرقيق مما كان له بعض الأثر في تغيير البنية السكانية لمجتمع دمشق .

أما الأزياء فقد حافظت على خطوطها العامة. ومالحقها من تغيير اقتصر على التخفيف من المبالغة في مظاهر الأبهة والزينة من جهة، كتخفيف غطاء الرأس «التربان» والعمامة وغيرهما، واستخدام أقمشة أوربية بدلاً من الأقمشة الشرقية التي أصبحت غالية الثمن، إذا ما قورنت بالأقمشة الأوربية، والتخفيف من استخدام الفراء المستورد من البلاد الشمالية، لارتفاع أسعاره، أو استخدام فراء الحيوانات المحلية كفراء الأغنام وغيرها.

أما أثر الغرب في ميدان الأزياء فكان محدوداً واقتصر على أزياء الهيئة الحاكمة والجند بعد الإصلاح، كما أن زي أهل الذمة تغير قليلاً بتخفيف القيود عنهم وتقليد أغنيائهم للزي الأوربي فيما بعد. وبشكل عام بقي السواد الأعظم من سكان دمشق محافظاً على زيهِ التقليدي الموروث، وبخاصة أبناء الريف، الذين لم تعرف أوضاعهم تغييراً يذكر حتى دخول المصريين وتطبيقهم سياسة زراعية أدت إلى زوال الاكتفاء الذاتي الذي كان سمة الزراعة قبل عهدهم بإدخالهم زراعة محاصيل جديدة ذات مردود تجاري، حلت محل المحاصيل التي كانت توفر للفلاح هذا الاكتفاء.

أما البدو فقد شجع المصريون استقرارهم في الأرض والعمل بالزراعة واستخدموا بعضهم في حماية الحواضر ضد غارات القبائل الأخرى. ولم يخل هذا المجتمع من ظواهر الانحراف، إن لم نقل إن هذه الظواهر قد ازدادت واستفحلت في هذه الفترة نتيجة للفوضى السياسية والإدارية وانعدام الأمن من جهة، وسوء الأوضاع الاقتصادية من جهة أخرى. إضافة إلى ازدياد أعداد الغرباء من جند ووافدين بحثاً عن الرزق بعد أن ضاقت أسبابه. ومنها ظواهر الرشوة والغش والابتزاز والسطو والاحتيال والعهر وتعاطي المخدرات والمسكرات.

لكل ذلك رأينا أن الفترة التي قمنا بدراستها كانت فترة هامة في تاريخ مدينة دمشق والمنطقة بأكملها، واعتبرناها فترة إرهاب شكلت منعطفاً تاريخياً يدعو للاهتمام بها وكشف مغاليقها.

الدكتور — يوسف نعيسة

ثبت المصادر والمراجع

الوثائق

- ١ — سجلات الأوامر السلطانية المحفوظة في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق
المجلد الثاني : الوثائق ذات الأرقام : ١١ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦١ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ،
١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،
١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧٢ .
- ٢ — أيضاً الصور الضوئية للأزياء العثمانية ذات الأرقام
١١٥/٧ ، ١١٦/٨ ، ١١٧/٩ ، ١١٨/١٠ ، ١١٩/١١ ، ١٢١/١٣ ، ١٢٣/١٥ ،
١٢٦/١٨ ، ١٢٧/١٩ ، ١٣٢/٢٧ ، ١٣٨/٣٠ .
- ٣ — سجلات محاكم دمشق الشرعية وهي
 - أ — سجل محكمة الباب رقم ٣٢٢ / من ١٥ ربيع الأول ١٢٤٦هـ — إلى ٤ ذي
القعدة ١٢٤٦هـ .
 - ب — سجلات المحكمة الكبرى بدمشق ذات الأرقام
٣٣ من ١١ جمادى الآخر سنة ١١٢٤هـ إلى ١٦ ربيع الأول سنة ١١٢٥هـ .
١٤٦ من غرة ربيع الأول سنة ١١٦٩هـ إلى ١١ ربيع الثاني ١١٧٠هـ .
٢٠٢ من ١٩ شعبان سنة ١١٩٠هـ إلى ٨ ربيع الأول سنة ١١٩١هـ .
٢٢٠ من ٥ ربيع الأول سنة ١٢٠١هـ إلى ٢ جمادى الثاني سنة ١٢٠٢هـ .

- ٢٢١ من ١١ ربيع الأول ١٢٠١هـ إلى غرة ربيع الثاني سنة ١٢٠٣هـ.
- ٢٣٠ من ربيع الأول سنة ١٢٠٨هـ إلى ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٠٩هـ.
- ٢٣٤ من ١٦ جمادى الثاني سنة ١٢١٠هـ إلى ١٦ جمادى الثاني ١٢١١هـ.
- ٢٣٥ من ١ ذي الحجة سنة ١٢١٠هـ إلى ١٢ محرم سنة ١٢١١هـ.
- ٢٣٦ من غرة شوال سنة ١٢١٠هـ إلى ١٧ شوال سنة ١٢١٧هـ.
- ٢٣٩ من ١٩ جمادى الثاني سنة ١٢١٠هـ إلى ١٨ ربيع الأول سنة ١٢١١هـ.
- ٢٤٠ من ١٦ شعبان سنة ١٢١١هـ إلى ٦ صفر سنة ١٢١٦هـ.
- ٢٥٠ من ختام شعبان سنة ١٢١٦هـ إلى ١٧ شعبان سنة ١٢١٧هـ.
- ٢٥٧ من ٥ ربيع الثاني سنة ١٢٢١هـ إلى ١٤ محرم سنة ١٢٢٢هـ.
- ٢٦٠ من ١٦ جمادى الأولى ١٢٢٢هـ إلى ٣ محرم سنة ١٢٢٣هـ.
- ٣٢٣ من ١٠ محرم سنة ١٢٤٧هـ إلى ٨ رجب سنة ١٢٤٧هـ.
- ٣٢٤ من ١٣ شعبان سنة ١٢٤٧هـ إلى ٩ ذي الحجة سنة ١٢٤٧هـ.
- ٣٢٦ من ١٩ شوال سنة ١٢٤٨هـ إلى ١٣ ذي القعدة سنة ١٢٤٨هـ.
- ٣٥٧ من ١١ محرم سنة ١٢٥٥هـ إلى ختام رمضان سنة ١٢٥٦هـ.
- ٣٧٩ من ٧ شوال سنة ١٢٥٩هـ إلى ٤ شوال سنة ١٢٦٠هـ.
- ٣٩٨ من ٨ ربيع الثاني سنة ١٢٦٣هـ إلى ١٩ رجب سنة ١٢٦٣هـ.

ج — سجلات محاكم القسمة العسكرية بدمشق ذات الأرقام

- ٣ من ١٠٣٩ إلى ١٠٤٢هـ (قسمة عسكرية).
- ٨ من ٨ صفر سنة ١٠٦٠هـ إلى ١٦ رجب سنة ١٠٦٢هـ.
- ١٠ من ٥ صفر سنة ١٠٩١هـ إلى ١٣ صفر ١١٠٢هـ.
- ١١ من ١١ محرم ١٠٩٢هـ إلى ١٧ محرم ١٠٩٣هـ.
- ١٢ من ١٠٩٣هـ إلى سنة ١٠٩٥هـ.
- ٢٦ من ٢ شعبان سنة ١١١٢هـ إلى ٢٣ ذي الحجة سنة ١١١٤هـ.
- ٥٩ من ١٤ محرم سنة ١١٣٩هـ إلى ١٠ ذي الحجة ١١٤١هـ.
- ١٥٠ من ٩ ذي الحجة سنة ١١٧٠هـ إلى ١٥ ذي الحجة سنة ١١٧٠هـ.
- ١٠٢ من ١٤ ربيع الآخر سنة ١١٩٠هـ إلى ٩ شعبان سنة ١١٩٢هـ.

- ٢١٥ من ٣٠ محرم سنة ١١٩٤هـ إلى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٠٠هـ.
- ٢٣٨ من ١٦ ربيع الأول سنة ١٢١١هـ إلى ١٩ صفر سنة ١٢١٢هـ.
- ٢٩٩ من ١١ رجب سنة ١٢٣٧هـ إلى ختام ربيع الثاني سنة ١٢٤٥هـ.
- ٣٠٨ من ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٤١هـ إلى ١٣ ربيع الثاني سنة ١٢٤٣هـ.
- ٣٣٠ من ٦ ربيع الثاني سنة ١٢٤٨هـ إلى ١٥ شعبان سنة ١٢٦٥هـ.
- ٣٣٤ من ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٥٠هـ إلى ١١ ذي القعدة سنة ١٢٥٠هـ.
- ٣٣٦ من ١٩ شوال سنة ١٢٥٠هـ إلى ١٦ صفر سنة ١٢٥١هـ.
- ٣٤٠ من ١٠ ذي القعدة سنة ١٢٥٠هـ إلى ٢٠ رجب سنة ١٢٥٤هـ.
- ٣٤١ من ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٥٠هـ إلى ٥ محرم سنة ١٢٥٢هـ.
- ٣٦٤ من ٢٤ شوال سنة ١٢٥٠هـ إلى ١١ صفر سنة ١٢٥٨هـ.
- ٣٦٥ من ٦ جمادى الثاني سنة ١٢٥٣هـ إلى ١٥ محرم سنة ١٢٥٨هـ.
- ٤٠٩ من ٦ ذي القعدة سنة ١٢٦٤هـ إلى ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٦٥هـ.
- ٤٢٠ من غرة ربيع الثاني سنة ١٢٦٦هـ إلى ٨ شعبان سنة ١٢٦٦هـ.

د — سجلات القسم البلدية ذات الأرقام

- ١٨٢ من ١ جمادى الآخر سنة ١١٨٣هـ إلى ١٩ ذي الحجة سنة ١١٩٠هـ.
- ٢٢٤ من ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٠٥هـ إلى ١٠ محرم سنة ١٢٠٨هـ.
- ٢٩٠ من ١٦ ذي القعدة سنة ١٢٣٢هـ إلى ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٣٧هـ.
- ٣٢٧ من ١٠ ذي القعدة سنة ١٢٤٧هـ إلى ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٩هـ.

هـ — سجل المحكمة العونية بدمشق رقم

- ٣٢٣ من ٥ ذي الحجة سنة ١٢٤٧هـ إلى ١٨ رجب سنة ١٢٤٧هـ.

و — سجلات محكمة الميدان بدمشق ذات الأرقام

- ١٩٨ من ١٢ صفر سنة ١١٨٠هـ إلى ١٥ شعبان سنة ١١٩٠هـ.
- ٢٢٣ من ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٠٢هـ إلى ٩ ربيع الأول سنة ١٢٠٤هـ.
- ٣٠٤ من ١١ جمادى الأولى سنة ١٢٣٨هـ إلى ٢ رجب سنة ١٢٤٠هـ.

٣٧٨ من ١٠ محرم سنة ١٢٥٠هـ إلى ٩ رجب سنة ١٢٥٩هـ.

٤١١ من ١٠ شوال سنة ١٢٦٤هـ إلى ١٢ شوال سنة ١٢٦٥هـ.

ز — سجلات محاكم دمشق التي لم نستطع تحديد عائلتها وهي ذات الأرقام التالية :

٢٨ من سنة ١١١٣هـ إلى سنة ١١١٨هـ.

٥٠ من ٣٠ ربيع الأول سنة ١١٣٦هـ إلى ١٦ ذي القعدة سنة ١١٣٦هـ.

١٤٦ من ربيع الأول سنة ١١٦٩هـ إلى ربيع الثاني سنة ١١٧٠هـ.

٢١٣ من منتصف ذي الحجة سنة ١١٩٥هـ إلى ١٦ ذي القعدة سنة ١١٩٥هـ وبها أحداث من عام ١١٩٦هـ.

٣٢٥ من ٢ ذي الحجة سنة ١٢٤٧هـ إلى ٧ جمادى الثاني سنة ١٢٤٨هـ.

٣٥٧ من ١١ محرم سنة ١٢٥٥هـ إلى ختام رمضان سنة ١٢٥٦هـ.

٣٧٩ من ٧ شوال سنة ١٢٥٩هـ إلى ٤ شوال سنة ١٢٦٠هـ.

ح — سجلات محاكم حلب ذات الأرقام

١٥ من ٣٠ ربيع الثاني سنة ١٠٣٥هـ إلى ١٤ شوال سنة ١٠٤٦هـ.

١٥ من ٢ رجب سنة ١١٩٠هـ إلى ٢٠ جمادى الأولى سنة ١١٩٢هـ.

ط — سجل محكمة حماه رقم

٥٠ من ١ ربيع الأول سنة ١٢٥١هـ إلى ٢٧ شعبان ١٢٦٣هـ.

المخطوطات

- ١ — ابن كنان، محمد بن عيسى. المواكب الإسلامية في الممالك والحاسن الشامية صورة فوتوغرافية. مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق رقم ٢٦. عن مخطوطة في دار الكتب المصرية في القاهرة.
- ٢ — البرزنجي، جعفر. النفح الفرجي في الفتح الجنتي جي. مخطوطة في المكتبة الظاهرية تحت رقم ٨٧٢٤.
- ٣ — الحلبي، يوسف بن ديمتري. المرتاد في تاريخ حلب وبغداد. تحقيق ودراسة فواز الفوز. قدم إلى كلية الآداب في دمشق لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر لعام ١٩٧٧م.
- ٤ — الصايغ، فتح الله بن أنطون. المقتررب في حوادث الحضرة والعرب. صورة لمخطوطة في مكتبتي الخاصة.

- ٥ — طعمة ، حسين . كشف الالتباس في مسألة السماع أو « رسالة السماع » . المكتبة الظاهرية في دمشق . تحت رقم ٦٠٦٩ / خط .
- ٦ — القاسمي ، جمال الدين . تعطير المشام بماثر دمشق الشام . صورة لمخطوطة بخط يد المؤلف مكونة من جزئين . الجزء الأول خالي من الترقيم في حين رقم الجزء الثاني . مكتبة حفيده محمد سعيد القاسمي دمشق — مهاجرين — جادة القسطل .
- ٧ — النابلسي ، عبد الغني . الصلح بين الاخوان في حكم إباحة الدخان . المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ١٨٦٩ / .
- ٨ — ضوء السراج فيما قيل عن النساج . وثيقة قدمتها الدكتورة ليلي الصباغ إلى المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام ج ١ . سنة ١٩٧٨ م . « وهي من تأليف محمد بن طولون » .

المصادر العربية المطبوعة

- ١ — القرآن الكريم .
- ٢ — ابن الخوراني ، الاشارات إلى أماكن الزيارات . دمشق ١٣٢٧ هـ .
- ٣ — ابن طولون ، محمد :
- أ — أعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى . تحقيق محمد أحمد دهمان . دمشق سنة ١٩٦٤ م وقد ترجم (H. LAOUST) هذا الكتاب إلى الفرنسية ونشره مع مخطوط ابن جمعة في سنة ١٣٤٨ هـ . les Gouverneurs de Damas, Damas. 1952 .
- ب — الشجر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام . نشره صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٦ م .
- ج — الشمعة المضية في اخبار القلعة الدمشقية . دمشق سنة ١٣٤٨ هـ .
- د — القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية . تحقيق محمد أحمد دهمان . دمشق ١٩٤٩ م .
- هـ — مفاكهة الخلال في حوادث الزمان . جزآن نشرهما محمد مصطفى في القاهرة سنة ١٩٦٢ و ١٩٦٤ م .
- ٤ — ابن عساكر ، الحافظ . التاريخ الكبير . ٥ أجزاء دمشق سنة ١٣٢٩ — ١٣٣٢ هـ .
- ٥ — ابن عبد الهادي ، يوسف :
- أ — نزهة الرفاق عن شرح أحوال الأسواق .

ب — ثمار المقاصد في ذكر المساجد. تحقيق محمد أحمد طلس. دمشق المعهد الفرنسي سنة ١٩٤٣م.

ج — الإعانات في معرفة الخانات.

٦ — ابن عابدين، محمد أمين. رد المختار على الدر المختار. ٥ أجزاء القاهرة ١٢٩٩هـ.

٧ — آصاف، عزتلو يوسف بك. تاريخ سلاطين آل عثمان من أول نشأتهم حتى الآن. القاهرة ١٩٠٩م.

٨ — أبو النصر، حسنين. الشجرة الزكية في مناقب السادة البازية والقادرية والرفاعية. استانبول سنة ١٣٠١هـ.

٩ — الاسكندري، أحمد. تاريخ آداب اللغة العربية. القاهرة ١٩٢٧م.

١٠ — اسماعيل، عادل. وخوري، أميل. السياسية الدولية في الشرق العربي من ١٧٨٩ — ١٩٥٨م ٣ أجزاء. بيروت ١٩٥٩م.

١١ — البارودي، فخري. مذكرات فخري البارودي. دمشق — حزيران سنة ١٩٥١م.

١٢ — باسكوال، جان بول. البيئة والتغذية في حوران في القرن التاسع عشر. بحث قدمه إلى المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام. دمشق ١٩٧٨م.

١٣ — باشا، محمد علي. الرحلة الشامية. بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

١٤ — البغدادي، عبد الرحمن. مرصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع. تحقيق علي البخاري — القاهرة سنة ١٩٥٤م.

١٥ — بدران، عبد القادر. منادمة الاطلاع ومسامرة الخيال. دمشق ١٩٦٠م.

١٦ — البوريني، الحسن بن محمد. تراجم الأعيان من أبناء الزمان، صدر منه جزآن نشرهما صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٥٩ — ١٩٦٣م.

١٧ — تولي، الانسة. عشرة أعوام في طرابلس. ترجمة عبد الجليل الطاهر.

١٨ — البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر في القرن الثامن عشر. ٣ أجزاء تحقيق بهجة البيطار دمشق سنة ١٩٦١ — ١٩٦٣م.

١٩ — التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي. مدخل إلى التصوف الإسلامي. القاهرة سنة ١٩٧٦م.

٢٠ — الجبرتي، عبد الرحمن. عجائب الآثار في التراجم والأخبار. ٣ مجلدات بيروت.

٢١ — جودت، أحمد باشا. تاريخ جودت. المقدمة. ترجمة عبد القادر الدنا — بيروت ١٣٠٨هـ.

- ٢٢ — جيب، هاملتون. وباوون، هارولد. المجتمع الإسلامي والغرب. جزآن. ترجم الجزء الأول أحمد عبد الرحيم مصطفى القاهرة ١٩٧١م.
- ٢٣ — حطب، زهير. تطور بنى الأسرة العربية والجنود التاريخية والاجتماعية لقضاياها المعاصرة. لبنان ١٩٧٦م.
- ٢٤ — الحصني، محمد أديب تقي الدين. منتخبات لتواريخ دمشق. ٣ أجزاء. مع مقدمة الدكتور كمال سليمان صليبي. بيروت ١٩٧٩م.
- ٢٥ — البديري، أحمد. حوادث دمشق اليومية ١١٥٤ — ١١٧٦هـ. تنقيح محمد سعيد القاسمي، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة ١٩٥٩م.
- ٢٦ — حمامي، حسن. الأزياء الشعبية وتقاليدها في سورية. دمشق ١٩٧٢م.
- ٢٧ — حنا، عبد الله، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان. القسم الأول ١٨٢٠ — ١٩٢٠م. بيروت ١٩٧٥م.
- ٢٨ — حوراني، ألبرت. الفكر العربي في عصر النهضة. ترجمة كريم عزقول. بيروت ١٩٦٨م.
- ٢٩ — خاطر، لحد. العادات والتقاليد اللبنانية. جزآن. مطبعة الجبل — درعون — حريصا — لبنان.
- ٣٠ — الخالدي، عبد المجيد الخاني. الأنوار القدسية في مناقب السادات الخالدية. مطبعة الحبانية ١٣١٦هـ.
- ٣١ — خنشت، يوسف موسى. طرائف الأمس غرائب اليوم. حريصا. ١٩٣٦م.
- ٣٢ — خوري، فيليب. طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق. بحث مقدم إلى المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج ١. سنة ١٩٧٨م.
- ٣٣ — الخياري، ابراهيم. تحفة الأدباء وسلوة الغرباء. بغداد ١٩٦٩م.
- ٣٤ — خير، صفوح. مدينة دمشق، دراسة في جغرافية المدن. دمشق ١٩٨٢م.
- ٣٥ — دارفيو، الفارس. وصف دمشق. ترجمة أحمد إيش. دمشق ١٩٨٢م.
- ٣٦ — الداغستاني، كاظم. حكاية البيت الشامي الكبير. دمشق ١٩٧٢م.
- ٣٧ — الدمشقي، ميخائيل بريك. تاريخ الشام ١٧٢٠ — ١٧٨٢م / ١١٣٣ — ١١٩٦هـ / قام بالتعليق على حواشيه الخوري، قسطنطين الباشا — حريصا — لبنان ١٩٣٠م.
- ٣٨ — ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. مجموعة أبحاث ودراسات تاريخية. القاهرة ١٩٤٨م.
- ٣٩ — الذكرى المئوية الأولى لوفاة سعيد الذكر مكسيموس الثالث المظلوم. ١٨٥٥ — ١٩٥٥م.
- ٤٠ — زكي، عبد الرحمن. التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير. مصر ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.

- ٤١ — زكريا، أحمد وصفي . عشائر الشام . دمشق ١٩٤٥ م .
- ٤٢ — الزباني، أبو القاسم . الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برأ وبحراً . تحقيق عبد الكريم القبلاي — المغرب ١٩٦٧ م .
- ٤٣ — زيادة، نقولا . الحسبة والمحتسب في الإسلام . بيروت ١٩٦٢ م .
- ٤٤ — رافق، عبد الكريم
- أ — تاريخ مصر وبلاد الشام من الفتح العثماني إلى حملة نابليون ١٥١٦ — ١٧٩٨ م دمشق ١٩٦٨ م .
- ب — العرب والعثمانيون . دمشق ١٩٧٤ م .
- ج — مقالاته في مجلة دراسات تاريخية العدد : الأول — الرابع — السادس .
- ٤٥ — الرافعي، عبد الرحمن . تاريخ الحركة القومية وتطور الحكم في مصر، عصر محمد علي ٣ أجزاء — القاهرة ١٩٣٠ م .
- ٤٦ — رستم، أسد . الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . بيروت ١٩٣٠ — ١٩٣٤ م .
- ٤٧ — الرجحاوي، عبد القادر . خانات مدينة دمشق . بحث نشر له في مجلة الحوليات الأثرية السورية . المجلد ٢٥ سنة ١٩٧٥ .
- ٤٨ — سامي، عبد الرحمن . القول الحق في بيروت ودمشق . لبنان ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٤٩ — السباعي، بدر الدين . أضواء على قاموس الصناعات الشامية . دمشق ١٩٧٧ .
- ٥٠ — سمارة، يوسف . سورية ملتقى الحضارات . دمشق — مطبعة الإنشاء . خالية من التاريخ .
- ٥١ — سوفاجة، جان . دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الأخير . تعريب فؤاد أفرام البستاني ١٩٣٦ م .
- ٥٢ — سويد، ياسين . التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عصر الإماراتين . جزعان — بيروت سنة ١٩٨٠ .
- ٥٣ — السيوفي، حبيب . سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثالث عشر . جزعان — صيدا — المطبعة المخلصية ١٩٤٨ م .
- ٥٤ — الشبيب، محمد رضا . رحلة في بادية السماوة . بغداد ١٩٦٤ م .
- ٥٥ — شداد، عز الدين . الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة . تاريخ مدينة دمشق . تحقيق سامي الدهان — دمشق ١٩٥٦ م .

- ٥٦ — القاياتي، محمد عبد الجواد. نفحة البشام في رحلة الشام. دار الرائد العربي — ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ٥٧ — الشدياق، طنوس يوسف. أخبار الأعيان في جبل لبنان. جزآن — بيروت ١٨٥٩م.
- ٥٨ — شهاب، حيدر أحمد
- أ — الروض النضير في ولاية الأمير بشير قاسم الكبير وأعماله حتى موته — القاهرة مطبعة السلام ١٩٠٠م.
- ب — تاريخ أحمد باشا الجزائر. قدّم له ووضع حواشيه وفهارسه وألحقه بذيّل الأب أنطونيوس شبلي اللبناني، والأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي. بيروت مطابع قلفاط — ١٥ آب ١٩٥٥م.
- ٥٩ — تاريخ الأمير بشير الشهابي. لبنان — زحلة ١٩١٤م.
- ٦٠ — تاريخ الأمراء الشهابيين. المؤلف أحد أمرائهم في وادي التيم. نظر فيه ونقحه ووضع فهارسه الدكتور سليم حسين هشي. دمشق ١٩٧١م.
- ٦١ — شليشر، ليندا. بعض مظاهر أحوال الأعيان بدمشق في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج ١، ١٩٧٨م.
- ٦٢ — الصباغ، ليلى. المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني. دمشق، وزارة الثقافة ١٩٧٣م.
- ٦٣ — الصبادي، محمد عز الدين. الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية. دمشق ١٣٣٠هـ.
- ٦٤ — الطاهر، عبد الجليل. البدو والعشائر في البلاد العربية. محاضرات في طلاب الدراسات العالية الاقتصادية — القاهرة ١٩٥٤م.
- ٦٥ — الطويل، توفيق. التصوف في مصر إبان العصر العثماني. القاهرة ١٩٤٦م.
- ٦٦ — عاشور، سعيد عبد الفتاح. الحركة الصليبية. جزآن. الطبعة الثانية. القاهرة، ١٩٧١م.
- ٦٧ — عانوتي، د. أسامة. الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثالث عشر. الجامعة اللبنانية — بيروت ١٩٧١م.
- ٦٨ — العبد، حسن آغا. قطعة من تاريخ حسن آغا العبد. تحقيق يوسف جميل نعيمة. دمشق ١٩٧٩م.
- ٦٩ — العظم، خالد. مذكرات خالد العظم. ٣ أجزاء. بيروت ١٩٧٣م.
- ٧٠ — عميفي، د. أمين مصطفى. و د. عبد الكريم، عزت. تاريخ أوروبا الاقتصادية. مصر ١٩٥٤.
- ٧١ — العكاوي، ميخائيل نقولا الصباغ. تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صقد نشره وعلق عليه ووضع حواشيه. الخوري، قسطنطين الباشا المخلصي. مطبعة القديس بولس — حريصا — لبنان — مكتبة المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية في دمشق. تحت رقم ١٦٠ / ٨.

- ٧٢— العلاف، أحمد حلمي . دمشق في مطلع القرن العشرين . تحقيق علي جميل نعيسة . دمشق ١٩٧٦ م .
- ٧٣— العلي، أكرم حسن . دمشق في نهاية عهد المماليك وعهد سيباي . رسالة مقدمة لجامعة عين شمس لنيل درجة الماجستير في التاريخ . القاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- ٧٤— العلموي، عبد الباسط . مختصر تنبيه الطالب وإرشاد اندارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس . تحقيق صلاح الدين المنجد . دمشق ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .
- ٧٥— عوض، عبد العزيز محمد . الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ — ١٩١٤ . دار المعارف . مصر ١٩٦٩ م .
- ٧٦— غرايبة، عبد الكريم . مقدمة تاريخ العرب الحديث . الجزء الأول . دمشق ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .
- ٧٧— غران، بيتر . الأسس الاجتماعية للثقافة في دمشق . نشر في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام الجزء الأول ١٩٧٨ م .
- ٧٨— الغزي، كامل بن حسين بن بالي . نهر الذهب في تاريخ حلب . المطبعة المارونية ٣ أجزاء ، حلب ، ١٣٤١ — ١٣٤٥ / ١٩٢٢ — ١٩٢٦ .
- ٧٩— الغلايني، محمد خادم الأربعين . العقد الثمين في مقام الأربعين . دمشق — الطبعة الثانية .
- ٨٠— الفاضل، أكرم . المفصل بأسماء الملابس عند العرب . بغداد ١٩٧١ م .
- ٨١— فرج، حداد . القراؤون والربانيون . القاهرة ١٩١٨ م .
- ٨٢— فريزر، جيمس بيلي . رحلة فريزر إلى بغداد . ترجمة جعفر الحياط . بغداد ١٩٦٤ م .
- ٨٣— قاسم عبده قاسم . أهل الذمة في مصر ، في عهد سلاطين المماليك . بحث قَدِّم لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ الإسلامي من جامعة القاهرة . مارس (آذار) ١٩٧٥ م .
- ٨٤— القاسمي، محمد سعيد . وجمال الدين . وخليل العظم . قاموس الصناعات الشامية . تحقيق ظافر القاسمي . جزآن طبع في باريس ١٩٦٠ م .
- ٨٥— القادري، علي . نزهة الخاطر في ترجمة سيدي الشريف عبد القادر . طبع استانبول سنة ١٣٠٧ هـ .
- ٨٦— سدانة، أحمد . معالم وأعلام في بلاد العرب . الجزء الأول ، مطبعة أديب . دمشق ١٩٦٥ م .
- ٨٧— قرألي، بولس . فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسوريا . ١٨٣١ — ١٨٤١ م . مطبعة القديس بولس — حريصا — ١٩٣٧ .
- ٨٨— القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ . صبح الأعشى في صناعة الإنشا . ١٤ جزءاً . طبعة دار الكتاب ١٩١٢ م (أُلفت من الجزء الثاني)

- ٨٩ - القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. صورة لمخطوطة في مكتبة المعهد العلمي الفرنسي بدمشق تحت رقم ١٦٦٣٠ / ٨.
- ٩٠ - كرد علي، محمد.
- أ - الإسلام والحضارة العربية. القاهرة سنة ١٩٣٦ م.
- ب - خطط الشام. ٦ أجزاء. طبعة بيروت ١٩٧٢ م.
- ٩١ - كميد، ميشيل سليم. مجازفات اللادي أستر استانبوب في الديار الشامية. صيدا، مطبعة العرفان ١٩٣٥ م.
- ٩٢ - كيال، منير.
- أ - الحمامات الدمشقية وتقاليدها، دمشق ١٩٦٦ م.
- ب - فنون وصناعات دمشقية. دمشق ١٩٦٢ م.
- ج - رمضان وتقاليد الدمشقية. دمشق. مكتبة المعهد العلمي الفرنسي بدمشق تحت رقم ٨ / ٩٦٨٨.
- ٩٣ - لونسكي، فلاديمير. تاريخ الأقطار العربية الحديث. ترجمة عفيفة بستاني. دار التقدم - موسكو ١٩٧١.
- ٩٤ - لوفران، جورج. تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث. ترجمة هاشم الحسني - بيروت.
- ٩٥ - لوقا، اسكندر. الحركة الأدبية في دمشق. ١٨٠٠ - ١٩١٨ م - طبع دمشق ١٩٧٦ م.
- ٩٦ - لوكروي، إدوار. أحمد الجزائر. ترجمة جورج مسرة - البرازيل - سان باولو ١٩٢٤ م.
- ٩٧ - الماردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي. الأحكام السلطانية والولايات الدينية. مصر، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.
- ٩٨ - مجهول. حسر اللثام عن نكبات الشام. مصر ١٨٩٥ م.
- ٩٩ - مجهول. مذكرات تاريخية. لأحد كتاب الحكومة الدمشقيين. نشر وتعليق قسطنطين الباشا - طبع - حريصا - لبنان - بدون تاريخ. ثم: طبعة مصورة. أحمد غسان سيانو ١٩٨٠ م.
- ١٠٠ - محاسني، سليمان. حلول التعب والآلام بوصول أبي الذهب إلى دمشق الشام. تحقيق صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد. بيروت ١٩٦٢ م.

- ١٠١ — المحبي — محمد خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . ٤ أجزاء — القاهرة ١٢٨٤هـ .
- ١٠٢ — المرادي، محمد خليل .
- أ — سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . مصر . بولاق سنة ١٣٠١هـ .
- ب — عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام . مطبعة زيد بن ثابت — دمشق ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- ١٠٣ — مردم بك، خليل . أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع . بيروت ١٩٧٧ .
- ١٠٤ — مشاقة، ميخائيل . مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان . مصر ١٩٠٨م .
- ١٠٥ — المعلوف، اسكندر . دواني القطوف في تاريخ بني المعنوف . بعدا — لبنان ١٩٠٧م، ١٩٠٨ .
- ١٠٦ — المقرئ، تقي الدين ابن أبي العباس أحمد بن ع . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . ٤ أجزاء — الأول ١٩١١ — الثاني ١٩١٣ — الثالث ١٩٢١ — الرابع ١٩٢٤ — القاهرة .
- ١٠٧ — المنجد، صلاح الدين .
- أ — أبنية دمشق الأثرية المسجلة — بيروت ١٩٤٨م .
- ب — دمشق القديمة — أسوارها — أبوابها — أبراجها — دمشق ١٩٤٥م .
- ج — المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة . بيروت ١٩٦٤ .
- د — ولاية دمشق في العهد العثماني . دمشق ١٩٤٩م .
- ١٠٨ — مورهد، آلان .
- أ — النيل الأبيض . ترجمة بدر الدين خليل — القاهرة ١٩٦٥م .
- ب — النيل الأزرق . ترجمة نظمي لوقا . القاهرة ١٩٦٦م .
- ١٠٩ — النعيمي، عبد القادر محمد . الدارس في تاريخ المدارس . تحقيق جعفر الحسيني . دمشق سنة ١٩٤٨ — ١٩٥١م .
- ١١٠ — النمر، احسان . تاريخ نابلس والبلقاء . دمشق ١٩٣٨م .
- ١١١ — نسكايا آ، سيمليا . الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر . تعريب عدنان جاموس . دمشق وبيروت ١٩٧٢م .
- ١١٢ — اليسوعي، لويس شيخو . الاداب العربية في القرن التاسع عشر — بيروت ١٩٢٤م .
- ١١٣ — اليشرطية، الحسينية، فاطمة . رحلة إلى الحق . بيروت، بدون تاريخ .

الموسوعات والمجلات والمعاجم والتقويم العربية والأجنبية

- ١ — دائرة المعارف الإسلامية — المجلد ١، ٩، ١٠، ١٩، الترجمة.
- الموسوعة الميسرة، شفيق غريال، طبع القاهرة سنة ١٩٦٥ م.
- ٢ — جريدة البشير، العدد سنة ١٩٣٢ م المطبعة اليسوعية — بيروت.
- ٣ — مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد الخامس عشر لعام ١٩٦٥ م. تم المجلد السابع عشر لعام ١٩٦٧ م.
- ٤ — مجلة المجمع العلمي بدمشق وأحياناً ترد تحت اسم مجلة مجمع اللغة العربية حيث سميت مؤخراً بهذا الاسم.
- المجلد الأول، الجزء التاسع سنة ١٩٢١ م.
- المجلد الثاني، الجزء الأول جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ هـ / كانون الثاني سنة ١٩٢٢ م.
- المجلد الثالث، العدد ٣٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٨ هـ / تشرين الثاني سنة ١٩٢٩ م.
- المجلد الخامس، العدد ٣٦ سنة ١٩٣٨ — ١٩٢٦ م.
- المجلد السادس عشر، سنة ١٩٦١ م.
- المجلد ١٨.
- المجلد ٢٤.
- الجزء التاسع، ١٩٢٩ م.
- المجلد رقم ٢٢، الجزء الخامس، جمادى الأولى سنة ١٢٦٦ هـ / نيسان ١٩٤٧ م.
- المجلد ٢٤، الجزء الأول، ربيع الأول سنة ١٣٦٨ هـ / كانون الأول سنة ١٩٤٩ م.
- المجلد ٣٢، العدد ١ رمضان سنة ١٣٧٦ هـ / نيسان سنة ١٩٥٧ م.
- المجلد ٣٦، الجزء الرابع سنة ١٩٦١ م.
- المجلد ٣٩، العدد ١ ذو القعدة سنة ١٣٨٣ هـ / نيسان ١٩٦٤ م.
- ٥ — مجلة المشرق، التي تصدر عن جامعة القديس يوسف في بيروت — (الجامعة اليسوعية).
- العدد ٣٥ سنة ١٩٣٧ م.
- العدد ٣٦ سنة ١٩٣٨ م.
- العدد ٣٧ سنة ١٩٣٩ م.

العدد ٤٦ سنة ١٩٢٢م.

العدد ٥٨ سنة ١٩٦٤م.

٦ — مجلة دراسات تاريخية، العدد ١، ٤، ٦.

مجلة القدس، العدد ٢٠ — رجب سنة ١٤٠١هـ / كانون أول سنة ١٩٨١م.

مجلة المعرفة، المجلد ٩. ترجمة مصر.

٧ — قاموس شمس الدين سامي. (تركي — تركي) تحقيق أحمد جودت. استانبول ١٣١٧هـ.

٨ — سالنامه در العثمانية سورية ولايتي. مطبعة أحمد احسان — القسطنطينية سنة ١٣٢٢هـ.

المراجع الأجنبية

REFERENCE

- 1 - BARKER; EDWARD. B.B. Syria Egypt Under The last Five SULTANS of TURKEY. volume. 1 New York. 1973.
- 2 - BODMAN, H.I.Jr. Political factions in Aleppo. 1760-1826. The University of North Carolina Press. 1963.
- 3 - BOWRING, JOHN. Report on the commercial Statistics of Syria. New-York. 1973.
- 4 - BROWNE, W.G. Travels in Africa, Egypt and Syria, from the year, 1792-1798.
- 5 - BURCKHARDT, J.L. Travels in Syria and the Holyland. London Londres-Murray. 1822.
- 6 - BURTON, ISABEL. The Inner. Life of Syria Palestine and the Holyland-Londres. 1884.
- 7 - CATTENOZ, H.G. Tabbes de Concordancer des eres chretiennet Hegrienne. Rabat. 1954.
- 8 - CHEVALLIER. DOMINIQUE. A. Begining of Modernization in midelle East the nineteenth century. 4 Partes.
B- WESTERN Development and Crisis in Nineteenth Century. The University of Chicago. press.
- 9 - DOUINE, GEORGES. La Mission du Borton Boisle Cmbte au Ministre. 3. Partes. 1927.
- 10 - ENKIRI, GABRIEL. IBRAHIM PACHA, Le Caire. 1948.
- 11 - ENCY CLOPEDIE de L'Islam. Dictionaire Geographique, Ethnographique Et Biographique Des Peuples Musulmans. Leyde. Librairie Et Imprimerie Ci-De Vant E.J. Brill. 1927. Paris, Aucust Piard. Editeur. 82. Rue Bonaparte.

- 12 - DACHESTANI, K. *La Famille Musulmane Contemporaine en Syrie*, Paris-1932.
- 13 - DOZY, R. *Supplément Aux Dictionnaires Arabes*. 1927. Paris.
- 14 - GIBB. H.A.R. and BOWEN. Harold . *Islamic Society, and the West* Volumes, in 4 parts, London 1951-1957.
- 15 - HOLT. P.M. *Egypt and the fertile Crescent. 1516-1922*. London. 1966.
- 16 - LA MARTINE. *Voyage En Orient*. 2 Volumes Paris 1856.
- 17 - MAO Z, MOSHE. *Ottoman Reform in Syria and Palestine. 1840-1861*, Oxford 1968.
- 18 - MARROTT. J.A.R. *The Eastern question and historical Study in European Diplomacy*. Oxford, 1951.
- 19 - MEYNARD. BERBIER. *Sur Noms et Surnoms dans la Littérature Arabe*. Paris. 1907.
- 20 - MILLER. WILLIAM. *The Ottoman Empire and its Successors*. London 1966.
- 21 - POLK, WILLIAM. R. *The Opening of South Lebanon 1788-1840*. Harvard-University Press. 1963.
- 22 - PORTER. J. L. *Five Years in Damascus. of the History Topographie including on account of the travels and Researches and Antiquities of that city the Palmyra-Lebanon and Houran*. London, 1855.
- 23 - PRÉCIS de L'Histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues. 1933 L'Egypte imprimée par l'imprimerie de L'institut Français D'Archéologie-Orientale. Le Caire.
- 24 - RAFEQ. A. K. *The Province of Damascus, 1723-1783*, Beirut. 1970.
- 25 - REDHOUSE. W. *Arabic and English Lexicon*. Beirut. 1974.
- 26 - RENAUNIN. *Histoire des Relations Internationales 5. Parties*.
- 27 - Russell. Alex. *The Natural-History of Aleppo*, 2 vols., 2nd Ed., London. 17.
- 28 - KOURY, GEORGE. *Province of Damascus* PH. D. dissertation the University of Michigan. 1978.
- 29 - SHAW, STUNFORD. *History of the Ottoman Empire and modern Turkey* 2. volumes. Cambridge University Press. 1977.
- 30 - Trimingham. J. *The Sufi Orders in Islam*, Oxford. Clarendon Press-1971.
- 31 - VOINEY J.F. *Voyages En Egypte et en Syrie*. 3. vols, Paris. 1823.
- 32 - Wood, ALFRED C. *History of the Levant Company*. London 1939.
- 33 - WRIGHT, T. *Early Travels in Palestine*. London. 1848.
- 34 - ZELLER, GASTON. *Histoire des Relations Internationales*. Paris. 1955.

نتائج البحث باللغة الانكليزية

ABSTRACT

This research deals with the study of the society of Damascus from 1772-1840 A.D. 1186-1256 A.H. The dissertation is divided into six chapters preceded by an introduction and presentation of the sources. The first chapter deals with the name of Damascus, her general view at the end of the 18th century until the middle of the 19th century. The walls of Damascus, her streets, inhabitants, narrow roads, markets, picknick places, baths, hospitals fountains, (takiyas) hotels, khanat, graves, are all illustrated in this chapter as well.

In the second chapter the rulers and their social standards have been discussed as well as the wali, deftdardar, Kakhia, mutasallim, officers of the army, the soldiers and their different corps, the reforms in the army, then the governed people like the merchants of Damascus, the artisans, peasants, bedouins, the policy of the Ottoman Government towards them, the position of the Dhimmis, the European Consuls, the European Merchants and the slaves.

The third chapter deals with the political and religious importance of Damascus, the schools, programs of teaching the stages of studying, the scientific certificates, the libraries, and cultural centres; the religious men, teachers the Sufi orders, the judges, and muftis, the Notables-Al-Ashraf the position of endowments (Al-Awqaf) their social role, and the tricks used to dominate them.

The fourth chapter discusses the famous Damascene families, the fami-

lies of the peasants, the large family, the architecture of the Damascene houses, the palaces, the rural houses, the life of the Damascene family, its activity, the Damascene woman, her work, and several abnormal phenomena like theft, narcotics, intoxicants sexual perversion.

The fifth chapter discusses the style of dresses, their social indications, the clothes of the ruling authorities, the country fashions, the clothes of the Damascene woman, her adornments and ornaments, the clothes of the rural woman, her adornments and ornaments, the clothes of the Dhimmis, the bedouins, the furs and the kinds of cloth.

The sixth and last chapter deals with the feasts of the Moslems and Dhimmis, the country celebrations, the amusements and their instruments, and in the end I mentioned the most important changes that have taken place during this period and which I regard as the scientific results that the dissertation has reached to.

Dr. Y. Nousah.

الأعلام الواردة في الكتاب

آ

الاسم ورقم الصفحة

- الأباريز ٥٢٣ .
الأباريز المغربي ٥٢٣ .
الباش رسل ٤٤١ .
ابراهيم الأسطواني (الشيخ) ٢٩٣ .
ابراهيم أفندي البقاعي ٤١١ .
ابراهيم أفندي دفتر دار حفيدي ٤٣٨ .
ابراهيم آغا ٢٤٧ .
ابراهيم آغا أفندي ٤٣٧ .
ابراهيم باشا الحلبي ٤١ ، ٣٨ .
ابراهيم باشا المصري ٢٩ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٤ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ ،
٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٨٨ ، ٥٣٠ ، ٥٤٥ .
ابراهيم بن عبد الله ٢٧٥ .
ابراهيم الخياري ١٩ ، ١٥٦ ، ٣٥٩ .
ابراهيم الخلاصي ١٤٢ .
ابراهيم الصمادي ٤٢٤ .

- ابراهيم عابدون ٢٤١ .
- ابراهيم متولي ٢٠٦ .
- ابراهيم المسودن ٢٠٦ .
- ابراهيم المعروف بالهنسي ٤٠٢ .
- ابراهيم نخلة (المعلم) ٣٥١ .
- ابتدائي داخل ٣٩٠ .
- ابتدائي التمشلي ٣٩٠ .
- ابتدائي خارج ٣٩٠ .
- الأبلق (قصر) ١٦ .
- ابن الحوراني ٣٨١ ، ٧٠ .
- ابن بدران ١٢٣ ، ٦٥٧ .
- ابن بطوطة ١٥٥ .
- ابن شحادة ٢٧٨ .
- ابن طولون ٣٥ ، ١٣٦ ، ٢٠١ .
- ابن فروخ ٢١٤ .
- ابن كنان ٥١٣ ، ٥٢١ ، ٦٦٨ .
- أبو الذهب ٣٧ .
- أبو البقاء البدري ٧٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٥٠ .
- أبو بكر بهران ١٤٣ .
- أبو بكر الدسوقي ٣٦ .
- أبو القاسم الزبالي ٤٤٣ .
- أبو الوفاء التفتازاني ٥٨٥ .
- أبو حامد الفزالي ٧٢٥ .
- أبو السعود بن أيوب الأنصاري المالكي ٤٣٩ .
- احتشامات آغاسي ٢٠٦ .
- إحسان التمر ٨٩ .
- الإحساء ٢٧ .

- أحمد آغا متسلم أحمد باشا الجزار ٢٣٠ .
- أحمد آغا الزعفرنجي ٢٤٢ .
- أحمد آغا البغدادي ٢٤٢ .
- أحمد السلامي بن أغريبوزي ٢٢٩ ، ٢٥٦ .
- أحمد أفندي ديوان أفندي باشا ٥٠٥ .
- أحمد أفندي العجلاني ٢٩٤ .
- أحمد الأناؤودي ١٦٢ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ٤١٦ .
- أحمد البقاعي (الشيخ) ٤٢٤ .
- أحمد باشا الجزار ٣٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ٣٥٢ ، ٤١٠ ، ٤٧٧ .
- أحمد البديري الحلاق ٢١٣ ، ٢٤٩ .
- أحمد باشا ابن حسين باشا والي بغداد ٢٧٧ .
- أحمد بن زين العابدين بن الغزي ١٣٤ .
- أحمد إدلبي (السيد) ٢٧٥ .
- أحمد بن طولون ٦٨ .
- أحمد حلمي العلاف ٨٤ ، ١٢٠ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٧٦ ، ٥٨٥ ، ٥٩٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦١ ، ٦٦٥ ، ٧٢٧ .
- أحمد الرفاعي (الشيخ الشريف) ٤٢٥ ، ٤٢٧ .
- أحمد تيمور ١١٩ .
- أحمد الشحادة ٢٤١ .
- أحمد العبسي ٥٦١ .
- أحمد العريسي ٢٧٦ .
- أحمد رشيد تحسين الحسيني ٤٥٢ .
- أحمد طرين ٣٩٠ ، ٣٩١ .
- أحمد العضم ٢٤١ .
- أحمد عبد الرحيم مصطفى ٨٦ .
- أحمد قدامه ١٣٨ ، ١٧٥ ، ٢٠٧ ، ٣٣٦ .

- أحمد قزنها ٢٧٥ .
- أحمد عزت عبد الكريم ٧٤ ، ٢١٢ ، ٦٦٩ .
- أحمد عيسى بك ١٤٥ ، ١٤٨ .
- أحمد الكزبري ٤٢٥ .
- أحمد الخللأقي الدمشقي الفرضي ٤٠٢ .
- أحمد المنقار ٧٣٦ .
- أحمد وصفي زكريا ٣ ، ٧٠ ، ٣٢٧ ، ٦٣٥ ، ٦٣٧ ، ٧٠٤ .
- اختيارية الطائفة ٢٨٩ .
- إدوار باركر ٣٢٧ .
- إدوار لوكروي ٦٨٨ .
- الآراميون ٦٨ .
- الأوثوكس ٨٢ .
- الأربلق ٣١٨ ، ٤٤١ .
- أرز روم ٩٩ ، ٢٧٣ .
- الأزناؤوط ٥٤١ ، ٧١٧ .
- الأس والجلال ١١٨ .
- أسامة عانوتي ٢٠١ .
- الأسبعة ٣٢٨ .
- إستبدال الوقف ٤٥٩ .
- أستير استانبوب (اللادي) ١٤٠ ، ٢٦١ .
- الأستاذ (منصب إقطاعي) ٢٩٢ .
- أستاذ قرية جبعدين ٣١٩ .
- أستاذ قرية الجعيدية ٣١٩ .
- أستاذ قرية حلبون ٣١٩ .
- أستاذ حوش عرب ٣١٩ .
- أستاذ زبدین ٣١٩ .
- أستاذ قرية الخناصر ٣١٩ .

- أستاذ الصنمين ٣١٩ .
- استانبول ٢٥٦ ، ٢٧٧ ، ٣٥٠ ، ٤٠٢ .
- الاستانة ٢١٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ .
- الأسطة ٢٩٢ .
- الأسطة محمد البرشي ٢٩١ .
- أسد رستم ٥٤ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ، ١٨٥ ، ٢١٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٣٢٠ ، ٣٤٣ ، ٣٥٧ .
- أسعد ابراهيم ١٤٢ .
- أسعد باشا العظم ٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ٢١٢ ، ٢٦٨ ، ٢٤٦ .
- ٢٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٩٢ ، ٥٤١ .
- أسعد بن سعيد المحاسني ٤٤٥ .
- اسكندر لوقا ٣٩٨ .
- الاسكندرية ٦٠ ، ٢٧٦ ، ٣٣٥ .
- اسكودار ٣٣٦ .
- اسلامبول ٣١ .
- اسكماجايات ٥٠١ .
- اسما بنت علي بنت الشيخ عمر ٦١٨ .
- اسما خانم بنت أسعد باشا العظم ٥٣٠ .
- اسماعيل آغا جومر ٢٠٦ .
- اسماعيل الأنارالي ٤١٣ .
- اسماعيل باشا العظم ٢١٤ ، ١٥٦ ، ٢١٢ .
- اسماعيل بن أسعد المنيني ٤٤٥ .
- اسماعيل بك زاده عبد الله ٤٣٨ .
- اسماعيل البكري ٢٤٠ .
- اسماعيل البيطار ٢٤١ .
- اسماعيل شرجي بن المهاني ٨٤ ، ٥٤٤ .
- الاسماعيليون ٩٠ .
- الآسية ٣٤٠ .

- الأشجي باشي ٢٣٢ .
- الآشوريون ٦٨ .
- الأكراد ٧١٧ .
- أكرم العلي ٧٣ ، ٣٨٧ ، ٧٢٩ .
- أطراغ ٢١٨ ، ٣٣٥ .
- أظن علي آغا ٢٤٧ .
- آغا المغاربة ٢٤٩ .
- أغا جيراغي ٢٣٤ .
- أغريوظ ٢٥٦ .
- إغريوزي ٢٥٦ .
- أفيموس صيفي ٣٣٨ .
- نيموس فاضل ٣٣٨ .
- الأفغان ٧١٧ .
- أفريقيا ٤٢٣ .
- الأقنجي ٢٤٧ .
- الآلاي ٢٥٤ .
- الآلاي بك ٢٢٥ ، ٢٤٥ .
- آل البكري ٨٩ .
- آل تلحوق ٥٤١ .
- أتمشلي ٣١٨ ، ٣٩٧ .
- آل التركان ٨٣ .
- التونجي ٧٣٤ .
- آل تغليبي ٤٣٠ .
- آل التيناوي ١٢٨ .
- آل الحصني ٨٩ .
- آل الحنبلي ١٢٨ .
- آل حرفوش ٢٥٧ .

- آل حيار ٣٢٧ .
 آل الدسوقي ١٦٦ .
 آل السسمية ١٢٨ .
 آل سيف ٢٥٧ .
 آل سعد الدين ٩٠ .
 آل الشيرازي ١٢٨ .
 آل السفرجلاني ٩٠ .
 آل الصمادي ١٦٧ .
 آل الصديقي ١٦٧ .
 آل الصيرفي ٨٩ .
 آل علي ٣٢٧ .
 آل عبد الملك ٥٤١ .
 آل العيطة ٨٩ .
 العازارون ٣٤٢ .
 آل عساف ٢٥٧ .
 آل علم الدين ٢٥٧ .
 آل الغزي ٨٩ .
 آل القطان ١٢٨ .
 الفارس دارفو ٦٨ ، ٨٨ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ .
 الفرد وود ٦٤٤ ، ٦٤٥ .
 آل فضل بن ربيعة ٣٢٧ .
 آل كب ١٢٨ .
 آل الكزيري ٨٩ .
 آل الكوزلي ١٢٨ .
 آل المارديني ١٢٨ .
 آل المحاسني ٨٩ .
 آل الملا ١٢٨ .

- آل الملى ١٢٨ .
 آل المرادي ٩٠ .
 آل مرة ٣٢٧ .
 آل معتوق ١٢٨ .
 آل المنيني ٩٠ .
 آل الخير ٨٩ .
 آل مهنا ٣٢٧ .
 آل موصللي ١٢٨ .
 آل النحلوي ١٦٧ .
 آل النوري ١٢٨ .
 الياهو النبي ٧٢ .
 اليكس راسل ٥٩ ، ١٤٦ ، ٣٢٦ ، ٤٩٣ ، ٤٩٨ ، ٥٤٨ ، ٧٠٦ ، ٧١٠ .
 امام زاده محمد أمين ٤٣٧ .
 أمير آخور ٢٠٦ .
 أمير جرده الحج ٢١٨ .
 الأمين (حي) ٨١ .
 أمين بن محمد الجبري العباسي ٤٤٧ .
 أمين أفندي الجندي ٤١٥ .
 أمين شيخ السروجية ٢٤١ .
 أمين القباقيبي ٢٧٨ .
 أميركا ٥٢١ .
 أنطاكية ٥٩ ، ٢٣٥ .
 أنطون أفندي الشامي ٥٠٦ .
 أنطون بن فتح الله الصايغ ٣٦ .
 أنطون كاتافاكو ٣٣٢ .
 الأندر (حي) ٨٠ .
 الإنكشارية ٣٩ .

الإنكشارية اليرلية ٨٣ ، ٢٠١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٤٧٩ ، ٤٩٥ .
 إنكيري ٥٣٨ ، ٥٣٩ .
 أهل العرض ٤٧٧ .
 أوجاق السلطان ٢٢٩ .
 أوجاق الإنكشارية ١٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٥٩ .
 أوجاق اليرلية ٨٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ .
 أورطة ٢٣٢ .
 أوضاباشي ٢٥٢ .
 الأوزاع ٨١ .
 أوقاف الحرمين الشريفين ٤٥٤ .
 أويس الرومي (الشيخ) ٤٣٣ .
 الإيراني ٥٠٣ .
 إيزابيل بورتن ٦٠ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٤٩٤ ، ٦٦٧ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ .
 الأيرليق ٢٣٣ .
 الأيوبيون ٦٨ .

ب

البابا ٢٩٧ .
 البابليون ٦٨ .
 باب توما ١٢٣ .
 الباب الصغير ٩٦ .
 باب السلام ٧٤ ، ٧١٧ .
 باب الفرديس ١٠٧ .
 باب المصلى ٩٠ ، ٣٣٩ ، ٧١٨ .
 البادري توما ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٣٤٢ .

- البارزي (زقاق) ٧٦ .
- باسيلوس اسقف بانياس ٣٣٨ .
- الباش اسكي ٢٣٢ .
- الباش آغا ٥٨١ .
- باش جاويش ٢٢٩ .
- بالمرستون ٤١ .
- بانياس (نهر) ١٢٦ .
- باولو ماتيه ٦٧ .
- باياس أوغلي ٣٩٠ .
- بيلا ١٢٠ .
- البحارية (قرية) ٣٢٧ .
- بحري بك ٣٤١ .
- البحصة (حي) ٧٣ ، ٧٤ .
- براون ٦٧٧ .
- براون (مستر) ٥٩ .
- برج الروس ٨٠ ، ١١٨ .
- البرزة ٨٠ ، ٧٠٤ .
- بروفانيوس أسقف بعلبك ٣٣٧ .
- برثانيوس أسقف ديار بكر ٣٣٧ ، ٣٣٨ .
- بربر هايم ١١٧ .
- البصرة ٣٥ .
- بسيمة (قرية) ٣١٨ .
- بشه بن عمر التلي ٦١٢ .
- بشير الشهابي (الأمير) ٢٥٨ ، ٤٧٤ .
- البصرة ٢٦ .
- البطرك خانة ٣٤١ .
- بعلبك ٥٩ .

بطريك الأرثوذكس أمثوديوس ٣٣٦ .
 بلال الحبشي ٧٠ .
 بكى شمسي أحمد باشا ١٦٢ .
 البقسماط ٥٢٣ .
 بقجات ١٢٨ .
 البلانة (حارة) ٨١ .
 البالية ٣١٩ .
 بلكباشية ٥٦٥ .
 بلك أمين الغرفة ٢٢٣ .
 البص ٢٢٣ .
 بلودان (قرية) ٥٠٠ .
 البلوك باشي ٢٥٤ .
 بكر قباقيي ٢٧٥ .
 بكر ميرو ٢٤١ .
 البغاده ٨٧ ، ٧١٧ .
 بغداد ٢٧٣ .
 بغداديون ٨٩ ، ٢٥١ .
 البغلة ٥٠٦ .
 البديري ٣٤ ، ٧٧ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٨٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٤٨٤ .
 بنات الخطا ٦٩٨ .
 بنو الأيوبي ٩٠ .
 بنو حمزة (زقاق) ٧٦ .
 بنو صخر ٣٢٧ .
 بنو العمادي ٨٩ .
 البنش ٥٩٨ .
 البهنسية (محلة) ٧٤ .
 بوال كومت ٦١ ، ٩١ ، ٣٠٤ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ .

- البوايكي ٥٤٧ .
 البوايكية ٢٧٧ .
 بورتر ٥٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ٣٨٩ ، ٣٥٩ ، ٣٩٨ ، ٤٩٨ ، .
 ٥٠٢ ، ٦١١ .
 بولس (القديس) ٧٢ .
 بولس قرآني ٢٥٣ .
 البوريات ٥٠١ .
 بوركهارت ٥٩ ، ٢٢٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٤٨٧ ، ٥٩٠ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٧٠٢ .
 بولك ٢٨٠ ، ٧٢٣ .
 بولوك باشي ٢٤٥ .
 البولوكات ٢١٦ .
 بيت المقدس ٨١ .
 بيتر غران ١٤٤ ، ٤١١ ، ٤١٥ .
 بيتر بو أدفر ١١٧ .
 بيق ٢٤٧ .
 بيرقدار ٢٠٦ ، ٢٥٢ ، ٢٧٣ .
 بيروت ٢٧٣ .
 البيلري (بك البكوات) ٢٥٣ .
 بيكو لو ١٤٧ .
 اليمارستان ١٣٣ .
 اليمارستانات ٦٥ .
 اليمارستان القيمري ١٣٤ ، ٤٥٤ .
 اليمارستان النوري ١٣٤ ، ٤٥٤ .

ت

التاتار ٥٨١ .

- التاج ٥٨٨ .
- تخومس ٦٧ .
- تدمر ٥٩ .
- التربانات ٦٢٤ .
- تركيا ٤٢٣ .
- التركان (محلة) ٧٤ .
- تريس ٦٦٩ .
- ترمنجهام ٤٢٢ ، ٤٣١ .
- تل العمارنة ٦٧ .
- التفكجي ٢٤٢ ، ٢٥٢ .
- التفكجي باشي ٢٥٢ .
- التفكجية ٢٥١ .
- تقي الدين الحسيني ٨٠ .
- تنكر (نائب مملوكي) ٦٩ ، ٥٠٤ .
- تكارته ٨٩ .
- التكاي ٦٥ ، ١٥٦ .
- التيك السليمانية ١٣٤ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ٢٩٨ ، ٤٩٢ ، ٧٣٠ .
- التيك السليمية ١٦٠ .
- التيك المولوية ٢٦٢ .
- التيك النقشبندية ١٦٢ .
- التظيمات الجديدة ٢٥٦ .
- تورا ٨٠ ، ٧٤ .
- توفكجي ٢١٣ .
- توفكجية ٤٤٠ .
- التوراة ٦٠٥ .
- توفيق الطويل ١٦٩ ، ٤٠٨ ، ٤١٧ .
- تونس ٨٩ .

توماس رايت ٧١٨ ، ٩٥ .
التيامنة ٩٠ .
التيمار ٢٥٣ ، ٤٠ .
تيمورلنك ٦٩ .
تيودوسيوس الكبير ٣٣٧ .

ج

جابريل إنكيري ٥٥٦ .
الجاية (باب) ٧٨ .
جاسبر تشاسو ٣٥١ .
جاسم آغا العقيلي ٢٧٦ .
جان باسكوال ٤٨٧ ، ٤٨٥ ، ٤٨٤ .
جان سوفاجه ٨٥ ، ٨٢ .
جاويشية ٥٦٥ .
جبران ميدالي ٢٠٧ .
جرجس السيوري النصراني (المعلم) ٢٩٣ .
جزر الهند الشرقية ٢٧٦ .
الجزائر ٨٩ .
جسر بنات يعقوب ١٧٥ .
جري العادة والقانون ٣١٨ .
الجزماتية ٩٠ .
جبال العلويين ٣٣٩ .
جبل جرزم ٣٤٤ .
جبل حوران ٩٠ .

- أجبل الدروز ٢٤٩، ٢٥٧.
 جبر أبو غوش ٢٢٢.
 جبل قاسيون ١٢٠.
 جبه لين ٢٢٥.
 جمال الدين القاسمي ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ٥٢١، ٥٣٢.
 جمال الدين يوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد ٢٨١.
 جنق ٨٤.
 الجنيق (حارة) ٧٨، ٨٠.
 الجوبوقجي ٧٣٤.
 جورج أنطونيوس ٣٩٢.
 الجوريجي ٢٣٢.
 جورج خوري ١٩، ٣٠٣، ٣٣٠، ٦٦٧، ٦٧٥.
 جورج دوان ٣٣٢، ٣٥٠، ٦٣٣.
 الجورة (حارة) ٨١.
 الجوخدار ٥٨١.
 الجولان ٣١٩، ٣٢٧، ٥٠٩.
 الجوقدار ٦٧٦.
 جون باركر ٦٠.
 جون باورنج ٦١، ٣٢٠.
 جيب هاملتون وهارولد باوون ٢١٧، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٩٩، ٣٠٨.
 جيروود ٦١٩.
 جيمس فريزر ١٤٠، ٣٣٠، ٦٣٦.

ح

- حاج بكطاش ٢٣١.

- حاجي بكتاش ١٦٨ .
- حافظ باشا ٣٩٠ .
- الحافظ علي باشا ٦٩٠ .
- الحاخام أو الرني ٢٤٦ .
- حامد العطار ٤٣٢ .
- حامد أفندي تللو ٤٣٩ .
- حامد العمادي ٧٣٣ ، ٢٦٨ .
- الحاوي ٧٢٦ .
- حبيب الزيات ١٠٢ ، ٢٨١ ، ٦٣١ .
- حبيب السيوفي ٢١٤ ، ٢٤٨ ، ٢٧٨ ، ٣٤٠ ، ٥٢٩ ، ٦٠٥ ، ٧١٩ .
- حبوة ١٥٠ .
- الحثيون ٦٨ .
- الحجاز ٣٧ .
- الحدرة (محلة) ٧٦ .
- الحديد (باب) ٧٨ .
- حرّان العواميد ٦١٧ ، ٥٠٠ .
- الحرملة ١٤٦ ، ٤٩٦ ، ٧٢٨ .
- الحزب القيسي ٢٥٧ .
- الحزب اليمني ٢٥٧ .
- حركتي أتمشلي ٣٩٠ .
- حركتي خارج ٣٩٠ .
- حركتي داخل ٣٩٠ .
- الحركة الوهابية ٢٦ ، ٥٣٧ .
- حرزما (قرية) ٢٤١ ، ٤٥٩ .
- الحروب الصليبية ٨١ .
- حسن آغا العبد ٣١ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٥٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٦١ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ .
- ٢١٩ ، ٢٤٦ ، ٢٧٠ ، ٣١٤ ، ٣٨٦ ، ٤٩٥ ، ٥١٦ ، ٥١٨ ، ٥٢٣ ، ٦٣١ ، ٧٢٥ .

- الحسن بن أحمد الأربلي ١٢٣ ، ٤٠٩ .
- حسن آغا البارودي ٥٠٦ .
- حسن آغا القباني ٢٤٢ .
- حسن آغا كتخدا ٤٧٩ .
- حسن أفندي صفي الدين الكفر سوسي ٥٢٨ .
- حسن البوريني ٢٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ .
- حسن باشا ١٣٥ ، ٤١٨ .
- حسن تقي الدين الحصني ٤٤٦ .
- حسن حمادي ٥٧٣ ، ٥٧٥ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ .
- حسن الدجاني الشهير بالطباخ ٤١٥ .
- حسن زاده إمامي حسين أفندي ٤٣٨ .
- حسن السفرجلاني ٤٣٣ .
- حسن بن عبد اللطيف الدمشقي الشهير بالعمري ٤١٤ .
- حسن العطار (الشيخ) ٤٠٢ .
- حسن عطايا ٨٣ .
- حسن العلبي ٢٩١ .
- حسن القوتلي ١٥٤ .
- حسين أحمد الشالاتي ٥٣٠ .
- حسين أفندي ١٣٤ .
- حسين أفندي المحاسني ٤٤١ .
- حسين أفندي المرادي ٤٣٩ .
- حسين آغا كمخلي الشهير بالبلطجي ٣١٨ .
- حسين باشامكي ٣٢٩ ، ٦٧٤ .
- حسين بن حسن التركالي ٢٢٩ .
- حسين بن سليم الدجاني ٤٠٦ .
- حسين شبيب ٢٤١ .
- حسين اليتالي ٤٢٤ .

- حسين بن طعمة ٧٢٣ .
 حسين بن علي المرادي ٤٤٥ .
 حسين القطيفاني ٢٤١ .
 حسين مصلي ٢٢٩ .
 حيدر أحمد الشهاب (الأمير) ٢٤٧ .
 حيدر الشهابي ١٣٩ .
 الحماصنة (زقاق) ٧٥ .
 حمزة بن علي العجلاني ٤٤٥ ، ٤٥٢ .
 حنا جبرا عنجوري ٢٧٥ .
 حنانيا ٧٢ ، ٩٥ .
 حكر ٤٥٩ .
 الحكمدار ٢٠٧ ، ٣٢١ .
 الحكواتي ٧١٩ .
 حكواتية ٧٢٨ .
 حفيدي كتخه جي زاده عبد الحلیم أفندي ٤٣٨ .
 حلب ٢٦ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ .
 حلبون (قرية) ٢٢٩ .
 حمزة بن يحيى الحمزة ٤٥٢ .
 حمص ٥٩ ، ٢٥٧ .
 الجوارى (خبز) ٥٢٢ .
 حوران ٥٩ ، ٣٢٧ ، ٥٠٩ .

خ

- خاتون بنت السيد محمد القضماني ٥٢٠ .
 الخارج ٣٩٧ .

- الخاص ٢٥٣ .
- خاصكي ٥٧٦ .
- خالد (الشيخ) ٣٩٨ .
- خالد أبو البهاء ضياء الدين النقشبندى الدمشقى ٤١١ .
- خالد النابلسى الدجاني ٤١٥ .
- خالد بن أحمد بن حسين الشهرزورى الشافعى النقشبندى ٧٣٤ .
- خالد بن الوليد ١٨٩ .
- خان أرنية ١٧٥ ، ٣٢٧ .
- خان الحماصنة ٤٩٢ .
- خان الدالاتية ٥٤٤ .
- خان الزعفران ٢٧٥ ، ٢٧٦ .
- خان سمسع ١٧٥ .
- خان السفرجلاني ٢٧٥ .
- خان الشيخ ١٧٥ .
- خان العامود ٢٧٥ .
- خان العصافير ١٧٤ .
- خان قارة ١٧٤ .
- خان القطيفة ١٧٤ .
- الخانقاه ١٦٥ .
- خان اللاز ٢٧٥ .
- خان اللاوند ٢٤٦ .
- خان النبك ١٧٤ .
- خالد النقشبندى ١٦٢ .
- خان المرادنة ٢٧٥ .
- خان النجمة ٢٧٥ .
- خدم آغاسى ٢٠٦ .
- خديجة بنت حسين آغا ٥٢٠ .

- خديجة سلطان ٣٩٠ .
- خراج مقاسمة ٣١٧ .
- خراج موظف ٣١٧ .
- الخراساني ٦٩٨ .
- الخضرا (حارة) ٨٠ .
- خضر شمويل ٨٣ .
- الحسكار ٥٢٢ .
- خط جكان ٣٩٦ .
- خليل آغا الدرزي ٨٣ .
- خليل آغا بن عبد الرزاق المسودن ٣٢٠ .
- خليل أفندي السفرجلاني ٤١٥ .
- خليل أفندي كسكين ٤٣٨ .
- خليل بك العظم ٢٢٠ .
- خليل شهاب (الأمير) ٢٤٧ .
- خليل مردم بك ١٤٨ ، ٤٠٢ ، ٤٧٤ .
- الخليلية ٦٦٥ .
- الخمسان والسيوان ٧٢٩ .
- خميس الأموات ٧٢٩ .
- خميس البنات ٧٢٩ .
- خميس القطاط ٧٢٩ .
- خميس المشايخ ٦٦٥ .
- الخواجه اسلامبولي ٥٠٦ .
- الخواجه حنا عنحوري ٢٠٧ .
- الخواجه لزبونا ٥٠٦ .
- الخواجه مراد بدور ٣٥١ .
- الخوجه ٥٣٤ .
- خيرة بولي ٣٩٧ .

- داويخ ٢٦٥ .
- الداخل ٣٩٧ .
- دار السعادة ٧٥ .
- دار الكتب الظاهرية ٧٣٣ .
- داعية ١٥٠ .
- دالاي ٢٤٧ .
- الدالاتية ٨٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٥١٥ ، ٥٤٠ ، ٥٥٤ .
- دالي باش ٢٤٧ ، ٤١٠ .
- الدانوب ٣٣ .
- دانييل جرجس حنا ٤٥٦ .
- دبليز ٥١١ .
- دحية الكلبي ٧٢٩ .
- دُذك ٩٧ .
- درب الدعوة (حارة) ٨١ .
- دراويش الملوية ٦٦٤ .
- درويش باشا ٩٧ ، ١٨٢ ، ٣٥٠ .
- درويش بن الشيخ عيسى ٢٨٣ .
- الدرويشية ٧٦ ، ٢٦٤ .
- الدعوة القرمطية ٢٨١ .
- الدفردار ٤٥ ، ٢١٢ .
- دفردار كيخياسي ٢١٦ .
- الدفشمة ٢٣١ .
- الدفان ٥٠٩ .
- دمشق ٦٧ .

الدنيستر (نهر) ٢٥ .

الدامر ٥٩٠ .

دوزي ٥٩٤ ، ٦٤١ ، ٦٤٣ .

دوماس ١٦٥ .

ديار بكر ٤٧٦ .

دير صيدنايا ٦٢٩ .

دير القمر ١٤٧ .

دير طورسينا ٤٥٦ .

دير اللاتين ٢٢١ .

دين مؤجل ٤٥٩ .

الديمجية (حارة) ٧٥ .

ذكر الخواجهكان ٤١٢ .

ر

رابعة بنت السيد أحمد الجايي ٦١٣ .

راجحة بنت السيد عثمان ٧٠٩ .

راشيا ٤٨٧ .

راغب الحصني (شيخ) ٣٩٣ .

الراهب جستيان ولد المعلم متري ٤٥٦ .

الربانيون ٨١ ، ٣٤٣ .

الربوة ١١٩ ، ٣١٥ .

الرحالة براون ٨٦ .

رحمة بنت الحاج محمود ٦١٧ .

ركن الدين (جي) ٧٤ .

- روبرت وود ٢٧٢ .
- روفائيل فارحي ٢٧ .
- روفائيل عبد المعطي المسابكي الموراني ٤٥٦ .
- الرولة (قبيلة) ٣٢٨ .
- الروشم ٣١١ .
- رولان دو فيليبس ١١٧ .
- روم محمد باشا ٣٩٠ .
- الرومان ٦٨ .
- الرومي ٤٩٩ .
- رينا لدي ١٤٧ .
- رينان ١١٧ .
- رئيس الهوار ٢٥٢ .

ز

- الزابون (نهر) ١٥٠ .
- الزبادة ٢٥٧ .
- زبدین (قرية) ٦١٢ .
- الزبير ٢٦ .
- الزرب ٤٦٣ ، ٥٤٠ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ .
- الزربول ٦١١ .
- زربات ٥٤٠ .
- الزبركات ٣٨ .
- الزريقة ٤٩٣ .
- زعامت ٢٢٦ .
- الزعامت ٢٥٣ .
- زعماء السباهية ٢٢٩ ، ٢٥٥ ، ٣١٨ .

- الزفتية (محلة) ٧٥ .
 زقاق الحشاشة ٩٠ .
 الزلف ١٥٠ .
 زليخة بنت الشيخ محمد الكردي ٦٠٧ .
 الزنجاري ٥٠٣ .
 زينب بنت علوش آغا الأناؤوط ٤١٩ .
 الزيتون (حي) ٣٤١ .
 زيد بن ثابت ٧٩ .
 زينة بنت المتلا يوسف الياسلي ٦٠٦ .
 زهير حطب ٤٦٨ ، ٤٨٢ .

س

- سارافيم طاناس ٣٣٨ .
 ساروفيم بطرك الشام ٣٥٠ .
 سالم آغا بن السقا أميني ٢٧٦ .
 سالم آغا بن عبد الله الأسمر اللون ٥٢٠ .
 سالم طيوره ٤٩٥ .
 سالنامه در العثمانية ٣٥٩ .
 ساليانة ٢٢١ .
 السامرة ٨١ ، ٣٤٣ .
 الساموك ٥٠٩ .
 السباهية ٢٢٠ ، ٢٥٣ .
 السيلي ٥٠٣ .
 الست زينب ٥٥٩ .
 السر (باب) ٧٨ .
 سراي الغلطة ٣٩٠ .

- السريوش ٦٩٩ .
- السرطان ٣٢٧ .
- سردار العسكرية ٢٠٧ .
- السردية ٣٢٧ .
- السرموزة ٦١١ .
- السروجي (بطّاح الجمل) ٦٥٥ .
- السريان ٧٠٢ .
- سعد بن عودة بن سلمان بن داود ١٤٢ .
- سعد الدين الجباوي ١٦٥ .
- سعد الدين موسى الشيباني الجباوي ٤٢٨ .
- سعيد آغا ١٣٤ .
- سعيد آغا بن جعفر آغا بن محمد آغا بن طالو ٢٤٠ .
- سعيد آغا بن الحاج مصطفى ٢٩١ .
- سعيد بن حمزة العجلاني ٤٤٥ ، ٤٥٢ .
- سعيد السمان ٧٢٣ .
- سعيد الغبرة ٤٣٣ .
- سعيد الخالدي الدمشقي ٤٣٤ .
- سعيد الطويل ٥٠٦ .
- سعيد بن محمد البكري ٤٤٥ .
- السفطة ٤٠٢ .
- سفارات أو ظفارات ٥٠٩ .
- سقا باشي ٥٣٣ .
- السقايات ٦٥ .
- سكا (قرية) ٣١٩ .
- السكبان ٢٢٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٥٥٤ .
- السلحدار ٢٠٦ .
- السلاجة ٦٨ .

- السلام (باب) ٧٨ ، ٧٤ .
السلامك ٤٩٦ .
سلحدار خليل باشا السيد علي رضا أفندي ٤٣٨ .
سليم الأول (السلطان) ١٦٠ .
سليم بن سان كرمونة ٢٧٥ .
سليم الثالث (السلطان) ٢٧ ، ٦٠ ، ٤٠٣ .
سليفتروس دهان متروبوليت بيروت ٣٣٧ .
سليم كميد ٢٦١ .
سليمان باشا ٣٢٨ .
سليمان باشا الجزائري ٦٧٥ .
سليمان باشا العظم ٢٢ ، ١٨٤ ، ٣٨٤ ، ٦٩٨ .
سليمان خارجي سيف ٢٧٥ .
سليمان الصغير (الوالي) ٢٦ .
سليمان صوباشي ٣٩٠ .
سليمان ولد حور ٤٥٧ .
سليمان القانوني (السلطان) ١٦٠ ، ٢٥٤ .
السليمانية ٣٩٧ .
السممر ٦٧٨ .
السميد المغربي ٥٢٢ .
سنان باشا ٩٨ ، ٤٣٦ .
السنجقدار ١١٥ .
سهل كوكب ٢٥٨ .
السوس ٨٩ .
سوفاجه ١١٧ .
سور دمشق ٧٦ .
سوق الأروام ٥٠٥ .
شيخ سوق الأروام ٢٩٠ .

- سوق ساروجة ٧٣ .
- السودان ٤٢٢ .
- السودان (زقاق) ٧٤ .
- السويقة (حي) ٧٤ .
- سوق البزور (البزورية) ٩٨ ، ١٠٢ .
- السوق الجديد ٩٨ .
- سوق الحدادين ١٠٢ .
- سوق الدرويشية ١١٥ .
- سوق الذراع ١٠٤ .
- سوق الظنوطية ٩٣ .
- سوق المكتيين ٩٩ .
- سوق الوراقين ٩٩ .
- سيدة النياح ١٢٢ .
- سيران ١٢٠ ، ٧٣٠ .

ش

- الشاطر ٥٨١ .
- الشاغور ٨١ .
- الشاغور البراني ٧٣ .
- الشاغور الجواني ٨٩ .
- شاكر أفندي العمري ٤٣٩ .
- شاكر بلال (السيد) ٢٧٥ .
- شاكر العقاد ٤١٤ .
- شاكر بن محمد رجب ٦١٠ .
- الشال ٦٩٨ .
- شام شريف ٣٨٢ .

- شاويش اليرلية ٢٥٢ .
- شتورة (قرية) ٢٤١ .
- الشخشير ٥٨٩ .
- الشدياق ١٣٩ .
- الشرد ٥١١ .
- الشركس (أنبوب ماء) ٥٠٣ .
- الشرع الشريف ٣١٨ .
- شريف زاده محمد أفندي ٤٣٨ .
- شفيق جبري ٣٨٨ ، ٦٤٤ .
- الشفونية (قرية) ٣٢٣ .
- الصلاح (حارة) ٨٠ .
- شليبي زاده اسماعيل ١٤٣ .
- الشمس محمد الكزيري ٣٩٣ .
- شمسي أحمد باشا ٤٥٤ .
- شمعايا أفندي ٥٠٦ .
- شمعدنجي باشي ٢٠٦ .
- الشنبر ٦١٩ ، ٦٣٧ .
- شنك ٤٩٤ ، ٦٩٢ .
- الشهايون ٢٥٧ .
- الشهنذر ٢٦٨ .
- شهندر التجار ٢٧٥ .
- الشوباصي ٢٢٠ .
- شوريزي حسن ١٣٥ .
- الشويكي (حي) ٧٤ .
- شيخ الإسلام ٣٨٧ ، ٥٨٤ .
- شيخ الحارة ٨٣ .
- شيخ الخانقاه السميساطية ٤٠٩ .

- الشيخ رسلان ١٨٩ .
- شيرى فاطر ٤٧١ ، ٤٨٩ .
- شيطارا ٧٠٦ .
- شيخ الطائفة ٢٩٤ .
- شيكاف قزى ٦١٩ .
- شيخ المشايخ ١٦٦ ، ٢٩٤ .
- شيفاليه ٣٠٤ .
- شيوخ الحارات ٥٤١ .
- شيوخ القرى ٣٠٧ .

ص

- صاروجة (سوق) ٨٩ .
- الصارمة أو الصرمة ٦٩٨ .
- الصالحية (قرية) ١٤٩ .
- صالح آغا المهايى ٢٠٦ .
- صالح باشا المعدنلى ١٣٩ ، ٣٣٩ .
- صالح الجنينى ٣٨٥ .
- صالح شاويش ٢٤١ .
- صاية آلاجه ٦٤٠ .
- الصدر الأعظم صالح باشا ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
- الصدر الأعظم يوسف باشا ٢٥٥ ، ٢٧٠ .
- صدر الباز ٧٢٩ .
- صدقي زاده محمد رفعت بك أفندي ٤٣٨ .
- صديقي زاده محمد سعدي ٣٨٨ .
- صلاح الدين ٦٩ .

- صالح الدين المنجد ٧٨ .
 صفوح خير ١٥٠ ، ١٥٢ .
 صفية بنت الشيخ محي الدين ٦٢١ .
 صفيدات ٥١٣ .
 صفية بنت الشيخ محي الدين ٦١٦ .
 الصوباشي ٢٢٥ .
 صور ٢٧٣ .
 صيّاخ آغا الحكيم ٢٠٦ .
 الصيانات ٤٩٦ .
 صيدا ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
 سيدنايا ٦١٩ .
 ضريبة الصليان ٤٠ ، ٢٧٦ .

ض

- الضلماية أو الضلمان ٥٩٨ .
 ضريبة الأعشار ٣١٥ .

ط

- طائفة البغادة ٢٨٩ .
 الطابوني (خبز) ٥٢٢ .
 طائفة المغاربة ٢٨٩ .
 طائفة النعيم ٣٢٧ .

- طابع البغدادى (شيخ) ٤٤١ .
- الطنزية ٥٨٨ .
- طول الباز ٦٧٩ .
- طرابلس ٢٧٣ .
- طرابلس الشام ٤٧٦ .
- طرابلس الغرب ٨٩ .
- الطرطور ٥٨٨ .
- الطريقة الخلوتية ١٦٦ ، ٤١٤ .
- الطريقة الرشيدية ٤٣١ .
- الطريقة الرفاعية ٤٣١ .
- الطريقة السعدية ٦٦٣ .
- الطريق السلطاني ١٨٨ .
- الطريقة الشاذلية ١٦٥ ، ٤٣٢ .
- الطريقة النقشبندية ٤١٠ .
- طه الكردي (شيخ) ٢٤٣ ، ٤٢٤ .
- طوروس (جبال) ٢٤٤ .
- طوسون ٢٩ .
- الطوطايات ٥٠٠ .
- طوطي لطف ٣٩٠ .
- الطورقة ٣٥٠ .
- طي بن كهلان القحطانية (قبيلة) ٣٢٧ .
- الطيباوي ٣٩٩ .

ظ

ظافر القاسمي ٥٣٤ .

الظاهر بيبرس المملوكي ١٦٠ ، ٣٣٦ .
الظاهرية (حارة) ٨٠ .

ع

- عاتكة بنت يزيد ٧٩ .
عادل البكري ٥٥٦ .
عائشة بنت باكير البلاجكي ٥٦١ .
عائشة بنت سعيد القصّار ٥٣٠ .
عائشة بنت ولي أفندي الإسلامبولي ٥٣٠ .
العال (قرية) ٣١٩ .
عباس سليق ٢٧٥ .
عبد الحكيم اليهودي ١٤٢ .
عبد الحليم العجلوني ٤٣٣ .
العبرانيون ٦٨ .
عبد الرحمن أفندي حسين آغا زاده ٤٣٧ .
عبد الرحمن بايزيد الحلبي ٢٧٥ .
عبد الرحمن الجبرتي ٥٥ ، ١٦٧ ، ٢٦٨ .
عبد الرحمن زكي ٣٣٢ ، ٥٧٩ .
عبد الرحمن سامي بك ٥٨ ، ٢١٢ ، ٥٠٠ ، ٥٢٠ ، ٥٩٧ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ .
عبد الرحمن الكزبري ٤٣٤ .
عبد الرحمن بن محمد الحلاق القادري ٢٩٥ .
عبد الرحمن المرادي ١٢٢ ، ٤٤٥ .
عبد الرحمن هاشم ٢٧٥ .
عبد الغني الدرة ١٨٥ .
عبد الغني الغزي ٤٣٢ .
عبد الغني النابلسي ٤٠٦ ، ٤٢٩ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ .

- عبد الفتاح السباهي ٤٣٢ .
- عبد الفتاح بن مغيزل ١٤٣ .
- عبد القادر آغا ١٣٤ .
- عبد القادر آغا خطّاب ٢٠٧ .
- عبد القادر بن بدران ٣٦ ، ١٠٧ ، ١٥٠ ، ١٦٦ ، ٢٨٤ ، ٢٩٨ ، ٣٩٨ ، ٤٣٠ ، ٧١١ .
- عبد القادر الجيلاني ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٧٣ .
- عبد القادر الخلاصي ١٤٣ .
- عبد القادر الريحاوي ٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٤ .
- عبد القادر الصمادي ٤٢٤ .
- عبد القادر بن موسى ٤٢٤ .
- عبد القادر النعيمي ٣٨٥ ، ٣٩٤ .
- عبد الرزاق البيطار ٥٤ ، ١٦٣ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ .
- عبد الرزاق قباقيبي ٣١٩ .
- عبد الرؤوف باشا ٢٠٨ .
- عبد الكريم آغا جبري ٤٤١ .
- عبد الكريم رافق ١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، ١٧٨ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٤٨ ، ٤٣٦ ، ٥٤٠ .
- عبد الكريم غرايه ٢٠٦ .
- عبد الله اسماعيل العجلاني ٤٥٢ .
- عبد الله آغا ٢٤٧ .
- عبد الله باشا ٢٤٧ .
- عبد الله باشا الجته جي ٢١٢ ، ٤٧٩ .
- عبد الله حمزة ٨٣ .
- عبد الله حنا ٣١٢ .
- عبد الله سكر ٢٤١ .
- عبد الله سعود ٣٠ .

- عبد الله السويدي ٥٦٢ .
- عبد الله باشا العظم ٢٧، ١٥٦، ٢١٢، ٢٥٥، ٣٨٤، ٣٩٨، ٦٧٥ .
- عبد الله بن ظاهر المرادي ٤٤٥ .
- عبد الله محمد أفندي بن حسن أفندي المرادي ٤٣٨ .
- عبد المجيد (السلطان) ٤٠٣، ٤١٢، ٥٨٢، ٦٣٣ .
- عبد المجيد الخاني الخالدي ٤١٢ .
- عبد الملك بن مروان ٧٩ .
- عبد ه بن الشيخ صالح أفندي ٤١٩ .
- عبود الخوري ١٣٩ .
- عثمان بن بشر ٢٧ .
- عثمان باشا الكرجي ٦٧٤ .
- العثمانيون ٦٨ .
- العجمي ٤٩٩ .
- عجمي أوغلانلر ٢٣١ .
- عدرا (قرية) ١٧٤ .
- عدنان الخطيب ٣٣٥ .
- عرب ابن كليب ٥٤١ .
- عرب الحمامدة ٣٢٧ .
- العُرجة ٦٢٠ .
- عرب اللجاة (السلوط) ٣٢٧ .
- العراضات ٥٦٤، ٦٦٨ .
- العرضي أو الأوردي ١٤٠، ٢٩٦ .
- العساكر الشاهانية ١٤٧ .
- عطايا الطيب ١٤١ .
- العقبة (حي) ٧٣، ٨١، ٨٥ .
- عكا ٢٤٦، ٢٧٣ .
- علي آغا بن حسن آغا جاويش أوغلي الوانلي ٧٣٥ .

- علي آغا الخرنكاتبى ٢٢٩ .
- علي آغا القيصرلي ٢٤٧ .
- علي آغا كاتب الخزينة كلاهلي ٢٠٦ .
- علي آغا كاتب الترجمان ٢٠٦ .
- علي آقيق ٢٤١ .
- علي باشا جانبولاد ٤٢٨ .
- علي باشا ٣٥٢ .
- علي بشه بن محمد التركاكي الينكجري (الدالي) ٥٣٠ .
- علي الحسنى ٢٧١ .
- علي حسيب أفندي ٥٦١ .
- علي بن حسين المرادي ٤٤٥ .
- علي جميل نعيسه ٨٤ ، ٥٨٥ .
- علي الحيدوي ٢٤١ .
- علي خير حسن الخواصلي ٢٤١ .
- علي العجلاني ٣١٨ .
- علي بن محمد الفتلة ١٦٧ .
- عليم الله الهندي النقشبندى اللاهوري ١٣٦ .
- علوان (الشيخ) ٧٠٠ .
- علوش باشا ٦٧٦ .
- العلويون ٩٠ .
- عماد زاده السيد حمود أفندي ٤٣٨ .
- العمارات (قبيلة) ٣٢٨ .
- العمارة (محلة) ٧٣ ، ٧٤ .
- عمر بن عمر عبد القادر التغلبي ٤٣١ .
- عمر قباني ٢٤١ .
- عمر اليافي ٤١٥ .
- عنزة (قبيلة) ٣٢٧ ، ٣٣١ .

- العنتري ٥٨٩ .
- القارون ٥٤٠ .
- عيتا (قرية) ٣١٨ .
- عيد الجوركسي (آغا اليرلية) ٢٢٩ .
- عيد الشتاء ٦٨٠ .
- عيرة (قرية) ١٠١ .
- عيسى الفاري ١٢٣ .
- عيسى المملوك ٦٨ . ٢١٦ : ٣٤٧ .
- عين ترما ٧٠٦ .
- عين التينة (قرية) ٣١٦ .
- عين الكرش ١٥٥ .

غ

- غزة (قرية) ١٨٠ .
- الغراماشي ٦٩٨ .
- الغشوش ٦٥٧ .
- الغوطه ٣١٥ .
- الغنومية ٣٢٥ .

ف

- فارس العضم ٢٥١ .
- فاطمة الحسينية الشرطية ٤٣١ .
- الفاطميون ٦٩ .
- فاس ٨٩ .

فتح الله بن أنطون الصايغ ٥٣، ١٣٧، ٢٥٤، ٢٧٤، ٣٠٨، ٣١٢، ٣٢٩، ٣٣٠،
٤٨٢، ٥١٣.
فتح القلانسي ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٨٤.
الفتوات ٥٤٠.
الفحيلي ٣٢٧.
فخر الدين المعني (الأمير) ٤٢٨.
فخري البارودي ٢٣٧، ٤٣٠، ٥٥١، ٧٢٨.
القدعان ٣٢٨.
فراج بن شرعان العتيبي ٢٧.
الفرس ٦٨.
فرج ولد موسى ٨٣.
الفرات ٢٤٤.
الفراديس (باب) ٧٨.
الفرج (باب) ٧٨.
الفرنسيسكان ٨٨، ٣٤٢.
الفسقار (حارة) ٨٠.
فلاديمير لوتسكي ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٩، ٣٢.
البنار (حي) ٣٥٠.
فولني ٥٨، ٢٧٨، ٣١٤، ٦٠٧.
فيض الله الأنخسوي ٢١٤.
فيليب خوري ٤٧٢، ٤٧٤.
فينولو ١٤٧.

ق

القابي قول ٥٤١، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٧.

- القابي قولاري ٢١٦ ، ٢٣١ .
القايقول ٢٠٢ .
قاسم باشا ٣٩٠ .
قاسم الحلاق ٤٢٤ .
قاسم عبده قاسم ٦٢٤ ، ٦٢٥ .
قاسم الكفيف ٤٤١ .
قائمقام الوالي ٢٥٥ .
القاسمي ٥٠٠ .
قاسيون ٨٠ ، ١٣٦ .
القاضي العام ٤٣٦ .
القاضي عجلون ١٧٢ .
قانقاب ١١٥ .
القاهرة ٢٧٦ .
القاووق ٥٨٧ .
قبحلر آغاسي ٢٠٦ .
قبر الياس (قرية) ٣١٨ .
القيبات (حارة) ٩٠ ، ٦٤٠ .
القيسي أو الكيسي ٦٣٥ .
القيسية ٣٢٥ .
القدس ٢٧٦ ، ٣٣٥ .
القدم (قرية) ١٦٧ .
قدوس ٧٠٦ .
القديس جاورجيوس ٣٤١ .
القديس غريغوريوس ٣٤١ .
القراؤون ٨١ ، ٣٤٣ .
القرشي (محلة) ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
القس يوسف بن الياس حنا ٤٥٦ .

- القسطنطينية ٢٧٣ .
- القصاب باشي ٢٨٩ .
- القصاع الغفارية ٥٠١ .
- القطايف ٥٢٢ .
- القلب ٥٨٨ .
- القلجين ٥٩٢ .
- القلد ٥٠٩ .
- قلعة دمشق ٨٤ .
- القافطيري ٥٢٠ .
- القلقشندي ٦٨١ .
- القلمون ٣٢٠ .
- قليط ٥٠٣ .
- القماري ٤٩٧ .
- القمامة و الكراب ٣١٧ .
- القناز ٥٨٩ .
- قنوات (نهر) ٨١ ، ٤٩٧ .
- قنيان ٧٠٦ .
- قهوجي ٢٥٢ .
- قهوة الحمام ٧١٦ .
- القوات الرديفة ٢٥٧ .
- قواص الحاج علي بن ابراهيم كناهوي ٧١٢ .
- القواصة ٣٥٧ .
- القول ٤٩٥ .
- القومة السفلى ١٥٠ .
- القومة العليا ١٥٠ .
- قوناكات ٣٢٣ .
- القيسارية ١٧١ .

القيمرية (حي) ١٢٤ .
قيمقام نقيب الأشراف ٤٥٢ .

ك

كابادوا ٢٤ .
الكاخيا ٤٥ ، ٢١٦ .
الكاركوزاتي ٧٢١ ، ٧٢٢ .
كاظم الداغستاني ٦٠ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣٠ .
الكافيلر بيتشوتو ٣٥٣ .
الكافيلر لابي ٣٥٣ .
كامد اللوز ٣١٩ .
الكبرشيون ٨٨ ، ٢٤٢ .
الكتيات ٤٩٩ .
الكتخدا ٢١٨ ، ٢٩٦ .
كتخدا سي زاده محمد صادق بك ٤٣٨ .
الكذك ٢٦٨ ، ٤٥٩ ، ٥٣٥ .
كدكات ٥٤٠ .
كرايت ولد استاروك الأماصيلي ٦٢٧ .
كربلاء ٢٦ .
الكركوزاتي ٧١٦ .
كركوك ٢٥١ .
كرمان ٤٣٩ .
الكسوة (قرية) ٢٢١ .
كفر سوسية (قرية) ٨١ ، ١٤٩ ، ٦٦٦ .
الكلاب و الكلايب ٧١٣ .

الكلازات ٤٩٦ .
 كلار أميني ٣١٩ ، ٢٣٠ .
 كلوط بك ١٤٨ ، ١٤٧ .
 الكلين ٥١١ .
 كمال الدين أفندي الحسيني ٥٢٨ .
 الكنج يوسف باشا ٧٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٨٦ ، ٤٨٦ ، ٥٠٥ ، ٥٤٣ ، ٦٢٦ .
 كنيس جوبر ٧١ ، ٦٨١ .
 كينبورن ٢٤ .
 كنيسة مريم العذراء ٧٢ .
 كوتاهية ٣٣٩ .
 كورتينا ١٤٠ .
 كيرتس ٢٤ .
 كيرلس السادس طاناس ٣٣٨ .
 كيليكيا ٢٣ .
 كيوان ١١٩ .

ل

لالا ٣٨٨ .
 لالا مصطفى باشا ١٢٤ ، ٥٢٨ .
 اللاتين ٨٨ .
 اللاذقية ٥٩ ، ٣٣٩ .
 لامارتين ١١٧ ، ١٨٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٨٨ ، ٤٩٨ ، ٦٣٠ .
 اللاوند ١٧٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٥٤١ ، ٥٥٤ .
 لبنان ٥٩ .

- الللجاة ٣٢٧ .
 لحد خاطر ٤٨٧ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥٣٥ .
 لوداسو ١٤٧ .
 اللوديون ٦٨ .
 لوندرا ٣٠٥ .
 ليندا شليشر ٨٩ ، ٤٠١ ، ٤٧٢ .
 ليلي الصباغ ٤٦٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٥٢٧ .
 ليفانتينو ٢٤٦ .
 لين (الرحالة) ٦١٨ .

م

- مال الجزية ٣٣٣ .
 مار جرجس الحبشي ٣٤١ .
 مار سركيس ٣٤١ .
 الماغوصة ٤٤٧ .
 المالقي ٥٠١ .
 المالكانات ٢٢٨ .
 المالكانة ٢١٨ ، ٣١٨ .
 المتاولة ٢٥٧ .
 المتسلم ٤٥ ، ٨٤ ، ٢١٨ .
 متري شلهوب ٥٠٦ .
 المجبر ٥٠٣ .
 مجدول (نهر) ١٥٠ .
 محمد أديب تقي الدين الحصني ٨٥ ، ١٦٦ ، ١٩١ ، ٢٨٦ ، ٧٣٢ .
 محمد أسعد بن فاضل الكردي ٤٤٥ .
 محمد آغا بن اسماعيل آغا ٥٣ .

- محمد آغا بن حسن آغا ٥٨٠ .
- محمد آغا بغدادي ٢٧٥ .
- محمد آغا الداغستاني ٥٣٠ .
- محمد آغا بن علي آغا خنفس الخصكي بالأوجاق ٢٤٠ .
- محمد آغا طالو ٢٤١ .
- محمد أفندي اسماعيل العجلالي ٥٨٤ .
- محمد أفندي البرقاوي ٤٣٩ .
- محمد أفندي شيخ زاده ٢٤٠ .
- محمد أفندي فروخ ٥٠٥ .
- محمد أمين بن عابدين ٩٩ ، ٢٦٨ .
- محمد باشا بن ابراهيم باشا زاده ٦٢٦ .
- محمد بن السيد ابراهيم ٢٩٢ .
- محمد بن السيد أحمد بابا ٢٩٠ .
- محمد باشا العظم ٩٨ ، ٢٠٨ ، ٣٥٠ ، ٣٩٨ ، ٥٣٠ ، ٧١١ .
- محمد البحطيبي ٢٤٢ .
- محمد بدر الدين ٨١ .
- محمد بك أبو الذهب ٧٠ ، ٦٧٤ .
- محمد بكداش ٢٤١ .
- محمد بن طولون ٨١ .
- محمد بن عرفة الكمال ١٤٥ .
- محلة الجوزة ٩٠ .
- محلة الخراب ٩٠ .
- محلة قبر عاتكة ٦٧ .
- محلة القماحين ٤١١ .
- محلة الميدان ٧٥ .
- محمد جميل الشطي ٥٥ ، ٨٤ ، ١٣٤ ، ٤١١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ،
- ٤٤١ .

- محمد الحسين بن أحمد جلال الدين السروجي ٤١٨ .
- محمد الحميري ٤٢٤ .
- محمد الخاني النقشبندی ٤١٢ .
- محمد بن خير السمان ٤٣٩ .
- محمد خليل أفندي الصديقي ٣١٨ ، ٤٥٢ .
- محمد خليل المرادي ٩٦ ، ٩٨ ، ١٣٦ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ ، ٣٨٦ ، ٣٠٨ ، ٤١٠ ، ٤٢٥ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ ، ٧٢٠ .
- محمد أحمد الدهمان ١٢٣ ، ٣٨٤ .
- محمد الزهدي بن عمر الدمياطي ٤١٥ .
- محمد سبانو (الحاج) ٢٧٥ .
- محمد سعيد القاسمي ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ٢٧٧ ، ٣٤٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٥٢٩ ، ٦٥٤ ، ٦٥٦ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧٢٤ .
- محمد سعيد الشهير بابن أمين ٢٩١ .
- محمد سعيد الكيلاني ٤٢٤ .
- محمد سليم باشا ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥٤٤ ، ٦٩٢ .
- محمد السمان ٢٧٥ .
- محمد بن السيد محمد كمال الدين بن عجلاان ٢٩٤ .
- محمد شريف بك ٢٢٣ .
- محمد شلبي العثماني (سلطان) ٦٧٠ .
- محمد شمس الدين بن حسن المعروف بالطباخ ٤١٦ .
- محمد السيد موسى ١٤٧ .
- محمد طه غزال ٤٢٤ .
- محمد صالح أفندي كيلاني ٤٣٩ .
- محمد صالح الصواف زاده ٢٧٥ .
- محمد الصواف ٢٧٨ .
- محمد بن عبد الصمد ٤٤٣ .

- محمد عاطف أفندي قبو أوغلي زاده ٤٣٨ .
- محمد عبد الجواد القاياتي ٥٣٤ .
- محمد عز الدين الصيادي ٨٠ ، ١٢٠ ، ١١٨ ، ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٥٠ ، ٤٩٧ .
- محمد عز الدين عربي كاتبي ٦٦٧ .
- محمد علي باشا ٢٨ ، ٢٩ ، ١٣٨ ، ٤٤٣ ، ٦٧٥ .
- محمد قصاب حسن ٢٧٥ .
- محمد القدسي الزهاوي ٤٥٤ .
- محمد القوتلي (الحاج) ٢٧٦ .
- محمد كرد علي ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٨٩ ، ٢٧١ ، ٣١٦ ، ٣٨٥ ، ٦٥٤ ، ٦٦٤ ، ٦٨١ .
- محمد المحبي ١٦٣ ، ٣٨٣ ، ٧٠٧ .
- محمد نجيب العقاد ٢٧٥ .
- محمد نسيب أفندي حمزة ٢٠٦ .
- محمد نصري ٤٩٥ .
- محمد نظيف (القاضي) ٣٢٣ .
- محمد النعيمي ١٧٤ .
- محمد نور الدين أفندي ٤٣٨ .
- محمد مصطفى السقباوي ٢٤٠ ، ٢٤١ .
- محمد مستو الساطي ١٤٧ .
- محمد مكّي (قاضي القضاة) ٤٣٧ .
- محمد موسى باشا ٤٤١ .
- محمد المهدي الكلاوي ٤١٥ .
- محمد المهدي المغربي الزواوي المالكي ٤١٦ .
- محمد هبة الله التاجي ٤٥٥ .
- محمود أمين صخر ١٤٧ .
- محمود الثاني (السلطان) ٣٣ ، ٤٦ ، ١٤٦ ، ١٦٨ ، ٢٠٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٣٩١ ، ٤٠٣ ، ٥٤٤ .

- محي الدين آغا خير ٢٠٧ .
- محي الدين بن عرلي ١٦٦ ، ٦٧٩ .
- محي الدين بن يوسف القاري ٨٠ .
- المدارس الجهادية ٣٩٢ .
- مدحت باشا ١١٥ .
- مدرس القبة ٣٩٣ .
- المدرعون ٥٨٣ .
- المدينة المنورة ٢٧ .
- مراد البخاري النقشبندي ١٦٨ .
- مراد القوتلي ٥٠٦ .
- مراد المرادي (الشيخ) ٣٨٤ .
- المرادي ٣٦ ، ١٣٤ ، ٥٠٥ .
- مرادي أحمد بن القلطقجي ٨٣ .
- مراكشية ٨٩ .
- المرج ٣٢٠ .
- مرج الدحداح ٧٤ ، ١١٨ .
- المست ٥٩٢ .
- المستر فارن ٣٥٥ .
- المستعرب ٣٤٣ .
- مستشفى الغرباء ١٣٤ .
- مسجد الأقباب ١٠٧ ، ١٢٠ .
- مسجد الرأس (حارة) ٨٠ .
- المسجد المظفري ٦٥٢ .
- المسقط ٥١١ .
- المسيو لاسكاريس ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٥٣ .
- المشاركة (زقاق) ٧٥ .
- مشايخ الحرف ٢٩٠ .

- المشهد اليافي ٤١٥ .
- مصري (الغليب) ١٤٧ .
- مصطفى الادلي ٢٧٥ .
- متى الاسكندراني ٥٥١ .
- مصطفى أبو الجود ٤٩٦ .
- مصطفى آغا (آغا التفنكجية) ٢٥٢ .
- مصطفى آغا بن خضري، ٨٣ .
- مصطفى آغا (سرطوناي آغاي ينكجريان) ٢٤٠ .
- مصطفى آغا عودة ١٤٠ .
- مصطفى آغا الأورفي ٢٤٢ ، ٥٤٣ .
- مصطفى أفندي الف ٤٣٩ .
- مصطفى باشا ١٨٤ ، ٢٤٥ .
- مصطفى البكري ٤١٥ .
- المزابل (محلة) ٧٤ .
- مز القصب ٧٣ .
- المزة (قرية) ٢٤٦ ، ٣١٥ ، ٧٢٩ .
- مزريب ٢٧ .
- مصطفى بايزيد الصفوري ١٦٧ .
- مصطفى بن الحاج ١٤٢ .
- مصطفى بربر ٥٥٤ .
- مصطفى الطنداني الأزهري ٤٠٢ .
- مصطفى بن عبد القادر ٦١٢ .
- مصطفى بن محمد الحلبي الأصل الدمشقي ٤٣١ .
- مصطفى الترزي بن أحمد باشا ٢٢٩ .
- مصطفى الحموي ٢١٤ .
- متسلتي الدوجي ٢٤١ .
- متى الثاني الرابع (السلطان) ٦٠ ، ٢٥٩ .

- مصطفى الرافعي ٣١٥ .
- مصطفى زند الحديد ٤٤١ .
- مصطفى الذهبي ٤٤١ .
- مصطفى عودة ١٣٤ .
- المطران جراسيموس ٣٣٧ .
- المطران الدوماني ٣٣٦ .
- المطريازيون ٥٤٧ .
- معان ٢٦ .
- معبوك ٢١١ .
- المعضمية ٥٥٥ .
- معلولا (قرية) ٢١٨ .
- معمار سنان باشا ١١٥ ، ١٦٠ .
- المعمشة (محلة) ٧٤ .
- المعنيون ٢٥٧ .
- المغاربة ٢٤٤ ، ٥٥٤ .
- مفتي زاده ابراهيم سليم أفندي ٤٣٨ .
- مفتي زاده السيد عبد الله ٤٣٨ .
- المقارع ٧٣٠ .
- مقدم الطائفة ٢٩٦ .
- المقنزع ٦٩٩ .
- مكة ٣٧ ، ٢٧٣ ، ٣٨١ .
- ملاخنكار ٤١٨ .
- الملا عثمان الكردي ٣٩٨ .
- الملك (نهر) ١٥٠ .
- الملة ٥٢٢ .
- الماليك ٦٨ .
- المناخلية (باب) ٧٨ .

كيال ١٢٢، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٦٠، ٢٩٠، ٤٢٨، ٥٠٤، ٦٥٥.

تار خانة ٣٨.

اصلة ٨٩.

الي ٦٩٨.

ارنة ٨٣.

رة ٣٥١.

ريس باريس ١١٧.

سي آغا بن يوسف آغا النورشاھري ١٣٤.

سي دياب ٤٩٦.

سي كيخيا ٥٤١.

رشي ماعوز ٣٢٩، ٣٣٣.

وصل ٢٥١.

وصلي صحن غان ٣٩٠.

وصلي سليمانية ٣٩٠.

ولاي خسرو كخدا ٣٩٠.

وكب الزيت والشموع ٦٦٦.

وكب الحمل والصنجدق ٦٦٧.

الميتان ٥٩٠.

ميخائيل بريك الدمشقي ٢١٢، ٢٧٧، ٣٥٠.

ميخائيل الدمشقي ٥٤٤، ٥٥٢، ٦٨١.

ميخائيل كحيل ٢٠٧.

ميخائيل مشاققة ٢٦٠، ٣٠٦، ٣٥٤، ٦٢٧، ٦٨٨.

ميخائيل ولد المعلم ابراهيم الأسود ٤٥٧.

الميدان التحتاني ٧٣.

ميدان الحصى ٨١، ١٦٨.

الميدان الفوقاني ٧٣.

الميدون ٦٨.

الميري ٢١٣ ، ٣٣٣ .

النوفرة (محلة) ٧٥ .

اليهود ٨١ .

ن

نابلس ٢٧٣ .

نابليون بونابرت ١٨ ، ٢٥٥ ، ٥١٥ .

الناصر ٦٩ .

ناصر بن قلاوون (السلطان) ٦٢٤ .

ناصر بن شيخ الحسنة ٣٢٨ .

ناظر الشونة ٣٣٣ .

النبطون (حارة) ٨٠ .

ناويفطس اسقف صيدنايا ٣٣٧ .

النجر ٥١١ .

نجيب أفندي السفرجلاني ٧١١ .

نسيم ابراهام ماير (المعلم) ٢٩٣ .

النظام الجديد ٢٥٦ ، ٢٥٩ .

نفيسة بنت علي بيضون ٦١٦ .

نقولا زيادة ٢٨١ .

نقيب النقباء ٢٩٥ .

نعمان آغا باشجي ٢٠٦ .

التعش ٦٩٧ .

نعمان القساطلي ١٢٦ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ، ٢٣٠ ، ٣٤٢ ، ٣٨٣ ، ٥٠١ ، ٥٠٥ ، ٦٥٥ ،

٦٨١ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٩ .

نهر بانياس ٤٩٧ .

نهر الأردن ١٧٥ .

نور الدين زنكي ٦٩، ١٢٦، ٣٤٣.
النيرين أو النيران ١١٩.
النيرجيان ٧٢٦.

هـ

هارون هراري اليهودي ٣٥٥.
هاملتون جيب وهارولد باوون ١٧.
هدايا (الطبيب اليهودي) ١٤٢.
الهرمزي ٦٤٠.
الهند ٤٢٣.
الهند (حارة) ٨٠، ٨٩.
الهوارة ٢٤٤، ٢٥٢.
هولاكو ٦٩.
الهيوغلفية ٦٧.

و

وارداري شيخ زاده محمد أفندي ٤٣٧.
والي الدين باشا ٢٥٦.
وادي الدواسر ٢٧.
وادي العاصي ٢٩.
الوراقاة (زقاق) ٧٤.
الوقائع الخيرية ٢٥٩.
الوكالات ٦٥.

ولد علي ٣٢٨ ، ٣٣٠ .
ولي الدين باشا ٢٧٨ .
وليم بولك ٩٢ ، ٢٧٩ ، ٣٣٣ .

يار حصار ٣٩٠ .
الياسرجي ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
ياسين سويد ٢٤٨ .
ياسين الكيلاني ٤٢٤ .
ياسين محمد الصواف ٢٤١ .
ياماق ٢٣٣ .
يحي البحرة ٤٤١ .
يحي الدجاني ٥٥٤ .
يحي بن زكريا ٥٥٤ .
اليرلية ٤٥ ، ٢٠٢ ، ٢٥٢ ، ٥٤٣ ، ٦٩٤ .
اليسوعيون ٨٨ .
يعقوب الكيلاني ٥٥٤ .
اليكيت باشي ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
يمق ٢٩٢ .
اليمن ٤٢٣ .
يهوذا الأسخريوطي ٩٥ .
بوزباشي ٢٦١ .
يزيد (نهر) ٤٩٧ .
يوسف آغا ٢٣٤ .
يوسف باشا ٢٧ ، ٢٠٦ .

- يوسف الطباخ ١٦٦ .
- يوسف سمارة ١١٧ ، ٣٨٢ .
- يوسف بن عبد الهادي ٩٩ ، ١١١ ، ١٥٥ ، ١٧٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ .
- يوسف المالكي الخلوتي ١٦٦ .
- يوسف موسى خنشت ٣١١ ، ٦٢٣ .
- يوسف اليهودي (المعلم) ١٤٢ .
- يوسف المالكي ٥٠٦ .
- اليوك ٥١٨ .
- اليونان ٣٣٦ .
- اليونانية (الثورة) ٣٠ .

فهرس الجزء الثاني

الفصل الثالث

أوضاع دمشق

الدينية والعلمية

أهمية دمشق السياسية والدينية.....	٣٨١
المدارس ودور العلم.....	٣٨٣
رجال الدين والمدرسون في دمشق.....	٤٠٠

الفصل الرابع

البنى الاجتماعية

في دمشق

الأسرة الشامية.....	٤٦٥
ظاهرة الانحراف في المجتمع الدمشقي.....	٥٣٧

الفصل الخامس
الأزباء في دمشق وريفها
ومدلولاتها المختلفة

الأزباء ومدلولاتها الاجتماعية ٥٧١

الفصل السادس
الأفراح والأتراح
والتسلية

الأعياد وطقوسها في دمشق	٦٥١
الأفراح في دمشق وريفها	٦٩٦
الأتراح لدى مسلمي دمشق	٧٠٨
مآتم أهل الذمة في دمشق	٧١٤
التسلية والملاهي في دمشق	٧١٦
شرب المنبهات والتدخين والمسكرات والمخدرات	٧٣٢
نتائج البحث العلمية	٧٣٧
ثبت المصادر والمراجع	٧٤٥
الأعلام الواردة في الكتاب	٧٦٥

الفهرس العام للجزأين

فهرس الجزء الأول

الإهداء.....	١١
تقديم.....	١٣
المقدمة.....	١٧
دراسة في مصادر البحث.....	٤٩

الفصل الأول

دمشق

ومنشآتها العمرانية

دمشق لمحة تاريخية.....	٦٧
المنظر العام لمدينة دمشق في أواخر القرن الثامن عشر وحتى منتصف	
القرن التاسع عشر.....	٧٣
— سور دمشق.....	٧٦
— حارات دمشق.....	٧٩
سكان دمشق.....	٨٦

٩٣	شوارع دمشق وطرقاتها.....
٩٨	أسواق دمشق.....
١٠٣	تعداد أسواق دمشق وأماكنها.....
١١٦	منتزهات دمشق.....
١٢٢	حمامات دمشق.....
١٣٠	الحمام كظاهرة اجتماعية.....
١٣٣	البيمارستانات في دمشق.....
١٤١	الطب ومدارسه في دمشق.....
١٤٩	بردى والسقايات في دمشق.....
١٥٩	التكايا.....
١٦٤	الزوايا.....
١٧٠	الفنادق والقيساريات والخانات والوكالات.....
١٨١	هندسة الخانات.....
١٨٨	المقابر الطائفية وهندسة القبور وكيفية دفن الموتى.....

الحاكمون والمحكومون

في مجتمع دمشق

٢٠١	تمهيد.....
٢٠٤	أ — الهيئة الحاكمة.....
٢٦٣	ب — هيئة المحكومين.....

فهرس الجزء الثاني

الفصل الثالث

أوضاع دمشق

الدينية والعلمية

أهمية دمشق السياسية والدينية.....	٣٨١
المدارس ودور العلم.....	٣٨٣
رجال الدين والمدرسون في دمشق.....	٤٠٠

الفصل الرابع

البنى الاجتماعية

في دمشق

الأسرة الشامية.....	٤٦٥
ظاهرة الانحراف في المجتمع الدمشقي.....	٥٣٧

الفصل الخامس

الأزباء في دمشق وريفها

ومدلولاتها المختلفة

لأزباء ومدلولاتها الاجتماعية.....	٥٧١
-----------------------------------	-----

الفصل السادس الأفراح والأفراح والتسليّة

٦٥١ الأعياد وطقوسها في دمشق
٦٩٦ الأفراح في دمشق وريفها
٧٠٨ الأفراح لدى مسلمي دمشق
٧١٤ ماآتم أهل الذمة في دمشق
٧١٦ التسليّة والملاهي في دمشق
٧٣٢ شرب المنبهات والتدخين والمسكرات والمخدرات
٧٣٧ نتائج البحث العلميّة
٧٤٥ ثبت المصادر والمراجع
٧٦٥ الأعلام الواردة في الكتاب

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٨٣	٥	السطر بكامله	يحذف للتكرار	٤٤٠	٩	الدردي	الدردي
٣٨٣	٧	ترميمه	ترميمها	٤٥٥	١٦	وشغالون	وشغالون
٣٨٥	٥	الاحن	الحن	٤٦٠	١	سعوا	سعى
٣٨٦	٣	العاذراتية	الباذراتية	٤٧٢	١٢	أفرداً	أفرداً
٣٨٦	٥	العبورين	السورين	٤٧٣	٦	١٦٦٨ —	١٦٦٨ —
٣٩١	١٠	تواليف	تآليف	١٧٥٣ م		١٧٥٣ م	١٧٥٣ م
٣٩٦	١٦	١٢٢٧ هـ /	١٢٢٧ هـ /	٤٧٣	١٢	١٧٤٢ —	١٧٤٢ —
		١٨٠٢ م	١٨١٢ م			١٨٢٧ م	١٨٢٧ م
٣٩٦	الأخير	واغتمنت	واغتمنت	٤٧٣	١٤	١٢٩٠ هـ	١٢٩٣ هـ
٣٩٧	٢٠	لم تشاهد	لم تشهد	٤٧٦	١٣	١١٠٥ هـ /	١١٠٥ هـ /
٤٠١	٥	الرحال	الرجال			١٧٩٤ م	١٦٩٤ م
٤٠١	٨	إلى تحول	تحول	٤٧٧	٣	١٣٠٢ هـ	١٣٠٥ هـ
٤٠٩	١٠	القلندية	القلندرية	٤٧٧	٤	١٣١١ هـ	١٣١٤ هـ
٤١٣	١١	وذلك قبيل بداية	حذف العبارة	٤٧٨	١	يسمع	يسع
		القرن التاسع	للتكرار	٤٨٠	٥	ناقدي	ناقدي
٤١٩	١٥	١١٥٧ هـ /	١١٥٧ هـ /	٤٨١	٧	استيلاء	استيلاء
		١٧٢٥ م	١٧٤٥ م	٤٨٤	٨	الثيرات	الثيران
٤٢٤	٤	١١٧٥ هـ /	١١٧٥ هـ /	٤٩١	٩	الحشب	الحشب
		١٧٩٣ م	١٧٦٢ م	٤٩٢	٦	١٧٤٩ م	١٧٤٧ م
٤٢٤	٩	كانوا يدعون	كانوا يدعون	٤٩٢	الأخير	أيان	إيان
٤٢٦	٧ حاشية	٦٥٠ هـ /	٥٥٠ هـ /	٤٩٤	٤	والحالة ... بها	حذف السطر
		١١٥٦ م	١١٥٦ م				للتكرار
٤٢٦	الأخير	٦٣٢ هـ /	٦٣٢ هـ /	٤٩٥	١٤	يتشاحون	يتشاحون
	حاشية	١٢٦٢ م	١٢٣٤ م	٤٩٧	٧	١٢٣٨ هـ /	١٢٣٨ هـ /
٤٢٧	٨	القيبات	القيبات	٤٩٧	١٢	الماء الآجن	الماء الآسن
٤٣٣	١٤	١٢٢٥ هـ /	١٢٢٥ هـ /	٤٩٧	١٦	بالأرايبك	بالأرايبك
		١٨٤٠ م	١٨١٠ م	٤٩٧	٢٠	ثلاث اتجاهات	ثلاثة اتجاهات
٤٣٧	١٢	١١٩٨ هـ /	١١٩٨ هـ /	٥٠٠	٦	كاللازور	كاللازور
		١٧٧٤ م —	١٧٨٣ —				
		١٧٧٥ م	١٧٨٤ م	٥٠٠	١٤	شتاءاً	شتاء
٤٣٨	٤	١٢٩٠ هـ /	١٢١٠ هـ /	٥٠٢	٨	لندحر	لندحر
		١٧٩٥ م	١٧٩٥ م	٥٠٢	٨	ويتسكب	وتسكب

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٠٣	٤	البيوت الصباعة	البيوت المباعة	٥٥٢	٦	قرية أو	قرية شخص أو
٥٠٥	٨	هذه	هذا	٥٥٣	٥	الشخصان	شخصان
٥٠٥	١٣	الأورام	الأروام	٥٥٣	١٠	للصوص	لصوص
٥٠٥	١٤	والداقتر دارين	والدقتر دارين	٥٥٣	الأخير	مع الإحن	من الحن
٥٠٦	٤	جورجي	جوريجي	٥٥٣	٢	وجدو — فرجعو وجدوا — فرجعوا	وجدو — فرجعو وجدوا — فرجعوا
٥٠٦	٦	قرش	قرشاً	٥٥٤	٢	١١٨٥ هـ	١١٨٥ هـ /
٥٠٨	٩	إقطاعي	إقطاعي			١٧٧٠	١٧٧٠ —
٥١٠	١٨	على كل	على شكل			١٧٧١ م	١٧٧١ م /
٥١١	٣	الغريبة	الغريبة	٥٥٤	٣	المضرة	المعرة
٥١٢	٤	تبيض القن	تبيض في القن	٥٥٥	٣	وظائف غير	وظائف وغير
٥١٢	٢١	المؤنة	المؤونة			ذلك	ذلك
٥١٣	٥	وأنطاع	وأنطاعاً	٥٥٧	١٧	وحتى خزنها	وخزنها
٥١٣	١٧	لخروج	الخروج	٥٥٩	١٧	إذا	إذ
٥١٤	١٧	وجنودها	وجنودهم	٥٦١	١٨	الفراقين	الفراق
٥١٧	١٥ ، ١٣	مساءً	مساءً	٥٦١	الأخير	والتسبت	والتسبت
٥٢٠	١٥	استضافها أحد	استضافت أحداً	٥٦٣	١٩	المتنفي	مختلفي
٥٢٣	١٦	ونهبوا	ونهبوا	٥٧٦	١٣	المخروطي	مخروطي
٥٢٧	٥	حين اليأس	حين البأس	٥٧٧	١	١٢٤٢ هـ	حذفها للتكرار
٥٢٩	١	ويخصون	ويخصون	٥٨٠	١٧	عبارة من	عبارة عن
٥٢٩	قبل الأخير	يلمس	يلحس	٥٨٦	٢	نواحي	نواح عدة
٥٣١	٣	الأرملة المطلقة	الأرملة أو المطلقة			عدة	
٥٣٩	٣ حاشية	زارو	زاروا	٦٠١	١	فئاتهم	فئاتهم
٥٤١	٥	١١٤٩ هـ /	١١٥٩ هـ /	٦٠٣	١١	١٨٩٤ م /	١٨٩٤ م /
٥٤٤	٢٠	الاصطدام	الاصطدام			١٣١٧ هـ	١٣١٧ هـ
٥٤٦	١٢	على	علي	٦٠٥	١١	حافظ	حافظت
٥٤٧	٢	كالخرفين	كالخرفين	٦٠٦	٦	الفندقية	الفندقية
٥٤٧	٣	طعماً	طمعاً	٦٠٦	الأخير	بسيطة	بسته
٥٤٨	١٠	ذلك عى	ذلك على	٦٢٤	٩	والقرائين	والقرائين
٥٤٨	قبل الأخير	الأوربين	الأوربين	٦٢٥	٢	ويشد إلى	حذف العبارة
٥٤٩	١٨	وتطالعنها	وتطالعنا			أوساطهم	للتكرار
٥٥١	الأخير	ملئ	مليعاً	٦٣١	٤ ، ٣	١٧٩٩ م /	١٧٩٩ م /
٥٥٢	١	والمختلفة	المختلفة			١٢٦٣ —	١٢١٣ —
						١٢٦٤ هـ	١٢١٤ هـ

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٣٥	١٠	كساءاً	كساء	٦٨٣	٩	حاشية	سيتأصل
٦٥٣	٢	ليحظو	ليحظي	٦٨٣	١٣	حاشية	المصدر العربية
٦٥٤	٦	أبو	أو	٦٨٦	١٣		١٧٧٦ —
٦٥٥	٦	ما راتفعت	ما ارتفعت				١٧٧٧ م
٦٥٧	١٤	مسلمون	مسلمو	٦٨٨	١		بأطواخهم —
٦٥٧	١٤	يُقَض	يُنْقَض				الأطواخ
٦٦٠	١٣	وغر عاق	وغر عاق	٦٩٨	٢٠		الشبراوية الطويلة
٦٦٤	١١	الأزكار	الأذكار	٧٠٠	١٠		أهل العرس
٦٦٩	٤ الحاشية	تتناقص العدد	تناقص العدد	٧١٢	الأخير		ونشدان
٦٦٩	٤ الحاشية	الرجالة	الرحالة	٧٢٢	قبل الأخير		الموسقى
٦٦٩	١٣	١٢٢١ —	١٢٢٢ —	٧٢٣	الأخير		١٧٠٤ —
		١٢٢٨ هـ	١٢٣٠ هـ				١٧٥٨ م
٦٧٨	٤	ما بحوزتهم	ما بحوزتهم	٧٣١	١٤		١٣٠٩ هـ /
٦٧٨	١ حاشية	ورحموه	ورحموه				١٨٩٣ م
							١٨٩١ م

مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ
١٧٧٢ - ١٨٤٠ م / يوسف جميل نعيسه. ط. ١ -
دمشق: دار طلاس؛ ١٩٨٦ - ٢ ج. (٨٢٦ ص):
موضح؛ ٢٤ سم.

١ - ٩٥٦١ ن ع ي م ٢ - العنوان ٣ - نعيسه

الجزء الثاني ع - ٤٧٦ / ٥ / ١٩٨٦

موافقة وزارة الإعلام

رقم : ١٢٩٦٩

بتاريخ : ١٩٨٧/٢/٢٢

